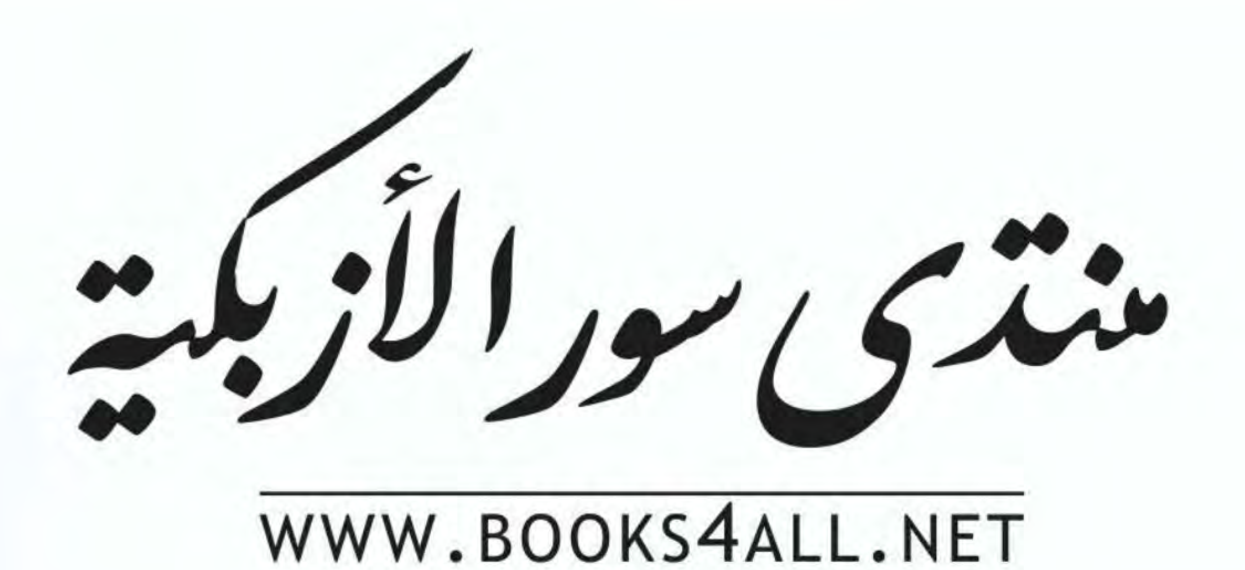




يوسف أبوالفوز



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

تحت سماء القطب!

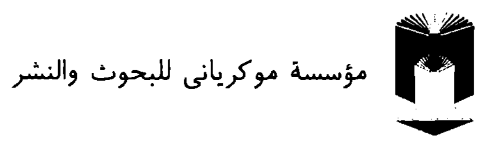
يوسف أبو الفوز

تحت سماء القطب!

رواية



اربيل - ٢٠١٠



● **تحت سماء القطب!**

● تأليف: يوسف أبو الفوز

● التصميم الداخلي: طـه حسين

● الغلاف: مراد بهراميان

● رقم الايداع: (٨٠)

● السعر: (٥٠٠٠) دينار

● الطبعة الاولي : ٢٠١٠

● العدد: (١٠٠٠) نسخة

● المطبعة : مطبعة رۆژهه‌لات (هه‌ولێر)

تسلسل الكتاب (٣٨٣)

الموقع: www.mukiryani.com
ئيميل: info@mukiryani.com

المحتويات

لهم بالتاكيد، بكل الوفاء:

- حبيبتي وصديقتي شادمان: في بدء سنوات زواجنا، تحملتِ وبصبر واع وكبير أخطائي الجسيمة وأوهامي الثقيلة، ولا تزالين تتحملين بصبر عجيب فوضى جنون أفكاري. أن وجودك يا شادمان في حياتي يجعلني اجد نفسي اكثر توازنا كأنسان!
- الشاعر الصديق عبد الكريم هداد: كلما ابتعد عنك تقودني اليك فضاءات قصائدك، وتظل مثلما انت في ترنيمة امك المعطاء... "زغيرون يا بعد اهلنا بفراقك شلون؟"!
- في الشهور الأولى لي في فنلندا، فتح لي باب قلبه وقال بصدق كالنور... "باب بيتي مفتوح لك دائما". الانسان المخلص، الذي لا يتسع له فضاء كلمة صديق، الصحفي كالي كويتنين، وزوجته الطيبة بيرت، وبناتهما الرائعات، آوتي و ئونا ـ وتاليا الحفيدة رونيا ـ: في وحشة المنفى كنتم لي عائلة حقيقة، منحتني الاحساس بالامان!
- في الايام الاولى لي في فنلندا التقيتها. أمرأة فاتنة وعذبة، جادة وطموحة، وقررنا ان نكون اخوين، ولا نزال. اختي الفنلندية، المخرجة التلفزيونية ساتو ماكنين: يجللنا، انا وزوجتي، شرف اختيارك لنا لنكون الوالدين الروحيين لاطفالك الجميلين!
- مدينة كيرافا Kerava الفنلندية، الوادعة والجميلة، أحتظنتني كوطن وجعلتني أردد دوما وبأقتناع: "انا كيرافيّ من العراق"!

الى اين تمضي يا كلكاميش
ان الحياة التي تبحث عنها
لن تجدها.

ملحمة كلكاميش

لقد كنت انا مذكورا
ذائع الصيت في زمني
مطربا في الامسية
مغنيا في كل واد
في وعور فاينولا
في مروج كاليفالا
ولكنني اكاد الان لا اعرفني
لا اعرف نفسي.

ملحمة الكاليفالا الفنلندية

البحث عن المصادفة

في الكثير من الأعمال الأدبية، يبدأ العديد من الكتّاب بعبارات مثل:

ـ " الأسماء والأحداث والشخصيات والأماكن، في هذا الكتاب، هي من نسج الخيال، فأذا وجد أي شبه بين أشخاصها واسمائها، مع اشخاص حقيقيين، او بين أماكنها وأحداثها، وأماكن وأحداث حقيقية، فلن يكون ذلك سوى محض مصادفة.... "

لست اختلف عنهم في هذا، ابدا، فعملي في هذا الكتاب يعتمد وبشكل اساس على خيال الكاتب وقدرته على لم جزيئات واقعية مبعثرة للخروج باحداث وشخصيات، ربما تجد لها شبيها في الواقع المعاش. اؤمن بكون الكاتب في حياته وعمله يشبه المصور حاملا باستمرار كاميرته، يلتقط ـ وبدون استراحة ـ صورا من هنا وهناك، لكل ما تراه عيناه، ويسجل كل ذلك بعدسة كاميرته الابداعية ويخزنه الى وقت الحاجة. وحين يشرع الكاتب بالعمل، لتجسيد افكاره على الورق، ولرسم شخوصه وافكارها والاحداث التي تعيش وسطها، يلجأ الى خزينه من الصور ليأخذ تفصيلا من هنا، وعلامة من هناك، ويعيد رسم الواقع بشكل فني، معتمدا على خياله وقدراته الابداعية، للخروج بحصيلة تحاكي الواقع المعاش.

عند اكتمال المسودة الاولية لهذا الكتاب، ومحاولة مني لمعرفة درجة ملامسة الكتاب لهذا الواقع والاقتراب منه، وفي عملية تشبه البحث عن تلك "المصادفة"، التي يتحدث عنها الكثير من الكتاب، سلمت مخطوط الرواية الى مجموعة من أثني عشر عراقيا، من معارفي، الذين يعيشون في فنلندا، واخترتهم، نساءا ورجالا، بمستويات ثقافية ومهن مختلفة، وصلوا الى فنلندا لاسباب مختلفة وفي اوقات متفاوتة، وعاشوا في مدن متباعدة، واقلهم عاش في فنلندا مدة لا تقل عن ست سنوات، وبعضهم حصل على الجنسية الفنلندية. اختياري لهذه العينة خضع لاعتبارات عشوائية، بحكم علاقاتي الشخصية، وطلبت من الجميع ملاحظاتهم الصريحة، وبدون مجاملات، وبشكل عام على مجمل أحداث وشخصيات الرواية، وكنت حريصا جدا على معرفة إجاباتهم على سؤال محدد وجهته لهم:

ـ هل وجدت شيئا من نفسك، من شخصيتك، من همومك و احلامك في صفحات الرواية؟

- اعتذراثنان من الاخوة العراقيين بأدب ولياقة عن تقديم أي ملاحظة لاسباب تخصهم، واتفهم واحترم ذلك، واعادا المخطوط مع كلمة شكر.
- قاطعني ـ تماما ـ واحد منهم ولم يرد علي بأي كلام، بل وامتنع عن اعادة مسودة الرواية.
- اخر لم يقاطعني فقط بل وصلتني منه بشكل غير مباشر شتائم ثقيلة عبر من تطوع ـ مسرورا ـ لنقل الشتائم حرفيا وبمهارة يحسد عليها،. وبالطبع لا اعرف شيئا عن مصير نسخة المخطوط التي عنده.
- قدم لي اثنان من الاخوة الاعزاء ملاحظات شفوية بسيطة تحمل طابع التشجيع والمجاملة.
- بروح تعاون وتضامن وتفهم كبير وحرص من اجل انجاز هذا الكتاب بأفضل شكل، قدم سبعة من الاخوة والاخوات العراقيين، مشكورين، ملاحظاتهم مكتوبة، واذ اجدها ضرورية ومهمة، اعتبرتها جزءا مهما من فصول هذا الكتاب، ولذلك أقدمها مثلما وصلتني منهم، مع اعادة صياغة لبعضها بالاتفاق مع كتابها، وتصحيحها املائيا ولغويا، وقدموا لي في النهاية موافقتهم على النصوص المنشورة. واذ طلب بعض الاخوة والاخوات ـــ ولاسباب تخصهم ـــ حق الاحتفاظ بسرية أسمائهم فاني التزمت بذلك تماما مع تفهمي الكامل لهذا الحق، واذ فضل البعض الاخر استخدام اسماء مستعارة، اختاروها بانفسهم، فاني ثبت هذه الاسماء امام رسائلهم، مع استئذانهم في الاشارة الى كونها اسماء مستعارة، منعا لاي التباس ومصادفة (!) في الاسماء. وهنا اجدني ملزما على التأكيد كوني اترك الحق كاملا، ولجميع الاخوات والاخوة، الذين حجبوا اسماءهم او استخدموا اسماء مستعارة، اقول اترك لهم ـ ولهم وحدهم ـ الحق كاملا بالتصريح بعائدية هذه الرسائل لهم. ومن جانب اخر اصر البعض من الاخوات والاخوة، الذين كتبوا لي على تثبيت اسمائهم الصريحة، بل ان احدهم وفي روح تحد جميل وطريف خولني حق تثبيت عنوانه ورقم هاتفه لو تطلب الامر.

اشكر الجميع بأمتنان كبير، من ساهم ومن اعتذر، واسامح بروح ديمقراطية من شتم، وابحث عن عذر لمن تجاوز حدود الادب، واكرر جزيل الشكر لمن كتب بشجاعة وعسى ان لا يسبب ذلك لهم، وبأي شكل من الاشكال، احراج ما في المستقبل بعد صدور الكتاب.

❋ ❋ ❋

ومع ما تقدم فأني هنا لا استطيع سوى تكرار وتسجيل فائق شكري وتقديري لجميع الاخوات والاخوة الذين تعاونوا معي لانجازهذا الكتاب وقدموا العون بأشكال وطرق مختلفة، وأقيم جدا صراحتهم وشجاعتهم وملاحظاتهم وأتمنى لهم التوفيق في حياتهم.

- اخص بالذكر والشكر زوجتي العزيزة، فلا يجوز اسدال ستار التجاهل بحكم العلاقة الزوجية، فالامر بالنسبة لها كان اكبر من الواجب الزوجي، حيث وفرت لي اجواء عمل مناسبة لمواصلة الكتابة، وفي ظروف معينة كانت تعاني اكثر مني لانجاز هذا الكتاب، الذي شهد العمل فيه توقفات طويلة لاسباب مختلفة، فكانت عاملا حاسما ومشجعا في مواصلة العمل واكماله.
- ولابد من تقديم الشكر للصديق الباحث في جامعة هلسنكي الدكتور ماركو يونتين، الذي كان من اوائل من اطلعوا على فكرة الكتاب، ثم وبعد ان عرضت عليه اول الصفحات التي كتبت، صار يهتم بمتابعة ما انجز وتطورات العمل ويقدم الملاحظات، ويحثني باكثر من طريقة للتفرغ لانجاز هذا الكتاب.
- واوجه الشكر الجزيل للاعلامي والصديق العزيز رشاد الشلاه، الذي رغم التزاماته الكثيرة، خصص وقتا كافيا للقيام بمراجعة دقيقة للمخطوط وتقديم الملاحظات الفنية واللغوية.
- واشكرباخلاص شديد العاملين في المكتبة العامة لمدينة كيرافا الفنلندية، الذين وهم يقومون بواجبهم، ودون معرفة مسبقة منهم، كانوا عونا مهما وساهموا في تقديم مختلف المساعدات الفنية خلال فترة البحث والاعداد لانجاز هذا الكتاب.

١

الاخت زهراء محسن (اسم مستعار) كتبت:

اكتب هذه السطور بمساعدة ابني، فليس لي امكانية التعبير كما طلب الاخ الكاتب. اتحدث وابني يكتب، مع السماح للاخ الكاتب بتصحيح النص ليكون باسلوب ولغة مناسبة.

اعجبني جدا يا اخي الكاتب كونك تحاول الحديث بصراحة عن حياة العراقيين والاجانب عموما في فنلندا. وكنت اتمنى لو انك خصصت مساحة اكبر لبعض المشاكل الاجتماعية الجديدة التي ظهرت عند العوائل العراقية، مثل التغيرات في العلاقة بين الرجل العراقي والمرأة العراقية والتي حصلت في اوربا بشكل عام وفي فنلندا ايضا. مثلا موضوع الخيانة الزوجية واثار ذلك على المراة العراقية اساسا، وسهولة ممارسة الخيانة الزوجية لدى بعض الرجال العراقيين للاسف. وايضا كنت اتمنى الحديث عن حوادث الطلاق في الاسر العراقية التي انتشرت في بلدان اوربا،

لاسباب عديدة، والدور الخاطئ لبعض المؤسسات الفنلندية في معالجة حوادث الطلاق وما يحصل من اخطاء في الانتصار للمراة حتى وهي على خطأ، ولنا تجربة عائلية تعرض لها احد اقاربنا في فنلندا. وجدت انك تتحدث في كتابك بشكل خفيف عن بعض المشاكل المهمة. يقول لي زوجي ان الرواية ليس مثل المقال الصحفي، ولكنك تحدثت عن مواضيع اخرى عديدة بشكل يكاد يكون تفصيلي. وحول سؤالك عن علاقتي باحداث الكتاب، اقول نعم لقد وجدت نفسي في صفحات الرواية وان بشكل خفيف. اذ لمست هناك شيئا من معاناتي كامرأة عراقية، خصوصا كأم مسؤولة عن تربية بنت مراهقة وصبي، ووجدت شيئا من أفكاري وان وردت على لسان رجال. ولكنني أيضا وجدت وبشكل واضح اشياء كثيرة من سلوك زوجي، عند بعض الشخصيات في الكتاب، حتى اني اعتقد انك وزعت شيئا من سلوك زوجي على اكثر من شخصية. فهناك عبارات في الرواية تعود له تماما، وفي البيت نحن نعرفها لكثرة ما يرددها، واعتقد انك سمعتها منه، وأخذتها ولكنك وضعتها على لسان اخرين لا يشبهونه تماما. ايضا تعرفت في كتابك الى بعض الشخصيات التي تتطابق في سلوكها مع اسماء نعرفها، والتي جعلتنا في حيرة، اذ لم نكن نتصور ان لها هذه التفاصيل الخافية عن الاخرين، فيما اذا كانت صحيحة وليست خيالية. وعاشت يديك لانك كشفتها وفضحتها لنا، سواء ان كانت حقيقية او خيالية.



الاخ حسن كاظم عبد الله (اسم مستعار) كتب:

(بسم الله الرحمن الرحيم. وقل ربي زدني علما. صدق الله العظيم).

سؤالك كان محرجا لي بعض الشئ. اعترف بهذا، فالامر اشبه بكشف المستور عن نفسي والاخرين، وربما هذا السبب الذي جعل البعض مثلما عرفت يعتذرون منك ولا يتجاوبون مع سؤالك، ولكني وقبل قراءة مسودة الرواية عبرت لك عن اعجابي بصراحتك وديمقراطيتك، رغم كوني اختلف معك سياسيا وفكريا في امور عديدة. في ما قرأت لم اجد نفسي تحديدا، مثلما تفضلت وسألت يا اخي الكريم، لكن ثمة مواقف لو حدثت لي ربما سأتصرف بذات الشكل الذي ورد في مسودة الرواية. اعتقد يا عزيزي انك وربما بحكم أفكارك السياسية تغالي قليلا في الحكم على بعض الظواهر والشخصيات وتحاول احيانا تقديم صورة ايجابية لمن هم يشاركونك الأفكار وتنسى انهم بشر مثلنا. بل واسمح لي بالقول انك اوقعت ظلما ببعض الشخصيات، من التي اجد لها شبها في واقعنا اليومي، وبدا لي انك حاولت الاهتمام بنفسية الفنلنديين وردود فعلهم

اكثر من اهتمامك بالعراقيين، وقدمتهم ايجابيين تماما، بل والى حد ما يمكني القول، وارجو ان لا أظلمك بهذا، انك حاولت ان تستعرض لنا وبشكل ما خبرتك بالحياة الفنلندية ومعلوماتك، وايضا أكثرت من مشاهد الجنس والمواعظ الأخلاقية.

بالنسبة لي لم تكن حيلك بارعة جدا لاخفاء مصادر شخصياتك، لقد تعرفت على مصادر بعضها. لم يكن ذلك صعبا لي ربما لكوني عشت في وسطها واحتككت بها، ولكني اعترف بمهارتك بتوريطهم بمواقف ستجعلهم طول العمر يترددون في الكشف عن علاقتهم المباشرة بهذه الرواية، وباعتقادي هذا من الأسباب التي جعلت (....)، وبعد قراءته لمسودة الرواية، يشتمك في مكان عام، وقيل لي أيضا انه هددك عبر وسطاء تبرعوا في نقل الشتيمة والتهديد. يا للسخرية! وهذا الأمر يدفعني لسؤالك يا اخي الكاتب الكريم: يا ترى الا تخشى المشاكل على نفسك؟ يعني الم تفكر بأن ما فعلت في كتابك، ربما يعرضك حتى الى اعتداءات مباشرة، خاصة وان بعض هؤلاء يمتازون بالشراسة وارتباطاتهم العائلية وسلوكهم العشائري الذي نقلوه معهم الى اوربا، كما نعرفهم ولذلك نتجنبهم، وان لم تعكس ذلك عنهم في روايتك؟

٣

الاخ الطبيب "زرداشت" كتب:

(وصل النص مرفقا مع رسالة الكترونية "ايميل " رقيقة توضح عدم امتلاك الاخ حروف عربية لذا لجا للكتابة باللغة الانكليزية، وبعد الترجمة قرأ النص المكتوب باللغة العربية بالهاتف على الاخ الطبيب "زەردەشت" فابدى موافقته الكاملة)

عندما قَرأتُ مخطوطة الروايةَ، كُنْتُ مسرورا جداً بسبب الإيقاع الجذابِ والسريع الذي كتبت به الرواية. وبسبب الصداقةِ مَع المُؤلفِ، فربما يمكن لي ان أفْهم هذه الروايةِ وخلفياتها أفضل مِنْ الآخرين، واجد عند المُؤلف اسلوبا رائعا لتجميع القصص وتوليفها ورواياتها باتساق واحد.

وكنت سعيدا في مرات عديدة، اذ اجد نفسي بشكل مباشر وارى افكار بعض شخصيات الرواية قريبة الى افكاري.

امر صحي جدا للمجتمع والثقافةِ الكورديةِ ان يُحلّلَ مِن قِبل شخص ما مِنْ ثقافةِ أخرى وان يسلط الضوء على بعض الظواهر واساليب الحياة، وهذه الروايةِ تبدو لي تَتحدّثُ عن الأكراد أكثر مِنْ العربَ في المنفى.

وكشخص كردي، ومن معرفتي للمجتمع الذي عشت فيه، يمكن القول ان صديقي المؤلف استخدم موضوعين قد يعطيان انطباعا خاطئا عن الثقافة الكردية.

اولا: موضوع ختان النساء، ان ربط ذلك بالثقافة الكردية ربما سيعممه القارئ وخصوصا الاجنبي ويعتبره جزء من الثقافة الكردية، وهو ليس كذلك.

ثانيا:جريمة الشرف هنا ايضا القارئ ربما يفكر انها جزء من الثقافة الكردية، وان كانت هناك حوادث فردية. من المهم الاشارة، الى ان المراة في المجتمع الكردي حرة نسبيا مقارنة مع نساء المجتمعات الاخرى حيث يكون الدين الاسلامي هو المهيمن. المرأة الكردية خلال التاريخ صارت زعيمة، ورئيسة لتجمعات ثقافية وقبلية واجتماعية سياسية، عملت مع الرجل جنبا الى جنب، ولا تستعمل الحجاب، وتدبك جنبا الى جنب مع الرجل في الاحتفالات والمناسبات، وحملت السلاح في الثورات والانتفاضات سوية مع قوات "البيشمركة" (الفدائيون الاكراد). ان النساء الكرديات حققن كل ذلك برغم ان المجتمع يرزح تحت الدين الاسلامي منذ ١٤٠٠ سنة، وهذا دليل على مكانة ودور المراة الكردية.

٤

الاخت لمياء عبد الرحمن، كتبت:

اكتب مع السماح للكاتب بأعادة صياغة النص بشكل لا يغير في افكاره الاساسية.

هذه السطور الصريحة جدا التي اكتبها ربما تسبب زعل زوجي، الذي اعرف انه ورغم علاقته الطيبة مع الكاتب الا نه اعتذر عن الكتابة. حين سألته عن السبب قال: الاخ الكاتب اشترط الصراحة، وقال انه سيرفض كلمات المجاملة، وعليه لا اريد مشاكل مع الناس، ولا مع نفسي.

ما قاله زوجي وضعني في مشكلة! هل اقول للكاتب: عاشت يدك؟ رواية جميلة؟ ربما يرفض ما اقول لانه يظنه مجاملة، ولكن هذه الحقيقة، فأنا اول مرة اقرأ كتابا بهذا الحجم والعمق عن حياة العراقيين في اوربا. ربما هناك كتب اخرى صدرت، وربما تكون افضل من هذا الكتاب، ولكن ما بين يدي الان يجعلني اصفق بشدة للكاتب واتوقع له النجاح الكبير.

من خلال علاقتنا العائلية مع الكاتب، ورصدنا لاسلوبه في الحياة وعلاقته بالاخرين، صرت افهم سر ولعه بتكرار توجيه الكثير من الاسئلة للاخرين عن حياتهم وعلاقاتهم في فنلندا، ويكرر ذات الاسئلة للنساء. انه يسأل احيانا اسئلة تبدو عادية للبعض، وفيها بعض الفضول، ولكني الان واذ اعيد تقليب نصوص الرواية صرت افهم كيف يقود النقاش

ليطرح اسئلته تلك وليحصل على جواب ما لفهم حالة انسانية، ليساعده ذلك في رسم شخصياته خصوصا النسائية. استطيع القول ان قراءة مخطوط الرواية اعطاني صورة عن كيفية تمكن بعض الكتاب من رسم شخصياتهم. لقد مرت علاقتي مع زوجي بفترات توتر عديدة، وصارت الان جزءا من التاريخ، خصوصا مع انشغالنا بالاولاد الذين رزقنا بهم، وحين اتابع علاقة احد شخصياته النسائية مع زوجها، اجد ان الكتاب "اختلس" شيئا من معاناتي وافكاري بل وبعض اقوالي ومررها هنا وهناك بشكل ليس من الصعب على اكتشافه، وان كنت لاعاني ذات التفاصيل من المشاكل التي تعاني منها الشخصية المعنية في مخطوط الرواية. افرحني ذلك جدا، واسعدني وان كان اغضب زوجي. الكاتب هنا ليس مجرد كاشف لاحداث وانما داع لنبذ السلبي والخاطئ منها. ان الكاتب معلم، والمعلم رسول، والرسول يحمل رسالة لهداية البشر.

٥

الاخ سالم غفور كتب:

(كتب هذا النص استنادا الى تسجيل لنقاش تواصل على عدة جلسات وبشكل اساس مع الاخ سالم غفور، وساهمت فيه زوجته السيدة رباب خليل، وبعد اعداد مختصرات منه وافق الاخ سالم غفور ان يظهر باسمه المستعار الذي ظهر فيه خلال نص مخطود الرواية)

شئ رائع ان تقرا نصا كهذا وتجد ان الكاتب نثر فيه شخصيات ووقائع حقيقية، ولكن من الصعب الامساك بها وسط كثرة الحوادث المتخيلة.

لم اجد نفسي كشخصية اساسية، بل وجدت نفسي مثل كومبارس في فيلم، فقد وضعني الكاتب هنا وهناك، ولكن ما لفت انتباهي واعجبني هو ان بعض من افكاري وسجالات خضتها مع بعض المعارف، وجدتها في المخطوط وكأن الكاتب سجلها فورا وفي زمن حدوثها.

اتعبني في الصفحات الاولى من مخطوط الرواية كثرة الاسماء، ولكن مع التقدم في القراءة بدت تتوضح لي الشخصيات، بحيث صرت حين اقرأ حوارا اعرف من هما المتحدثان. فلا يمكن عدم التعرف الى لغة بعض الشخصيات الطريفة والساحرة. اعجبتني حياة احد الشخصيات العابثة، لحد تمنيت ان اعيش بعض من تفاصيلها.

الشخصيات الكردية في الرواية كثيرة، لحد ربما تجعلك تقول انها رواية كردية. واذا تابعنا بقية الشخصيات العربية من العراق والى جانبها الشخصيات الفنلندية، والكردية فمن الصعب

نسبتها الى اي طرف، لست ناقدا ولكني كقارئ متابع، ربما يمكن القول انها رواية كردية - فنلندية - عربية.

واذا اعتبرناها رواية فنلندية، فعلى وزارة السياحة الفنلندية ان توظف عندها كاتب الرواية لانه قدم صورة رائعة للعاصمة الفنلندية وللثقافة الفنلندية.

اكاد اعتقد ان غضب الكاتب من الظواهر السلبية في مجتمعاتنا الشرقية، تجعله يدين تلك الظواهر بقوة، ولهذا قدم بعض الشخصيات ضحية ومظلومة، وطيبة وجميلة وايجابية، ولكننا لم نر منها جانبا سلبيا، وهو المؤمن بكون الانسان متعدد الاوجه. وانا اتفق معه ان الحوادث السلبية حتى لو كانت فردية يجب ادانتها حتى لا تتحول الى ظواهر، فكيف اذا تكررت مثل جرائم الشرف؟

والامر نفسه يمكن قوله عن ختان النساء، فهو ربما اصبح حوادث فردية في بعض القرى الكردية، وتكاد تنقرض من مدن كردستان العراق، ولدعم ما ذهب اليه الكاتب يمكن القول ان هناك صديقة لزوجتي، تعيش هنا في فنلندا، اعرف انها مختونة، وتعاني من ذلك، وهي بعمر احدى الشخصيات التي وردت في مخطوط الرواية، وهذا الامر جعلني اطلب من الكاتب التكتم على اسمي حتى لا اسبب حرجا لهذه السيدة لانه سيصير ممكنا التعرف اليها لو ذكرت اسمي الصريح امام هذه الملاحظات.

لست متعصبا الى ثقافة شعبي الكردي، رغم كل احترامي الشديد لها، ولهذا لا يمكن نكران حقيقة ما اشار اليه الكاتب من حوادث سلبية او ظواهر. لا يوجد مجتمع نقي، ولا يمكن نكران تلك الردة الاجتماعية التي يعانيها المجتمع الكردي في السنوات الاخيرة، وكمثال ظاهرة انتشار حجاب النساء في المجتمع الكردي وجرائم الشرف وحوادث الانتحار بين النساء، رغم ان مجتمعنا الكردي عرف دورا بارزا وحضورا متميزا للمرأة الكردية عبر التأريخ.

كوني عاملا في مجال التعليم، فهمت جيدا مقاصد الكاتب في روايته، وتلمست مصادر شخصياته، وكنت آمل منه ان يسلط مزيدا من الضوء على هذا القطاع التربوي، لانه على تماس مع العائلة الشرقية في فنلندا. ايضا اعتقد ان الكاتب اهمل تسليط الضوء على قطاع الترجمة، فمن هذا القطاع كان يمكن له ان يقدم الكثير من التفاصيل عن حياة العراقيين في فنلندا.

٦

السيدة شادمان علي، قالت:

اكتب مع السماح للكاتب بأعادة صياغة النص بشكل لا يغير في افكاره الاساسية.

حين استلمت مسودة هذا الكتاب انتابني خوف غيرعادي. اذ كنت على علم مسبق ان ثمة صفحات في هذا الكتاب تتناول جزءا من قصة حياتي الحقيقية، وتتحدث عن ذلك بشكل واضح بل وبالاسماء الصريحة، وقد اعطيت موافقتي على استخدام اسمي في الرواية. وقد حدثني الكاتب عن ذلك وشرح لي فكرة الكتاب وهدفه واسلوبه، وذكر بأنه ضمن سياق الرواية واحداثها التي رسمها خياله ككاتب، سيقوم بنشر بعضا من القصص والاحداث الواقعية، والى جانب ابطال الرواية الذين صنعهم خياله سيجعل بعض الاسماء الواقعية تمر في بعض المشاهد، مثلما يفعل مخرجو السينما بوضع مشاهد وثائقية في افلام لقصص متخيلة، ومن الايام الاولى لعمله في الكتاب تحدثنا في ذلك مطولا. واذ ابديت موافقتي فاني في حينها نبهته ومباشرة الى اني لا احب ان يدفعه ـ مثلما يسميه ـ "شرط الكتابة" الى الحديث عن خصوصياتي الانسانية، التي اطلع عليها بحكم علاقتنا الحميمة. وبدوره اشار في وقتها الى انه سيتناول جانبا معينا ومحددا ولا داعي لاي خوف. ومع ذلك كنت خائفة، وذلك بحكم معايشتي المباشرة للكاتب صرت اعرف منه شخصيته كأنسان جيدا، ولكن شخصيته ككاتب لإانها تحتفظ بمساحات خاصة به تماما، ولا يمكن لاي انسان الحدس بها مهما كان مستوى علاقته بالكاتب، ولا اريد هنا ان ابدو وكأني اقوم بدعاية للكاتب وشخصه وعمله الادبي، لكني اعتقد ان قربي منه جعلني اعرفه جيدا كأنسان. ان شخصية الانسان عنده قريبة جدا الى شخصية الكاتب، ولا يوجد ثمة فواصل كبيرة بينهما، ولكن فعل الكتابة لديه ومن خلال ملاحظتي يمنحه شجاعة اكثر من المعتاد، ولذلك اجده في كتاباته صريحا وعميقا الى درجة القسوة احيانا حتى مع نفسه. اذكر انه كرر امامي ولعدة مرات: "ان شخصية الأنسان في الكاتب، ولعوامل انسانية عديدة، ربما يمكن ان تكذب بشكل ما، لكن لا يمكن لشخصية الكاتب في الكاتب فعل ذلك، ان ما يبدو كذبا وخيالا من قبل الكاتب هو خلاصة الصراحة". وهذا كان واحدا من أسباب خوفي عند قراءة المخطوطة. كيف سيعرض شخصيتي خلال كتابه؟ انا انسانة مثل غيري، ولي هفواتي واخطائي وحسناتي وايجابياتي، فهل سيفرض عليه "شرط الكتابة "تناول امورا حميمة في حياتي لا اريد لاحد الاطلاع عليها؟ هل سيضعني تحت الجهر ويكشف تلك الهفوات التي ربما لم انتبه لها في حياتي في علاقتي بالاخرين؟ فكرت باني

ساطلب منه تغيير الاسماء فورا لو وجدت شيئا من هذا القبيل، ولكني خلال قراءتي لصفحات مسودة الكتاب وجدت انه تعامل مع ما يخصني وفق شهادتي عن مجزرة مدينة حلبجة، وحاول توظيفها بأجتهاده لصالح الرواية، وهذا جعلني اشعر بالارتياح واخرج من دائرة الخوف التي وضعني فيها طيلة الفترة الطويلة التي كان يغلق الباب على نفسه ويحاور نفسه وابطال كتابه. اما ما تناثر هنا وهناك في صفحات الرواية من تفاصيل ناعمة تخصني، ولم يكن صعبا عليّ اكتشافها، فهذا لم يغيظني بقدر ما جعلني اكتشف اشياء لا اعرفها في نفسي. وباكثر صراحة انه جعلني اشعر بالغيرة احيانا لكونه نسب سلوكا ما يخصني واعتز به لامراة لا اعرفها وربما هي من نسيج خياله! اني هنا اتحدث عن بعض التفاصيل الناعمة اجدها تعود لي ولكنه نقلها والصقها بآخرين سواء كانوا رجال او نساء. وهذا ما عزز عندي انه فعل هذا الامر مع اغلب الشخوص الذين تناولهم. يمكن القول رغم انه يخسر دائما في لعبة الشطرنج مع الكومبيوتر، الا انه على صفحات الورق حرك قطعه بحذر وذكاء ليكسب لعبة كتابة رواية جيدة من وجهة نظري. وما سرني حقا هو شعوري باني ساعدته بشكل ولو بسيط في انجاز هذا الكتاب. كنت اتابع معه تطور احداث الرواية، وكنت ارى حزنه وغضبه وفرحه وحتى دموعه ارتباطا بتطورات الكتابة، وربما من الضروري القول هنا للكاتب انه التزم بوعده لي وانجز عملا يستحق القراءة والتثمين وجلب المزيد من المعجبين والمعجبات.



الاخ (...) كتب:

كنت دوما اعتبرك صديقي، وان بقيت من جانبك دوما تعتبرني من " معارفـ " ـك، حسب تصنيفاتك وقاموسك الخاص، وانا اعرف ماذا تعني حين تقول وتكتب بان فلان "صديق " وعلان من " المعارف"، فليكن... أنا بالنسبة لك لست اكثر من "معرفة "، الحمد لله لم اكن " نكرة "! لكنك يا صديقي العزيز ـ اقول صديقي رغما عنك ـ، واقولها بقناعة فأنا اعتز جدا بعلاقتي بك، اقول لم ترحم هذا "المعرفة" في صفحات روايتك. نعم، فمن أول صفحات الرواية عرفت حقيقة من هو بطلك الذي يشبهني! واقول انك لم ترحمني، لانك لاحقت هذه الشخصية بشئ ما من القسوة رغم ان علاقتنا كـ " معارف " ودية، لكنك يا صديقي قدمت هذا الشخص في صفحات من عملك وكأنه شاذ اومهرج او حتى كنذل او كلها في ان واحد، وان حاولت موازنة ذلك بشحنه بقليل من الفلسفة والمرح. لا اعني بملاحظاتي وهذا الرأي اني اتحدث

عن سلوكك كأنسان، أني هنا اتحدث عن شخصية الكاتب وكيف تناول شخصية الشاب العابث و شرّحها و"شرشحها" امام الناس.

أنا الشخص المدعو في الرواية: نوري شناوة!

لست اخاف من التصريح بهذا. اعرف انك وكما اخبرتني سوف ترفع اسمي (الصريح) من رسالتي فيما لو نشرتها ضمن مادة الكتاب، فاعترافي هذا ربما يفسد عليك لعبتك القصصية، فانت تريد، وكما تصرح دائما جعل قارئك يساهم في كتابة النص بشكل ما، وتمنحه الفرصة للبحث عن الاجوبة الصحيحة للاسئلة التي يثيرها نصك. لا ازال احتفظ بالتسجيل الصوتي الكامل لمحاضرتك الممتعة في جامعة هلسنكي، قلت فيها بالنص:

ـ لا اسعى لتقديم اجوبة جاهزة للقارئ، انا اكتب لقارئ ذكي، يفهمني، واحاول مساعدته في الحصول على اسئلة جديدة.

ولكن انا انسان يا اخي الكاتب. انسان مثلك ومثل مصادر روايتك والتي كان من السهولة لي التعرف على بعضها. لي احاسيس، ولي خيبات والام وآمال واحلام ووجهات نظر لا تلتقي بالضرورة كلها مع وجهات نظرك والاخرين، بل واتعارض معكم في احيان كثيرة، ولكن هناك ما يجمعنا. وانا معجب كثيرا بشخصيتك كأنسان يا اخي، لا اخفي هذا، واقرأ بود كتاباتك الصحفية والقصصية وارى كيف انك معني بجد بالجرح الانساني والعراقي تحديدا. قدمت لي مسودة روايتك وطلبت ملاحظاتي بصراحة، واكدت في حديثك على كلمة "الصراحة"، وها اني احاول، وارجو احتمال صراحتي.

في مواعظك، في سطور الرواية، تبدو لي معتدا بنفسك الى درجة تبدو فيها شيئ من الغرور، رغم معرفتي بأن هذا ليس من صفاتك الشخصية في تعاملك اليومي مع الناس. هنا، و ما دمت انت مغرم بالأسئلة، يبرز عندي سؤال: ايكون الكاتب في سلوكه ومشاعره وعواطفه على الورق غير ما هو عليه بين الناس؟ أذ وجدت شيئا اخر غير صديقي، الذي يلومني، ويغضب مني، ويسخر مني، ويسامحني في حياتنا التي نعيشها كبشر. انك في روايتك تمسك بيد بسوط لتجلدني به وباليد الاخرى تمسك بندقية جاهزة للاطلاق لاعدامي! الا ترى بأنك كأنسان ايضا ارتكبت اخطاءا ما في حياتك، ولا ندري ربما بعضها يستحق معرفته، وكشفه لنا بشكل معين، في قصة او مقال او ندوة؟ اراك بكل بسهولة جردتني من صفات واضفت لي صفات، لا ارغبها بل واكره بعضها. مثلا: لماذا يا ترى جردتني من محاولاتي في كتابة الشعر؟ (ما عدا اشارة خفيفة جدا لا تكاد تلحظ في احد الحوارات) كنت صادقا اتمنى انك ستضمن

بعض من كتاباتي في روايتك، ربما لتضفي على الشخصية طابعا رومانسيا، فانا اعرف انك حصلت على بعض من محاولاتي الشعرية من خلال الاخ "س ..." الذي كلفته بالسعي للحصول على كتابات قديمة لي، خاصة في الايام الاولى لوصولي الى فنلندا. لماذا هذه الاستدارة الطويلة في بلوغ الهدف؟ لم لم تسألني مباشرة؟ اعرف جوابك، اذ انك تخشى الظن بأنك تدس نفسك في شؤوني الشخصية، اليس كذلك؟ ولكن بشرفك وبروح امك التي تقسم بها دائما، بعد نشر الرواية ومعرفة البعض للمصدرالاساسي لشخصية نوري شناوة ـ وهذا سيحصل عاجلا ام اجلا، ماذا سيكون موقفي مع فلان او علان (ربما تريدني هنا القول مع فلانه وعلانه حتى تنجح في شد انتباه القارئ!)، ماذا تسمى هذا الامر؟ اتظن اني ساتحول الى مادة للاحاديث والاقاويل، وقد يتسرب ذلك الى صحف المساء في فنلندا، ويجلب ذلك لك الشهرة وتظهر صورتك في الجرائد وانت تمسك بيدك كتابا ثخينا كما هي المرة الاولى التي قابلتك فيها وتعرفت عليك؟ ولكن قد يظهر صحفي بارع ـ وما اكثرهم في هذه البلاد ـ واذا بصورتي تظهرالى جانب صورتك. ماذا سيكون موقفك؟ ماذا ستفعل، لو في لحظة جنون اتصلت بصحفي باحث عن الاسرار وكشفت له شخصيتي وبعض مصادر روايتك؟ اعود الى القصائد. بعد حصولك عليها، لم يخطر ببالك باني ارسلتها لك بنفسي مع طلب ورجاء من الاخ "س..." بعدم كشف ذلك لك، ولو باشارة ما. لم اكن اعرف غايتك الاساسية من طلبها رغم كوني خمنت شيئا ما. وبعد قراءة المخطوطة شعرت بالحزن لانك وللاسف لم تضمن كتابك شيئا من القصائد. اتراني غير مؤهل لكتابة الشعر؟ هل هو حكر على فئة من الناس ام ترى ان شخصية نوري شناوة غير مؤهلة لكتابة الشعر؟ اتريده ان يظل في ذهن قرائك مجرد "بلاي بوي" يحمل قضيبه على كتفه ويدور في المراقص يبحث عن فخذين ليلاعبهما الليل كله؟ اسئلة عديدة في البال. ستتسائل: كيف عرفت بمحاولتك الحصول على قصائدي؟ اطمأن ان "س ..." انسان كتوم جدا وهو يحترم علاقاته، ولم يكن هو الذي كشف لي الامر، ولاقل بصراحة ان ثمة طرفا ثالثا ـ ربما ينفع كتابك اذا ادخلت تعديلات على النص ـ اذ اقول لك انه كان امراة، وهي من نقلت الامر لي دون ان تدري انها تكشف اهتمامك الخاص بي. اذكر ان في شقتك الاولى حيث زرتك هناك مرارا ـ لمست شيئا من اجواء هذه الشقة في روايتك ـ كان ثمة خارطة كبيرة لفنلندا، وهناك اشارة باللون الاحمر على شكل قلب حول مدينة سكنك الحالية (كيرافا)، قلت لي يومها ان زائرة لك رسمتها بأحمر الشفاه... ان كنت لا تزال تحتفظ بهذه الخارطة انظر اليها جيدا ياصديقي؟ ان خارطة فنلندا كثيرة الاستدارات وطولية نسبيا وتبدو مثل ثمرة الكمثرى، واذا تلبست شخصية نوري شناوة

وتعبيراته ـ كما رسمتها انت في كتابك ـ فيمكنني القول لك انها تبدو مثل...! (ها ...ها... ها)، الحياة كذلك ياصديقي، كثيرة الاستدارات وشهية مثل فاكهة طازجة، وكان عليك ان ترحمني قليلا، لاني لست اكثر من رجل يحب الحياة. المهم الان ورغم بعض عدم الرضا في روحي، لاني كنت اطمح لاشياء اخرى، فيجب الاعتراف انك انسان شجاع، وروايتك بحد ذاتها عمل شجاع، ولكن ثمة تساؤل ارميه امامك: من سيكتب لنا عن حياتك وهفواتك واخطائك ان لم تكتب انت وتجلد نفسك كي نهيئ بدورنا بنادقنا لك! لست خائفا من ذكر اسمي الحقيقي، فكثيرون، داخل فنلندا وخارجها، سيعرفون يوما ما انك تقصدني بشخصية نوري شناوة، اذ اعتقد ان ثورة الاتصالات لم تحدث الا لتعزيز مهنة القال والقيل ليزدهر سوق النميمة بين "صنف" من الناس يعيشون في المنفى.

يا كاتبي وصديقي العزيز... كلنا نوري شناوة!

في المخطوط الذي قرأته، واذا لم تجر تغيرات جوهرية عليه عند النشر، فاني استطيع الاشارة الى احداث وتفاصيل سوف تلتصق بي، ولا تربطني بها صلة، واعرف بعض ابطالها فهم يعيشون حولنا ويقاسمونا همومنا واحلامنا، وثمة احداث وتفاصيل نعرف لمن تعود تحديدا لكنك الصقتها بأناس غيرهم. افهم ان ضرورة العمل الفني ولرسم الشخصية المناسبة جعلتك تولف بيني وبين اخرين. اعرف انك لا تكتب قصة حياتي او سيرتي الشخصية، ولكنك تقتنص من حياتي وشخصيتي الكثير، بل وحتى اسم الشخصية انت نحته من اسمي الكامل بشكل قد يقود القراء ـ الاذكياء ـ الى اسمي الحقيقي. ليس لي هنا سوى العثور لك على التبريرات، فلست ناقما، ولكني لست فرحا ايضا، كان بودي الجلوس معك والمناقشة بالصراحة التي تدعو اليها حول كل شئ ورد في النص، ولكني ادرك جيدا سبب تحفظك في هذا الامر، فانت تخشى ان نقاشنا قد يفسد النص فيما لو تدخلت وطالبت باجراء تغيرات ما. حسنا رغم كوني لا اوافقك هذا الرأي لاني افهم ان النص هو نصك، ونوري شناوة على كل حال انت صاحبه وانت خالقه، لكن يبقى فيه الكثير مني، وهذا يجعلني اشعر بارتبط كبير معه. ربما اكثر منك. اعرف ان خيال الكاتب تدخل في صنع تفاصيل وأحداث كثيرة في هذه الرواية، وانك ببراعة زخرفت روايتك بالكثير من الحقائق المعروفة للكثيرين، وادرك انك لا تميل لكتابة كتاب فضائحي فاهدافك ككاتب تظل أهدافا نبيلة من اجل حياة افضل للناس، كل الناس، ولا يمكن لي تجاوز هذه الحقيقة.

القسم الاول

الفصل الاول

١

ـ Perkele

ـ Vittu

ـ Saatana[1]

ـ تف عليكم وعلى الحكومة التي جلبتكم وملأت بلادنا بوجوهكم وأوساخكم.

كمن لطم على وجهه غفلة، من يد وهمية، بوغت كريم مطرود. التفت واجف القلب،مستفزا، متهيئا لاي احتمال اخر. وهو يحسب ان سيل السباب الذي يتصاعد من مقدمة الحافلة يقصده مباشرة. في نفس الوقت، تلقائيا، اشتعلت في رأسه اضوية فسفورية، ساطعة. هاجمه دوار. غامت الصور امامه. راح يسبح وسط دخان ازرق داكن... داكن. ملئت المكان رائحة عفنة...عفنة... لمع سن ذهبي أمامه... تناهى اليه صوت طقطقة اصابع... جعله يكز على اسنانه بقوة... ويسحب شهيقا قويا. فتح عينيه على سعتهما، متماسكا. تملى ثلاث من الصبية. ولدان وفتاة. الفتاة ببنطلون من الجلد الاسود، التصق بجسدها كأنه جلدها فراح يفضح كل تفاصيله الفتية، لحد من الممكن تبين ثنايا وحزوز اماكن حساسة في جسدها. احد الاولاد بملابسه الصارخة والمتنافرة الألوان يبدو مهرجا فاشلا في سيرك وهو يتعثر في مشيته. بينما الاخر، الحليق الرأس، بجاكيته الجلدي، الذي لا لون له، مثقلا صدره بالحلق والسلاسل. الجميع يتحركون الى اخر الحافلة مواصلين السباب والشتم وبنبرات غاضبة. لم يكتفوا بما حواه القاموس الفنلندي من كلمات، راحوا يستعرضون مهاراتهم باللغة الإنكليزية بجمل جاهزة محفوظة عن الأفلام الأمريكية، التي يقدمها التلفزيون بسخاء. لم تكن الحافلة مزدحمة، رغم ان الوقت اول المساء، واليوم هو الجمعة حيث يسهر غالبية الناس خارج منازلهم. يعتبر شاخوان مصطفى يوم الجمعة هو يوم السعد في هذه البلاد. ربما لان حركة الزبائن في مطعمه تشتد مساء الجمعة وعطلة الاسبوع. نوري شناوة يعتبر مساء يوم الجمعة هو اليوم الذي يجب تسجيله في كتب

الارقام القياسية ففيه يسجل اكبر رقم لعدد السيقان التي ترتفع في الهواء. ويرى فوزي عطية في مساء الجمعة فرصة للقاء الناس وانجازالاجتماعات السياسية، وزيارة عدد من الغرف الصوتية في شبكة الانترنيت ليلتقي الاصدقاء المنتشرين في المنافي، في كل بقاع العالم، ومتابعة التطورات والاخبار. كان هناك الكثير من الأماكن الشاغرة في الحافلة، وبإمكان الفتية الغاضبين الجلوس في أي منها. تسائل كريم مع نفسه:

ـ لكن لم هم غاضبين؟ ولم كل هذه الشتائم؟

لاحظ كريم مطرود شابا صوماليا يقف الى جانب مقصورة السائق. نحيفا مثل قلم رصاص. مرتبكا، ويبدو عجلا. يمسك بيده ورقة، ويسأل سائق الحافلة عن عنوان ما بلغة فنلندية واضحة النبرات، وان بجمل متعثرة بالخجل:

ـ هل يتطلب ذلك مني تغيير الحافلة؟

كان سائق الحافلة، امرأة خمسينية. شعرها مصبوغ بلون اقرب الى الاحمر يمنحها مظهرا اكثر شبابا، وتجيب على الشاب الصومالي باهتمام واحترام. الشاب الصومالي، ودونما يقصد، وبحقيبته القماشية الكبيرة الحجم نوعا ما، يقف معترضا طريق دخول ومرور الركاب. ترى ألم يكن بامكان مجموعة الشباب الغاضبين، ومثل غيرهم، الانتظار بضع دقائق لحد انهاء الشاب الصومالي استفساره؟ وحتى لو كانوا عجلين، أما كان بإمكانهم الاستئذان منه والمرور بهدوء واحترام للنفس؟ لم كل هذه الشتائم المقذعة والسباب الذي لا يعكس سوى الوضاعة؟ لربما تصوروه اللاجئ الصومالي الذي يغني عنه "ميكو بيركويلا"[٢]، وكيف ان العنصريين يتصورونه سببا لكل مشاكل وازمات المواطن الفنلندي، حتى الفشل في مضاجعة الشريك؟ لم يهتم كريم الى سوقية سباب المجموعة، لكنه تلقائيا راح يتملى وجوه الركاب، ليرى ردود افعالهم. عن هذا الموضوع سبق وتحدث عدة مرات مع "باولينا". ركاب الحافلة بدى بعضهم مشغولا بكتاب بين كفيه. هذا مظهر حضاري ظل كريم يحسد عليه الفنلنديين دائما ويتحدث عنه في اكثر من مناسبة. لكن عدد كبير منهم بدى مشغولا بهاتفه المحمول غير دار بما يجري حوله. كأن هذا الجهاز سحر الناس في كل العالم، وخصوصا الفنلنديين، الذين تقوم على اراضيهم واحدة من اشهر شركاته، وتميزوا باقتنائه واستخدامه وهم الذين عرف عنهم وميزهم الصمت:

ـ صمتهم يبدو لك احيانا محير جدا يا كريم، تشعر كأنهم نسوا بأن اللغة انما وجدت للتواصل الانساني؟

قالها شاخوان مرة، وهم يتحدثون عن طبائع الشعب الفنلندي. علق فوزي حينها:

ـ هم شعب جدّلوا من حبال الصمت، ناس عمليون، لا وقت لديهم للثرثرة. خصوصا رجالهم، كأنهم قدّوا من الصخر، جهمين، صامتين، من الصعوبة اضحاكهم، ولكنهم بعد شرب قنينة البيرة الثالثة، تنفتح كل اقفال السنتهم، اما اذا سكر احدهم فلا يمكن لك اسكاته؟

وكانت فرصة مناسبة لنوري شناوة ليدلي بواحد من تعليقاته المتوقعة:

ـ تصور انك لا تسمع من فنلندية كلمة اثناء مضاجعتها، ليس سوى فحيحها، ابنة الكلب!

وأذ تصاعدت ضحكات بعضهم بعدما قال له فوزي:

ـ ربما هذا من مصلحتك؟

لحظتها روى لهم كريم ما سمعه من "بيكّا تويفونين":

ـ اتدري يا كريم ان بلادنا التي ينص دستورها على ان اللغة الفنلندية واللغة السويدية هما لغتي البلاد الرسمية، فأن "برتولد بريشت" بعد هروبه من النازية الهتلرية، ومروره من هنا كتب عنا ببساطة: "الشعب الفنلندي، شعب صامت بلغتين"!

هاهو الهاتف المحمول يكسر مقولة بريشت، ويطلق لسان الفنلنديين بدون حدود. كلام في كلام وعن كل شئ وفي كل مكان. تجلس في قطار الضواحي لتسمع من جيرانك في المقعد تقاريرا كاملة عن حياتهم وما يفعلون، عن صفقات ولقاءات ووجبات طعام ونكات واخبار. اكثر ما يغيض نوري، سماع تقرير امراة عن صحة كلبها:

ـ تجلس الى جانبك، ابنة الكلب، وهي تعرف انك تفهم كلامها، لان يصادف بيدك يومها جريدة فنلندية، وتحاول، عبر الهاتف المحمول، الهمس لصاحبتها، وربما صاحبها، عن الشعور الجنسي لكلبها حين يقابل كلبة الجيران!

قال له فوزي يوما:

ـ افهم تماما لجوء "اكي كاوريسماكي"[٣] وفي عز الثورة التكنولوجية لاخراج فيلمه "يوها" كفلم صامت، احتجاجا على استخدام الهاتف المحمول!

ركاب الحافلة الاخرين الذين لم يستخدموا هواتفهم بدى بعضهم لكريم وكانهم مسطولين، خدرين، غير معنيين بما يجري، وكأنهم على كوكب اخر وليسوا على بعد ياردات قليلة مما يحصل. سوف لن يوافقه فوزي على مثل هذا الرأي، سيكون له رأيا اخر:

ـ يا صاحبي، ربما هم مشغولين يفكرون بعمق بشئ ما يخص حياتهم؟

يا ترى بماذا يفكرون؟ بماذا يفكر الفنلندي؟ بماذا يفكر الانسان في بلد ديمقراطي، مسالم، متحضر، حيث لا حروب ولا ديكتاتورية ولا ارهاب سياسي؟ هل هو وضع خطة للاجازة

القادمة؟ هل هو البحث عن فرصة عمل جديدة، وسط ارتفاع معدلات نسبة البطالة في البلاد؟ ام هو ارتفاع اسعار السكن بين فترة واخرى؟ او ربما يكون توقعات نتائج يانصيب "اللوتو" للاسبوع القادم؟ يتفق مع فوزي بأن لكل انسان، في كل مكان، هموما تتناسب مع اوضاع بلاده واوضاعه. لاحظ كريم ثمة من يبتسم لنفسه غير دار بما يجري حوله. هي عادة الفها هنا، وان كانت في ايامه الاولى سببت له شئ من الحرج. كان يعتقد ان بعض الابتسامات الخفيفة موجهة له مباشرة، خاصة اذا كان صاحب الابتسامه في رشاقة ومفاتن حسناء تنافس بطلات مسلسل"جميلات وشجعان"[٤] الذي ادمن عليه الفنلنديون، ويعرفون عن حياة ممثليه اكثر مما يعرفون عن حياة ساستهم. كثيرا ما عذبه سؤال يبدو بسيط جدا في كلماته: لم يا ترى تبدو وجوه الناس هنا محايدة وكأن ما حولهم لا يعنيهم؟ اهو بسبب طغيان الحرية الفردية في هذه البلاد، كما يردد امامه باستمرار والحاح نوري شناوة، أم ان ذلك من مظاهر الديمقراطية كما يقول اخرين؟ لماذا لا يهتم بقية الركاب بما يجري حولهم الان؟ ولماذا هو كريم مطرود، اللاجئ العراقي، يشعر ان الأمر يعنيه مباشرة وكأن السباب كان موجها له بالذات؟ لماذا...

...،...، كان القبو معتما. دون ان يرى جيدا، شعر كريم ان ثمة دخان ازرق داكن يجثم على عينيه. ثمة رائحة عفن تملأ المكان. يشعر بها جيدا، ويعتقد انها مقصودة لاثارة عدم الارتياح واجهاده، هو وغيره. الأنوار الفسفورية ساطعة بشكل يفقأ عيونه المتعبة. هناك مصباح كبير الحجم يتدلى من السقف موجه الى وجهه مباشرة. كان وجه أنيس التكريتي كريها. فمه تفوح منه رائحة الخمرة ودخان السجائر. في كل مرة يقترب منه بشكل ما يثير قرفه كانت تنتابه رغبة للقئ. يفتح أنيس التكريتي شدقيه وهو يصرخ بحيث يبان تماما نابه الذهبي في فكه الأعلى. بدون توقف يطقطق بأصابعه، التي من اول لحظة جاؤا به الى هذا القبو ولقاءه به، كان يتصور انها ستنخلع لشدة ما يطقها وهو يصرخ:

ـ تف عليكم وعلى اليوم الذي ولدتكم فيه أمهاتكم لقد ملأتم البلاد بأفكاركم الوسخة المستوردة!

تحركت الحافلة، وجلس الشاب الصومالي قريبا الى كابينة السائق. بينما نساه مجموعة الغاضبين الثلاثة وانشغلوا بمجلة مصورة بين أيديهم. اطلق أحدهم ضحكة خفيفة من الخلف. ما ان مرت دقائق حتى غرق ركاب الحافلة في عوالمهم الخاصة، وعاد كريم مطرود الى أفكاره التي بدأ بها نهاره.

منذ الصباح، وهو في طريقه الى المدرسة، كان يفكر بأن هذا الشتاء الطويل، ظالم لمدينة مثل هلسنكي Helsinki، يدثرها بالبرد والظلام ويجعلها تبدو عجوزا كسولة. الفنلنديون

الذين اعتادوا البرد والثلج والليل، مثلما اعتاد أجدادهم قبل مئات السنين ولدهور طويلة، العزلة عن العالم الخارجي، لا يكترثون بذلك، صار شيئا من تركيبة شخصيتهم. صار كريم مطرود يدرك ان حقيقة هلسنكي وفتوتها تظهر صيفا، حيث يجعلها الصيف صبية ممراح، فيطلق كل أعاصير فرح الفنلنديين، ويحرك فيهم دماء سرية كونية ترقد في اعماق طباعهم التي شكلها البرد والثلج والعزلة. واذ تشرق الشمس ن ترتعش هلسنكي مثل امراة شبقة تحت فحولة وصخب الحياة. رغم انه وصل فنلندا شتاءاً، ففي الفترة الاولى، لم يستطع الالمام بسرعة بطقوس هذه البلاد، التي داست ارضها ومرت بسواحلها وجزرها اقدام القراصنة الفايكنغ وجيوش الملوك السويديون والقياصرة الروس. هذه البلاد اكتسبت شخصيتها من تاريخ آلام طويلة. كانت ميدانا للصراع الدموي من اجل النفوذ بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الارثذوكسية، وظلت قرونا مسرحا للصراع بين الشرق والغرب وساحة لمعارك دامية تكررت مع مجئ ملوك سويديون وقياصرة روس جدد، وكل منهم تنمو مطامعه بنمو رغبات التوسع والتهام هذه الارض وخيراتها. فلم تمنح اتفاقية "جزيرة الفستق" للسلام(٥) في ١٣٢٣م هذه البلاد سوى فتات قشور الفستق التي رشت على جثث الفلاحين الفنلنديين، التي لحقت بجثة الفلاح لالّي lalli الغاضب من همجية المسيحيين الاوائل الذين وصلوا البلاد قادمين من السويد، فقتل جزاءا لقتله القديس هنري الانكليزي الاصل، الذي جاءت به الى رئاسة المطرانية اول حملة صليبية الى ارض فنلندا الوثنية عام ١١٥٥م. حين انتقل كريم للعيش في ضواحي العاصمة، لم يكن ملما بطقوس حياة مدينة هلسنكي، التي وضع حجر اساسها الملك السويدي "غوستاف فاسا"، الذي اتسم بالشدة، وراحت كتب التاريخ تبرر له شدته وقسوته تحت مسميات مثل"المركزية الاقتصادية" وتقدم كمثال لذلك مصادرته لاملاك الكنيسة. هذه المدينة شهدت ايام قاسية تركت ندوبا لا تزال خشنة على ملمس جسد ايامها البضة. في عام ١٩١٨م، شهدت البلاد الحرب الدموية بين الحمر والبيض(٦)، وكأن هذه الارض لم ترتو بعد من الدماء رغم كونها ظلت ولدهور طويلة في عزلة تامة عن الحضارات الاساسية وكأنها خارج التاريخ. كان ثمن السلام الحالي والحياة الامنة الوادعة باهضا. الاجيال الجديدة، ومنهم هذه المجموعة من الشباب الغاضبة، الذين لا زالوا يثيرون الصخب في اخر الحافلة، هؤلاء لاهين عن هذا كله ويبدون جاهلين نه. جاهلون لتاريخهم ودروسه العميقة. لاهون عن من يسميهم فوزي بملوك وقياصرة رأس المال ووحوش العولمة الامريكية، الذين يعاودون حروبهم من جديد لنهب ثروات هذه الارض المسالمة باساليب جديدة والالتفاف على ما حققه الناس بدمائهم وتعبهم. لمعت في رأس كريم فكرة سؤال

فوزي وفي اقرب لقاء قادم او مكالمة هاتفية عن اخر الارقام حول نسبة راس المال الامريكي في شركة نوكيا التي يفخر بها الفنلنديون. في الشهور الاولى كانت ايامه في هلسنكي الدائمة الظلمة تنوء بالبرد والوحشة والكوابيس والذكريات المرة، الا ان السنين التالية كشفت له خفايا هذه المدينة وبانت له كم هي متناقضة. مدينة سهلة وبسيطة بقدر ما هي صعبة وعصية. او كما يقول نوري شناوة: "مثل امرأة تشتهي وتستحي". بقدر ما هي مدينة غضة وريانة فهي متوترة وصعبه. بقدر ما هي جميلة، هي قاسية. وبعيدا عن تحريفات نوري شناوه، بدت هلسنكي لكريم مثل امراة ممراح، حالمة ، تضج بالشهوة ابدا، لكنها متزنه، عاقلة، تعرف ماذا تريد. تمنح نخب السمو لمن يقترب من نبضها بنبالة الفرسان. من يستثيرها بدون ضجه. من يلامس بصدق روحها الفوارة، الممزوجة بصخب البحر وهدوء الغابات. في هذا الشتاء تحت رقائق ثلج كانون الثاني الذي تساقط طويلا، تبدو له هلسنكي، من نافذه الحافلة، كانها مرشوشة بتويجات ازهار سماوية. يقول له شاخوان:

- في شتاءات هلسنكي، انهمار الثلج الكثيف، وتراقص رقائق الثلج، يذكرني بزهور تنمو في كوردستان أسمها "رينوك". كلما هبط الثلج اود الخروج الى الشارع والغناء بصوت عال للتعبير عن فرح يغمر روحي، لان سقوط الثلج يعيدني الى ايام طفولتي في سرجنار(٧)، وانا اركض في شوارعها وازقتها الصغيرة بجانب البحيرة الصغيرة، وسط صيحات امي مطالبة اياي بالعودة الى البيت.

بياض الثلج يمنح احياء هلسنكي القديمة، بقرميدها الاحمر وصفائح خشبها المطلية بالاصفر، بهاءا ونقاءا. يجعل اغصان اشجار الصنوبر والحور والبتولا، في ايام الصحو النادرة، وتحت السماء الزرقاء الناصعة ترسم فضاء ارحب فتبدو المدينة لكريم مطرود وكانها مغسولة بالسحر وخارجة من لوحات "بيكّا هالونين"(٨)، الذي اصطحبته باولينا يوما الى منزله، هناك في اطراف غابات مدينة كيرافا Kerava، والذي تحول الى متحف يضم اهم لوحاته يقصده السواح من كل مكان. واذ انشغل باللوحات وعوالم الرسام العبقري يبحث عن تأثيرات الواقعية الروسية في الوانه واختيار شخوصه، واقسام المنزل الذي بناه الفنان بنفسه ليظل آية من الفن، اثارت باولينا استغرابه اولا، ثم غضبه وزعله. اذ تركته وحيدا وقضت وقتها تبحث حول المنزل، ليس بعيدا عن مكان الساونا عن زاوية في الغابة أخبرتها صديقتها "سنيكا" انها مارست فيها الجنس وقوفا عند الغروب مع عشيقها الذي قابلته هناك اثناء سفر زوجها لحضور ندوة في شمال فنلندا.

من نافذة الحافلة راح كريم يتملى سقوف البيوت المرصوفة بالقرميد الاحمر، وانحناءات السقوف المتوازية من طراز البناء الذي يقوده الى عوالم كتب القرون الماضية. كان طلابه، ابناء الفقراء، المشاكسون، ابناء "محلة الشط "، الذين لم يغادروا حدود مدينة الديوانية، وتبدو لهم العاصمة بغداد حلما اسطوريا، منبهرين وهو يحكي لهم عن بلدان العالم والحياة فيها. واذ تحدث لهم يوما عن البلاد الواقعة عند القطب الشمالي، لم يستوعبوا كيف يستطيع سكان شمال اوربا تحمل البرد الشديد والشتاء الطويل ورغم ذلك يسكنون في البيوت الخشبية، التي شاهدوها في الصور التي عرضها لهم؟ كان يحاول ان يشرح لهم اسباب دفء هذه البيوت. كان باستمرار يبحث لهم في صفحات الكتب والمجلات عن صور تغني معلوماتهم. لم يخطر في باله يوما ان احد تلاميذه، الذي لا يهدأ لحظة واحدة اثناء الدرس، وبعفوية الاطفال سيتنبأ له بما لم يستطع ان يتوقعه في يوم ما لنفسه، رغم انه كان دائما يتباهى امام اقرانه بأنه يحرص على صناعة مصيره بنفسه:

ـ لو وصلت الى هناك في يوم ما يا استاذ كريم تذكر كم اتعبناك لتنقل لنا صورة مقاربة للحياة هناك في القطب الشمالي؟

ما ان تجاوزت الحافلة بناية القصر الرئاسي، رمق كريم الحراس ببدلاتهم الرصاصية الانيقة والمنزوين تحت مظلاتهم بكسل. بحث في شرفة القصر، بزخارفها وحوافها البارزة، عن ظل "تاريا هالونين"[٩]. كانت انيقة في تنورتها السوداء، ووشاحها الرئاسي، يوم اطلت تحيّ الناس في الشرفة الرئاسية يوم فوزها الذي اثار اعجابه اكثر بهذا البلد واهله. كان بوده التواجد هناك، في الساحة، الى جانب مئات الفنلنديين الذين احتشدوا فرحين، في الشوارع ليحييوا اول امراة تكون رئيسة لبلادهم، وليسمعوا الحرس الرئاسي ولاول مرة في تاريخ البلاد يصرخ:

ـ نهارك طيب ايها السيدة الرئيس!

استخدموا كلمة سيدة بدل سيد. قال له فوزي ايامها، وهما يخوضان نقاشا طويلا خلال متابعتهما الجولات الانتخابية، وترقب نتائج الانتخابات، وهو ما نقله الى باولينا مؤيدا:

ـ اعتقد يا كريم ان فنلندا تأخرت كثيرا في انتخاب امراة رئيسة للجمهورية!

فهم ما يعنيه فوزي حالا. فنلندا اول بلد في اوربا منح المراة حق التصويت والانتخاب عام ١٩٠٦. ايام الانتخابات كان كريم يقطع اخر خيوط له مع آريا، واضعا حدا لتدخلها الفظ في شؤون حياته. سماها نوري: "الشرطية". كانت آريا تملك قدرة عجيبة على تحري المعلومات وجمعها، جعل كريم يشعر بالغيض منها مرارا، ويعجب ان تملك امراة اوربية مثل هذه الصفة، متناسيا لسبب ما انها بشر مثله.

قبل اقتراب الحافلة من الكاتدرائية الارثذوكسية، ترك كريم الحافلة بنشاط. من مكان سيره كان يبدو له جانبا من ميناء هلسنكي. السفن الكبيرة الراسية، باعلامها الاوربية الخفاقة. القوارب الصغيرة تدخل او تغادر. عصافير بالوان براقة، وصدور حمراء اللون، تدور في سماء الميناء، وتحوم على نصب صخرة القيصرالروسي وسط ساحة سوق الميناء ليس بعيدا عن مكان العّبارة اليومية الى جزيرة حديقة الحيوانات.

حدق كريم الى البحر. كان ساكنا، وقد هجعت طيور النورس باكرا. تمشّى على مهل. كان يرغب بشم المزيد من الهواء النقي. دوما يكرر لنفسه ومعارفه بان هذه البلاد يحق لها الفخر بنقاء الطبيعة لديها. هواءها نقي ومياهها عذبة كالزلال. ترك ذلك اثره على اهلها فكانوا مثل طبيعتهم. يمكن تلمس عذوبتهم ما ان يفتحوا لك قلوبهم، ولكن، وكما يقول فوزي:

ـ يا صاحبي، عليك اولا ان تنجح في فتح قلوبهم.

في احد رسائله كتب عن هذا ل رحيل واستفاض بالشرح. حين سمع نوري احاديثهم صرخ:

ـ وما حاجتي لفتح قلب فنلندية يكفيني ان تفتح لي ابنة الكلب ساقيها!

في كل حديث لابد ان يجد نوري مكانا لسخريته وعبثه. وهو يراهم يكررون الحديث عن تقدم فنلندا بنظافة بيئتها وتقدمها على بقية الدول، يشاكسهم بذات السؤال عامدا:

ـ قل لي يا استاذ كريم، الله يرحم موتاك، وانت الاعرف، ما حاجة الفنلنديين الى احزاب بيئة، اليس ذلك مضيعة للوقت؟ كل مواطن فيهم، وانت الاعرف، يدرك وبما فيه الكفاية اهمية الحفاظ على بيئة بلاده؟

وبأستمرار كان كريم يرده مقلدا نبرات فوزي:

ـ والرأسماليون يا نوري، يا صاحبي، من يتصدى لهم؟

اما اذا كان فوزي موجودا، فهو من يتصدى ل نوري:

ـ يوما ما ربما ستدفع العولمة الامريكية ببعض ساسة اليمين لخصخصة هواء هذه البلاد!

لام كريم نفسه لانه جاء على عجل. لم يدخل احد الاسواق في مركز المدينة او احد المحلات المنتشرة في الممرات عند محطة القطار المركزية. حالما شاهد الحافلة في موقفها وخمن قرب مغادرتها، ركض ليستقلها. رغب بعدم التاخير، والحفاظ على عادته في الوصول في الوقت المحدد تماما. قال له فوزي ان شاخوان يوما، في بداية تعارفهما وعلاقتهما، امتدح دقته في المواعيد ومزح:

ـ أعتقد بأن كريم مطرود لو وصل يوما قبل موعده الى مكان ما بدقائق معدودة، فأنه سيتوقف جانبا ليحين الموعد تماما قبل دخول المكان.

وللمفارقة وجد كريم نفسه يفعلها يوما، دون ان يدري. كان يزور احد المعارف في شقته، ووصل قبل عشرة دقائق من الموعد. توقف في مدخل السلم لينتظر قليلا قبل طرق الباب. لم يدر ان وقوفه هناك اثار الرعب عند امراة عجوز كانت تود المغادرة. بمجرد رؤيتها اجنبيا، غريبا، لا تعرفه يقف اسفل السلم، اتصلت بالشرطة، التي وصل رجالها على عجل ليسألوه بأدب ثم ينسحبون بسرعة اكبر. لكن بعد افسادهم يومه.

قبل مغادرته شقته، هاتف باولينا. سألها ان كانت تحتاج شيئا ما ليجلبه معه. ضحكت. قالت بغنج تعوده منها:

ـ احتاجك انت؟

دار قليلا حول زاوية الشارع، وتوقف عند اشارة العبور. تذكر ان باولينا مرارا تتبضع من دكان يقع ليس بعيدا عن شقتها يملكه كردي من ايران. مرة قالت له بجدية:

ـ قبل معرفتي بك، احيانا وحين امر قرب الدكان، ادخل واشتري أشياء ربما لست بحاجة لها. أي شئ. في داخلي ثمة ما يدفعني لاثبت لنفسي باني لست عنصرية!

ـ وهل توقفتي عن الشراء بعد معرفتك لي؟

تضحك بجذل اذ تلمس مشاكسته. تهز رأسها، فيتناثر تاجها الذهبي. تلتمع عينيها الخضراوين، اللتين تشعان ببريق خاص. تعض شفتها السفلى باغراء:

ـ تقصد بعد ان اصبح لدي ما يشير الى عدم عنصريتي!

ويتمادى في مزاحه:

ـ يا سيدتي ان يكون لك رجلا اسمر بشعر اسود في سريرك، مثل حضرتي، هو بحد ذاته شكل من العنصرية، لانك عندها تستغلينه لاغراض...

وترميه بالوسادة القريبة، وتزأر مثل لبوة. تشتم بأقذع الكلمات، وتهاجمه. يظل طيلة الوقت خائفا من اضافر اصابع يديها حتى لا تترك له اثرا في وجهه. مثلما حصل معه مرة واضطرته للزوم شقته اياما خجلا من رؤية معارفه، فقد يظنون به الظنون، كأن يكون تشاجر او ان احدا ما هاجمه. وتستغل باولينا انشغاله بحماية وجهه، فتكون الطامة اكبر، لتعظه في زاوية من رقبته وتتركه أياما منشغلا برفع ياقة قميصه لاخفاء اثر العضة الفاضح

عثر كريم على دكان الكردي الايراني. كان الدكان صغيرا. مرتبا بشكل انيق، وصاحبه بشوشا. ما ان سمع صاحب الدكان تحيتة التي نطقها بوضوح بكردية تعلمها من زياراته المتكررة الى مطعم شاخوان:

- (ئيواره ت باش)[١٠]

حتى اتسعت ابتسامته، ورد تحيته بجفاوة، وكانت عيناه تلمعان بذكاء ومكر. كان رجلا متوسط القامة، اشيب الشعر، بشوارب كثة، تذكر بشوارب "عبد الله اوجلان ". ثمة ندبة اسفل فكه تبدو كأثر جرح، جعلته يخمن ان الرجل قد يكون عاش مع قوات "البيشمركة"[١١]. لكن كريم سرعان ما فكر بأن الرجل ربما يكون من جماعة خاله صبحي، الذي وبعد ان بلغ الاربعين قرر تعلم قيادة الدراجة الهوائية، فكان في كل مرة يحول شوارع حي الجزائر الى خشبة مسرح تتداول اخباره كل مدينة الديوانية، وبسبب ذلك حصل على ندبة صارت له كعلامة فارقة بعد تدحرجه من دراجته الهوائية. الى جانب الرجل الكردي ذو الندبة تقف امراة تساعده. خمن فيها زوجتة التي عنتها باولينا حين تحدثت عن ابتسامتها الساحرة، التي تجعلها تشعر بغيمة تدور في رأسها. تأكد من صحة أحساس باولينا بأن في ابتسامة المرأة الكثير من سحر الشرق. عرضا، حين سمع نوري بحكاية الغيمة، صاح به:

ـ الله يرحم موتاك، وانت الاعرف، احذر جيدا ربما تكون صاحبتك باولينا من ...؟

ـ يعني ...؟

ـ اذا كانت ابتسامة أمراة تثيرها فكيف اذا ...

ـ نوري، ارجوك دع فرويدك بعيدا عن خصوصياتي!

كانت زوجة صاحب الدكان تبتسم لزوجها بعذوبة وتهمس له شيئا ما بالكردية. سمع كريم الرجل يجيب زوجته:

- (باشه، زور باشه)![١٢]

جعله هذا يشعر بالراحة، ولو كان نوري معه لصرخ:

ـ انظروا، وهذا اجنبي منا يدفع ضريبة لخزينة البلاد ويساهم في الدورة الاقتصادية لفنلندا!

لم يكن كريم وحده داخل الدكان. كان ثمة رجل عجوز يستند الى عجلة يتفحص شيئا ما ويبدو غير مقتنعا بما بين يديه. صاحب الدكان يواصل تحريك عيونه بمكر وتواصل زوجته نشر السحر من بين شفتيها. ابتاع كريم باقة ورد، واذ كان يعرف ان باولينا مغرمة بالجوري، اختاره شديد الحمرة. اشترى ستة قناني بيرة من الماركة التي تعجب باولينا وتجعلها تركض كل مرة الى الحمام وهي تصرخ:

ـ انها بيرة جيدة، لولا اني كلما اشرب قنينة منها، اتبول قنينتين!

اختار كريم قطعة شيكولاته، أذ يعرف ان باولينا تحب أكل الشيكولاته مع القهوة. حين دفع الفاتورة عرف ان باولينا ستعنفه، وسيسمع درسا حول التبذير. لا يحب كريم دخول شقة باولينا فارغ اليدين. عودها هذا منذ اول زيارة له لشقتها. كل مرة يجلب لها شيئا ما. كانت تبدو سعيدة اذ يجلب اشياء ما اعدها بنفسه. خبز عراقي او كباب عربي او سلاطة "بابا غنوج". اشياء تجعلها تشعر بالحبور والنشاط، فتضع فورا في جهاز التسجيل شريط موسيقى عربية صادرته من شقته او موسيقى كردية حصلت عليها كهديه من دلسوز، وتعد له المائدة باسرع ما يمكن. هذا اليوم كانت لديها فكرة القيام بزيارة اخيها "تيمو" لتشرب فنجان قهوة. خيرته بين مرافقتها او انتظاره:

- اتدري، ليس لي رغبة بالخروج هذه الليلة لاي مكان. هناك اكثر من دعوة من صديقاتي، لكني ارغب قضاء الوقت في الشقة.

أقترحت عليه قضاء ليلته عندها. فهم ان عليه اصطحاب كتابا ما معه، حتى لا يتعذر بعدم وجود شئ للقراءة ويعود الى شقته في كيرافا.

ضغط جرس باب الشقة. لم ينتظر كثيرا. كانت باولينا تتوقع قدومه. فتحت له الباب، بعينين متكدرتين احتجاجا لعدم استخدامه مفتاح الشقة الذي اعطته اياه منذ ان بدات علاقتهما تستقر وتأخذ منحى اعمق. كان يتعمد استخدام جرس الباب. تحدثا عن هذا كثيرا، وفي كل مرة يتكرر نفس الحديث والغضب ذاته. راح يتحاشى الاجابة او السؤال. عانقته ودفنت وجهها في صدره. ربت بحنان على ظهرها، وطبع قبلة خفيفة على وجنتها. لم يرغب بافساد طلاء شفتيها. وجدها تهيأت للخروج وارتدت تنورة بيجي، وقميص بلون فاتح ينسجم مع ما تلبس ووضعت على رقبتها قلادة فضية اشتراها لها في يوم مهرجان الثوم، حيث يستغل فوزي ذلك اليوم، وكل مرة يصر على دعوتهم الى شقته لوجبة غداء يعدها بنفسه. وهي تقف امامه، بقامتها الرشيقة، وزينتها البسيطة، وجمالها الاخاذ، كانت باولينا تبدو لكريم، فاتنة، ساحرة مثل "أينو"، خارجة من بطن "الكاليفالا"[١٣]. نلحظات خطر له سؤالها:

- اتمضين لزيارة اخيك "يوكاهاينن"، هذا الذي من اجل خلاصه الفردي من غضب "فاينامويننن"[١٤] اراد تسليمك اليه لتمسحين بيته وتكنسين ارضه وتغسلين اطباقه والبسته؟

لكنه نظر اليها باعجاب، وقال:

- لو لم اكن تعبا لرافقتك، على الاقل لحماية هذا الجمال من عيون الحسد!

اذ لاحظت باولينا التعب باد على ملامحه، احتظنته بين ذراعييها، حدقت الى وجهه مليا، الى عينيه السوداوين، وحاجبيه الكثيفين. كانت تريد ان تقول لكريم، انها لا تريد سوى ان تكون الى جانبه. لا تريد شيئا اكثر من الاحساس بوجوده في حياتها. رجل صامت، يتألم، يعشق، يحب، وبصمت من دون تفسيرات. رجل حين يتحدث معها تنبعث من اصابعه، وشفاهه اساطير الشرق والغرب:

ـ التاريخ يا عزيزتي، هو ليس مجلدات الكتب في المكتبات العامة. ولا الخرائط والصور ولا اطلال المدن. ليس هذا فقط وحده، التاريخ اعمق من هذا بكثير. انه يتعلق بذاكرة الشعوب، وتواصلها عبر الحكايات والاساطير والاغاني. عبر الامثال والرموز، في سعي جبار لادراك عظمة الانسان وحلمه الازلي بالسعادة.

ضمته اليها بشوق وكانها لم تره منذ شهور، رغم انه من ايام كان معها. همست له انها لن تطيل مكوثها عند أخيها، ولكن عليها الوفاء بوعدها وتعيد لاخيها ما اقترضته منه قبل شهرين وتسلمه المبلغ نقدا. يعرف كريم ان اخيها تيمو لا يحب التعامل مع البنوك. لحد صار مؤكدا لكريم ان تيمو من جماعة "حزب الالتفاف على عمود النور". اخبرته باولينا انه يمكنه النوم قليلا حتى عودتها، فالليلة ترغب بان يسهران معا، اذ جلبت عدة اشرطة فيديو جيدة فيمكن لهما اختيار منها فلما ممتعا. ما ان غادرت باولينا بصخب، معتقدة انها تأخرت، بعد ان هرست له شفتيه بالقبل وعضت له شفته السفلى، حتى نزع بنطاله وقميصه، ورمى نفسه عاريا في السرير واحس فورا انه دخل في نوم وحلم لذيذ، وود لو انه صرخ:

ـ اين انت من كل هذا الشعور بالامان يا نوري بن شناوة؟



ما ان عاد غريب عتوّي الى البيت بعد الظهر، وقبل ان تسأله وداد عن نجاح مسعاه، مع "ماموستا فرمان"[١٥]، حتى قابلته بصوتها الحاد غاضبة متذمرة من سلوك ابناءه الذين عادوا لا يسمعون كلامها ولا يحترمون وجودها، ناعتة اياه بـ "ابو سبع صنايع والبخت ضايع"، يدور من صنعه الى صنعه ويجني الفشل دون المال، تاركا اياها لوحدها تواجه طلبات ومشاكل ابناءه الذين لم يعودوا اطفالا. لم يستطع غريب الرد بشئ على تذمر زوجته الذي بدأ يتصاعد بشكل مبكر منذ الصباح. من لحظة اصطفاق عارضة فتحة البريد في باب شقتهم، التي انتقلوا اليها مؤخرا، والتي حصلوا عليها بشق الانفس، وخاضوا مع مسؤولة الشؤون الاجتماعية معارك

استبسلت فيها وداد وكشفت عن امكانيات مدفونة جعلته يجر لها اذنه بانها كفء لذلك. هرع لحظتها أياد، اكبر ابناءه، قبل ان يسبقه احد وجلب البريد امام انظارالجميع، وهو يردد:

ـ الا تلاحظون انه من فترة وفاتورة الهاتف تصل بشكل متأخر؟

لم يجبه احد. وسألت وداد مثل كل مرة:

ـ ها ...؟

وجاء سؤالها ومثل كل مرة مفعما بروح السخرية والاتهام المسبق. عاشر غريب هذه المرأة سنينا طويلة وصار يفهم تلميحاتها واشاراتها جيدا، ولم يكن امامه من بد الا تجاهل الاجابة عليها، لان اجابته باي شكل ستكون الايذان لاندلاع معركة جديدة، ومثل كل مرة سيكون فيها هو الخاسر. ببطء شديد، فتح المغلف الرصاصي، المعروف لاهل الدار جيدا بعلاماته المميزة، واستخرج فاتورة الهاتف بحذر، وارسل بصره في محتوياتها وكأنه يقدم على قراءة ادانته بجرم مبين. من غيره في هذا البيت مسؤول عن حجم قيمة المكالمات الخارجية؟ كانت ابنته خولة ترمقه بشكل حذر فيه شئ من التشف والترقب. قبل أيام ضبطها ليلا تتحدث سرا من هاتف المطبخ وهي تظن انهم نيام، ورغم ان دموعها كانت تكشف له براءتها من ظنونه السوداء، لكنه حرم عليها امساك الهاتف بدون علمه او علم امها وتهاتف صديقاتها ليعلكن الكلام حول "شاكيرا"، "نعومي كامبل" و"اليكسي يريمنكو"[١٦]. هاهي وداد تجد الفرصة ليكون الباب مشرعا امام سبابها الذي تطلقه دائما ضد مجهول بحضور ابناءها، ولكنه معلوم تماما لديه. من يوم مفاجئتها له وهو يهاتف ابن عمه هارون البهلوان في بغداد ويعتذر له من التقصير ويعده بالمساعدة باقرب فرصة. زعقت وداد:

ـ ها ابن عمي... انشاء الله هذه المرة الفاتورة غير شكل؟ قل ولا تستح؟ مثل كل مرة؟ ها...؟ يعني لا يمكن ان تتركنا ولو شهر واحد بدون فاتورة على الاقل تكون اقل من السابق ولو بربع القيمة، على الاقل تفي بوعودك لابن عمك الذي في اخر زمانه تذكرك؟

وحين لم يرد واصلت:

ـ يا ربي... ولان لم يبق عندي بعد اي حوبة ومكانة عندك، فبجاه حوبة القحاب عندك... لان هذا زمن القحاب وهن صرن اصحاب الكلمة والشرف في هذه الدنيا، خلصني من هذه البلوى!

وثار غريب، وهو يمسد بيده اليمنى صلعته:

ـ وداد لخاطر الله، الف مرة قلت لك، وفري كلامك هذا، ليس قدام الاطفال؟

فصاحت وداد:

ـ يا اطفال عيني... ياالطفال انت... الله يستر عليك ويطول عمرك؟ الله... الله... شلون انت خائف عليهم عيني؟ اطفالك صاروا اطول مني ومنك، والواحد منهم يفهم كل شئ. في مدارس هذا البلد يعلموهم كل شئ. تعتقد هذه مدارس السماوة؟

رد غريب بهدوء:

ـ وداد لخاطر الله. لخاطر الملائكة. لخاطر القحاب. يعني كل مرة نفس الاسطوانه المشروخة. نفس السبب. يعني هذا كله بسبب فاتورة؟

ووجدتها وداد فرصة:

ـ ليش هذه فقط؟ انت تركت عندنا شئ؟ فرحانة واتباهى بك امام النسوان واقول زوجي ترك بيدي مصاريف البيت. لكن لا احد يعرف كيف ان الفواتير صاعدة نازلة. كل يوم بسببك لي مشكلة مع الشؤون الاجتماعية. ليش ربي ليش؟ عساها ابخت من سواها واقنعك، والذي مرمرنا وجلبنا الى بلد الصقيع. انا وين واوربا وين ... عوربا...عوع!

عارضت وداد في البداية الخروج من مدينة السماوة. لم يشترك غريب مع الاخرين عند انطلاقة الانتفاضة التي عمت فيما بعد غالبية مدن العراق ربيع ١٩٩١. لم يرفع غريب سلاحا ولم يرم اطلاقة واحدة. لم يعرف عنه سابقا أي موقف معارض لصدام حسين والبعثيين، بل وحتى لم يشترك في غارات النهب وسط حالة الفوضى التي اندلعت، خصوصا على مبنى الاورزدي باك ودائرة البلدية. لكن تردد مشاهدته قرب بنك المحافظة، والكثيرين شاهدوه حين اشترك بنشاط في الغارة على مخازن المحافظة. كانت فرصته الذهبية في الحصول على مبتغاه. جند مجموعة من معارفه ودفع لهم جيدا. نقل الى مخازن بعض من تجار المدينة السرية بضائع لم ينتبه لها غيره. ودفع له التجار مبالغ بدت له خيالية مقابل ذلك. وقضى بقية الايام هامدا امام وداد في البيت يسمع الاخبار من محطات المذياع الخارجية. كان يتسلل مساءا يتشمم اخبار المدينة ليعود ويحكي لها ما سمع. عقدت مفاوضات "خيمة صفوان". ترك الامريكيون لصدام حسين حرية استخدام طائرات الهليكوبتر، ولم يوجهوا اي ضربة لقوات الحرس الجمهوري. حين بدأت طلائع هذا الحرس تصل ابواب مدينة السماوة، وبدأ للثوار ان انتفاضتهم لن يكتب لها النجاح، كان غريب عتوّي يقلب في باله قرار الفرار. في اليوم التالي حزم امره وفاتحها بافكاره، وعارضته وداد:

ـ نحن لم نفعل شيئا، فما الذي يهمنا؟ لا تنسى اطفالنا في المدارس وحرام علينا يتركون مدارسهم؟

ـ يا بنت الناس، الناس كلها حّملت وشالت الى المملكة السعودية. هل نحن احسن وافهم من غيرنا؟

ـ انت لا ضربت طلقة ولا صفعت بعثي، لماذا انت خائف؟

ـ يقولون الكاميرات السرية صورت كل الذين غاروا على بنايات الحكومة، وتعرفين اني...، وتريدني ابقى حتى يعلقني رجال الحرس الجمهوري من خصياني قدام بيتي ويجوز يعتبروني من قادة الانتفاضة ولا تنسين ان عمران هو ابن عمي؟

كان عمران يحذره دائما من كونه يعيش على الهامش في كل شئ. حتى في حياته الزوجية. كان يحثه لان يكون له موقف ما. لان يقول كلمة حق في يوم ما. وفي وقت كان العشرات من شباب مدينة السماوة يساقون الى التحقيق والسجون ويختفون لاسباب غامضة، كان غريب لا يحرك ساكنا. كان البعثيون قد فهموا بشكل مبكر انه لن يجرؤ على ان يقول او يفعل شيئا، لذلك راحوا يحاولون تجنيده ليكون مخبرا لهم على اقرباءه. ونجحوا في ذلك. وزعق عمران بوجهه يوم اكتشف الحقيقة:

ـ سيأتي اليوم الذي سيكون فيه قتلك حلالا، وسوف لن امنع احد لو اراد فعلها ان لم افعلها انا بنفسي.

حاول غريب اقناع عمران بالظروف التي اضطرته للتورط، واساليب النقيب محسن في ابتزازه واهانته وتهديده في كل مرة، والذي يقال انه فلسطيني لانه يتكلم بلكنة يميزها اهل السماوة جيدا. حين اشتعلت نيران الانتفاضة، وبعد مهاجمة الثوار المنتفضين مبنى الامن العامة في السماوة، ارسل عمران من استدعاه الى جامع في اطراف منطقة "الحي الجمهوري" حيث صار مقرا لتنسيق الثوار:

ـ اسمع غريب هذه فرصتك لتنزع ثوب الذل. وانا افعل هذا ليس من اجلك، وانما من اجل اطفالك وزوجتك المسكينة، فلا ذنب لهم بما تفعله، سأكفلك امام الاخرين وكلهم سيكونوا شهود على ذلك. ستكون معنا هنا لمساعدة الجرحى، كونك مضمد صحي ستكون نافعا لنا وسيرضي الاخرين بوجودك. يا اخي عقم نفسك من جراثيم البعثيين، طهر نفسك، واحمد ربك ان الناس تسمع كلمتي.

ولكنه اعول بالبكاء امام ابن عمه ومن يسترقون السمع الى حديثهم عند الباب:

ـ مروتك لا تتركني بلا سند!

وهو يسارع الى مغادرة البيت، رمق غريب ابنته خولة جانبا فلاحظ انها تهيء نفسها للخروج، فلم يتمالك نفسه:

ـ الى اين اليوم يا بنت؟

فردت بخفوت وهي تموء:

ـ بابا العمه ام رعد تريدني اساعدها، في مراقبة ابنها الرضيع، وهي تؤدي شغل البيت. عندهم غدا ضيوف، وصار كم يوم ما شفتها. قلت اروح عندها اولا وبعدين اروح الى المكتبة.

ـ لا تتأخري ، ها...؟!

من مكانه صاح ابنه اياد:

ـ البارحة حين تأخرتي قلت انك كنت عند ام رعد!

صاحت وداد من المطبخ:

ـ انت خولة يا اساس البلاء والله اذا رحتي الى مكان بعيد، اكسر راسك!

والتفتت اليه بذات الغضب:

ـ وانت عيني يا ابوهم العزيز الى اين؟

نظر لها والغضب يحرق اعصابه. وهو يزرر جاكيته التي حال لونها من كثرة لبسها:

ـ وين اروح؟ اليوم جمعة، قلت امر عند "ماموستا فرمان" بوند. اكيد يكون موجود في المقهى، واشوف شلون صارت فكرة مطعم البيتزا؟ ربما تمشي تمام؟ لا استطيع الانتظار اكثر، ربما ارجع لفكرة الكشك احسن!

٣

انتظر "شاخوان" حتى مرت الحافلة من امامه. يدرك خلو المنطقة من كاميرات المراقبة. بعد تاكده من عدم وجود سيارة الشرطة، وهو يعرف ان ذلك مخالفة، دار نصف دورة بالسيارة في عرض الشارع بسرعة، وبمهارة يحسد عليها. ظل نوري دائما يحاول تعلمها منه ويحلم بأجادتها. قالت له "كاريتا" مرة انها لم تر مثل مهارته في السياقة الا في الافلام الامريكية. استدارة الشارع بعيدة نسبيا، وليس لديه ما يكفي من الوقت. حان وقت انصراف "رشيدي"، واذا تأخر عنه فقد ينصرف فهو على موعد سابق. وعده بان يكون هناك قبيل موعد انصرافه. ها قد مرت نصف ساعة بالتمام، واذا انصرف رشيدي فان عمل المطعم سيتوقف. هذا يوم الجمعة. يوم السعد. "رزكار" لا يزال لا يفهم شيئا اكثر من الوقوف عند صندوق الحصلة والقيام بجزء من أعمال التنظيف واعداد العجين. وعده نوري بالمجئ هذا اليوم، لكن مشاكل نوري مع مكتب العمل لم تنته بعد. طالب نوري بأن يعمل معه بطريقة العمل الجزئي، ولكن هذا يزيد من

اعباء شاخوان الضريبية. في الاونة الاخيرة، ورغم كل عبثيته صار نوري يخاف الاصطدام بدوائر الدولة الرسمية، ورغم استلامه الجنسية الفنلندية الا انه يظن تأخير حصوله عليها لا يعود الى البيروقراطية الفنلندية بل والى مخالفاته ومشاكله التي تعددت، والتي تنتشر حكاياتها بين العراقيين مثل الاساطير، وبرعوا في المبالغة فيها واضافة الكثير من البهارات لها من خيالهم، حسب حبهم وبغضهم لنوري. من الايام الاولى لوصوله الى فنلندا، راح شاخوان يتابع تفاصيل اخبار العراقيين. صار شغوفا بذلك. ولسد فضوله، ولان لا وقت لديه لتتبع مصادر الاخبار، أستغل مكان عمله وعلاقاته لتأتيه الاخبار بنفسها. عود الكثير من العراقيين على زيارة مطعمه، وعلّمهم ان لا تكون زياراتهم في ايام الجمعة والسبت والاحد:

ـ هذه الايام محرمة، لانها ايام الرزق. الايام التي تشهد نشاطا بسبب عطلة الفنلنديين وحبهم للخروج مع اصدقائهم وعوائلهم الى المطاعم القريبة.

كان شاخوان من جانب يرى في زيارات العراقيين الى مطعمه ضرورة للتواصل الاجتماعي، ومن جانب اخر كان وسيلة ليعرف ما يدور بين الاخرين. عود نفسه على السماع فقط. لم يبادر ليسأل الاخرين شيئا. قال له فوزي مرة في ساعة صفاء وبروح مرحة:

ـ انت يا صاحبي شاخوان طيب وخطير في ان واحد. خطير لانك صرت تعرف اسرار غالبية العراقيين في فنلندا من خلال ثرثرتهم في مطعمك. والحمد لله ان لا علاقة لك بسفارة نظام صدام حسين والا كان خربت بيوت الناس.

وحين لاحظ فوزي عدم ارتياحه غيّر صوته وجلسته وقال بشئ من المودة:

ـ الطيب في شخصيتك يا صاحبي لا نقاش عليه، والا لم انا جالس معك الان؟ أتدري يا شاخوان انك تخدم الناس كثيرا في زياراتهم الى مطعمك؟ ليس في تقديمك لبعضهم وجبة بيتزا شهية مجانية، بل ولانك وبعد ان كسبت ثقتهم، راحوا يتحدثون امامك عن مشاكلهم وهمومهم، فيفرغون ما بدواخلهم مما لا يمكن لهم ان يتحدثوا به امام زوجاتهم واصدقائهم غيرك. هذا جزء من علاج نفسي يمتص التوتر الذي يضغط على حياة العراقيين في المنفى.

وصاح نوري معابثا:

ـ اقترح على شاخوان اغلاق مطعم "نيران نوروز" وتحويله الى مصحة نفسية. لماذا؟ اعتقد قريبا وبسبب التأثر بحياة اوربا سيتقبل العراقيون فكرة زيارة الطبيب النفسي ولا يعتبروه شيئا معيبا. هذا من جهة، ومن جهة اخرى علينا التعلم من سكان هذه البلاد، اليس كريم مطرود يطلب منا التمعن في التاريخ دائما؟ طيب يا جماعة الخير، وانتم الاعرف، قبل ايام عرفت ان

تاريخ هذه البلاد يخبرنا بأنها بلد مجانين وليس اكثر، فاشهر كاتب عندهم "اليكسيس كيفي"[١٧] الذي يعتبر ابو اللغة الفنلندية، و"جان سيبليوس"[١٨] اشهر موسيقار عندهم كانا نزلاء المصحات النفسية.

وزأر كريم عندها:

ـ لكن بلد المجانين هذا هو من اواك ومنحك سقف آمن؟ يا استاذ، لا يمكنك الهزأ من كل شئ، وتحويله الى مسخرة!

وكاد ان يتحول الامر الى مشاجرة. كانت العلاقة بين كريم ونوري لا تزال تمر في مرحلة من التشكيك والحساسية. وجه كريم مطرود لحظتها الى نوري نظرات غاضبة واصل زجره بها. قبل تدهور الموقف تلافى فوزي ذلك، وعاد الى بداية حديثه دون اعارة اهتمام لتعليقات نوري وردود كريم، وكانه لم يسمعها:

ـ اعتقد ان ثمة ثقة للناس صارت بشاخوان تتمثل في احترامه لتفاصيل حياتهم، وهناك تلمس من قبلهم لهذا. عن نفسي اشهد بأني لطالما نسيت نفسي وتحدثت عن امور شخصية او عامة ولكني حين اراجع نفسي اشعر بالاطمئنان الى كون حديثي سيكون مصانا ما دام من سمعه هو شاخوان وحده، وليس غيره.

سعل شاخوان، مرتبكا، وقال وهو يمسد شواربه:

ـ هذا اطراء كبير، وشرف لي.

لم يعّود شاخوان نفسه على نقل ما يسمع من احاديث الناس، حتى ل دلسوز. واذ ادرك الاخرين فيه هذه الصفة راحوا يزورونه بأستمرار ويتحدثون امامه بالكثير من التفاصيل الخاصة. مع ميله لمعرفة تفاصيل حياة الاخرين، لم يكن يسمح لاحد معرفة شيئا عن تفاصيل حياته. منع دلسوز من زيارة المطعم كما تفعل غالبية زوجات اصحاب المطاعم للتباهي. كانت دلسوز في البدء تظن ان السبب كونه لا يريدها معرفة شيئا عن علاقاته النسائية. لم تخبره بهذا مباشرة، لكن شكواها وصلت اليه بسهولة عبر متطوعين في نقل الكلام. يومها هم بضربها فواصلت صمتها وعدم اسماعه تعليقها، وتحملت سبابه وتركه المنزل لاكثر من اسبوع لا تعرف اين قضاه ومع من؟ فيما بعد تأكدت دلسوز من ان شاخوان بمنعها من زيارة المطعم يريد سد باب للفضول عند بعض من العراقيين ويمنعهم من الدخول الى حياته الخاصة. كان نوري من الشباب الذين صاروا يترددون الى مطعمه باستمرار. واذ كان البعض يتشكرون وينصرفون بعد تناولهم وجبة البيتزا الشهية، كان نوري من القلائل الذين يبادرون لمساعدته، ومع توثق

علاقتهم، اقترح شاخوان على نوري تعليمه شغل البيتزا ليجمع لنفسه دخلا اضافيا. وجد شاخوان ان نوري الفوضوي، العبثي، الشبقي، له من الذكاء والفطنه والهمة ما لا يملكه الكثيرين. ومستفيدا من اولياته في العمل مع ابيه في فرن الخبز، تعلم نوري صنعة البيتزا باسرع ما يمكن. بل صار بعض الزبائن الفنلنديين يترددون خصيصا في ساعات عمل نوري ليخدمهم بنفسه، خصوصا بعض النساء العاملات في شركات قريبة. كانت وسامة نوري وجسده الرياضي، وعينيه السوداوين الذكيتين، تلفت الانتباه، وهو يجيد العناية بنفسه وباناقته التي يقول انه ورثها عن ابيه. كان شاخوان يلمس السحر الخاص في شخصية نوري، رغم كونه بالنسبة للكثيرين انسان خيالي بل وحتى كذاب كبير. كان شاخوان يقف مندهشا امام صراحة نوري ومحاولته فلسفة كذبه وهو يتحدث بغرور عجيب:

ـ الكذب انواع، كذب اهل السياسة وانا برئ تماما من هذا الصنف، وكذب لجمع الفلوس، وانا ايضا لست من هذا الصنف. انا كذاب بامتياز، وانتم الاعرف، نعم، لكني لم اكذب يوما لاسرق احد، ولم اكذب لاورط احد او اشوه سمعة احد. انا اكذب بطريقتي الخاصة، كذبي من نوع الكذب الهادف. يمكنكم تسمية خرافاتي وهلوساتي بالكذب النضالي وحتى يمكن ايضا اعتباره لخدمة الوطن. واحزاب المعارضة العراقية يجب ان تكرمني لذلك وتمنحني وساما.

واذ يرى من حوله نظرات الدهشة، يواصل جادا:

ـ كل انسان يكذب، بهذا القدر او ذاك. المهم بالنسبة لي ليس جعل المقابل يصدق كذبتك، بل انك بنفسك يجب تصديقها واطالة حبلها ليكون عندك بدون نهاية. اشعر احيانا بأني لا اكذب من اجل استمالة امراة الى سريري فقط، فهذا وحسب خبرتي وكفائتي، التي تعرفونها، يمكن تحقيقه مثل شرب كاس ما، بقدرما اجعل هذه المرأة تتعاطف مع انسان ذو قضية وليس مجرد قضيب باحث عن فرج تائه. قولوا عني ما شئتم، بلاي بوي، متهتك، متفسخ، او كما يصفني ملا حسين بالخليع. لماذا في كل مرة انتحل قصة وشخصية مختلفة؟ في كل قصصي العجيبة انا ضحية لنظام ديكتاتوري... وهذا حقيقة وانتم الاعرف. شردني واذلني المجرمون البعثيون... وهذا واقع وانتم الاعرف. اعدم ابناء وطني واهلي وهو معلومة بديهية لكل اوربي. وفي كل مرة اكون فيها قادم من مدينة ما من العراق. وهنا تبدأ حدود ابداعي. مرة انتحل قصة هروب كريم وفوزي عبر الصحراء ومعاناتهم من العطش ومطاردة شرطة الحدود واضيف لذلك شيئا من رتوشي الخاصة. ومرة اجد من المناسب انتحال قصة مأساة وعذاب "ابو الحسن العدناني" واخفف منها قليلا حتى لا ابدو شبه مجنون مثله. ومرة انتحل مصيبة اخرين

اكون سمعتها. ليس مهما معرفة كل التفاصيل، فصدام حسين مشكورا، وانتم الاعرف، وفر لنا الكثير من التفاصيل، التي الجأ اليها لاسد ثغرات قصصي. وهكذا يا اصدقائي، في ختام سهرة صاخبة، وصفاء وشراب ونكاح، اكون قد جعلت امراة لم تسلمني مفاتيح جسدها فقط بل وتعاطفت مع قضية شعبي. اقسم لكم بأني مرات عديدة تركت بعض النساء يذرفن الدموع لقصصي الحزينة الكارثية. انا اعرف تماما، وانتم الاعرف، انها بعد شهر وشهرين ستنسى ابنة الكلب اسمي، لكنها لن تنسى قصتي وسترويها بتعاطف شديد، وربما تكريما للجهد في كونها بلغت الذروة معي اكثر من مرة. هكذا يا اصدقائي ترون كيف اني اعمل وانشط باخلاص اكثر من احزاب المعارضة العراقية التي تشفط المساعدات من البيت الابيض الامريكي ولم تحقق لشعبنا شيئا!

مرات كثيرة كان شاخوان يأخذه الاعجاب ب نوري، حين يرى ان ما بقلبه يكون على لسانه، بكل بساطة، ودون تزويق. احيانا يفكر شاخوان بأن نوري ربما يكذب حين يقول انه درس الهندسة، وانه كان في الجيش العراقي برتبة ضابط مجند. فهو يبدو عبثيا ومخادعا الى درجة تثير الحنق لمن لا يعرفه. هذا الذي جعله في البداية يكون على حذر شديد من امانته. كان يتصور ان شاب مثله بعلاقاته النسائية الواسعة وتبذيره ربما تكون يده طويلة ويختلس شيئا من عائدات المطعم. لكن مع الايام تبين له ان في نوري اشياء جميلة، عذبة، يجهلها الناس ولا يحملون له للاسف سوى صورة مشوهة، صورة البلاي بوي المهذار، الذي عاش طويلا على حساب عشيقاته. واستمرت مشكلة شاخوان الاساسية، في عدم نجاحه في اقناع نوري بالعمل معه بشكل دائمي سواء بالاسود او الابيض. فنوري لا يحبذ العمل الدائم، ولكنه وعده بأن لا يتركه في ورطة في يوم ما، ولا يدع المطعم يتوقف عن العمل. وطوال هذه السنوات بر نوري بوعده. كان حاضرا امامه كلما طلبه. هذا الاسبوع فأجاه رشيدي الايراني، بانه يود السفر الى السويد. اخته هناك تريده ان يلتقي بفتاة ايرانية وافق اهلها على لقاء رشيدي لها. اذا نجحت خطتها فيمكن لاخيها الزواج وينتقل الى السويد، حتى يستطيعوا افتتاح مطعم مشترك. الاخت وزوجها لديهم الراسمال، ولكنهم لا يثقون بالعمل مع احد. هذا الامر فرض على شاخوان البحث عن عامل لايام معدودة حتى يعود رشيدي. لم يكن الشاب رزكار، الحديث العهد بعمل المطاعم وفنلندا بالعامل النافع، اذ لا يزال بطيئا ويرتكب الكثير من الاخطاء. ومع ازدحام فنلندا بمطاعم البيتزا والاكل الشرقي صارعمال مطاعم البيتزا المهرة يطالبون باجورعمل عالية، حتى الذين يعملون بالاسود. ومن الامور التي تجعل شاخوان يحب التعامل مع نوري انه بقى محافظا

على عادته بعدم الحديث عن الاجور ابدا. كان حين يحتاج الى مبلغ من المال يستدينه منه ببساطة قائلا:

ـ سجل ذلك على حساب الشغل!

وبين الحين والاخر يسأله:

ـ بكم انا مدين لك؟

وحين يسمع الجواب يضحك:

ـ بسيطة، وانت الاعرف، هذا يمكن تعويضه بشغل يومين!

يتميز نوري عن غيره باخلاصه الشديد، وبامانته في العمل. فهو حريص على نظافة المطعم وممتلكاته، وحريص على احترام الزبائن وسمعة المطعم. لم يسمح لنفسه يوما بأن ينقل نشاطاته النسائية الى زبائن المطعم. وحين راحت تلاحقه احدى فتياته الى المطعم طالبها بشدة التوقف عن ذلك:

ـ هذا مكان عمل يا انسة!

ولطالما عاد شاخوان من مشوار بعيد ليجد نوري يقوم بتنظيف ادوات العمل او ترميم شئ ما دون ان يطلب منه ذلك. كل ذلك جعل شاخوان يفكر بدفع نوري ليكون شريكه في مشروع اكبر، لكن نوري اجابه ببساطة:

ـ اشكر هذه الثقة، واتمنى ان اكون كفؤا لها، ولكني يا شاخوان لم اخلق لمثل هذا العمل. انا لا اتصور في يوم ما اني ابحث عن عمل مثل هذا، لست متكبرا ولا اخجل منه ابدا. فلا يمكن لي نسيان من كان ابي. انا اعمل في البيتزا لدوافع عديدة. احيانا لحاجتي الى المال لسد بعض المصاريف، واحيانا دفعا للبطالة وعدم لقاء الوجوه الكريهة لبعض موظفات الشؤون الاجتماعية، اللواتي يحققن معك وكأنهن شرطة صدام حسين، وانا أكره الاستدانة من احد، او احيانا حاجتي للتغيير من رتابة الايام. ان الوقوف امام الفرن يذكرني بوالدي.لا تنس انه كان خبازا، وانا في كل مرة انسى كل ما حولي، فامام الفرن اتحول الى ذلك الصبي الذي يحضر كرات العجين لوالده، او يشعل التنور، او يبيع الخبز لاهل المحلة مغافلا والده ليدس بيد الصبايا الجميلات رغيف اكثر او يأخذ قطع نقود اقل. ان وقوفي امام حرارة فرن البيتزا لساعات يطهرني من الكثير مما افعله وارفضه بيني وبين نفسي، ولكني امارسه رغم كل شئ.

ما اغاض شاخوان في كريم انه لفترة طويلة ظل يتعامل بحذر وروح عدائية مع نوري، ويتجنبه ولا يطيق تعليقاته ونكاته، ويرى فيه مجرد ثرثار خليع. في كل جملة يقولها نوري يرى

كريم فيها شئ اخر يقصد به السخرية والاساءة للاخرين. كان نوري يتجاهل سلوك كريم معه رغم انه مع نفسه يتعذب لانه كان يحمل احتراما لشخصية كريم ويعتبره واحد من انبل الشخصيات التي عرفها:

ـ هذا انسان اجد عنده ما افتقده في نفسي، فيه الكثير مما اود ان اكون.

وعلى العكس من نوري، ولشهور طويلة كان كريم يتفحص ويشكك في كل كلمة يقولها نوري امامه او يوجهها له ويبحث فيها عن معنى اخر. وسأل مرة بحذر عن مصادر دخل نوري وكيف يعيش؟ كان سؤاله يوحي بالشك بعدم نزاهة مصادر نوري المالية. كان كريم يشعر بشئ من عدم الاحترام لشخصية البلاي بوي التي عرف بها نوري بين العراقيين. وكيف ان نوري يلبس ويبذر ويعيش من كيس عشيقاته. بل كان كريم ولفترة طويلة يتجنب شاخوان نفسه. فبعد لقائهما اكثر من مرة في مجالس عزاء او حفلات زواج، وفي ندوات سياسية صار شاخوان يلح على كريم لزيارته الى المطعم، الا ان كريم يعتذر كل مرة بشئ وهمي، وتطلب الامر كثير من الالحاح وجاء اخيرا. المرة الاولى جاء كريم منفردا. لم يضل الطريق الى المطعم. استقل الترامـوي رقم ١٠ ونزل ليس بعيدا عن المطعم الذي يمكن الاستدلال عليه بسهولة من الاعلانات الضوئية والاعلام الملونة المزخرفة بالحروف الفارسية التي جلبها رشيدي، والتي ينشرها شاخوان عند ركن المطعم. المرة الثانية وصل كريم الى المطعم مع فوزي. في كلتا الزيارتين كان نوري يقف خلف الفرن يعمل بصمت مختليا بنفسه. في فترة استراحة قصيرة، واذ كان نوري يلتحق بهم مع فنجان قهوة، كان كريم يسعى لادارة دفة الحديث عامدا الى اتجاهات غير تلك التي ينوي نوري الحديث عنها. كان كريم يبدو لهم مغاليا في رفضه الدعوة الى تناول البتزا في المطعم. كان يصر على الدفع حين اراد منه شاخوان اصطحاب معه شيئا من البيتزا الى البيت. كان كريم يكرر:

ـ هذا باب رزق عائلتك يا اخي!

كان جو التوتر الذي يخيم بحضور نوري يجعل كريم يحاول الانصراف سريعا متعللا بان المطعم مكان عمل وليس مكان زيارات شخصية. حاول فوزي التدخل مع كريم لكن نوري طلب ترك الامور للايام وحدها. وجاءت الايام بما هو مدهش حقا!

حين بلغ شاخوان طرف الشارع، لمح نوري يرتدي قميص العمل الابيض بياقته وباكمامه الزرقاء يقف عند باب المطعم مستديرا الى شئ يصلحه او يثبته جيدا، وكان رشيدي يقف ليس بعيدا عنه بملابس الخروج يضع حقيبته اليدوية الى كتفه في طريقه الى الانصراف.

٤

غادر ماموستا فرمان بيت اخته "ثافتاو" غاضبا، شاعرا بالغبن الشديد. اقترب بخطى واهنة كالمريض من سيارته المركونة عند زاوية موقف السيارات. لم تحترم كونه اكبر منها باربع سنوات. لم تكن صادقة حين تقول بانها سامحته على ما كان. راحت اليوم تثبت له بأنها لا تزال حاقدة. كتم غيضه طويلا وهو يستمع اليها، حتى لا تفلت منه عبارة تفسد كل ما خطط له مع ترزه طوال الاسبوع الماضي. لم يكن عبثا اطلاعه "ترزه" على مخططاته، توقعت وبذكاء كل شئ من ثافتاو:

ـ اعرف اختك جيدا، مغرورة، وانفها فوق الغيوم، وهي مثل الافعى، ناعمة ولكنها تلدغ حد الموت، ما عليك في مواجهة الافعى سوى ان تكون هادئا ولا تفقد اعصابك، تحمل منها ما تقول بروحية الاخ الاكبر وقدم افكارك بهدوء، ولا تنس اذا كان مصلحتك عند الكلب سميه حاج كلب!

كان فرمان يود ان تمد له اخته يد العون ليستطيع انجاز المشروع الجديد. حاول جاهدا ان يرسم صورة زاهية لمستقبل المشروع. مدركا انها تعرف كون طموحاته اكبر من مطعم بيتزا او كشك. لا تعرف بان هذا المطعم سيساعده لمواصلة المسير في الطريق لانجاز مشروعه الاكبر بتشييد عمارة من عدة طوابق يمكنه من فوق سطحها رؤية كل احياء مدينة السليمانية ويصير اسمه يتردد بعد ذلك كل يوم بين الناس، وتصبح المحلة كلها تحمل اسمه. ما ان يطلب سائق تاكسي العنوان من احد الزبائن حتى يرد ببساطة:

ـ الى مستشفى الكذا، ليس بعيدا عن عمارة ماموستا فرمان!

فكر فرمان بأن الطوابق السفلى من عمارته ستكون معلما بارزا في المدينة. تكون مركزا تجاريا يزدحم بالمحلات الحديثة ويتسابق التجار لأستئجار شقق السكن في بقية الطوابق. سيكلف احسن المهندسين بوضع التصاميم. سيحاول التعامل مع مهندسين فنلنديين. عرف وقرأ ان فنلندا مشهورة بمهندسيها وتطور الفن المعماري فيها. في محاضرة لفوزي، نظمها "المركز الثقافي الكوردي في فنلندا"، بدأها بالاشادة بتطور الفن المعماري في فنلندا، ثم تحدث عن تعاون بين نظام صدام حسين وشركات فنلندية لبناء قصور خاصة بالديكتاتور. تحدث عن اشاعات حول مساهمة شركات فنلندية في بناء سجون سرية للنظام. العمارة عندهم متطورة ابناء الكلاب. ابناء الدببة. شاهد في التلفزيون فلما لاحظ كيف ان لهم سمعه عالمية كبيرة. شطح الخيال عند

فرمان الى ان احدهم ربما يستأجر منه الطوابق الثلاثة العليا مرة واحدة ويحولها الى فندق راقي، عندها عليه ان يضع هذا في حسبانه عند وضع تصميم العمارة. فكر فرمان كم شقيّ وتعب لشراء قطعة الارض؟ كم من جهود بذل وكم تحمل من اهانات ونكران جميل من قبل الاخرين؟ كم قدم من الهدايا للمسؤولين في الاحزاب هناك في كل زيارة الى كردستان؟ كل مرة يحمل معه اخر موديلات الهاتف النقال؟ احدهم ارادت ابنته هاتف نقال موديله لم يطرح للاسواق بعد، سمعت عنه في التلفزيون. كم نفذ من طلبات سخيفة لبعضهم؟ فقط من اجل تسهيل شراء قطعة الارض. احدهم طلب منه معطف شتوي من الفراء لزوجته. يظن ان المعاطف من هذا النوع رخيصة. توقف من اجل ذلك يوما في اسطنبول ومن محلات الالبسة المستعملة اشترى له معطفا حسب الطلب. كان جيد المظهر وغلفه بشكل انيق ولم ينس تعليق علامات المصانع الفنلندية، التي اخذها معه خصيصا ليثبتها على زوايا المعطف. زفر فرمان وهو يتذكر كيف ان المسؤولين، ما أن تطا قدمه ارض كردستان، حتى يبعثون في طلبه. اذكياء في رصد القادمين والخارجين. كانوا يعتبرونه مليونيرا ما دام عازما على شراء هذه الارض. لم يكونوا يعلمون انه يجازف بمستقبل كل عائلته وبكل ما يملك. قال لنفسه دعهم يتصورونني غنيا، فصيت الغنى احسن من صيت الفقر.هذا يضع عندهم امالا بهدايا ورشاوي اكثر فيساعدونه على انجاز مشروعه. وهاهي اخته، ابنة ابيه وامه، التي رضع معها من ثدي واحد، تقف بوجه تطوير مصالحه وتحقيق احلامه. كانت قاسية معه، وتحدثت بدون شفقة:

- من اين تعلمت كل هذا؟

تسائل "فرمان" مع نفسه، واضاف:

- من منحها الحق ان تكون محامية للاخرين؟

في كلامها يتحسس فرمان افكار زوجها، الذي لا زال يرى ان الموافقة على زواجه من ئافتاو كان اكبر اخطاء والدهم في حياته. يومها وباعتباره الاخ الاكبر عارض الزواج بقوة متحججا بكون عباس عربي القومية وان اقربائهم في القرى، من العشيرة، لن يطيقوا هذا. قال له ابيه بجفاف وبعبارة طعنته مثل نصل بارد:

- من اعتقلني وعذبني في مبنى الامن العامة في السليمانية كان كرديا وانت تعرفه. ومن داوى جراحي في زنزانة في سجن "ابو غريب" كان عربيا، وامك تعرف اهله وقد زارتهم لتشكرهم. تجربة السجن علمتني ان اكون اكبر من هذا. لا يوجد كردي وعربي في حضرة رب العالمين، هناك الانسان الصالح والضمير الصافي.

ونادى الاب على نافتاو التي دخلت تجر نفسها تتصنع الخفر والخجل:

ـ ما رأيك يا ابنتي؟ عباس البصري قد جاءنا ومعه وجهاء عشيرته يخطبونك؟

واطرقت برأسها وهي تعض اصابعها كطفلة بمشهد لا يتناسب ابدا مع ما هو معروف عنها من جرأة وتحدي. وواصل ابيه:

ـ ان القول لك يا ابنتي. الموافقة والرفض بيدك. وهاهو اخوك الكبير غير موافق فما تقولين انت؟

وكانها لبوة انتفضت نافتاو، حين سمعت برفضه لخطوبة عباس لها. سددت اليه نظرات حارقة وهي تود الانقضاض عليه:

ـ من كل الطلاب والطالبات في الجامعة، لن تسمع يا ابي عن عباس الا ما هو طيب. وكل سنوات الدراسة الجامعية عرفته انسان مخلص ومؤدب ومحب للكرد وحقوقهم. ولا اعتقد اني ساشعر بندم ما على الموافقة للزواج منه. وامامنا فترة خطوبة يمكنك يا ابي ان تختبره فيها كانسان. وهو حتى بدأ بتعلم اللغة الكردية، اما اخي فرمان فمع احترامي لرأيه الا ان الامر يهم مستقبلي وانا التي ساتزوج، ويا ليته يهتم بمستقبل عائلته.

وهاهي نافتاو توجه له صفعة ثانية، وتقف امام مستقبله ولا تستمع لوجهة نظره بل تواجهه بكل قسوة وعدم احترام:

ـ يا فرمان، انت اخي واعرفك جيدا. وكما تكرر انت باستمرار، نحن رضعنا من ثدي واحد. وعشنا طفولتنا معا. انت يا اخي اناني جدا، ولا تفكر الا بنفسك فدعك من الحديث عن مستقبلي ومستقبل عائلتي. انت الان قادم وتدعي الحرص على مستقبلنا. وانت الذي تفننت ومعك زوجتك في رمي الاشواك في طريق زواجي من عباس طيلة فترة الخطوبة. اتريدني الان الوثوق بك ببساطة واسلمك رقبتي؟ هل نسيت كل ما حصل لنا بسببك؟ وثق بك عباس رغم تحذيري له فسرقتنا مثلما سرقت الاخرين. كم مرة يمكن الوثوق بك؟ لا يا اخي، نحن نشكرك جدا. قبل محاولتك مساعدتنا اذهب واعد حقوق الناس التي لا زالت تنتظر تنفيذ بعض وعودك لها. وقبل كل شئ انتبه لمستقبل ابنائك قبل الانتباه لمستقبل ابنائي. ومع كل هذا، وليس سرا، فألتزامات عباس نحو اهله كثيرة هذه الايام ولم نستطع توفير شيئا ينفع لنشاركك في مشاريعك التجارية. نحن جد اسفون!

وهو يوقف السيارة عند الاشارة الحمراء، شعر بأن اخته جرحته عميقا هذه المرة. تظنه قادم لسرقتها. حاول ان يكون صريحا معها. بين لها ان المشروع ناجح وله مستقبل كبير، ولكنه لا

يملك الان السيولة المالية المطلوبة للمشاركة ولا يمكن ترك المشروع يهرب الى غيره. لم يقل لها ان العديدين رفضوا اقراضه، وسدت الابواب بوجهه ولذا فكر بها:

- انت اختي احسن من الغريب، والاقربون اولى بالمعروف، مثلما يقال.

لكنها كعادتها، وربما تستعير الفاظ زوجها:

- يا اخي قلت لك ان علينا التزامات اجتماعية كثيرة!

من يسمعهم يظنهم فرع من الصليب الاحمر الدولي. كل القصة ان ام عباس، عجوز ودخلت مستشفى وتوفت. يحاولون طرد العين عن اوضاعهم. اثاث البيت الجديدة وحدها تفضح كذبهم. تقول اشترت الاثاث بالاقساط! وماذا عن سيارة زوجها الجديدة؟ اخبره عثمان جيدا كيف ان عباس ابن "الكلاش"[19] دفع المبلغ كاملا وبـ"الكاش"[20]. وماذا عن ملابس ابنائها، لاينسى كيف عادت "تەرزه" قبل شهر مهضومة، مكلومة، وعيونها تجدح شررا يوم التقت صدفة بابنة ثافتاو الكبيرة في "اسواق منطقة المركز الشرقي":

- لو رايتها يا "فه رمان"، ابنتهم الكبيرة، كيف تتبختر وملابسها اخر مودة؟ بنت الحمار من اين يحصلون على ملابس كهذه؟ كانت ترتدي بلوز بلون مثل النار. واشتعلت النار في قلبي. معقول يلبسون احسن منا؟ درت ساعات ابحث عن واحد مثله لم اعثر حتى ولو على شبيهه.

حصل عباس البصري على وظيفتة الجديدة في الجامعة بضربة حظ، وصار كل من يسأل عنه لا يسمع سوى كلمة " الجامعة ":

- أين عباس؟

- ذهب الى الجامعة!

- هل يمكن لقاءه؟

- عباس مشغول بتنظيم ندوة في الجامعة!

- ايمكن الحديث مع عباس بالهاتف؟

- عباس مسافر، الجامعة ارسلته ايفاد الى كندا!

وبسرعة التقطتها "تەرزه" وقالت بخبث:

- زوج اختك، هذا "العربجة "[21]، المفروض تسموه "عباس جامعة"!

وراحت التسمية تنتشر بين المعارف. وبقدر ما قالتها "ته رزه" بشئ من السخرية وارادت بها الحط من قيمة واسم عباس، الا ان المدهش أن التسمية صارت بين الناس تثير الاهتمام

والاحترام لعباس الذي صار يفتخر بمناسبة ودون مناسبة بعمله في جامعة هلسنكي. وصار كل من لدى ابناءه مشكلة دراسية ما يسأل عباس ويستشيره. ومن يبحث عن فرصة عمل في جهاز التعليم صار يسأل عباس. وابن الحمار لم يكن يعتذر عن مساعدة احد. وكان يرفض ان يسموه استاذا.

ـ اخي تكفي!

يتواضع ابن القحبة. يحاول اغاضته، اكيد سمعه كيف يقدم نفسه ويقول:

ـ " طه... فرمان طه"!

وذاك "البلاي بوي" الحقير، نوري شناوة، قيل انه مرة وفي مجلس عزاء سأل عباس:

ـ صحيح ان نسيبك "فهرمان" تعلم طريقة تقديم نفسه من افلام "جيمس بوند"؟

وحين لم يدرك عباس مقصد نوري، او لم يرد مباشرة، كونه حذرا حتى لا يتورط بتعليق ما، وتصاعدت الضحكات من الاخرين، فأن هذا الحقير المستهتر شاخوان، زير العاهرات، تطوع ليفسر مقصد نوري. واكثر ما اغاضه هو ان بعض الشباب صاروا يسمونه "فرمان بوند". وسرت التسمية مثل النار بين الناس. ويوم عاد ابنه دلشاد والكدمات تعلو وجهه رفض ان يقول شيئا، ثم حين حاصرته امه في غرفتة، اعترف لها بكل شئ:

ـ كنا نقف في محطة القطار، في الصالة تحت. ليس بعيد عن فتحة باب المترو. كنت امزح مع اصدقاء لي، حين سمعت بعضهم يتحدث عني بصوت عال. كانوا يستفزونني. حاولت السكوت اولا، ولكنهم واصلوا الاستفزاز ولم احتمل اكثر. خصوصا حين صاحوا بي: يا ابن "فهرمان بوند"!

كل يوم صار " فهرمان" يسمع من يشكر عباس ويدعو له بطول العمر لانه ساعده بكذا وكذا. صار قلما يرى عباس وحيدا. دائما ثمة من يرافقه. في كل مكان يحل عباس ثمة من يعرفه. في مجالس العزاء ينهض الجميع عند دخول عباس.عند الخروج لا يتقدمه احد، دائما هناك من يفتح له الباب ويتركه يمر اولا. بنظاراته الطبية، وشعره الاشيب وبدلاته الفاخرة التي تختارها له نافتاو بحرص يبدو عباس مثل وزير، وهو ليس اكثر من موظف في مديرية العلاقات العامة في رئاسة الجامعة. الظروف الحقيرة خدمته بوفاة مفاجأة لموظف فنلندي، عمل هو لحين مساعدا له، وتبوأ مكانه مؤقتا. يقال ان الجميع رغبوا في بقائه في الموقع ذاته، رغم ان شهاداته العلمية لا تناسب المكان. عباس بنفسه لا يخجل من الحديث عن هذا ابدا:

ـ في البداية دخل في المنافسة معي بعض الموظفين، وكنت اعتقد اني اقل حظا من غيري، فغالبيتهم يحملون شهادة باختصاص العمل، هناك طموح عند الكثيرين لاحتلال الموقع، رغم ان

راتبه نسبيا ليس بالكثير الا انه يمنح صاحبه سلطات كثيرة، وتحت يده وتصرفه تكون امور عديدة. حين عرض عليّ الامر ترددت اولا، فهو مسؤولية، وكوني اجهل الكثير من القوانين الفنلندية جعلني اتردد، لكنهم وجدوا الحل بان ارسلوني لدورة قانونية سريعة اجتزتها بنجاح بمساعدة من العديد من زملائي في العمل، وهكذا وجدت نفسي استقر في عملي، واريد القول لكم بكل صراحة ان اخلاصي في عملي وكوني اريد دائما ان اثبت لهم بأن الاجانب في فنلندا ليسوا قاصرين عن العطاء، كان يدفعني ان لا اهمل شيئا، نادرا ما يقوم الفنلندي بانجاز عمل على حساب وقته الشخصي، انا كثير ما اكون اخر من يغادر مكتبي في القسم، هذا يراه ويلمسه الفنلنديون وهذا من الاشياء التي تدفعهم للتمسك بي اكثر.

شعر فرمان بالالم من سلوك اخته وجفائها، فكل ما يريد فعله هو محاولة التمسك وباخلاص بالمشروع الذي جاء به غريب عتوّي، الذي فجأة قرر دعوته للمشاركة في العمل. هي فرصة لا تكرر، قد تتاح له مواصلة الطريق نحو مشروعه الاساس، نحو حلم العمر، لكن اخته لا تدرك هذا. لا تدرك انه سيكون فخرا لها امتلاك اخيها عمارة في مدينة السليمانية. لا تدرك ان غريب عتوّي ايضا لولا خوفه من المجازفة لوحده لما قصده ساهما وهو يتلمس اطراف شواربه:

ـ المكان يقع في موقع مناسب جدا، هناك عدة شركات قريبة اليه، فيمكن بحملة دعاية وترخيصات اولية كسب زبائن اكثر. كنت، يا ماموستا فرمان، ساشتري المحل لوحدي لولا التزاماتي نحو اهلي في العراق.

يظن غريب عتوّي، غريب ابو الكاولية[٢٢] انه يمكن خداع فرمان بكلامه بسهولة. فكر فرمان وغصة في صدره. الجميع يكذبون. اخته نافتاو اولهم. كلهم يتباكون باسم الوطن. ويعتذرون بأسم الحصارالاقتصادي ومساعدتهم لاهاليهم. وهو الاعرف من كل اولاد الكلب بهذه الحيل. لم ينقذه من السجن وحكم القاضي غير التباكي على مصيبة الوطن:

ـ اتريدني يا سعادة القاضي ان ابقى متفرجا بدون اي احساس بالمسؤولية، امام وطن مبتلى بديكتاتور وحروب وحصار اقتصادي؟ اذا كان في مساعدتي لابناء وطني جريمة، فأنا مستعد للموت لاجل هذا وليس للبقاء عدة سنين في السجن. اتريدني البقاء متفرجا على ماساة شعبي الذي ضاعت اماله وحياته الهانئة بين نظام ديكتاتوري اشبع ابناء شعبي جوعا وموتا بحملات الابادة الجماعية والغازات السامة، واحزاب سياسية تركت عدوهم الذي رشهم بالكيمياوي وراحوا يذبحون بعضهم البعض من اجل العوائد الكمركية؟ نعم اعترف ان من جرائمي هو مساعدة اقربائي واصدقائي. اختي وابنائها وابن عمي وعائلته وجيراننا من

الفقراء، المرضى منهم، كي يصلوا الى هنا، الى فنلندا، الى بلد ديمقراطي مسالم، متحضر. يعيشون تحت سقف امن، يتطببون جيدا، يدخل ابنائهم المدارس، يبحث الاباء عن عمل مناسب ويكون الجميع مواطنين نافعين يعيشون بسلام ووئام مع غيرهم. من اجل وصولهم الى هذه البلاد يا سيادة القاضي كان لابد من اتباع طرق غير شرعية بمساعدة المهربين بل صرت بنفسي احيانا مهربا لهم. اقر واعترف بهذا. دفعنا اموالا لبعض الناس ممن ساعدنا في اجتياز حدود الدول التي مر طريقنا من خلالها. كان هناك العديد من الناس المخلصين الطيبين ممن ساعدونا دون اي مقابل ولم يطلب لنفسه شيئا، ولكننا دفعنا الكثير من المال لمختلف النفقات. ودفعت من جيبي الكثير، مثلما ساهم القادمون انفسهم ايضا بتحمل بعض المصاريف. أنا لا املك امكانية الصرف على كل هؤلاء الاقارب والاخوة. هناك اجور نقل وفنادق ورشاوى لشرطة الحدود. نعم ساهم البعض من الذين قدموا الى فنلندا بدفع بعض المصاريف، ولكن اتحدى أي واحد منهم اثبات استلامي فلسا واحدا بيدي او اخذت شيئا لنفسي. انا واصدقائي الفنلنديين لم نهرب خمرا او دخانا او مخدرات او اسلحة، نحن ساعدنا ناس مظلومين على الوصول الى الحرية.

في القاعة، صفق بعض الحاضرين. لم يكن امام القاضي اثبات ما على فرمان بانه تقاضي اموال لنفسه. كان "والتر اندرسون" الذي ضبط وهو ينقل بشكل غير شرعي مجموعة من اللاجئين الاكراد الى داخل فنلندا يدافع عن فرمان بقوة، رغم انه ادرك تماما ان فه رمان قد خدعه واستلم دون علمه مالا من المساكين. كان والتر يدافع عن نفسه، لانه اكتشف استغفاله من قبل فاسد مثل فرمان، لسانه مطليا بعسل التباكي على ابناء شعبه واستعداده للموت من اجلهم. التقى والتر اندرسون مع فرمان طه في ندوة حول مساعدة اللاجئين. مباشرة طرح فرمان مشكلته وبدون رتوش. اعجب والتر جدا بجرأة فرمان. قال لنفسه:

- هذا الرجل قادر على اجتراح المعجزات من اجل اهدافه!

اخبره فرمان بأنه استطاع مساعدة اقاربه في الوصول الى بطرسبورغ الروسية، وهو قادر على نقلهم خلال اسبوع الى تالين، ولكن امامه مشكلة عبور الحدود الاستونية الفنلندية. طلب منه مساعدته بأقتراح او فكرة. لم يطلب ما اراد مباشرة. بعد لقاء او لقائين ظهرت الفكرة واضحة وكانت جريئة جدا:

- ليس بيدنا خيار اخر. اما هلاكهم على ايدي رجالات المافيا، او تنفذ مدخراتهم وتكون كارثة، او نهربهم الى هنا. سبق لنا فعل ذلك، يحتاج شجاعة وجراة وايمان. في شاحنة كبيرة، بين البضائع نعمل غرفة داخلية من الخشب، داخلها نضع بعض الافراد. بمجرد عبور الحدود تنقلهم

سيارات اخرى الى بيوت في اطراف هلسنكي. ننتظر وصول رحلات جوية من بلاد لا تمنح اللجوء، ندعهم يسلمون انفسهم للشرطة ويدعون انهم جاؤا عن طريق الجو بجوازات اوربية مزورة مزقوها حال الخروج من المطار.

شعر والتر بانه سيطير من الفرح. تكلم كثيرا في الندوات والامسيات عن ضرورة مساعدة اللاجئين. تظاهر ضد العنصرية، وحمل لافتات ووزع منشورات. كانت تلوح في مخيلته قصص اللجوء ايام الحرب العالمية الثانية، ولا تزال عالقة في باله صور الاف الاطفال الفنلنديين الذين ارسلوا الى ستكهولم خلال الحرب. كان والتر يتذكر بحب امه، وهي تقدم اخر رغيف خبز في منزلهم لمن يطرق الباب من الفقراء. مات ابوه في جبهات الحرب. لا يذكر منه سوى رائحة جسده حين كان يأتي من المنجرة تعبا، مبتلا بالعرق، ويحتظنه ويرفعه بين ذراعيه. ويقرصه في اذنه، بينما تتدلى اخته "بيرت" من ذراع الاخرى. لم ترسله امه الى اي مكان. لم تتزوج رغم كثرة خطابها. ظل العم "بينتي" بالنسبة له بمثابة الاب. يحنو عليهم كثيرا. وكان يمكن لامه الزواج منه لولا ان العم "بينتي الاحمر"، كما تسميه جارتهم، اختفى فجاة ليقال انه فقد في احد رحلاته الى روسيا. حين كبر والتر وصار يفهم الامور كان يتسائل مع الاخرين: هل دفن نظام ستالين العم بينتي في احدى معسكرات الاعتقال في سيبيريا؟ لكن احدا لم يجيب، ولم تقدم امه له جواب شاف. تركت له امه البوما مليئا بالصور، لم يطلع على بعضها قبل وفاتها. كانت الصور تبين حجم المودة ودفء العلاقة بين امه والعم بينتي. وصار والتر يفهم حجم المأساة في حياة امراة فقدت رجلين احبتهما بعمق. وحين قابله فرمان باقتراحه، استيقظت في داخل والتر صور الشجاعة عن والده الجندي، الذي كان يرى صورته في تفاصيل قصص الحرب التي ادمن على قرائتها، وفي صفحات رواية "الجندي المجهول"، التي سطرها "فاينو لينا"[٢٣] وجعلت الكثيرين يهاجمونه لفضحه بشاعات الحرب. استيقظت في والتر روح التحدي التي لمسها عند العم بينتي الذي كان خطيبا لامعا في مهرجانات الحمر والناشط بجد في مساعدة الناس المحتاجين. حاول والتر ان يقدم عونا الى اللاجئين من يوغسلافيا لكنه قوبل بالكثير من الممارسات البيروقراطية. يوم وقف في ندوة اقامتها "منظمة الامل"[٢٤] التي ساعدت عراقيين على الوصول الى فنلندا بتخليصهم من السجون الاستونية، قال بصوت عال:

- انا جاهز لمساعدة اللاجئين في كل مكان في العالم، لكني احيانا لا اعرف كيف؟

كان فرمان حاضرا هناك. في اول استراحة جاءه كاشفا عن اسنان لامعة، مرصوفة كأنها اسنانا اصطناعية، وقف امامه مستقيم القامة يتحدث بثقة، وبلغة فنلندية بلفظ سليم، والحروف الفنلندية الصعبة يلفظها بدون اي لحن:

- طه... فرمان طه. معروف بين اصدقائي باسم ماموستا فرمان، و"ماموستا" كلمة كردية باللهجة الكردية السورانية تعني استاذ، فأنا مدرس جغرافية!

وكانت البداية لرسم خرائط عمل جديدة، وعبور حدود دول ودول، في مخاطر ربما تشبه افلاما هوليودية. لم يكن والتر يدرك تلك الاساليب الخبيثة التي كان يتبعها فرمان. بعد ان تناقشا طويلا حول الفكرة، اختارا خطة مناسبة بعد ان درساها جيدا. اختارا يوما ينقل فيه التلفزيون الفنلندي مباراة للهوكي، حيث تكون فنلندا طرفا في المباراة. قال فرمان بلخجة الخبير:

- يمكن لروسيا احتلال بلادكم بدون اي اطلاقة لو اختارت هذا اليوم لهجوم عسكري، فحتى الحكومة ستكون جالسة عند شاشة التلفزيون.

كان ساخرا حد اثارت الاعجاب والالم. وحقا كان الشرطي التعب عند نقطة العبور الحدودية غير عابئ بتفتيش شحنة البضائع جيدا. مرر اوراقه بسرعه وختم له بشكل اسرع، لتكون الحمولة خلال ساعات في مكان امن. كانوا عشرين كرديا دفعة واحدة. بينهم نساء واطفال. امر فرمان الامهات بتنويم الاطفال، بحبوب الفاليوم التي وزعها عليهم، قبل عبور الحدود بوقت مناسب. بعد ان صارت الشحنة في امان، وصل فرمان الذي سبقه الى هناك وهجم عليه بهستريا، وكاد ان يفترسه بالقبل. بعد حين ادرك والتر ان الفرحة لم تكن لسلامة الناس بقدر ما كانت لرزمة الدولارات التي حصل عليه فرمان من خلف ظهره. حين التقى الاكراد المساكين لاول مرة، كان والتر يرى الخوف في عيونهم، وكان يلمس حذرهم منه. طلب منهم فرمان بشدة عدم الحديث بأي موضوع يخص السفر حتى لا يفسدوا الرحلة. وكانت حقيقة الامر حتى لا يفسدوا خططه الخاصة. كان فرمان ينقلهم الى بيوت سرية في تالين هيأها بالتعاون مع مواطنة روسية، جدتها لامها من اصول فنلندية، وحصلت على حق الاقامة في فنلندا لذلك السبب، وصارت تتاجر بالسجائر والفودكا. لشهور طويلة صار فرمان موزعا جيدا لبضاعتها، خصوصا بين بعض الاجانب في فنلندا، لكنه وجد انه لا يحقق من ذلك سوى ارباح صغيرة، فقد كانت صاحبته الروسية اكثر طمعا منه، ففكر معها بمشاريع اكبر. التقى قريب لها، يعمل في شرطة الحدود الاستونية. لم ياخذ حديثهم كثيرا من الوقت، ليتفقا على خطط عبور الزبائن، وثم تأمين فرص عبورهم الى فنلندا، وكان والتر صيده الدسم. لم يترك فرمان للافراد الذين نقلهم من بطرسبورغ حرية اللقاء بمالكي البيوت مباشرة. رتب كل شئ بنفسه، وبدهاء مدهش، مستثمرا عدم معرفة الناس للغة الروسية او الاستونية، وخوف الناس من فقدان فرصة الوصول الى بلد امن:

ـ اي مخالفة منكم يعني كارثة للجميع، لا يمكنني السماح لاحد منكم الاستهانة بالتعليمات، لا حديث بأي شكل كان، مع اي انسان، حتى لا تخربوا علينا ما رسمناه بدقة لصالحكم.

صدقه المساكين وامنوا به. وثقوا به وهم يرون حذره الشديد، وصحة الكثير من تعليماته التي رافقتهم طول الطريق وبينت لهم خبرته وفطنته الشديدة، فبين يديه صار مستقبل ابنائهم وكل اماالهم وايضا اموالهم، تبعوه مثل مريدين لنبي. لكنهم لم يدركوا انه نبي ضال وسافل. كان يستوفي منهم اجور السكن واجور الطعام بالدولار، ويسلم اصحاب البيوت في تالين اجورهم بالعملة المحلية. اخبر اللاجئين المساكين بأن والتر مهرب متخصص ولكنه محب لمساعدة الناس ايضا لذا يرونه لطيفا ومجاملا، وهو لا يحب الحديث مع اي شخص عن امور المال. قال لهم بثقة مفتعلا روح الصداقة والميانة:

ـ هؤلاء الاوربيون بقدر ما يعبدون المال فهم يحتقرونه، لا يحبون الخوض في الاحاديث عنه بشكل مباشر، لذا ورطني بمهمة جمعه منكم نيابة عنه، وانا قبلت بذلك لاجلكم.

كان يسرق منهم ما يملكون. لم يرحم احدا. سلبهم مدخراتهم، ذهب نسائهم، وحتى اقراط اطفالهم، وهو يشتم الاوربيين وطمعهم وكفرهم وفساد اخلاقهم. أوصاهم بشدة ان لا يخربوا الرحلة بالحديث مع والتر حول اي امر وخصوصا عن اي مبالغ، كي يضمن ان يكون والتر بعيد عن حقيقة افعاله. كان والتر مستغربا حذروتجنب من يجازف لاجلهم، بكل سمعته ويعرض نفسه للعقوبات في حال انكشاف امره، من الحديث معه. تفهم مناداتهم له بأسم: "ولي"، فرمان اختصر له اسمه امامهم، حتى يتجاوز صعوبة حفظه من قبل المساكين المغلوبين على امرهم. وتبين لوالتر ان كل ذلك ضمن خطوات مدروسة من قبل فرمان. وزيادة في الدهاء والتدبير، طلب فرمان من المساكين جمع المبالغ في مظروف واحد ويكتبون قائمة باسمائهم وقيمة ما سددوا واخبرهم بان واجبه تسليم المظروف الى المهرب الاوربي. وامام انظارهم سلم المظروف ذاته الى والتر الذي اخفاه بسرعة. كان فرمان قد رفع رزم الدولارات التي سلمتها له العوائل. كان فرمان يستغفل الطرفين. في المظروف وضع عملات محلية وبعض المصوغات الذهبية، وحين سلم المظروف الى والتر امام انظارهم اوحى لهم انه سلمه ما جمعه منهم، بينما اخبر والتر بأن اصدقائهم يخشون حملها معهم، ويرجون والتر ان يخفيها عنده لما بعد عبور الحدود. ثم استرجع فرمان المظروف من والتر دون ان يراه احد. كان والتر قد اجهد نفسه وعمل غرفة داخلية محكمة بين البضائع في الشاحنة، اشترى لها اخشابا من حسابه الخاص، ورتبها بنفسه، وعمل فيها ايام، دون كشف سر ذلك لاقرب الناس اليه. حشر فيها مجموعة اللاجئين بعد ان زودهم بالماء واكياس

وقناني للتبول. قبل ليلة اخذ فرمان من اللاجئين كل وثائقهم وصادرها ليدخلوا البلاد دون اي هوية. جعلهم ينزعون من ملابسهم كل العلامات التجارية التي تشير الى روسيا او استونيا او اي دولة مروا بها وتمنح حق اللجوء. راح يقدم لهم سيناريو رواية مغايرة عن كيفية دخولهم البلاد. كانت اخته ثافتاو في الوجبة الثالثة. اتصل به عباس عبر وسطاء ليساعدهم، ووجدها فرمان فرصة ليكون منقذا لهم وليرى نظرات التوسل في عيون اخته التي طالما اذلته بعنادها وكبريائها. كان عباس شديدا وصادقا في لوم ثافتاو لقسوة تعاملها مع اخيها. كانت اخبار الشجارات التي اندلعت مرارا بين ثافتاو وعباس وصلت بسرعة الى فرمان فشعر بالانشراح. حصل ذلك في تركيا في اول محطة لهما بعد كردستان. وغضبت ثافتاو وارادت العودة الى السليمانية، وحين وجدت ان عباس لن يتركها تعود بالاولاد معها سكتت ورضخت للامر. كان الشجار الثاني في موسكو، حين خدعهم احد المهربين العراقيين ورفض اعادة العربون. واخيرا اندلع الشجار الاكبر حين اتصل عباس ب فرمان طالبا المساعدة. تلقت ثافتاو الخبر مثل الصاعقة، وظلت تصرخ بعباس:

ـ لماذا لم تستشرني؟ اهكذا كان اتفاقنا؟ اتريدني تسليم مسؤولية حياة ابنائي لنذل مثل فرمان؟

كان هناك متطوعون لنقل تفاصيل الشجار الى ترزه، التي لم تبخل في اضافة الكثير من عندها لتزيد من كراهية فرمان لاخته، وبدلا من الاعتذار عن المساعدة اتصل فرمان بنفسه مع عباس واتفق معه على كل الخطوات، وراح يبالغ في متابعة اخبارهم ونقلها الى كردستان. صار كل اقربائهم ومعارفهم في السليمانية يعرفون باخبار أهتمام فرمان بعائلة ثافتاوا رغم كونها تتحدث علنا بالسوء عن اخيها الاكبر، وصار بعض الناس يذمون ثافتاو علانية لجحودها مع اخيها. كان الكثيرون مندهشين لهذا الحنان المفاجئ الذي استيقظ في قلب فرمان. من جانبها كانت ثافتاوا لا تخشى تكرار وجهات نظرها امام الناس:

ـ اشهدوا علي باني حذرت زوجي من شرور اخي!

كان عباس يثور صادقا:

ـ يا امراة، انه اخاك، لقد عاش طويلا في بلد حضاري واكيد انه تغير وتعلم اشياء جديدة!

وكل ما تعلمه فرمان هو الاستيلاء على كل مدخراتهم اجورا لرحلتهم الى فنلندا. كان اكتشاف عملية خداعهم اشبه بالمسرحية الهزلية. التقى والتر بدون تخطيط مع محمد الخياط وزوجته واطفالهم. كان محمد احد زبائن فرمان، الذين اشتبكوا معه وتخاصموا معه. اراد فرمان

اولا التخلي عن محمد وعائلته في بطرسبورغ حين تشكى من حجم التكاليف، لكن الاخرين ضغطوا على فرمان لضمه الى المجموعة. كان محمد رجلا هادئا، تعود النظر بعين الشك لكل ما حوله. كان اللقاء بين محمد ووالتر في حفل عائلي دعي اليه والتر، وحضره الكثير من المعارف. فجاة اطاحت الخمرة بهدوء ورزانة محمد، وحين واجه والتر منفردا، احتظنه وقبله بصدق، شاكرا اياه لشجاعته ومهارته. كانت فنلنديته مفهومة تماما، لكن ثمة جملة ظلت يكررها عدة مرات، لم يفهمها والتر تماما:

ـ للاسف اجورك غالية قليلا!

في الايام التالية وبهدوء، وكانه يستشعر الكارثة، ودون معرفة فرمان، استدعى والتر من يتكلم اللغة الكردية والفنلندية جيدا واستدعى محمد وراح يستفسر منه ليكتشف الحقيقة المرة، التي اصابت والتر بصدمة. سمع كثيرا من التفاصيل الغريبة، التي ساعدته لرسم صورة واضحة لعملية الاستغفال الكبيرة التي نفذها معه فه رمان بدناءة شديدة. باسمه استلم فرمان من الجميع مبالغا خيالية. ثار والتر وشعر انه طعن في كرامته. بمساعدة محمد جمع والتر بعض من ركاب الرحلة، واستدرج فرمان للحضور، وليعلن امام الحضور، بأنه لم يستلم سنتا واحدا من اموالهم ولم يطلب اجرا لما فعل، وعليهم استرجاع ما دفعوه من اموال من فرمان الذي خدعه وخدعهم جميعا. ثار واربد البعض وهددوا فرمان، بينما سكت الاخرين خوف ان يكون الامر لغير صالحهم وتتعرقل عمليات منحهم اقامة اللجوء. كان فرمان هادئا، وصلفا بشكل اذهل الكثيرين:

ـ سأدخل السجن، ولكن سيطردونكم، ومن سيرجع لكم نقودكم!

قال فرمان ذلك بصوت عال، ناجحا في اسكات الكثيرين منهم واخافتهم. الا محمد الذي ظل يرغي ويزبد ويهدد كل يوم، وفي ساعة سكر امسك بتلابيب فرمان في مركز المدينة مطالبا بنقوده، وتعاركا وليشج راس فرمان. حضرت الشرطة، التي فتحت تحقيقا على ضوء اقوال محمد، وتم اضافة اوراق التحقيق الى قضية التهريب ضد والتر المعلقة امام المحاكم. فتشت الشرطة بيت فرمان فلم تعثر على اي مبالغ، ولم تجد مظاهرا للثراء، وحساباته وعائلته في البنك عادية تماما، فاتجهت انظارهم الى والتر لتنهال عليه الاسئلة وتهمة الاتجار بتهريب الاجانب. في المحكمة والى جانبه فرمان وجد والتر نفسه في ورطة بالغة، ومن اجل انقاذ نفسه وسمعته، راح يدافع بحرارة عن فرمان، ومتهما محمد بالكذب والافتراء وعدم امتلاكه الدليل، وكونه وفرمان لم يستلما اي مبلغ من اي شخص، وان فرمان كان مجرد مترجما ومساعدا له لانجاز

مهمة نبيلة لمساعدة ابناء قومه. وحبا في مساعدة والتر وخوفا ان يكون قرار المحكمة ضد قبولهم في البلاد كلاجئين، بادر العديد من العراقيين للشهادة لصالح والتر وتكذيب محمد، الذي احبط في قاعة المحكمة، وانهد ذاهلا في بكاء جريح. انكر الجميع تسليم اي مبلغ لفرمان او والتر. وادهش والتر تماما براعة فرمان الذي وقف باسما، ودون خوف يجادل القاضي ويشيد بشخصية والتر وشجاعته وانسانيته، وليسميه "المهرب النبيل"، اللقب الذي التقطته الصحافة المحلية وراحت تسود المقالات عنه. كان فرمان يتحدث بصوت عال وبثقة بالنفس ادهشت والتر والاخرين. اعلن فرمان عن استعداده لتلقي اي عقوبة يفرضها القانون من اجل ابناء وطنه. كان يصوغ عباراته بلغة قانونية وادبية اذهلت الكثيرين:

ـ اؤمن بعدالة القانون الفنلندي، واعرف ان الجانب الانساني يحرك هذا القانون.

لم يتحدث والتر في المحكمة كثيرا. التزم بتوجيهات المحامي الذي برع في اقناع المحكمة ببراءة موكله، وكون خرق القانون جاء لجوانب انسانية وبشهادة اللاجئين انفسهم. في نهاية الجلسات التي استمرت عدة ايام، صدرالحكم بالبراءة للجميع.عند باب المحكمة، تجمع كل اللاجئين مسرورين يهنئون والتر ويعبرون عن فرحهم بنجاة سمعته، ولكن لا احد انتبه كيف ان فرمان ترك المكان وتبخر فجأة. رفضت نافتاو حتى الحضور الى المحكمة. لم يستدعوها للشهادة، وكذلك لم يستدعوا عباس، لم يكن القاضي يعرف انها لو حضرت ربما افسدت الامر على الجميع. ربما كشفت لهم كيف ان اخاها كان من قوات "الجحوش"(٢٥) لفترة، فمن اجل ان لا يذهب لجبهات الحرب انتظم في قوات الجحوش التي كانت تسمى "القوات الخفيفة" وكان الناس يسخرون من افرادها بأسم "شاي خفيف". كان فرمان يطمح للتدرج في المناصب معهم، لولا ان انتفاضة ١٩٩١ حصلت، والتحق مئات الجحوش بمليشيات الاحزاب التي وجدتها فرصة لتتسع عدديا في اطار نزاعها على مراكز القوى. ادرك فرمان بشكل سريع ان الصراع بين الاحزاب لن يقوده لتحقيق اي حلم من احلامه. فجمع كل ما لديه ووصل الى روسيا، ثم اختار فنلندا لأن اسعار التهريب اليها كانت الارخص عند المهربين في موسكو، ولعزوف العراقيين وجهلهم بهذه البلاد، حين قال له المهرب احمد عبد السادة، بامكان نقله الى هناك خلال اسبوع، كان اول سؤال ل فرمان:

ـ بأية عملة يتعامل الفنلنديون؟

٥

ما ان غادر بيكّا تويفونين المنزل حتى رفع فوزي عطية سماعة الهاتف وادار رقم هاتف سكن كريم مطرود. لم يجب احد، فقدر انه ذهب عند باولينا كما اخبره. لم يشأ ازعاجه وهو الذي يحمل ما يحمل من هموم هذه الايام. ومل من مطالبته أياه بشراء هاتف محمول. كل مرة يسمع ذات الجواب من كريم:

ـ لا اريد ان ابدوا مثل المجنون، اتكلم مع نفسي وانا اسير وحدي، وثانيا انا متضامن تماما مع "اكي كاوريسماكي".

غسل فوزي الصحن الذي قدم فيه ل بيكّا قليلا من الباقلاء مرشوشة بالنعناع اليابس، الذي يشتريه مسحوقا من محل البضائع الشرقية الذي دله عليه شاخوان، وهو يهمس له:

ـ هذا رجل لا ينتمي الى قائمة " الملتفين حول عمود النور"، يمكنك بيعه "طريق الشعب" اذا رغبت!

يوم بعد اخر اعتاد بيكّا تناول الطعام العراقي، وصار لا يفضل سواه عند زياراته له. بعد انتقال كريم الى كيرافا وتعارفه مع بيكّا، واذ علم هذا بمعرفته أجادة تحضير انواع من السلاطات العراقية، كان بيكّا كثيرا ما يغافل كريستينا ويختار منزل كريم الاقرب اليه من منزل فوزي. ما ان يفتح له كريم الباب ومباشرة بعد القاء التحية بلفظ عربي صحيح، او بمبالغة ابراز صعوبة اللفظ:

ـ سلام... سلام... مرهبا!

حتى يصيح بكريم:

ـ " جاجيك... جاجيك "!

وتكون علامة على رغبته لتناول قدحا من الكحول، واذ ينصرف كريم لتنفيذ رغبة بيكّا او ما يوازيها، يأخذ بيكّا على عاتقه اعداد الطاولة بمهارة، اذ صار على معرفة باماكن صحون وكؤوس كريم في الاستديو الصغير الذي يقيم به في طرف بيوت البلدية، في شارع النجارين، ليس بعيدا عن مسبح المدينة، ويأدب جم يستأذن بيكّا من كريم ويرفع سماعة الهاتف المنزلي ليصيح بحماس:

ـ الو... فوزي، يا "توفاريش"[٢٦] Tuvaresh فوزي، ان مطرود يحضر لنا جاجيك ومعنا قليل من الفودكا الروسية وعندي نصف ساعة فقط قبل عودة كريستينا وتلقي القبض علي متلبسا بجرمي.

كثيرا ما يجد فوزي نفسه محرجا للاعتذار. مرة حين تحجج ببعد شقته، الواقعة في طرف شارع كاليفا وتطلبه وقتا للمسير طويلا، حتى لو قطع الطريق خلال الغابة القريبة، فوجئ ببيكّا بعد ايام وهو يقود اليه دراجة هوائية ووضعها امامه:

ـ موديل الستينات لكنها صالحة للعمل، ويمكن لها جلبك الينا بسرعة حين نحتاجك في اجتماع "فودكاوي" طارئ، العيب الوحيد ان لونها ازرق وكان يفترض ان يكون احمر!

على عكس غالبية الفنلنديين، يجيد بيكّا المزاح ويستأنس للطرائف العراقية التي يروونها له، وصار نوري يروي له دائما اخر النكات حول صدام حسين:

ـ هل سمعت بخبر تعلم صدام حسين اسلوب تجويد القران حتى يضمن ظهوره في كل فقرات برامج التلفزيون العراقي، حتى في الفترة الدينية؟

من يراقب سلوك بيكّا عن بعد، دون الاحتكاك به، ربما يسئ فهمه. تماما مثل شاخوان، الذي قال عنه مرة وبشئ من السخرية:

ـ يا اخي صاحبكم انسان طيب وطريف لن نختلف في هذا، ولكنه فنلندي طيب، تقمعه زوجته وتمنعه من شرب الكحول خوف انضمامه الى عضوية اكبر حزب في فنلندي، الا وهو حزب مدمني الكحول، فوجد فيكم خير رفقه، لان زوجته تعرف بأنكم ليسوا من النوع الخطر كحوليا!

وكاد كريم ان يزأر غيضا بشاخوان، وبذل مجهودا ليكظم غضبه، وليكون طبيعيا ويرد بهدوء. تعرف فوزي الى بيكّا قبل وصول كريم الى كيرافا بفترة طويلة. وقدم بيكّا لفوزي شتى المساعدات الفنية، ومنحه الصداقة والمحبة دون حدود. حين جاء كريم، وقبل تقديمهما لبعضهما البعض وجد فوزي ان بيكّا قد سبقه الى كريم وتعرف اليه، وصار "مطرود" وفق الاسم الذي كان بيكّا يحب مناداة كريم به، هو الاقرب اليه من بين كل الاجانب في كيرافا. كاد هذا يسبب اثارة غيرة فوزي لولا انه لم يجد في ذلك سوى الخير للجميع. كان بيكّا يبذل قصارى جهده ليقترب منهم. للاقتراب من كل الاجانب والعراقيين في كيرافا، حتى اولئك الذين ينظرون اليه بعين الشك وهو يلقي عليهم التحية بالعربية التي تعلم كلمات منها. كان يحاول ان يفهم كيف يفكر الاجانب، وما هي همومهم؟ مرات عديدة ترك فيها شؤونه الخاصة ليرافقهم في انجاز شؤون تخصهم. كم من مرة تبنى مشاكل الاجانب في مدينة كيرافا؟ كان يعمل بصمت، دون ان ينتظر من احد ان يطلب منه احيانا. دون ان يعرف بذلك كثيرين. حين سعت جهات في بلدية كيرافا لاسباب قيل انها ذات طابع مالي، لاسكان الاجانب في منطقة واحدة، في مدخل شارع بورفو،

في عمارة تعود ملكيتها الى البلدية حتى لا تتكلف ميزانية البلدية كثيرا، لان افراد العديد من العوائل كانوا بدون عمل، وكانت دائرة الشؤون الاجتماعية تدفع عنهم اجور السكن، هذه العوائل الكبيرة بعدد افرادها، كانوا يحتاجون الى سكن كبير وبعدة غرف، وكان هذا يكلف ميزانية البلدية الكثير، فخطر لاحدهم جمع الاجانب في عمارة قديمة تعود الى البلدية وبهذا تكون البلدية تدفع اجور السكن لنفسها، وهي اجور زهيدة قياسا ببيوت السكن الحديثة التي تكلف الكثير. كان بيكّا ابرز المعارضين لهذا المشروع. صرخ بألم:

ـ هذا مشروع نازي!

لم يتحدث عن ذلك في جريدة. لم يرسل خطابا موقعا باسمه. لكنه لم يترك احدا لم يلتقيه من ممثلي الاحزاب السياسية في المدينة، متحدثا معه عن المخاطر المستقبلية لانشاء "غيتو الاجانب". ومتحديا من يدعوا الى المشروع وقف في ندوة عامة في مكتبة كيرافا العامة اقيمت للنشاط ضد العنصرية، شارحا النتائج السلبية التي ستنشأ عن ذلك:

ـ يا سادتي الحضور، لقد قابلت السيدة صاحبة فكرة جمع الاجانب في مكان واحد، وقلت لها بشكل مباشر: عليك التفكير باطفالهم، دعيك من كبار السن، كيف سينجحون في الاندماج مع مجتمعنا وانت تريدين جمع الصوماليين والعراقيين في الطرف A، وتضعين الروس في الطرف B، اما الاتراك فلهم الطرف C، وان لم يكفي المكان ستجدين لهم شقق قريبة من ذلك! ارى ان الامر هنا لا يتعلق بالاسباب المالية، بقدر ما يتعلق بجمع الاجانب في مكان واحد حتى يسهل للعنصريين مهاجمتهم، ويسهل لنمو المشاكل بين مجموعات الاجانب انفسهم، ويتعثر تعلمهم للغة الفنلندية وتعلم عادات وسلوك مجتمعنا والاندماج بشكل تدريجي. انك يا سيدتي تزرعين مشاكل مستقبيلة لسنا بحاجة لها.

كان بيكّا يأخذهم لمقابلة هذا المسؤول او ذاك، ويتنحى جانبا تاركا لهم الفرصة لشرح وجهات نظرهم، ولا يتدخل الا حين يطلبون منه ذلك. ساعد فوزي في كتابة عريضة باسم الاجانب في كيرافا، وبسيارته دار معه على غالبية الاجانب لجمع تواقيعهم، ثم وهيأ لهم اللقاء مع سيدة تعمل في المجلس البلدي تعاطفت مع قضيتهم وكان لها دور اساس في افشال المشروع والغاءه. كان كل مرة يجلب لهم معلومات وتفاصيل جديدة عن تطورات الموقف، يعجزون في بلوغ مصادرها. يحصل عليها بطرق مختلفة، وكثيرا ما كان يفاجئهم بذلك. كان يضحك حين يسأله كريم:

ـ انت رجل متقاعد، مهندس في شركة للورق. من يراك يظن انك ضابط في جهاز مخابرات!

ـ نحن يا صديقي مطرود بلد الشفافية والديمقراطية، ولكن ايضا بلد البيروقراطيـة، وعليـه لابد من اتباع اساليب تجعلني احيانا ابدو لك مثل رجل مخابرات.

وضع فوزي ابريق الشاي ثانية على الطباخ ليسخن ما تبقى فيه، وقلب صفحات دفتر الهاتف المنزلي واختار عدة ارقام وحاول ان تكون جمله قصيرة ومختصرة:

ـ الاسبوع القادم في قاعة نقابة النجارين!

ـ ....

ـ نعم ، ذات القاعة التي اجتمعنا فيها المرة الماضية، قرب محطة مترو سورناينن.

ـ...

ـ الخامسة والنصف تماما!

ـ ...

ـ لكن ارجوك هذه المرة، لا تتعذر بأن ابنتك مريضة، او انك نسيت الموعد، سأبلغ الجميع للحضور الى الاجتماع، الاحداث من حولنا تتسارع، ونحن مطالبين بالكثير من العمل.

ـ ....

ـ شكرا لك!

كان فوزي يود لو ان كريم اجل زيارته الى صاحبته هذه الليلة. هاهو بيكّا يعرض عليهم رحلة مساء الغد الى بيت ريفي لاحد الاصدقاء للاحتفال معا. اختصر بيكّا الامر على عادته:

ـ لقاء لن تنساه، ما رأيك؟ بدون نساء. قرر صديقنا دعوتنا لمساعدته في استكمال ما بقي من ذخيرة عيد الميلاد. يود ان يتعرف اليكم عن قرب. تتذكره انت جيدا، التقاك كذا مرة في المكتبة العامة، في قاعة قراءة الصحف. سيكون هناك ساونا وفودكا والكثير من الموسيقى وستتاح لنا فرصة اخذ حمام ثلج بعد الساونا. سنتحرك بالسيارات ونعود بالقطار، صاحب الدعوة سيبقى في داره، لديه شؤونه الخاصة. عددنا محدود. هناك صديق لصاحب الدعوة، رسام قادم من روسيا مقيم في هلسنكي سيكون معنا، قلت سيكون امر جيدا تستخدم فيه لغتك الروسية ما دمت عاطلا عن استخدامها هذه الايام.

كان بيكّا ويتآمر يشير مباشرة الى نهاية علاقته مع ناتاليا.

وقبل اجابة فوزي بشيء، نهض بيكّا:

ـ جئتك بواسطة الدراجة وستعاركني كريستينا لان الثلج اليوم كالصابون في الشوارع!

عند الباب التفت اليه وهو يفرك شعر لحيته الخفيفة مفكرا:

ـ بالمناسبة لم اعثر على بطلك مطرود، هاتفته مرتين الى المنزل. ارجو اخباره بـالفكرة. انـت تعرف الحديث معه ممتع حول شؤون التاريخ، وبدونه ستكون رحلتنا ناقصة. لا تنس اخباري عـن موافقتكما النهائية غدا صباحا لاخذ احتياطاتي.

٦

حولت دلسوز جهاز الستالايت الى قناة تلفزيونية عربية اخرى. هناك كثير من الوقت لبدء المسلسل ويمكنها ترتيب وتنظيم البيت قليلا. رغم انها لم تتابع احداث المسلسل جيدا لكنهـا لا تجد ما تفعله في مساء جمعة كهذه يضطر فيه شاخوان الى البقاء في المطعم حتى وقت متـأخر. هذه المطاعم، خربت بيوت ولم تعمرها. يضحك فوزي وهو يقول لشاخوان:

ـ يا صاحبـي، انكم تعملون ستة وعشرين ساعة في اليوم.

احيانا حين ترى شاخوان ساهما، وهو يتمدد الى جانبها في السرير، تحاول تخمين بمـاذا يفكـر، لكنه كثيرا ما يكشف عن نفسه، يرفع سماعة الهاتف ليصيح:

ـ اسمع رشيدي، عزيزي، الان تذكرت، ان الدكتور سـلمان، نعـم، مطعـم سـلمان مـن غـيره، استعار من عندنا اربعة كيلوات كباب قبل خمسة ايام، وحسب الاتفاق سيعيدها اليـوم، يعـني لا توجد مشكلة ولن يكون عندنا نقص، اتصل بي اذا لم يعيـدها حتـى الـساعة الرابعـة، نعـم على هاتف البيت، ساتصل بهم الى المطعم مباشرة، لا... يا اخـي لا، انـت لا تتـصل بهـم انـا ساقوم بذلك.

هاتفها شاخوان مرتين ليطمأن عليهم. واسمعها كلاما عذبا. هذا الرجل في الفـترة الاخـيرة صار يخيفها بتبيان حبه لها، واندفاعه لجلد نفسه. كانت تخشى ان يكون هذه الليلة لوحـده يعمـل في المطعم بعد رغبة رشيدي بالسفر، وهاهو نوري مرة اخرى يثبت لهم بأنـه رجـل يعتمـد عليـه. الاطفال وجدوها فرصة بسماحها لهم بفعل ما يشاؤون فانفرد كورش بجهاز البلاي ستيشن، بينما واصلت هيشو قراءة كتاب جديد. وهي: هل ستجد شيئا نافعـا في التلفزيـون؟ عـودت نفـسها التقليل من الاهتمام بالتلفزيون، تبحث فيه عن برامج الطبخ والافلام العربيـة، ولكـن غالبيـة الافلام معادة، والمسلسلات العربية صارت تذكرها بايام بؤسها التي لا تريد لشئ تذكيرها بها. لا شئ في المسلسلات غير الخيانة الزوجية والحب الخائب وخيانة الاصدقاء. حتى السوريون صاروا يكررون انفسهم في مسلسلاتهم، مسلـسلات تاريخيـة والكـثير مـن الخيـول والقـصور والحـوارات الطويلة المملة، استمتعت مع بعض المسلسلات التي تحدث عن واقع الحياة الحالية، كيـف النـاس

يصارعون من اجل المحبة وسط معوقات الحياة. انتهى الزمان الذي كانت فيه ناوات تعاركها لادمانها مشاهدة المسلسلات المصرية. كان حادث انقلاب سيارة شاخوان قبل عامين قلب كثير من عاداتها واهتماماتها. قالت لها ناوات ان فنلندا ساعدتها على علاج روحها والخروج من حالة ادمان التلفزيون هذه التي جلبتها معها. كانت ناوات مثلها لا تجد ما يسليها غير شاشة التلفزيون والاغاني والمسلسلات، منذ ان كانت في بيت والدها، ولا تخفي كل منهما انهما يجدان في مشاهدة هذه المسلسلات الفرصة لسفح الكثير من الدموع والتأسي على انفسهما. كانت ناوات مسلوبة الارادة مثلها. انهت ناوات الدراسة المتوسطة، واقعدها اخويها في المنزل، واعتقدت انها في موافقتها على الزواج من عثمان وجدت طريقا للخلاص من اضطهاد اخوتها وزوجاتهم، لكنها وقعت في فخ زوج قاس، ظالم ومخادع. كانت تحلم ان يكون لها بيتها الخاص، مثل كل امراة. وتظن أن اوربا هي الحلم المنشود، الذي سيخلصها من عنوستها والقرف من حياة التوتر والمخاوف في كوردستان، التي سببها الصراع بين الاحزاب الكبرى والاقتتال الذي ادخل الرعب في قلوب الناس وأمكانية تجدده كل يوم، و الحزن الذي لا يزال يحوم حول كل بيوت معارفها اللذين قدموا ضحايا. كانت ناوات لا تعرف بعد اللغة الفنلندية ولا تعرف الناس جيدا، وكان عثمان، الذي تزوجها في صفقة رابحة مع اخوتها، لاه عنها بالركض لجمع المزيد من الاموال. حين يتصل بها فجأة كانت ناوات لا تعرف من اين بلد يكلمها، يقول لها من السويد ويكون في تركيا، يقول من روسيا ويكون في المانيا. كان يزورها الى هلسنكي بين الرحلة والرحلة لمجرد الاطمئنان الى ان زوجته التي تزوجها لتخلف له طفلا لا زالت حية، ويقضي معها ليلة او ليلتين، واحيانا اسبوعا، يمارس معها الجنس كواجب مفروض، وكانت ناوات تستسلم له مضطرة، وتقولها بصراحة تامة تحار دلسوز لحظة سماع كلامها اتضحك ام تبكي:

ـ احيانا اريد ممارسة الجنس معه لحاجتي كانسانة. اذ هل يقبل رب العالمين، او احد في الدنيا ان امرأة، شابة مثلي، متزوجة حديثا، تقضي لياليها وهي تمارس العادة السرية، لقد تلفت اصابعي وانا احك الليل كله. اهترى فرجي من الحك. لكنني بصراحة جدا، وفي اكثر الاحيان استسلم لعثمان بدون اي رغبة، فقط لتأدية مهمتي كزوجة، والاهم حتى لا يظن بي الظنون لو امتنعت عن معاشرته!

لكن ناوات واذ نجحت في فترة الخطوبة، باخذ وعد من عثمان بأن يتركها عام واحد بدون حمل و ولادة، تسللت بغيابه الى المستشفى وبدون معرفته، وركبت لولبا لمنع الحمل دون اخباره. كانت لا تريد التورط بطفل دون الاطمئنان الى مستقبلها معه. هاجس خوف تملكها،

واحساس بعدم الامان جعلها تفعل ذلك. كانت ترى حجم اكاذيبه التي يتعامل بها مع الناس. كان يقول لها:

ـ هذه شطارة يا غبية، عليك ان تتعلمي، واذا سميت ذلك كذبا سافطر لك راسك!

كان ينتقل في الهاتف من شخص الى اخر، ليقدم معلومات متناقضة، ويقسم لكل طرف برب العباد والانبياء بأنه لا يقول سوى الحقيقة. كان للحقيقة عند عثمان الف وجه، فصارت ثاوات تتوجس وتخشى فكرة ان يكون ابا لابناءها. بدأت تتلمس حجم ورطتها. خطرت لها فكرة اللولب، وهي تسمع احد النساء تتحدث عنها، في لقاء عائلي عابر، فهرعت الى المستشفى. حين استجاب عثمان لضغط دائرة الشؤون الاجتماعية وتركها تذهب الى مدرسة تعلم اللغة الفنلندية راح يفتعل المزيد من المشاكل معها. وحين بدأت تبدي له اعتراضات هنا وهناك على امور حياتية صغيرة، بدأ يلمس انها لم تكن جاهلة كما كان يظن، وان خروجها واختلاطها مع الناس ايقظ فيها طموح راكد وعزز من شعورها بالغبن. وزأر بها يوما:

ـ يبدو ان المدرسة فتحت لك عيون جديدة؟

وكان صادقا هذه المرة. صار لدى ثاوات الكثير من الفهم لما يجري حولها. في مدرسة تعلم اللغة الفنلندية، لم تترك شيئا لم تسأل عنه، الطلاب، والمعلمات، والعاملين. كان الجميع يتبادلون نظرات الاعجاب بهذه المرأة، التي لا تمل، وكل يوم تحمل لهم عشرات الاسئلة، عن مختلف نواحي الحياة. ثار غضب عثمان، حين اصرت ان يكون لها حسابها البنكي المستقل، ودخلها المالي الخاص. كانت ثاوات تريد الشعور بشخصيتها واستقلاليتها اكثر. كان هو ينظر للامر من جانبه المادي فقط. بدأت اول الكدمات تظهر على وجهها، وبدأت تتكرر زيارات عاملات الشؤون الاجتماعية الى منزلها حسب طلبها. اتهم عثمان عاملات الشؤون الاجتماعية كونهن يتحيزن لزوجته فقط كونها امراة، ولا يفهمن طبيعة العادات والتقاليد للاسرة المسلمة ومكانة الرجل فيها، وكون لديهن افكار مسبقة عن كون كل امراة مسلمة هي مظلومة. راح عثمان يتعكز على حادث فضيحة الزوجة اللصة، التي كان زوجها يحاول منعها من السرقة، وكان يضربها لهذا السبب، وكانت تصور الامور لعاملات الشؤون الاجتماعية كونه لا يسمح لها بالخروج لوحدها، وكان المسكين لا يقو على التصريح بكون ام اطفاله مريضة بداء السرقة، واذاقته عاملات الشؤون الاجتماعية الويل، وسمع منهن ما لا يطيقه انسان وهن غافلات عن مكر الزوجة، حتى قبض عليها متلبسة بالسرقة، وصارت قصة معروفة في صحف المساء. في قضية ثاوات سارت الامور بشكل دقيق، عاملات الشؤون الاجتماعية تفحصن بدقة اقوال

ناوات، وبحذر جمعن شهادات عنها من المدرسة ومن الجيران ومن معارفها، فتأكد لهم سلوكها السوي وصحة شكواها، بينما كان سلوك عثمان يحمل اكثر من علامة استفهام. بدا عثمان يتلقى تهديدات بفصل ناوات عنه بقوة القانون، وتراجع قليلا عن قسوته معها، وحاول ان يبدو وكأنه استجاب لملاحظات وتوجيهات عاملات الشؤون الاجتماعية. كانت نقطة ضعفه انه يخشى الفضائح بين الناس. صارت ناوات تهدده بذلك. كان يريد الاحتفاظ بصورة الرجل الناجح في تجارته وحياته الزوجية. اتصل بأهل ناوات الى كردستان، وهرعت اليها ناوات مكلومة:

ـ اريد مساعدتك يا دلسوز، اريد ان تشرحي لاخواني حقيقة ما يفعله عثمان معي.

واختلف الاخوان هناك، بين مؤيد ومعارض لشكاوى واكاذيب عثمان، ولوعة وحقائق ناوات. قالت ناوات لدلسوز مرارا بان عثمان صار يشعر بالغيرة كونها بسرعة صارت تجيد الحديث باللغة الفنلندية، وصار لها صديقات فنلنديات تصلها منهن مكالمات هاتفية وبطاقات تهنئة في المناسبات. صار يطرح عشرات الاسئلة يستفسر فيها عن اسم وتاريخ كل واحدة تتصل بها. صار يحصي لها خطواتها، ويفحص دفتر ارقام الهواتف وينقب في هاتفها المحمول عن المكالمات الصادرة والواردة. ويعود من سفراته فجأة دون اخطارها، ويدخل البيت بشكل مفاجئ وغريب. وفأجاته مرة، بعد عودتها من خارج البيت، ورغبت بالاستحمام، واذ نزعت ثيابها وتركتها على طرف السرير، وحين احتاجت شيئا من الغرفة، وجدته يفحص سروالها الداخلي كأنه يبحث عن اثار خيانة. يوما بعد اكمالها دورة جديدة في اللغة الفنلندية، واذ طلبت منه المساعدة لايجاد مكان للتمرين تهرب من المساعدة، وحين وجدت مكانا في "سوبرماركت" قريب من المدرسة بمساعدة معلمتها وادارة المدرسة، اربد وصار يتوعد بمعاودة ضربها. ويوم اخبرها مدير السوبرماركت بأنهم لنشاطها ولباقتها وذكائها سيتعاقدون معها لعدة شهور لتعمل كبائعة مؤقتة اظلمت الدنيا في راس عثمان، ولكنه لم يستطع ان يقف بوجهها، كانت صفقات بيع وشراء السيارات تنجح معه، ووجد طريقا عبر الاردن لتسويق السيارات الى بغداد، رغم سياسة الحصار الاقتصادي، وكان يريد توسيع تجارته اكثر. حاول اغراقها بالهدايا، سافرا الى السويد كذا مرة، التقت باقاربه وبعض معارفها، كانت تجد نفسها في حياته مجرد ديكور جميل. حرصت ان لا تشكوه لاحد، لدى الناس ما يكفيهم من هموم، وكانت واثقة من كونها قادرة على تحدي ظلم عثمان. كان عثمان يخشى تدهور عمله اذا ما انشغل مع ناوات فكان يتركها حينا ليعاود التضييق عليها حينا اخر. كان عثمان يسافر باستمرار ولا تعرف ناوات شيئا عن سفراته وغاياتها. حر في الحركة والتنقل ولا توجد قيود عمل وارتباطات، وكان يسخر من الذين

يقضون وقتهم في الدراسة وتعلم مهن جديدة، ويبحثون عن وظائف في الدولة، كان يعتبرهم يضيعون الوقت. حصل عثمان على التقاعد بواسطة تقرير من طبيب نفسي بمساعدة مترجم عراقي. لم يعرف احد الطريقة التي نجح بها عثمان في الحصول على التقرير، لكن ثمة همس بين الناس انه حصل عليه بطرق ملتوية وغير شرعية، وان المترجم استلم مبلغا جيدا للتفاهم مع الطبيب، وعجبت ئاوات لحصول ذلك في بلد مثل فنلندا، لكن الايام علمتها الكثير، وبعد ان تعلمت اللغة الفنلندية جيدا لم تعد تفاجأ بما تقرا في صحف المساء من فضائح. حين تجرأت دلسوز مرة وسألت شاخوان عن قضية تقاعد عثمان، قال لها بطريقته المعهودة:

ـ تعرفين ان الناس يتحدثون امامي بكل شئ، لكن عن هذا الانسان انا بنفسي لا اريد سماع شئ، وانت اعرف الناس بالسبب؟ لقد كان شريكي لفترة. هو ذكي ومحتال استطاع ان يرتب لنفسه اسلوبا لحرية الحركة، يقبض راتبه التقاعدي ويتاجر بالسيارات بالسوق السوداء، فصارت الدولارات تتراكم في حساباته بحيث لم يعد يهتم حتى لو طردوه من فنلندا.

صعدت دلسوز على اطراف اصابعها لترى سبب هذا السكون في غرفة ابنائها. وجدت ابنتها هيشو مستلقية على بطنها، منكبة على كتابها وتحرك ساقيها وكأنهما على دواسة دراجتها الهوائية الجديدة التي اشتراها لها ابيها في عيد ميلاها العاشر، بينما كان كورش يكاد يقفز من مقعده مع لعبة الفيديو التي استعار برنامجها من المكتبة العامة. عامدة خبطت دلسوز بقدمها طرف الباب، فالتفت هيشو مبتسمة بكل السحر، محركة عينيها اللتين جميع المعارف والاقارب يقولون انها تشبه عيني شاخوان، ولكن كورش ظل ساه عنها عاضا على شفته السفلى مقلدا اياها حين تتوتر حتى عند انجاز شؤون المطبخ، اقتربت منه فلمحها كيف نظرت الى ساعة الحائط فهز راسه بالايجاب وهو يتصنع ابتسامة تملق لتمنحه مزيدا من الوقت ليواصل اللعب، وقد حذرها شاخوان من ان تضعف امام توسلاته. رفعت كتبا عن الارض، وجوارب تحت ساق الكرسي، وشكرت ربها لان اطفالها رغم كل شيطنتهم وعذاب رعايتهم الا انهم منحاها القوة لتحمل تعاسة سنواتها الاولى في حياتها مع شاخوان. وجدت دلسوز ان ئاوات، قياسا بها، كانت قوية وشجاعة بما فيه الكفاية وعملت الصحيح حين طلبت الافتراق عن عثمان بحزم:

ـ انت يا دلسوز كان لديك سبب قوي للبقاء مع زوجك، وهو اطفالك، القيد الثقيل الذي يربطك بشاخوان، اما بالنسبة لي فلم اسع الى مثل هذا القيد، وبعيدا عن هذه التعاسة التي اسمها عثمان سأبني حياتي بنفسي، لا ازال شابة وامامي الكثير لانجازه، وسأفعل كل ما اريد وساتمكن من الزواج يوما وسيكون عندي اطفال حلوين مثل اطفالك، سترين بنفسك كل ذلك.

وحين حاولت نصحها بالتأني:

- يا عزيزتي ناوات، اعرف انك قادرة على فعل كل شئ ولكن ماذا عن اهلك هناك؟

وضحكت ناوات:

- لقد باعني اخوتي بصفقة رابحة بالنسبة لهم. صاروا وكلاء لبيع سيارات عثمان هناك، وجنوا من ذلك الكثير. في فترة قياسية صار لديهم بيوتهم الخاصة. لم يسألني أحد عن رأي يوم باعوني له، ولم يهمهم موافقتي. سألتني امي المسكينة يومها: "كيف وجدت عثمان صديق اخيك القادم من فنلندا؟" وقلت لها بصراحة فتاة ملت من خدمة اطفال اخوتها والشجار مع زوجاتهم وصارت تخشى من عنوستها: "يا حظ من تكون زوجته"، فكان في هذا الكلام قرار بيعي. ومثلما باعوني سأشتريهم، ساغرقهم وزوجاتهم واطفالهم بالهدايا والفلوس والوعود وسوف لن يسألني احد عن سبب ما فعلت!

صرخت يومها دلسوز بغضب:

- هذه قصة وعرفناها، وكونك كنت حالمة باوربا ووجدتي ان زواجك فرصة لتحقيق الحلم، الان لو طلقتي عثمان ماذا سيقول عنك الناس هنا وهناك: وصلت الى اوربا وبعد سنة ونصف بالتمام صارت اوربية و...

وصارت ناوات تزأر مثل اللبوة:

- الناس... الناس، انت مسكينة يا دلسوز، مسكينة جدا، ابكي لحالك وحق رب العباد. اين كان هؤلاء الناس عني وعنك ونحن نتعذب بين جدران البيت وازواجنا يدورون مثل الكلاب من احضان امراة الى اخرى. الروسيات والفنلنديات والغجريات والصوماليات، كلهن لهن حظوظ في ازواجنا اكثر منا. حين اسأل زوجي عن حقوقي لا اتلقى سوى اللكمات والبصقات. اتدرين، بعد كل ممارسة جنس مع عثمان كنت اركض الى المستشفى القريب لافحص ضد الايدز وصارت الممرضات ينظرن لي بعين الشك ويتصورنني مهووسة او عاهرة، فكنت مضطرة لاصارحهم بوضعي، ورتبن لي لقاء خاص بمسؤولة خاصة في الشؤون الاجتماعية وكان علي الاعتراف بكل شئ هناك، وكل ما اخفيته عنهم سابقا من معاناتي وانا اداري خوفي من الفضيحة، لم يعد يهمني شئ، ومن هناك بدات اتلمس بداية طريقي للخلاص من كابوس عثمان.

من يقابل ناوات الان لا يصدق ابدا أنها تلك الفتاة الخجولة التي في شهور وصولها الاولى الى فنلندا كانت لا تجد في نفسها الشجاعة في الذهاب الى محل البضائع الشرقية فكانت تتصل

بها لتصاحبها، وكانت تهذر الطريق كله عن سوء حظها وخيبتها مع اوربا، وعدم انسجامها مع النهارات المظلمة والباردة. من ناوات عرفت دلسوز تفاصيل الدور القذر لعثمان في توريط شاخوان بصفقات تجارية مشبوهة خاسرة ودوره في فضائح الشقة الموبوءة بالعاهرات والسهرات الماجنة. يومها جاءتها ناوات بدون موعد وانصرفت بدون استئذان:

ـ اعرف يا دلسوز ان عثمان شرعا هو زوجي وعليّ ومثلما علمنا اهلنا، صيانة اسرار الزوج مهما كان، ولكني لا استطيع ان اسد اذني اذا كان في ذلك خراب بيتك انت. نعم ان عثمان زوجي بالحلال، ولم افكر يوما بخيانته رغم ان ذلك وبغيابه الطويل عني كان لا اسهل منه وخصوصا اني لا احبه، وتعرفين مثلا قصة ذلك المغربي الوسيم، مصلح الزجاج في السوبرماركت، الذي صار يلاحقني كظلي لانه الملعون اكتشف اني استلطفه لوسامته؟ كنت احيانا اشعر بحاجة الى الانتقام من عثمان بشكل ما، لكني لم افكر يوما بطريق الخيانة الجسدية، رغم معرفتي ان زوجي هذا مستعد حتى لبيعي من اجل المال، لهذا لا اعتبر الامر خيانة ابدا اذ افضحه لك الان. اريدك تحذير شاخوان من صفقات عثمان القادمة، لا اعرف ما هي هذه الصفقة، لكن هناك شخص فنلندي طرف فيها، يسمونه المايسترو. لقد عرفت اشياء مريعة عن وسخ عثمان. انت يا دلسوز اول من فتح لي قلبه في هذه البلاد، ولا يمكن لي الا ان اكون صادقة ونزيهة معك، ليس من اجل شاخوان ولكن من اجلك واطفالك.

منحت دلسوز كل طاقتها لابنائها، تسهر على صحتهم وسعادتهم، كانت ترافقهم الى المدارس، الى اماكن اللعب، الى المسابح، الى الاسواق. تعلمت اللغة الفنلندية بسرعة حتى لا تكون بحاجة لمترجم لتفهم بامور صحة اطفالها بسرعة، ولم تبحث عن عمل رغم حاجتها للخلاص من جدران البيت، كانت تندب حظها، واحيانا تجد شيئا من العذر لشاخوان. صارت تصلي كثيرا، وصارت تقرأ القران كثيرا، هناك كانت تجد المزيد من السكينة، صارت ترى في ان كل ما يجري لها ما هو الا قدر وامتحان من السماء. ليست هي المسؤولة عما حدث ولا جدتها ولا شاخوان. هي الاقدار من جعلت امها تمرض، وتدخل المستشفى، وتجعل جدتها تنفرد بها. كان يمكن ان تكون اختها "بناز" في محلها، القدر من جعلها اقرب الى الجدة حين مدت هذه رأسها من باب البيت الى الشارع حيث كانت تلعب مع رفيقات طفولتها. لم تحاول دلسوز ان تسلك سلوك ناوات بكل تفاصيله، صارت تقتدي بها قليلا. ووجدت عند شاخوان القبول وعدم معارضة في كثير من الاشياء، عكس ما كان عند عثمان مع ناوات. دخلت ناوات مدرسة تعليم قيادة السيارات، وتبعتها دلسوز، وصرن يجدن قيادة السيارات. اشترى

لها شاخوان احدث سيارة رغبت بها، وراح عثمان يصطنع الكثير من المشاكل امام ناوات ليعرقل رغبتها في امتلاكها سيارتها الخاصة، ولم يدر ان في ذلك كان نهاية كل شئ. صاح على ناوات بكبرياء رجل مهان، وهو يسمع زوجته تستشير شاخوان في شراء سيارة قرأت اعلانها في الجريدة:

ـ عليك يا بنت الناس ان تختاري بين اثنين، اما انا أو السيارة!

وببساطة اختارت ناوات السيارة، وطلبت منه الطلاق، وتركت منزله الى غير رجعة.

شعرت دلسوز انها من ايام لم تسمع شيئا عن ناوات. بحثت في هاتفها المحمول عن اسمها وضغطت الزر وهي تفكر بسرعة بأشياء كثيرة. رن الهاتف طويلا، ثم سمعت صوت ناعس يرد بغنج وكان يلهث قليلا:

ـ ناوات على الخط!

هذه المرأة صارت شئ اخر تماما. شئ تتمناه الكثير من النساء اللواتي وصلن هذه البلاد وبقين سجينات بين المطبخ وتربية الاطفال، ولم يتمكنّ حتى من تعلم لغة البلاد بشكل جيد. حتى صوت ناوات صار له رنين خاص. تغيرت نبرة الصوت بسرعة، لم يعد فيها ذاك الخوف والتوجس عند الحديث. صوت واثق، قوي، اكثر شبابا وغنجا. بسرعة تعرفت ناوات الى صوت دلسوز، وكادت تلطم فرحا اذ سمعت بفكرة دلسوز:

ـ اتدرين يا ناوات، مساء الجمعة طويل وممل دائما بالنسبة لي، وشاخوان كعادته سيتأخر في المطعم، اشتقت لك وقلت لو تأتين لتقضي ليلتك وبعض من نهار الغد معي، ربما نهار الغد ان كان يلائمك نأخذ الاطفال ونذهب الى احد المسابح معا.

راحت ناوات تطلق شتائم ضد كل شئ، وتكاد تنتحب من الالم:

ـ اتدرين يا دلسوز. لو كلمتني قبل ساعة فقط، ساعة فقط، لكان هذا اسعد ليلة جمعة في حياتي، ولكنت رتبت ليلتي بشكل اخر. اشتقت لك وللاولاد... جدا... جدا، ولكني اعطيت تاريا وعدا هذه الليلة، وسيأتي يارمو بعد نصف ساعة لاصطحابي. ولا ازال غير جاهزة، اما فكرة المسبح لنهار غد، فانا موافقة تماما، ساتصل بك لاحقا لنحدد التفاصيل. جاو!

وهي تعيد سماعة الهاتف الى مكانها كادت دلسوز ان تلطم، وهي تردد:

ـ يارمو! وصلت الامور الى هذا الحد؟

٧

كان شيئا اشبه بالحلم. شعر كريم مطرود بانه نام طويلا، لحد تصور انه ظل نائما المساء كله، ورغم ذلك شعر بأن لا زال فيه شئ من كسل يجعل خدر لذيذ يسري في جسده فيكون اشبه بقطعة اسفنج، ويدفعه الى الشعور بالحاجة للمزيد من النوم، فالاسبوع الاخير كان متعبا له، لم يكن يعتقد ان العمل في مدرسة ابتدائية كمعلم متمرن، يمكن جلب كل هذا التعب. كانت امه حين تراه بحالة كسل، تعنفه، وتصرخ به مستفزة:

ـ النوم لو كان ينفع، لنفع اهل القبور، انهض واستفد من وقتك يا بني!

وكان ابيه عندها يكتفي بتعليقه الساخرالدائم:

ـ اتركيه ينام يا امراة، يوم الجمعة هو يوم العطلة والراحة!

فكانت امه تصرخ بأحتجاج مر:

ـ ولكن اليوم هو يوم الاربعاء!

فيرد ابيه بنبرة جادة:

ـ كل يوم بالنسبة للكسالى هو: جمعة!

كان دفء الفراش لذيذا، نظافته والروائح التي تنبعث منه جعلته يشعر بمزيد من الخدر، لم يرغب بفتح عينيه، فاليوم حقا هو الجمعة. غادر المدرسة في منطقة كورسو مبكرا، وكانت لديه الرغبة بالنوم قبل فعل أي شئ، بعد وصوله شقته في مدينة كيرافا هاتف باولينا ودردشا قليلا، وبين لها تعبه، كان يفكر بزيارتها زيارة قصيرة نهار السبت او الاحد، ففي يومي عطلة الاسبوع لديه الكثير لانجازه، لكنه هذه المرة يريد قضاءهما فقط بالنوم والراحة، كان يشعر أن الايام الاخيرة جلبت له الكثير من التوتر، لكن باولينا فكرت بكل شئ، ولم تترك المجال امامه لخيار اخر:

ـ تعال فورا، اعرف انك مرهق هذا الاسبوع، واذا لم تجد في نفسك النشاط والرغبة لمصاحبتي في زيارة تيمو يمكنك النوم حتى ترتوي، وبعد عودتي نرى ماذا سيكون، وغدا يمكنك لقاء اصحابك، فأنا ايضا على موعد مع سنيكا. ما رأيك؟

وها قد نام جيدا. لا يعرف كم من الوقت مر، لكنه افاق حين احس بشئ دافئ ينسل الى جانبه في السرير. يبدو ان باولينا التزمت بوعدها. لم تتأخر كثيرا عند اخيها، وتمنى لو انها لم تتشاجر هذه المرة معه او مع زوجته، التي لا تخفي عدم ارتياحها من باولينا، اذ لا ترى فيها

مجرد اخت لزوجها، بل امراة اخرى ذات تأثير على قرارات زوجها، ودائما تجد ما يمكن الشجار حوله مع باولينا، التي تندفع لتحاول ان تكون مصلحة اجتماعية، وتبدأ بمحاولة اقناعها بوجهة نظرها دون اعارة اهتمام للإهانات التي تحاول ان تمررها لها زوجة اخيها، من خلال النقاش الذي طالما يعود الى النقطة التي بدا منها. وكل مرة حين ينبهها الى عبث ما تقوم به، تقول له بالم:

- يا كريم ان اخي تيمو يستحق امرأة افضل.

وكان كريم يرد غاضبا:

- ولكنك امراة اوربية متحضرة، وتتصرفين وكأنك امراة من قرية في بلادنا، اخيك مقتنع بها وهو اختارها بنفسه.

- وانا لا يعجبني انها تقود تيمو بالشكل الذي تريد!

- وهل شكا لك تيمو يوما؟

- لا احتاج شكواه، يكفيني رؤية تحكمها بكل شئ!

- وهو راض بذلك، انها ام ابناءه، وهو ترك لها القياد، وتفرغ لعمله!

في كل مرة، وكلما تنسل باولينا الى جانبه في السرير، بطريقتها المميزة التي يشبهها دائما بحركة اندساس قطة اليفة، يعاود بذاكرته الى المرة الاولى التي نامت فيها باولينا الى جانبه على سرير واحد. يتذكر دائما ذلك اليوم بالكثير من تفاصيله الدقيقة. كيف يومها كان منهكا، وان رجلا من معارفه البعيدين، اقترح اللقاء ذلك المساء، في حانة في مركز هلسنكي، ليحتفلوا بمناسبة اختلقها فقط ليجمع بعض الاصدقاء حوله. كانت زوجته من زميلات باولينا فدعتها الى اللقاء. فيما بعد فهم كريم ان صاحب الدعوة كان يمر بمرحلة عصيبة في علاقته مع زوجته واراد الهروب من ذلك بالتواجد مع زوجته بين الاخرين لايمانه ان ذلك سيرمم شيئا من الصدع اذا ما راحا كليهما يتذكران الايام الحلوة مع اصحابهما. يومها هاتفته باولينا ورجته الحضور:

- الكل سيسطحبون زوجاتهم وصديقاتهم، لا اريد ان اكون لوحدي هناك، وابدو كمنبوذة بينهم، فكرت بدعوتك لتكون معي والى جانبي!

حين جاء شعر بشئ من الندم، اذ كانت عيونه المحمرة تفضح تعبه وارقه الذي حرمه من النوم ليلتين، وما ان عب كأسين من البيرة حتى شعر بنعاس ثقيل لاحظه الاخرين، واقترحت عليه باولينا الانسحاب من الجلسة، شعر بالحزن لانه سيفسد لها امسيتها مع اصدقائها، لكنها كانت تبدو مسرورة لوجوده معها، فيما بعد اخبرته:

ـ كنت مسرورة واستمتع بعنايتي بك، كنت تعبا، الى حد كنت تبدو كالطفل سهل القياد!

انسحبا يومها من الجلسة بهدوء، ورافقته عند الخروج من الحانة، بعد سيرهما قليلا، وبدون مقدمات قالت له

ـ كريم... لا يبدو انك مؤهل بهذه الحالة للعودة الى كيرافا، يمكنك قضاء الليلة عندي!

لم يعترض. كانت قد مرت فترة عدة شهور على تعارفهما. التقيا مرارا. كان يعرف في دواخل نفسه انه صار يميل اليها، ويستعذب احاديثها وحيويتها، ولكنه لم يكن متأكدا من احاسيسها، لذلك لم يتعجل في ابداء شئ من الاعجاب قد يضر بصداقته لها. لم يحاول الظهور كرجل سهل، او"مستر جمعة" مثلما يسمي فوزي الباحثين في المقاهي والبارات عن مجرد شريك جنسي لليلة الجمعة. واذ بدأ كريم يلمس ان باولينا بشكل ما تميل اليه ايضا، ظل ينتظر منها اشارة ليعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف؟ وشعر ايامها انه ربما يكون بحاجة الى خبرة نوري مع النساء الفنلنديات، او فوزي مع الروسيات، لكنه لم يكلم احدا منهما، اراد اختبار تجاربه المحدودة ويكتسب خبرة جديدة بنفسه. كان ابوه يقول له دائما:

ـ كل رجل يجب ان تكون شؤون أمرأته هي سره وحده، اذا اشرك الاخرين في الحديث عن خصوصية علاقته بها، يكون كمن يدعوهم الى سريرها!

ودامت طويلا اللعبة بينه وبين باولينا. طالت الى حد شعر انه تمادى كثيرا في أبداء الرزانة، وفكر انها ربما ستمل اللعبة وتغير اهتمامها الى رجل اخر غيره. ألم يصرخ نوري يوما وبشكل كوميدي، ناصحا ومنذ اول اسبوع لتعارفه به:

ـ شيئان عليك تذكرهما دائما في هذه البلاد ولا يمكن ان تجدهما في الكتب: عند القطب الشمالي عليك تذكر الانقلاب الدائم في مزاج الطقس والنساء!

واذ بدأ يلمس تلميحات بسيطة من باولينا، تأكد له منها انها مثله ليست على عجلة من امرها، وان كل هذه الرزانة التي يلمسها منها وتتعامل بها مع الاخرين وليس معه فقط، ليست مفتعلة، بل هي جزء من شخصيتها. زاد ذلك من اعجابه بها اكثر، وراح يعتقد انه هو من صار يفتعل الرزانة. واذ دعته تلك الليلة الى لقاء اصدقاءها كانت تتصرف معه وامام الجميع وكأنه رجلها، الذي اختارته ليكون ليس فقط شريك سهرتها تلك الليلة بل واكثر. وحين دعته الى سكنها لم يعارض ابدا، ولم يفاجأ بذلك. طلبت باولينا تاكسيا، وبلغا شقتها بسرعة. لم تكن المرة الاولى التي يدخل فيها سكن امراة فنلندية تعيش لوحدها، ولم تكن المرة الاولى التي يدخل شقة باولينا، لكنها المرة الاولى التي يكون فيها لوحده معها وليلا في شقتها. كل

المرات المعدودات السابقة، التي زارها كان بمعية اخرين، وكانت نهارا وسط ضجيج عام، وفي اغلب الاحيان يكون من اوائل المغادرين متحججا ببعد سكنه في كيرافا. حصل ذلك مرة في عيد ميلادها، ومرة احتفاءا بوداع صديقة لها، من ايام دراستها الثانوية، ملت حياة البطالة، ووجدت عملا في التمريض في النرويج وقررت الانتقال للعيش هناك. لم يتحدثا كثيرا اثناء الطريق، ولكن باولينا سألت سائق التاكسي شيئا ما. في شقتها اعطته واحدة من فانيلات نومها، وكانت رمادية واسعة، فصارت تبدو عليه وكانها نصف دشداشة، واذ لمح نفسه في المرأة المعلقة في اول الممر، تسائل:

ـ اه لو شاهدني نوري وانا انام في سرير امرأة بفانيلة نسائية؟

بعد ذلك اعتاد طلب الفانيلة الرمادية لارتداءها اثناء النوم، قبل ان تشتري له باولينا بيجاما نوم خاصة. يومها وحالما رمى نفسه الى السرير، غفى وكأنه ضغط زر خاص اوقف كل محركات جسده، ولم يعرف كم مر من الوقت، حين صحا بعد ساعات وجد باولينا تنام ملتصقة به بوداعة. وعند الفجر صحا ثانية وهي تغادر السرير وفهم انها قصدت الحمام، وحين حاول معاودة النوم، جاءت وهي تظنه نائما وانسلت بحذر الى جانبه مثل قطة، لم يتحرك، لم يقم بأي فعل ما، احتضنته والتصقت به وراحت تفاصيل جسدها تلامس جسده، ولكنه لم يعر ذلك اهتماما، ترك نفسه يومها ينام ثانية وبعمق اكثر. واليوم سيفعل ذات الامر. سيتركها تنام قليلا، سوف لن يتحرك، سيتركها تغرق في النوم ثم ينسل مثلها، مثل قطة، ليأخذ حماما ساخنا، ثم يوقظها ليسهرا معا، فعنده هذه الليلة مع باولينا كلام كثير! وعليه الاستعداد لموعد الغد الاسبوعي، الذي ابتكر له نوري اسم "مؤتمرالمحبة":

ـ حكامك العرب لهم مؤتمراتهم، واحزابك لها مؤتمراتها، لم لا يكون لنا مؤتمرنا الخاص؟ لا نشتم ولا نستغيب احدا. نلتقي لادامة المحبة بيننا.

عودهم فوزي على اللقاء بأستمرار، وكأنه يروضهم بصبر، ودراية. صار كل سبت يدعوعم مرة بعد اخرى الى اللقاء. لم يحدد مكانا ثابتا. جربوا عدة مكانات، لكنهم أخيرا اتفقوا على مكان واحد، مقهى دلهم عليه "حسين الزوراني" دون ان يقصد، ووجدوه مكانا جيدا. قريبا الى محطة القطار، في وسط مركز هلسنكي، له عدة مداخل ويمكن الوصول اليه من كل مكان. وباستمرار وجدوا ان اللقاء اصبح طقسا مقدسا، يضم ليس مجموعتهم، بل واحيانا ياتي اليهم اخرين، حتى بدون اتفاق، فتضج زاوية المقهى بهم، حيث اعتاد رواد المقهى وعماله وجوههم. يذكر كريم جيدا الايام الاولى له، في لقاءات"مؤتمرالمحبة"، كان لا يزال اسيرا للحذر والتوجس

من الاخرين، وكان فوزي يطرد وساوسه، بان يدعوه للانسجام اكثر مع الاخرين. كان شاخوان مبهورا بلمتهم حوله، يعتقد نفسه محظوظا بامتلاك معارف مثلهم، وكان نوري يحاذر كريم اكثر من الشيطان، لكنه بحضور شاخوان وفوزي يتحول الى مهرج حقيقي، وكأنه يقول له بصراحة:

- لا اخافك بوجودهم.

يتذكر كريم ذلك المساء، الذي اخطأ فيه بحق نوري. كان نوري مرحا بشكل لا يوصف، سمع اخبارا طيبة عن اهله في العراق، ويرغب في الاحتفال بمناسبتها. التقوا عند مطعم شاخوان، وفجاة رن هاتف نوري، فاستاذنهم:

- انتظروني، لن اتاخر عليكم، زمن قبلة خاطفة واكون عندكم.

اطلق ضحكة صاخبة وغادر، بينما التفت كريم الى شاخوان وفوزي وعلى وجهه علامات التسائل، فلم يتمالك شاخوان نفسه من الضحك:

- يا اخ كريم يوما بعد اخر، ستتعرف الى قاموس نوري المدهش، فهو له فلسفته الخاصة في الحياة، وكل شئ عنده ينطلق من العلاقة بالمراة، فهو يؤمن بان القبلة يجب ان تكون خاطفة وقصيرة، وهذا يعني انه لن يتاخر كثيرا. فوفقا لفلسفته، ان القبلة اذا طالت ستسطيل عنده معها مواضع معينة في الجسد وربما تسبب كوارث فبعد حين يجد نفسه مضطرا يقف عند باب غرفة الولادة بانتظار كائن يحمل اسمه، ويكون قيدا يفقده حريته التي يقدسها.

ابتسم كريم، وقال بخبث:

- صاحبكم "بلاي بوي" حقيقي!

وتلقف شاخوان التسمية وراح بروح الصداقة والميانة يمزح بها مع نوري، لحد التصاقها به وصارت مرادفا لاسمه عند الكثيرين ممن سمعوها، وانتشرت بسرعة فائقة، ولهذا وفي داخل نوري ظل ثمة غيض من كريم الذي اطلقها. حاول فوزي ايامها اصلاح وجهة نظر كريم حول نوري:

- هذا الرجل، نوري شناوة، تراه يا كريم يكره مؤسسة الزواج، وربما يحتقرها، وفي الظاهر تراه ايضا انسانا داعرا في اسلوب حياته واحاديثه، لكن في اعماقه يكمن انسان اخر تماما، ليس من السهولة اكتشافه. لقد خبرت هذا الانسان قليلا، في البداية كان لي نفس انطباعك عنه، بل وكانت احاذره واتحاشاه ولطالما سمع مني اجوبة خشنة، ويوما بعد اخر وجدت في عبثه وحريته، بل وحتى ما يمكن تسميتها دعارته، وجدت فيها شيئا من الرفض، ربما نتفق أنا واياك في معارضة اسلوب رفضه و طريقته في الحياة، ولكنه يؤمن بهذا وعلينا احترام اختياره، ومحاولة اقناعه ببطلان طريقته في التعامل مع الحياة.

وصمت كريم، وهو يرى ثمة اعجاب كامن في احاديث شاخوان وفوزي عن نوري، فواصل فوزي:

- لا اريد القيام بتشريح شخصية نوري لك الان، ولا اريد استغابته فانا احب الحديث معه حول اسلوب حياته واقول ارائي في ذلك امامه مباشرة، ووجها لوجه، انا اعترض على اشياء عديدة تبدر منه، اذ اراه يصرف كثيرا من الوقت والجهد على اشياء يمكن له انجازها بهدوء وبقليل من الوقت.

حاول شاخوان المساهمة ودعم كلام فوزي، فقال:

- هذه هي شخصية نوري، انت ربما تعبر عن اعجابك بلوحة او فيلم سينمائي بجملة او جملتين، نوري لا يكتفي بهذه الطريقة، نوري تعبيره عن اعجابه يكون بطرق ربما من الصعب علينا هضمها وفهمها، وفي هذا تراه يختلف عنا ويجعله متفردا باسلوبه وربما في هذا شئ من اسرار اعجابي به.

صاح كريم غير مندهش:

- اعجاب؟

فرد شاخوان بكل بساطة:

- نعم، اعجاب، لا اخفي عليك يا اخ كريم، ان نوري احيانا يقوم بافعال تعبر عن ذكاء ودهاء.

كاد الغيض يصيب كريم وهو يرى كثرة المحامين المتطوعين:

- اللص ايضا يعبر عن دهاء وذكاء ولكنه انسان مخالف للقانون.

وترك شاخوان ما بين يديه ووقف قبالة كريم تماما:

- يا صديقي العزيز لا تخلط الامور، اين نوري من مخالفة القانون والتعدي على المجتمع انه انسان عابث لا اكثر ولا اقل، انه مثل كل عراقي وصل هنا يبحث عن الامان ويبحث عن ذاته، وهو يعتقد انه يمكن البحث عنها بهذا الشكل.

فضحك كريم:

- البحث عن الذات بين افخاذ النساء؟

وانطلقت ضحكة من الجميع دخل خلالها نوري، ينظر في العيون ويقول بجد:

- طول الوقت في فترة غيابي كان ظهري يحكني بقوة، يبدو انكم شرحتّوني بشكل جيد.

راحوا يضحكون اكثر ورمق شاخوان وفوزي كريم بنظرة خاصة، وبادر شاخوان للجواب:

- حكينا عن فطنتك.

واردف فوزي بصدق:

ـ ولكننا لم نذمك.

رد نوري، وهو يوجه نظراته الى كريم تحديدا:

ـ لا اخاف من الاحاديث عني في غيابي، لستم بالاشرار، وسبق لي وسمعت من فوزي مباشرة الكثير من الملاحظات الثقيلة الوزن، انا متأكد تماما، انكم كنتم تلومونني على اهدار الوقت في...

ونظر فوزي بابتسام الى كريم، وواصل نوري:

ـ ومن اجل عدم اهدار الوقت لدي اقتراح...

فصاح فوزي:

ـ لا تخلق لي مشكلة بأقتراحك وتؤخرني، احذرك مسبقا، فانا مرتبط بموعد.

سال نوري:

ـ بشرفك فوزي، موعد مع امراة؟

فاجاب فوزي بضحكة:

ـ الحقيقة، نعم، ولكن لا يروح بالك بعيد، موعد ولكن ليس غرامي.

فقال له نوري بحماس:

ـ ولماذا لا يروح بالي بعيد، هل كتب علينا ان نعيش رهبان حتى يرضى عنا الناس؟ اود ان اخبرك، بأني لن اقبل منك دعوة في المرة القادمة، اذا لم تعرفني صديقتك الروسية على صديقتها او اختها او حتى جيرانها، عندها سأقبل مرافقتك.

وهو يجمع حاجياته ويضعها في حقيبته الصغيرة، قال فوزي بشئ من الجدية:

ـ مش بوزك، نسائي غير نسائك يا نوري.

فرد نوري بسرعة فائقة، وكأنه كان ينتظر جواب فوزي:

ـ كيف يعني هذا بالله عليك، هل حاجاتهن التحتانية، يعني.... بالعرض وليس بالطول؟

وحرك يديه باشارة فاضحة، معبرة وواضحة، فاطلق شاخوان ضحكة مجلجلة، شاركه فيها فوزي وكاد ان يغص، واكتفى كريم بابتسامة. قال فوزي:

ـ ساغادر، وداعا، لنتهاتف.

صافحهم فوزي بسرعة وهو يغالب ضحكاته وعيناه تقولان لكريم:

ـ أرايت يا بطل من ايام لم نضحك هكذا، هذا هو نوري.

الفصل الثاني

١

ـ اين يمكن ان يكون؟

هذا السؤال الذي طالما راود كريم، وطالما اقض مضجعه، طوال الليالي الثقيلة في محطات منافيه التي تعددت مثل اللغات التي صار يرطن بها. وهناك، في مدينة الديوانية، ورغم اتصالاته المحدودة معهم، الا انهم وفي كل مرة يجعلونه يشعر بالتقصير، وبالذنب، وكأنه لاه في حياة اوربا، وبعيد عن همومهم والامهم. لا يجيدون سوى لومه وايلامه بتلميحات مختلفة، وكأنه لم يفعل شيئا طوال هذه السنين، وربما يتصوروه غير عابئ بتوصاياتهم وقلقهم. وكل مرة يجد العذر لهم، وهم يعيشون ماساتهم، كل يوم محاصرين بأشباح الموت والخوف والجوع. كانت كلمات فاطمة جارحة وهي تتحدث بشئ من استخفاف، وكأنها انسان اخر تماما، لا علاقة لها بتلك الفتاة الخجولة، التي ارادت امه يوما ما تزويجه منها، لو لم تعبث الريح بعباءة محاسن:

ـ قليلا من الجهد يا اخي كريم، من اجل الخبز والملح، وانت كنت الاعز عند "سراب"!.

اراد كريم الصراخ في الهاتف بغضب. كل مرة يجازف بحياتهم للاتصال بهم، ليطمأن عليهم، فتصفعه بكلماتها الخشنة. اتدري فاطمة بليالي نواحه على صاحب؟

ايا انكيدو ان امك ظبية وابوك حمار الوحش،

ولقد ربيت على رضاع لبن الضباء

لتندبك المسالك التي قادتك الى غابة الارز

والا يبطل النواح عليك ابدا.

لم يعد امامه سوى حصول معجزة. لم يبق لديه سوى الطيران الى المريخ. وكأن نوري يقرا افكاره يوم اسره هامسا بلهجة تأمرية محاولا زراعة روح الجد فيها:

ـ اتدري يا كريم، تابعت مرة برنامجا تلفزيونيا عن الزوارمن"الحضارات الذكية"، هكذا سمتهم مقدمة البرنامج، لا تضحك ارجوك، وحياتك عندي يا كريم، وانت الاعرف، وانا شخصيا

اميل الى الرائ القائل بكوننا لسنا وحدنا نعيش في هذا الكون الشاسع، وهؤلاء الزوار كما يقول البرنامج، يعيشون خارج حدود كوكب الارض وحتى مجرتنا اساسا، يعني في الفضاء الخارجي البعيد، واشار البرنامج الى ان هناك دراسات لحلف الناتو عنهم، تشير هذه الدراسات انهم لا يشكلون تهديدا عسكريا ولكنهم موجودين...

ـ وما دخلي أنا بحلف الناتو وبأصحابك زوار الارض من الفضاء الخارجي؟

مخالفا طبعه الهازل، اضاف نوري بجد مغلف بشعور من الم مصطنع:

ـ ربما يكونوا وصلوا في يوم ما، الى بقعة ما، حيث قابلهم صاحب ابن خالتك و...اخذوه معهم!

لم يغضب كريم يومها من نوري. شعر بالحزن يغلف نفسه. رغبة عارمة تملكته للصراخ بوجه السماء، عل صراخه يصل الى الكواكب البعيدة، الى مكان ما يسمعه فيه احد:

ـ يا صاحب اين يمكن ان تكون؟

لم يكن صاحب شيئا عابرا في حياته. عرفت محاسن ذلك، من الايام الاولى لارتباطهما، وصارت تهرع الى صاحب لتشكوه لو خاصمها. ومن اول لقاء له مع فوزي في فنلندا، كان الرجل مدركا لاهمية البحث عن صاحب:

ـ اتدري يا كريم يعجبني فيك تمسكك بالامل، رغم كل هذه السنوات وعدم حصولك على اي بصيص نور للعثور على ابن خالتك؟

يومها، كان هو وفوزي عائدين من لقاء عائلة كردية، وصلت الى فنلندا من ايران عبر روسيا بواسطة طرق فرمان بوند، ووجدها فوزي فرصة، كما علق شاخوان بشئ من الدهاء:

ـ تزوران العائلة وينشط فوزي سياسيا ويوزع بعض البيانات الحزبية، فهو وجماعته لا يفوتون مناسبة، سواء كان ذلك حفلة زواج، مجلس تعزية بوفاة، خطوبة او طلاق، كل شئ. اتدرون ماذا يقول نوري عنكم، يقول مرة ان واحد منكم اقتاد فاتنة الى سريره، وقبل اعطاءها المقسوم استخرج لها بيانا وقال لها: "وقعي هنا وتضامني معنا ضد الديكتاتورية"!

لم يضحك احد يومها، وبلعها شاخوان. ليلتها قرر كريم اصطحاب فوزي معه عله يجد عند العائلة معلومة ما عن صاحب، وكان يود الاستفادة من امكانيات فوزي الدبلوماسية وطريقته في طرح الاسئلة بشكل غير مباشر. وهما يعودان يجران اذيال الفشل، وفي موقف الحافلة بانتظار العودة الى كيرافا، والسيارات تمرق مسرعة وتضرب باضويتها على قاماتيهما المحنية من البرد، وربما للتخفيف عن الاسى الذي يحرق قلبه، وجد كريم نفسه يقول:

ـ اتدري يا فوزي، ان صاحب بالنسبة لي يكون هو انا. هذا الرجل شبيهي في اشياء كثيرة. تربطنا اشياء عديدة غير رابطة الدم. كانت امي وامه تتوحمان معا، كانتا كلتاهما تاكلان ذات الطعام. وولدنا في ذات الشهر، كنت اكبر منه باسبوع بالتمام، ومنذ طفولتنا كان الى جانبي دائما. رضعنا بشكل مشترك من ثدي امهاتنا، تقول امي انها وام صاحب كانتا لا تعرفان يرضعان من، حين أكون وصاحب في مهد واحد وحين يبكي واحد منا ترفعه امي او خالتي ولا يهمهما من هو الطفل، المهم يلقمنه الثدي لاسكاته. فطمونا في نفس اليوم. حفلة ختاننا كانت واحدة. اول الطائرات الورقية صنعناها معا. اول عش بلابل في البساتين المجاورة عثرنا عليه معا. في مراهقتنا اعجبنا معا بابنة الجيران نفسها، ولكن حين وجد صاحب اني اكثر جسارة منه، والتقيتها في ظلام عطفة زقاق بيتنا كان صاحب يحرس مدخل الزقاق خوف قدوم غريب صدفة، وتكون الفضيحة. ومن هنا بدانا نفترق، كنت اكثر جسارة من صاحب، كنت اقتحم الامور والحياة، وبقي صاحب في الظل دائما، هادئا، مفكرا، يتحدث بهمس، ولا يكلف نفسه احيانا ليقول كلمة نعم او لا، يكتفي بهزة من راسه، احيانا لا تفهم ماذا يريد بها. بدا كل منا يكوّن اهتمامه الخاص. ولكن اسرارنا ظلت واحدة. كان ياتيني مرتجفا ليخبرني بأن جارتنا الارملة عاكسته ودعته لزيارتها سرا. كان يمسك بكتفي ويحدق طويلا في عينيّ بأن لا افضح سره. كان الخوف يسكنه رغم انه لم يستجيب لها ولم يقم بما هو خاطئ. لكنه هكذا منذ ايام طفولته الاولى ظل مسكونا بالخوف من كل شئ. بالنسبة لي، كان صاحب هو الاعقل بين اخوانه وبين اقراني، كان دائما يصيب الامر بتقديره ورأيه، هذا الذي جعله محبوبا عند جميع افراد عائلتنا. وكنت لا استغني عن استشارته، ولكننا مع الايام صرنا نختلف قليلا عن بعضنا البعض. كان هو يتفهم اختلافاتنا جيدا، يعتبرها طبيعية، وكنت اشعر بالتوتر والغضب كلما اجد نفسي اعاكسه في رايه واقوم بما لا يتفق ورايه. المشكلة انه كثيرا ما اكتشفت فيما بعد انه كان على صواب، واني كنت مخطئا في عدم الاهتمام بملاحظاته. كان صاحب وفي الوقت الذي اغرمت به وبجنون بكتب التاريخ ودرسته في جامعة البصرة، اغرم هو بالفيزياء، ودرسها في بغداد. هكذا ابتعدنا عن بعضنا قليلا. دراستنا صارت من الامور التي تنعكس على شخصياتنا واقوالنا واهتماماتنا. كانت الامور عند صاحب قاطعة، حادة، ويقينية، مثل معادلة كيماوية او قانون فيزيائي، فالمادة عنده مادة ولها تعريف واحد، وتركيب الهواء ثابت. بالنسبة لي راحت حياتي تتحرك ضمن قوانين الفرضيات والاحتمالات والاعتقاد والتخمينات. ثمة اشياء مشتركة لا نهائية تجمعني بصاحب، لا يمكن عدها بسهولة، ولا يمكن وصفها لحد صار

يلازمني شعور باني اذا لم اعثر على صاحب فسافقد نفسي. في داخلي اشعر بان دافعي للهروب من العراق، ليس ارهاب الديكتاتورية وحده، والرغبة بالخلاص من وجوه رجال قوات الامن والمخابرات الكريهة التي تلاحقنا مثل ظلالنا، وذاك المجرم أنيس التكريتي واسنانه الذهبية الكريهة، وطريقته الغريبة في طق اصابع كفيه، ولكن ايضا للبحث عن صاحب ولقاءه، لست قادرا لان ابقى طويلا بعيدا عنه. وهكذا يكون فقدان صاحب طيلة هذه السنين جرحي الابدي. الندبة التي لا يمحى اثرها.

يومها، كان صمت فوزي معبرا، وهو الذي عرف عنه اجادته طرح الاسئلة، ومن لا يعرف فوزي ربما يظنه ساعتها غير عابئ بما يشعر به كريم ولا بما يعانيه. حدق فوزي طويلا الى شفتي كريم وهما ترتجفان وهو يتحدث عن صاحب كانه يتلمس فيهما ارتجاف قلبه. قبل ركوب الحافلة، احتظنه بقوة، وشده الى صدره القوي، وهمس بقوة:

ـ يا بطل، كلنا يهمنا العثور على سراب. لن نتوقف من البحث عنه.

وكانت المرة الاولى التي استخدم فيها فوزي اسم "سراب" في الحديث عن صاحب، هذا الاسم الذي يأخذ طابعا عائليا جدا. لم يتوقف كريم يوما في البحث والسؤال عن صاحب. كان يستغل كل فرصة. فوزي نفسه، الذي افترق عنه طويلا، ما ان التقاه، وبعد عبارات الشوق والمجاملة التقليدية حتى كان موضوع صاحب هو محور لقاءهما وسهرتهما. من اليوم الذي صارت به حدود العراق خلفه وكريم يبحث عن صاحب. كانت مغادرة صاحب للعراق بشكل مبكر، وحتى قبل افواج السياسين المطاردين من قبل السلطات الحكومية، مفاجئة للجميع، وحده الذي لم يشعر بالمفاجاة بقدر ما شعر بأن صاحب، يدق لهم جرس الانذار:

ـ لم اعد اطيق الحياة هنا يا كريم. اشعر بالاختناق. اريد شم هواءا نقيا. اريد التحرك والتنقل دون سؤال من اي شخص: الى اين؟ وماذا تريد؟ وماذا تقصد؟ ولماذا تلبس هذا القميص؟ ولماذا لا تأكل اللحوم؟ و... اريد التخلص من مناداتي باسم سراب. اريد ان يكون لي اسمي الذي اريد، وامتنع عن القاء التحية على من لا يعجبني. اريد القول لجارتنا بصوت عال اني مللت تحرشاتها بي. واريد القول لاختي فاطمة كفي عن معاملتي كطفل، واريد...

لم يستغرب كريم حين قيل له ان صاحب اختفى بشكل غامض، اهل صاحب يعتقدون بعبوره الحدود الى بلد مجاور. جائهم من اخبرهم بأن هناك من راى صاحب في بلد مجاور. لم تصلهم منه رسائل، ولا اي اتصال. من هو هذا الذي راه؟ لا احد يعرف! في اي بلد؟ لا احد يعرف! هل اعتقل صاحب حقا، وفبركت اجهزة النظام الديكتاتوري القمعية اشاعة هروبه

لاخفاء اثاره؟ لم يجازف احد بطرح السؤال يومها. تقبلوا ببساطة فكرة هروبه خارج العراق. ايامها كان عشرات الشباب يتسربون خارج الحدود بحثا عن الامان، من نظام كان يريد ارغام الجميع على الانتماء لحزب البعث الحاكم. بالنسبة لكريم كون صاحب من اول مغادري البلاد لم يكن مفاجاة، كان يعرف ان لصاحب ادوات استشعار خاصة، مثل افاعي الارض التي تستشعر الزلازل قبل حدوثها فتغادر جحورها معرضة نفسها لمخاطر اخرى. كان صاحب معروف على نطاق واسع بأن ليس له اي علاقة بالاحزاب السياسية، وان كان يلتقي الشيوعيين والناصريين في الاماسي في المقاهي او في المناسبات الاجتماعية، وكان هناك همس عن علاقات جيدة له مع عناصر من جهات حزبية اسلامية. كان قليل الحديث في الشؤون السياسية، وان كان كريم يعرف بان صاحب يعيب على الشيوعيين تحالفهم مع البعثيين في جبهة سياسية، وقال له مرة:

ـ اصدقائك الشيوعيين يا كريم سيكونون اول من يتلقى صفعات النار.

طيلة سنوات دراسته كان صاحب منغمرا بجد في دراسته، في البحوث والافكار التي كان يفاجا بها اساتذته ويثير اعجابهم. لم يكلف صاحب نفسه يوما حضور نشاط سياسي، او الانشغال بأمورالسياسة. اشترك مرة في مسابقة شطرنج طلابية، وحين بدأت تلوح غيوم سياسية في افق المسابقة وكانت الجهات المنظمة تود ترتيب فوز احد عناصر الحكومة، وكان صاحب مرشحا قويا للفوز، واصطف خلفه المشجعين من خارج انصار الحكومة ومنظماتها، لم يشا صاحب تسجيل فوزه بأسم احد ويكون فوزا لهؤلاء ضد هؤلاء، صرخ بزملائه بقوة:

ـ بالنسبة لي انه لعبة شطرنج، شطرنج وبس!

وانتقل الى مدينة السماوة، مدرسا للفيزياء. لم تنقطع لقاءات كريم مع صاحب، لكنها صارت تتضائل. كان كريم يجد العذر لصاحب بانشغالاته. ورغم ان صاحب حرص على حضور حفل زواجه من محاسن، الا انه اختفى في اليوم التالي ليراه بعد اسابيع، واجما صامتا. يوما، طرقت فاطمة وبفوضى ومنهارة باب بيته. حين بلغ دار خالته، وجدها في سريرها مصفرة، شعثاء الشعر، زائغة العينين، وبالكاد تلفظ كلماتها:

ـ ضاع!

ولم تزد على هذه الكلمة شيئا حتى يوم وفاتها بعد ذلك بشهور!

حين وصله خبر اختفاء صاحب. كان في داخله امل بلقاءه يوما ما. فلا يمكن لصاحب الضياع بسهولة هكذا لانه شاء او لان اخرين شاؤا له ذلك، حتى وان كان يحمل اسم "سراب".

وما ان عبر كريم حدود العراق بعد ذلك بفترة، لم يترك احدا لم يراسله، وحين فتحت اوربا ابوابها للعراقيين كلاجئين لم يترك دولة لجوء لم يبعث لها رسائله. كثيرون قالوا له:

- لما لا يكون قريبك ولاسباب فنية، وما اكثرها، قد استبدل اسمه، مثل العشرات الذين سبقوه الى ذلك، وربما هو الان يعيش في كندا او امريكا باسم لا صلة له من قريب او بعيد بألقاب عائلتكم؟

وصار يبعث مع رسائله نسخة من صورة قديمة لصاحب حملها معه من العراق. صار يثبت اوصافه بدقة. ذلك الخال الناعم، صعب التبيان عند طرف الحاجب الايسر. وتلك الوحمة اسفل الخاصرة في الجانب الايمن. وراح يفكر بعشرات الاحتمالات والافكار. تأتيه من خلال لقاءه بالعراقيين وسماع قصصهم الحزينة والمأسوية، وهم في طريقهم الى بلدان اللجوء. وكثيرا ما كان يتسائل بخوف:

- أيكون قد اغتيل من قبل رجال المافيا، حدث وان عدة مرات استدرج عراقيين مساكين باحثين عن طرق رخيصة للجوء الى السويد او فنلندا، الى مناطق مجهولة، ثم في عمق الغابات الروسية حيث لا شهود على الجريمة يتم قتلهم بدم بارد؟ أيكون صاحب يا ترى مدفونا في حفرة يعثر عليها بالصدفة جامعوا الفطر مثلما حصل عند حدود بطرسبورغ مع استونيا؟

يحاول كريم اطمئنان نفسه، باحتمالات تغيير صاحب لاسمه. ربما هو الان محمد او سفيان، او عليّ او عمر، ويكون قد ارتدى وجها اخر. ربما يكون ازال شاربيه، وغير تسريحة شعره، وربما صبغ شعره، وأطلق سالفيه، ويرتدي ملابسا حديثة، ولكنه في كل الاحوال سيحاول البقاء قريبا الى روح سراب، التي عرفه بها، وعرفه اقرب الناس اليه، قلبا محبا كبيرا.

لم يتردد كريم في طلب مساعدة الاخرين حول موضوع البحث عن اثار صاحب. كل من عرفه سأله. صارت قصة بحثه عن صاحب ابن خالته معروفة عند كل معارفه. حتى نوري ابدى استعداده لسؤال معارف له يقيمون في بلدان اوربية. ساعده فوزي اكثر من كل شخص اخر. معا كتبا رسائل لمنظمات عراقية واوربية قدمت معونات للاجئين العراقيين. كان السؤال الذي يعذب كريم ليل نهار: في اي من بلدان العسل واللبن قد حل صاحب، ولا يريد الكشف عن نفسه؟ ايعقل ان صاحب اضطر لانتحال شخصية انسان اخر ليحصل على اللجوء في بلد ما؟ سافر كريم بنفسه والتقى كثيرين مروا بمعسكرات لجوء في بعض الدول، وسلكوا طرقا فاشلة وعاودوا المحاولة ثانية، كان يقول ربما التقاه احد منهم في مكان ما!

٢

لم يشأ نوري الاعتذار مباشرة لفوزي عن الدعوة هذه المرة. قال فوزي ان كريم سيلتحق بهم الى هناك، وربما يأتي اخرون. وجد نوري ان التلمص من الدعوة لا ينفع، سيثير زعلهم. وعد فوزي، وامام الجميع:

ـ ان لم تتمكن من القدوم بنفسك الى "نيران نوروز" سأتيك بنفسي الى كيرافا بمجرد التحرر من شاخوان!

كان كمن يحاول تبرير عدم مشاركته في التظاهرة الاسبوع الماضي. قال له فوزي يومها وبدون مواربة:

ـ تعال يا نوري وكفر عن بعض ذنوبك بالتظاهر ضد الحرب!

و حاول نوري المشاكسة:

ـ وماذا ساضيف ما دام الكل تتظاهر ضد الحرب، حتى عملاء صدام حسين.

وكان جواب فوزي جاهزا:

ـ لا تخف سنضع بيدك صورة صدام حسين وانيابه تقطر دما.

ودخلا يومها في حوار، شاركهم فيه اخرين، ولم يصل احد الى نهاية. كان فوزي وجماعته يثيرون البعض بشعارهم "لا للحرب.. لا للديكتاتورية" ، كان البعض يسخر منهم:

ـ طيب وماذا يفعل المصاب بسرطان خبيث، اذا أنتم لا تسمحون له لا باجراء العملية الجراحية ولا بالبقاء مريضا.

وكان فوزي يحاول تقديم الحجج حول ما يسميه "الطريق الثالث"، "التغيير بواسطة قوى الشعب العراقي":

ـ نحن نرفض خيار الحرب ونرفض خيار الديكتاتورية، ونقبل العون الدولي من اجل المساعدة في الخلاص من الديكتاتورية والتغيير، ولكن التغيير ليس عن طريق الحرب. الحرب سيكون لها نتائج كارثية على مستقبل شعبنا والمنطقة، نحن نعتقد ان خيار الشعب و قواه الوطنية الحقيقية هو الطريق الامثل.

كان نوري يرى فوزي وجماعته مجموعة من الواهمين بتحقيق شئ صار بعيد المنال. يعولون على انتفاضة شعبية لا يمكن حدوثها وسط اجواء عالمية صارت فيه الولايات المتحدة الامريكية هي اللاعب الوحيد. كاد ان يفقد حياته في انتفاضة اذار ١٩٩١. برزت لديه مهارات

لم يألفها في نفسه لتنظيم الناس. لم يكن يعمل بأيعاز من حزب، ولا بالتنسيق مع جهة ما، كانت ثورة غضب متراكم تفجرت في نفسه. مع اول اخبار اطلاقات الرفض في "ساحة سعد" من جنود ناقمين عادوا منكسرين، مهانين من نزوة الديكتاتور في غزو الكويت. وقف نوري في شوارع البصرة يدعو الجنود والضباط للالتحاق بالرافضين الناقمين. لم يعرفوا في البدء كلمة الانتفاضة. صاروا يتداولونها لاحقا.

مع نهاية مفاوضات "خيمة صفوان"، بدأت طائرات الهليكوبتر مثل غربان الشؤوم تلوح في سماء البصرة، ودخلت طلائع فرق الحرس الجمهوري اطراف المدينة. ووجد نوري نفسه ينطلق من خندق الى اخر يحث الرافضين على مواصلة المقاومة. قرأ عن ثورات وانتفاضات مهزومة، لكنه لم يشهد ثورة كهذه انفض عنها مؤيديها بسرعة. شعر بالألم لعجز القوى السياسية العراقية ان تكون طليعية وتقود الشارع. كانوا يجيدون الزعيق عبر الاذاعات. وكان قادة المعارضة يتكلمون من مناخيرهم وهم يحثون على الثورة. لم تكن هناك خبرة سياسية كافية لدى قادة الانتفاضة الميدانيين. دول الجوار لها حساباتها الخاصة، وارسلت الاف الصور لقادتها المعممين، فأثارت مخاوف القوى الكبرى التي عقدت صفقة رابحة مع الديكتاتور في "خيمة صفوان"، وكان "سلطان هاشم"[٢٧] يبدو مثل "بولدوغ" ذليلا وهو يدخل الخيمة بعد ان اجبروه على نوع مسدسه الشخصي. كانت اذاعات العالم تتحدث بخجل عن انتفاضة امتدت لمدن ١٤ محافظة وجعلت الديكتاتور يسميها "المحافظات السوداء" مقابل ٤ محافظات ظلت تحت سيطرته وسماها "المحافظات البيضاء". كانت ماكنة الارهاب والخوف اقوى من عزائم الناس واحلامهم. حين وجد نوري نفسه مع حفنة من الثوار يدافعون عن المواقع الأخيرة، وحين عد الطلقات القليلة الاخيرة بين يديه، فكر بتسديد البندقية الى صدره. لا يريد الوقوع اسيرا بين ايدي احفاد "الحرس القومي"[٢٨] الذين اغتالوا خاله امام باب داره، ليس لانه شيوعي او قاسمي[٢٩] بل لان الشيوعيين كانوا من زبائنه ويرتادون مقهاه. لكن نوري فكر بانه سيوفر للطغاة فرصة للتشفي به وامثاله بعد الموت. صحيح ان الانتفاضة لم تثمر شيئا على صعيد تغيير النظام، لكنها قالت بصوت عال، ودامي، الكثير مما لا يعجب الطغاة. وللاسف لم يكن اهل السياسة اهلا لجني ثمار تضحيات الناس البسطاء. الجنود والكادحين والمظلومين الذي تحدوا الطاغية وصوتوا بدمهم لصالح التغيير. وحين صار معلوما للجميع كيف ان قادة المعارضة المقيمين خارج البلاد، وفي فنادق خمس نجوم، كانوا منشغلين في سجال عقيم حول وضع " بسم الله الرحمن الرحيم" في صدر بياناتهم، دوى في اعماق نوري صوت، كأنه يأتيه من دهاليز روحه، يقول له:

ـ يمكنك العيش بشكل اخر!

ومن ساعتها وبحروف من نار سطعت في رأسه عبارة "الحياة بشكل اخر". وأرتسمت على مسارات دماغة وخلايا تفكيره لتحدد له مستقبله كله. نزع البدلة العسكرية، واخفى البندقية، ووجد طريقه عبر الحدود مع الالاف ممن شاركوا في الانتفاضة او ممن وجدوها فرصة للخلاص من قفص سجن كبير اسمه: العراق. قضى عاما في مخيمات رفحا في المملكة العربية السعودية. المخيمات التي لا تمت الحياة فيها للعالم الانساني بأي صلة و ليس لها علاقة بقوانين العالم وحياة البشر الاسوياء. امام العذاب والهوان، ومن الايام الاولى له في مخيم رفحا، خطر له تجريب اول الصور من شعار: "الحياة بشكل اخر". في التحقيق الاولى امتنع عن الكلام بعد تقديم اسمه كاملا، مشددا على كونه ضابط في الجيش العراقي في موقع مهم. ونجحت الفكرة. نقلوه فورا وتحت جنح الليل من المخيم وبطائرة هيلكوبتر الى معكسر خاص في حدود مدينة الرياض. وظل ستة ايام في رعاية خاصة لا يَحْلم بها أبن،عاهر، فكيف بثوار مهزومين تكدسوا في خيم لا تحميهم من غضب الصحراء؟ سرير نظيف واكل من الدرجة الاولى. جنود امريكان مثل الدمى، سلخت شمس الصحراء جلدة وجوههم ينفذون كل طلباته مثل الات الروبوت. كان الموظفون القليلون من مواطني المملكة العربية السعودية يخشون الاقتراب منه ويتجنبون الحديث معه، بينما كان رجال الشرطة والجيش السعوديين في مخيم رفحا يواجهونه كل مرة بسؤال غريب:

ـ انت مسلم أم شيعي؟

ستة أيام من الحياة في الجنة. لم يكن ينقص تلك الحياة سوى حور العين. ووجدها هناك. كان اسمها "سنثيا رودريكس". حفظ اسمها جيدا. خمن انها من اصول امريكية لاتينية، وربما اسبانية. لم يكن بحاجة ليسأل عن اسمها. كان مكتوبا على قميصها عند موقع جذر النهد البارز، المتحدي. تجلس الى كرسي وثير عند مكتب الاستعلامات يفصله عنها زجاج سميك. بدا يستثمر لغته الانكليزية لرمي شباكه حولها. من اليوم الاول حذروه من الاحتكاك بالجندين العاملين، ولكنهم حددوا له الاتصال بالاستعلامات لتقديم طلباته العاجلة والاستفسارات. كانت الجندة سنثيا ترد على سؤاله اليومي بنفس الكلمات:

ـ للاسف، لا توجد رسائل باسمك يا سيد شناوة!

ولم يكن ينتظر احدا ليكتب له. وهل للعراقيين المساكين في مخيمات رفحا من وقت للتفكير بالكتابة له وهم يعيشون في جحيم المخيم، بين عواصف الرمل والاهانات اليومية من رجال الامن السعوديين، وهم يرون شيوخا وزعماء نبتوا من بين الرمل يحاولون تطويع الناس لولائاتهم

الطائفية، بدعم من السلطات السعودية او من دول مجاورة، أو من مخابرات نظام صدام حسين، التي بدات تنشط بينهم بشكل مكشوف. وكانت تقلق الجميع محاكم التفتيش التي راح ينصبها متعصبون طائفيون ضد كل من يخالفهم الرأي بحجة تعاونه السابق مع نظام صدام حسين؟ كان نوري يحاذر الاحتكاك مع "سيد عجمي"، الذي راح ينشط بحذر ولكن بشكل شبه مكشوف، ويرمي شباكه حول البسطاء، ويوطد علاقته مع بعض النشطاء السياسيين. وفي غفلة من سكان "مخيم رفحا" اغتيلت بعض الوجوه. لم يتم التعرف الى قاتليهم. واختفت وجوه اخرى وكأنها ملح وذاب. كان بعض الهمس يشير الى سيد عجمي واخرين كانوا على صلات سابقة مع مخابرات نظام صدام. هناك، في رفحا، في الممرات بين الخيم الكالحة، التقى لاول مرة، وبمعية سيد عجمي مع غريب عتوّي وسمع شيئا مريبا حوله، وفاحت اكثر روائح المؤامرات والغدر. كان على نوري الابتعاد عن كل هذا. وخطرت له فكرة عدم الكلام الا بحضور مسؤولين امريكيين. كان يأمل نقله الى امريكا فورا، حيث هناك يمكنه بناء حياته بشكل اخر، واذ وجد نفسه امام سنثيا قرر بدء تجربته من عندها. بدا نوري يلمس استجابة حذرة من سنثيا لتلميحاته وايماءاته، وبدا يحلم بها كل لحظة. كانت مشكلته تدبير المكان الذي يمكن الاختلاء معها فيما لو استجابت اكثر لدعوته الصريحة لها بنظراته التي كانت تعريها كلما وقف امامها يسأل عن بريده الوهمي متقينا من انها فهمت مناورته. لا يلزمه سوى نصف ساعة، ليحدثها قليلا، ويسكرها بعناقه وقبلاته. لذا قرر استجماع كل جرأته ليطلب منها المبادرة والعثور على مكان لخلوتهما وتختار الوقت المناسب. الا يقولون ان المرأة الاوربية تعجب بجرأة الرجل؟ ما ان جاءها في اليوم السابع ليخبرها بما كان يود وهو يصفف شعره باطراف انامله، وقبل السؤال عن بريده المزعوم، اخبرته بحروف واضحة تنطلق من شفافها الجافة بفعل الحر:

ـ الغرفة السادسة على اليمين، المقدم دي نيرو بأنتظارك!

ومن يومها صار يكره كل افلام "روبرت دي نيرو"، رغم هيام كريم مطرود به، ويعتبره ممثلا عبقريا. كان المقدم دي نيرو بشاربين خفيفين، وصلعة ناعمة. وهو اقرب الى "جورج كلوني" بشكله منه الى روبرت دي نيرو، ولم تكن عنده شامة ابدا. وهذا اثار ارتياحه، فكم صار بعدها يشعر بالقرف من شامة روبرت دي نيرو. قدم له المقدم سيكارة بكل ادب، فاعتذر عن التدخين، ولم يكن في باله ما قاله له فوزي فيما بعد:

ـ عادة يقدم المحققون بلطف واريحية سكائر وفنجان شاي للمتهم او الزبون، ليدخل الاطمئنان الى نفسه، ويسألوه اسئلة سخيفة، عن اسمه وعمره وسنة تولده، وتكون مدخلا مناسبا لترويضه حتى يسترسل في الاجابة بروح التعاون. -

كان مستعدا للتعاون والاجابة عن كل الاسئلة، بدون اي ترويض فقط لو كانوا امروا بارساله الى امريكا، لكن دي نيرو ابن الكلب بعد نصف ساعة من الاسئلة اوقف التحقيق، واكتشف اللعبة رغم كل الجهد للمناورة. ماذا يمكن ان يجدوا عنده؟ اي معلومات يمكن ان تكون عند ضابط مجند عمل في سلاح الهندسة؟ ابتسم الضابط بخبث، وهو يصافحه شاكرا. ما اغاضه اكثر، انه عند نهاية الجلسة دخلت سنثيا الى الغرفة ومعها ضابط اخر له ملامح "ابو بريص"، واستلموا من الكريه دي نيرو اوراقه، واعادوه الى الغرفة. لم يودعه احد، ولم ير بعدها لا شنثيا ولا الكريه دي نيرو. في اليوم التالي وجد نفسه في المخيم من جديد امام سيد عجمي وغريب عتوّي وحوله تدور عشرات الاشاعات وتنطلق بعض ضحكات التشفي. بين سكان المخيم صار يعرف بالكذاب، ولولا مجموعة من الشباب المثقفين، الذين قربوه اليهم لربما اصابه الجنون. كان سيد عجمي كل مرة يزوره يجعله يشعر بان عيون الدكتاتور تدور حول المخيم. من يومها قرر التمسك بقوة بشعار "الحياة بشكل اخر"! رغم كل ما ناله بسبب ذلك. في فنلندا، خلال عمله لفترة كمترجم، تعززت علاقته مع فوزي حين رافقه في اول ايام وصوله فنلندا خلال مراجعات فوزي لبعض دوائر الدولة. كان نوري حذرا جدا في بادئ الامر، لكن فوزي كشف له عن نفسه بسرعة، وفي اليوم التالي وجد نفسه يجتاز معه كل الشكليات والرسميات. حاول فوزي بأكثر من طريقه، اشغاله وابعاده عن اسلوب حياته، كان يعتقد ان حثه على القراءة، او دعوته لحضور بعض النشاطات، ندوات واحتفالات، يمكن ان يشغله او يثير اهتمامه. بدى له فوزي انسان حالم. متمسك بوهم اصلاح الناس. فوزي انسان طيب، حريص على الاخرين، لكن مشكلة امثاله انهم يثقون كثيرا بقدرات الانسان. تحدث فوزي معه مرارا عن دائرة اليانج - ين[٣٠]، ومساحتيها المتساويتين المتداخلتين في حركة دورانية كأنهما سمكتين ملتفتين على بعضهما. يعتقد فوزي ان المساحة البيضاء - اليانج يجب ان تكبر في داخل الانسان. ولكنه واهم، اذ لا يدرك ان العصر الحالي، ليس عصر الافكار الخيرة، ولا عصر الانسان الخير الذي يؤمنون به. ان فوزي واصحابه، ساهين عن كون المساحات السوداء- الين تكبر في قلب الانسان رغما عنه. هناك مساحة بيضاء، لكنها محدودة، تتضائل يوما بعد اخر، الاف الضغوط تمارس ضد الانسان. ضغوط تمسخ له فكره، وطيبته وشفافيته، اخلاقياته الطيبة، فعلى الانسان العيش في مساحة ثالثة، يبتكرها لنفسه، بعيد عن الاسود والابيض، تكون مساحته الخاصة، وليكن لونها ما يشاء، لا يكون فيها مسيحا يصفع على خده الايسر ليدير لهم الايمن، ولا يكون مثل "فهرمان بوند"، منشار حقيقي، صاعد نازل ياكل حقوق الناس. نجح نوري في بناء علاقة طيبة

مع فوزي رغم اختلافهما في شؤون عديدة. ما يعجبه في فوزي، هذا الرجل الذي يحمل على جسده ندوب سنوات مقاومة الديكتاتورية بالسلاح في جبال كوردستان، وندوب حياة قاسية تركت تاثيرها على قسمات وجهه التي تبدو غاضبة احيانا وحزينة، انه يتعامل مع الناس مثلما هم، وليس كما يريدهم. لم يحاول فوزي التدخل في خصوصياته، رغم كل اعتراضاته، كان يتجاهل التدخل المباشر في اسلوب حياته، قال له مرة:

ـ لا تهمني يا نوري بطاقة الانسان الحزبية والسياسية، يهمني كونه نظيفا من اي علاقه مع النظام الديكتاتوري، وأن يكون ايجابيا ونافعا في علاقته مع عموم الناس.

كان فوزي، من المبادرين دوما لاجتماع الكثيرين، وهاهو يحاول جمعهم من جديد. صاح نوري بالموجودين:

ـ يا جماعة الخير، اشهدوا عليّ ساكون اول الحاضرين، فيما اذا كانت القضية مجرد دعوة الى ساونا!

وتعالت الضحكات، من بين الحاضرين، وصاح به شاخوان:

ـ ستبرد البيتزا، وسيغضب الزبائن، هيا امض.

ووجد نوري نفسه قريبا من المكان. العمارة ذاتها ولكن طابق اخر. هل سيُفتح الباب من جديد بمشهد مماثل؟ وهل ستكون هناك نيفا اخرى؟ لم يكن في بال نوري بداية بهذا الشكل ولمثل هذا الامر. يومها لم يجد صعوبة في العثورعلى العمارة، فبعد اكثر من سنة من عمله مع شاخوان في توزيع البيتزا، صار يعرف دروب المنطقة جيدا. وصار شاخوان يحتكم الى سرعته وبديهته كثيرا. عند نهاية خط الترامواي رقم ١٠ كانت الصيدلية القريبة خير اشارة:

ـ بعد اجتياز الصيدلية قليلا تجد مدخل العمارة!

اوقف نوري السيارة التي كانت تلمع عليها شارة المطعم الجديدة:

ـ "نيران نوروز" خدمات فورية. اتصل فورا!.

كان شاخوان مسرورا جدا حين تبين له الفائدة العملية لاقتراح نوري بوضع اعلانات براقة عن المطعم على جوانب السيارة مع صور ونقوش منقولة عن الترجمة الفنلندية من كتاب الف ليلة وليلة. كانت الاعلانات الفسفورية تلفت انتباه كل المارة، خصوصا تلك الرسوم الشرقية الساطعة والحيوية، واستمع شاخوان الى اقتراح نوري بالدوران في السيارة كل يوم قليلا في ساعة مغادرة الموظفين:

ـ لن يكلفك ذلك سوى القليل من البنزين لكنك ستلفت انتباه الموظفين الى وجود مطعمك!

نجحت الفكرة مع العاملين في دائرة الاطفائية القريبة، اذ صارت تصلهم من هناك طلبات بالجملة. اقترب نوري من باب الشقة صاحبة الطلب. كان في الطابق الثاني. لم يستخدم المصعد، صعد السلم القصير عدوا، ليس لضمان وصول البيزا ساخنة، بل ولانه اراد الرجوع قبل مغادرة فوزي. طرق الباب وابتعد قليلا عنه. كان ذلك اول دروس شاخوان له في العمل:

ـ حافظ دائما على مسافة النصف متر بينك وبين الزبون!

اعاد قراءة العنوان ثانية وتأكد له رقم الشقة تماما. ادار زر جرس الباب اليدوي ثانية، وما ان هم بالابتعاد حتى فتح الباب بعنف، وانطلقت منه شابة نحيفة، صغيرة الحجم، بشعر داكن اللون طويل ومحلول، ببنطلون جينز، فقد لونه من كثرة الاستعمال، حافية القدمين تحمل حذائها الجلدي بدون كعب ومعطفها الجلدي البني بيدها. اصطدمت به. سقطت حقيبتها وكتاب، وانتثرت اشياء لم يعرف ما هي، لم تتأفف ولم تشتم على عادة الفنلنديين. وهي تلم اغراضها بسرعة صاحت به:

ـ نقود، اعطني القليل، ارجوك!

كانت بيده بعض النقود الصغيرة احتياطا لتنفعه في حساب الزبون. بشكل ألي ودون اعتراض وكانه منوم سلّم نوري بعض النقود للفتاة التي واصلت العدو نحو الطابق الاسفل بأتجاه الباب الخارجي. استغرب نوري مما يجري وابتعد اكثر عن الباب. اراد العودة بأدارجه حين فتح الباب ثانية وخرج شاب عاري الصدر، برأس مكور مثل بطيخة، وجلدة الرأس الحليقة تلمع. العرق يغطي وجهه النحيف كوجه سحلية وصدره العريض المزدحم بالوشم بأشكال غريبة وعجيبة ويزحف ليغطي يغطي ذراعيه وظهره. لاحظ نوري كدمة حديثة واضحة على جانب صدغ الشاب، كان لا اراديا يتحسسها باطراف اصابعه المرتجفة. اجتاز نوري بخطوات ثم عاد اليه. حدق اليه بنظرات غاضبة لوجوده في الوقت غير المناسب، وبفظاظة اخذ علبة البيتزا من يده، دس يده في جيب بنطاله الجانبي ودون عدها دفع الثمن بالكامل بنقود معدنية صغيرة. بسرعة غادر نوري البناية، جلس خلف مقود السيارة، وبفضول راح يراقب باب البناية حيث خرج الشاب كالمجنون يهرول بأتجاه موقف الترامواي وهو يزرر قميصه. بمجرد ان استدار بالسيارة عند موقف الحافلة لاحظ نوري الفتاة وقد ارتدت معطفها وحذائها ورتبت شعرها، وتصعد بهدوء الى حافلة توقفت امامها. قال ساعتها لنفسه مالي ومالها، لكنه ظل وطيلة ايام يتذكر تلك النظرة المذعورة، في وجه الفتاة الطفولي، وهي ترجوه اعطاءها قليل من المال. لا يعرف لماذا لم يرو الحكاية لاحد. احتفظ بها لنفسه، وكأن نظرات الفتاة ترجوه الاحتفاظ

بسرها. في سنوات وجوده في فنلندا شهد الكثير من العراك بين مواطنين فنلنديين. راى يوما في مقهى وسط العاصمة، كيف راحت امراة فنلندية تبدو عليها مظاهر الجمال والثراء وبحقيبتها الجلدية توسع رجلا بمظهر ارستقراطي الضربات على راسه ولم يكن يفعل شيئا سوى الاشاحة بوجهه وترداد كلمة:

ـ عليك ان تفهمي اولا!

ماذا يمكن للانسان ان يفهم اولا؟ للتعامل بحكمة مع الاخر، هل يكفي الالمام بكل شئ؟ ماذا عن تلك المساحات المظلمة، المستورة، المختفية في الظلال، التي لا يمكن لاحد استكشافها؟ لقد تطلب من شاخوان سنوات طويلة ليفهم زوجته التي تعاشره كل هذه السنين وتحملت بصبر عجيب ظلمه وتهوره. لقد تطلب من مروان صدمة عنيفه ليفهم خداع اخوته له وزيفهم في حنانهم واشواقهم. قد يتطلب العمر كله لنفهم اننا كنا على خطأ وان المقابل على الصواب. كان كريم مطرود اول من دخل الى تلك المساحة المستورة في روحه التي يجهد نوري لاخفاءها تحت ظلال من العبث واللاابالية:

ـ مشكلتك يا نوري انك تهرب من شيئا ما، انت نفسك تدرك تماما انك تكره حياة نوري هذا الذي يعيش الحياة بشكل اخر؟

وهاهي نيفا ودون استئذان، ودون ادراك منه لكيفية حصول ذلك، هاهي تتسلل مثل خيط ماء الى تلك المساحات الجدباء من روحه، التي سورها بالعبث والنساء والمزاح والتهريج احيانا، لتحاول الاستقرار فيها دون ان يكون مستعدا لذلك!

٣

مثل ملك او امير، يجلس كريم مطرود في سرير نوم باولينا، محدقا بستائر شقتها البيضاء كأجنحة ملائكة، ساهما، مواصلا سرحانه في افكاره المرة، وفي باله تختلط الهواجس وتكاد تغطي على طعم ليلة حرصت باولينا ان تكون ليلة مميزة:

ـ ليلة حب تاريخية، لا وجود لها في الكتب!

ليلة لم يكن الجنس سيدها بقدر تلك اللمسات السحرية التي تضيفها باولينا وتجعل اللحظات تمر سريعا. في كل مرة، يحصل هذا تأخذه الذكرى الى يوم اوشك على كسر قلب باولينا وهدم ما بني بينهما بحماقته وتخاريفه. ذلك اليوم، العصيب، الماطر، العاصف، منذ شهور طويلة، وكعادتها، انسلت باولينا الى جانبه وهو نائم، وتلامس جسديهما، فاشتعلت في

كريم خبايا براكين الشرق. فتح عينيه ببطء. ابتسمت باولينا مغمضة العينين. لم يدر كيف جرت الامور. احتضنها اولا بقوة، وبدون مقدمات قبلها بخفوت على طرفي شفتيها. مد كفه ليحوي نهدها بين يديه، بينما راحت يده الثانية برقة تمسح لها ظهرها، وكالافعى تحركت اصابعه لتستقر تحت حافة سروالها، وتتسلل لتمسد لها شعر عانتها. اغمض عينيه هو الاخر. كان لا يريد رؤيتها، كان يود الشعور بها. شعر بشفاهها تلثم كتفه، ثم تزحف الى عنقه، وتوقفت عند اذنه وراح لسانها يلحس له شحمة اذنه ويثير فيه احساسا غامضا مفعما باللذه، وسريعا ما تلقفت شفتيها شفتيه. كانت شفتيها غضتين، ودافئتين، فتح فمه على سعته واحتوى شفتيها داخل شفتيه وراح يمص ريقها مثلما كان يمص عصارة ثمرة الليمون في طفولته، واستجابت للعبة فسحبت شفتيها لتفعل بهما مثلما فعل. كانت كل اجزاء جسديهما تتحاور، لم يكن فيهما عضو ساكن. في الخارج يتواصل المطر المفاجئ، الذي لم تعلن عنه الانواء الجوية، بنقر زجاج النافذة. وكانت رائحة الصابون تفوح من شعرها تجعله يشعر بورد عباد الشمس يكللهما معا. استقام فجأة وسط السرير وسحبها اليه، حررها من سروالها وفتح فخذيها بحركة خاطفة، لاحظ ان عينيها لمعتا برضا بما فعل. كانت جاهزة للقطاف، كان يحس برطوبة فرجها تبلل وسطه. كان على وشك ان يلجها حين همست بشئ، لم يفهمه، ولكنها كررت بصوت واضح:

ـ ارجوك ضع الواقي المطاطي.

ومدت يدها ودون النظر بأتجاهه لتفتح درجا الى جانب السرير، هناك كانت ترقد علبة جديدة، وكان هناك بضعة اقراص طبية ما. لا يدري كيف مات عنده كل شئ. كيف بردت كل النيران؟ صار المطر مثل طلقات رصاص تدور حوله، وهمد جسده:

ـ مابك؟

ـ لا ادري!

كيف لها ان تفهم ؟ امراة كانت تنتظر منه هذه اللحظة وهيئت لها كل شئ، ثم فجأة:

ـ اعذريني ثمة شئ خطأ معي!

وانسحب الى الحمام ووقف ساكنا تحت رشاش الماء. ما الذي ازعجه؟ ما الذي فكر به؟ هل حذرها من الحمل يدفعها الى ذلك؟ ام انها بعد كل هذه الشهور لا تزال تخشى ان يجلب لها مرضا ما من امراة غيرها؟ اتراها غير واثقة فيه لحد الان؟ اتتصوره رجلا سهلا لهذه الدرجة؟ راحت الاسئلة تنهش روحه، وكل لحظة يبرز سؤال جديد. الم يكن ما حصل معه لكونها تحتفظ بالواقي المطاطي قرب سريرها؟ أهذا حقا ما جعله يرتبك وينسحب من السرير؟ في قرارة نفسه، كان

يشعر بسخافة ما حصل وما بدر منه. لم يفكر بكونها تحتفظ باحتياطاتها لاي رجل يصحبها الى السرير، فهي ليست من نوع النساء اللواتي يحتفظن بالواقي المطاطي في حقائبهن تحسبا للطوارئ، مثلما يحتفظن باقراص الصداع. يدرك ان باولينا امراة اوربية تعيش حياتها بالشكل الذي تريد، وليس له من سلطان عليها سوى سلطان الصداقة. ايريدها مثل نساء بلاده خرساوات لا يمكنهن حتى التلميح لرغباتهن الجنسية ومشاعرهن العاطفية؟ اكان يريد شراء الواقي المطاطي بنفسه، ام يريدها تستأذنه قبل شراءه؟ كان ابوه يقول له دائما:

- تعامل مع الناس مثلما هم عليه، وليس مثلما انت تريدهم ان يكونوا.

يا لسخافه ما فعل! امراة تعامله بكل الصدق والنقاء، وتعد الدقائق للقاءه، وهو الذي اشتهاها منذ اول تعارفه بها، يعاملها بهذا الشكل؟ لم لا يفكر بالتأثير السلبي على للاقراص المانعة للحمل على جسمها؟ وربما لديها دافع اخر لا يعرفه، لم يتعامل بهذه الحساسية مع امر خاص بها كأنثى؟ شهور طويلة مرت ظل فيها يراقب سلوكها، لم يشعر فيه تهافت او سوقية ما، عكس ما كان يرى في سلوك اخريات عرفهن، وصحب بعضهن الى السرير. انهى علاقته مع آريا لانها ببساطة ومثلما وصفها فوزي له:

- يا بطل، هذه نموذج حقيقي للسيدة "مساء الجمعة"!

اختارته آريا يوما بكل جرأة من بين مجموعة من الرجال. مثلما كانت تختار غيره. وصل المرقص هاربا من وحدته في شقته الصغيرة. في اول ايامه في مدينة كيرافا قاده فوزي الى قرب محطة القطار، وقال له بمودة، وهما يحتسيان بيرة باردة:

- حياة امثالنا في المنفى، يا صاحبي، يجب ان لا تكون فقط كتب وشعارات وذكريات وانتظار. من جانب يجب اغراقها بالعمل النافع، وايضا يجب ان نكون بين الناس ونشاركهم حياتهم. لاستراحة الروح هذا المكان ينفعني كثيرا، لست من الرواد الدائمين له، ولكني ازوره احيانا. وساحدثك عن تجربة، هذا المكان يمكنك اللجوء اليه حين تشعر بان جدران الشقة تكاد تضيق عليك. اؤمن بان الهدوء والفرح يمكن ان ينتقلان بالعدوى، بين الناس والموسيقى والرقص والعشاق، دعك من السيد والسيدة جمعة، هؤلاء الباحثين عن شريك سرير لليلة واحدة، هنا يمكنك ان تستعيد ضحكتك وهدؤك والشعور بحب الحياة، خصوصا اذا قابلت اناس طيبين وهم كثيرون في كيرافا وشاركوك طاولتك وكأسك.

ليلتها رغب كريم بكأس بيرة ودردشة مع أي كان. لم يكن ذهنه مهيئا لاي شئ. وقفت امامه آريا تتثنى بغنج لتقول له:

ـ لماذا انت وحدك؟

كان يود قول شيئا ما. لكن صديقتها التي تبدو كغجرية بعينيها الملونتان وشعرها المصبوغ بلون اسود فاحم والوان ثيابها الصارخة، قالت لها:

ـ عليك به لتخرجيه من دائرة حزنه!

كانت فنلنديته لا تزال تتعثر عند عبارات المجاملة، وكانت الانكليزية طريقه لعرض افكاره. راقصته آريا طوال السهرة، وتطوعت لتعليمه شيئا من التانغو، وهناك انتبه الى ساقيها العاجيين، وكيف انهما ملفوفان بمهارة خالق بارع، وكأن رب العالمين قضى ايامه الستة فقط في نحتهما وصبهما. كانت آريا مندهشة لسرعته في تتبع خطواتها. دعته للسير قليلا تحت برد اول الصباح حتى شقتها. عند باب العمارة دعته الى كأس، ووجد نفسه ولاول مرة يصحب امراة الى سريرها من اول ليلة. صحبته آريا الى سريرها، ببساطة ودون مقدمات عاطفية، وتكررت هذه اللقاءات، صار يزورها الى بيتها كل عطلة اسبوع. تهاتفه قبل ليلة:

ـ هلو كريمو!

ـ هلو تايسون!

هكذا سماها مازحا بعد علمه بأشتراكها في نادي رياضي لاخذ دروس رياضية منها دروس في الملاكمة، واذ سألها مرة عن مكان عملها قالت وهي تنظر في عينيه بجدية:

ـ في دائرة الشؤون الضريبية.

لكن نوري شناوة، بعد لقاءها واياه مرة، وخوضه معها حديثا قصيرا، صرخ به:

ـ شرطية، نعم. صاحبتك هذه شرطية. ليس اكثر، لاحظ اسئلتها، وحركاتها، ونظراتها، ثم يا اخي انها تلعب رياضة ملاكمة، بربك ما الذي تريده امراة من رياضة الملاكمة لو لم تكن شرطية؟

ولم يخبر نوري كيف ان آريا فعلا، فاجأته بانها جمعت معلومات عنه بشكل لم يتوقعه. لم تثره افكارها او شخصيتها. كانت امراة عادية. زارته اكثر من مرة الى شقته، اثار استغرابها رؤية شقته مليئة بالكتب العربية. سؤالها الذي تكرر:

ـ ايكلفك جلبها الى فنلندا من الدول العربية مالا كثيرا؟

لم تكن آريا بخيلة ابدا. كانت وفي كل مرة تزوره، تجلب معها شيئا من الطعام الجاهز، وبعض قناني النبيذ، وطلبت منه تعليمها طريقة تناول الطعام خلال الجلوس على الارض مباشرة مثل الشرقيين كما تراهم في التلفزيون والافلام. اعجبتها طريقته في ممارسة الجنس على الكرسي اولا

ثم الانتقال الى السرير دون انفصالهما وهي متعلقة برقبته. يحملها بين ذراعيه وهي تواصل الحركة والرهز وهو ينقلها الى السرير. كانت تصرخ في اذنيه:

- (Ihanaa ... Ihanaa)[٣١]

لم تصادفه الكلمة قبل سماعها من آريا، ولكنه اعتقد انه فهم ما تقول. واذ فتح قاموس اللغة الفنلندية فيما بعد تأكد ان فهمه للكلمة كان صحيحا، ولكنها سببت له مشكلة دائمة. كلما سمع الكلمة من شخص ما تبادر اليه معناها الجنسي. انقطع كريم عن لقاء آريا بعد عدة شهور، حين لاحظ انها في سهراتها تكثر من شرب الكحول، وكثيرا ما تفقد سيطرتها على نفسها، وانها واسعة العلاقات الى درجة يمكنها وتحت تاثير الكحول ممارسة الجنس مع اي شخص غيره. لم يتركها بسبب الغيرة، بل شعور اخر انساني اكثر صفاء. لم يرغب ان يكون مجرد الة جنس، تجعله يشعر انه ايضا السيد "مساء الجمعة". لم ينمو بينهما شئ يدفعه اليها، لم يكن هناك من رابط بينه وبينها غير السرير. كان يتمنى لقاءها يوما دون ان يكون الجنس ضمن برنامج اللقاء. فيما بعد واذ التقى باولينا وعقد مقارنات بسيطة، شعر كم ظلم نفسه، وكم ظلم باولينا اذ راح يقارنها مع امراة مثل آريا يمكنها اللحاق بأي رجل لتغرق معه بسهولة في بحر الجنس.

مع تواصل رشاش الماء، فكر كريم بهذا الذي يفعله بنفسه وبباولينا. اشتهى باولينا من يوم لقائهما الاول في ندوة حول العنصرية اصطحبه اليها فوزي اقيمت في مكتبة عامة في هلسنكي. بعد انتهاء الندوة تبخر فوزي من المكان، وكان قد المح انه على موعد اخر، فهم كريم انه ربما يكون موعد حزبي فامثال فوزي حتى في المنفى يتعاملون بسرية وحذر وكأنهم لا زالوا في العراق وان شرطة النظام تنتظرهم عند نواصي الشوارع. حين غادر المكتبة وجد نفسه يقف الى جانب باولينا في موقف الحافلة، سألها بعفوية عن كيفية التوجه الى مركز المدينة، ابتسمت له بعذوبة وقالت:

- طريقنا واحد.

في الحافلة تحدثا عن أهم الاشياء التي دارات ونوقشت في الندوة. اكتشف فيها متابعا جيدا، وتعرف شؤونا كثيرة تخص وطنه العراق. حدثته عن كتاب ما عن العراق قرأته ايام صباها. وفي الوقت الذي راحت تحدثه عن الكتاب والعراق، كان لا يفقه شيئا، كان يحدق الى عينيها الخضراوين، يرى فيهما هدوءا لم يألفه من فترة طويلة. عينان تتألقان مثل مرج شاسع. مع استدارات الحافلة المتكررة، بدا يشعر بشئ من الدفء السري يتسرب اليه من

فخذها الذي يلتصق به. حاول الابتعاد عنها، لكنه لا يدري لم ظل مشدودا الى مكانه والتطلع الى عينيها الساحرتين. خاف الاساءة لهذا الدفء الانساني بمشاعرغرائزه التي لا يفهم كيف تهاجمه على حين غره، على خلاف حتى ما يعرف في نفسه، وسلوكه المتزن دائما. لا يمكن الكذب على نفسه، كونه لم يشته هذه المراة. كان صدرها المتوثب على مرمى عينيه، وثمة شامة عند جذر نهدها الايسر، حاول ابعاد نظراته عنها حتى لا تلحظها. كان يواصل هز رأسه علامة الموافقة لكلامها، وكان صدره يلغب لابتسامتها، واذ فجأة فتحت حقيبتها واستخرجت قلما، استند كوعها الى صدره فود لو اطالت بذلك، وبعد كتابتها شيئا على ورقة، قالت له:

ـ هذا اسم الكتاب، ربما تجد نسخة منه بالانكليزية في المكتبة، وساحاول بنفسي العثور عليه.

فكر فيها لعدة ايام، وسخر من نفسه ولامها. اذ كيف يمكن السماح لنفسه الذهاب بعيدا، وتركبه مشاعر متضاربة في الوقت الذي تحدثه امراة بحماس عن وطنه وكتاب وهو الرجل العاقل؟! كاد ان يعتبر كل شئ مجرد لقاء عابر وعليه نسيانها، ويكف عن التفكير بها واستحضار صفاء عينيها وعذوبة ابتسامتها ودفء ملامسة فخذها، لولا ان الهاتف رن بعد اربعة ايام، وكانت باولينا على الخط، تسعل وصوتها متعبا قليلا، لكنه يبدو مثيرا، فاشتعل جسده:

ـ وعدتك وعليّ الوفاء بوعدي، عثرت لك على الكتاب، ولو لم اكن مريضة بالانفلونزا لالتقيتك فورا، ولكني ساتصل بك بعد حين لتدعوني الى فنجان قهوة.

واعجبه كل هذا. بحثها عن الكتاب، حصولها على رقم هاتفه، ودعوته الى لقاءها. ما ان التقيا، حتى ظن انه لكثرة ما فكر فيها سيأخذها الى الفراش فورا. لكنها كانت تطلب مساعدته في البحث عن معلومات:

ـ في قائمة المشاركين في الندوة وجدت اسمك ورقم هاتفك، سمعت صديقك يقول عنك كونك مغرما بالتاريخ.

ـ كنت في بلادي مدرسا للتأريخ.

ـ عرفت هذا، ولاني اكتب شيئا عن تاريخ النقود، يمكن تسميته بحث دراسي، ينفعني في نشاطي، ان فضولي المعرفي لا يشبعه الا المزيد، هل تساعدني بالحصول على شئ ما، مثلا معلومات عن تأريخ النقود العربية؟

وطوال اسابيع تلاشت كل رغباته الجنسية نحوها، زارا المكتبات معا، اتصل ببعض الأصدقاء في السويد والدانمارك، طلب منهم تصوير صفحات من كتب باللغة العربية، بحث

طويلا في مواقع الانترنيت. كانت باولينا ترغب بمعلومات لا تحويها الكتب التي حصلت عليها.
زارا معا المتحف الوطني في هلسنكي، ووقف مشدوها امام مجموعة النقود العربية التي حوتها خزائن المتحف. وتسائل امامها بصوت عال:

ـ امعقول الى هنا وصلت النقود العربية؟ الى هنا وصلت، الى حافة القطب الشمالي، وبعد قرون يصل ايضا أحفاد من سكوا هذه النقود في رحلة البحث عن الامان ليحدقوا بصنيع اجدادهم؟

ولطالما تسائل كريم عن ماذا يبحث احفاد "احمد بن فضلان"[32] الذي وصل على مقربة من حدود هذه البلاد عام ٩٢٢ وقابل الفايكنغ وسخر من قذارتهم وهمجيتهم؟ و"محمد بن عبدالله الأندلسي الادريسي"[33] الذي دار بلدان العالم ووصل حدود القطب الشمالي، حتى تالين في استونيا، ليرسم اول خارطة للعالم تعترف بكروية الارض، وبعد قرون طويلة يأتي كريم مطرود والعراقيين، من عرب وكورد واشوريين، ويجدون الفنلنديين يستخدمون كلمة خارطة مثلما ينطقها الادريسي؟ عن ماذا يبحث كريم في علاقته مع باولينا؟ في لقاءاته المتكررة معها راح ينتبه الى عنفوان وجمال جسدها، كانت تعتني بنفسها جيدا، ولم يعد يمكن الكذب على نفسه بانه لا يشتهيها. كان يشتهيها، نعم يشتهيها بقوة، ويتابع احيانا ببصره، كل ثنايا واستدارات جسدها، ومرات يتخيل اصابعه وهي تحرث كل ذلك، ولكنه يوم بعد اخرراح ينتبه الى كون سؤال الجنس مع باولينا بدا يتراجع عنده بعيدا. معها صار يشعر باطمئنان غريب. صار التحديق في هدوء عينيها الخضراوين، كأنهما سهول الامان، يجعله يشعر بالامان الكبير، بل يسبح في بحر من الامان العميق. اذ وردت كلمة الامان في ذهن كريم، اغلق رشاش الماء. مسح جسده بالمنشفة بسرعة، وبهدوء عاد الي الغرفة. وجد باولينا تدفن راسها في الوسادة. اخذها بين ذراعيه بقوة. مع هذه المرأة يشعر بالامان يغطي روحه. ظل لاسابيع طويلة وهو يستحضر مع نفسه عباراتها وكلماتها الاولى معه. اسابيع وهو ينتظر ساعة الاختلاء بها لوحدهما ليضع راسه على صدرها وينام بهدوء. رفع رأسها عن الوسادة، وادار وجهها نحوه. لم يقل شيئا. شم عنقها طويلا، وصعد بشفتيه الى شفتيها، ولم يعرف كيف تواصل كل شئ من جديد، بحيوية وعنف. فوجئ بها تطلق اصوات عالية، وتفح بصوت عال، كان يستمع الى صرخات اللذة، التي اعتقد ان الجيران ربما استقيضوا بسببها. كانت تعوي مثل جريح. لم يستعجل كثيرا، طبخها جيدا. جعلها تصرخ وتدور وعيناها ترجوانه ان يلجها، واذ فعل ذلك اخيرا احس وكانه يسحق عظامها، والسرير يئن من تحتهما. ما ان صار على حافة الذروة مثلها حتى انتبه الى انه راح

يعوي مثلها وان يخفوت، ما ان انتهى حتى انهد فوقها ولم يسحب نفسه عنها. كانا يغطان بالعرق، وكانت تشم ما تحت ابطيه بنشوة السكارى، وكان يفكر:

ـ ماذا يحدث لو حصل وتحقق خوفها وحملت منه، اهو مستعد ليكون ابا لطفل من ام فنلندية؟

لكن باولينا، حسبت لكل شئ حسابه. اخبرته بانها ستخلصه من مشكلة الواقي الذكري، ووجدت تدبيرا طبيا خاصا لكل شئ. دائما تسبقه الى التفكير بحلول لما يخصهما، الى درجة تشعره بانها تعير اهتماما لعلاقتهما اكثر منه. اليوم واذ راته من الصباح ساهما، حائرا، وكمحاولة لطرد احزانه واسئلته الداخلية، ولترميه دفعة واحدة في عوالمها وشؤونها، وضعت بين يديه مجموعة البومات صور، وهمست له:

ـ حين تحتاج الى توضيح انا جاهزة، تعّرف الى شقاواتي وعبقريتي وانا طفلة، ستجد ان امي تصلح لتكون مؤرخة جيدة.

مر على صور طفولتها. توقف عند لوحاتها الاولى وخربشاتها بالاقلام الملونة. ثبتت امها تاريخ عند كل ورقة. كان هناك بطاقة دخولها لاول مسرحية وتاريخها. كان هناك بطاقة تذكرة سفر. اشياء ناعمة، بسيطة، مع بعضها تشكل تأريخا شخصيا للانسان. تسمح للانسان بالاتكاء على ذاكرته ومراجعة الاحداث والوجوه. حاصر كريم شئ من الضحك وهو يراجع افكاره. غالبية العراقيين لا يعرفون تواريخ ميلادهم. في الاحصاء السكاني العام في سنة ١٩٥٧ قررت الدولة العراقية، اعتبار يوم ١ / ٧ تأريخا موحدا لمن لا يعرف تاريخ ميلاده، وهكذا صار امام الدوائر الاوربية لغزا يحتاج الى توضيح. قال له سالم غفور:

ـ كنت في البنك ارافق رباب، زوجتي، لاجراء معاملات روتينية، حين نادتني الموظفة، وهي تبتسم بسعادة، وفرحة وكانها تكتشف شيئا خارقا. اذ اكتشفت كوني وزوجتي مولودين في نفس اليوم والشهر وان بسنوات مختلفة، فراحت تهنئنا وتعرب عن سرورها بكونها قابلت انسانين محظوظين جدا.

كان كريم مطرود يواصل امعان النظر في البومات صور باولينا المتأخرة، التي رتبتها بنفسها بشكل جميل، مثل غالبية الفنلنديين الذين عرفهم، بأسلوب ينم عن ذوق كبير. الى جانب كل صورة ثبتت التاريخ ومكان الصورة، واحيانا من التقطها والحدث. وكانت هناك ثمة تعليقات طريفة، بعضها مكتوب بخطوط مختلفة فقدر ان كتابها من لهم علاقة بالصور بهذا الشكل او ذاك. لكن غالبية التعليقات كانت بخط باولينا الذي صار يميزه جيدا. راى مثل هذه الالبومات في بيت بيكّا تويفونين، حين اطلعهم على البوم الصور الخاص بابنته التي

رحلت خارج فنلندا لاكمال دراستها، وقرر ارسال هدية لها بمناسبة عيد ميلادها، فاختار وامها ترتيب البوم صور من سيرة حياتها بدءا من لحظات مولدها وامها على سرير المستشفى. سأله بيكّا كتابة جملة تحية باللغة العربية الى جانب الصورة التي اختاروها له من حفل تخرج ابنته من المدرسة الثانوية، ويظهر فيها كريم يقدم للابنة باقة ورد وعلبة صغيرة ملفوفة وضع فيها حامل اقلام ذهبي على قاعدة خشبية مصنوعة بفن الارابسيك. لم يتطلب من كريم جهد كبير ليعرف ان باولينا تحتفظ بصور ليس لاصدقاءها ومعارفها بل وصور ابطال قصص حبها، وكانت ببساطة تشير لهم:

ـ هذا "بينتي كارهونين" الذي حدثتك عنه، هذه الصورة قبل انفصالنا بأسبوعين، المفارقة ان الحاضرين ساعتها كانوا يسألونا عن مستقبل علاقتنا، كان البعض يوحي لنا بسؤال: "متى سنتزوج؟"، يومها كنا اتفقنا بهدوء على الانفصال تماما!

وسحبت من مكان في احد الالبومات صورة وسلمتهه اياها. صورتها مكشوفة النهدين، تضحك للكاميرا وتحرك ذراعها بعملية احتجاج، والشمس تترك اثرا خفيفا لخيوط حمالات الصدر على كتفيها، وكان جسدها يبان وهو مدهونا للتو، ويلمع تحت شمس الشاطئ الذي بدا مقفرا، والبحر هادئ وثمة صخور عالية تستر المكان. كانت باولينا تنتظر منه رد فعل رومانسي، صرخة دهشة او ابتهاج. ادرك ذلك من بسمتها وعضها لشفتها السفلى بطريقة طفولية، لكنه ابتسم بشكل بدا لها غريبا، جميلا، ولكنه مفعم بالغموض كالعادة، مثلما هو دائما. يوما، وهما في غمرة هياجهما الجنسي، يتدحرجان على السرير وكأنهما حيوانان يتصارعان، خطر لباولينا ان تسأل كريم واحدا من تلك الاسئلة، التي سمتها سنيكا ضاحكة:

ـ اسئلة المرأة الغبية.

ـ لماذا؟!

ـ لانها تأتي دائما في الوقت الذي لا وقت عند الرجل للتفكير فيه سوى بما بين فخذيه، وكيفية افراغ النار الحارقة التي تجعل عضوه مثل عصا من حجر جهنمية.

كان السؤال الذي سألته باولينا لكريم:

ـ ايعجبك صدري؟

فرد بسرعة، وكأن الجواب جاهز عند طرف شفتيه:

ـ نهدك ملئ كفي، هذا يكفيني.

ارادت باولينا ان تسأل كريم بشئ من المناورة:

ـ ألم تعجبك الصورة؟

لكن كريم سبقها، هز الصورة بيده وكأنه يتحدث في قاعة محكمة او امام كاميرا تلفزيونية:

ـ اتدرين ماذا يكن ان يحدث لفتاة من بلادي لو التقطت صورة كهذه؟

اخبرته ان صديقة لها التقطت الصورة رغما عنها. كانتا في مكان منعزل على الشاطئ. كانت لا تزال تعيش مع اهلها، وكانت صديقتها تتودد الى اخيها تيمو، تفعل الكثير لنيل رضاه. لم يسأل كريم شيئا. كانت باولينا تبادربنفسها لتخبره بمن التقط الصورة، ومن كان معها. كان يصغي باهتمام، ويحدق الى عينيها ليرى فرحها لاهتمامه بما تروي له. يوما غافله تيمو والتقط له وباولينا صورة حتى دون ان يشعرا بذلك. كانت باولينا يومها منتشية بشمس آب وازدحام الناس المحتفلين بمهرجان الثوم. كانت مدينة كيرافا قد تحولت الى قلب نابض لكل البلد. كانت باولينا سعيدة ان ترى الناس فرحين، مبتهجين، الجميع يشعرون بروح الصداقة، وكان كريم سعيدا اكثر. قال لها بصدق:

ـ اتدرين يا باولينا ما يعجبني في الشعب الفنلندي؟

ومثل كل مرة اذ لا يمكن لها ان تحزر رده اكمل:

ـ انكم شعب يحتال من اجل خلق مناسبة للفرح. الشمس تحرك في اعماقكم بذور ابو البشرية الاول الذي ولد تحت السماء الافريقية.

في تلك اللحظات الحميمية، وهي تسحبه اليها وتعانقه، وبشكل لم يفعله سابقا في مكان عام، وجد نفسه يقبلها بشكل خفيف، وكانت لحظة مؤاتية لتيمو ليلتقط لهما صورة. في الصورة، التي قدمها لهما تيمو فيما بعد كمفاجأة كانت حرارة القبلة تبدو لديه واضحة مع اغماضة باولينا لعينيها، بينما كان هو كعادته مفتوح العينين وكأنه مسمّر ينتظر شئ ما. يومها قال لهما:

ـ في بلدي لا يمكن لقبلة مثل هذه ان تكون الا خلف ستار.

وحين شارك يوما في حديث عن اختلاف التقاليد امام اصحابه، قال عباس جامعة:

ـ الاخبار القادمة من هناك تقول لنا ان كثير من الامور اختلفت الان، كل شئ اختلف في العراق بفضل ثقافة الديكتاتورية، مفهوم الحشمة اختلف وكلمة العيب اختلفت!

تساؤل كريم مع نفسه:

ـ اتجرؤا رحيل في يوم ما ان تلتقط صورة كهذه؟

وقاده سؤاله ليفكر بدفتره الازرق ليختلي مع رحيل عبر الكلمات.

٤

صارت دار الاوبرا خلفهما.الازدحام على اشده في شارع "مانرهايم"[٣٤]. اقتربت سيارتهم من بناية البرلمان. كان هناك ثمة تجمع من المتظاهرين ينتشر على درجات البرلمان. لافتات ورايات حمر وصور غيفارا وشارات السلام ومكبر صوت. حين صار بمحاذاة المتظاهرين، خفف نوري سرعة السيارة والتفت جانبا وقال:

ـ هاهم جماعتك يا فوزي!

ـ هذه جماعة جيوش العاطلين يا نوري، انظر اللافتات، كان الاحرى بالكثيرمن الاجانب ان يكونوا هنا!

وبصدق تسائل نوري:

ـ ولم الاجانب بالذات؟

ـ باعتبار نسبة البطالة بينهم مرتفعة دائما، هذه منظمة العاطلين عن العمل، اعرف بعض قادتهم، انظر ذاك هو كيمو، هل تذكره الذي ساعدنا مرة في استخراج اجازة للتظاهرة ضد الحصار الاقتصادي في العراق!

والتفت فوزي ليواصل قراءة لافتات تحتج على تسريح شركة نوكيا لوجبة جديدة من العاملين، وقال:

ـ اتدري يا نوري بان نوكيا لم يبق منها للفنلنديين سوى اسمها!

واذ سمع نوري يقول:

ـ كيف؟

اراد فوزي مجارات نوري بلغته الفاحشة وفكر ان يقول:

ـ قوادة العولمة الامريكية حولت نوكيا مفخرة فنلندا الى عاهر في احضان من يدفع اكثر!

ولكنه لم يشأ مخالفة ما عود نفسه عليه من طريقة تعامل مع نوري فاجاب:

ـ العولمة الرأسمالية يا صاحبي!

وهو يضغط الفرامل عند الاشارة الحمراء، ضحك نوري:

ـ الفنلنديون شعب عجيب، يحبون التفاخر بكل شئ فنلندي، ليس سيبليوس والساونا فقط، بل حتى حين عرضت فنانة عندهم سيقانها وعجيزتها واثدائها على صفحات مجلة "البلاي بوي" تسابقوا لشراء المجلة وهم فخورين لان المجلة عرضت عجيزة واثداء فنلندية!... Vittu

كلمته الاخيرة، قالها نوري بطريقة قلّد بها الفنلنديين، اجبرت فوزي على اطلاق ضحكة، وشجعت نوري للاستمرار بحديثه، وهو ينطلق بسياراته ويمر ببطء بمحاذاة تمثال مانرهايم:

ـ انظر هذا الجنرال على حصانه الروسي، وانت الاعرف مني بتاريخه، كان يقود كتيبة خاصة في جيش القيصر الروسي، ليقمع الثوارالروس، انتقل بعد استقلال فنلندا الى الجيش الفنلندي ليكون قائدا لمعسكر البيض وجزارا لكل من خالفه الرأي خصوصا من الحمر، وحين ارادت الحكومة الفنلندية انشاء متحف الفن الحديث مجاورا لتمثاله تظاهر انصاره ضد ذلك لانهم يعتقدون انه سيؤثر على موقع التمثال.

يشعر فوزي بالارتياح لانغمار نوري بالنقاشات الجادة، حتى لو التقط الافكار من الاخرين واعاد قولها امامه، وحتى لو كانت مشوشة وغير دقيقة. منذ بدا اول كلماته عن مانرهايم ادرك فوزي ان هذا الموضوع سبق وخاضه اخرين في مطعم شاخوان. اخبره شاخوان بخلاصة الافكار التي دارت يومها، وروى حكاية مجلة البلاي بوي والفنانة الفنلندية. كان شاخوان مندهشا حين عرف لاول مرة معلومات عن المحاكم الدولية التي شكلها الحلفاء المنتصرين لمحاكمة المسؤولين عن الحرب العالمية الثانية، وحكمت بالسجن لفترات وصلت عشر سنوات على رئيس الجمهورية الفنلندي "ريستو روتي"[٣٥] واثنين من رؤساء الوزراء وقادة سياسيين لتعاون فنلندا مع هتلر. وحين رأى شاخوان في مجلة مصورة صورة هتلر يسير بين مانرهايم وروتي في محطة قطار "فيبورغ "[٣٦]، صاح:

ـ انظر كيف يتبختر هتلر بثقة، والابتسامات على كل الوجوه.

وتدخل فوزي بجد:

ـ ولكن لا تنس يا نوري، ان مانرهايم ايضا ولقطاع كبير من الفنلنديين يعتبر بطلا قوميا، ومن اباء فنلندا الحديثة.

ومتحركا بالسيارة ببطء باستقامة الشارع، محاذرا المارة والسيارات عند التقاطعات، وليمر الترامويِ القادم باتجاه معاكس بقربه، قال نوري بغضب:

ـ اعرف هذا... اعرف هذا، ولكن الا يشعر الفنلنديون بالذنب لكون بعض قادتهم سببوا الكوارث لبلادهم لتحالفهم مع هتلر؟ أيفخرون بمن تحالف مع الفاشية ويلومون ستالين لانه كسر ذراع فنلندا؟[٣٧].

وهو يتابع حركة الازدحام الشديد، عند تقاطع الشوارع، ولولا انه يعرف بأن نوري سائق ماهر، وحتى لا يشغله عن التركيز على الطريق، لما واصل فوزي النقاش معه في امور لطالما

تكررت في اكثر من مناسبة، ولكنه لا يريد ل نوري الشعور بأنه متعفف من النقاش معه، خصوصا انه من بادر اليوم ودعاه الى "مؤتمر المحبة"، على امل ان يلتحق كريم بهما وربما اخرون:

ـ هذه يا عزيزي نوري نسبية الامور. فتيمور لنك بالنسبة لنا سفاح اجتاح بغداد، واسأل كريم ماذا تروي كتب التاريخ عن بشاعاته وما جر من مصائب الى بغداد، لكن مقامه في موطنه في سمرقند مزار مثل اي ولي مقدس.

استدارت السيارة عند بناية المسرح السويدي، وتابع فوزي استدارة البناية البيضاء، واعلانات المسرحية الجديدة. حين صارت السيارة مقابل بداية حديقة الايسبلاندي نظر لساعته مفكرا بكون كريم قد يكون غادر الان بيت باولينا. صيفا تكون حدائق الايسبلاندي مزارا لكل ساكني العاصمة وزوارها، خصوصا الشباب. يرتادون مقاهيها، يستمعون الى عازفي الفرق الموسيقية، هواة ومحترفين، افارقة، هنود من امريكا اللاتنية، وروس يتسابقون على احتلال ممرات الحديقة لتقديم مقطوعاتهم الموسيقية، وثم يدور واحد منهم على المستمعين بقبعته ليجمع ما يجودون به عليهم. يكاد لا يجد الزائر بقعة غير مشغولة من الشباب والشابات، المترعين جمالا وحياة. يفترشون العشب والمقاعد، ينزوون بعيدا، يتحدثون بهمس او بصوت عال. يضحكون او يستمعون الى موسيقاهم عبر اجهزة التنصت، يتعانقون بشغف غير عابئين بما حولهم. يقول كريم دائما انه يشعر بالحرج حين يكون بمفرده، خصوصا حين يجد نفسه لا اراديا جالسا بالقرب من شاب وشابة متعانقين بقوة. يومها اطلق نوري نكته صار يتداولها بعض العراقيين:

ـ انت واهم، هما لا يتبادلان القبل، هذا مسكين يبدو ان ابوه مات حديثا، الشعور باليتم يدفعه للبكاء على كتف شخص ما، وهذه الشابة تواسيه على وفاة ابيه.

وهكذا صار كلما رأى عراقي شاب يعانق صاحبته، لا اراديا يقول:

ـ مسكين يبكي، ابوه ميت!

ويوما، في محطة المترو، عند محطة القطار الرئيسة، حيث اعتاد هناك الكثير من المراهقين اللقاء، يتعانقون ويتبادلون القبل، غير مكترثين للاخرين، لا احد يهتم بامرهم وينظراليهم، سوى الفضوليين، واولهم ابناء الشرق.

صاح نوري بجذل:

ـ يا جماعة الخير، وانتم الاعرف، انظروا كثرة الباكين، هل يمكن ان يكون اننا لا نعلم وان شخصا عظيما ومهما في البلاد قد مات؟

حين صار نوري على مقربة من تمثال حورية البحر، استدار بالسيارة الى اليمين ودخل فرعا جانبيا، ولم يعلق فوزي بشئ، ادرك ان نوري سيقوم كعادته بالتسكع بالسيارة قليلا بمحاذاة البحر. لم تتح لفوزي فرصة تعلم قيادة السيارة، فسنوات الكفاح المسلح الطويلة في الجبل، حرمته من تعلم اشياء عديدة، وعليه ايجاد الفرصة المناسبة هنا ليتعلمها، ولكنه واذ اطرى مرة امام نوري جولة قاما بها حول الميناء في خليج هلسنكي، حتى راح نوري يكررها له في كل فرصة تتوفر فيها سيارة، واليوم، ما ان اعلن شاخوان عن تسريحه قبل الوقت بقليل حتى اعلن لفوزي بأنه سيلف به عند البحر قبل أيصاله الى "المقهى الرياضي"، ثم يعود بالسيارة الى شاخوان.

٥

كلما اختلى كريم مع نفسه، صار يسأل:

ـ وماذا بعد؟

احيانا يحسد نوري على لا اباليته، وعلى نزقه وعبثه. لربما لو كانت عنده روحية نوري بعدم الاكتراث لما يدور حوله، لم شعر بانفاسه تضيق هكذا. لم تعد تجديه مشاوير الركض في الغابة القريبة. يظن الاخرين انه يحاول الحفاظ على لياقته، وحده فوزي يدرك ما يدور في باله، ويدرك ان مشاويره لتصريف طاقة مكبوته، يصرفها بالركض بدل ان تتحول الى صراخ. تعلم كريم ذلك من فوزي ذاته:

ـ مثل كل عراقي، اخشى رنين الهاتف فجرا، هو عندي مثل "زوار الفجر"[٣٨]، نفس الرعب ونفس التوجس يدخله الى روحي. وحصل ما كنت اخشاه يا كريم. رن الهاتف فجرا. كان اخي شامل على الخط مهضوما ينقل لي خبر وفاة امي في العراق. ماذا افعل؟ الدموع جفت في مأقي منذ سنين طويلة لشدة ما بكينا اصحابنا وخساراتنا. لكن في قلبي نار حارقة، بامكانها احراق صحارى الثلج في شمال فنلندا كلها. نار غضب من كل ما يجري. من نظام غاشم اغتصب بلدنا واحتله بقوى الارهاب السياسي والمتاجرة بالفكر القومي الشوفيني. وهاهي امي، الصابرة، بعد سنين من وفاة ابي ترحل ولا يمكن لابناءها التواجد هناك. ماذا افعل وانا اسمع خبر وفاتها؟ ارتديت ملابس الرياضة، وخرجت الى الغابة، كان ذلك في الاول من ايلول، لا يمكن لي نسيان ذلك اليوم ابدا. بعدها صرت اكره الخريف اكثر. صار الخريف يرتبط عندي باسم الموت، حتى لاعجب كيف ان شعراء كتبوا عنه قصائد جميلة. بوشكين مثلا الذي قرأت لك مرات شيئا من شعره. ذلك الصباح لم يسبقني احد الى

الغابة. ربما كنت الاول من استيقظ في كيرافا كلها. كانت دروب الغابة الندية تخلو من الراكضين والراكضات. رحت اجري واجري. ساعات وانا اجري لوحدي بهستريا عجيبة. كانت الاغصان تضرب وجهي غير عابئا بها. كنت اصطدم بالحجارة على الطريق. سقطت مرات ونهضت. حتى انهكت تماما. سقطت على الارض اعياءا ولم يكن بامكاني الحركة. عثر علي زوجان يتريضان على دراجتيهما. سقوني قليل من الماء. ارادا الاتصال بالاسعاف، فشرحت لهما الامر. قادني الزوج الى منزلي لانام بقية النهار كالميت.

بالرغم من ان كريم يبدو بأعين الجميع افضل حظا من غيره. ويبدو في حياته متوازنا ومستقرا، الى حد انه يشعر بشئ من الحسد من الاخرين، والى حد جعل شاخوان يحمل له اقتراح مفاجئ من دلسوز:

ـ يا اخي ماذا يعوزك؟ انظر لنفسك، انت احسن من غيرك، وتملك مؤهلات عديدة تؤهلك للحياة بشكل مستقر. فقط ان تترك هذه الفنلندية ما اسمها، نعم، باولينا. رغم انها بنت طيبة وعاقلة، ولكن غالبية الزيجات فشلت مع الفنلنديات، بسبب اختلاف العادات والتقاليد. ان دلسوز تعتقد ان ئاوات تناسبك تماما. امراة جميلة، ظلمت من زوج جاهل، وهي فتاة شاطرة تعلمت من اوربا بسرعة. صارت تفكر مثل الاوربيات، وانت انسان متعلم ومثقف، وانا ودلسوز نعتقد انك قادر على كبح جماح ئاوات حتى لا تنجرف اكثر بعيدا عن شرقيتها، وبالتالي نخسرها وتخسر نفسها.

وراح شاخوان يحدثه عن مزايا ئاوات، تدبيرها الجيد، ذكائها المتميز، وسرعة تعلمها الاشياء الجديدة. قال ضاحكا مداريا شعورا بالذنب:

ـ اتدري اني في الفترة الاولى لطلاقها كنت متوجسا من امتلاكها الحرية وكنت اخشى ان تسئ استخدامها، وبيني وبينك صرت استخدم علاقاتي واتابع سيرتها والمح لدلسوز بأن لا تنجرف معها، ولكن بعد مراقبة جيدة لطريقة حياتها، والتبدلات الايجابية السريعة على شخصيتها طلبت من دلسوز ان لا تتركها بل ومجاراتها في تعلم بعض الامور، وما الخسارة في ذلك؟ هل رايتها وهي تلبس مثل "سكالي؟"[٣٩] معطف اسود طويل وبنطال عريض وجاكيت وقميص محتشم وحزام جلدي، لا يعوزها سوى عيون خضر والمسدس وشارة ال"FBI".

وتملص كريم من الاقتراح بصعوبة. يدرك حرص شاخوان وزوجته. المح لهم بان ئاوات ربما تصلح لفوزي اكثر منه، بل وهناك نوري لا زال عازبا، اما هو فأنه يشعر بفارق السن الكبير بينهما، ثم انه مقتنع بعلاقته الحالية المستقرة مع باولينا. لم يقتنعا باعذاره، وخشي كثيرا ان

تكون ناوات نفسها خلف الفكرة والاقتراح من اجل الاستقرار وسد الباب امـام خطـاب لم تفكـر بهم يوما. فمنذ طلاقها من زوجها وهناك اكثر من خاطب لها. رفضت ملا حسين بقوة صـارخة امام زوجة شاخوان:

ـ لم انطلق من زوج بعقلية بوليسية لاتزوج من ملا عجوز وخرف، قامـة ابنتـه زهـرة اطـول مني، ثم وكيف يسمح له القانون الفنلندي بأكثر من زوجة؟

وكان ملا حسين يريدها زوجة ثانية بعقد عند الملا في الجامع وليس في محكمـة، مثلمـا فعـل البعض في زواجات سرية أنتشرت في اوربا بين فئات معينة مـن النـاس. فـضحكت نـاوات مـن المرأة التي حملت لها العرض، وقالت غاضبة:

ـ ساشكوه الى الشرطة الفنلندية، اذا فكر بتكرار طلبه ثانية، سأفضحه في كل مكان!

بعد فترة راحت تنتـشر اشـاعات غريبـة عـن كـون نـاوات تتعامـل مـع الـشرطة الفنلنديـة، وتزودهم بمعلومات عن حياة العراقيين. وظل كريم، كلما يثار موضوع زواجه، يشعر بأنـه مطالـب بالتفكير جديا بأمرعلاقته مع باولينا، التي لم تطالبه يوما باكثر من ان يكون الى جانبهـا. لكـن كيف له التفكير بالارتباط بعلاقة زوجية مع باولينا، ومحاسن لا تزال تعشعش في روحه؟ لم يـستطع نزع خيالها يوما من باله! بدأ الامر يأخذ منحىً جديا منذ لقاءه بـام عـامر. لم تغـب محاسـن عـن ذاكرته يوما. ظلت مثل الجمرة تختبأ تحت الرماد الذي غطى روحـه كـل سـنوات التـشرد ومحطـات المنفى. لم تستطع اطفائها كل ايام البعد ولا كل النساء اللواتي عرفهن ومرن في حياته، او بسريره كما يحلو لنوري شناوة القول. لم يلمح كريم يوما في وجه أي امرأة اوعرف ذلـك الاحـساس بالرضـا الذي يلوح في عيني محاسن كلما حدقت في عينيه وهي تجالسه او تحدثـه. ولم تـستطع امـراة منحـه الشعور بالانتماء اليها كما منحته محاسن ذلك. بدا تعارفه مع محاسن مثل مزحة من اخته. كانـا يسيران معا، خارجين من زيارة بيت اقارب لهما، حين مرت فتاة، عباءتها تلتف على جسدها بغير اتقان، وتسير بشكل متعثر. ما ان حاذتهم، وكانت تهـم بتحيـة اختـه، حتـى رفعـت الـريح فجـاة عباءتها، فبان ثوبها المنزلي الازرق الموشى بزهور وردية كبيرة، والذي كانت الريح تلصقه بفخذيها بشكل يفضح تضاريس الجسد. ارتبكت الفتاة ولم تعرف كيف تقدم التحية، وسارعت بالهروب مـن المكان، يزيد من ارتباكها النظرات الفضولية الـتي صـار يـسددها لهـا كـريم بـشئ مـن الجسارة، مـستمتعا بخبث بما تفعله بها الريح. قالت له اخته بشئ من الحماس:

ـ انظر كيف ارسلها لك الرب لتقف في طريقك، وكيف كشف لك المستور، كنت مرارا معها في حمام النسـاء، ورايت كيف ان رب العالمين صبها بأحلى قالب، واعرف اهلها تماما،هذه البنـت

تصلح لك زوجة طيبة. اعرفها، وهي تعرفك جيدا من احاديثي، يمكن ان تحبك وتخلص لك وتمنحك الوقت الكافي لتنفرد بكتبك.

كانت اخته تلمح لفشل علاقته وفسخ خطوبته من زميلته التي كانت باستمرار تشكو من انفراده بكتبه دون ان يعيرها الوقت الكافي. كان ايامها طالبا في السنة الثالثة من الجامعة. منهمكا في دروسه، لم يفكر بموضوع الزواج لو لم تتوف والدته، ويبقى الى جانب اخته طويلا لمواساتها، ويلتقي محاسن عدة مرات بتدبير من اخته، ولتشتعل تلك الشرارة في قلبه، التي لم تنطفئ نارها رغم كل هذه السنين. لم تستطع امراة منحه ذلك الاحساس بالمسرة الذي يصعب وصفه بعد كل عناق أو ممارسة جنسية له مع محاسن. كان ممارسة الجنس بالنسبة لمحاسن طقسا خاصا لا يماثله سوى طقس الصلاة عند المتعبدين. صار كريم يكيّف رغباته لمدى استعدادها لممارسة هذا الطقس. لذلك اليوم تستحم محاسن خصيصا وتتعطر وتصفف شعرها وترتدي ملابس واسعه، فضفاضة، تجعلها تبدو كفراشة ستحترق بلهب النيران. تتجنب الكثير من الماكياج، وتكتفي بلمسات خفيفة منه، بذلك تظل بشرتها صافية دوما ومهياة لاستقبال وتفهم كل لمسه من اطراف اصابعه التي يروق له ان تعبث بتفاصيل جسدها. في السرير واذ يروح كريم يداعبها ويحاورها بيديه ولسانه، من اجل اثارتها واثارة نفسه معها، كان يخيل اليه ان متعتها كلها تكمن في مراقبته وهو يقوم بكل هذا. واذ يشعر بكون جسدها جاهزا، ويرى كيف بدت تطوف في عينيها غيوم اللذة يبدا بطقوس ولوجها حذرا وعلى مهل، وهنا يبدأ بدوره بالاستمتاع بمراقبتها وهي تعض شفتيها وتضغط باطراف اصابعها على ذراعه. عند بلوغهما الذروة تسحبه اليها بقوة غريبة لا تملكها في الاوقات العادية وتضغطه الى صدرها ولا تتركه الا بعد شعوره وكأنها امتصته تماما. بعد هذا تمرر اصابعها النحيلة في اطراف شعره بطريقة وكانها تسأله ان كان راضيا منها؟ واذ يقوم تلقائيا بتقبيلها على شفتيها تلف ذراعها حول عنقه فيجد نفسه وقد دفن راسه في طيات شعرها، ويغرق في لثم عنقها. عند تلك اللحظة يجد انه مسرورا جدا وسعيدا فيسحبها اليه بقوة اكبر، ليجد في نفسه احيانا الرغبة لمعادوة العناق واللثم والضم. الكثير من النساء مررن في سريره، لكن واحدة منهن لم تجعله يشعر بالسعادة بعد كل ممارسة جنسية مثلما كانت تجعله محاسن يشعر بذلك. ولفترات طويلة كانت ممارسة الجنس مع أي امراة بالنسبة له عرضا لاسلوب كان يتبعه مع محاسن، لكنه يفشل تماما في الحصول على ما كان يريد. مع غيرها حاول كثيرا ابتكار اوضاع جنسية مغايرة. لجأ الى الكتب والمجلات واشرطة الفيديو لتعلمه شيئا جديدا، وخاض حوارات مع اصدقاء في ظاهرها بريئة ولكنها

مقصودة من جانبه، لكنه كان يصل دائما الى ذات النتيجة. هيهات ان يحصل على ما كان يحصل عليه من ممارسته الجنس مع محاسن. هذا الامر جعله يفكر طويلا في الصفاء الروحي الذي تملكه هذه المرأة بحيث انها تنقله وتلقائيا الى حواف الفردوس وتجعله يشعر ليس بفحولته فقط بل وبانسانيته وكونه انسان غير عادي. لم يكن الامر بالنسب لهما علاقة مهبل وقضيب. ولا عمليه ايلاج وخروج، وقذف ورعشه. كان ثمة شئ يجري بينهما خلال هذا الاتصال الجسدي. ثمة شئ سرى يمس روحيهما معا. يطوف في عيني محاسن وينتقل عبر جلدها اليه. ينتقل عبر اطراف اصابعه اذ تلامس حلمتي نهديها الواثبتين، وعبر جلد بطنها اللدن وافرازات مهبلها التي ترطب له وسطه. بالنسبة للنساء الاخريات كان الامر معهن شيئا اخر. ليس سيئا ولكنه بعيد تماما عما ينشد. هكذا ظل دائما بعد نهاية كل ممارسة جنس مع اي امراة، ينام على بطنه دافنا راسه بين ذراعيه، مغمضا عينيه، متخيلا سطح نهر بمويجات خفيفة محاولا تلمس شئ ما يفتقده، عله يتسلل الى روحه.

حين رن الهاتف في منزله ذلك المساء، كان يتناول طعاما خفيفا اعده لنفسه، وكانت اللقمة في يده. حسب المكالمة من صديق قريب في فنلندا. كان الوقت متأخرا، فقدر انه لا يمكن ان يكون فنلنديا، اذ من يهاتف في ساعة متاخرة غير العراقيين؟:

ـ الاخ كريم مطرود؟

كان صوتا نسائيا واثقا، وجادا. قال ببساطة، دون ان يخطر في باله شئ سئ:

ـ نعم، كريم مطرود. تفضلي اختي.

واضافت المرأة بهدوء:

ـ ابو رحيل؟

ـ نعم، اختي انا ابو رحيل.

وخفق قلبه بقوة. من زمان طويل لم يوجه له احد السؤال بهذا الشكل.

ـ مرحبا اخي، تحياتي واحترامي. انا ام عامر من السويد، وصلت مؤخرا من الاردن، ومقيمة مع زوجي واطفالي الان في السويد، واحمل لك تحيات من زوجتك محاسن!

لم تقل المرأة زوجتك السابقة، قالت "زوجتك محاسن". وجد كريم نفسه يبعد اللقمة من يده ويضعها جانبا. استمع للمراة بانتباه شديد، سجل رقم تلفونها واسم زوجها ووعدهم بزيارة قريبة، ولكنه طوال كل الوقت الذي مر كان يفكر بعبارة "زوجتك محاسن". ما دفعه للسفر خصيصا الى استكهولم ولقاء ام عامر. جوابها لبعض اسئلته بتكرار جملة:

ـ ليس كل شئ يمكن قوله على الهاتف!

جعله يسال فورا:

ـ هل يمكن اللقاء. اعني زيارتكم في ستكهولم؟

وحصل ذلك في اسرع مما توقع. اخفى شأن سفره القادم عن كل معارفه. وحده فوزي لحظ اضطرابه وتوتره، فسأله:

ـ كريم، يا بطل، الا ترى انك من اسبوع، متوترا وعصبي في احاديثك العادية، وتتحاشى لقاء اصدقاؤك وتنفرد بنفسك حتى حين تكون وسط الاخرين؟

حاول الزوغان من فوزي، الذي كان يسلط اليه نظرات فاحصة، مشككة وغير مقتنع بجوابه.

ـ اتدري يا فوزي،ان العمل في المدرسة، ومتابعة تطورات الامور في العراق، وانشغالي بقراءة كتاب جديد، يدفع الامور للتداخل عندي فتزيد من توتري قليلا، لذا احاول تجنب الاخرين.

وكانت نظرات فوزي تقول له:

ـ انك تكذب يا صديقي!

وعلى غير عادته، لم يلح فوزي باسئلته، تركه يفكر مع نفسه. وحمد كريم السماء ان باولينا في شمال فنلندا، بمعية اخيها وعائلته، ليوفرا للاطفال فرصة زيارة قرية بابا نوئيل والا لتعرض لاستجوابات عديدة.

بعد اسبوعين، وجد كريم نفسه في محطة قطار ستوكهولم يقف قريبا من مكاتب قطع التذاكر ينتظر عند حوض زجاجي للاسماك هناك، حددوه له كعلامة لانتظار وصول ابو عامر، الذي قال له ضاحكا في الهاتف:

ـ لن تجد صعوبة في التعرف عليّ، لقد فقدت ذراعي في معارك شرق البصرة![٢٠]

في شقتهم الواسعة، شمال ستوكهولم، والتي وصل اليها بعد ركوب اكثر من قطار مترو. كان كريم وعلى مضض ينتظر لحظة الاختلاء بأم عامر. كان ابو عامر رجلا مهموما، كثير التدخين. شاهد الكثير من المصاعب في حياته، خصوصا في سنوات الحرب العراقية الايرانية، وروى له تفاصيلا كادت مرات ان تدفع به الى الحمام ليقذف بكل ما في بطنه، ولم ينقذه من ذلك سوى ابنتهم الصبية الذكية التي انتبهت الى مصيبته مع قصص والدها، وراحت تسأل كريم عن الحياة في فنلندا. وجاءت اللحظة المنتظرة، كان واضحا ان لام عامر شخصية قوية في البيت، وسيطرتها واضحة على كل افراد الاسرة بما في ذلك زوجها، واذ لاحظت حجم التعب الذي اصاب كريم من قصص زوجها التي لا تنتهي، اذ يبدو ان ابنتها نبهتها الى ذلك،

فارسلت زوجها للتبضع من مكان عرفت انه في مركز المدينة، وارسلت معه احد ابناءها الصغار، وقالت لزوجها بوضوح:

ـ خلال فترة غيابكم يستريح الاخ كريم وربما يمكنه النوم قليلا لان لي معه حديث خاص وطويل جدا، فيا ريت تتأخرون قليلا.

ولم يستطع النوم، طلب مزيدا من الشاي فأعدته له بسرعة ابنتهم الذكية، ومع اقداح الشاي الثقيل المعطر بالهيل بدأت ام عامر تتحدث.

٦

الى المقهى المقابل لمحطة القطار، في طرف من"بناية النقانق" بجدرانها السوداء ونوافذها الزجاجية العريضة، والتي حملت اسمها بين سكان هلسنكي، من ذلك الشريط الاسطواني الاسود، الذي يطوق البناية كانه خيط نقانق عملاق يصلح لكتاب غينيس، وصل غريب عتوّي مبكرا على غير عادته. أذ استطاع انجاز ما جاء خصيصا لاجله باسرع ما تصور. اخبر وداد بأن له موعد مع ماموستا فرمان. لم يكن كاذبا في هذا، لكنه لم يكن الا ستارا للخروج مبكرا والخلاص من لسانها السليط. اشترى بطاقة هاتف للاتصالات الخارجية من اقرب دكان، واتصل بابن عمه هارون الى دمشق. كان اتفاقهما، بأن لا يتم التطرق مطلقا الى الاحاديث الخاصة حين يكون الاتصال من هاتف البيت. وعد هارون بمتابعته هاتفيا من حين الى اخر، ما عليه سوى الاجتهاد في عمله. اطمأن الى ان هارون شاطر بما فيه الكفاية، وهو المعروف بين اقرانه بأسم "هارون البهلوان". حددا المواعيد، وطرق ارسال المبالغ. كان هارون فرحا حين وافق غريب على اقتراحاته الجديدة. لم ينس غريب توصية ابن عمه بالكتمان:

ـ اذا عرفت وداد بالخبر يعني كل شئ راح يتهدم.

ولم يحتاج هارون لنصيحة، وهو الذي يعرف وداد جيدا. كان هارون يختلف تماما عن اخيه عمران، ذلك الذي فقد حياته وهو يغطي انسحاب جماعته امام هجوم قوات الحرس الجمهوري. زعل غريب حين سمع بخبر مقتل عمران. في مخيم رفحا زار خيمة الشيوخ، وكان يعرف نفسه لهم كابن عم الشهيد عمران، فلم يعره احدا اهتماما، وجاء من همس باذنه:

ـ الزم خيمتك واحترم نفسك، واكراما لروح الشهيد عمران لم يقطعك البعض هنا الى شرائح.

في مكتب الامم المتحدة، لم يشترط بلدا ما للجوء كما راح يفعل الكثيرون، كان متسامحا جدا، قال لهم:

ـ اي بلد، المهم اشعر بالامان!

كان يريد فقط الخلاص بجلده. جلبوه الى فنلندا. لم يسمع كثيرا عن هذه الدولة. بعد ابلاغه بالاستعداد للسفر راحو البعض في المخيم يستعرض معه معلوماته. كان على وشك تصديق بعضهم. قالوا له ان الدببة تسرح في الشوارع ولا احد يقوم بايذائها، وترقص وتغني وكأنها في عيد دائم. قالوا له ان السنة هناك ستة اشهر ليل وستة اشهر نهار. وان الحكومة تكفل ل اللاجئ كل شئ حتى تكاليف زواجه اذا كان عازب. ولكن اكثر ما صدق حين قالوا له يمكنك هناك صناعة النقود من الهواء. الفلوس تأتي الى بيتك وحدها. يرن جرس الباب، تفتحه، فتجد عند الباب فاتنة شقراء، بعيون زرق، بقميص دلع واثدائها تقطرحليب وشفاهها عسلا، وتستخرج من وسطها محفظة جلدية وتروح تعد لك: كم يكفيك؟ الف... الفان؟ تأخذ بقدر ما تحتاج. حين وصل فنلندا، وجد ان كل ما حكوه له، كان مبررا ليشربوا الشاي في خيمته ويفرموا بصلا في عقله الناقص. بعد انهاءه كورس اللغة الفنلندية، راح موظفي مكتب العمل يلاحقونه مثل الشرطة. كانت مسؤولة الشؤون الاجتماعية تصب على راسه محاضراتها كل مرة. لم ينجحوا مع وداد في شئ، راحت تدور من طبيب الى اخر، حتى حصلت على قرارا بالتقاعد. رأى الطبيب عيوبا حقيقية في عمودها الفقري فكتب لها تقريرا خلصها من دائرة الشؤون الاجتماعية ومكتب العمل. ارسلوه لاكثر من كورس لتعلم اللغة الفنلندية، ووجدوا له مكانا للتمرين في احد المطاعم، هذا ساعده ان يكّون صورة عن طبيعة قوانين العمل. لم يقبلوه للعمل كممرض رغم عرضه لشهاداته ووثائق عن سنوات عمله. كانت لغته الفنلندية لا تكفي. طلبوا منه دخول دورة تدريسية لاكثر من سنتين، وهذا يعني انه سيعمل براتب لا يكفيه ايجار الشقة، فرفض بقوة ووجد طريقه ليعمل بالاسود في مطعم يديره لاجئين اتراك، وليكون قريبا من مكان عمله انتقل من اطراف منطقة فانتا Vantaa الى منطقة باسيلا Pasila، ليس بعيدا عن محطة القطار، قريبا الى المكتبة العامة حيث يمكن لاطفاله الدراسة هناك بعيدا عن اوامر امهم وصراخها وعصبيتها الدائمة.

تأخر ماموستا فرمان، على غير عادته. ان فكرة الاشتراك في مطعم في مركز مدينة هلسنكي تبدو له مناسبة تماما، على الاقل يستطيع اقناع وداد بأنه يعمل، لولا ان ابن عمه هارون قدم اقتراحا افضل. افتتاح مطعم في سورية، يديره هارون بنفسه. تلقف غريب معلومة المطعم في مركز مدينة هلسنكي من احد اصحاب المطاعم الاتراك، الذي يريد الخلاص من شريكه، فقرر بيع المطعم بسرعة. فهرع غريب بها الى ماموستا فرمان، رغم انه اتفق مع هارون

على اعمال اخرى ولم يبق عنده ما يكفي من مبالغ لمشاريع جديدة. اراد غريب ان يواصل الناس الحديث عنه باعتباره تاجر وصاحب اعمال. من يدري ربما يجد طريقة معينة ليكون شريكا ل فرمان الذي بدا متحمسا للعمل، والذي يبدو انه اغتنى كثيرا من شغل العقارات في شمال العراق.

ـ السلام عليكم!

ورفع غريب راسه بسرعة وابتسم:

ـ ابن الحلال يحضر حالما تتذكره، الان كنت اسال نفسي ما الذي جرى لك وتأخرت.

وبدون انتظار جلس فرمان، وهو ينفش نفسه مثل طاووس:

ـ والله، يا صديقي العزيز، مررت قليلا بأسواق افتتحت مؤخرا في منطقتنا، اختك ام دلشاد طلبت مني اخذ فكرة عن الاسعار، وانت تعرف، هذه الشغلة ايضا تنفعنا، نأخذ فكرة مستمرة عن اوضاع السوق. ارى انك حضرت مبكرًا. هذا يعني ساشرب قهوتي وحدي. هل اطلب لك شيئا.

حرك غريب يده شاكرا وهو يشير الى كوب القهوة امامه. رفع فرمان يده، فاقتربت منه صبية المقهى تتبختر، واشارت براسها بأشارة: نعم. فرك يديه، وراح يتصنع النظر الى السقف، وهو يختلس النظر الى اثدائها وذلك الافعى المرسوم من قعر النهد ويلتف ويخفي راسه تحت قماش الصدرية، وهو يفكر:

ـ اه لو لم يكن هذا المسخ غريب جالس امامه الان لشرب كأس بيرة باردة، لكن لو فعلها امام هذا الشيطان لعرفت كل فنلندا بذلك.

وتنحنح غريب:

ـ ابو دلشاد، الصبية تنتظر.

وتنحنح فرمان بدوره، وقال بفنلندية يحرص ان تكون كلماته واضحة:

ـ قهوة مع حليب، بدون سكر، يا ابنتي.

ما ان انصرفت الفتاة، حتى التفت الى غريب، هامسا بتآمر:

ـ كبرنا وصرنا نخاف من السكر يا عزيزي ابو اياد.

لكن غريب لم يكن مع فرمان، راح يتسمع الى اصوات وضحكات ليست غريبة عليه بدأت تقترب، وقامات بدأت تظهر من على الدرج القريب من المقهى، ولم يخب ظنه، التفت الى فرمان وقال بحنق:

ـ ماذا يفعل هؤلاء السفلة هنا؟

واراد ان يطلق شتيمة داعرة، لكنه قال في نفسه:

ـ هذا الجحش المرتزق سوف ينقلها لهم وانا لست بحاجة الى مشاكل، وخصوصا مع هذه المجموعة الكافرة.

٧

ضحك كريم حتى كاد ينفجر. التفت اليه كثير من رواد المقهى. ابتسم بعضهم للمرح العاصف في روح رجل لا يمكنه ايقاف ضحكته فتنطلق صافية من القلب، واثقة كضوء مصباح بلوري، ورمقه البعض الاخر بنظرة احتجاج، تستنكر وتقول:

ـ ما لهذا الاجنبي يكسر العرف السائد حيث يتطلب الحديث بهدوء والضحك بخفوت، ويضحك بملئ صوته وكأنه في بيت اهله؟

كان كريم يستمع بأهتمام وانشراح الى فوزي وهو يروي له قصة ذلك اليوم المثير. كاد فوزي ان يختنق بكوب العصير امامه وهو يواصل حديثه:

ـ صدقني يا كريم، لم أجرؤ في يوم ما على رواية هذا لاحد قبلك. الامر لا يتعلق هنا بالثقة بالنفس او مجرد الحديث عن تجربة ما مرت. كنت دوما اخشى المقابل، من هو يستمع لي وقتها. فلا اعرف يا كريم ماذا سيكون رد فعل من يسمعني، مهما كانت علاقته حميمة بي. ربما لن يفهم الامر جيدا كما كان وكما مررت به. وربما يشعر بأن فيه شئ من المبالغة او قد يتصورني احاول استعراض شئ ما خاص بي، فكنت اكرم نفسي بسكوتي، حتى حين يرد الحديث عن حياة الفنلنديين وتفاصيلها وطقوسهم ومعاشرة الاخرين لهم، لم اجرؤ على الاشارة الى ذلك اليوم. بالنسبة لي يومها كان ذلك تجربة مثيرة لكوني اعيشها واماسها لاول مرة، ولكنها جعلتني اعرف اشياء جديدة عن هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم، وايضا جعلتني اعرف جيدا كم هو ممكن احتقار الجسد حين نكف عن التفكير به بشكل حسي، بحيث يصبح بالنسبة لنا عورة واثما.

حقا كان يوما مشهودا بالنسبة لفوزي. كان "يوم العري الاممي". تجربة لا يمكن لرجل عراقي تخيل نفسه فيها. حكى فوزي تحديدا عن حالة الاحراج التي وقع فيها مع نفسه قبل كل شئ، وهو يدخل في تجربة هي بالنسبة له ورطة حقيقية. كان يظن، وعلى الاقل مع نفسه، وبسبب خطأ ما سيرتكبه هناك، بشكل عفوي ولا ارادي، فان شيئا من العار قد يظل يلاحقه

العمر كله بين المجموعة المشاركة في ذلك الطقس الفنلندي الجديد بالنسبة له والعادي جدا بالنسبة لهم. كانت المجموعة خليط من النساء والرجال المحترمين والمتعلمين، من مختلف الجنسيات، وكان الفنلنديين يشكلون الاغلبية فيها. ثمة نقاش جاد يتواصل حول موضوع في علم الاجتماع، وكان فوزي بينهم يحاول التقاط اطراف الحديث مستنفرا كل ملكاته في اللغة الفنلندية. كان يشعر بالارتياح حين يتحول الحديث الى اللغة الانكليزية. كان مسكونا بالخوف من فضيحة ما يتصور انها قادمة بسببه. سأله كريم ساعتها:

ـ فضيحة مثل ماذا يا فوزي؟

ـ كأن لا اتفهم الحالة الموجودة تماما مثلما هي بالنسبة للمشاركين، ويبدر مني تصرف ما او سلوك معين، بنظرة او حركة وقد يفهم منه اني تصرفت بغير تمدن كما يشاع عن الرجل الشرقي.

ـ وكم كان عدد الموجودين؟

ـ خمسة عشر رجلا وامرأة؟

ـ وكم كان عدد العراة؟

ـ كلنا؟

ـ وانت بالطبع معهم؟

ـ وانا ايضا، كنا جميعا مثلما ربي خلقتني!

ـ يعني كان ذلك "يوم العري الاممي"؟

واطلق كريم ضحكة صاخبة.

تذكر كريم اول مرة ذهب فيها مع باولينا الى الساونا. هاتفها بشكل روتيني، فطلبت منه ان كان يمكن تقديم موعد وصوله الى شقتها مساء اليوم التالي، فذلك اليوم هو موعدها الاسبوعي مع الساونا، وترغب ان يشاركها ذلك ما دام قد قرر المبيت عندها تلك الليلة. هناك في الساونا، وبعد ان تعرقا قليلا بتاثير الابخرة، وبعد اشتراكهما في شرب اول قنينة بيرة معا، وخارج غرفة البخار، وهو يدلك لها ظهرها بالصابون، ودون انتظار وجد نفسه يلثم خد باولينا، ربما امتنانا لكونها تسعى باستمرار لجعله يشعر بالاطمئنان والالفة والراحة خلال وجوده معها، وبدورها التفت اليه، لفت ذراعيها حول كتفه ودفنت وجهها في عنقه تعبيرا عن سعادتها بوجوده معها. كان جسديهما ينضحان بالعرق ومسامات جسده تفور، وما ان احتك جسدها به حتى وجد نفسه يحتضنها بقوة، ويهصر صدرها. لم تكن تنتظر منه ذلك، فتحت عينيها دهشة، لكنها لم تمانعه. واذ استقر نهديها على صدره العاري انزلقت اصابعه على جلدها الساخن

وراحت تتلمس طريقها الى الاماكن التي يعرف ان مفاتيح جسدها فيها، واذ اطبق شفتيه على شفتيها وراح لسانه يتحرك ويشتبك مع لسانها، لاحظ نصف اطباقة عينيها التي صارت بالنسبة له علامة دائمة لبدء أشتعال رغبتها، ودون ان يفلت شفتيها وبهدوء حملها بين ذراعيه، وفي غرفة نزع الملابس مددها على ظهرها على الطاولة الخشبية الصغيرة، واتخذ مكانه واقفها بين ساقيها اللذين رمتهما على كتفيه، وبدون اي كلام او صوت بلغا ما ارادا وليجدا بعد ذلك ان المكان كله صار بحيرة من الماء الذي نضح من جسديهما. يومها قالت له باولينا:

ـ اتعرف؟ هذه اول مرة اقوم بذلك في الساونا، رغم ان ابي، ولم تعارضه امي يوما، كان وكذا مرة يمزح معي ويكرر كونه يعتقد اني جئت الى الدنيا حين فعلها مع امي في الساونا. فبتأثير احاديث امي وكبار السن، وما علمونا في المدرسة، وما نقرأ في الكتب، بقيت الساونا عندي دائما، مكانا مقدسا مثلما هو في تراث كل الفنلنديين واشعارهم وحكاياتهم. الساونا مكانا لطقوس الجسد دون الشهوة والرغبة. في الساونا يا كريم كان الفنلنديون القدماء يغسلون موتاهم، وفي الساونا كانت تحدث الولادات، والى الان يمكن اللقاء بأناس يتباهون بانهم ولدوا في الساونا، والى حد هذه الايام تجد ثمة فلنديين لا يحبذون شرب البيرة داخل غرفة البخار في الساونا، وانما في صالة الانتظار، وان كان الشباب اليوم، ومثلي ومثلك، يفعلون كل شئ داخل الساونا.

واطلقت ضحكة رنانة، جذلة، تعبر عن قمة سرورها واحساسها بالسعادة. ربما من اجل انقاذه من احساس قد يداهمه بارتكاب خطأ او أثم ما. همست له باولينا بدلع:

ـ ولكني ساحرص على امتلال جسدك بين الحين والاخر في الساونا، يبدو ان الساونا حقا تقوم مقام الشمس وتوقظ فيك فحولة الشرق، ولا يمكن لامراة مثلي اهمال ذلك.

وشارك باولينا ضحكتها، وفجأة عن له ان يحدثها باسهاب عن حمامات بلاده. لم تتح لكريم فرصة معايشة التجربة التي عاشها فوزي، وظل عدة مرات يتخيل فوزي، وهو يتشاغل بقنينة البيره، ويلملم ساقيه، يخفي ما بينهما خوف ظهور ما يشير الى اثارة ما بسبب احتكاكه بأحد النساء معه. اول الامر بدا فوزي مترددا جدا في الحديث، لكن ابتسامات وضحكات كريم التي انطلقت على غير المألوف، شجعت فوزي وجعلته يواصل الحديث ويروي تفاصيل طريفة عديدة. بدأ ذلك في اول لقائهم في "المقهى الرياضي"، كما اعتادو تسمية المقهى الذي اعتادوا احيانا متابعة مباريات كرة القدم فيه. دلهم عليه حسين الزوراني، في ذات الاسبوع الذي حضروا فيه امسية للشاعر العراقي "عبد الكريم هداد"[1]، المقيم في السويد والذي زار مدينة هلسنكي.

في مواجهة محطة القطار المركزية، في جانب من "بناية النقانق"، ثمة مقهى، واسع، كبير، بابواب واسعة، ممرات طويلة ونوافذ زجاجية كبيرة، تجعلك تطل على ما بداخله بسهولة. ملئ باجهزة التلفزيون، اينما جلست تقابلك شاشة تلفزيون. وصل كريم مطرود عجلا، متأخرا قليلا ليجد فوزي وحده في زاوية المقهى بمواجهة الجانب المفتوح حيث يمكنه ملاحظة واجهة بناية محطة القطار ورؤية "الرجال حملة المصابيح":

- اين نوري؟

سأل كريم بقلق، فضحك فوزي:

- سيعود، لا تقلق. يذهب ليستحم ويعيد السيارة الى مطعم شاخوان. جعلته يستعجل بالذهاب، لم ارغب بلقاءه ببعض الناس هنا.

وحرك راسه وذقنه باشارة غير محسوسة نحو زاوية داخل المقهى. التفت كريم بهدوء فلاحظ فرمان بوند وغريب عتوّي، غارقان في حديث عميق، وثمة كثير من الاوراق في يد فرمان. لم يعلق بشئ. اعتاد عدم التدخل في شؤون الاخرين. تعود كبح فضوله حتى لا يجد نفسه في مواقف لا يرتضيها. طلب كريم كاسا من البيرة، وقهوة لفوزي، وراحا يدردشان حول تحشيدات الجيش الامريكي في الدول المجاورة للعراق. كان فوزي كعادته يحمل الكثير من المعلومات الجديدة. عرف كريم بأن هناك استعدادات لتظاهرة جديدة ضد الحرب في الايام القادمة، ستدعو لها "لجنة التضامن مع الشعب العراقي". لم يعترض كريم حين اقترح فوزي بأن عليه ان يكون جاهزا. كان فوزي يحرضه لدعوة معارفه للاشتراك في التظاهرة، لكنه يدرك مسبقا بأن كثيرمن العراقيين لن يشتركوا في التظاهرة ضد الحرب. لن يكون هناك سوى الفنلنديون وبعض الديمقراطيين من العراقيين ممن يدرك خطورة الحرب على مستقبل البلاد. في لقاء سابق قال شاخوان بقلق دون توجيه كلامه الى احد:

- يا اخي لو اشتركنا في المظاهرة ضد الحرب سيظن البعض اننا مؤيدون لنظام صدام حسين الذي يضطهدنا. واذ يرى الضيق على وجه فوزي، يصرخ بشكل استفزازي:

- بصراحة يا اخوان انا موافق حتى لو ان اسرائيل تأتي بجيوشها وتزيح لنا صدام حسين، انتم تعيشون في خارج العراق ولا تعرفون جيدا معاناة الناس هناك تحت سطوة فاشية حزب البعث!

دار الحديث بين فوزي وكريم حول امور عادية عديدة، وثم وبدون اتفاق مسبق، ومثل كل مرة، راحا يتحدثان عن ايام طفولتهما. عن تلك الايام التي مرت ولن تعود. كان فوزي بمزاج طيب،

فالحديث عن الطفولة يجعله يحلق في سماوات عالية، وكان كريم يفهم ذلك جيدا فهو لا يختلف عنه. ليس فوزي وحده، بل كل المنفيين، يجدون في الحديث عن الطفولة جانب يعوضهم عن تلك الفقدانات من الاهل والاصدقاء واساسا فقدانهم للوطن. كان كريم يفاجئ احيانا بأن المتحدث امامه، وعلى غير انتظار تسيقظ في ذاكرته تفاصيل ناعمة، حميمة وبعيدة، لا يمكن في احاديث عادية ان تخطر له على بال. يوما راح احد معارف كريم، وهو منغمر في الحديث عن ايام مراهقته الاولى، يتوقف عن الحديث فجأة، ثم رفع عينيه الى نقطة وهمية ما في الفضاء. حدق طويلا هناك، ثم استرسل يتحدث عن ازرار ثوب ابنة جارتهم. كيف كانت من الصدف وتلمع تحت اشعة الشمس وتعكس اضوية ملونة. كيف ان الفتاة كانت تقف له خصيصا في زوايا معينة وتجعل ازار ثوبها تعكس ضوء الشمس لانها عرفت انه يحب ذلك. كان الرجل يتحدث عن فتاة لا يتذكر اسمها، ولا يعرف مصيرها. لكنها استيقظت في ذاكرته فجاة، ودون انتظار. وراح يتذكر لون شعرها، عباراتها، ضحكاتها، وحتى نوع ازرار ثوبها. قطع افكاره فوزي، وسأله بدون تمهيد:

- ماذا عن دعوتك لنا للساونا يا بطل؟

فكر كريم الرد بغضب، لولا تمالك نفسه:

- اتسالني انا يا فوزي؟ كم مرة وجهت لكم الدعوة وانتم لا تزالون مثل الرؤساء العرب في مؤتمرات القمة تناقشون وتناقشون؟

في سعي من كريم لخلق عوالم الفة وتواصل، تقرب بين معارفه واصدقاءه، يكرر دعوته لهم الى اختيار يوم ما، ومشاركته موعده الاسبوعي في الساونا. فكل مساء من يوم السبت لديه ساعة في ساونا البناية. رحب فوزي يومها فورا بالفكرة وقال:

- شرط كل واحد منا يشتري بيرته بنفسه.

ولم يعارض كريم فهو يعرف حساسية فوزي بذلك. فقال نوري:

- والنقانق؟

فوجدها كريم فرصة:

- هل تريدوني ان افهم من ذلك اني انسان بخيل؟

فقال شاخوان:

- شرط ان تكون من لحم الخنزير ومذبوح بالطريقة الاسلامية.

ضحكوا ثم اتفقوا مبدئيا على اليوم، وان يحرص الجميع على الحضور. وان كل من يحضر يجلب مناشفه معه، ويشتري بيرته بنفسه والنقانق ستكون على حساب شاخوان والسلاطات

سيعملها كريم، وسيقضيان الامسية بعد ذلك عند كريم، ومن يعجبه يمكنه مبيت الليل ايضا في شقة كريم.

قال شاخوان:

ـ لا اعتقد من العدل قضاء يوم اجازتي كله معكم، يجب ان يكون لدلسوز والاطفال حصة فيه، سالتحق بكم لبعض الوقت!

فصاح نوري:

ـ ولذلك تريد مني الزواج حتى اتورط مثلك؟

ثم التفت نوري الى كريم وسأل:

ـ كم شخصا تسع غرفة الساونا في بنايتكم يا كريم؟

واجاب كريم وهو يقرأ افكار نوري:

ـ ست او ثمانية اشخاص، ولكن، ها... من الرجال فقط.

ضحك الجميع بقوة. فهم كريم ان نوري يسعى لتوريطهم ودعوة واحدة من صديقاته لهذا اللقاء. قال فوزي:

ـ يمكنك دعوة من تشاء يا نوري، ولكن شرط ان يكون رجلا وايضا يكون من اصحابنا، دعنا نستمتع بهذا اللقاء، فشخصيا احتاجه من فترة.

وافقه كريم، واتفقوا على دعوة منتصرهادي وتحسين شاكر والطبيب زراد شت وحسين الزوراني ويوسف ابو الفوز وسالم غفور وعباس جامعه. صاح نوري مشاكسا:

ـ يعني راح تصير ندوة سياسية، فالغالبية حمر!

صاح فوزي:

ـ تريدها دائما افخاذ ونهود والناكح والمنكوح!

وضحكوا يومها بحرارة. واذ وجد كريم نفسه يخوض مع فوزي في موضوع الساونا، راح يحث فوزي على تبني الفكرة بنفسه. ثم تلقائيا انتقلا للحديث عن طقوس الساونا. كان كريم يود زيارة ساونا نارها تشتعل بالخشب وليس الكهرباء، ليشم رائحة خشب البتولا التي جربها مرات. روى كريم عن ساونا مجمع اللاجئين في اول ايامه في فنلندا وكيف صارت مكانه الاثير، وكيف يقصد المسبح في كيرافا باستمرار من اجل التمتع بالساونا، بعد قليل من التردد لمسه كريم في صوت فوزي، تشجع هذا وراح يروي له تلك التجربة المثيرة، قصة "يوم العري الاممي"، وراح يتأكد لكريم بان فوزي لا تنقصه روح السخرية ولا امكانية القص.

ملاحظات واسماء اعلام

١. شتائم رائجة في فنلندا، وعلى كل لسان: Perkella يا للعنة، Vittu شتيمة داعرة وتعني تحديدا فرج المراة، Satana يا للشيطان.

٢. ميكو بيركويلا Mikko Perkoila: مطرب فنلندي، يساري، مواليد ١٩٥٠هلسنكي، له الكثير من الاغاني السياسية، ويكاد يكون بأسلوبه الساخر الناقد "شيخ امام فنلندا"، له اغان ومساهمات كثيرة فنية ضد العنصرية ومن اجل حقوق الانسان.

٣. Aki Kaurismäki: مخرج سينمائي فنلندي مشهور، وهو كاتب ومنتج، مواليد ١٩٥٧، اخرج العديد من الافلام الفنلندية، التي صارت علامات فنية، في تاريخ السينما الفنلندية، في عام ٢٠٠٢ حاز في مهرجان كان السينمائي على جائزةالذهبية عن اخراجه فلم " رجل بدون ماض ". وفلم يوها Juha، اخرجه عام ١٩٩٨ - بالاسود والابيض، كفلم صامت، عن قصة الكاتب الفنلندي Juhani Aho الذي عاش للفترة (١٨٦١-١٩٢١)، وهي واحدة من القصص الفنلندية الكلاسيكية التي تدرس في المدارس الفنلندية.

٤. جميلات وشجعان: مسلسل امريكي ميلودرامي، يتواصل بثه عبر التلفزيون الفنلندي منذ عدة سنوات.

٥. جزيرة الفستق Pähkinäsaari: اسم جزيرة فنلندية، تقع بالقرب من الحدود الروسية. وقعت فيها عام ١٨٠٠ اتفاقية سلام حملت اسمها.

٦. عام ١٩١٨ في كانون الثاني (يناير) بدات الحرب الاهلية الدامية بين معسكر الحمر الذين استولوا على هلسنكي وجنوب البلاد ولقوا دعما من روسيا السوفيتية، ومعسكر البيض، الذين لجاوا الى الشمال وحصلوا على دعم الغرب وخصوصا المانيا. وشهدت الحرب الاهلية مأس كثيرة واستمرت حتى نيسان (ابريل) نفس العام.

٧. سرجنار: مدينة كردية، مركز قضاء تابع اداريا الى محافظة السليمانية، وتتداخل احياءه مع احياء مدينة السليمانية، وهي مصيف معروف في كردستان العراق.

٨. بيكّا هالونين 1865-1933: Pekka Halonen رسام فنلندي، عاش في ضواحي هلسنكي من رواد الواقعية في الفن التشكيلي، يعتبر بيته اليوم متحفا ومزارا فنيا بارزا.

٩. تاريا هالونين Tarja Halone: مواليد ١٩٤٣ رئيسة الجمهورية الفنلندية، انتخبت عام ٢٠٠٠. ماجستير في القانون، تولت مناصب حكومية ووزارية عديدة، وهي اول امراة تكلف بعمل كوزيرة خارجية في

فنلندا ١٩٩٥-٢٠٠٠، وهي من قادة الحزب الاجتماعي الديمقراطي الفنلندي.واعيد انتخابها لدورة ثانية لرئاسة الجمهورية عام ٢٠٠٦.

١٠. نيوارت باش Ewart bash: عبارة كردية باللهجة السورانية، تعني مساء الخير.

١١. قوات البيشمركة: كلمة كردية تعني الفدائيين، وهي تعني قوات الثوار الكردية المناضلة من اجل حقوقها القومية، في العراق وايران وتركيا.

١٢. Basha, zor Basha ـ باشا، زور باشا: عبارة بالكردية السورانية تعني "جيد... جيد جدا"

١٣. الكاليفالا: ملحمة الشعب الفنلندي ومستودع تراثها الشفهي، جمعها ورتبها، واضاف عليها الطبيب الفنلندي الياس لونرت (١٨٠٢ ـ ١٨٨٤)، الذي دار ارجاء فنلندا ليجمع الموروث الشفهي من اساطير وقصص بطولة، ومغامرات واشعار واناشيد حماسية واغان عاطفية وتراتيل وترانيم الشعراء الشعبيون الجوالون. صدرت الطبعة الاولى من الكاليفالا عام ١٨٣٥، وكان صدورها يعتبرعلامة ومنعطف في تاريخ الثقافة الفنلندية، بل ولا يمكن فهم تطور الثقافة الفنلندية بدون التوقف عند الكاليفالا التي تركت تأثيرا مباشرا على تطور الادب والرسم والنحت والموسيقى.

١٤. يوكاهاينن Joukahainen وفاينامويننن Väinämöinen من الشخصيات الاسطورية في ملحمة الكاليفالا، وشخصية فاينومويننن توازي شخصية كلكاميش في اساطير وادي الرافدين

١٥. ماموستا فرمان: اسم علم وكلمة "ماموستا" تعني استاذ.

١٦. اليكسي يريمينكو Aleksei Eremenko: مواليد ١٩٦٤ لاعب كرة قدم فنلندي مشهور ويعتبر من افضل اللاعبين، روسي الاصل والولادة، وهو من عائلة تحترف لعبة كرة القدم، فهو وابيه واخيه الاصغر يلعبون للنوادي الفنلندية، بعد ان حصلوا على الجنسية الفنلندية.

١٧. اليكسيس كيفي Aleksis Kivi :1872–1834 كاتب فنلندي كلاسيكي، من اوائل من كتب باللغة الفنلندية، وقدم مؤلفات ادبية اثبتت لدول الاحتلال من الجيران ان للشعب الفنلندي ثقافة وشخصية.

١٨. جان سيبليوس Jean Sibelius: 1865-1957 موسيقي فنلندي، واحد من اشهر الموسيقين العالميين ، الذي انتقل من موسيقاه المحلية الى العالمية، وتعزف الان سيمفونياته في اغلب دول العالم، ومن اشهر معزوفاته "فنلنديا" التي صارت السلام الوطني الفنلندي.

١٩. الكلاش: الصندل، وتستخدم كشتيمة وللاستخفاف بالشخص المقصود.

٢٠. كاش: نقدا، من كلمة Cash الانكليزية.

٢١. العريبجة: تصغير من كلمة عربي ويستخدم عادة للسخرية والاستهزاء.

٢٢. الكاولية: الغجر، وهم في العراق فئة اجتماعية منبوذة لامتهانهم الرقص والموسيقى واعمال اخرى.

٢٣. فاينو لينا Väinö Linna :1920- 1992 من اشهر كتاب الفنلنديين، كتب مؤلفات عديدة عن الحرب من موقع الناقد لها، وحظي مؤلفه "الجندي المجهول"، الذي نشره في عام ١٩٥٤ بشهرة عالمية، وترجم لمختلف لغة العالم، وسبب ضده نقمة كبيرة في فنلندا، لانه خلال تناوله الحرب بين فنلندا والاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٩ اظهر الحرب على حقيقتها، وادان ممارسات معينة للجنود الفنلنديين وسخر من القادة العسكريين.

٢٤. منظمة الامل: منظمة اجتماعية فلندية تعني بمساعدة اللاجئين الى فنلندا، وتقدم لهم مساعدات فنية، مثل الاستشارات القانونية، والتثقيف بالقوانين، ساعدت على اطلاق سراح مجموعات من العراقيين كانوا سجناء في استونيا.

٢٥. الجحوش: جمع من كلمة جحش، وباللغة الكوردية تكون المفرد "جاش" والجمع "جاشەكان" وهذا تعبير ساخر يحمل استهانة وعدم احترام الشعب الكوردي لابناء جلدتهم الذين يشكلون قوام وحدات المرتزقة التي شكلها ويديرها نظام صدام حسين تحت اسم "قوات الفرسان" وكانت بقوام اكثر من ٣٠٠ الف مرتزق، وكان لهم دوربارز في الاعمال القمعية العسكرية لنظام صدام حسين الديكتاتوري ضد ابناء الشعب الكوردي.

٢٦. Tuvaresh كلمة روسية تعني رفيق.

٢٧. سلطان هاشم: وزير دفاع نظام صدام حسين الذي وقع اتفاقيات صفوان مع القوات الامريكية بعد هزيمة جيش صدام حسين اثر غزوه دولة الكويت.

٢٨. الحرس القومي: ميليشات شكلها حزب البعث العراقي بعد انقلاب ١٩٦٣، شبيهة بتشكيلات الغتسابو الالمانية، ونفذت المجازر بحق ابناء الشعب العراقي وخصوصا اوساط اليسار.

٢٩. قاسمي: نسبة الى انصار الزعيم عبد الكريم قاسم (١٩١٤ ـ ١٩٦٣)، الذي قاد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ في العراق، وانهت الحكم الملكي واسست الجمهورية العراقية الاولى واستمرفي منصب رئيس الوزراء حتى انقلاب شباط الذي نفذه حزب البعث في ٨ شباط ١٩٦٣.

٣٠. دائرة اليانج ـ ين: من مفردات الفلسفة التاوية الصينية عن مفهوم صراع الخير والشر.

٣١. Ihana كلمة فنلندية تعني رائع.

٣٢. احمد ابن فضلان:هو صاحب الرحلة إلى بلاد البلغار والروس الذين يقطنون على شواطئ نهر الفولكا. أوفده الخليفة المقتدر بالله العباسي إلى ملك الصقالبة مع جمع من القادة والجند والتراجمة، إجابة لطلب ملك الفولكا. وقد قامت البعثة من بغداد ٢١ حزيران سنة ٩٢١م مارة بهمذان والري ونيسابور ومرو وبخارى، ثم اجتازت نهر جيجون إلى خوارزم ثم إلى بلاد البلغار والفولغا، ووصلت في ١٢ ايار سنة ٩٢٣م. وصف ابن فضلان في رسالته مملكة الصقالبة وعاداتهم وتقاليدهم وغير ذلك مما رأى منها. تعتبر هذه الرسالة أثرا مهما للعصر الذي كتبت فيها.

٣٣. محمد بن عبدالله الأندلسي الادريسي: يعتبر مؤسس علم الجغرافيا، ولد بمدينة سبتة سنة ١١٠٠م، استقر زمناً في بلاط الملك النورماندي روجر الثاني في بالرمو فلقب بالصقلي، قام برحلة طويلة تعد أول بعثة علمية تجوب ممالك العالم الوسيط، سجل كل ما شاهده في كتابه (نزهه المشتاق في اختراق الآفاق)، وزود كتابه بخريطه عامة للأرض وسبعة خرائط تمثل أقاليم العالم السبعة المعروفة آنذاك، ترجم كتابه الى اهم لغات العالم.

٣٤. Carl Gustaf Mannerheim: عاش للفترة ١٨٦٧ - ١٩٥١ واحد من ابرز السياسين والقادة العسكريين الفنلنديين، ولعب دورا بارزا في حياة ومستقبل فنلندا، في عهد رئاسته لفنلندا في الاعوام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٦ اقر الدستور الفنلندي. عمل في الجيش القيصري الروسي، وبعد استقلال فنلندا في ١٩١٧ قاد معسكر الجيش الابيض في الحرب الاهلية الفنلندية عام ١٩١٨ والمعروفة في تأريخ فنلندا بأسم "حرب الشتاء"، وقاد الجيش الفنلندي في الحرب المعروفة باسم (حرب الاستمرار)، وهي الحرب ضد الغزو السوفياتي لفنلندا، والتي تحالفت فيها فنلندا مع هتلر ضد الاتحاد السوفياتي (١٩٣٩ ـ ١٩٤٠)، وخسرت فنلندا الحرب.

٣٥. Risto Ryti: عاش للفترة ١٨٨٩-١٩٥٦ وهو قائد سياسي فلندي. كان رئيسا للوزراء خلال احتلال الاتحاد السوفياتي لفنلندا، في اواخر ١٩٤٠ صار رئيسا للجمهورية وتحالف مع هتلر، استقال عام ١٩٤٤، بعد نهاية الحرب، الحاكم الدولية حاكمته كمجرم حرب وادانته بالسجن عشر سنوات خففت لاسباب صحية.

٣٦. فيبورغ: مدينة فنلندية حدودية مع روسيا.

٣٧. بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وضمن تعويضات الحرب التي اقرها المجتمع الدولي، وبسبب من تحالف فنلندا مع المانيا الهتلرية، اخذ الاتحاد السوفياتي من فنلندا مساحة تقدر ب ١٢ ٪ من مساحتها وتشكل كل اقليم كاريليا، ومقاربة مع خارطة فنلندا تظهر بعض الرسوم خارطة فنلندا على شكل فتاة بذراعين ممدودين، وتعبر اوساط من الفنلنديين بأن ستالين كسر احد اذراع فنلندا.

٣٨. زائر الفجر: اعتاد رجال الامن لنظام صدام حسين الديكتاتوري، اقتحام بيوت الناس فجرا بشكل مبكر والناس نيام لاعتقال السياسيين والمعارضين المطلوبين، وهذا تعبير شائع في بلدان الشرق الاوسط التي تشهد حملات قمع بوليسية ضد المعارضين لسياسة الانظمة الحاكمة.

٣٩. Scully Dana: شخصية العميل الخاص لمكتب التحقيقات الفدرالي الامريكي، التي تؤديها الممثلة الامريكية غالينا اندرسون Gillian Anderson في المسلسل التلفزيوني الامريكي الشهير The X-Files.

٤٠. معارك شرق البصرة: واحدة من اشرس صفحات معارك الحرب العراقية الايرانية (١٩٨٠ ـ ١٩٨٨)، وجرت في السنوات الاخيرة للحرب، في اطار التنافس بين الطرفين للسيطرة على مدينة البصرة.

٤١. عبد الكريم هداد: شاعر وكاتب عراقي. مواليد ١٩٦١. غادر العراق لاسباب سياسية عام ١٨٨٢، ومقيم في السويد منذ عام ١٩٩٠. له العديد من الاصدارات الشعرية والنثرية.

القسم الثاني

١

الجأ الى الورق. الجا اليك بدوافع عارمة من الحنين، من الاحساس بالوحشة والوحدة، بالرغم من كل الناس الطيبين من حولي. بدوافع من اللااستقرار بالرغم من كوني اعمل معلما في مدرسة، واجد متعة في العمل مع تلاميذ اذكياء ونابهين. ولي انشغالاتي العديدة، وبنيت لي علاقات طيبة مع اهل البلاد والعراقيين اللاجئين مثلي الى هذه البلاد. اكتب اليك محاولة لملء هذا الفراغ الهائل داخلي، الذي فيه يضيع كل ما هو ايجابي في حياتي هنا، تحت سماء القطب الشمالي.

حياتي مليئة بالناس الطيبين والتفاصيل ولكن مع ذلك اشعر بهذا الفراغ، فثمة مساحات لا تزال غير ممتلئة رغم كل شئ. الجا اليك لاحاورك... الجأ الى الورق لاسجل كلماتي.

افعل هذا، وصرت افهم هذا الكم الهائل من الاعمال الادبية لدى بعض الكتاب. فلا اعتقد انهم يكتبون للناس بقدر ما انهم يكتبون لانفسهم. انهم يهربون الى الورق ليفرغوا انفعالاتهم واحتراقاتهم، للبحث عن حالة من التوازن يفتقدونها.

والان كل ما اخشاه ان لا اجد نفسي!

اكتب لك ولكني قد اكون مثلهم اكتب لنفسي هواجسي وافكاري، ولكني ارجو ان حواري مع نفسي يصل اليك يوما عبر هذه الاوراق ــ الرسائل التي لا توجد لدي حتى الان فكرة عن كيفية ايصالها لك. لكنها ستصلك يوما ما. لابد من ذلك.

ما ارجوه هو وصول معاني سطوري اليك، وهي تحمل ليس فقط هواجسي، بل وشيئا مما اود التعويض به عن ابتعادي عنك وحرمانك من رعاية الاب. كان جدك، والدي، يردد دائما:

ـ أن الرسالة نصف اللقاء.

اتمنى برسائلي اليك الاقتراب منك اكثر. فحين اكتب لك، لا اكتب لنفسي فقط، اعتقد اني اكتب للمستقبل.

لست كاتبا محترفا، ولن احاول التفلسف في رسائلي، ولكني من سطور رسائلك القليلة التي صرت احفظ عباراتها مثل نصوص مقدسة، فهمت انك عند مستوى وعي يمكنك ادراك ما

اريد قوله. اعرف كاتبا عراقيا اسمه يوسف ابوالفوز، يعيش هنا في فنلندا، لاجئ ومنفي مثلي، ربما ساتحدث لك عنه لاحقا، قال مرة في احدى ندواته الثقافية:

ـ مع الورق، عند الكتابة اكون اكثر شجاعة وصراحة!

في هذه الرسائل ساحاول التمثل بقوله، واكون صريحا معك لدرجة ربما احيانا لا تقبليها مني كأب، ولكني احاول التأسيس لعلاقة صداقة، واني واثق حين تصلك هذه الاوراق ستفهمين ما اريد. سيكون لك ما يكفي من العمر والتجربة لتفهمي ذلك. لتفهمي لماذا غادر ابوك وطنه وترك امك وحدها لمصيرها الفاجع؟

لا اؤمن بالاقدار الغيبية، مثلما لا اؤمن بالمعجزات، فعهد الانبياء قد انتهى وولى، ولكن ما يحصل لنا يا ابنتي هو بشكل ما رسالة ذات معنى. من الذي يوجه لنا هذه الرسالة؟ اتراك تقولين ـ اللحظة ـ ان ابي بسؤاله هذا بدأ يناقض نفسه؟ اذ ربما تشمين في كلماتي رائحة تقترب من كل الذي ارفضه من الغيبيات التي تسود معاييرها الان بقوة بين الناس خصوصا من حولك. لست متناقضا يا ابنتي، لكني اومن بأن حتى الحجر المرمي في الشارع يملك معنى في وجوده. لا شئ بدون معنى في هذه الحياة. ثمة ترابط وتشابك بين الامور لا يمكن للانسان احيانا ادراك عمقها. والا ماذا تعتقدين في لقائي مع أم عامر، وما قامت به هذه المراة البسيطة من تأثير على افكاري وتشذيبها؟ وبالتالي جعلتني اراجع كل شئ واعيد ترتيب كثير من الامورالماضية! ترى من ارسلها، ومن كان خلف لقائي بها؟ ولماذا بدأت الان بكتابة هذه الرسائل لك، ولم يخطر ذلك بالي قبل الان؟ هل هي محاولة مني لتقديم دفاعي عن نفسي لاني تركت امك في لحظة كانت بالنسبة لي لحظة بطولة لا مثيل لها، بينما رآها خالك حسن لحظة جبن وهزيمة، فكان كل الذي صرت تعرفينه؟

لا يمكن النظر الى الامور من جانب واحد. ابدا... ابدا. اياك يا ابنتي الخضوع لصوت واحد او رأي واحد في تناول امور الحياة. قالت لي أم عامر انك تهوين الرسم ولك تخطيطات جميلة. ان الفنان المبدع هو الذي يجيد ادارة حوار الالوان على قماشة لوحته. انظري الى الطبيعة من حولك. انها اكبر فنان يجيد فن الحوار. قريب الى مكان سكني، ثمة غابة استطيع الوصول اليها مشيا خلال ربع ساعة. والبلاد هنا يا ابنتي بلاد غابات وافرة تحافظ عليها وتحميها القوانين المتطورة في هذه البلاد. في الغابة دائما حين اتجول ـ افعل هذا بين الحين والاخر ـ مع كتاب واحيانا ثرموس القهوة الصغير. انسى ما جئت لاجله وهو محاولة القراءة في حضن امنا الطبيعة. اسرح مع تلك التفاصيل الصغيرة الحميمة التي تقدمها لنا الطبيعة والحياة من حولنا، وهذا الترابط

الوثيق بين الاشياء والعناصر وما تحمله لنا من رسائل. انظر الى غصن سقط من شجرة وتعفن لارى ان التربة سوف تمتص بعضه كسماد، وستنمو هناك زهرة برية ستلجأ اليها نحلة عسل. لا شئ بدون معنى. دائما اردد هذا، مثلما ردده قبلنا أباؤنا بغض النظر عما كان يفكرون ومن يقف خلف هذا المعنى.

يوما، كنت صبيا صغيرا، اصغر منك بكثير، روى لي جدك، ابي، حكاية طريفة، رواها باسلوبه البسيط والمعبر، والذي لا يمكن لي مجاراته الان، لكنني ساحاول نقل الحكاية باسلوبي.

روى جدك كيف ان تيمورلنك الذي غزا بغداد واحتلها عام ١٤٠٠ ميلادي، ودمر أسوارها، وأحرق بيوتها، وأوقع القتل بعشرات الآلاف من أهلها، كان يجلس على عرشه يحيط به وزراؤه وقواد جيوشه، ازعجته ذبابه، كانت تطن وتدور حوله فصاح بغضب بمن حوله:

ـ ليجيبني احد منكم: ما هي الحكمة من خلق الذباب؟

فخاف الجميع ولم يجرؤ احد على الاجابة. فأربد وصاح ثانية مكررا سؤاله. فبادر مهرجه بالقول:

ـ خُلق الذباب لاذلال الجبابرة!

وهكذا، كما ترين يا ابنتي، لا شئ بدون معنى. حتى في هروبي وترككم، انت وامك، رغم انك لم تولدي بعد، كان ثمة حكمة ما. ربما لنعرف انا وامك اشياء عديدة لم نكن لنعرفها لو انا عشنا حياة عادية ورخية، ولربما لم تنشأي انت بهذا الشكل. ربما يقودك كلامي الى القول الى اني بهذا ادعو للقبول بكل شئ باعتباره ذا معنى وبالتالي اؤمن بالاقدار. لا يا ابنتي. اؤمن بان الانسان عليه خلق قدره بيده، وان يكون مستعدا لتحمل تبعات قراراته، وهكذا صنعت قدري بيدي لحظة وداعي لأمك. كان علي اما العيش الى جانبكم وانا فاقد لاحترامي لنفسي وذلك بالتحول الى تابع ذليل لنظام سياسي فاشي، جائر، انفذ ما يقال لي، او احافظ على شئ اسمه الجوهر الانساني، والبعض يسميه الكرامة وبالنسبة لي هو حريتي كانسان.

حسنا. عن ماذا احدثك بعد هذا. وبماذا ابدأ؟

لا اعرف. لم اخطط بشكل مبكر للحديث. الامر سيكون اشبه بأنسان يعبر مجرى مائي عبر صخور مرتبة في عرض المجرى، لتكون كالقنطرة. هل تتخيلين الصورة؟ يحدث هذا الامر كثيرا في القرى. على عرض مجرى مائي ضحل، يضع اهل القرية صخور متباعدة قليلا عن بعضها البعض تسمح بجريان الماء وتكون قنطرة لعبور بالناس. ومن يود العبور عليه نقل خطواته من صخرة الى صخرة، وحين تكون الصخور صغيرة ويغطيها ويجرفها الماء يكون العبور صعبا، وربما تزلق قدم الانسان وتكون المصيبة بسقوطه ان لم يبتل فقط بالماء. الكارثة هي لو كانت المياه

وسخة، وتكون اهون لو كان مجرى المياه نظيفا نوعا ما. هدف من يعبر هذه الصخور هو الوصول الى الجانب الاخر مع الحفاظ على ملابسه من البلل. والان ساكتب لك بهذه الطريقة، ساقفز معك من موضوع الى اخر، وساحكي لك شيئا من ذكريات، انطباعات عن هذه البلاد والناس فيها، والامكنة، وساحكي عن ما له علاقة بي وبأمك، محاولا الحفاظ على قدمي من الانزلاق فأنا اعرف اني سأعبر على مياه ليست دائما نظيفة. لست بالسيد المسيح لاسير فوق الماء، ساحتاج الى قنطرة للعبور اليك. سيكون حبي واخلاصي لك هو قنطرتي.

٢

كما سترين يا ابنتي ان هذه الرسائل، التي لا اسجل لك تاريخ يوم كتابتها لتكون مفتوحة بافكارها، اكتبها لك على صفحات دفتر مدرسي، صادف ان لون غلافه الورقي اخضر، كما ترين بين يديك. لاحظ صديقي فوزي انفرادي الدائم مع الدفتر، فبين الحين والاخر، ومع نفسي، اعيد قراءة ما اكتب لك. لم احاول ابدا تغيير اي كلمة مما كتبت. كنت اريد لكلماتي ان تحتفظ بوهج ومشاعر اللحظة التي كتبت فيها. شاكسني مرة فوزي وقال:

- اه لو اعرف ما تدون في لياليك الخضراء!

وهكذا صار عندي للوقت الذي اقضيه معك، اسم خاص: الليالي الخضراء، وصار لون الدفتر وحده، ينثر الخصب والطراوة والامل في روحي.

ابنتي الغالية...

تدركين اني بقدر ما اكتب لك، اكتب لنفسي. وبقدر ما احاورك احاور نفسي. وستتفاجأين اذ تلمسين وحدتي وانا المحاط بكل هؤلاء الناس الطيبين، الرائعين الذين ستلتقين بهم على صفحات اوراق الليالي الخضراء. سترد بعض الاسماء من معارفي واصدقائي في ثنايا سطوري اليك، واثناء استرسالي في الحديث معك ربما ستتناثر مواقفهم وصفاتهم واجزاء من حكاياتهم. لا تتلبسك الحيرة يا ابنتي، ساحاول كل مرة، وبقدر ما استطيع، تعريفك والحديث عن أصحاب هذه الاسماء، واثقا من انك بذكائك، ومهارتك كرسامة، قادرة على لململة ما يتناثر بين سطوري لترسمي منه صورة قريبة لكل واحد منهم، وربما هذا سيساعدك لتعرفي الناس المحيطين بي وبأي ناس ارتبطت حياتي الجديدة، وكيف تسير جوانب من هذه الحياة؟

ها ان اسم فوزي قد ورد في السطور الماضية. ساحاول تعريفه لك.

انا وفوزي نرتبط بعلاقة صداقة حميمة. جذورها تعود الى العراق، وهو من ساعدني على اجتياز الحدود عبر الصحراء الى المملكة العربية السعودية ثم الكويت. والتقينا ثانية في اليمن

الديمقراطية ـ الجنوبية، ولكن سرعان ما افترقنا. هو التحق بقوات الثوار في كوردستان العراق، حمل السلاح للقتال ضد الديكتاتورية، مع مقاتلي الحزب الشيوعي العراقي. لم تكن الظروف تساعدني وتجعلني مؤهلا لذلك، فواصلت عملي مدرسا في اليمن الديمقراطية. هو رجل يمتهن السياسة، فهي تجري في عروقه. والتقينا من جديد في فنلندا بعد سنوات طوال. بسببه انتقلت الى هذه المدينة التي اعيش فيها الان. اسمها كيرافا Kerava، ورغم انها مدينة هادئة جدا، فمعنى اسمها طريف، وهو سورة الماء. هذا ربما لان البلاد هنا بلاد مياه. فيها يوجد حوالي ١٨٨ ألف بحيرة و١٨٠ ألف جزيرة. اهل كيرافا يقولون عنها انها مدينة صغيرة، وانا اراها قرية كبيرة. لان طبيعة الناس المسالمة هنا كثيرا ما تذكرني بسكان اهل القرى. دليل المدينة يقول ان سكانها اكثر من ٣٠ الفا. اخرج للتسوق فأقابل العديدين الذين سبق والتقيتهم في مكانات مختلفة وصارت وجوهنا معروفة لبعضنا البعض، فيرسلون تحياتهم بكل مودة وصدق. وتأتي احيانا ابتسامات عفوية، ثم عبارات مجاملة قصيرة. الفنلنديون مسالمون، دمثون، ولكنهم متحفظين جدا. مغلقون بعض الشئ، يحتاجون الكثير من الجهد والطرق كي يفتحوا لك ابواب قلوبهم. وهذا الامر كانهم توارثوه جينيا لشدة وطول ما تعرضوا لاحتلالات من الجيران فجعلهم ذوي طبيعة لا تفصح عما بداخلها بسهولة. روى لي فوزي عن دردشات اجراها مع مجموعة من الشباب الفنلندي، حال وصوله هذه البلاد، كان يحاول التعرف على افكارهم، وجه اليهم سؤالا محددا: ماهي امنيتك بعد انهاء دراستك؟ كان الجواب مذهلا بالنسبة له. غالبيتهم، وكل على انفراد، اخبروه ذات الجواب: الامنية بالحصول على عمل بمرتب جيد وشراء بيت. ولكن بيت... في الغابة! لماذا الغابة هنا؟ماذا تعتقدين يا أبنتي؟ الامر باعتقادي يكمن في التاريخ.

والتاريخ ليس مجرد الحوادث وروايتها كحكايا الجدات. التاريخ هو الدروس والعبر والدلالات. ما الذي يدفع الفنلندي للسكن في الغابة؟ ليس هناك سوى البحث عن الامان، المترسب تأريخيا في خلاياه. هذه البلاد لها تاريخها الذي يترك بصماته على روح الانسان الذي سكنها. هناك اشارات ومعلومات عند الرومان القدماء عن "الفنيين الذين يعيشون على حافة العالم"، ويعتبرون شعبا همجيا، يتكلم لغة غريبة وعجيبة، ويتصرف تصرفا بدائيا، فالفنلنديين عاشوا فترات طويلة جدا، في عزلة تامة عن العالم، او كما يقول البعض، خارج التاريخ. كان الفايكنغ القراصنة سراق المواشي والنساء يغيرون على سواحل هذه البلاد وينهبوها، ثم جاء السويديون واستباحوها، وثم جاءت الديانة المسيحية التي هاجمت حملاتها بقسوة كل ما هو وثني في البلاد، وتبعهم الروس وولغوا في دماء ابنائها. حروب من بعد حروب ومجاعات تركت بصماتها

على روح الفنلندي، فكانت الغابة ملاذه الامن. اتدرين يا ابنتي، في اول دروس لي في اللغة الفنلندية، عرفنا ان اللغة الفنلندية لا تحوي كلمة فنلندية اصيلة بمعنى "جار". اثار ذلك دهشة البعض وتعليقاتهم الساخرة، من ابناء الشرق الذين يحتل الجار في تراثهم مكانا خاصا. اللغة الفنلندية اخذت هذه الكلمة من اللغات الاخرى، ولذا يقولوا عنها في دروس اللغة انها "كلمة حديثة". من كلامي هذا كله عليك التقدير وانت الذكية: ما دام الفنلندي يسعى للسكن في الغابة ليكون في امان من الفنلندي الاخر، فكيف ستكون علاقته مع الاجانب، الطارئين على بلاده؟! مع كل ذلك فالفنلنديون مخلصون جدا في صداقاتهم، ويمتازون بالامانة الشديدة. حين وصولي البلاد، عشت في مدينة اخرى بعيدة عن العاصمة، كنت اظن ان ذلك اهدأ لي بعيدا عن بعض منغصات المدن الكبيرة. فوزي ومن اول اسبوع وصل فيه البلاد جاء الى كيرافا واستقر فيها. بعد معرفتي بقدومه، وكنت سبقته الى البلاد بعدة سنين، اتصلت به والتقينا، وجن جنونه لكوني بعيدا عنه، ومارس ضغوطا لانتقل الى جانبه، وحين اقتنعت بالانتقال ساعدني كونه صار يعمل موظفا في شركة السكن التابعة لبلدية المدينة، لارتب انتقالي بسهولة ولاكون الى جواره. لا يعيش الكثير من الاجانب في مدينة كيرافا قياسا بالمدن الكبيرة. هناك بعض العوائل الروسية والصومالية ومؤخرا الفيتنامية. العراقيون قليلون جدا. هناك بعض العوائل العراقية العربية. غالبيتهم قادمون من مخيمات اللاجئين العراقيين في المملكة العربية السعودية، من مخيمات مدينة رفحا الصحراوية، لذا ترين العراقيون هنا يطلقون على هذه المجموعة تعبير "جماعة رفحا". كان هناك بعض العوائل العراقية الكردية التي وصلت اولا الى روسيا وثم عبرت الحدود بشكل غير شرعي الى استونيا، فسجنتهم السلطات الاستونية، ومن السجون الاستونية جاءت بهم الامم المتحدة الى هنا. وهناك البعض ممن وصل فنلندا بشكل مباشر عبر التهريب. للاسف ان ممارسات بيروقراطية من بعض دوائر الدولة في مدينة كيرافا، جعلتهم يفرون من المدينة. ما يميز العوائل العراقية في مدينة كيرافا، انهم غير متعاونين فيما بينهم، بل وحذرين من بعضهم البعض، مثلهم مثل غالبية العراقيين المقيمين في فنلندا، ولا يكلفون انفسهم جهدا للبحث عن نقاط مشتركة للتعاون فيما بينهم. المشكلة ان هناك كثيرا مما يجمعهم، لكنهم متخندقون وفق افكار مسبقة سياسية ودينية وحتى طائفية، ناهيك عن الاعتبارات الشخصية. وهكذا صارت الحواجز بينهم تكبر وصاروا كمن يعيشون في جزر، خصوصا الذين يعيشون بعزلة عن المجتمع الفنلندي. رغم انهم جميعا ضحايا لجلاد واحد، ويعيشون تحت سماء القطب الشمالي ولهم هموم واحلام مشتركة. المتدينون منهم كل جهودهم

تبذل لافتتاح جامع وترينهم كل مرة عند بناية الشؤون الاجتماعية باحثين عن دعم مالي لحد صارت الشكوك تثار حولهم عند بعض الجهات الفنلندية. الديمقراطيون او لنقل الليبراليون ـ وانا احسب نفسي منهم، وفوزي وبدون انتخابه يتزعمنا من خلال نشاطاته وعلاقاته الواسعة ـ يسعون الى تاسيس جمعية ثقافية اجتماعية ولكنها لم تر النور لالف سبب وسبب. وهكذا فان امثال فوزي تجدينهم يعملون منفردين، دون اطار ما ودون عون ودعم حقيقي من الاخرين، ومع ذلك ولصدقهم يحققون احيانا نتائج مذهلة. في رسالة قادمة سأحكي لك عن واحد من نشاطاتنا البارزة، حيث عايشت ذلك بتفاصيله، وتحت يدي الكثير من الوثائق مما سأستعين به لاكتب لك عنه، هذا النشاط هو "معرض رسوم الاطفال العراقيين في الشمال الاوربي".

٣

الاسرار...!

ما هي الاسرار يا ابنتي؟

كانت امي، جدتك، تقول لي:

ـ السر هو فقط ما يذهب مع الانسان الى القبر، دون ان يعلم به احد.

هي محقة، فكل ما تعدى شخصين، بوجود ثالث، مهما كان، حتى لو حفظ وصان ما عرف، فهو لم يعد سرا. ولا ادري لم ترد في بالي الان، النكتة التي طالما يرددها العراقيون سخرية من الانسان الذي لا يجيد حفظ السر، اكيد انك تعرفين هذه النكتة، حين يطلب احد من اصحابه الحفاظ على سره فيقول له احدهم:

ـ اطمأن ان سرك في بئر عميق القرار، او كما يقول المثل سرك في سرداب، انه محفوظ بيننا نحن اصدقاؤك الاربعين شخصا!

هل اكتب لك بعد هذه السطور كلمة مثل... ها...ها...ها... ها، حتى تضحكي. حسنا. ما الذي يدفعني للحديث معك عن هذا الموضوع؟ مسبقا اقول لك، ارجو ان لا تحاسبيني لاني ـ هنا ـ ربما ابدو لك منتهكا لخصوصيات صديق عزيز عندي وارويها لك. قلت لك اني هنا اكتب لنفسي، افكر معك بصوت عال، واني هنا اضعها بين يديك لتكون لك عونا بشكل ما، فلا اعرف متى ستكون هذه الرسائل بين يديك، ربما ستصل لك حين سيكون كل من ورد اسمه فيها بعيدا جدا، ربما تحت طبقات امنا الارض، وما يبدو فيها من اسرار يكون مباحا عند الجميع.

البارحة يا رحيل، جاء فوزي الى شقتي بعدما اتصل هاتفيا بشكل مفاجئ ليتأكد الى وجودي في الشقة. هذا الرجل يا ابنتي، مثلي ومثل غيري من الناس الذين وصلوا هذه البلاد بحثا عن سقف امن، ليعيش حياة طبيعية رغم صعوبة لغة البلاد وقسوة مناخها، وانطوائية اهلها. فوزي مع كونه انسانا عاديا له اخطاؤه وهفواته، ونقاط ضعفه وقوته، مثل غيره، وانا بحكم علاقتني به اعرف اشياء عديدة عنه، لكن يمكن القول انه نوع خاص من الناس. يعمل دائما ليكون مفيدا للاخرين. من اولئك الذين لا يطمحون لتحقيق مطامعهم الشخصية المباشرة، بقدر ما هم يعملون، ويبذلون ما عندهم، ويقدمون التضحيات من اجل الخير الاخرين. يدرجون الايثار ضمن مبادئهم الاساسية. هؤلاء الذين تحدث عنهم شيوخ اوروك وهم يقدمون وصاياهم لانكيدو ساعة ان عزم وكلكاميش على الذهاب الى غابة الارز لقتل خمبابا:

- ان من يسير في الطليعة يحمي صاحبه.

الى هؤلاء الناس، الذين يتقدمون الصفوف دوما، اجد نفسي انتمي يا ابنتي، ومهما قدمت وفعلت اشعر اني لا يمكن بلوغ ما بلغوه من قدرة على التضحية والبذل. فهم من اجل مبادئهم، مستعدين لتقديم حياتهم. هم من يمكن القول انهم صدقوا ما عاهدوا بعضهم البعض عليه. هؤلاء الناس اعتقد لا يمكن لهم ان يكونوا من اصحاب الاموال، ولا ينجحوا في ان يكونوا من رجال الاعمال، لانهم صريحون ومباشرون، ولا يجيدون العمل وفق المثل الفرنسي القائل " لا يمكنك القفز على عمود النور، لكن يمكن الالتفاف حوله". جاءني فوزي يا ابنتي مهموما جدا. لم يكن صعبا علي معرفة انه يحمل وجعا خاصا من شئ ما. كان مجروحا، مخذولا، مهانا. لم يكن صعبا علي ادراك ذلك. كنت اراه في عينيه المنطفئتين، وهما البراقتان دوما تعكسان حيويته. الاحساس بانكسار فوزي ولد الرعب في داخلي، فانا منذ تعرفت على هذا الرجل، وانا اعتبره المعادل الموضوعي لضعفي. اليه استند عند الملمات. به اقتدي في العديد من الاشياء، واليه الجأ لأستشيره في أمور ما حين ارى اني بحاجة الى مشورة. معه غادرت العراق عبر الصحراء، ومعه في الكويت عملنا في اعمال يدوية، في البناء والحراسة. ومعه كنت في اليمن الديمقراطية، وعملنا في التدريس، وكما ذكرت لك، في رسالة سابقة، بسببه انتقلت الى مدينة كيرافا. في البدء اخترت مدينة صغيرة وسط فنلندا، لكني وافقت فوزي حين احتد معي وقال:

- تعتقد يا كريم باعتزالك الناس، انك ستكون في راحة بال، اليس كذلك؟ انت واهم يا صديقي، انت تنفي نفسك داخل المنفى. بأمكانك ان تكون وحيدا وانت بين العشرات، مثلما

بامكانك ان تكون ضاجا ومزدحما بالاشياء الشفافة وانت وحدك. الامر عائد لـك اولا واخيرا، والطريقة التي يمكن خلق ذلك فيها.

اقتنعت وطلبت من فوزي مساعدتي في الانتقال لاكون الى جواره، ولم اندم على قراري ابدا.

حين جائني فوزي متالما تلك الليلة، يفرك اصابعه ويدوّر عينيـه، يقلـب الكتـب والـصحف بقلق دون قراءة سطرا، ينتقل بين القنوات التلفزيونية دون الاستقرار على شئ، تجرأت وسألته:

ـ اهناك ما يقلقك، شئ عن الاهل، او امر ما هنا؟

لم يجب. كان ينظر لي نظرات مثقلة بالحزن. كانت عيونه النرجسية محمرة، فقـدرت انـه كـان يبكي، مما دفعني للاعتقاد انه سمع شيئا ما محزنا ما وصله مـن العـراق، لـذا وانـا اهـم بتحـضير الشاي، سالته ثانية:

ـ هل بأمكانك الحديث لافهم شيئا؟

ابتسم ثم ضحك بخفوت. لم يكن ضحكا بقدر ما كان عواءا لحيوان جريح، مما زاد قلقي. فرك فوزي يديه وقال لي:

ـ دع الشاي جانبا، وهات لنا شيئا من الفودكا، ربما تساعدني على الكلام.

اعرف فوزي جيدا. ليس من نوع الرجال الذين يدعّون الشجاعة قولا، فندوب جروحـه الـتي نالها في المعارك في كردستان العراق، ضد قوات النظام الديكتاتوري، شاهد على شجاعته، لكنه رجل يمكن تلمس شجاعته في تفاصيل حياته اليومية، وقبل كل شئ شجاعته في رأيه وفي تحديـه لشئ اسمه الخوف. واذ طلب الفودكا، عرفت انه لا يبحث عن الشجاعة في رشفات الفودكا بقـدر ما يريد قوله هو خاص جدا ويحاول التحايل على خجله بالفودكا، ويطفـأ برشـفاته نـار الغـضب من شئ ما يستعر في روحه. بسرعة اعددت له المائدة، وضعت مـا تـوفر مـن المـازة والكـؤوس الصغيرة، والى جانبها نصف قنينة فودكا احتفظ بها للطوارئ.

دار الحديث اولا عن شؤون عادية، ولم اكرر سؤالي له عن اي شـئ. تعلمـت مـن الحيـاة تـرك الناس يتحدثون بأنفـسهم عـن انفـسهم لـو شـاءوا. صـحيح ان هنـاك ناسـا يمكـن اسـتدراجهم للحديث، حتى وان لم يخطر في بالهم ان يحدثوك، لكن فوزي يختلف عن هـذا النـوع. ربمـا اكتـسب هذا من تجربته السياسية، ومن حياته في جبال كوردستـان، الـتي صـلبت روحـه وطبعـه. بعـد الكأس الثالث، قطع فوزي حديثه وقال بعد التحديق طويلا الى عينيّ وكأنه يقرأ دواخلي:

ـــ مـاذا يعـني لـك الـسر يـا كـريم؟ ومـاذا يعـني جعـل شـخص محـدد يطلـع علـى اسرارك وخصوصياتك؟

لم اجب، لاني اعرف ان فوزي يعرف اجابتي جيدا. قررت تركه يواصل حديثه دون اي مقاطعة، اثناء الحديث حصلت توقفات. شربنا، اكلنا مازة، لحظات صمت. زفر فوزي بحرقة كذا مرة. كنت شخصيا صامتا واحس نفسي مثل تمثال بارز في جدار اوروك. كان فوزي يئن كالجريح، و حسبما يرد في ذاكرتي فأن ملخص حديثه يمكن ان يكون كالتالي:

ـ غاب عن بالي يا كريم أن الاصدقاء، ومهما كانوا فهم بشر ايضا، واليوم تأكد لي ان صديقا لي لم يصن اسراري التي اودعتها اياه، ضانا بذلك اني اقترب منه اكثر. اشد ما ألمني، هو ان ثمة تفاصيل خاصة تماما كنت قد شددت على صديقي باني اورويها له فقط، وله فقط. ولك تقدير خيبتي والاهانة التي لحقت بي وانا اتحدث مع ابنه فيزل لسانه ويفلت في شأن لم اخبر به احد سوى هذا الصديق؟ المشكلة الان يا كريم، كيف استطيع بعد هذا بناء علاقتي به من جديد. ثمة شئ انكسر. مثل صحن من الخزف، سقط وانكسر، مهما بذلت من جهد لاصلاحه فسيبقى متصدعا، مشوها!

ليلتها حاولت ان اكون اسفنجة تمتص حزن فوزي. ليلتها دار حديث طويل... طويل عن الاصدقاء والمحبة والثقة والاسرار. وكل ما كنت اخشاه يا ابنتي خلال جلستنا هو انهيار فوزي امامي بالبكاء مثلا. اذ كان يتحدث والدموع تترقرق في عينيه، وصوته لاكثر من مرة صار أجشا وكانه سينحب. لم اكن اريد هذا لفوزي ابدا. كنت اريد بقاءه امامي دائما بالقوة التي عرفته بها. بتلك القوة التي رأيته فيها ونحن في الصحراء، كنا اثنا عشر شخصا، يهددنا العطش ودوريات حراس الحدود. كنت اريد بقاءه بذلك الاصرار على بلوغ الهدف ساعة نفد منا الماء وانهار احد افراد القافلة وقرر تسليم نفسه. كان فوزي في الصحراء من الاصرار والقوة وايضا القسوة لحد خفت انه سيقتل ذلك الشاب. وهكذا يا ابنتي مرت ليلتنا متوترة ولكن دون مضاعفات، حيث وكما عهدته تماسك فوزي امامي باعجاب. وربما ساعدته احاديثي على ذلك. حاولت في حديثي معه ان اكون بعيدا عن دائرة خصوصيات علاقته مع صديقه. لم اسمح لنفسي حتى بسؤال فوزي عن اسم هذا الصديق، فهو له علاقاته الواسعة. في احاديثي مع فوزي، سعيت الى اعادة الثقة اليه بنفسه اولا وثانيا بعلاقته مع مفهوم الصداقة، فانا افهم ان العلاقة القديمة مع صديقه تهدمت من ساعة عرف فوزي بكل التفاصيل الي رواها لي. تحدثت معه عن "الحواشي الرخوة عند كل انسان" وهذا تعبير قديم، من ايام عملنا في اليمن، حيث كان احد زملاء فوزي، يسكن معه في الشقة يردده بأستمرار، وقد ضجر ومل فوزي من هذا التعبير، ويوما وفي حالة مزاح قفز فوزي وطرحه ارضا، وبيده سكين المطبخ، وسكان الشقة من زملائهم يتقافزون من حولهم وفوزي يصرخ:

- ساعدوني ساقطّع حواشيه الرخوة حتى نخلص منه ومنها.

بعدما غادرني فوزي في ساعة متأخرة جدا من تلك الليلة، واذ شعرت باني ساهمت شيئا ما في امتصاص غضبه، واستعادته لهدوئه، رحت تلقائيا افكر بك وبأمك. افكر بكم عميقا، وعافني النوم ليلتها، فعلى ضوء حديثي مع فوزي، كنت اتساءل: كيف لي يارحيل بناء ومن جديد ما تهدم بيني وبين امك؟ ثمة كسور عديدة حصلت في صحن علاقتي مع امك يا رحيل. كيف لنا لمها؟

٤

- لك حياتك الجديدة!

هكذا تقولين في واحدة من رسائلك القليلة التي صرت احفظها مثلما يحفظ المؤمنون نصوص كتبهم المقدسة، واحس وكانك ترمين نحوي حجرا. لا اعتقد ان هذا بوحي من امك، فعهدي بها لا تجيد مثل هذا الامر، لاننا تعودنا الحديث بموضوعية وبصراحة. وأن كان كلامك بتاثير شخص اخر، شبيه بتفكير المرحوم خالك حسن فهو حجر خشن، بل وخشن جدا يا غاليتي رحيل!

هل تعتقدين ان حياتي الجديدة ستأخذني منك، انت بالذات؟

انتم صارت لكم حياتكم الجديدة، انت وامك، وخصوصا امك، التي صار لها عائلتها الجديدة، ولكني بقيت مرتبط بكم بالرغم مني، بقيتم عندي تشكلون عائلتي التي تسكن روحي. انتبه فوزي، الى كوني في كل احاديثي مع الناس عن امك دوما كنت اتحدث عنها بعبارة "زوجتي"، رغم ارتباطها برجل غيري. حكت لي ام عامر الكثير عن معاناة امك مع زوجها صالح. ورغم كل محاولاتي للهروب منكم، وخصوصا من امك وباشكال مختلفة، سواء باغراق نفسي بالقراءة او بالعمل او بالتعرف الى نساء غيرها، الا اني كنت دائما اجد نفسي اقف عن شباك ذكريات امك. دائما اجد نفسي اقف عند شباك محاسن. تماما مثل كما كنت افعل خلال شهور خطبتنا انا وامك. اذ كنت اتعمد المرور في شارع بيت اهل امك، واتحين الفرص لاستوقف احد معارفي بحيث يكون وقوفي معه قريبا من بيت جدك واظل احوك واعلك الحديث والقصص وسط اندهاش صاحبي الذي لا اترك له فرصة للهروب مني، حتى تظهر امك في الشباك فارتوي بنظرة منها، واترك صاحبي واكتافي تحاذي السماء من الفرح مثل اي مراهق.

كيف تتصورين حياتي الجديدة هنا تحت سماء القطب الشمالي؟

نعم انها مليئة بالناس والكتب والعمل والافكار والحنين والهموم والدموع.

عشت طويلا عاطلا عن العمل، وكان هذا يسبب لي عذابا لا يطاق، فهنا اهل هذه البلاد يا ابنتي ينظرون بشئ من عدم الاحترام للانسان العاطل عن العمل، يعتبروه مثل الطفيلي يعيش على اموال الاخرين، " يأكل نقودا سهلة " ـ كما تقول الصحافة الصفراء ـ فالدولة ووفق قوانين الضمان الاجتماعي تتحمل الحد الادنى، حد الكفاف من نفقاته، وفق حسابات دقيقة ومعقدة، وهذا الذي كان وراء دوافع البعض الى اللجوء للاستفادة من هذه القوانين فاختلط الحابل بالنابل، فضاع المضطهد السياسي الحقيقي بين الباحثين عن حياة رخية ناعمة. فتحت البلدان الاوربية ابواب اللجوء امام العراقيين ليس لاسباب انسانية وسياسية فقط، بل ولاسباب مختلفة، في مقدمتها اسباب اقتصادية، منها الحاجة الى ايدي عاملة رخيصة وخصوصا في قطاع الخدمات. الاحصاءات الدائمة تشير الى استمرار هذه الحاجة، وهكذا ترين مثلا كيف ان مطاعم البيتزا، التي يديرها ويعمل فيها اللاجئون والمهاجرون، في هذه البلاد، انتشرت مثل الفطر، بل ونمت عوائل مافيا وفق ارتباطات عائلية وعشائرية لاحتكار هذا السوق من العمل، ولحسن الحظ لم يتمكنوا من التحول الى مافيات حقيقية على غرار المافيا الروسية، التي تنشط في هذه البلاد بشكل واضح. بالنسبة لي لا اعرف مهنة غير التعليم ولا اعرف موضوعا غير التاريخ، وكان علي بذل جهود كبيرة، لاتعلم اللغة بما يكفي، وادخل دورات تاهيلية، لاحصل على عمل مناسب. عملت مؤقتا في وظائف عديدة، ثم اخيرا حصلت على وظيفة معلم في مدرسة قريبة من مكان سكني. اشعر بسعادة في كوني اعلم ابناء هذا البلد اشياءا طيبة. ان حياتي هنا وتحت تاثير الحنين لكم تجعلني اتعلق بالوهم في استحضار صوركم. اشعر احيانا اني في جوانب كثيرة اشبه "ابو حسن العدناني". انت بالطبع لا تعرفين أبو حسن العدناني، لاحدثك عن هذا الانسان باختصار، ربما يعكس لك شيئا من حياتي الجديدة، بالحقيقة حياتنا هنا، فغالبية العراقيين لا يختلفون عني وعن العدناني.

اولا لاخبرك كيف تعرفت اليه.

كنت في زيارة الى فوزي، واجبرني مشاركته طعامه. ان كنت طباخة ماهرة مثل امك، فماذا تعتقدين يمكن لرجل عازب مثل فوزي ان يطبخ؟

فوزي يا ابنتي، رجل ظريف، يعيش لوحده، ولا يزال يرفض الزواج لاسباب تخصه. له قدرة على اعداد وجبات طعام من لاشئ، وهذه امور تعلمتها منه، وهو بهذا يتميز علينا، نحن حلقة اصدقائه ومعارفه. تصوري في مرة زاره صديق فنلندي ـ اسمه بيكا تويفونين ربما احدثك عنه لاحقا ـ وهو صديق مقرب لفوزي وبالتالي لنا، ولسبب ما تبعته زوجتة ـ اسمها كريستينا ـ الى

شقة فوزي، بدون موعد مسبق بحكم العلاقة الوثيقة مع فوزي، على غير عادة الفنلنديين هنـا، الذين يتمسكون بمواعيد مسبقة للزيارات حتى بين الاهل والاصـدقاء، وكانـت الزوجـة جائعـة، فقدم لها فوزي ما عنده من طعام. وبعد شرب القهوة طلبت الزوجة من فـوزي اعطائهـا وصـفة طبخة الطعام الذي اكلوه واحتار فـوزي مـاذا يـسمي الطبخـة الـتي ابتكرهـا لنفـسه، فـسماها "هالله هالله" ولم تكن الوجبة سوى اشعال فوزي للفرن ووضع فيه صينية الفـرن بعـد مـسحها بقليل من الزيت، ثم يفتح ثلاجته ويرى ماذا عنده هنـاك مـن بقايـا خـضار. يجـد حبـة بطاطـا فيقطعها ويرميها، ويضيف لها قليل من البصل، وربما جزء من خيار، ربما شئ من النقانق، ولا يترك حتى تفاحة لو كانت موجودة، ويرش على هـذا كلـه قلـيلا مـن الـرز او مـن المعكـرون او العدس، ثم يغرقها بالماء وصلصة الطماطة بعدما يضع قليل من البهارات التي يجيد اختيارها، وهكذا بعد ربع ساعة من نار هادئة تكون عنده اكلة غريبة تعتمد اساسا علـى مـا مـا يتـوفر عنده في الثلاجة فيخلطه مع بعض ليكون اكلة "هالله هالله" التي شاعت بـين الاصـدقاء بهـذا الاسم رغم ان احد اصدقائنا، من دائرة الاصدقاء المقربين، واسمه نـوري، يـسميها "زبالـة الله". واعود الى فوزي الذي دعاني الى اكلة كفتة عراقية يتفنن فيها في عجن لحم البقـر مـع البـصل وانواع خاصة من البهارت وقليل من الطحين العـادي وصلـصلة الطماطـة (مـرة اسـتعاض عـن اللحم بنوع من السمك الفنلنـدي صـغير الحجـم يـسموه سـيلكا silka بالـضبط مثلمـا يفعـل الفقراء في بلادنـا حـين لا يملكـون ثمنـا لـشراء اللحـم فيـستخدمون انـواع رخيـصة مـن صـغار السمك)، ومع الخبز العراقي الذي يجيد صناعته بنفسه في شقته، قدم لـي نـوع مـن الكـرفس لم اتناوله من قبل. كان طعمه متميزا. واخبرني انه كرفس من بذور عراقية، جلبها وزرعها بنفسه ابو حسن العدناني.

كيف تعرف فوزي على ابو حسن العـدناني؟ كـان ذلـك في مدرسـة اللغـة الفنلنديـة في العاصمة هلسنكي، فعند الطلاب عادة ساعة استراحة للطعام، يمكن فيهـا للطالـب تنـاول طعامه الذي جلبه معه. وحين عرف ابو حسن العدناني ان فوزي عراقي مثله، ورغم كونهم يدرسان في مجاميع مختلفة الا ان ابو حسن العدناني لم يعد يمد يده الى طعامـه الا بمـشاركة فوزي. وعرف فوزي ان ابو حسن العدناني، شرطي سابق هـرب مـن جحـيم الديكتاتوريـة، ودون ان يدري صار شاهدا على جرائمها، وكاد ذلك ان يعرضه للاغتيال، او الجنون. فر ابو حسن العدناني من العراق وجاء الى فنلندا بعـد معانـاة طويلـة. ولانـه كـان عـاطلا عـن العمل، فقد استأجر له قطعة ارض صغيرة، وهنا في الصيف يسمح القانون الفنلندي ضـمن

نظام خاص باستئجار قطع ارض صغيرة لغرض الزراعة، خاصة للمقيمين في العمارات السكنية وليس عندهم حدائق، وتكون هذه القطع الارضية عادة في طرف المدينة وبمجموعها تكون حديقة واسعة كبيرة. في هذه الاراضي يزرع اصحابها ما يشتهون وما يسمح به القانون. وابو حسن ابن قرية، وفلاح مجتهد، وفي قطعة الارض التي استاجرها، والتي لا تتجاز مئة متر مربع لا تجدين فيها زاوية لم يستغلها ابو حسن بزراعة شئ ما. ومن خلال علاقاته واصدقائه استطاع وعبر الاردن وكوردستان العراق الحصول على بذورعراقية لانواع مختلفة من الخضروات التي يمكن زراعتها في فنلندا. هكذا صار ابو حسن صيفا يقضي جل وقته في قطعة الارض الصغيرة. ورغم كونها ارض فنلندية، معلقة عند سقف العالم، تحت سماء القطب الشمالي، الا كون البذورعراقيه جعله يتخيل ويتعامل معها وكأنها مزرعة اهله في العراق. الى هناك اصطحبني يوما فوزي. المكان نسبيا يعتبر بعيدا عنا، حيث ركبنا القطار ثم الحافلة، الى مدينة مجاورة الى هلسنكي، ولكن بسبب اتساعها تداخلت مع اطراف العاصمة، وتسمى المدينة ايسبو Espo، وعند ناصية موقف الحافلة كان ابو حسن العدناني ينتظرنا بسيارته التويوتا القديمة، التي يسميها صديقنا نوري" ام الخير" والتي لا يمكن لغير ابو حسن تشغيل محركها، فهي بالنسبة له احسن صديق ما دامت تفي بغرضها وتصل به الى "ارضه"!

لاحظي قلت لك " ارضه ". نعم، حين التقينا ابو حسن قال:

ـ لاخذكم اولا الى" ارضي" ثم نزور البيت!

فابو حسن وجد في قطعة الارض الصغيرة معادلا ما لحنينه الى العراق من خلال روائح الرشاد والكرفس والسلق والبصل الاخضر والباذنجان والطماطة والخ. ولو قدر لك رؤية ما كان يتألق في عينيه من تعبير حب وهو يقلب تربة الارض او حين يقلع نباتات طفيلية باصابعه القوية. يومها فكرت كيف لو كانت هذه ارض اهله في العراق؟ ابو حسن يوهم نفسه بانه في بلده، في مدينته، في مدينة الرميثة، ليداوي عذاب روحه. اعتقد ان حالي مثل حاله. اوهم نفسي احيانا باني معكم. حين اتحدث مع صبايا بعمرك اتحدث معهن وكأني احدثك. اكون ميالا الى ارشادهن والى مساعدتهن، اعوض نفسي عن فقدانك بذلك، وها اني اكتب لك ربما اتمثل حكاية ابو حسن وعلاقته بارضه.

انت ارضي يا ابنتي يا رحيل!

٥

في رسالة سابقة، وعدتك بالحكي عن "معرض رسوم الاطفال العراقيين في الشمال الاوربي" الذي بادر ونظمه فوزي في هلسنكي وكيرافا بالتعاون مع "البيت العراقي في فنلندا"، وهذه جمعية عراقية اجتماعية ثقافية تاسست في مدينة توركو عام ١٩٩٤. حاول الكثيرين محاربة هذه الجمعية الديمقراطية بحجة ان مؤسسيها هم الشيوعيون، ولكن الناشطين فيها نجحوا في تحويلها الى جمعية ثقافية اجتماعية عراقية تضم مختلف الوان الطيف العراقي ولكن بدون الناس المحسوبين على احزاب الاسلام السياسي، الذين ظل كثير منهم ينظر للجمعية بعين الشك والارتياب. ولدت لدي فكرة الحديث لك عن المعرض وانا احاول تعريفك بفوزي، ولكن خطر لي ان الحديث عن المعرض وما يتعلق به، ربما يساعدك في رسم صورة لطبيعة حياتنا هنا، حتى يمكن لك حينها انت تتلمسي شيئا من "الحياة الجديدة" كما تقولين في احدى رسائلك القليلة. ساهمت شخصيا وبتواضع في الاعداد للمعرض من مراحله الاولى، واتاح لي هذا ان اكون شاهدا على الجهود المتميزة لفوزي والاخ حسين الزورائي والكاتب يوسف ابو الفوز واخرين من نشطاء البيت العراقي، لكن فوزي كان من الذين تحملوا القسط الاكبر من العمل. كان فوزي يجري هنا وهناك. اتصل بعشرات الاسر العراقية، ليدعوهم الى تشجيع اطفالهم للرسم. كان يدفع تكاليف المكالمات الهاتفية من جيبه الخاص، في وقت علّم المنفى بعض العراقيين البخل والاخذ من الاخرين لا العطاء. مع وصول اول المساهمات الفنية، بدا فوزي اتصالاته بالمؤسسات الفنلندية، لحجز القاعات، وتنظيم البوسترات، وتهيأت الدعوات. اقيم المعرض اولا في مدينة توركو. ثم انتقل الى هلسنكي وكيرافا. اقيم المعرض تحت عنوان "العراق في الذاكرة". لا ازال احتفظ باعلانات المعرض وببعض قصاصات الصحف التي كتبت عنه، بل وببعض الصور عن رسوم المعرض. كان حدثا لا يمكن لنا كعراقيين الا الافتخار به. اكاد اتخيل غضب رجال سفارة صدام حسين، والصحافة الفنلندية تكتب باعجاب عن المعرض وما اثاره من اسئلة عند الفنلنديين. عشرات الاطفال العراقيين المقيمين في المنفى الاوربي حاولوا الاجابة على سؤال: ماذا تعرف عن العراق، وماذا تتذكر من العراق؟ وكانت النتائج مذهلة جدا. كان السؤال الذي يعذبنا، خلال الفترة التي سبقت اقامت المعرض: ما الذي نتوقع رؤيته في رسوم الاطفال العراقيين في المنفى؟ اطفال بعمر الورود، من عمر المنفى العراقي الاجباري، اطفال "عراقيون" ولدوا في المنفى، ومن ولد "هناك" ـ وما اصعب ان يقول الانسان "هناك" في احاديثه عن وطنه

البعيد؟ ـ، من ولد في العراق، ترعرع وعاش هنا في المنفى. اطفال بعضهم يتعثر عند الحديث بلغة الوطن، وكثيرا ما يلوذون بلغة بلد المنفى للتعبير عن انفسهم، اطفال لم يروا العراق ابدا، لم يروه الا في ذاكرة الاهل واصدقاء العائلة. اطفال يحظون برعاية الاهل والمدرسة، لديهم مشاكلهم التي تتشابه مع مشاكل اقرانهم من اهل البلد، وان كان لهم مشاكلهم الخاصة فهي ترتبط بوجودهم في وطن اخر هو ليس الوطن ـ الام، وهذا يجعلهم يواجهون ظروفا نفسية واجتماعية اعقد مما يواجهها البالغون، فالاطفال هنا يا ابنتي يكونون ممزقين بين ما يريده الاهل وما تريده المدرسة والمجتمع الذي يعيشون وسطه. هم يا رحيل اطفال بين عالمين. اطفال بين ثقافتين. اطفال نادرا ما امتلك اباؤهم لعبهم الخاصة بهم، بينما يلهون هم الان بالعاب الكومبيوتر. اطفال بامكاني لو استرسلت لكتبت لك عشرات الصفحات عنهم. لوحات المعرض كانت متفاوتة في جودتها، وقد رتبت في قسمين، قسم لمن هم دون سن الثماني سنوات، حيث عالم الطفولة المحدود المليئ بالانطباعات الحسية، ومرسومة بشفافية وبفيض من الالوان المشرقة. اما القسم الثاني، وهو الذي لفت انتباه الزوار وكتبت عنه بعض الصحف المحلية، فهو لمن تجاوز سن الثماني سنوات وحتى سن الخامسة عشر. في هذا القسم يمكن للزائر التوقف يتملكه احساس بانه امام لوحات فنانين. افكار واضحة، عناوين للوحات، موضوعات، وفهم لاستخدام اللون. في تنفيذ اللوحات، كان هناك استخدام اكثر لاقلام الباستيل، والاقلام الخشبية، وايضا الالوان المائية، بل وكانت هناك اعمال بالزيت. واذ تتطلعين الى اعمال الفنانين الصغار، تجدين الحرب تلاحقهم الى المنفى، وحتى ان كان البعض يرسم بتوجيه او بايحاء من الاهل، فان فهمهم للحرب ودمارها واضح جدا في اعمالهم، ففي الرسوم تجدين نخيل مكسور، دبابات، جنود قتلى، بيوت تحترق، وعبر اكثر من لوحة يلوح لك وجه صدام حسين مكفهرا. خوفا من ان يفوت مشاهد اللوحة التعرف الى صدام حسين كتب فنانونا وبمختلف اللغات اسمه وكان عند بعضهم مقرونا بالصليب المعقوف. اذكر تماما تلك السيدة الوقور، التي اقتربت مني بهدوء، وانا اوزع تقريرا عن حال الطفولة في العراق، اعددناه، وترجمناه الى اللغة الفنلندية، ليكون نشاطا مرافقا للمعرض، وسالتني:

ـ لماذا يكره الاطفال العراقيون صدام حسين؟

لم يكن وجه صدام حسين وحده ما حملته صورالمعرض، كان هناك حمامات سلام تطير هنا وهناك. كان هناك الكثير من الخضرة والمياه الزرقاء والنخيل، وكانت هناك اهوار العراق، قصب ومساحات شاسعة من المياه وثمة مشحوف رشيق كانه طائر يشرع في الطيران. كانت هناك شمس، فيض من الشمس. خشيت احد الفنانات الصغيرات ان لا يتعرف عليها المشاهد

فكتبت الى جانبها "شمس عراقية". الفنانون الصغار وكانهم على اتفاق، وخوفا من عدم وصول افكارهم الى المشاهد لجأوا الى اسهل الحلول، فكتبوا تعليقاتهم على جانب اللوحة. وهكذا يمكنك ان تقرأي عبارات مثل "شجرة تفاح عراقية " و"بيت في العراق"، او "جد عراقي"، فبكلمة "العراق" المكتوبة بحروف عربية متعرجة، وجدوا حلا لمعضلة تقديم شيئا عراقي خالص. ابطال الرسوم المتحركة والعاب الكومبيوتر والمجلات المصورة وجدوا طريقهم الى العديد من رسوم المعرض. يقال يا ابنتي ان الشعر يجعل الاشياء الاليفة تبدو غير اليفة، اكثر سحرا، ورسوم هؤلاء الفنانين الصغار،كانت باقة قصائد تطاول قامة المنفى التي امتدت طويلا، فرسومهم بالوانها وخطوطها تشير الى انهم لم يبحثوا عن السكينة واللهو حين تقوم الام ولاجل اكمال اعمالها المنزلية باعطاء طفلها كراسة الرسم والالوان، هذه الرسوم، وخاصة رسوم الموهبين منهم، جعلتنا يومها ندرك بان اطفالنا يتلمسون وسيلة للتوازن مع العالم الذي وجدوا انفسهم فيه، وسط القلق النفسي وشعور عدم الاستقرار، حيث تبرز هناك اسئلة اكبر من قاماتهم النضرة. كانت رسومهم يا رحيل محاولة لتقديم اجوبة ما من خلال الالوان والخطوط فهناك فيض من طراوة النور والالوان تجدين فيها فيض من حنين، هو حنين ينتقل بالعدوى من الاهل الى الطفل، وهذا يجعل الطفل يحن الى شئ غامض الى حد ما، فنحن الكبار توقف الزمن عند بعضنا وكثيرا ما نتحدث عن اهالينا ومعارفنا ـ هناك! ـ وكأننا سنجدهم مثلما تركناهم، ولا نريد ان نصدق بان الاطفال كبروا وان الصبايا صرن امهات وانا شخنا بما فيه الكفاية. كان الاطفال في المعرض يرسمون صدى حنين الكبار لهذا الزمن الذي فقدوه ـ او تركوه ـ. آه يا ابنتي رحيل. لا يمكن لي ان اتخيل امك الا بتلك الصورة الملتاعة، يوم ودعتني، وهي تقف خلف الباب الخشبي، لبيت ام صاحب وهي تجهش بالبكاء، كنا اخترنا بيت صاحب ليكون مكان لقائنا الاخير. عز في نفسي طوال غربتي ان تلك الصورة، صورة الدمع، هي اخر ما ظل في ذاكرتي من امك. كادت هذه الصورة ان تفقدني صوابي في الكثير من المرات وانا ارى نساء يبكين لاي سبب، حتى لو في التلفزيون او السينما. آه اقولها الان بقوة، وتتكسر في قلبي بعنف.

اعود معك الى فنانينا الاطفال. لفت انتباه كثير من زوار المعرض، الحاح الاطفال العراقيين على اللون الازرق. شئ فطري دفعهم لذلك. كانوا يعملون على اللون الازرق وتدرجاته، الازرق لون السماء والبرد والوحشة وايضا لون الامل. أكانوا يعرفون ذلك، ام هو دافع خفي وحدّهم بروح الشعر والسحر؟ كان هناك كثير من الامل في القلوب الصغيرة!

لا يمكن نسيان ان فوزي، وقبل افتتاح المعرض، طلب من صديقنا الفنلندي بيكا تويفونين، اصطحابنا الى مدرسة اطفال فنلنديين في كيرافا تقيم معرضا للرسم. كان فوزي جادا في استعدادته لمعرض رسوم الاطفال العراقيين. وكان غرضه اطلاعنا على رسوم الاطفال الفنلنديين، وذلك جعلنا لا نتفاجا بما قاله لنا صديقنا بيكا تويفونين بعد افتتاح معرض اطفالنا العراقيين:

ـ اعطاني معرض رسوم الاطفال العراقيين في المنفى انطباعا بأن الاطفال العراقيين لديهم افكار اوسع من اقرانهم الفنلنديين، وخيالهم اكثر رحابة. هناك اسئلة كثيرة تثيرها رسومهم. لن يختلف اثنان على ان الطفل يستخدم الالوان التي تعطيها له، فالاطفال ذوو طبيعة متشابهة الى حد ما، لكن في هذا المعرض ثمة امر يختلف، ربما هو حجم المعاناة؟ في هذه الرسوم، ثمة مشاعر اقوى مما لدى اقرانهم من الاطفال الفنلنديين.

وربما كان هذا الكلام، غير مفهوم، لو لم تتدخل كريستينا، زوجة بيكا، وهي امراة درست علم النفس خلال دراستها الاكاديمية، لتقول لنا:

ـ انها تختلف عن رسوم اطفالنا الفنلنديين بنفس العمر، اطفالنا لا يرسمون بهذه الطريقة، انهم لا يعرفون السياسة. في رسوم الاطفال العراقيين هناك الكثير من السياسة، ويبدو هذا بسبب كون حياتهم تسير بهذا الشكل.

بعد نهاية المعرض، اقام فوزي حفلا متواضعا في شقته، كان هناك العديد من الاصدقاء العراقيين، وايضا الفنلنديين. منهم صديق صحفي، لفوزي، اسمه كالي كويتنين، الذي تحمس لاقامة المعرض وكتب عنه ريبورتاجا، احتفظ به في ارشيفي، وانا اكتب لك رجعت اليه، وسأرفق لك نسخة "فوتو وكوبي" منه مع الدفتر الاخضر، سوف لن تفهمي اللغة الفنلندية بالطبع، لكنه يحوي نماذجا من صور رسوم الاطفال يمكن ان تعزز كلامي لك. السيدة كريستينا تويفونين، واصلت معنا احاديثها عن المعرض، ولم تتوقف عن تكرار اعجابها:

ـ اتدرون ايها الاصدقاء، قبل تعرفنا اليكم، العراق كان بالنسبة لنا بلدا مجهولا. بلدا بعيدا في الشرق، مسلمون، عرب واكراد، حروب وديكتاتور اسمه صدام حسين بشوارب كثيفة، كان سببا لوجود لاجئين عراقيين في بلادنا وبالتالي نشاط المنظمات العنصرية. علاقتنا بكم بدأت توفر لنا معطيات جديدة. معرض الرسوم الاخير كان نافعا لنا جدا. بالنسبة لي، قدم بعض الاجوبة على سؤال: كيف يرى اطفال العراق المنفيون وطنهم الام؟ حقول شاسعة، مليئة بالخضرة والزهور، بيوت تحت ظلال الاشجار، ملابس بالوان براقة، مشعة، جوامع، شمس ساطعة، حارة. كان المعرض يقدم وجها اخر لكم. الصحافة عندنا تقدم السياسة العسكرية في العراق واخبار

الطاغية هناك. ولكن ماذا عن الناس؟ لم اكن احمل سؤالا مثل: كم عدد العراقيين الذين يعيشون في فنلندا؟ ماذا يعملون؟ ماذا يفكرون؟ ما هي همومهم؟ واسئلة غيرها. اشكر لكم مساعدتي لامتلاك اسئلة كثيرة، سعيت لمعرفة اجوبتها، وبمساعدتكم.

٦

الحنين في المنفى له اشكال عديدة يا ابنتي. ينعكس ذلك في الاحاديث، في رواية الذكريات، في اختيار الطعام، اشرطة الموسيقى والاغاني، في تفاصيل ناعمة، وبسيطة قد لا تخطر على البال. ايمكن مثلا ان تفكري ان صديقنا نوري، ونحن نعتبره ملكا للعبث واللاابالية بيننا، حين يكون في شقته لا يشرب الماء في كأس من الزجاج، بل في طاسة معدنية خاصة، جلبها له احدهم هدية من اسواق دمشق. يقول:

- حين اشرب الماء بالطاسة اغمض عيني واسمع امي تقول لي: عوافي!

قبل ايام، كنت مع صديق فنلندي في حمام البخار الفنلندي، ويسموه هنا الساونا، ويعتبروه من مفاخرهم. ولهم في هذه البلاد طقوسهم الخاصة في ارتياد الساونا، وهي جزء من ثقافتهم اليومية. اتدرين ما الذي حصل لي يا ابنتي، حين راح صديقي يحدثني شيئا عن طقوس وتاريخ الساونا في فنلندا؟ دون ان يدري ايقظ في داخلي شيئا غافيا. حك بقوة جرحا راح ينزف عبر قطرات العرق المتصبب تحت حرارة بخار الساونا. انا اعرف ما هو الان. ببساطة انه الحنين لكم، للناس، للوطن. كان الصديق يظن اني احاول ان اقدم له صورة عن ثقافتنا، ثقافة الحمامات، ولأعكس له كيف تكون في الشرق ثقافة الجسد، ولكني في الحقيقة كنت منقادا الى هواجس داخلية اخرى. رحت اروي عن تلك الطقوس الجميلة، التي تشيع الحيوية في نفوس العائلة العراقية، خصوصا ايام ما قبل الاعياد الاساسية، حين تقرر العائلة كلها الذهاب الى الحمام العمومي في المدينة. الرجال عند الصباح الباكرعادة، والنساء من فترة بعض الظهر. لا ادري هل تبدلت الامور الان ام لا زالت كما هي في هذا الخصوص؟ ايامنا كانت بعض الحمامات تخصص اياما للنساء فقط واياما للرجال كذلك، ولكن غالبا ما تقوم ادارة الحمام، في ايام ما قبل العيد بتقسيم اليوم الواحد ما بين وقت خاص للرجال ووقت اخر للنساء، خصوصا ليلة العيد التي نسميها (يوم الحلّس)، واعترف اني لم استطع ترجمتها له، فقلت له اسمها "ما قبل العيد". وانا احكي عن كل ذلك ساعتها كدت انسى ان هناك من يستمع الي. رحت اروي بصوت خافت وكأني اروي لنفسي صورا خالدة، كبذور محبة تنام تحت تربة الروح وراحت تستيقظ وتزهر تلقائيا. عادت اليّ تلك الصور المرشوشة بفضة المحبة حين كنت طفلا انتظر ايام العيد.

كانت عائلتنا يا ابنتي كما تعرفين فقيرة، ولا نستخدم دائما حمام البيت، فهو بارد اغلب الاحيان. كان بيت جدك في "محلة الشط" متواضعا حتى بالقياس الى بيوت الجيران، ولم يكن عندنا حمام بالمعنى الصحيح. كنا نستخدم البريموس النفطي لتسخين الماء في قدر من النحاس يحتل زاوية الغرفة الصغيرة التي نسميها الحمام، وكان صوت البريموس يصم الاذان، ويصل صوته الى الجيران. كانت جدتك تجد صعوبة في السيطرة على شيطنتي واستكمال حمامي وانا اواصل الصراخ من الصابون ابو الهيل الذي يحرق لي عيوني وجدتك تصرخ بي انه سينعم لي شعري. في مركز المدينة، ليس بعيدا عن موقع دكان جدك، الذي جزافا كنا نسميه "صالون حلاقة"، ولم يكن اكثر من دكان صغير يزدحم حالما يكون فيه ثلاثة اشخاص معا، هناك في مركز المدينة، كان يقع الحمام الكبير، هكذا كنا نسميه، وحتى بعد ان بنيت من بعده حمامات اكبر ظل يحتفظ بالاسم ذاته. في الحمام الكبير كنا نعيش اجمل طقوس الفرح. زيارات الحمام قبيل العيد تكون قصيرة، ولكن في الايام العادية كانت جدتك تجد الفرصة للقاء صويحباتها، وينتحين جانبا ليتحدثن في كل الامور، بينما تتوفر لنا الفرصة انا وصاحب لنلعب بالماء ما شاءت لنا الفرص، اذ بسرعة نجد لنا اصحابا يشاركونا اللعب وسط صراخ النسوة العاريات وتذمرهن، وحتى بعد ان تجاوزت عمر الطفولة بقيت اتخيل المشهد الطريف لمجموعات النساء العاريات المتجمعات في زوايا الحمام وهن يتحدثن بخفوت ويحاولن الهمس لبعضهن البعض وهن يتبادلن الاخبار ويتقصين الحقيقة عن خطبة فلان وزعل فلانة عند بيت اهلها وغيره. تحدثت عن هذا مرة انا وامك. اذكر تماما ذلك، بعد عودتها من الحمام الجديد، الذي افتتح ايامها، اذكر اني عامدا فاجأتها بسؤال:

ـ ما هي الاخبار؟

فصاحت بي مستنكرة:

ـ اي اخبار؟

فقلت ضاحكا:

ـ وكالة انباء الحمام!

فزعلت امك، لاني اعتبرتها من جماعة القيل والقال ونقل الحكي، وكان عليّ ارضاؤها، ثم تحول حديثنا الى مزاح. اذكر اننا يومها اتفقنا، انا وامك، على طرافة صورة النساء العاريات وهن يتهامسن وسميناها: " نساء عاريات يبحثن عن الحقيقة العارية". في حمامات النساء وبسبب الضجيج فأن الاصوات تتصاعد محتدة، ولا يمكن للجارات الا ان يسمعن ما تحاول بعض النساء اخفاءه، وهكذا تعود كل امراة من الحمام وهي تحمل كما هائلا من

الاخبار الجديدة، عن فلانة وعلانه، عن مشاريع خطبة وزواج، وحوادث اجهاض وولادات سرية، عن قصص حب وخيانات زوجية، عن اعتقالات سياسيين وهروب بعضهم من السجن. واتذكر جيدا كيف كان جدك، والدي، بعد عودة جدتك من الحمام العمومي يستمع بانتباه الى ما تقصه وان كان يفتعل عدم الاكتراث. كان جدك احيانا يفاجئ جدتك بسؤال لتعاود قص ما سمعت عن قضية محددة. كان الحمام وكالة نشطة لانباء المدينة، وليس غريبا ان كتاب الف ليلة وليلة حمل قصصا واساطير عن الحمامات. هل قرأتي هذا الكتاب؟ ارجو ذلك، كان من الكتب المحببة الى قلبي، بل ان ابناء جيلي كانوا يلتهمونه التهاما لطرافته، الان للاسف صار ينظر اليه من قبل بعض المؤسسات الرسمية الدينية ككتاب فضائحي وخليع فصدرت منه طبعات مشوهة. لو قرأتي الكتاب ربما ستقابلين قصة تلك المرأة التي كانت تروي لزوجها كل ما تراه في حمام النساء، ويوما قابلت امراة جميلة، وراحت توصفها لزوجها، وبادق التفاصيل مما يسمح بمعرفته جو الحمام وكان الزوج يزيد من الاسئلة والزوجة تفصل وهي مسرورة لاهتمام زوجها واستماعه لها، وما هي الا ايام حتى وجدت المسكينة انها بوصفها الدقيق دفعت زوجها للاعجاب بالمرأة وبالتالي اسرع وتزوجها لتكون ضرتها، فقضت عمرها وهي تندب حظها العاثر. لو عدت الان الى طفولتي البعيدة، سأجد اني حين كبرت قليلا، وتوفي جدك فجأة بازمة قلبية، وتوقفت جدتك عن اصطحابي الى الحمام، صار خالي صبحي يهتم باصطحابي الى الحمام. اتذكر دائما وقت الاستيقاظ فجرا. ليمسك خالي صبحي بيدي ويجرني عبر الازقة في وقت لا تزال السماء تنشر فضتها على ازقة مدينة الديوانية واحيائها الفقيرة. وهناك تحت القبة العالية للحمام، أظل أحدق في النافذة الواسعة في سقف قبة الحمام، التي منها يدخل الضياء للمكان المزدحم، فيصرخ خالي:

ـ هل رايت كيف انك اخرتنا فضاعت منا فرصة الحصول على مكان جيد.

والمكان الجيد، بالنسبة لخالي صبحي، هو الاقرب الى خزان الماء الساخن حيث بين الحين والاخر يهرع ليملأ السطل المعدني بالماء الساخن ليسكبه في الحوض المرمري امامنا، فحنفية الماء الحار لا تعمل دائما بشكل جيد. ووسط سحابات البخار، وصياح الناس، كان خالي يجلف جلدي بالليفة وهو يردد:

ـ سأنزع جلدك القديم، سأقشرك.

كانت اصعب مرحلة عندي، حين يبدأ خالي بغسل شعر راسي، كان باظافره القوية يحفر لي فروة راسي ويتسلل الصابون الى عيوني، فاطلق صرخات الاستغاثة:

ـ ويلي يا خالي... عيوني!

فيرد خالي بغضب:

ـ العمى لك العمى، يروح يزعل منك العيد.

وربما ستضحكين اذ سأروي لك كيف توقفوا عن ارسالي مع جدتك، امي، ولماذا صاروا يرسلوني مع خالي صبحي. هذه القصة، حدثت للكثير من الاطفال الشياطين مثلي، وستجدين العديدين يرونها وان باشكال مختلفة. في البدء كانت اذهب مع جدتك وخالتي ام صاحب، ولكن ام صاحب انتبهت لي جيدا، كيف كنت الاحق النساء بنظراتي واحدق في صدورهن العارية واماكن اخرى، بل كيف صرت انبه صاحب الى هذه المرأة وتلك وما عندهما، واطلق تصريحات طفولية كانت ام صاحب تعتبرها فاجرة، فراحت تردد امام امي:

ـ ابنك كريم عينه مالحة!

لم اعرف معنى كل هذا. كنت مسرورا بما ارى وما افعل. وكنت اقضي اجمل الاوقات مع صاحب ونحن نجري من زاوية الى اخرى، نتراشق بطاسات الماء البارد، ونفاجئ امراة في زاوية مختلية بنفسها تنزع شعر عانتها. واكون مسرورا جدا حين تعطيني جدتك برتقالة لاقشرها بنفسي والتهمها مناصفة مع صاحب. وحين علمت خالتي من زوجها ان الرجال يستنطقوني فاروي لهم ما كنت ارى في حمام النساء، قررت جدتك ارسالي الى حمام الرجال مع خالي. وانا اروي يا ابنتي تلك الذكريات العذبة للصديق الذي معي، كادت ان تفلت مني كرة خيوط الذكريات وتتشابك في ذهني، فمن سحب البخار المتصاعد من زاوية الساونا، كانت الصور تنهال علي متتابعة، مفعمة بالحب والبراءة. صرت احدث صديقي عن كل شئ له علاقة بالحمامات وطقوسها عندنا. حدثته كيف ان الحمامات عندنا هي المكان الذي يعاود فيه الانسان العراقي اكتشاف نفسه، والحنين لطفولته وعالمها الذي ابتعد وصار من المستحيل عودته. اذكر مثلا اني قلت له:

ـ الحمامات ومنذ قرون طويلة دخلت تفاصيل حياة وثقافة اهل العراق، ساعد على انتشارها انتشار الدين الاسلامي، فالحمام هو المكان الذي تمارس فيه شعائر الطهارة استعدادا لطقوس الصلاة ما للماء من ارتباط بذلك، وازداد عددها حتى ان كتب التاريخ تنقل انها في بغداد وحدها في زمن العصور العباسية بلغ عددها في القرن العاشر سبعة وعشرين الفا، وحتى لو نظرنا الى جانب المبالغة في الارقام على عادة المؤرخين، فأن الارقام تنطلق من واقع انتشارها.

كان صديقي يصغي بأنتباه شديد. كان الامر يبدو طريفا جدا، اذ وجدت نفسي أرتجل محاضرة في تاريخ الحمامات في بلادنا، لم يعزني فيها سوى ان اصطحب صورا فوتغرافية لعمارة الحمامات وشكل الاقواس وقاعات استبدال الملابس وزوايا التدليك:

- ان الحمام في بلادنا مكان له طقوسه وقوانينه يتجاوز وظيفته في ازالة اوساخ الجسد، انه مكان السعي الى الطهارة، وهو ايضا مكان لوعي الذكورة والانوثة، ليس بالمعنى الحسي المجرد، وانما من الجانب المعرفي من خلال ادراك صورة ذلك. يمكن تخيل صورة عشرات الرجال او النساء العراة وهم يتحركون ويمارسون طقوس النظافة والطهارة امام طفل بعمر عدة سنين، اي تراكم من الصور ستساعد على تبلور ثقافته حول جسده؟ وهو المكان الذي يشعر الناس فيه بالكثير من الالفة، فالعري هناك وبشكل ما يخفي جانب من الفوارق الطبقية.

كنت اتحدث مغمورا بحالة حب لما أروي، كان هاجس الحنين يكاد يخلع رتاج ابواب القلب. كنت أتخيل ملامح الذين احبهم حين ترد صورهم في بالي. كنت اتخيل صورة جدتك وهي تقبلني بحنو حين تنتهي عملية الاغتسال واكون نظيفا. كانت تلتفت لخالتي ام صاحب وتقول لها:

- صار مثل البلور.

فترد خالتك بمحبة:

- ملاك الله يحفظه.

كنت اتذكر كيف تواصل جدتك الاهتمام بصاحب، الذي كان يستجيب لاصابع جدتك اكثر من امه. كانت امي، جدتك، تحنو عليه اكثر من امه، فلا تقسو معه. كنت وانا اتحدث اتذكر شفتي خالي صبحي كيف ترتجفان وهو يرتشف الدارسين قبل ان يخلد قليلا الى النوم في غرفة استبدال الملابس. كنت اتذكر صوت مالك الحمام، جالسا خلف مكتب خشبي صغير وهو يقبض إجور المستحمين عند خروجهم، وكل زبون يمنح البخشيش لعامل الحمام، وهو هنا دائماً يجب ان يكون من فئة العملة المعدنية، وكأن ذلك اتفاق، حتى يضربها صاحب الحمام على سطح المكتب الخشبي فتترك صداها في المكان في ايقاع ونغمة محبوبة، ليرتفع صوت العامل، المقصود بهذا الاشعار:

- انعم الله!

كنت وانا اتحدث عن كل هذا ارى عيون صديقي وهي تتابع باهتمام اصابع يدي التي كانت تتحرك تلقائيا في الهواء المشبع بالبخار، وتتلوى كأنها تحاول تجسيد الملامح والصور، وبين الحين والاخر واذ يرش صديقي شيئا من الماء على الفحم المتوهج في زاوية غرفة النساونا، ويتصاعد البخار قويا، يلفح وجهي كالنار، كنت اتوقف، لارى مدى متابعته لحديثي واستمتاعه.

٧

ـ لك عندي عروس تعجبك!

هكذا قال لي شاخوان، وهو يلمظ شفاهه ويتحدث بطريقة تأمرية. وشاخوان من دائرة اصدقائي المقربين. وقسما بمنزلتك عندي يا ابنتي، من الدقائق الاولى لوصول شاخوان في زيارته المفاجئة الى شقتي الصغيرة، هجست ان هناك شيئا ما ومهم يحمله معه. ورغم انه عودني بزيارات خاطفة ليتحدث عن همومه العائلية بعيدا عن الناس والزبائن، الا اني ومن لمعة خاصة لحظتها في عينيه خمنت ان مجيئه هذه المرة لامر لا يخصه وانما يخص غيره، وخمنت ان في الامر شيئا طيبا ولا يوجد هناك مشكلة او سوء. لست عبقريا ولا منجما او قارئ كف يا ابنتي، ولكن هناك ثمة ناس يمكن بسهولة قراءة ما في دواخلهم، بعد فترة من المعايشة. كنا انا وصاحب لا نحتاج للحديث مطولا. كان صاحب يفهم ما اريد بمجرد ارسالي نظرة اليه، يفهم موافقتي او رفضي، زعلي او فرحي. وكنت استطيع قراءة بقية افكاره ما ان ينطق اول الكلمات، حتى اننا كنا نسبب ارباكا كثيرا لمعارفنا حين نلتقيهم. امك ربما تروي لك اشياء عن هذا. في فترة خطوبتنا، حين كان صاحب يشهد بعض لقاءاتنا، كانت امك ترصد هذا بشكل بشئ من الغيرة. كانت تريد بلوغ تلك المنزلة. هنا في منفاي، في "حياتي الجديدة"، يمكن لي بسهولة معرفة كيف يفكر فوزي، ونحن الذين ارتبطنا طويلا بعلاقات حميمة. ولا يمكن لنوري اخفاء مشاعره الحقيقة عني حين يقول احيانا عكس ما يريد. أما شاخوان، فرغم كونه انسانا هادئا، فهو يحاول الظهور كرجل غامض رغم بساطته. لا يتحدث عن نفسه كثيرا، رغم معرفته بأسرار الاخرين التي ساعدته ليكون خبيرا بالناس. الا ان شاخوان بالنسبة لي ـ ولاخرين ـ صار انسانا مكشوفا، واضحا خصوصا بعد حادث السيارة المؤلم الذي تعرض له وغير مسارات حياته. مع شاخوان يصح تماما القول بأن مرآة الانسان في عينيه، ففيهما يمكن قراءة ما بدواخله تماما. واذا اضفنا الى ذلك حركة شفتيه واصابع يديه، صار مفهوما جدا لنا معرفة دواخله. هذه المرة، حين فتحت الباب، ومن اول عبارات الترحيب بشاخوان، لاحظت انفراج شفتيه عن ابتسامة تأمرية. اصابعه هادئة وتتحرك بشكل عادي. وحين صببت له الشاي حرك ملعقة السكر بشكل هادئ جدا. تعلمت رصد هذه الحركات البسيطة عند الناس، وصرت افهم بعض الايماءات الخاصة بالعديد من معارفي، لارسم صورة الانفعالات الداخلية عند الشخص المعين. انا افهم معنى حركة نوري حين يحك مقدمة شعر راسه ويخفض رموش عينيه. واعرف معنى ان يزم فوزي شفتيه. ذلك اليوم كان عند شاخوان شئ من قلق ظاهري راح يلوح لي في حركة ساقيه وهو يبدلهما بين الحين

والاخر وجلسته على طرف الاريكة التي لم تعكس استقرارا، ولم يبدو لي الامر مخيفا لحد اثارة قلقي. قررت الانتظار وتركه يبدأ بما جاء خصيصا من اجله، وراح يخفيه بسؤالي عن عملي في المدرسة الجديدة التي انتقلت اليها بعقد عمل مؤقت جديد. لم اتوقع السوء لذا رحت اتصرف بأنشراح، وحين نطق بكلمة "عروس"، ومضت في بالي صورة "ثاوات"بسرعة. فهم شاخوان ذلك فورا، وكأنه هو الاخر يقرا افكاري:

ـ اخ ابو رحيل، انت تعرف منزلتك عندنا، وخصوصا عند دلسوز. انها تعتبرك اخاها واكثر. وبدون مقدمات كثيرة، تحدثنا البارحة عنك وعن حياتك لوحدك واقترحت دلسوز ان نقترح عليك فكرة الزواج من ثاوات، نحن لم نتحدث مع احد بالفكرة، ولا حتى مع البنت نفسها، لأن يهمنا معرفة رايك اولا.

ثاوات ـ يا ابنتي ـ فتاة كوردية. من كوردستان العراق. لو تعرفين يا ابنتي ما معنى اسم هذه الفتاة؟ بالصدفة عرفت ذلك. لم اسأل عن ذلك مباشرة، فانا حذر جدا في شؤون النساء، خصوصا العراقيات، او كما يسميهن نوري: "الصنف المحلي"، فرجل عازب مثلي، ربما يسئ البعض فهم سؤاله، وكثيرا ما يحصل هذا في حياة المنفيين، فأي سؤال حتى ولو كان بريئا يدفع السامع لرفع اكثر من علامة استفهام. اسم "ثاوات" كلمة كوردية تعني: الامل! كم كان مصيبا من اختار هذا الاسم لهذه المرأة. انها امرأة تتفجر حيوية. في كل مرة القاها اراها وقد تغيرت نحو الاحسن. انها نموذج طيب للمرأة الشرقية، التي احسنت الاندماج مع المجتمع الاوربي. تأخذ منه كل ما هو نافع وطيب. ترفض كل ما هو بالي ومتخلف في حال المرأة الشرقية، وتسعى لبناء شخصيتها بالاعتماد على نفسها. تتحول الى انسانة تفهم جيدا علاقتها بالاخرين وتعرف حدودها. كان لها قصة حزينة في زواج فاشل. لكنها بعد ان تحررت من قفص الزوج الظالم، انطلقت بكل حرية في عالم المدنية والحياة. تعلمت الكثير مما هو جيد بجدية ومثابرة. صار البعض يرشقها بسهام النقد لا لشئ الا لانها امرأة مطلقة وتعيش لوحدها ولها علاقات كثيرة مع الناس. لم يعد يعجبهم فيها شئ. حتى انهم عابوا عليها كونها قصت شعرها الطويل بتسريحة سائدة بين النساء الفنلنديات، كان تبريرها بسيطا جدا:

ـ لست اعيش في قرية، ولا وقت لدي للاعتناء بشعري، وساظل ثاوات سواء بشعر طويل او قصير!

راح بعض الناس للاسف يتناهشون حياتها بالسوء، وكأن لا شاغل لديهم سوى الاساءة للاخرين. مرة يروون انها شوهدت في مسبح بالمايوه مع رجل فنلندي. ومرة في مرقص او

مشرب. ولا يتركون الامر مجردا اذا لم يظيفوا اليه شيئا من بهارات الشكوك والاكاذيب، وكأن الذهاب الى المسبح جريمة، او ان احتساء فنجان قهوة مع زميل عمل فنلندي او غيره لابد ان يعقبه ليلة حمراء. صارالبعض يعيب عليها طريقة اختيارها لملابسها. حتى بعض اصحابنا المقربين، كانوا تحت ستار النكتة يرمونها بشئ من انتقاداتهم. نوري مثلا، وهو مغرم باطلاق اسم ولقب خاص على كل شئ، سماها "سكالي"، والذي انتشر بين حلقة من معارفنا، لانها كانت ترتدي في ايام الشتاء، ملابسها بطريقة ممثلة امريكية في مسلسل امريكي تلفزيوني معروف. واعترف لك يا ابنتي بانها كانت تبدو جميلة بتلك الملابس، وكرجل هنا، وبشكل مجرد، اقول اثارت انتباهي مرة بطريقة حركتها الرشيقة في مغادرة سيارتها يوم زارت مطعم شاخوان وكنت صدفة هناك. في الصيف، واذ ظهرت مرة بثوب يكشف شيئا من نهديها قامت القيامة عند الكثيرين. قيل حتى زوجها السابق تدخل في الامر بحجة ان له حقوقا ما عليها تسمح له بتنبيهها فصاحت به:

ـ اية حقوق لك عندي؟ واي جريمة ارتكبت؟

ولم استغرب تلك الازدواجية عند الكثيرين الذين يعيبون على ناوات طريقة لبسها، ولكنهم لا ينتبهون الى افراد في عائلتهم. اقدم لك شخصا اسمه فرمان. ولا اتوقع مستقبلا طيبا لهذا الرجل فتأريخه ينبأني بذلك. شخص مخادع، عنده الغاية تبرر الوسيلة، وغايته الدائمة تحقيق الربح الوفير في اعمال تجارية غالبيتها غير شرعية. هذا الرجل بلغني انه قال:

ـ الا يوجد أهل لهذه الفتاة ليردعوها؟

قال هذا الكلام، وهو يرى ناوات في مركز المدينة تتبضع وكانت ببنطلون ضيق وتضحك بصوت جذل مع زميلة فنلندية لها. بعد ايام قليلة، في مركز التسوق الكبير في هلسنكي، المعروف هنا باسم"اسواق منطقة المركز الشرقي "، ويعتبر اكبر الاسواق المغلقة في شمال اوربا، حيث يستقبل الاف الزوار يوميا، وفيه كل البضائع، وانواع الخدمات، انه يا رحيل مدينة مغلقة، فرغم درجات البرد تحت الصفر خارج هذا السوق، يمكن للانسان التجول هناك بقميص خفيف وكأنه في ايام الصيف. في هذه المدينة المغلقة، وسط الهرج والمرج، وحيث كل العراقيين والاجانب يرتادون هذه الاسواق ولهم فيه امكنة لقاء محددة، رايت بنفسي ابنة فرمان. كنت رأيتها قبل ذلك عدة مرات سابقة مع امها أو ابيها، في احتفالات ومناسبات، وكانت هذه المرة مع صاحبات لها بعمرها. انها فتاة مراهقة، لا تزال تدرس المتوسطة، وكانت ترتدي ملابسا فاضحة ولا تعبر عن اي ذوق، ورغم فهمي ان عوامل عديدة تقودها، مثل ابناء جيلها، لطريقة

اللبس التي ربما تعتبرها تمردا على السائد، الا ان المعايير التي يتحدث بها والدها عن ناوات كان يجب ان تكون عادلة. واذ تكون ناوات تحت طائلة ملاحظات البعض لا يعني هذا انها منبوذة من الناس. لا ابدا يا ابنتي. العراقيون في هذه البلاد على قلة عددهم، اذ يزيد قليلا على اربعة الاف عراقي، ويشكل الاكراد فيهم النسبة الاكبر، تقريبا ٥٦٪، فهم ناس منشغلون بتفاصيل حياتهم اليومية، بتربية ابنائهم، باعمالهم، بشؤون ما تبقى من عوائلهم في العراق المحاصر بالجوع والحروب والموت. غالبية العراقيين في المنفى اناس بسطاء، هربوا من ظلم الديكتاتور ومن خطر الموت في حروب النظام، وجاؤا للبحث عن الامان. ورغم ان نسبة غير قليلة من العراقيين يعيشون بدون عمل، الا انهم يقتصدون بمصاريف حياتهم، ويحتزأون من تكاليفها، ليوفروا شيئا من المال يساعد اهلهم على صعوبة الحياة. ويبذل الناس جهدا لايصال ذلك الى اهاليهم في العراق، بحيث برزت مهنة جديدة لبعض العراقيين، هي تحويل الاموال الى داخل العراق وفق عمولات خاصة، وما هم بالحقيقة الا وكلاء لتجارعراقيين داخل العراق، وجدوها فرصة لتهريب اموالهم خارج العراق، حيث يسلم التاجر مبلغ المساعدة الى العنوان المعني داخل العراق، بينما يكون الوكيل قد استلم مبلغ المساعدة وحوله الى حساب التاجرفي دولة اوربية، بعد ان يستقطع الوكيل عمولته، وهكذا واذ يظن بعض العراقيين ان التاجر الفلاني يساعدهم، فهم في الحقيقة يدفعون عمولات مالية من جيوبهم ليهرب التجار اموالهم خارج العراق. لو عدت لاواصل حديثي عن ناوات لقلت لك توجد لها علاقات طيبة مع الكثير من العوائل، وانا شاهد على ذلك، بل والتقيها مرارا في اطار اللقاءات والمناسبات التي تنظمها هذه العوائل. وانا التقي ناوات بين الحين والاخر ومعها صديقات عراقيات، عربيات او كرديات، كنت المس يا ابنتي ان لهذه الفتاة شخصية مؤثرة صارت تنمو ولها تاثير بين زميلاتها ورفيقاتها، حتى اني فكرت انها ربما تصلح زوجة لصديقي فوزي اكثر من غيره، لانها بحاجة الى انسان متنور مثله يفهم طريقة تفكيرها الجديد.

واذا اعود لاقتراح دلسوز وشاخوان، فاعتقد ان الذي دفعهم لذلك هو ما بدر مني في حديث عام من اطراء لشخصية ناوات ودفاعي عنها واعتبارها مثالا جيدا لنساء خرجن من قمم الشرق لينطلقن في حياة جديدة. كان شاخوان يكرر يومها:

ـ لكني اراها تندفع اكثر مما تسمح به عاداتنا وتقاليدنا.

فقالت زوجته دلسوز بصوت رن كالمعدن:

ـ ما دمتم معجبين بها، وقلقين عليها، عالجوا الموقف!

ولحظتها فاتني معنى ملاحظة دلسوز، ولكن مع زيارة شاخوان الى شقتي، واعلانه عن اكتشاف "عروس" حتى ترابطت عندي الامور. وتطلب مني ذلك اليوم جهدا بالغا لازوغ من اقتراحهم. ليس لدي ثمة ما يسوء ضد ئاوات كانسان، كما اسلفت لك. امراة جميلة، رشيقة، ذكية ومجتهدة وصارت تتقدم بسرعة على دروب المدنية. تحولت بسرعة من فتاة منطوية تبدو كقروية ساذجة الى نموذج يلفت الانظار. رفضت عروض زواج من رجال صارت تفهم انهم لا يختلفون في عقليتهم عن زوجها السابق. ادرك انها تصلح زوجة طيبة ولكن لغيري، وليس لي. لماذا؟ ستقولين ذلك بالتاكيد!

مرة اخرى تقف امك يا رحيل حاجزا امام فكرة الاقتران المصيري مع امراة غيرها!

لا يعني هذا اني لم اعرف نساءا من بعد امك. لا يا ابنتي، لا اود الكذب عليك او اخفي شيئا. ربما في رسائلي اليك اخفي جانبا ما من الصورة، ليس من باب الكذب وعدم الصراحة كما عاهدتك، ولكن لاعتبارات قد تكون تحت تاثير الانقياد لعقلية الابوة الشرقية المتجذرة في اعماقنا. لكن وكما وعدتك سأسعى لنشر الحقائق امامك بقدر استطاعتي. وهنا لا اريد اخفاء كوني لا ازال متوجسا من طريقة فهمك وتقبلك لهذه الرسائل. اذ لو حدثتك بالتفاصيل عن كل ما واجهني ويواجهني فأني سأتساءل: كيف ستنظرين الى ابيك؟ لو حدثتك بتفاصيل علاقاتي النسائية مثلا، يا ترى بأي لغة ساروي لك ذلك؟ ورغم اني وامك الان لا يوجد بيننا سوى الارتباط الروحي، لكني مع ذلك افكر: كيف لي معرفة ان هذا لا يصل الى امك؟ وعندها سيبرز امامي سؤال اخر: كيف ستتعامل امك مع هذا فيما لو نقل اليها؟ بل وكيف ستنظرين انت الى ذلك؟ اذن لأعود واقول لك بصراحة مطلقة، كما عاهدتك في اول صفحات رسائل الليالي الخضراء، اني عرفت بعض النساء بعد امك، وتحديدا بعد ان بلغني خبر زواجها. ربما كان شيئا من رد الفعل. اقول ربما، لاني الان ادرك تماما انها كانت مجرد محاولات فاشلة لطرد شبح امك من خيالي وتفكيري. حين وصل خبر تطليقها السريع مني، شعرت بالنقمة من خالك حسن وكان بودي ساعتها ان اشرب من دمه. فخالك انجز طلاق امك مني بسرعة. كنت اعرف الى اي مدى سار خالك حسن في احلامه وافعاله للتقدم في مراكز مهمة في الدولة القمعية، تمنحه السطوة والسلطان، تدفعه رغبات زوجته وعلاقاتها المشبوهة مع اقاربها المتنفذين في حزب السلطة. ومن غير هذا يا ابنتي ادرك جيدا مدى جهنمية الية الدولة الديكتاتورية التي تسحق من يتورط معها وتجعله يوما بعد اخر ينتمي اليها بالافعال المدانة. من يضع اصبع قدمه في مستنقع الديكتاتورية وحزبها الشوفيني لابد ان يمد ساقه كله او بعضا منه. لا يمكن لمثل هذه السلطة ان تكتفي بتلويث الاصبع وحده! كان خالك يريد التخلص من عار زواج اخته من رجل لا ينتمي الى الة الدولة الديكتاتورية

وحزبها الاوحد وفكر قائده الذي يطمح لان يكون بسمارك العرب، فاستغل غيابي الطويل، وبعدي عن امك، واجبرها على طلاقي. الامر لم يكن مفاجئا لي ابدا. شعرت بالذنب يومها لان تتعرض امك لهذه المهانة بسببي. ادرك ان خالك حسن لم يجرأ على هذا لو كان جدك، والد امك، حيا. كان جدك انسانا رائعا. كنا انا واياه اصدقاء. كان من زبائن صالون والدي، وهناك كنت التقيه، وكنت استمتع بأحاديثه، وكان محبا للقراءة، ومنه استعرت بعض الكتب التاريخية. وحين تعارفنا انا وامك، وتبلورت فكرة الخطوبة عارض خالك حسن بشدة، وايده اخرون من العائلة، كنت اعرف ان ذلك بسبب خوفهم من خالك حسن، لكن جدك، كان له القرار الفاصل. بعد اعتقالي، واطلاق سراحي وتهديدي، كان قرار سفري ملزما. حياة او موت. وكنت الى حد ما مطمأن على حال امك، لايماني بكون جدك لا يمكن ان يخذلها، لكن بعد الوفاة المفاجئة لجدك وبغيابي، صفا الجو لخالك حسن فصار يقرر ما يريد. هذا الاسلوب الحقير اعتمده النظام الديكتاتوري لمحاربة غالبية معارضيه. اعرف الكثيرين ممن جاءهم خبر تطليق زوجاتهم لهم. وهناك عديدين ممن تواصلوا مع زوجاتهم سرا رغم طلاقهم الذي بقي صوريا، ونجح القليل في تهريب زوجاتهم الى خارج العراق ليعاودوا الارتباط والحياة معا. خلال وجودي في الكويت، بذلت كل جهدي لتلتحق امك بي الى هناك، ارسلت المبالغ تلو المبالغ. استدنت وحصلت مساعدات من اصدقاء، وكنت ارسل ذلك بيد رسل أمناء. تجنبت الكتابة حتى لا تتورط امك بشئ يثبت اتصالاتها معي. فوزي كان معي في الكويت، وكان الى جانبي فقدم لي وجوده عونا كبيرا، لكن خالك حسن افشل كل مسعاي. صار عينا لرجال الامن والمخابرات يرصد تحركات امك. ولا انس هنا موقف فاطمة، ابنة خالي، اخت صاحب، تلك المرأة التي وقفت يومها بشجاعة مشهودة الى جانب امك وكانت صلتي السرية بأمك من خلالها. كانت عيون الشر الى جانب خالك ترصد كل حركة من امك. حين اضطررت الى السفر الى عدن، الى اليمن الجنوبي، بعد ان تعرضنا الى ملاحقات سلطات الامن الكويتية بسبب عدم اقامتنا الشرعية، وساعدني فوزي من خلال علاقاته الحزبية بالحصول على عقد عمل للتدريس في عدن، سارت الامور الى المزيد من التعقيد، واكثر صعوبة. تعذر عليّ مواصلة الاتصالات مع امك، وانقطعت لحين. آآآآه لوتدرين يا ابنتي اي عذاب سكنني تلك الايام. هناك، في عدن، في حر لاهب، يشبهونه بحر الجحيم وصلني، يا ابنتي، خبر تطليق امك مني، فزاد الجحيم جحيما. ولم يمض كثير من الوقت حتى وكالصاعقة جائني خبر زواجها. كنت ادرك يومها، ان امر وصول هذه الاخبار الى المنفيين وبسرعة لم يعد سرا. كان النظام يحرص على ذلك. ايامها كشفت صحف المعارضة ذلك وادانته. كتبت صحيفة "طريق الشعب" مقالا شجب الجانب اللاانساني في هذه الممارسات. هذا اسلوب مورس في اكثر من بلد عربي، وكأن الحكام العرب

يتوارثون خبرتهم في ظلم الناس والاستهانة بحقوق الانسان. ولا اعرف ما الذي كان سيحصل لي، لو نجحت مخابرات صدام حسين وفعلت بي مثلما حدث مع شخص اعرفه. سربت مخابرات صدام اليه صورا لحفل زواج زوجته من رجل اخر يكرهه. كان عدوه ومن اسباب مغادرته الوطن، وكانت طعنة قاتلة مع الكثير من النذالة. كاد هذا الشخص ان يجن يومها. تصوري وهو يرى زوجته في ثوب زفاف مبتسمة وهي تضع قطعة كيك في فم عريسها المنتفخ غرورا. كان اختيار الصورة شيطانيا. لقد حز ذلك الشخص وريده تلك الليلة، واكتشف رفاقه الامر بالصدفة وانقذوه. بالنسبة لي حين بلغني خبر زواج امك تمثلت لي فورا صورة خالك حسن وهو يحقق انتقامه مني بابشع صورة، فتحول كل غضبي الى شخصه. حين بلغني خبر مقتله على يد ثوار انتفاضة اذار، شعرت انهم اشفوا غليلي منه وانقذوني من جريمة قتل ربما سارتكبها يوما لو عدت وقابلته. ردا على زواج امك لم اغرق نفسي بالخمرة كما فعل من كان في حالتي، ولم اتلف اعصابي بالسهر والتدخين والبكاء. كان الجرح عميقا، وكان عليّ مداواه نفسي وبهدوء. اهتممت اكثر بعملي، بقراءاتي، وبدأت اسمح لنفسي بمعاشرة النساء ربما كطريقة للنسيان. لم اكن متهالكا على ذلك، ابدا... ابدا، يجب ان تفهميني في هذا جيدا. انت ابنتي واسعى للحديث معك كصديقة متفهمة. في اليمن تعرفت على امراة يمنية، طيبة، مدرسة متدربة، تعمل في نفس مدرستي، وكانت تصغرني قليلا، ومتحمسة جدا للزواج وبناء اسرة، ولكن ثمة حاجز سري كان يمنعني من اعبر حدود الاعجاب والمودة اليها. لم اجرؤ لأقول كلمة "احبك" لامراة غير امك. كأن ذلك امتيازا لها وحدها. حتى امك يارحيل لا اعتقد اني كنت اكرر كثيرا كلمة "احبك" معها. اسأليها. مرات قليلة التي قلتها لها ذلك، لكن امك كانت تشعر بذلك. كنت احاول ان اجعل كلمات الحب تتحول الى شئ مادي، يمكن تلمسه باليد، لكن ريح الديكتاتورية بددت كل احلامنا. في الشهور الاولى لحمل أمك بك، كنت اقضي جانبا من المساء، احدق الى عيني امك الشهلاوين، واحرك خصلات شعرها الاسود الجميل، وامسح لها بطنها برفق، واقرب راسي هناك واحدثك. كانت امك تضحك مني. كنت اروي لك قصصا وطرائف واقرا لك اشعارا واغني، رغم ان صوتي اجش وحزين، فأن امك تكون في غاية السرور، رغم انها مرات تقول لي:

ـ يا مجنون، اتصدق ما يقول الاطباء بان الجنين يسمع كل ذلك؟

وكنت مجنونا بأمك. حبها فخر قلبي وايبسه ولم يعد فيه مكانا طريا لتبصم عليه امراة غيرها. كان اقتراح دلسوز وشاخوان بالزواج من ثاوات يصلح لرجل غيري. ربما فوزي، ربما نوري. شخصيا حاولت ان اوحي لهم بان فوزي هو الافضل، لكني من يومها قررت ان اكون اكثر حذرا في اطراء اي امراة حتى امام الاصدقاء.

القسم الثالث

الفصل الاول

١

مع كؤوس الفودكا، تحرر لسان فوزي عطية، وراح يتحدث وكأنه ينظر الى شاشة عريضة، تمتد امامه، تتسع مع تقدمه في الكلام. لم يحاول كريم مطرود مقاطعة فوزي، سواء بسؤال، او بفعل ما. أستكان على مقربة مفترشا ارضية الغرفة الصغيرة على السجادة القماشية، التي اشتراها مع آريا من سوق التجهيزات المنزلية المستعملة، لتبقى ذكرى منها، حيث غسلاها معا في الساونا، وبعدما نشفت، فرشها على الارضية الخشبية للشقة ومارسا عليها الجنس وليس سوى شرشف خفيف تحتهما، بعد توقف لهاثهما، وجدت آريا خيوط السجادة قد تركت اثارها حزوزا مطبوعة على ظهرها وردفيها. ترك فوزي جالسا على الاريكة الوحيدة في الغرفة، يسترسل في احاديثه، في رواية ما يريد بالشكل والطريقة التي يرغب. فهم كريم تماما ان مزاج فوزي متعكر وكئيب في هذه الزيارة، يبدو ليس كما يعرفه الاخرون، قويا، متفائلا. كان فوزي بقدر ما يريد الحديث واسماع كريم اشياء معينة، يريد افراغ طاقة الغضب التي تجتاح كيانه. كان فوزي لا يتحدث لاحد بقدرما كان يحدث نفسه. يروي شيئا ما لذاته، ويدقق بتمعن في الصفحات التي يرويها من حياته وكأنه يبحث عن شئ ما يفتقده فيها. شيئا ما ربما يكون قد مر به دون انتباهه اليه. لم يكن يبدو كباحث عن دروس او تجارب، او يحاول تقييم ماضيه، بقدر ما كان يبحث عن خساراته. لم يكن يبحث عن اسبابها، لمحاولة تعويضها، بقدر ما يسعى لرؤية نفسه، كيف كان، وكيف تصرف، ولماذا؟ عاشر كريم هذا الرجل كثيرا، في محطات مختلفة من حياته، وكان يراه كيف يحزن حين يكون هناك خطأ ما، سواء من قبله او من قبل الاخرين. لطالما قال له:

ـ يا كريم لقد كبرنا ونضجنا بما يكفي لنخفي اخطاءنا ونجامل الاخرين بعدم كشف اخطائهم.

تحدث فوزي مطولا. واذ ادركا بأن نوري سوف لن يلتحق بسهرتهم كما اتفقوا، راحت احاديثهما تأخذ طابعا خصوصيا. كان مزاج نوري رائقا على الهاتف، وحاول السخرية من

غريب عتوي الذي صادف وجوده في مطعم "نيران نوروز"، لكنه لم يعتذر بعدم الالتحاق بهم، ولم ينس القول:

ـ سأحاول، ولكن ليس وعدا!

شربوا كل ما حوته الزجاجتان من خمرة، ووجد كريم لديه بعض النبيذ الاحمر شربوه ايضا. في جهاز التسجيل، كان "فؤاد سالم" ينوح بصوت خافت بأغان عراقية قديمة، لم يسمع كريم منها سوى نحيب الكمان وتنهدات العود، مع موالات حزينة حفظها مثل الاف العراقيين، بعيدا عن وطنهم:

(ـ دقيت بابك يا وطن

وانا الغريب ابابك

بس قلبي يسمع نغمتك

أرضى يذلني عتابك)

تطوع فوزي وأعد القهوة على الطريقة الفنلندية، وصبها في اكواب كبيرة، وراحا يتناولان معها بقايا كعكة اراد كريم رميها لاعتقاده انها ربما تكون تلفت بعد وجودها عدة ايام في الثلاجة، لكن فوزي رجاه تركها، مذكرا اياه بايام دراستهم الجامعية، كيف كانوا يرمون الطعام القديم، ثم حين يكتشفون ان كل الطعام نفذ لديهم يسرعون الى سلة مهملاتهم يبحثون فيها عن الصالح للاكل من فضلاتهم، ويرددون:

ـ تنفع!

وهاهي الكعكة نفعت، وهاهو فوزي نام حالما رمى نفسه الى السرير، تاركا كريم محلقا في استعادة كل ما رواه له، مفكرا بمصائر الناس، ومتذكرا ما يردده والده:

ـ حين ترى مصائب الاخرين، تهون مصيبتك.

ادرك كريم ان فوزي عامدا يروي له كل هذه التفاصيل، ليجعله يشعر انه ليس وحده من يعاني ومحاصر بالتوتر والالم، وفقد الكثير من احبته والسنين، وانه خرج من هذه الدنيا والحياة بمزيد من الالام. وان فوزي يسعى ليمده بالكثيرمن العزم وهو مقبل على رحلة بحثا عن اثار صاحب. لم يفكر فوزي يوما بالوصول الى هذه البلاد. لم يخطر ببال فوزي يوما العيش تحت سماء القطب الشمالي. لم يكن ذلك واردا حتى في احلامه. قال مرارا انه يتذكر كيف قرأ يوما ما شيئا عن فنلندا، وعن هلسنكي، خلال مطالعاته لتاريخ الاتحاد السوفياتي، واعجب جدا بموقف لينين، الذي دعم استقلال فنلندا وخاض صراعا مع رفاقه قادة ثورة اكتوبر لاقناعهم بمنح

الشعب الفنلندي حق تقرير المصير. حين كان يمر به اسم مدينة هلسنكي، عندما تكون هناك اخبار عن نشاط منظمة السلام العالمي، كان يعصر ذاكرته ليتذكر معلوماته الشحيحة عن هذا البلد. بعد مغادرته العراق، وبعد انسحاب المقاتلين الثوار من جبال كوردستان، مضطرين امام شراسة النظام الديكتاتوري، وعدم توازن القوى، دار فوزي بلدانا وبلدانا، رمت به رحلة التشرد والبحث عن سقف امن في مدينة موسكو لفترة زمنية، حاول جهده لان تكون موسكو اخر محطة له، ورفع شعار:

ـ من موسكو الى العراق او الى القبر!

وراح يردد ذلك في مناسبة او غير مناسبة، لحد انه سمع من بعض معارفه تعليقات ساخرة، غض النظر عنها لانه لم يتعود الدخول في شجارات او يخسر من وقته وطاقته في الرد على اشياء يعتبرها غير اساسية. لكن فوزي وجد نفسه، يصل موسكو ليكون شاهدا على انهيار صرح التجربة الاشتراكية، وليرى الخيبة تعصف ليس بحاملي الفكر، بل ومن جاورهم واصدقائهم، وبعد ان كان من المعترضين على فكرة "اللجوء" وأعتبرها اساءة للعراقيين والمناضلين خصوصا، وجد نفسه مضطرا لان يسلك ذات الطرق التي كان يقف ضدها، بل وواجه الاخرين بشراسة في الاجتماعات العامة لانهم كانوا يفكرون باللجوء. كانت هزيمة انتفاضة اذار١٩٩١، ودحرها على ايدي قوات الحرس الجمهوري الصدامي، والاجهزة الامنية للنظام الديكتاتوري، بتواطئ الولايات المتحدة الامريكية مع نظام صدام حسين، ومنحه الضوء الاخضر ليفعل ما يشاء، خوفا من وصول انصار الجمهورية الاسلامية في ايران الى حكم العراق، دعوة صارخة لصدام حسين ليستبيح البلاد شمالا وجنوبا، وينفذ مجازر بحق كل من تعاطف مع الثوار. ودفع كل ذلك بالاف العراقيين لمغادرة العراق والهجرة، ودفع بمن سبقهم الى الهجرة بالابتعاد عن دول الجوار للعراق، فاضافة الى المصاعب الاقتصادية، كانت الاجهزة البوليسية لدول الجوار العراقي تصادر كرامة اللاجئين العراقيين، الذين تركوا بلادهم بحثا عن الكرامة والامان. وانفتحت امام العراقيين ابواب اوربا واسعة. صارت اوربا تمنح اللجوء للعراقيين بالجملة مما حدا حتى بكثير من مواطنين الدول العربية انتحال صفة العراقيين وتزوير وثائقهم من اجل الحصول على اللجوء. كان لاوربا اكثر من سبب لقبول اللاجئين غير العامل الأنساني. كانت اوربا بحاجة لايدي عاملة رخيصة. كانت بعض التقارير تحكي ايضا عن حاجة بعض البلاد الاوربية لوقف تزايد نسبة كبار السن. لم يكترث العراقيون لكل هذا، كانوا يؤمنون ان لكل بلد خططه، وهم احرار في ايجاد حلول لوقف ازدياد مرض السكر بين الاطفال ان تطلب ذلك زيجات من دم مغاير، كان المهم بالنسبة

للعراقيين المضطهدين الحصول على سقف امن في اي دولة. هكذا، في ليلة، وجد فوزي نفسه يّحشر في صندوق سري في عربة قطار غادر بطرسبورغ الروسية، ومثل أي بضاعة او مواد مهربة تشحن عبرالحدود الاستونية ـ الروسية، ليلتحق بعشرات العراقيين الباحثين مثله عن الاستقرار والامان واحلام ما غيرواضحة للكثيرين. في تالين، وبانتظار "المنقذ" وجد فوزي نفسه في قبضة الشرطة الاستونية، التي سامتهم العذاب وأذلتهم:

ـ قضيت يا كريم عاما في السجن الاستوني ثمنا لمغامرتي بالحصول على سقف امن، لم اكن لوحدي في هذا، كان حالي من حال العشرات من ابناء وطني، لم اعد أحمل اي هوية سفر او وثيقة حقيقية، اذ صادرت السلطات الاستونية وثائقي المزورة فوجدت نفسي بدون هوية. وبعد مراسلات واحتجاجات منظمة، واضرابات عن الطعام، وحملة تضامن نشطة نظمتها تيارات ومنظمات ديمقراطية في البلدان الاوربية وشارك فيها العراقيون باختلاف مشاربهم خصوصا الشيوعيين المقيمين في السويد، وبتدخل من المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين قررت فنلندا استلام المئة عراقي الموجودين في السجن الاستوني واعتبرتهم لاجئين عندها لاسباب انسانية. هكذا في يوم شباطي بارد، توقف باص فنلندي عند باب سجن بيارنو الاستوني الذي شهد فصلا محزنا من حياتنا، وحين ركبناه قال لنا السائق الفنلندي بود انساني بالغ: "اعتبروا انفسكم من الان على الاراضي الفنلندية، انتم في امان!". وهزجنا ورقصنا وسط استغراب السائق ومرافقيه، وحتى المترجم العراقي الذي جاء معهم. كنا في السجن الاستوني قد تعرضنا الى معاملة سيئة، وكانت حياة قاسية تماما. كنا في سجون مخصصة للمجرمين وذوي الاحكام الطويلة، المدانين بجرائم القتل والخطف والاغتصاب. اصابتنا العديد من الامراض الجلدية والنفسية والباطنية، وها نحن نتوجه الى دولة من دول الرفاه. وصلنا فنلندا والبلاد على ابواب الانتخابات التي حملت مرة اخرى الحزب الديمقراطي الاجتماعي الى الحكم. كان الامر يبدو محملا بشئ من السخرية المرّة، اذ معنا كان ثمة اخوة اسلاميون متعصبون وهاهو بلد نصراني اهله "كفار" يشربون الخمر وياكلون لحم الخنزير يستقبلونهم بود واحترام وتقدير. كان معنا ايضا شيوعيون ظلوا طويلا يعتبرون "الاشتراكية الديمقراطية" تيارا انتهازيا في الحركة الاشتراكية وعتلة لبناء الراسمالية، وهاهم جميعا يصلون دولة "الرفاه والضمان الاجتماعي" لتمنحهم السلام والامان والعيش الكريم. وحدهم الناس البسطاء الذين كانوا ضمن المئة عراقي، بعيدون عن الهم الفكري والعقائدي، كانت كلمات الشكر تنطلق من قلوبهم صادقة، بسيطة، عميقة بدون أي مراجعات فكرية او دينية. لن انس ابدا اليوم الاول لي في فنلندا. كان

يوما قارص البرد من شباط، كانت ثمة ريح تكنس الثلوج عن شوارع العاصمة وتثير الامواج في خليج بوتانيا حيث ترقد هلسنكي، حين وصلناها مساءا. الفنلنديون ارادو اعلان دورهم في خلاصنا من عذاب السجن الاستوني، وارادوا توثيق فرحتنا بالحرية، كانت الصحافة والتلفزيون باستقبالنا. كان رجال الكنيسة بشموعهم ولحاهم المشذبة هناك، وللاسف لم نجد وجها عربيا او عراقيا في الاستقبال، رغم اعلان الصحف عن تحريرنا بصفقة بين الامم المتحدة والحكومة الاستونية. نقلونا بالحافلة الى قاعة حجزت خصيصا للاحتفاء باليوم الاول لحريتنا، حيث اعدت لنا مأدبة عشاء راح المرافقون الفنلنديون يلحون لافهامنا بان اللحم الموجود على الطاولة مذبوح على الطريقة الاسلامية وقد حفظوا جيدا كلمة "حلال"، وكان ثمة شقراء فاتنة تتحدث باكثرمن لغة تنطق حرف "الحاء" بشكل صحيح ومثير للانتباه! وهاهي الحافلة، تتوقف عند باب قاعة الاحتفال، وينزل اللاجئون، من الحافلة، تباعا، واحدا بعد الاخر، فرحين، مزهوين بالخلاص من السجن الاستوني البغيض، وسط تصاعد الضحكات والتأوهات. كان مرافقونا يحذروننا من الانزلاق على سطح الثلج الصقيل كالمرأة الذي وقفت عنده الحافلة وكأن قوى غيبية تسيرها، وكنا نحاول التشبث بكل شئ منعا للسقوط. سقط المغادر الاول وتلاه الثاني، وكان ذلك يشيع مزيدا من الفرح والحبور والصيحات. كنت العاشر او الثاني عشر الذي اخذ دوره ونزل، وايضا مثل غيري تزحلقت وسقطت الى الارض وسط صيحات الاخرين. اعانني احدهم على النهوض، لكني لم انهض مثل غيري. لم استطع البوح لمن حولي والمشغولين بفرحة الحرية بما اشعر، كان عليّ السكوت، واخفاء المي الرهيب. العرق المتصبب فضحني حين دعوني لالقاء كلمة قصيرة باسم العراقيين الناجين من السجن الاستوني. كنت مجبرا لتكون قصيرة جدا. بعد نهاية الحفلة طلبت نقلي الى المستشفى لان ذراعي ببساطة كسرت! في المستشفى اكتشفت انه اليوم الثاني لاضراب الاطباء، احتجاجا على قلة الاجور، وجاءت الطبيبة فجرا بملابس اظنها ملابس النوم، وتحلق حولي خمسة نساء بينهم ممرضة شابة جميلة، التي وفيما بعد، قال لي زوجها انه سمع منها القصة عدة مرات قبل لقائي ليسمعها مني. لم تفارقني هذه الممرضة الشابة حتى مجئ الطبيبة التي تأخرت. كنت اجلس احدق الى السقف واعض على اسناني، وكانت الممرضة الشابة تطلب مني التحدث، فعل شئ ما، أن ابكي لاخفف الالم عن نفسي. كنت اعب اقداح القهوة رغم اعتراضها. الاقراص المسكنة للالم كانت بدون فائدة. طلبت من الممرضة ان تقرأ لي عناوين اخبار جريدة اليوم الذي وصلت فيه هذه البلاد، لاعرف اي احداث مهمة رافقت وصولي. وكدت اغص بالضحك حين قرأت لي الممرضة خبر عن شكوى العاهرات

الفنلنديات لاحساسهن بمزاحمة العاهرات الروسيات لهن، لانهن يعملن بالاسود، وكان المرة الاولى التي اسمع ان هناك سوق اسود في هذه البلاد تختلف فيه الاسعار ويتأثر بقوانين العرض والطلب. عند الفجر وضعوا الجبس لذراعي. ثمة من اعتبر كسر ذراعي، في اليوم الاول، وفي الساعة الاولى لوصولي الى فنلندا، علامة شؤم لحياتي الجديدة. بالنسبة لي كان الامر سيان، لم اكن ذا حظ جيد منذ ان اضطررت مغادرة وطني مكرها. ثمة مثل كردي سمعته من عزيز محمد[٤٢] في ندوة سياسية خلال وجودنا في اليمن، يقول "الحجر يكون ثقيلا في موضعه". انت رافقتني يا كريم كثيرا في محطات من رحلتي، رحلة السندباد الحزينة، وتعرف ان حظي ظل هناك، في مكان ما من وطني بانتظار ان اعود يوما لاستعادته. ولكن متى؟

٢

لم يتمكن نوري الالتحاق بفوزي وكريم الساهرين في شقة كريم، قبيل رحلة كريم الى سافولينا. تعلم نوري عدم التسرع وتقديم وعد. حكى لهم فوزي مرة:

ـ في سجن استونيا، زارنا عشرات المندوبين، من منظمات دولية، احزاب سياسية، ووزارات دول، وكل منهم، كان يقول لنا "أطمأنوا، ستخرجون غدا"، وحدهم ممثلو "منظمة الامل" الفنلندية، قالوا "لن نعدكم بشئ، ولكننا سنحاول"، وهم وحدهم الذين نجحوا في محاولتهم واخرجونا من عذابات السجون الاستونية!

مع نفسه كان نوري مرتاحا كونه لم يقدم وعدا قاطعا، واكد لهم انه سيحاول المجئ. كان شاخوان ومنذ عودته من المنزل يبدو متوترا، ليس بسبب زيارة غريب عتوي المفاجئة الى المطعم، واقتراحاته الغريبة لتوريطه في مشاريع فاشلة اساسا، بل لان ثمة امور يجهلها نوري يبدو قد حدثت في غيابه لايام خلال زيارة مروان السلامي في مدينة تامبرا Tampere. لم يشا نوري ومن اجل سهرة يمكن تعويضها في مرة قادمة، ترك شاخوان لوحده في المطعم، خصوصا وان رشيدي يبدو ناقما لان شاخوان لم يستجب لطلبه في رفع اجره كما طلب. ساعتها نظر اليه شاخوان بنظرات ذات معنى تقول:

ـ ارأيت، لقد طمع بنا الرجل، لو كنت توافق الحلول مكانه بدل قدومك بين الحين والاخر حسب المزاج؟

حين تيقن له انه لن يلتحق بالسهرة، فكر نوري بالاعتذار لكريم بالهاتف، لكن ذلك ربما يفسد لهم جلستهم. قرر تركهم يعيشون في شعور انتظاره. ما الضير في ذلك؟ كان نوري

مسرورا لهذا التطور في علاقته مع كريم ومع فوزي ايضا. وكان فرمان بوند علنا يتساءل، وبغيرة واضحة:

ـ عجيب، ما الذي يجمع انسان رزين مثل كريم مطرود، وسياسي محترم مثل فوزي عطية، مع انسان مستهتر مثل نوري شناوة؟

من كان يظن ان الامور بينه وكريم يمكن ان تصل الى هذا الحد من المودة والالفة؟ في كل حالة شجار واختلاف لهما، كان شاخوان يلوم نفسه علنا. لم يكن لقاء نوري الاول مع كريم مطرود مجرد صدفة. رتب شاخوان لذلك جيدا، عرف نوري بذلك مباشرة من شاخوان ذاته:

ـ فكرت بكل بساطة، شخصان ارتبط معهما بعلاقة طيبة، وصارت اسماؤهما تتردد كثيرا في احاديثي، لم لا يلتقيان؟

وبعد فترة توقف، اضاف بصوت يحمل شحنة من المسؤولية والحزن:

ـ بصراحة يا نوري، كان علي مساعدة كريم مطرود اولا بأي شكل، لاكثر من سبب، منها لتغيير الصورة المرسومة عنده عنك، الصورة التي تطوع كثيرين لرسمها امامه، صورة نوري الاناني، العبثي، الذي لا يكترث لهموم الاخرين، فقلت لاجعل كريم يكتشف بنفسه حقيقة نوري شناوة. وايضا حال كريم مطرود النفسي الذي وصل اليه منطويا، غارقا بين كتب التاريخ لا يغادر شقته. حدثني فوزي عن وضع كريم النفسي، وقال انه عجز في اخراجه من صومعته في كيرافا. لو تعرف يا نوري، أي كآبة تلبست روح كريم، وصارت تنغص عليه ساعاته وايامه، في كل مرة يفشل في الحصول على خبر ما عن ابن خالته، او حين يعرف تفاصيل جديدة ما حول "السفينة استونيا" او عن احوال اللاجئين هنا وهناك. صار وهو يبحث عن ابن خالته يزداد كآبة يوما بعد اخر. لم يكن امامي سوى حديثي له عنك، رسمت لك صورة طريفة، مثلما اعرفها، اضفت عليها قليل من البهارات، لا تخف لم اجعلك مهرجا، لكن شيطانا صغيرا مغرما وخبيرا بشؤون النساء. قلت ربما تنفعه شيئا ما، ربما ان معرفة ناس اخرين يساعده في استرداد شيئا من هدوئه والتخفيف من توتره، ولكني لم اتوقع منه ان يكون موقفه منك بهذا الصدود والكراهية.

في لقائهما الاول، بدا كريم مطرود، بعينيه السوداوين، الجميلتين كعيني حسناء، وبحاجبيه العريضين، وقامته المشوقة، اشبه بفتى بطاقات التهنئة التي تتبادلها مراهقات المدارس، ولا يعكر هذه الصورة سوى جبينه العريض، الذي يتغضن كلما زم شفتيه مفكرا. كان نوري يعتقد ان رجلا مثل كريم غارقا بين كتب التاريخ، يكون بكرش منتفخ، وعجيزة عريضة من الجلوس

طويلا على مقاعد المكتبات. مع سماع صوت كريم مطرود الهادئ الحزين، ادرك نوري ان روح هذا الرجل مثقلة بهموم لا تتناسب وشكله الساحر للنساء، لحد اثارة غيرته. في زاوية من مطعم شاخوان قادر كان لقائهما الاول.عبر الهاتف، وبحضوره، وجه شاخوان الدعوة الى كريم مطرود لوجبة عشاء سريعة، وتمكن من تخمين درجة علاقتهما لحظة صاح شاخوان وصوته يكاد يصل الى الجانب الثاني من الشارع:

ـ سأعد لك بيتزا من صنع يدي، كثير من البهارات، واعمل لك سلاطة روبيان ومحار وسيساعدك ذلك، هذه الليلة لو وقعت بين يديك امراة لتجعل صراخها يصل الى السماء السابعة، بل ويصل الى دار رئاسة الجمهورية، ويسمع صراخكما ليس جارتكم العجوز وحدها، بل ومارتي آهتي ساري[٤٣] بلحمه وشحمه!

كان شاخوان، يلمح الى ورطة كريم، التي حكاها لهم فوزي. كان كريم في اول ايام علاقته مع آريا، وعند نشوتها راحت تطلق صرخات غير عادية، جعلت كريم يتركها تتلوى من الشهوة ويسرع لاحكام اغلاق النوافذ خوفا من جارته العجوز التي شكته مرة الى مسؤولي العمارة لانه غسل الصحون في وقت متأخر، فأزعج كلبها المدلل، فكيف اذا سمعت صراخ آريا؟

يوم لقائهما الاول لم يقم كريم مطرود بأي تصرف ذي طابع رسمي او شكلي. كان هادئا جدا. تصافحا ولم يذكر اسمه. كان واثقا من ان نوري يعرفه جيدا. تصرفا وكانهما يعرفان بعضهما بشكل جيد من فترة طويلة. كان نوري قد سمع عن كريم مطرود من العديد من العراقيين. سمع من فوزي شيئا عن قصة البحث عن ابن الخالة. والتقاه مرة او مرتين في نشاطات سياسية او تظاهرات، كان يراه الى جانب فوزي بأستمرار حتى ظن انه حزبيا من جماعة فوزي، لكن نوري ولسبب ما حاول ان يكون دائما بعيدا عن كريم. يتجنبه ويتجنب احيانا حتى تحيته، منذ ان بلغه انه وصمه مرة وبغيض بلقب "البلاي بوي". لم يكن نوري مترددا في تبادل الحديث مع كريم مطرود الذي بدا يومها حزينا جدا ومرهقا. بدا على كريم انه سمع عن نوري ما يكفي من الاخرين ليتجنبه بدوره، لذا قرر نوري مع نفسه ان يتصرف هذه المرة بتلقائية، يترك الامور تجري من دون توجيه مسبق. في مخيم رفحا الصحراوي، قال له يوما شيخ عجوز:

ـ ما لك يا بني وصلاة رجال الشرطة السعوديين بأحذيتهم، لهم رب يحاسبهم، وما داموا مقتنعين بملاقاة ربهم والصلاة له بأحذيتهم، فهم واياه يتحاسبون. وهم على الاقل احسن منك، فانت لم تقرب الصلاة لا بحذاء ولا بدونه. دع الامور يا بني تجري من دون توجيه.

بعد ذلك اللقاء بشهور طويلة، قال له كريم:

ـ لم يكن سهلا علي استيعابك وهضمك، من اول الايام صرت اتحسس من اسمك، رغم بعض الاشياء الطيبة التي سمعتها عنك، فشاخوان وحده حاول جعلك اسطورة امامي، حدثني عن مساهمتك في انتفاضة اذار، حدثني عن عذاباتك في مخيم رفحا، وحدثني عن فلسفتك،" الحياة بشكل اخر". اعجبتني العبارة، تخيلتها عنوان لكتاب من الخيال العلمي. الا انني في اول عشاء مشترك لنا، تصورتك تتصرف بتعال، او مثل موظف في دائرة رسمية في بلد عربي، اذ لم اسمع منك سوى كلمات مثل "حسنا"، "صحيح"، "ممكن"، "ربما"، وكنت تهز راسك بطريقة بدت لي غبية يومها، ثم فيما بعد عرفت سبب ارتباكك واقتضابك في الكلام معي!

اتعبه كريم مطرود حتى وجدا لحظات تصاف، ونقاط مشتركة. كان ينغص له يومه كلما التقيا عن طريق الصدفة او في مناسبة ما. في كل ما يقول ويتصرف يجد كريم مطرود شيئا ما يمكن انتقاده. وشعر بالاسى لان رجل مثل كريم، له كل هذه المعرفة والرزانة ولا يتمكن من فهم انسان بسيط مثله. كان نوري يلمس كيف يشعر شاخون وفوزي، وهم يرون كريم يصده بخشونة، وبشكل احيانا يبدو غير مؤدب ولا يتلائم مع شخصيته. لم يحاول احد التدخل. راحا يغضان النظر عن كل تصرفات كريم. وكانا مستغربين جدا لصبر نوري وهدوئه. قال مرة لفوزي:

ـ لو لم المس نقاء كريم، لما سكت عن تجاوزاته لحظة واحدة. ادرك تماما انه ناقم مني، من اسلوب حياتي، لكن عليه استيعابي كما انا، وليس كما هو يريد.

ولم يخطر ببال نوري يوما التجاوز على كريم، او الرد بأكثر من روح المشاكسة. كان نوري احيانا، وفقط لاغاضة كريم، يمعن في تعليقاته الفاضحة، ونكاته الفاحشة. بدا ذلك مثل لعبة طفولية مملة. ويوم روى حكاية تلك المرأة التي يرغب صاحبها كل مرة بممارسة الجنس معها في السيارة، وزارت الطبيب بعدها لعلاج جرح لها في جبينها، استغرب الطبيب من شكل الجرح، وسألها:

ـ ما هي اداة الجرح؟

فقالت له المرأة، صادقة:

ـ اضفر ابهام قدمي يا دكتور!

وفغر الطبيب فمه عجبا وهو يتسائل:

ـ عجيب... كيف يمكن حدوث هذا؟

فقالت له المرأة:

ـ من حقك الاستغراب يا دكتور لان احدا لم ينكحك في المقعد الخلفي لسيارة!

يومها ضحك كريم ملئ فمه. ومسك بطنه من شدة الضحك. كان احيانا يكتفي بالابتسام، او بتقطيبة ما، لكنه تلك المرة فاجأ الجميع بضحكته. ربما كان شاخوان اكثر المسرورين بضحكته، وراح فوزي يحدق الى نوري بتآمر، وكانه يقول له:

ـ هاهو طرقك المتواصل ينفع مع حديد كريم!

حين وجد نوري نفسه وكريم على ظهر سفينة مبحرة الى السويد تعامل معه كريم بشكل اخر تماما. كانت حركة بارعة من فوزي الذي دعاهما معا، وفي ستكهولم قال لهما انه مضطر لزيارة اخيه شامل لعدة ايام، وتركهما يعودان لوحدهما. امام زرقة بحرالبلطيق، ونعيق طيور النورس، راح كل منهما وببطء يكشف شيئا من دواخله، وكان نسيم البحر مساهما بلمسات السحر ومسح الغيض في دواخلهما. حين نزلا على اليابسة في هلسنكي كانا رجلين مختلفين. صارا صديقين حميمين. واذ كررا الرحلة ثانية، راح شاخوان يزأر وشرر الغيرة يتطاير من عينيه:

ـ أنا الذي عرفتكما على بعضكما البعض، وها انا اجد نفسي بعيدا عنكما، فعلاقتكما يوما بعد يوم، راحت تتوثق مثل عشاق، بينما أنا صرت النكرة. امعقول انكما ترتبان رحلة في الباخرة الى السويد دون التفكير ولو بدعوتي شكليا، على الاقل من اجل امتصاص زعلي؟

وجد نوري في كريم مطرود معادلا لاشياء عديدة، يفتقدها في نفسه.

ثمة اشياء عديدة في الحياة يمكن انجازها بسهولة، ولا يتمكن الانسان من فعل ذلك، اما لان القيود الاجتماعية اكبر منه، او لان الواجب والالتزامات تمنعه، او لاسباب خارجة عن ارادته. حاول نوري كسر كل جدران الممنوعات، فلم يكن شعار "الحياة بشكل اخر"، سوى ستار لمحاولة التمرد على هذا الزيف الذي يحيط به في العلاقات. يكره نوري في نفسه كل هذا الذي صار ثوبا له، بل جلدا لا يمكن نزعه. مرات عديدة يتمنى وضع نفسه مكان فوزي عطية او كريم مطرود، ليتخلص من نزقه وعبثه ودعارته وعدم اكتراثه لما يقوله الاخرين، لكنه يشعر بحاجة لشئ ما ينقصه، يشجعه، ويأخذ بيده. حاول كريم بهدوء، ترويضه. بدأ من حيث وصل فوزي. منحه ذلك احساس بكون كريم وفوزي يتامران معا لاجل هذا. سأل نفسه، هل يكون تأمرهما في هذه الحال، ضده او لصالحه؟ كيف يمكن فلسفة ذلك؟ كريم مطرود يختلف عن فوزي. الامر عند كريم خال من الشعارات والخطابات السياسية. اذا كانت كلمة الوطن، هي الاولى في احاديث فوزي معه، فكلمة الانسان هي البديل عند كريم. من الايام الاولى لمعرفة نوري بكريم

مطرود، ظل كريم معه دائما صريحا جدا، لكنه ناجح في رسم حدود لمساحة كل منهما ولا يترك له ولا لغيره امكانية تجاوزها. كان نوري يجد في كريم صورة اخرى من انسان يفتقده في داخله. انسان لا يكل من البحث عن شئ اضاعه. مع الايام بدأ نوري يفهم سر تعلق كريم مطرود في البحث عن ابن خالته سراب.

كان كريم مطرود يبحث عن نفسه!

٣

الليل في اوله. شعر غريب عتوي بالاسى لكون شاخوان قابله بهذا الجفاء. وزاد من ذلك مواصلة نوري السخرية منه امام الناس كلما قابله. لم يكن غريب يريد من سفر شاخوان معه اكثر من غطاء شكلي لعمله ونشاطه، ليمنع شكوك وداد أساسا. حالما تراه يرفع سماعة الهاتف حتى تتحول اذانها الى اذان فيل. اضطرته الى اللجوء الى اكثر من طريقة ليواصل اتصالاته مع هارون. حين علمت بمشروع سفره الى سوريا، لم تضف اكثر من جملة:

- رجلي على رجلك!

قال لها بصرامة:

- يا بنت الناس، هذه ليست سفرة سياحية، انها رحلة رجال اعمال، وانا احاول ايجاد لي مكان وسطهم، فماذا تفعلين بالسفر معي، هل اترك كل الناس وأنشغل بالجري خلفك من السيدة زينب الى "مقبرة الغرباء".[٤٤]

تعلم من علاقته الطويلة مع وداد، ان لا يرفض اراءها فورا، ان لا يقول لها يوما وبشكل فوري كلمة: لا! لانها ستصاب بهيستريا اقرب الى الجنون، حتى لو كان محقا. تعّلم غريب اعلان موافقته على ما تريد ويجعلها تطمئن الى ذلك، ثم يحاول التملص منها باكثر من حيلة وعذر. جعلته يكون خبيرا بذلك. قبل ايام، ارادت مرافقته في جولة الى مركز العاصمة. لكنه وجد الحجة حين قدمت له ودون قصد العذر للخروج بدونها:

- اتصل بك الى هاتف البيت، صحفي فنلندي وكتبنا اسمه.

واردفت:

- لماذا لا تعطيه رقم هاتفك المحمول؟

وقال لها بخبث:

ـ اغلب اتصالاتي العامة تكون على هاتف البيت، حتى في حال عدم وجودي تكوني انت موجودة وتتصرفين.

فصاحت:

ـ وهل تعتقد اني يمكن التحدث مع الفنلنديين، هل وجدتني أرطن باللغة بالفنلندية مثل ناوات الكردية المترجمة، لا اعرف اكثر من كلمة (Kittos)[٤٥]، احمد ربك ان بنتك كانت موجودة واجابته، واريد اسألك، حقا، حقا، هذا ابو شامه الاصلع لماذا كان يسأل عنك منذ يومين؟

واطلق غريب ضحكة انفجرت كالبالون وكاد يغص، فصاحت به وداد:

ـ مالك؟ هل قلت شيئا خاطئا؟

ـ التشبيه اعجبني " الاصلع أبو شامه "... ها ... ها... ها!

ـ يوي يوي... حتى كلامي لا يعجبك، تفكيرك ضاير زفر، اخفض صوتك حتى لا يسمع اولادك ...

ـ هذا ابو شامه... ها... ها... يريد لقاء صحفي معي، يريد مني حكاية قصة لجوئي الى فنلندا!

ـ عيوني خذ حذرك يروح يفتح علينه ابواب وانت ما شاء الله صاير تفلت كلام كثير هذه الايام!

بلع ريقه بسرعة وقال لها:

ـ يا امراة لا تخافين... ارجوك لا تخافين... اعرف كيف احكي، وكيف اكون امامه "شعلان ابو الجون"[٤٦] براسه ومكواره[٤٧]!

تذكر غريب كيف ان عمران كان دائما يعتبر شعلان ابو الجون من الشخصيات المظلومة في تأريخ العراق، لم يسلط الضوء عليه جيدا، ويصرح بأن ذلك حصل حين باشرت حكومة صدام حسين تكتب تاريخ العراق من جديد. كان عمران يسترسل في كلامه، حتى بحضوره، من دون خوف، وهو واثق من كونه لا يجرؤ على الابلاغ عنه، فكان يقول:

ـ ربما يتصور البعثيون ان حزبهم هو من اطلق شرارة ثورة العشرين؟

وتذرع غريب بلقاء الصحفي وترك البيت بدون وداد، واسرع ليهاتف هارون، وليتفاجأ بوجود هدى على الخط. لا يدري كيف تحركت فيه رغبات ومشاعر قديمة، حاول كبحها طوال سنين، لكنه وجد نفسه يعاود الاتصال الى دمشق عدة مرات خلال الاسبوع. كان يختار اوقات عدم وجود هارون لينفرد بالحديث الى هدى. ربما كان بذلك يشاكس وداد لكونها تكتم انفاسه.

يعرف انها ستقلب دنياه الى جحيم لو عرفت بمكالماته مع هدى. كانت تعتبرها غريمتها. في سنوات زواجه الاولى، هناك من تطوع ليخبر وداد بعلاقته السابقة مع هدى. زينوا لها القصة ورتشوها، رغم ان ما كان معروفا ليس اكثر من فكرة زواج. صحيح انه اندفع في اشهار تعلقه بهدى ورغبته فيها. كانت الملعونة تجيد فتنه واثارته. حتى بعد رفض اهلها تزويجها منه، وصارت من نصيب غيره، وزواجه من وداد، الا ان هدى ظلت تجيد اثارته وتتعمد الاحتكاك به حين تلقاه في المناسبات. كان يسكت من محاولاتها خوفا من الفضيحة. ابنة عمه وتتحارش به، كيف سيفهم الناس ذلك لو اشتكى؟ ولم يجرؤ على محادثتها مرة او صدها، كان يتهرب من ملاقاتها. وها هي تتلقف مكالماته وتننظرها، ولم يكن ينتظر اكثر من ضوء اخضر منها، وجاء ذلك حين سألته:

ـ الا تفكر بزيارتنا الى دمشق؟

فهم غريب، بأن هارون جلب اخته هدى معه، لتقوم برعاية شؤونه، وتأخذ عنه قسطا من المسؤوليات في المطعم:

ـ اخي غريب، العمل يحتاج تفرغا كاملا، وهدى مدبرة منزل ممتازة، وعاملة نشيطة، ونحن نحتاج خبرة نسائية في المطعم، ستقف معي في المطعم وفي البيت، انا لم اوفق في زواجي ولا افكر حاليا بالزواج من جديد، وهي ترملت بسرعة، وكلانا بلا اطفال، يمكننا العيش معا، وستكون عندها نفقات معيشتنا اقل.

كان هارون يقدم له حجج عملية وواقعية، لم تجعله سوى يزيد من اعجابه بابن عمه الذي فتح له باب الرزق بافكاره العملية فجازف وارسل له رأسمالا كافيا، من ما وفره في حسابه السري الذي لا تعرف بوجوده وداد، وما استدانه بعدما استطاع الافلات من قبضة فرمان بوند وخططه الغريبة. قرر المجازفة بالتخطيط والسفر الى دمشق، ولكن من اجل السفر، كان يبحث عن عذر ليوقف شكوك وداد، فخطرت له فكرت رحلة مجموعة رجال اعمال، وقرر الاستعانة بشاخوان:

ـ ربما تحتاج الى السفر بنفسك، او من يسافر نيابة عنك الى دمشق ليتأكد لك من امكانية العمل ونجاح المشاريع هناك؟ ونوعية البضائع والاسعار التي ممكن ان تنفع السوق الاوربي؟ علمت ان العديد من الاخوان نجحوا في مشاريعهم في الشام. لي نية سفر قريبة، فاذا نسقنا معا يمكننا السفر مع بعض، او اذا رغبت اسافرنيابة عنك لنتاكد من كل ما يقال.

ساعتها، نظر اليه شاخوان باستغراب:

ـ ومن اخبرك اني غني الى درجة تكفي لانشاء مشاريع خارج فنلندا؟ ثم ومن قال لك انـي افكر بمشروع جديد؟ هذا المطعم يكفيني ويكفي عـائلتي، لا احتـاج لان يكثـر مـالي فتفسد اخلاقي. لماذا لا تتعاون مع صديقك ماموستا فرمان، سمعت ان لكما مشاريع وخطط عديـدة، ماذا عنها؟ اين وصلت؟ يبدو ان شراكتكما تهدمت؟

لم ينه شاخوان كلامـه الساخر والغاضب، وان قالـه بهدوء، حتـى وصـل نـوري متفكها كعادتـه. نظرغريـب شـزرا الى هـذا المتهتـك، الـذي لا يعجبـه العجب، والـذي لا يـرحم احـدا بتعليقاته، وبدلا من السلام المعتاد، راح يسخر وهو يمط الكلمات مثل ملا حسين:

ـ زارتنا البركات والانوار.

ثم كرر بخبث:

ـ هل من اخبار جديدة؟

وفهم غريب ان هذا المتهتك يريد استفزازه، اذ يلومـه علنـا بانـه ينقـل اخبـارا محرفـة عـن الاخرين. اراد غريب الانصراف، لكن الهاتف رن، ورفعه نوري وراح يتحدث بطريقة يحاول اغاضة غريب فيها:

ـ اهلا والـف مرحبـا بالاستـاذ فـوزي، شـاخوان موجـود ولكنـه مـشغول. الاحـوال، كيـف الاحوال؟ هنا في "نيران نوروز" يوجد لدينا عيـد حقيقـي الان، لان في زيارتنـا صـديق عزيـز للجميع، وسأل عنك وعن اخبارك. من هـو؟ الامـر لـيس حزورة يـا صـديقي. الاسـتاذ غريـب عتوي، بلحمه وشحمه، وهو الان مع شاخوان في حوار عميق متشعب الجوانب. عن مـاذا؟ انـت الاعرف يا صديقي برجال الاعمال وحواراتهم، وانتم تعرفون يا صـديقي بـان الاسـتاذ غريـب لا يمكن ان يزورنا ان لم يكن يحمل اخبارا طازجة ومهمة. انا لم اعرف بعد شيئا لانـي وصـلت تـوا. ماذا؟ انت لا يهمك ان تعرف شيئا. لا يمكن ان تقول هذا، اذا انت لا يهمك وانا لا يهمني فمـن يسمع لاحاديث استاذ غريب؟ طيب... طيب... لا تغضب، ولا تزعل مني. ساتوقف عن ذلك. قلت لكم ساحاول المجئ ولكن لست متأكدا تماما. مع السلامة. مـع الـسلامة وتحياتـك توصـل للجميع وخصوصا لصديقنا غريب.

وحالما وضع سماعة الهاتف التفت نوري ليقول:

ـ فوزي وكريم يرسلان تحياتهما.

كان غريب يعرف، ان هذه الشلة المتكاتفة لا تطيق رؤيتـه وسمـاع اسمـه، لكـنهم وكمـا يقـول عنهم وبحق فرمان بوند، يرتبطون بعلاقة غريبـة متميـزة ودائمـة، ويحـسدهم عليهـا الكـثيرين.

والتفت نوري الى شاخوان:

- فوزي ونوري يسهران معا، اذا تريد يمكنك الالتحاق بهما ساواصل العمل.

لكن شاخوان، رد ببساطة:

- لم لا تذهب انت، بالتأكيد انهما ينتظرانك. ماذا سيسمعان مني غير اخبار البيتزا واسعارالجبن والكينكو؟[٤٨]

وتوقف نوري عن عمل ما بين يديه، والتفت ليقول:

- اخ غريب، بشرفك، وانت الاعرف، وانت كلمتك غالية عندي مثلك، هل من الصحيح ان يترك الانسان عمله أو يتوقف عنه من اجل سهرة و... طق حنك!

وكانت الاشارة واضحة لغريب بمغادرة المكان قبل المزيد من تلميحات نوري الساخرة، ليصل البيت وليجد وداد نائمة على غير عادتها مبكرة. ابنته خولة مختلية في غرفتها ولاحظ سلك الهاتف ممتد الى غرفتها، وابنه في الصالة عند التلفزيون يتابع فلما امريكيا في الفيديو كالعادة. دخل التواليت، وبقي هناك فترة طويلة، اكثر من المعتاد. صار التواليت مكانه الاثير للاختلاء بنفسه، ليصقل افكاره ويراجع خططه. المكان الوحيد الامين في البيت الذي يمكنه ان يقرأ فيه الاوراق والرسائل المهمة ويعد نقوده احيانا. وحتى الى هذا المكان تلاحقه وداد. صارت تكتم انفاسه لحد الاختناق، وكلما تأخر في التواليت يجدها عند الباب:

- ما بك اليوم، امساك لو اسهال؟ خير انشاء الله، قل؟

ويتنحنح دون كلام، وحين تكرر ذلك، يصرخ بها:

- يا بنت الناس، اتركيني، الله واكبر، يعني حتى في مكان الخرا، وراك... وراك!

٤

شعر كريم بالاسف، لان فاته ان يدعو بيكا تويفنين لمشاركتهم السهرة، كان يمكن لبيكا اضفاء روح طيبة على جلستهم. سيفتقده في ايامه القليلة في سافولينا، فهذا رجل لا يمكن الملل من الجلوس اليه. علاقتهم به، دفعته لان يتعلم ليس فقط كلمات التحية باللغة العربية، ولا طريقة الجلوس على الارض مباشرة، بل وطريقة شرب الاوزو مخلوطا بالماء والثلج، بعد توصلهم الى استخدام الاوزو الايطالي كبديل عن العرق العراقي. وحين علمه نوري تسمية "حليب السباع"، صار حينما يلتقيهم حتى وبحضور زوجته، او في الهاتف، يزأر كاشارة الى الحاجة للاجتماع والشرب. بشعره الاشيب، وعينيه المدورتين الناعمتين، وذقنه المستدقة ولحيته الشائبة الخفيفة التي يشذبها بأستمرار، يبدو بيكا تويفونين كواحد من الرجال الاربعة حملة المصابيح

حراس مدخل محطة القطارالاساسية في هلسنكي. اين يا ترى وجد أميل فيكستروم [٤٩] ملامحهم لينحتها على القرميد الرمادي؟ تقول باولينا:

ـ هذه من تأثيرات الكاليفالا على الثقافة الفنلندية وفترة مد الشعور القومي!

حقا، كأن بيكا تويفنين خارج من بطن الكاليفالا. ليس في ملامحه الواضحة، الحادة التقاطيع، ولا في قامته المديدة، بل وعمق افكاره الانسانية، وتسامحه، ومحبته للاخرين التي تضفي عليه ملامح الانتماء للاخرين. فوزي يكرر:

ـ هذا الرجل كان يمكن ان يكون قسا في كنيسة، يمنح البركات للاخرين ويسمع اعترافاتهم ويطيّب من خواطرهم.

في اول لقاء لكريم مع بيكا تويفونين، تولد لديه انطباع بان في هذا الرجل تجري دماء اخرى غير دماء بعض الاوربيين الذين ينظرون للاجانب وكأنهم طارئون على الحياة. او تلك النظرة التي يروجها العنصريون بان الاجانب قادمون الى اوربا لسرقة فرص العمل، او ما راح يصرخ به ذلك الذي يشبه ابو بريص بوجهه النحيف وجلدة راسه العارية اللامعة. فاجأهم في خلوتهم في المقهى الرياضي، وراح يستفزهم بحركات صبيانية. حين فشل في استدارج احدهم للعراك معه، راح يصرخ:

ـ انتم الاجانب التافهون، ذوو الاسنان المنخورة والافواه المعوجة، التي لا تنطق لغتنا بشكل سليم، ولا تحترمون تقاليدنا ولا تريدون التعرف عليها، ستخربون بلادنا وتملأوها بقذارتكم، لم تأتوا الا من اجل استدراج بناتنا الى اسرتكم، تنقلون لنا الايدز والسفلس، وتعيشون على معونات الشؤون الاجتماعية.

تصرف عمال المقهى بذكاء. حضرت الشرطة بسرعة، لتطرده من المكان وتعتذر للجميع. حين سمع بيكا ذلك بصق وصاح:

ـ هؤلاء احفاد هتلر، لا زالوا بيننا، هم من ساهموا في ضياع كاريالا[٥٠].

حين يلتقي كريم مع بيكا، حتى لو عرضا وسط السوق يأخذه بين ذراعيه، صحيح ان بيكا تويفونين لا يعرف تبادل القبلات الودية على الخدود بين الرجال على الطريقة العراقية، ولكن كريم كان يشعر بكل الدفء الصادق والحنان. كان يشعر بالاطمئنان الكبير اذ تعصر يدي بيكا تويفونين القويتين كتفيه وكانها دائما تقولان له:

ـ انا هنا الى جانبك!

لن ينسى كريم ابدا لقاءه الاول بهذا الرجل. لم يترك بيكا احدا لم يرو له القصة. كان شيئا طريفا يمكن تكرار روايته.

استطاع فوزي مساعدته وبواسطة معارفه ايجاد مكان له للتمرين في مكتبة مدينة كيرافا العامة. ووجدوا له مكانا في قسم الكتب الاجنبية. كان هناك اثنتا عشر امراة مع رجلين يعملان في المكتبة. عدهم كريم في اجتماع العاملين الاسبوعي، الذي حضره لاول مرة. حين قدم اوراقه وقبلوه صار الرجل الثالث. وقال لفوزي في اسبوعه الاول:

ـ بين الموظفات ارى نفسي مثل غراب بين سرب من الحمام!

كانت النسوة المؤدبات والبشوشات يعاملنه بكل ود. المكتبة العامة في هذه البلاد، مكان اثير لدى كل مواطن، من جميع الاعمار. نظام الخدمات يوفر للمواطن خدمات متنوعة، في توفير الكتب والصحف والاشرطة الفلمية والموسيقية، وخدمات الانترنيت والطباعة. المكتبة العامة هي مركز ثقافي تشرف على العديد من النشاطات، فلا يمكن لمواطن التخلي عن خدماتها، هكذا وجد كريم نفسه على تماس دائم مع اهل كيرافا، شبابهم ومسنيهم، نسائهم ورجالهم. بحكم كونه اجنبيا صار وجها معروفا للكثيرين. لاحظ ان البعض صاروا يبادلوه الابتسامات والتحيات حتى خارج ساعات العمل. صار هناك شئ من الدفء والالفة. مع الايام وباحتكاكه مع العاملين تعلم الكثيرمنهم. في ساعات الاستراحة اليومية واذ يدخل على خجل لمطبخ المكتبة كانت النساء يفسحن له مكانا الى جانبهن ويدعونه بصداقة الى الجلوس. في البدء كان يكتفي بكوب قهوة، ثم تعلم جلب شئ من الطعام من منزله لتناوله. وبدأ يتبادل معهن، وبالفنلندية، جمل مجاملة قصيرة. كانت مسؤولته المباشرة امراة في الخمسين من العمر، تحتفظ بالكثر من جمالها، تشجعه بأستمرار، تدعوه الى مخالطة الاخرين، وحين يرتكب في عمله خطأ ما، كانت، بعد ارشاده، تطلب منه تصحيح ذلك بنفسه. اسمعته كلاما طيبا واطرت ذكاءه وسرعة تعلمه. كرجل شرقي كان يحس بانه مراقب من اربع وعشرين عينا نسائية. يجعله ذلك يتعثر بخجله وكلامه. لا يجيد اللغة الفنلندية كما يجب، وكثيرا ما يهرب الى الانكليزية. كان يتسائل دائما: "بماذا يتحدثن عني"؟ خاصة حين يمر ويجد امرأتين تتهامسان. وكان يعنف نفسه لارتباكه وخجله:

ـ من الذي يقول انهما تتحدثان عنك يا استاذ؟

كان حذرا في كلامه خصوصا مع النساء المطلقات او العازبات. من الايام الاولى قال لفوزي:

ـ اتدري يا فوزي، اجدني الزم نفسي بالكثير من الرزانة التي قد تجعلني ابدو ثقيلا، دائما اصرخ بنفسي: انتبه لنفسك ياكريم، أي فعل تقوم به هنا سوف لن يذكر احد اسمك، سيقولون ببساطة "العراقي"!

كان يتحدث بحذر. ويوما لا يدري كيف عنّ له فعل ذلك. جاء مثل كل يوم ليمارس عمله. عند الباب الجانبي، باب دخول العاملين وجد تلك الفاتنة القصيرة، الممتلئة قليلا، وجهها الدائري الجميل يغري بالنظر اليه والتمعن فيه، وعيناها الواسعتان الملونتان الساحرتان وابتسامتها الدائمة، يجعلها تفيض بالسحر دائما. كان عيبها تدخينها بشراهة ودخان سيجارتها يكاد يغطي شعرها القمحي. لم يعجبه ذلك. منذ طفولته لا يحب منظر النساء المدخنات. هل هو جزء من تربيته الشرقية؟ لا يعتقد بذلك، فتدخين النساء العراقيات في مجالس العزاء أمر شائع حتى بين العوائل الفقيرة. هناك نساء من اقاربه كن يدخن بشراهة تلك السكائر المحلية الصنع الشهيرة "ضلوع الملايه"، من اين جاءه رفض تدخين النساء؟ هل هو من طيف جارتهم التي قبلته يوما في فمه وراح لسانها يدور بين شفتيه، وهو لايزال صبي صغير، وكان فمها ساعتها كأنه مقبرة سكائر؟ لم يفكر ساعتها بزميلته الفاتنة نفسها، فكر بزوجها، لو عادت من العمل وحاول تقبيلها؟ لكن في هذه البلاد هل يكون فم المدخنين كحال جارتهم التي لم تعرف فرشة الاسنان في حياتها؟ زميلته امراة طيبة وروحها الودودة تفيض من عينيها الخضراوين الجميلتين، وطالما ملأت له، وبلطف، فنجانه بالقهوة. ابتسمت له من بعيد. ابتسم لها وحياها. اراد قول عبارة مجاملة، تحية صباح ما، ولا يدري كيف قال لها بمودة:

ـ انك تكثرين من التدخين، التدخين يضرّ بعينيك الجميلتين.

من جعله ينطق بهذه الجمل البريئة؟ ابتسمت زميلته لحظتها. كانت ابتسامة صادقة. ولم ترد بأكثر من ذلك. ولكنه راجع نفسه. اترى أكان ما قاله مناسبا؟ وحين روى الامر لفوزي، سخر منه:

ـ الا تلاحظ انك تجعل الامور معقدة اكثر. خذ الامور ببساطة يا بطل. لا اعتقد انها حتى تتذكر ما قلته لها!

ولكن فوزي كان مخطئا جدا. بعد حين، واذ دارت الايام، فاجئته باولينا:

ـ ايام عملك في المكتبة، حظيت بأعجاب جميع العاملات من النساء.اخت لصديقتي تعمل هناك، التقيتها قبل حين، دار الحديث ووصلنا اسمك. قالت أنك رجل رزين، وحزين، وواسع الاطلاع. المشرفة على تدريبك قالت عنك انك تنجز في يوم عمل اكثر مما ينجزه غيرك. لكنها

قالت عنك انك كسول في تعلم اللغة الفنلندية كنت تشعر بان انكليزيتك كافية، وبها كنت تعمل وتمازح، حتى ان جملة الغزل الوحيدة التي سمعوها منك، كانت بالانكليزية، وقلتها لاحد الموظفات حين قلت لها ان الدخان يضر بعيونها الجميلة، هل يمكن لي معرفة الى اي حد وصل اعجابك بصاحبة العيون الجميلة، وهل...؟

ذهل كريم يومها، أبعد كل هذه الشهور الطويلة، تظل عبارة بريئة ترن في الاذهان؟ كان ابوه يردد بدون تفاصيل:

ـ المرأة هي المرأة.

يبدو ابوه محقا حقا، فالمرأة هي المرأة، سواء كانت عراقية او فنلندية او من المريخ. جملة بريئة قالها، دارت ودارت من لسان الى لسان، لتصل الى الفتاة التي صارت صديقته الحميمة.

في تلك الايام الطيبة البعيدة، واذ كان يحب تعلم ومعرفة الكثير عن فنلندا، ومستغلا وجوده في المكتبة، عبر عن رغبته بالتعرف على عالم الرجل الفنلندي، وعبر عن رغبته بلقاء رجل فنلندي يدله ليس على المشارب والمراقص، بل يحدثه عن اجواء ثقافية معرفية، وسأل عن مثقفي المدينة ونشاطاتهم، واماكن لقائهم، وكيفية التعرف اليهم للاستفادة منهم. تبرع عديدون وقدموا له شرحا كاملا، عن ما يريد، وبدأ بزيارة بعض الاماكن المقترحة له. في يوم وهو في مركز كيرافا، في الشارع العام، ليس بعيدا عن مدرسة مركز المدينة الابتدائية، جاء باتجاهه رجل مسن مسرعا يقود دراجتة بحيوية الشباب، تنحى جانبا خوف الاصطدام به، لكن الرجل جاء باتجاهه مباشرة، وتوقف على خطوات قليلة منه وقد رسمت عجلات الدراجة التي ضغط على كابحها خطا اسودا طويلا على اسفلت ممر المشاة:

ـ مرحبا!

رد عليه كريم بود وترقب، فسأل:

ـ انت كريم مطرود من العراق!

ـ نعم.

ـ أنا بيكا تويفونين، مهندس متقاعد، سمعت انك تبحث عمن يساعدك لمعرفة كيف يفكر الرجل الفنلندي. تبحث عن لقاء فنلنديين يجيدون اللغة الانكليزية، انا اتحدث شئ من الانكليزية المكسّرة، وابنتي تساعدني احيانا في ايجاد الكلمات المناسبة.

ومد يده بثقة. مد كريم يده، وضغط الرجل بقوة على اصابعه وعيناه الملونتان تلمعان بالذكاء. ومن تلك اللحظة شعر كريم ان هذه اليد فيها الى جانب القوة اشياء اخرى، الصدق والامان والمحبة.

واصل الرجل:

ـ اسمع، اعرف انكم في بلاد ما بين النهرين تحبون اكل السمك، ولكم طرقكم الخاصة لاعداده. ما رأيك باكلة سمك ادخنها لك على الطريقة الفنلندية؟

ودون انتظار جوابه حدد اليوم والساعة والمكان الذي سياتي لاصطحابه. من اليوم الاول اسره الرجل بحيويته، فلم يعارضه، ومن اليوم الاول لوجوده في بيت هذا الرجل احس انه في بيته.

حينها عرف كريم ان كل ما كان يتحدث به يصل الاخرين بطرق مختلفة، والا من اين لبيكا تويفونين معرفة ان العراقيين ظلوا طويلا لا يستسيغون سمك البحر رغم اسعاره الرخيصة في الاسواق، لان دجلة والفرات ظلت ولدهور طويلة تمدهم بانواع جيدة وطيبة من السمك النهري؟ كان ذلك جزءا من حديثه لزملائه العاملين في المكتبة، وحين سألوه عن طقوس اكل السمك، حدثهم عن "السمك المسقوف" وشارع ابو نؤاس في بغداد، وبين لهم ان السمك من الاكلات المفضلة لديه، وكل هذا وصل الى بيكا تويفونين بتفاصيله. فيما بعد قال له بيكا تويفونين:

ـ هل تعرف ان في مدينة صغيرة مثل كيرافا ليس النساء وحدهن ينقلن الاخبار، بل والرجال ايضا!

ولم يكن بحاجة للكثير من الشواهد. الايام بينت له صدق ذلك، مما جعله يتسائل:

ـ واين الاستقلالية الفردية؟

تأكد من ذلك يوم افترق عن آريا، اذ فوجئ بالمقربين اليه ودون ابلاغهم بنفسه، يعرفون ويدركون كل شئ، لحد تصور ان المدينة كلها وفي اسبوع واحد عرفت بذلك، وسأل فوزي يومها بشئ من السذاجة:

ـ اتكون هناك نشرات سرية لا نعرف بوجودها؟

لم يرد فوزي، ابتسم واشار الى الهاتف بسكون وهو يواصل تقليب الصحيفة بين يديه.

تذكر كريم كيف ان آريا، في مرات عديدة، كانت تتركه في المرقص قرب محطة القطار يلعب البيليارد مع من يلتقيه من المعارف، لتذهب الى مرقص اخر على مقربة من دار الشؤون الاجتماعية، بحجة البحث عن صديقتها وحين تعود بعد نصف ساعة او اكثر يكتشف انها تحمل اخبارا عن المدينة كلها. واذ يحاول اقناع نفسه بقول ابيه عن المرأة، فبيكا يقول له:

ـ لا تنس، والرجل في هذا ينافس المرأة!

وتعاكسهم كريستينا زوجة بيكا تويفونين. كانت هذه المرأة تكتفي دائما بالاستماع. وحتى حين تعارض بالكاد تعرف ان لها وجهة نظر مغايرة. كانت تتحدث ببطء شديد، مثل طريقتها

في الاكل. كانت تلوك الطعام بهدوء ملفت للانتباه، وكانت تقدم كلماتها بشئ من الخشية، وكأنها لا تريد اغضاب المقابل. لم يكن الامر، كما تصور كريم لاول مرة، بسبب مرضها، الذي لم يجرؤ السؤال عن ماهيته، ولكن ذلك كان طبعها، الذي تعوده. مرة كانوا يتحدثون عن الحروب التي اشعلها الديكتاتور في العراق ضد الشعب وضد الجيران، وافتقاد الناس للسلام الذي كان واحدا من اسباب عديدة وراء هجرة العراقيين الى كل بقاع العالم، حاولت كريستينا المشاركة بأضافة وجهات نظر مؤيدة لكلامه، لكنها لم تفعل سوى ايصال نصف جمل تدين الحروب بانواعها. وحين اخبرهم بان مدينة هلسنكي ارتبطت في ذاكرته بكلمة السلام، يومها نظرت اليه كريستينا، وقالت دون مقدمات:

ـ اذا كانت هلسنكي ترتبط في ذاكرتك بالسلام، فأن السلام، يرتبط في ذاكرتي بالكعك!

ــ الكعك؟!

تساءل بشئ من الاستغراب وغالب ابتسامة راودته، ولو كان نوري موجودا لاطلق ضحكة رنانة ربما تحرج المرأة وزوجها. كان بيكا يصب المزيد من النبيذ الاحمر في اقداح من الكريستال، ويغمز له دون ان تلحظه كريستينا بأن هناك المزيد، وامسكت كريستينا بيد مرتجفة بالكأس، شمت النبيذ اولا، ارتشفت قليلا منه، وتمضمضت به، والتفت الى زوجها محركة راسها بعلامة اطراء لجودة الشراب، ثم التفت الى كريم وراحت تتحدث بهمس، وبشكل متقطع، وبالكاد كان يسمع كلماتها المتعثرة ويجمعها:

ـ نعم، الكعك. وماذا في ذلك؟ ولم يعد يعني عندي السلام بعد الحرب، صار عندي شيئا معادلا لاشياء كثيرة، تصور صرت اشتري هذا النوع من الكعك ليس من اجل اكله، بل ليكون امامي ليمنحني شيئا من الراحة والهدوء. هذا الامر، رافقني من ايام طفولتي. كنت طفلة، وكانت الحرب العالمية تحرق الاخضر واليابس. عائلتنا لا تزال تعيش ذكريات ماساة فقدان عمي وزوج خالتي، حيث قتلهم معسكر البيض بدون رحمة. نعم، في ايام الحرب الاهلية ، كانا من معسكر الحمر. وكنا نعيش اجواء قاسية، لم يكن هناك كفاية من الطعام. لم تشأ جدتي ارسالي الى السويد مع آلاف الاطفال الذين تم اجلاؤهم الى هناك. ربما كان هذا واحدا من القرارات الحكيمة القليلة في حياتها، اذ عانى هؤلاء الاطفال الكثير من المشاكل بعد نهاية الحرب. تلك الايام، كان يمكن للموت طرق بابنا في اي لحظة مع تطورات المواقف في الجبهات. ابي في الجبهة بعيدا عنا، وكنا نترقب وصول خبر موته بين الحين والاخر، مثلما حصل لجارتنا، التي ترملت وهي حامل. توقفت امي عن الذهاب الى عملها، وتطوعت

ممرضة في مستشفى عسكري. كانت جدتي التي عشنا معها انا واخي تبذل جهدا لاطعامنا بما يتوفر. وحتى الان كل مرة اقف عند مائدة الطعام، اكاد اجهش في البكاء اذ اتذكر تلك الايام المرة. ويوما وصلت جدتي فراحت بالكاد تلتقط انفاسها. ازاحت الستائر وفتحت الشبابيك ورفعت صوت المذياع على محطة تبث الموسيقى. وسرعان ما وصلت جاراتها. اعدت المائدة على عجل، كانت مائدة مختلفة عن بقية الايام. جلب كل قادم معه، ما توفر لديه. ظهرت على المائدة اشياء لم الحظها سابقا، ولم اتذوقها. كان هناك لحم مقدد، وكان هناك سمك مدخن. وايضا نوع من كعك محلى بالسكر. اعجبني يومها جدا... جدا. طلبت المزيد، فقدمت لي جدتي حصتها، وقالت لي (كلي يا عزيزتي، انه السلام، وسيكون هناك مزيدا من الكعك كل يوم).

بعد حين، حين روى كريم الحكاية، لفوزي بحضور نوري، لم ينتظر من نوري ان يكون بتلك الحدة في تعليقاته:

ـ نعم، لقد اكل الفنلنديون المزيد من الكعك، حين راحوا يلعبون على الحبلين تحت ستار الحياد، صار مقر منظمة السلام العالمي في هلسنكي، وصارت هلسنكي مكانا للنشاط السري لمخابرات كل دول العالم، وجسرا ونافذة بين الشرق والغرب. رجال الاعمال الفنلنديين كانوا اذكى من KGB و CIA، اذكى من الجميع. كانوا يشترون البضائع السوفياتية، التي لا يمكن تسويقها في العديد من البلدان، خصوصا الاسلامية، والعربية منها، لانها سلع من دولة ملحدة، ويقومون بالاتفاق مع السوفيات الذين يوافقون على تغيير علامتها في مصانعها، ووضع علامة "صنع في فنلندا"، وتحول الى اسواق اخرى تتلقفها كبضائع فنلندية، وبهذا كسب رجال الاعمال الفنلنديين ملايين الدولارات.

يومها نظر اليه فوزي وقال له ضاحكا:

ـ يبدو ان لك مصادرك العجيبة لكل هذه المعلومات؟

فصرخ نوري:

ـ منهم انفسهم، ورب العالمين، وانت الاعرف، من الفنلنديين اسمع هذا الكلام، انا لا استخدم قضيبي فقط في علاقاتي، استخدم اذني ايضا واسمع ما يقولونه.

فواصل فوزي:

ـ ولكنك يا نوري لا ترى من الفنلنديين الا ما يسهل لك انتقادهم.

يومها نظر اليهم نوري بغضب:

ـ هل يعني كونهم قبلوني لاجئا عليّ مصادرة وجهات نظري، حتى لو كنت خاطئا، او مبالغا. انا امارس حقي في الديمقراطية وفق القوانين الفنلندية، وازيد على ذلك شئ من الفوضوية تعويضا لما حرمته بسبب حكومة صدام حسين.

قال له فوزي:

ـ يا صديقي حتى نساؤهم، موضوعك المفضل، لم يسلمن من لسانك، الاسبوع الماضي قدمت لنا محاضرة مملة عن علاقة الجنس بسمنة النساء الفنلنديات، لو تجمع معلوماتك في كتاب ربما يلاقي رواجا؟

٥

رفضت تاوات الانتظار عند محطة القطار. واختارت الذهاب الى المكان مباشرة. ولم تفهم تاريا سبب الرفض. عشرات المرات، كان شاخوان يردد امامها، كيف ان محطة القطار الرئيسة في العاصمة صارت شتيمة للاجانب:

ـ بعد سلسلة من المشاجرات الدموية صارت مكانا للاشاعات والاخبار، ولم تجد صحف المساء مكانا احسن منها لعكس صورة مثيرة للاجانب وتشويه جوانب منها. هناك يجدون بوفرة العاهرات القادمات من بلدان الاتحاد السوفياتي السابق، ما ان يقف الرجل ليربط شريط حذائه، حتى تقترب منه امراة مغناج تتعثر باللغة الفنلندية، ومصطنعة الغباء تسال عن شئ ما تافه، لعله يفهم سؤالها ويكون زبون الليلة. والى هناك يهرع موزعو المخدارت، فالزبائن هناك من كل الجنسيات، فتعلم الباعة المفردات الضرورية لتجارتهم بكل لغات العالم. يقتربون من الاجنبي، ليسألوه من اين؟ وحين يعرفون مثلا انه عربي مباشرة يسألوه: "بدك شي"؟ او يلحنوها بشكل غامض ومكشوف: "أتريد مساعدة؟". مرة سألوا عراقي مسكين قادم من مدينة بعيدة "هل تريد مساعدة؟" وكان عابرا من هناك، فقال لهم بعفوية (لا شكرا اعرف العاصمة جيدا، زرتها عدة مرات)! المسكين، تصور انهم متطوعون لمساعدة الغرباء. اما باعة القات اليمني فحدث ولا حرج، يحملون باقات القات في حقائبهم، وكانهم يبيعون الكرفس، حتى بعد اصدار السلطات الفنلندية قرارا بمنعه واعتباره مادة مخدرة. المشكلة التي تحير الكثيرين، ان المنطقة مزروعة بالكاميرات، ورجال الشرطة من النساء والرجال، يملأون المكان بالزي الرسمي او المدني، ومع ذلك يظل تجار الممنوعات نشطين، بحيث ان العابر لمحطات المترو في اخر الليل يميز بسهولة المستهلكين لما اشتروه وهم متناثرين على المقاعد والارضية محلقين في سابع سماء.

تعتقد تاريا، بان ناوات تبالغ في حذرها، واحيانا تقول لها:

ـ انتم الاجانب تعيرون اهتماما لصحف المساء اكثر من الفنلنديين. هذه الصحف تريد ملأ مساحات الورق بأي شئ، ولا يوجد افضل من الاجانب مادة لنشر المبالغات ونفخ الاخبار!

غادرت ناوات منزلها على عجل. كان عثورها على شقة مجاورة للمستشفى الجامعي، مصادفة ساعدها عليها زميل في العمل، وكانت المفاجأة بان موقف الترامـوي رقم ١٠ قريب من محل سكنها. كانت تريد بلوغ المطعم اولا، فلا يعجبها الوصول متأخرة، كما هو معروف عن الاجانب كونهم لا يحترمون الزمن والمواعيد. ارادت الذهاب الى حمام المطعم اولا لتضيف لمسات اخيرة الى مكياجها، ثم تنتظر تاريا وضيوفها. قالت لها تاريا منفعلة:

ـ وعدتك من فترة بدعوة للعشاء في مطعم، وهاهي صديقتي من ايام المدرسة الثانوية، قادمة من النرويج حيث هربت من البطالة هنا، فوجدت هناك عملا وزوجا غنيا، وصلت لزيارة اهلها فدعوتهما الى عشاء وسهرة، فلماذا لا تحضرين معنا؟

ولم تجد ناوات الا الموافقة، ولكنها اشترطت:

ـ عشاء: نعم. سهرة: لا، سأعود بسرعة، لا أود التأخير كثيرا.

فاكتشفت ان تاريا رتبت كل شئ:

ـ اذا لم يوصلك يارمو، سادفع لك اجور التاكسي!

قررت انتظارهم عند المشرب، تشرب كأس عصير، حتى يصلوا، اذ انها بكرت قليلا. ودعت رب العالمين الا يورطها بوجود عراقيين مصادفة هناك، فستكون كارثة لو ان احدا يعرفها ومر هناك. من يصدق انها مدعوة الى عشاء مع عائلة؟ سيعملون من الامر قصة تتحدث بها كل فنلندا، وستصل الى عثمان، لياتيها منتفخا كالطاووس، وليقول لها من انفه:

ـ مع كل احترامي لك، فانت زوجتي السابقة، وبيننا زاد وملح وعشرة، وواجبي ان...

صارت تشعر بالغثيان حين يكرر أمامها عبارة "زاد وملح وعشرة"، صارت كلمة "العشرة" تعيد اليها دائما صورته وهو سكرانا عاريا يشخر فوق صدرها، ويدلك بيده قضيبه عله ينتصب وهي تنتظر منفرجة الساقين وتلعن حظها العاثر، ثم فجأة يهوي الى جانبها متعللا بتعب السفر.

حين وقف الترامـوي ليس بعيدا عن تمثال الجنرال مانرهايم، لمحت شخصا ممتلأ، بشعر اسود، على الرصيف الثاني، ظنته عثمان او شخصا يشبهه يعرفها، فتمهلت في النزول. تأكدت ان تفكيرها الدائم بعثمان وخوفها من العراقيين يحمل لها مثل هذه التخيلات. أرادت النزول فأصدمت بفتاة

فنلندية تعجلت بدورها الصعود. كانت فتاة قصيرة، ضئيلة القوام، بوجه طفولي حزين، وحركة مرتبكة تجعل شعرها يثور، وكانها تخشى ان يتركها الترام. داست لها الفتاة طرف معطفها، وكادت ان تسقط بسبب ذلك. مدت ئاوات يدها بسرعة وامسكت بطرف كتف الفتاة وجعلتها تتوازن. شعرت كم الفتاة خفيفة وناعمة. ابتسمت للفتاة بصدق مشجعة، ثم نزلت بسرعة لتفسح لها الطريق. حين صارت قبالة بناية محطة القطار الرئيسة، لاحظت كيف ركض رجال البوليس بأتجاه زاوية ما. ثمة من يبتعد عن المكان، وثمة من يشير باتجاه سيارة متوقفة مفتوحة الباب. يبدو ان هناك شجار بين صبية مراهقين. تمنت ئاوات الا يكونوا من العراقيين، لكن امنيتها لم تتم. لاحظت احد رجال البوليس يمسك بيدي دلشاد ابن ماموستا فرمان ويبعده بعيدا عن شاب مدمى يفترش الارض. غالبية العوائل صاروا يحذرون ابناءهم، وخصوصا بناتهم من دلشاد ابن فرمان. صار زبونا جيدا لمراكز الشرطة. صار العراقيون يتناقلون اخباره السيئة بشكل يومي. كل يوم ثمة قصة شجار واعتداء. قيل انه يسرق السيارات، ويفتخر بذلك علنا. يعبث بالسيارة المسروقة طول النهار، ثم يتركها في اي مكان. اوقفته الشرطة مرارا. امسكه البوليس كذا مرة بتهمة الاعتداء على الناس. يقال ان اصحاب المحلات الكبيرة، صاروا يعرفون وجهه وشلته جيدا، يتصرف وكأنه زعيم عصابة من المراهقين. الناس لا تلومه، تلوم اباه اكثر. قال شاخوان:

ـ ابوه مشغول بشراء العقارات في كردستان، وابنه يتحول الى حرامي محترف!

قابلته ئاوات مرة، في"اسواق منطقة المركز الشرقي"، كان يسير متبخترا ويشبك يده على خصر مراهقة يكاد يندلق صدرها من بين ثيابها الفاضحة. اصحابه من حوله، بينهم العديد من الفنلنديين، وفيهم من جنسيات اخرى، شقر وبعيون ملونة، يقال من الروس واليوغسلافيين. لكنه الملعون، يبدو الامر الناهي بينهم. كانت ئاوات تجرب حذاءا في طرف المحل، حين مر من هناك، لمحها فتوقف وهمس بأذن صاحبته شيئا ما، فالتفت اليها المراهقة بفضول. الله يعلم ماذا قال لها. سار على مهل وهو يرمقها بنظرات حيوانية شبقة لا تلائم عمره الفتي. ابتسم بخبث، وراح يراقب طرف تنورتها المرفوع عن ساقها، فسحبتها بسرعة وهي تحدجه بنظرة ذات معنى، فانصرف وهو يسحب صاحبته ويغني بصوت عال ليجعلها تسمع وسط استغراب البائعات والزبائن:

ـ (شەمامە و خلخاڵ

شەمام شیلکی

ناردومە بۆ ماڵ

تەرزە و فینکی)[٥١]

قالت لها دلسوز يومها:

ـ انتبهي لنفسك يا ناوات جيدا، لا يبدو هذا علامة جيدة ان يتحارش بك مراهق.

وانفجر غضب ناوات:

ـ وماذا؟ ايظنوني قحبة؟ هذا من تربية وفعل امه العاهر بنت الكلب، ترزه خانم، اعرف انها تحكي عني بالسوء امام الاخرين وبحضور ابنائها، او تعرفين لماذا تعاديني ترزه؟ لانني صرت افهم كم هي فارغة وتافهة، ولاني صاحبتك، ولانك زوجة شاخوان. هذه امرأة حسود، تعرف كوني لا احبها ولا أحب عيون زوجها المالحة، الذي يريد زيارة مكة. اتدرين كيف يبصبص بعيونه كلما التقيه؟ والله احيانا اشعروكأن عيونه تغادران محجريهما وتدخلان تحت ثيابي، ولماذا تدخلان تحت ثيابي، بمجرد وجوده اشعر بنفسي عارية امامه. كان عثمان يلومني حين اهرب من فرمان حين يزورنا، واخبرته بأحساسي، وراقبه عثمان جيدا وايدني تماما، تصوري حتى عثمان ايدني بذلك.

ولكن فرمان، لم يترك عدم احترامها له يمر بدون جواب، بحث عنها في حفلة النوروز الاخيرة ليقول لها بهمس:

ـ مبروك!

وارتعش قلبها. قالها بخفوت وكأنه يخبأ سرا لا يريد احدا معرفته.

ـ على ماذا؟

وضحك بصوت خافت من بين اسنانه. كانت لا تريد اطالة الوقوف الى جانبه. فالكثير من النظرات صارت توجه اليهما. وكانت دلسوز من حلبة الرقص تراقبهما، فقال لها:

ـ احقا لا تدرين؟

وبنفاذ صبر وبصدق كامل قالت:

ـ لا والله لا ادري!

فقال وكأنه يرشها بغاز الخردل:

ـ ولماذا دفعت لي تلك المبالغ؟ محمود، سأجعله يصل السويد بأسرع ما يمكن، وجدت له طريقا لا يكشفه فيه احد. سأرتب له جواز سفر سويدي لا يمكن لاي اجهزة فحص اكتشاف تزويره، لكن احذرك! اياك واخبار أحد، لا تزال كثير من الامور تحتاج مني الى المزيد من الترتيب، اخبرك بهذا لازيد من افراحك بقرب وصول ابن عمك.

ارادت سؤاله بغباء:

ـ وكيف رتبت كل هذا ؟

ثم تذكرت، ان امثال فرمان، هم من يقول عنهم فوزي:

ـ هؤلاء، يجيدون ادخال الجمل من ثقب الابرة.

تتذكر ئاوات ايام كان شاخوان في سرير المرض، زاره بعض اصحابه، كانت ئاوات هناك تساعد دلسوز، وتخدم الضيوف حين قال نوري موجها كلامه الى الجميع:

ـ اتعرفون انا اقسّم العراقيين في فنلندا الى مجاميع خاصة، وليس كما انتم تقسمونهم، الى لاجئين وجماعة السفارة، ولا حسب تقسيم جماعة الاحزاب المعارضة او جماعة النظام، ولا حسب الجوامع شيعة وسنة ووهابيين، لا عيوني، وانتم الاعرف، انا اقسمهم هكذا: المجموعات القادمة من سجون استونيا، والمجموعات القادمة من مخيمات رفحا، والمجموعات القادمة عن طريق فرمان بوند، والمجموعات القادمة عند طريق احمد عبدالسادة، ومجموعة المتفرقة، والمتفرقة هؤلاء مثل شاخوان الذي دفع اجور سفر الى السويد، ولكن المهرب والحظ جلباه الى فنلندا حتى يشلع لنا قلوبنا!

تتذكر ئاوات، قبل شهور، يوم اتصل بها اخيها بشكل مفاجئ. ارعبها وهي تسمع صوته على الهاتف. نادرا ما يبادروا للاتصال بها من كردستان. كانت دائما هي من تتصل بهم. سألها مثل محقق شرطة:

ـ هل تعرفين ماموستا فرمان طه؟

واجابت وهي ترتجف، وعشرات الاسئلة تخطر في بالها:

ـ نعم، اعرفه واعرف زوجته.

حشرت اسم زوجته في جوابها رغم انها لا تطيقها، لكن معرفتها بأخيها واهلها جعلها تفعل ذلك لتوحي بأن لا علاقة لها مباشرة معه، وهو امر صحيح جدا. فواصل اخيها:

ـ له بذمتنا مبلغ من المال، هل يمكنك تسديده بدفعات او مرة واحدة.

يظن اخوها ان لديها هنا حصة في الخزينة الفنلندية تسحب منها ما تشاء. لا يدركون انها تقتصد في مصاريفها لترسل لهم كل هذه الهدايا والمصاريف. وسألت كم هو المبلغ:

ـ له بذمتنا ثلاث الاف دولار، دفعنا له الفا، وبقي لنا الفان، اذا يمكن ان تسددي له المبلغ.

وتطلب منها محاججة اخيها بسرعة، لتخبره بحقيقة كونها لا يمكنها تسديد مثل هذا المبلغ. وفي مكالمة هاتفية اخرى عاهدتهم بتوفير الف دولار فقط. ولم تسأل لم هذا المبلغ. بعد حين، حين سلمت ماموستا فرمان الدفعة الاولى من المبلغ همس لها:

ـ محمود ابن عمك، صار في اليونان، غادر تركيا بسلام وهو الان هناك ينتظر ايعازا مني. اصبري عليّ زمنا وستجدينه هنا.

وخمشت اصابع وهمية قلبها. لماذا هو قادم؟ اتكون دفعت مالها ليأتي ويكتم لها انفاسها، ويكون شرطيا عليها؟ ومن يدري قد يفكر بالزواج منها؟ اترى اهلها يرسلون لها عريسا من السليمانية؟ الم يجدو غير محمود الاقرع؟

صارت ثاوات امام المطعم، قرأت الاسم جيدا: "القنديل"، دفعت الباب بهدوء، ودخلت بثقة، وكانت تحسب انها وصلت مبكرة قليلا قبل تاريا وضيوفها، ما ان صارت في الداخل، حتى وجدت نفسها وجها لوجه امام يورما الذي بدى جذلا لمرآها.

٦

لم تشأ باولينا احراج كريم بأي سؤال. سألته بما فيه الكفاية، وصارت تعرف الكثير عن الموضوع. من بداية علاقتهما ادهشها هذا الرجل بصدقه وصراحته. كم تتألم لان اخيها تيمو يعتبر كل اجنبي ماكنة للكذب. في مشتل الزهور، اشتغل معه ثلاثة لاجئين، وكل مرة يكتشف انهم يشتركون معا في خداعه، فكان يشعر بالغباء والالم، لم يستطع طردهم لانه كان يستفيد منهم تماما:

ـ يشتغلون كالثيران.

كانوا يعملون عنده بالاسود، وبأجور زهيدة، لكن ساعات العمل الاضافية، وهي كثيرة، كانت تحسن من رواتبهم، وكان يطعمهم، فكانوا مسرورين لعملهم معه. اخوها يعرف انهم رسميا عاطلين عن العمل، ويعرف انهم يقبضون مساعدات مالية، من دائرة الشؤون الاجتماعية، ويقبضون منه اجورهم نقدا ومباشرة، دون اي ضرائب. بالمراقبة البطيئة والدقيقة، اكتشف تيمو ان تغيبهم يكون بالترتيب وفق معادلة رياضية بسيطة، فهم يتغيبون بالتوالي، ولم يحصل مرة ان احدهم تغيب مرتين متتاليتين، وزاد من شكه بأن هناك اتفاقا فيما بينهم، ملاحظته لامتلاكهم سيارة واحدة يتنقلون بها، ليكتشف بعد حين انهم من عائلة واحدة ويسكنون بشكل متقارب في منطقة مالمي Malmi من هلسنكي. في البدء، لم يهتم لسؤال الشخص الذي عرفه بهم عن احوالهم وعلاقاتهم العائلية، كان كافيا كونهم كما امتدحهم له: ثيران عمل. حين امتدحت باولينا يوما صاحب الدكان الكردي القريب الى بيتها بالامانة والصدق، ثار تيمو وراح يشتم كل اجنبي، مستعيدا كل قصص عماله الاجانب. وحين علم ثيمو ببدء علاقتها مع كريم،

وعرف انه من العراق، صمت ولم يعلق بشئ. زوجة اخيها وجدتها فرصة لتغيضها فراحت تسألها عن عمر كريم، وعن عمله، وحين لم تلحظ تجاوبا من باولينا سكتت، لكنها حققت الذي تريده بان اشعرت زوجها تيمو بأن اخته لا يهمها ابدا وجهات نظره. وكانت نظراتها تصرخ (هاهي اختك تصاحب واحدا من هؤلاء اللاجئين، الذين يسرقوك علانية رغم انك تساعدهم وتوفر لهم فرصة عمل). بقدر صراحته، لم يكن كريم فضا معها او مع غيرها، راح يقدم لها المعلومات التي تريد على مهل، مثل جرعات الدواء. لم يحاول صدمها بشئ، حتى لا تأخذها الظنون السيئة به. بعد زيارته الى السويد اخبرها بلقائه بأمراة، صديقة مقربة لزوجته السابقة، أم ابنته. جلب لها صورا حصل عليها خلال زيارته واراها اياها. كانت ابنته جميلة جدا. ساحرة مثل اميرة، بعينيها، اللتين تشبهان عيني والدها، ووجها الممتلئ، وشفتيها المزموتين في الصورة بقوة، كأنهما تخبئان سؤالا واحدا:

ـ وماذا بعد؟

كان السؤال يطوف في ذهن باولينا ايضا. ينتقل مثل النار من شفتي صورة ابنة كريم الى قلبها. لم تكن تصدق انه يمكنها العثور على رجل يكون لها ملاذا وميناءا. ما أن يحدث ذلك حتى تهبط عليها لعنة الفقدان. كانها لعنة ابدية. ايمكن ان تكون زوجة أخيها تيمو محقة في ملاحظتها بكونها صارت مقلة في زياراتها الى الكنيسة؟ وماذا يمكن ان يفعل لها الرب؟ لماذا لم ينقذها من الاعيب بينتي كارهونين!

اتصلت بكريم الى شقته، فعلمت انه سهران مع فوزي، وانهم بانتظار نوري. لم يدعوها كعادته. لم تفكر بكونه يقصد شيئا بهذا. كانت تعرف انهم، كاصدقاء، يحتاجون بين الحين والاخر للاختلاء بانفسهم، فماذا ستفعل هناك؟ ستجبرهم للحديث بالفنلندية، التي رغم ان نوري يتحدثها بطلاقة، الا انه لا يستسيغها حين يشرب:

ـ لا تزعلي مني يا باولينا، انت صديقة عزيزة، مثل اختي، محبتك عندي من محبة كريم، ولكن حين اشرب واسكر، لا اطيق الحديث بلغة اخرى غير العربية، وخصوصا لغتنا المحكية. اثناء جلسات الشرب لست ميالا للحديث في السياسة، على غير عادة العراقيين. لا املك مزاج فوزي السياسي ولا مزاج كريم التاريخي، اميل لرواية الطرائف وحكايات الفضائح وشتم من يستحق الشتم، وهذه وامثالها لا يكن ان تأتي موزونة الا باللغة المحكية.

لم تستطع ان تحدد ما يدور بذهن كريم حول زوجته. قال لها وهو يناولها صورة زوجته:

ـ احس اني انظر الى امرأة ثانية، غير التي عرفتها.

لم يقل "احببتها". وفهمت باولينا، مجاملته لها. كانت الصورة لامراة محجبة، على طريقة النساء العراقيات بوشاح اسود، ولكن هذا لم يخف جمال تقاطيع الوجه، ومهارة الماكياج الخفيف. كان الحاجبان، دقيقان كانهما مرسومان بقلم فنان. وفهمت باولينا انهما معمولان بالخيط على طريقة النساء الشرقيات، فقدرت مهارة صاحبة الخيط. نظرت طويلا الى الصورة، وكانها تريد محاورتها. تعلمت نطق اسمها بعد ان كرره لها كريم عدة مرات:

ـ "مهاسن".

وعرفت في محاسن غريمتها الحقيقية. لم تكن اريا، تلك التي نالت لقب "الشرطية" من نوري، بسبب ملاحقتها لكريم. لم يخف عليها كريم ورطته مع اريا. روى قصتها بكثير من التفاصيل، بمجرد ان بدأ فوزي يشاكسه ويلمح للقصة:

ـ ساروي لك قصتها بنفسي حتى لا يرسم فوزي لها قصة ثانية، ولا يضيف نوري بهاراته وتهويلاته.

بدا لها ان محاسن في الصورة الفوتوغرافية، تحمل في عينيها حزن نساء العراق كلهن. كم من قصص سمعت باولينا من العراقيين؟ روى لها كريم قصص مدينة "حلبجه"، وما قرأ عن معاناة وتجربة امراة كردية يعرفها كانت شاهدة على احداث هذه المدينة الكردية الصغيرة. وسمعت من فوزي مختلف القصص عن السجون والمعتقلات، وعن القرى الكردية المهجرة والمحروقة، وعن الالاف من ضحايا التمرد ضد حكومة صدم حسين الذين لا يعرف لهم مصير. في عيني محاسن كان ثمة حزن مكبوت. حزن اخر. حزن سنين طويلة. حزن فقدان احبة لا زالوا احياء، وثمة حواجز امام لقائهم. ودت باولينا ان تسأل لتعرف:

ـ اهذه الصور التقطت خصيصا لترسل اليك؟

لكنها لم تسأل كريم. خشيت ان يكون في سؤالها تجاوز ما على خصوصيات كريم. لا يزال كريم مترددا في العبور التام الى المساحة التي يقفان فيها في علاقتهما، بعد معاشرة تجاوزت اكثر من سنتين. لم تجد في نفسها يوما الشجاعة لتدعوه لينتقل للعيش معها، ظلا طوال الايام كل يعيش في محل سكنه، وثمة حاجز تعتقد ان اسمه "محاسن"، يفصل بينهما.

٧

لم تشأ نيفا فعل ذلك، كان بودها يوما التمسك بوصايا امها، لكن ثمة قوة سرية، سحرية تدفعها، للمسير عبر شارع الكسندر بأتجاه محطة القطارالرئيسية. حالما غادرت آنو "مقهى الاجنحة

السحرية"، حتى لمت نيفا اغراضها وتحركت بسرعة. كانت الاضوية، كعادتها، ساطعة في الساحة الرئيسة للكاتدرائية. الثلج لم ينظف بعد عن السلالم الحجرية، والقيصر الكسندر الثاني ما زال باسطا كفه باتجاه المارين، وتماثيل القديسين تحيط قبة الكاتدرائية وتحرسها. كان هناك الكثير من الناس ملتفين بمعاطفهم، واوشحتهم، يحثون الخطى بأتجاهات مختلفة، فرغم تساقط الثلج الا ان برد شباط القارس يتسلل كالسكاكين تحت الجلد. ثمة سيارة شرطة تدور حول الساحة، وتدخل بداية الشارع لتراقب مداخل المقاهي والبارات القريبة. ربما تتنظر مروجي المخدرات الذين ذكرت صحف المساء انهم يتحركون ما بين محطة القطار الرئيسية وساحة الكاتدرائية؟ قالت نيفا لصاحبتها انها ستبقى في المقهى قليلا تدخن سيجارة اخرى ثم تنصرف، ولمعت عينا آنو بشكل تآمري وتضرج وجهها بالدم، فصار النمش في وجهها اكثر وضوحا، وقالت هامسة:

- يا ملعونة، اتراك تنتظرين احدا ما؟

وابتسمت نيفا:

- دعيك من هذا، وتذكري انك معي صديقة لا اكثر، وشرطية مع الاخرين.

اليوم بادرت نيفا ودعت آنو، كان بودها البوح لها بما يعتلج في قلبها، بما صارت تكابده هذه الايام. منذ اعتقال كاري واعادته الى السجن من جديد، بعد اكتشاف هروبه وعدم رجوعه في موعد نهاية اجازته. شعرت بالارتياح لوجوده خلف القضبان، لربما يمنحها ذلك المزيد من الحرية لتفكر بقدرها الجديد. لم تملك في نفسها الشجاعة يوما لتحكي لصديقتها شيئا عن معاناتها مع كاري. كانت تطمر كل شئ في روحها، لاعنة حظها، مستسلمة لقدرها. حين قاربت اطراف "بناية النقانق"، وجدت نيفا نفسها تتجه نحو"المقهى الرياضي". اخبرها نوري بأنه يتردد الى المكان احيانا. سارت في الممر الطويل المحاذي للمقهى. بعينيها بحثت بأضطراب ولهفة بين الجالسين في الجزء الخارجي من المقهى. لم يعرها احد اهتماما. كانت انظار جميع الزبائن موجهة الى شاشات التلفاز. كان هناك صياح وهرج عند الشاشة الكبيرة وسط المقهى. لم يكن نوري مخطئا ليسمي المكان بالمقهى الرياضي. ثمة مباراة كرة قدم، والكل منشد الى هناك، الى حركة الكرة بين ارجل اللاعبين. قلبها صار مثل تلك الكرة. لا تملك قرار التحكم بقلبها، وليس ثمة من يصفر لايقاف تدهور كرة القلب. بسرعة وجدت نفسها تغادر المقهى.

- الى اين؟

سألت نفسها. كان الرجال حملة الفوانيس يواجهوها مقطبي الوجوه كعادتهم بوجوههم الصخرية. جعلتهم خلفها وتحركت باتجاه موقف الترامواي رقم ١٠. وهي تصعد الترامواي، ودون

قصد زاحمت فتاة اجنبية كانت تريد النزول، فداست لها طرف معطفها الاسود الانيق وتعثرت به. كانت فتاة جميلة، بقوام رياضي، انيقة، بتسريحة شعر غالينا اندرسون. يبدو انها مدعوة لحفل ما. اعتذرت منها، وافترشت وجه الفتاة ابتسامة سماح ومودة عريضة. اعتبرت ئيفا ذلك فألا طيبا لها، فصعدت التراموي بثقة. لم تعد ئيفا تملك مفرا من زيارة مطعم "نيران نوروز".
اعطت نوري رقم هاتفها، لكنه لم يتصل. كانت تظن ان نوري فهم رغبتها بلقائه. لم تشأ التلميح اكثر. لم تشأ ان يفهمها بشكل خاطئ ويظنها متهالكة على علاقة مع رجل، او باحثة عن علاقة عابرة. صارت تشعر انها تحتاجه، تريد منه سماعها لاكمال ما بدأت الحديث عنه.
بعد الحادث باسبوع، زارته الى المطعم. حفظت يومها اسم المطعم جيدا من الاعلان الفسفوري على السيارة. كان اسم المطعم ملفتا للانتباه. تعرف مياه الربيع، عرفت ذلك في لوحات بيكا هالونين، الذي تملك البوما للوحاته اهدتها اياه امها في عيد ميلادها الثامن عشر، لكن كيف تكون نيران الربيع هناك في العراق؟ هل تكون مثل نيران عيد القديس يوحنا المعمدان، حين تصل الشمس اقصى مدى لها في الارتفاع، ويكون احتفال منتصف الصيف، حيث تشتعل شواطئ البحيرات الفنلندية باكوام النار، وحلقات الرقص والغناء؟ قرات عن عيد النوروز في مجلة، وسمعت من آنو احاديثا عن النوروز، قالت انها تعرف فتاة كردية، دعتها يوما الى حضور احتفال كردي بمناسبة العيد، اعتذرت آنو لانشغالها، لكن الفتاة دعتها الى عشاء شواء في باحة البناية، وحدثتها عن نيران النوروز، التي كانت علامة التشاور بين ثوار اسطورة القضاء على حاكم ظالم، فصارت رمزا. اسطورة عن ملك طاغية، عاش في ازمان سحيقة، إسمه: "الضحاك"، حكم أمبراطورية مترامية الأطراف في بلاد ما بين النهرين وكردستان وإيران.
تسلط هذا الملك على شعب آمن سكن المنطقة إسمه: الكرد. في كتفي الملك تعيش حيتان تتغذيان من اكل ادمغة شباب الكرد. وكل يوم كان حرسه يأخذون شابا ليذبحوه. وخلال أعوام طويلة فقد الكثير من الرجال أطفالهم، فصاروا يجتمعون في الخفاء لايجاد حل لماساتهم، واتفقوا على الثورة، وحددوا اشارات لاندلاع الثورة، اشعال النيران فوق قمم الجبال. وكان رجل كردي يعمل حدادا إسمه "كاوه" له سبعة ابناء، قتل الضحاك ستة منهم. وجاء دور السابع، فأخذه حرس "الضحاك" لذبحه. أنفجر غضب الاب الحداد و حمل مطرقته، وتوجه إلى قصر الطاغية الضحاك صارخا، محتجا، فلحق به الناس وبدأت الثورة. واشتعلت النيران فوق قمم الجبال رمزا للحرية ونهاية الظلم. كان ذلك في الحادي والعشرين من نوروز، الذي صار عيدا قوميا للأكراد.
يومها لم تخطأ ئيفا العنوان، وصلت بسهولة. في زاوية المطعم، جلست بسكون، مضطربة تشرب

قهوتها المرة. كان صاحب المطعم، مقطب الوجه، وثمة اثر جرح عند طرف حاجبه لايسر، كلما زم شفتيه يجعله يبدو كمجرمي السينما، يتحدث غاضبا عبر الهاتف، بلغة لا تفهمها، وكانت ثمة زبائن يدخلون ويخرجون. فجاة رفعت بصرها لتراه امامها، بقامته الرياضية، وشعره الاسود اللامع، وتلك العينين الذكيتين. بجرأة اقترب منها، دون تردد وحياها دون ان يمد يده للمصافحة:

ـ مرحبا، انت التي...

وبتردد اجابت:

ـ نعم!

ودون ان تدعوه جلس قبالتها.

ـ اي خدمة ومساعدة؟

كان سؤاله استفزازيا. وان قاله بلغة فيها الكثير من التعاطف. فتحت حقيبة يدها، واستخرجت قطع نقدية وقالت:

ـ جئت أرد اليك نقودك.

ضحك بقوة، اربكها كثيرا، وجعلت صاحب المطعم يلتفت اليه بشئ من غضب. هل ظنه يتحارش بزبونة؟ هكذا فكرت مع نفسها. لكن لم ضحك بهذا الشكل، ايسخر منها؟ ومد يده بجرأة دفع اصابع يدها وقال بحزم:

ـ ردي نقودك، لقد جعلتيني يومها سعيدا، اذ ساهمت نقودي في خلاصك من ذاك... السحلية.

لم ترد بشئ. ادهشها نطقه السليم باللغة الفنلندية. كان الارتباك يغزوها بشكل لا تصدقه. كم من مرة لامتها امها، على كونها تترك زمام المبادرة لمقابلها. كانت امها تعنفها في كل مرة تقابلها، وتردد بغضب:

ـ مع الاخرين، خصوصا مع الرجال، يجب ان يكون زمام المبادرة لك. انت امرأة، والمرأة هي الاصل.

وهاهو رجل اخر، يقود الحديث والكلام، دون التمكن من ان تجد نفسها في موقف القوة. كيف يسخر البعض وينتقد المرأة الفنلندية، وكونها امراة قوية ومغرورة، وانها مستقلة بنفسها اكثر مما يجب؟ هاهي مترددة، قلبها يرتجف، وعيونها خفيضة، رغم انها لم ترتكب جرما، ولم تخطأ بحق احد. لم تكن المبادرة للبدء في علاقتها مع كاري. كانت فكرة ابيه. رجل عجوز طيب، تعرفت اليه خلال زياراته الى للعلاج في المستشفى. يوما وجدت نفسها امامه وجها لوجه، قرب نافورة "حورية البحر" في طريقها الى سوق الخضار عند الميناء. القت التحية، وارادت الاستمرار في طريقها لولا ان العجوز ابتسم بحرارة فتوقفت. كان ابنه الى جانبه. لم يتصافحا، لم

يتحدث بشئ. دعاها العجوز الى عيد ميلاده، بادر فورا واعطاها هاتف المنزل والعنوان، وحدد التاريخ، وقال انه سينتظر. ماذا تفعل؟ لم تملك خيارا للرفض. كان رجلا عجوزا مسكينا. وضعت المعلومات في حقيبتها وفيما بعد علمتها في تقويمها. لم يكن ابنه في البال اساسا. في حفل عيد الميلاد لم يكن هناك كثير من الضيوف. لم يكن كثير من الطعام، حتى ابنه وصل متأخرا، وشبه متذمر من وجود الكثير من الضيوف، الذين انصرفوا بسرعة، ووجدت نفسها تلاطف العجوز ببقائها الى جانبه والعمل في المطبخ. غسلت الصحون ورتبتها، وعملت لهم قهوة. كان في سلوكها شئ من شفقة. شئ من احساس بحاجة العجوز اليها. في زياراته الى المستشفى واذ لمس لطفها معه كان يتقصد ملاقاتها وتحيتها. ثمة دافع لا تعرف له قرار، اصابع سرية تدفعها للاهتمام بالعجوز. كان في داخلها شئ مكسور، ربما اعتقدت ان هذا العجوز سيصلحه لها. انتحر ابوها، وهي في عمر الثانية عشرة. ادمنت امها الكحول، ولم تشف الا بعد ان ادخلتها الدولة المصحة عنوة. أبعدتها دائرة الشؤون الأجتماعية عن امها السكيرة واسكنوها في مدرسة داخلية. بقيت هناك سنتين. قيل لها ان امها شفيت، وعادت لتسكن معها، فكانتا غريبتين عن بعضهما تماما. لم تجرأ حتى ان تروي لامها ما فعله معها حارس البناية بفضاضة في الاسابيع الاولى. من الاسبوع الاول لوجودها في المدرسة، أستدرجها وصار يجبرها على مص قضيبه كل مرة في مخزن المدرسة وهو يلاعب اثداءها الصغيرة ويدخن بشراهة. لم تجرأ ان تتحدث بذلك لاحد. لاحظت المشرفة الاجتماعية اضطرابها وخوفها من الرجال، وكانت تعتقد انه بسبب عدم اعتيادها المكان. بعد شهور القت الشرطة القبض على الحارس، حين اعترفت فتاة ثانية بما يفعله الحارس معها. صارت المراقبة اكثر صرامة على حركة الفتيات في المدرسة، لكنها لم تشأ الشكوى لاحد، رغم ان المشرفة الاجتماعية صارت توليها اهتماما اكبر وصارت تهتم بموهبتها في الرسم. تعلمت كتم كل شئ في نفسها، صارت تشعر بنفسها مختلفة عن الاخريات. كان العجوز يستمع اليها بانتباه، وصار يناديها ياعزيزتي. لم تجد ما يمنع حين شجعها العجوز في الخروج مع ابنه الصموت الى المرقص مرة، واخرى. كانت بحاجة لمن يرافقها، واحبت الصمت في هذا الشاب. كانا يجلسان يحتسيان البيرة بهدوء وسط هرج الاخرين والموسيقى الصاخبة من حولهما. تعتذر بأدب عن طلبات الرقص، وتظل تنظر تلك اللحظة التي يطلبها كاري للرقص. لم تنتبه يوما لمعنى هياج كاري يوم طلب منها شاب اجنبي اسمر الرقص فأعتذرت بأدب. تكرر خروجها مع كاري وصارت تعرف اي الموسيقى يعجبه الرقص معها. حين سألت الاب عن سبب صمت كاري، وعدم ميله الى الكلام، عرفت انه شريكها في الهم، وان ثمة يد سحرية ترسم لها مصيرها معه:

- بسهولة تركتنا ام كاري مع عشيق لها، لا ازال لا اعرف من هو، قيل انه مهندس سويدي عمل حينا في هلسنكي. غادرت معه، فجأة تركتني وتركت ابنها، وتركت فنلندا كلها. لم تقدم عذرا ولا تبريرا. لم اكن زوجا متعبا في علاقتي معها، لكني كنت مشغولا جدا، كنت كثير السفر لمتطلبات العمل، وكنت اتركها لوحدها كثيرا، اعترف بهذا، وكانت هي شابة تحب الحياة، ويبدو...

اثارها دفاع العجوز عن زوجته التي هجرته، دعاها ذلك الى مزيد من الشفقة والمحبة:

- لم نعرف اين استقرت بها الايام. لم تحاول الاتصال بنا، ولم تطلب الطلاق ولم تطالبني بشئ، وما كان عليّ سوى التعايش مع خيبتي، التي راح ابنها يلمسها في سلوكي، ربما هذا ما يجعلني دائما اشعر بالذنب تجاهه. وجاءنا خبر وفاتها بسبب جرعة كبيرة من المخدرات، ودفنها في مدينة شمال السويد، حيث كانت تعيش. مع ذلك كابرت وتحاملت على نفسي واخذت كاري لزيارة قبر امه ليضع على قبرها باقة ورد، ولكنه منذ عودتنا تخلف في دراسته وصار يميل الى العزلة والصمت.

شعرت ثيفا بان المصير يجمعها والعجوز وابنه. ولم تشأ التخلي عنهما. وجدت نفسها تنقل حاجياتها الى شقة العجوز، الى غرفة كاري مباشرة. ما ان مرت شهور حتى تبين لها ان صمت كاري يخفي خلفه انسانا معذبا، قلقا، ذا افكار متطرفة، سوداوية. وبدا يتدهور كل شئ، حين اكتشفت تردده الدائم الى اجتماعات جماعة نازية سرية ممنوعة. بالصدفة اكتشفت المجلات والنشرات بالصليب المعقوف مخبأة في الدولاب. لم تشأ محاججته، وحين رات وجهه على الشاشة في تلك التظاهرة التي خرجت بسرعة خاطفة، ودارت حول محطة القطار المركزية في هلسنكي، صدمها رؤية وجه كاري معهم، يحمل لافتة بخط عريض:

- أطردوا الاجانب من بلادنا!

ادركت سبب هياجه في المرقص من الشاب الاجنبي، وسبب رفضه مرافقتها لحضور معارض رسم في مركز الثقافات العالمي، حيث هناك تواجد ملحوظ للاجانب. هاهي الايام، تلف بها، لتجد نفسها تلاحق اجنبيا وتشعر بان كرة قلبها بين قدميه.

نزلت من الترامووي، واتجهت بخطى ثابتة نحو المطعم. كان صاحب المحل يعطيها ظهره، يحرك بيده شيئا، حين اقتربت اكتشرعرفت انه مكنسة تنظيف. خمنت انها وصلت في الساعات الاخيرة لاغلاق المحل. كان توقيتها مناسبا. سألت عن نوري، ففهمت انه خرج لايصال طلب بيتزا. استأذنت في انتظاره، فسمح الرجل. طلبت قهوة، فرفض استيفاء الثمن، وراح يخالسها النظر دون كلام. وسرعان ما وصل نوري والابتسامة مفروشة على وجهه. كان ذلك علامة طيبة.

الفصل الثاني

١

وسط هرج الاطفال ولعبهم في ساحة الروضة، وقت الاستراحة الكبيرة، لم تنس باولينا اصطحاب هاتفها المحمول معها. رغم كونها معتادة اثناء ساعات العمل على اغلاقه، لكنها اليوم، ومع سفر كريم الى سافولينا، حاولت ابقاء هاتفها مفتوحا. ربما احتاج كريم شيئا. لم تحاول اشعاره بأنها في حياته تشكل شيئا من قيد له. سواء في علاقاته او لبناء مستقبله. ولا تريد ان تشكل ثقلا ما في حاضر ايامه. منذ سفره الى السويد، ولقائه تلك المرأة، وعودته بصور ابنته وأمها، وهي تشعر ان في داخلها ثمة نار تحرقها. تعيب على نفسها احيانا ما يجري في أعماقها. تتشبث بعقلها لكبح ما يحاول الطفو على السطح من مشاعرها. لكنها تفشل. تلمس جيدا كيف ان كريم حذر جدا في الحديث عن كل دواخله بخصوص هذا الموضوع. رغم انه لا يوارب في عرض مشاعره أمامها ويسمي لها الاشياء دائما بأسمائها:

ـ يحرقني شئ من الشعور بالذنب يا باولينا. تركت زوجتي حاملا وهي لا ذنب لها، وهاهي ابنة لي شبت وصارت امرأة دون اي مساهمة لي في تربيتها وحمايتها. هاهي المخاطر تحيط بهم. قولي لي، هل يمكن البقاء متفرجا؟

حينها قالت له ببساطة:

ـ حاول جلبهما الى فنلندا!

اتسعت عينا كريم السوداوين، ولمعتا بدهشة:

ـ كيف؟

هذا السؤال دوى مثل انفجار عنيف امامهما. كانت مثله حائرة. عانقها كريم بكثير من الحب وهو يراها تشاركه بهمومه، وتفكر معه بعيدا عن مساحات الغيرة او الانانية. تلك الليلة مارسا الجنس بحرارة واحساس اكثر. بعد ايام اخبرها بأن فوزي، اقترح اولا مساعدتهما لمغادرة العراق، ثم التفكير بالخطوات التالية. كان رأي فوزي معقولا. تذكر باولينا كيف ان كريم، حين

نقل لها حديث فوزي، كان يرتجف. شفتاه تختلجان، واصابع يده ترتعش وهي تدوّرالسكر في فنجان الشاي بقوة. رحلته الى سافولينا بقدرما هي خطوة في رحلة بحثه الدائبة عن ابن خالته، الا ان باولينا كانت تعرف انه بحاجة للوحدة، ليختلي مع نفسه. لم تحاول مصاحبته. ليكن ما يكن. لن تكون انانية امامه حتى لو اختارالانفصال عنها. ستسحق مشاعر الامتلاك التي تكرهها. شهورا طويلة، عاشرت هذا الرجل قبل النوم واياه في سرير واحد. قبل ملامسة كفيه وتقبيل شفتيه. كان حذرا من الاقتراب منها بالقدرالذي كانته. اشتهته مرارا، وكانت تعرف انها لن تمانع لو دعاها الى محل سكنه، وحتى الى سريره، لكنها تركته ليبادر بنفسه، لتكون الخطوة الاولى منه، لم تحاول حتى تشجيعه. حلمت كثيرا برجل يستمر معها الى اخر محطة في حياتها. حلمت كثيرا برجل مثل كريم. لم تفكر يوما بجنسيته، واسمه ولونه. كانت امها تقول لها:

ـ الرجل الحقيقي الذي يمكنه اسعادك، هو من يشعرك بكلمة "احبك" دون قولها!

لم تسمع كلمات غزل مباشرة من كريم. لا يجيد هذا الرجل سوى الحديث عن التاريخ وكتب التاريخ والملوك والطغاة وحقوق الانسان وحوار الحضارات والتلاقح الحضاري. كل اسئلته للاخرين، من الفنلنديين، يحاول فيها التعرف اكثر على تاريخ فنلنذا واسماء ابطالها ومدنها وطيورها واشجارها. في الايام الاولى لمعرفتها به، لم يثرعندها احساس اكثر من كونه رجل كثير الاسئلة، بل ويبدو مملا احيانا. ولم تظن يوما ان كريم، القادم من صفحات الف ليلة وليلة محملا بهموم الملك كلكاميش، الذي راحت تحفظ تفاصيل قصته من كثرة ما سمعتها من كريم، انه سيكون الامير الذي يسكن احلامها، بعد خيباتها المتكررة، مع رجال كانت تظنهم مثالها وفرسان احلامها، لكنهم فشلوا في اولى المواجهات والاختبارات. لم يصمد اولهم امام مسؤوليات تكوين اسرة جادة، فأختلفا بسرعة بعد العيش معا لحوالي عام. الفارس الثاني، تعلقت به لحد انها كانت تظن ان لا حياة بدونه، احبت بينتي كارهونين بشكل خاص، بشكل تصورت ان لا حب اكبر منه، كانت تعتبره حبها الحقيقي الاول. حتى كريم لمس ذلك في البومات الصور التي جعلته يطلع عليها. تصرفت بدافع كشف صفحات قلبها، ماضيها وحاضرها امام كريم. كانت تريد منح كريم فرصة التعرف على اشياء كثيرة عنها، ولكن البوم الصور، ربما كان من اخطائها القليلة مع كريم. ايامها لحظت شيئا من الغيرة في عيني كريم وهو يتصفح الصور ويرى ذراعي بينتي تطوقانها وهي تبدو سعيدة وجذلة، لكنه كبح احساسه بقوة جعلتها تتمسك بكريم اكثر. فهمت خطأها حين لاحظت كيف ان كريم يومها لم يقربها ولم يلمسها حتى، فابعدت الصور واخفتها بعيدا عن الانظار، مؤمنة بأن دماء الشرق في هذا الرجل المتعلم،

المتحضر، لا تزال تملك تأثيرها. اخبرت كريم بصراحة كيف ان بينتي لم يختر الا صديقتها المقربة ليغويها. كانت صديقتها خارجة للتو من علاقة عاصفة اثمرت لها ابنا، فكانت وكرد فعل تتخبط بين الرجال، وبحاجة للدعم والتضامن. قال بينتي ان الخمرة لعبت برأسه، وقالت صديقتها انها انساقت لاغواء بينتي. دفع الجميع ثمن تلك الغواية. صاروا جميعا زوار المستشفيات بعد ان نقل بينتي من صديقتها ريتفا بكتريا معدية حصلت عليها من احدى علاقاتها السريعة، وفضح الكشف الطبي ما يجري من خلف ظهرها، فطردتهما باولينا من حياتها، ولتعف عن الرجال والجنس طويلا، حتى بعد شفائها من المرض. روت باولينا لكريم كيف ان احدى زميلاتها في العمل ظنت انها سحاقية حين لمست نفورها من الرجال وسخريتها منهم. مرة، في اولى ايام تعارفهما، حين كان كريم يستمع باهتمام الى نقاش يجري حول اكتشاف اصابات بمرض الايدز بين الاجانب المقيمين في فنلندا، ويسأل عن تفاصيل ما، خطر لها بأن تردد هذا الرجل في اصطحابها الى السرير، ربما يكون لعدم اطمئنانه أليها صحيا. فكرت يومها، كيف تجعله يعرف بأنها سليمة من كل الامراض الجنسية؟ كانت صداقتهما تتعزز بالمزيد من التفاصيل، وكانت تقرأ في عينيه رغبته فيها، لكنه يتخندق خلف تلك الرزانة والجدية، التي تجعلها احيانا تفكر بأنها واهمة بالاعجاب به. وحين حصل ما حصل، لم تستطع كبح نفسها لتقول له:

ـ يا عراقي، يا فأرة الكتب، يا ابن كلكاميش وانكيدو، اتدري كيف كنت احيانا تجعلني اكرهك؟ خصوصا حين كنت اشتهيك، وافكر باننا ربما سنكون معا تلك الليلة، وارتب خططا نسائية بسيطة لاجعلك من نصيبي تلك الليلة، وفجاة تنهض لتقول: " قطاري الاخير الى كيرافا بعد نصف ساعة " وتتركني احترق بأسئلتي ورغباتي. أألحق بك فافقد كل هيبة امام نفسي؟ أأنتقم منك فافتش لي عن شريك ليلة واحدة؟ لكنني اعود الى بيتي وانا اشتمك واشتم كل المئة الف من الاجانب المقيمين في فنلندا.

يضحك كريم لاعترافاتها. ويبادلها الاعتراف:

ـ اتريني اختلف عنك. طيلة تلك الشهور، ضاجعتك في خيالي عشرات المرات، وكنت اراك في لقطات الاغراء في الافلام التي تتضمن مشاهدا جنسية. كنت اقول، هذه المرأة بعد اقتيادها الى سريري، سأمارس معها هذه الوضعية.

كان يتحدث كثيرا عن الكتب التي قراها والتي لم يقرأها بعد، لحد الملل أحيانا. لكنها فهمت سبب ذلك. رجل وحيد، يخشى الارتباط بعلاقة نسائية ثابتة، ستكون الكتب حبيبته وخليلته، فحاولت التقدم خطوة لتزيح بعضا من الكتب من سريره. كان يكرر بأن اختيار

الكتاب مثل اختيار الصديق. اعجبها قوله في المرة الاولى، ولكن حين كرره لها ثانية، وجدت نفسها تظن انه يحاول اصطياد احدى الجالسات. حسب طلبه اصحبته مرة الى المكتبة العامة في باسيلا Pasila تبين لها انه يعرف اروقة المكتبة جيدا، بل مازح احد الموظفات هناك، ويعرف تلك الزاوية حيث رفوف الكتب باللغة العربية. كان يتذمر لانه لا يجد ما يريد هناك، لكنها بالنسبة له افضل من لاشئ. صارت تلاقيه هناك باستمرار بين رفوف الكتب. وبعد توطد علاقتهما، حاولت مرة تقبيله هناك فأشاح بوجهه:

ـ الكتب مثل الناس يا باولينا، يجب احترامهم.

روى لها مرة عن جارته التي عرفت بعمله في مكتبة كيرافا العامة، وخاضت معه حوارا عاما، فافلت منه تشبيه بكون المرأة مثل الكتاب. سألته جارته فورا:

ـ واي كتاب تفضل؟

وفهم كأنها تريد القول:

ـ اي امرأة تفضل؟

أتته الجرأة ليكون اجرأ منها ويرد:

ـ سؤال كهذا لا يمكن الاجابة عنه عند الباب.

التقاها على فنجان قهوة في شقته، وتبع ذلك سهرة في بيتها، وفي اسابيع لاحقة كانت له معها ليال جنس صاخبة، واحاديث عامة، ليكتشف فيها ليس اكثر من جسد مترع بالاغراء، ونارتستعر لمجرد ملامسته نهديها. كانت على عكس ما عرفه عن الفنلنديين تكره القراءة والكتب، ولا تطالع من الصحف سوى عناوينها، ولا تحب من التلفزيون سوى مسلسل "جميلات وشجعان". سألته باولينا مرة عن جارته تلك، التي انتقلت الى شمال فنلندا، ولم يعد يعرف اخبارها:

ـ ما الذي ظل منها في ذاكرتك؟

كانت ترغب بمعرفة طريقة عرضه لافكاره. او شئ اخر لتفهمه اكثر. حدق اليها بأمعان، مفكرا، بالاجابة، وفاجأها بجواب كاد ان يخرق لها بطنها من الضحك:

ـ ضرطتها فقط!

واذ اتسعت عيناها دهشة، واصل حديثه باسلوب لم تعهده فيه، دون ان يضع عينيه في عينيها:

ـ وهي تحتي في السرير مرة، وانا... أهم بـ...، ضرطت فرحت اضحك بدون ارادتي، صرت اضحك اكثر حين راحت تشاركني الضحك ببلاهة.

٢

وصلت الحافلة اطراف مدينة سافولينا Savonlinna مع اول المساء. ودع كريم باولينا بالهاتف. كانت مكالمته معها قصيرة. لم تحاول طرح الكثير من الاسئلة. كانت تعرف غايته، تعرف هواجسه جيدا، وصارحته برغبتها للسفرمعه، لكنها تود اكثر من ذلك بقاءه لوحده. ربما كانت تلمح الى ما يتولد في اعماقه من صراع بسبب احاديث ام عامر. طيلة الوقت في الحافلة الى مدينة سافولينا، واذ تعب من متابعة تفاصيل الطريق، ومتابعة كثبان الثلج التي تغطي جوانب الطريق واشجار الصنوبر الدائمة الخضرة، واشجار الحور العارية والممتدة عاليا في عنان السماء، مكللة بتيجان الثلج، حاول كريم مطرود القراءة في الكتاب الذي اصطحبه معه. من رفوف مكتبته المتواضعه اراد اختيار كتاب ما، رواية او كتاب تاريخ، لكنه بدافع من شعورغامض اختار كتاب ملحمة كلكامش من ترجمة طه باقر...[٥٢]

من اجل انكيدو، خله وصديقه

بكى كلكامش بكاءا مرا

وهام على وجهه في الصحاري

وجد نفسه يعود الى تلك السنوات التي عاشها وصاحب في بيت جده لامه. حاول التذكر من كان البادئ باطلاق تسمية "سراب" على صاحب رفيق طفولته وصباه؟ ليس ثمة شك في انه واحد من كبار السن في العائلة. لكن من هو؟ اهو جده لاميهما ام جدته لابيه او جدة صاحب لابيه؟ كان صاحب طفلا صغيرا حين صار الذي راحت تتحدث به الاسرة الكبيرة لسنوات طويلة. كان شيئا عاديا لو لم يحاول كبار السن ايجاد تفسيرات له من عقائدهم وتجاربهم. منهم من تصوره نذير شؤم للعائلة، ومنهم من تصوره الهام من الرب لحصول حدث عظيم لعائلة الطفل، ومنهم من تصوره اشارة للاهتمام بالطفل، ومنهم من تنبأ للطفل بمستقبل يتحول فيه الى حكاية. ويبدو ان هذا الاخير كان مصيبا. هاهو صاحب يتحول الى حكاية، على الاقل عنده، هو الذي لم يكن يعتقد يوما انه سينفصل عنه. سنين طويلة مرت منذ ذلك اليوم الذي حمل به صاحب اسم "سراب"، وراحت تدور حوله الحكايات والتنبؤات. يومها اصيب صاحب بالرعب وهو يرى السراب اول مرة في حياته. كان مع بعض اهله في زيارة اقرباء لهم عند طرف مدينة الديوانية، والذين تنتشر بيوتهم على نهايات بساتين النخيل، اختاروا اماكن بيوتهم لتكون اقرب الى الصحراء التي منها يرتبطون بصلات تجارة مع سكانها البدو. ليس بعيدا عن

البيوت كان ثمة مَساحة شاسعة مكشوفة ما بين غابات النخيل التي تحيط بالبيوت، هناك كان بعض الاحيان يستقر البدو الرحل في طريقهم للبحث عن مرابع مخضرة، ومعهم يتبادل سكان البيوت بضائعهم، يشترون منهم الحليب والخراف والصوف ويوفرون لهم احتياجاتهم من الطحين والسكر والشاي، وما هذا الا ستار للتجارة الحقيقة التي يمارسها الطرفان الا وهي التهريب، فمن العربية السعودية والكويت، وعبر الصحراء يجلب رجال البدو البضائع والسلع المهربة من اجهزة التسجيل وادوات كهربائية وسكائر روثمان وعطور الريفدور وصابون لوكس المعطر، وينقلها سكان اطراف المدينة لتوزيعها على الزبائن من اصحاب الدكاكين. في تلك المساحة الفارغة من الارض الجرداء، في ذلك الصيف البعيد، شد انتباه صاحب، حركة السراب وما يفعله بصور الناس وشخوصهم. حدق الطفل ذو الخمس سنوات، مليا بعيون مفتوحة، بالمشهد امامه، كان ثمة مجموعة رجال ودوابهم يتحركون افقيا في المنظر امامه. كانت قامات الرجال تبدو له مائعة وتستطيل وتستدير باعوجاج، وتتحرك تماما مثل الصور التي رسمها في باله عن الطنطل والجن في حكايات جدتهم. كان الوقت منتصف النهار، الشمس عمودية، ودرجات الحرارة عالية. ربما كان العطش. ربما كان حلم يقظة ما مر بذهن الطفل يومها، لكن صاحب اصيب بالذهول، سأل اولا بهدوء:

ـ ما هذا؟

واجابه من كان قريبا، كانت امراة، اذ روت الامر عشرات المرات:

ـ انه السراب!

وفجأة وبدون مقدمات راح صاحب يردد بذعر:

ـ سراب... سراب!

على حين غرة، هرب باتجاه البيوت. دخل مجلس الرجال. كان النقاش حاميا لتسوية مشكله ما، هزذراع والده وحاول الهمس له بشئ ما. والده كان مشغولاعنه، فلم يعره اهتماما، لكن الجد انتبه الى ذعرحفيده. فترك المجلس وتبع حفيده حين راه ينسل مخذولا، مذعورا وهو الذي لا يترك احدا يرتاح في الظهيرة من صياحه وعراكه مع هذا وذاك من اطفال الحي. لم يتعب الجد كثيرا في البحث وجد الصبي لابدا في زاوية من المنزل. تحت كومة من الحبال وقد بال على نفسه رعبا، محموما ويهذي بكلام لم يفهم منه الجد سوى كلمة:سراب! تلك الكلمة التي ومن يومها التصقت به لتكون اسما ثانيا له، بحيث نسي الجميع اسمه الحقيقي الجميل والعذب: صاحب!

لم يكن كريم وصاحب جبارين مثل كلكاميش وانيكدو، رغم مغامراتهما المشتركة في صباهما واول شبابهما، والتي اثار بعضها غضب اهاليهما، حيث لطالما دخلا في عراك مع ابناء الازقة المجاورة. مع صاحب يشكلان ثنائيا لا يمكن هزيمته في عراك صبيان الازقة، لكن كريم دائما يذكر نفسه بانهما كانا ابناء محلة فقيرة، وابناء عوائل كادحة، فلم يكن عندهما الوقت الكثير للعراك واللعب، ومبكرين في ايام دراستهما المتوسطة بدءا العمل في حوانيت المناطق المجاورة، وفي المدرسة الاعدادية صارا يعملان في بناء البيوت يوم الجمعة والعطل المدرسية ليساعدا عائلتيهما في تدبير شؤون معيشتهم. في اول سنوات شبابهما، كان صاحب يحثه دائما على توفير المال من اجل القيام برحلة مشتركة الى بغداد:

ـ هناك في العاصمة يا كريم كل شئ له طعم اخر، التسكع في الشوارع والبحث عن الكتب، ودخول السينما وعاهرات بغداد.

وكان يقول له دائما:

ـ من يسمعك يا سراب يظنك شبعت من عاهرات الديوانية!

ويضحك صاحب:

ـ اتريدني ازور "الفوار"[53] ليكون اسمي في اليوم التالي على لسان كل اهالي مدينة الديوانية؟ نحن ناس بدون حظ يا كريم. لم يرحمنا الرب لنولد لعوائل غنية، والنساء يرغبن بمن جيبه عامر، ليس لنا اذا اشتهينا النساء الا التفكير بعاهرات العاصمة، هناك لا احد يعرفك ولا احد يسأل عنك.

وزارا بغداد مرارا، وتسكعا كثيرا في شوارعها، دخلا دور السينما وتفرجا على افلام جادة واخرى سخيفة. وبحثا عن ما يريدان من كتب في العاصمة. ولكن احد منهما لم يتجرأ يوما ليأتي بكلمة عن العاهرات. كان صاحب مثل الممسوس بوهم انه سيعثر يوما على كتاب قديم ثمين، وان ذلك سيكون ضربة حظ له، اذ سيتمكن من استبداله مع مختص بالكتب القديمة بعشرات الكتب الحديثة اويحصل بسببه على مبلغ من المال:

ـ سنكون اثرياء... اثرياااااءءء، وربما نستطيع السفر الى اوربا هناك النساء يأخذنك الى فراشهن ليس لمالك او جمالك، ولكن لاسباب اخرى!

لا يتذكركريم تلك "الاسباب الاخرى" التي عناها صاحب، ولكنه مرارا يبتسم لنفسه، كلما تذكر احلام صاحب بنساء يقعن بغرامه ويعشقنه بدون مقابل. كان كريم شغوفا بغرابة اطوار صاحب. يجد فيه صوته الداخلي الناطق بما يجول في باله. ينهض كريم صباحا ويود القول لصاحب:

- دعنا اليوم نتخلى عن الذهاب الى السينما، ولنذهب الى متنزه الزوراء.

ولكن مع اقتراب سراب منه يسمعه يبادر الى القول:

ـ اتدري يا كريم، صار لنا يومين متتالين ونحن نذهب الى السينما، ولم نر شيئا مدهشا، افلام عادية لم تقدم لنا جديدا، ما رايك لو نخصص هذا اليوم للتمتع بجمال الطبيعة؟ ما رايك لو نذهب الى حديقة ما يكثر فيها الناس وهناك ربما.....؟

حين بلغت الحافلة مشارف مدينة سافولينا راح كريم يبحث عن تلك المعالم التاريخية التي تحويها المدينة، والتي اعربت له باولينا عن شغفها بها. قالت له مرة، وهي فرحة بأكتشاف ذلك:

ـ اتدري ان ماركو يونتنين(٥٤)، الباحث الذي ترجم كتاب صاحبكم العراقي يوسف ابو الفوز،هو من مواليد هذه المدينة؟

وكان كريم قرأ عن هذا في الصحف، وعرفه من الفلم التلفزيوني الذي عرضه التلفزيون عن كتاب "طائر الدهشة" والذي سجل كاول كتاب مترجم لكاتب اجنبي مقيم في فنلندا. هاهو قادم الى سافولينا، الى مدينة الاوبرا، مدينة ماركو يونتنين، الى مدينة القلاع التي تجعل المدينة تبدو وكأنها خارجة من بطون الاساطير، المدينة التي تعرضت قلعتها التاريخية للحريق مرارا ولكنها ظلت رمزا ومعلما رغم الزمن والنار. نيران الحرائق اضفت عليها تاريخا اخر لا تملكه الا القليل من المدن التي تعرف معنى النار، تماما مثل الانسان، الذي لا يعرف احيانا قيمة نفسه الا بعد تعرضه الى صدمة. هاهو شاخوان كان يمكن ان يظل ساهيا كل العمر عن زوجته دلسوز، عن النظر اليها بعين الحب، والبقاء مشغولا بنسائه العابرات وبالاعيبه مع الجميع، لولا اصطدام سيارته على الطريق وانقلابها، وبقاؤه لفترة طويلة مقعدا في السرير يراقب نفسه ودلسوز وعائلته:

ـ يا اخ كريم، لم تكن عظامي التي تكسرت، وانما اوهامي، اوهام رجل تمسك بقشرة الحياة، وقادته انانيته لان يعذب نفسه والمقربين منه، تلك الاوهام هي التي كانت تخنقني وتعمي لي بصيرتي. يااااه يا لشدة خجلي من نفسي اذ اتذكر كل ذلك، ويا لبشاعة ما كنت عليه؟

في موقف الحافلة، ليس بعيدا عن مبنى اطفاء الحرائق، وكما طلب من السائق، غادر كريم مطرود الحافلة، وتوجه يسارا حسب التوصية. هذا البلد يتحرك مع عقرب الثواني. حركة الحافلات والقطارات تعمل حسب الجدول الرسمي. لم يفعل اكثر من اختيار ساعة الحركة، وسأل هاني ابو كرار عن عنوان بيته:

ـ نقيم الى جانب مقر الاطفائية. هناك موقف للحافلات القادمة من العاصمة.

بنظرة الى جدول حركة الحافلات وسؤال للسائق، عرف كريم موعد وصول الحافلة الى الموقف القريب الى الاطفائية، وهكذا ترك الحافلة. كان هاني ابو كرار ينتظره حسب الاتفاق. بسرعة تعرف عليه. قال له في الهاتف:

ـ ساقف عند موقف الحافلة امام البناية باتجاه اليسار بعيدا عن اتجاه خروج سيارات الانقاذ والحريق. لن تجد صعوبة في العثور علي، انا اقصر رجل في سافولينا ، وفوق ذلك سمين واصلع!

واطلق ضحكة عبر الهاتف عبرت عن طيبة نفس وحب للمرح. تصافحا بشكل ودي، وحاذر كريم معانقة هاني حتى لا يبدو المنظر كاريكاتيرا. قاده هاني الى سيارته المركونة جانبا. بعد حوالي عشر دقائق وجد نفسه وسط العائلة الكبيرة وحوله مجموعة من الاطفال النشطين، المشاكسين، وكانت امهم، وهي تلح في ترتيب حجابها كل لحظة، تنهرهم باستمرار ليتركوا للضيف فرصة ليتحدث مع والدهم، وخطر له السؤال:

ـ كم لكم من السنين هنا؟

اجابت الام والذكاء يلمع في عينيها:

ـ في سافولينا ثلاث سنوات، كنا قبل ذلك في مدينة توركو.

ولم يعرف كريم ما الدافع الذي جعله يسأل:

ـ وكيف هي معرفتكم للغة الفنلندية؟

ونظرت المراة الى زوجها، تمهلت قليلا قبل الاجابة:

ـ للاسف لم استفد شخصيا من المدرسة كثيرا، تعلمت القليل، ثم جلست في البيت فنسيت كل ما تعلمت. صرت اعتمد كثيرا على الاطفال الذين تعلموا الفنلندية بسرعة، واعرف قليلا من الانكليزية المدرسية اخلطها بما اعرف من الفنلندية لاتدبر اموري.

يذكر كريم ان حديثا عاصفا دار في ندوة حول برامج تعليم اللغة الفنلندية، كان هناك الكثير من معارفه. كان بيكا تويفنين اجرأ الموجودين:

ـ عدة شهور من تعلم اصول اللغة الفنلندية، ثم سنوات عديدة يجلس اللاجئ في بيته، بدون عمل، بدون اختلاط، يمارس حياته بلغته الام، ويكون بدون اصدقاء فنلنديين، بدون علاقات مع جيران، كيف يمكنه تذكر ما تعلم؟

انتبه كريم الى الزوجة، تطلق ضحكة صافية وتواصل كلامها:

ـ هنا في هذا البلد لا تحتاج اللغة كثيرا، فالفنلنديون صامتون دائما ومن الصعب مبادلتك الكلام، وفي المحلات العامة تختار ما تريد من البضائع بصمت وعند المحصلة تدفع ولا تحتاج اكثر من كلمة Kiitos، وفي المستشفى اغلب الاطباء يعرفون الانكليزية.

وابتسم كريم بدوره، ليس تجاوبا مع المرأة، ولكنه تذكر نوري، وهو يعلق على ذات الموضوع:

ـ الرجل الفنلندي صامت، اخرس مثل حجر، لا يفك عقدته ولسانه غير زجاجات البيرة، فتحوله الى ثرثار اصيل، اه لو ان اللغة الفنلندية تشرب بيرة.

تدخل هاني ابو كرار في الكلام:

ـ لولا اني صادفت ناس يهتمون بشؤون اللاجئين والاجانب لما استطعت تعلم اللغة الفنلندية، ساعدوني على الحصول على عمل في شركة تنظيف.

وتنحنت الزوجة، نظرت بأتجاه زوجها، بنظرة ذات معنى، فابتسم الزوج، ففهم كريم انها الاشارة لتكون حرة في كلامها، فقالت:

ـ نعاني كثيرا بسبب اللغة، ومهما تعلمنا لا نستطيع اللحاق باطفالنا وهذا يخلق لنا كثيرا من المشاكل.

وسحب الزوج شهيقا عميقا، وحرك يديه بفوضى:

ـ ساروي لك قصة، ربما حصلت مع كثير من العوائل، بل اعتقد انها تحصل كل يوم. كنت في العمل حين اتصلت بي ام كرار، وهي تبكي، فزعت، وصحت بها "ما بك يامراة؟"، قالت "تعال وشاهد بعينك"، وأستاذنت وبسرعة قصدت البيت. وبين بكائها وضحكي ومحاولتي تخفيف الامر كنت ارى مشكلة عويصة بدأت تواجهنا. اذ اندفع ابنائي الى داخل البيت وهما يتشاجران ويتصايحان وكان الاصغر فيهما عيونه تدمع، وكان الاكبر منفعلا ومرتبكا. لم يضرب اخاه، لكن الصغير كان خائفا جدا، ولم تفهم زوجتي من الامر الكثير. كان طفلاها يتحدثان بالفنلندية وكانت هي تدور حولهما مثل الاطرش في الزفة. وهذا كان سبب بكائها، حاولت التخفيف عنها ولكنها بعد ذلك اليوم لم تعد تردد الا جملة واحدة "لا اريد البقاء في هذه البلاد، خذني خارج اوربا، الى اي بلد عربي، الى سوريا،الى الاردن، لا اريد فقدان اولادي". ذلك اليوم شعرت بالخوف الشديد، وبدأت ابحث عن حل ما. لاول مرة ينتابني هذا الاحساس، مررت بتجارب ومصاعب عديدة، ولكني كنت دائما اسخر من ما يجري وبقلب صلب ودم بارد كنت اواجه الامور، هذه المرة الامريختلف تماما. في هذا البلد كونت نفسي، عملت بجد وشقيت. وليس لي سوى عائلتي زوجتي واطفالي، ولكن زوجتي صارت تعيش ازمة حادة، وهاهي جادة جدا في موضوع ترك البلاد. انها خائفة من ضياع اولادها وانا خائف من ضياع مستقبلي وعائلتي. شجار الاطفال واحاديثهم باللغة الفنلندية جعلها تشعر بالرعب.

رفعت الزوجة اقداح الشاي وعلبة السكر من امام كريم، وكان زوجها يواصل حديثه بنبرة عميقة:

ـ وكان علينا البحث عن حل ما، وبالتشاور مع الاصدقاء، اشتريت جهاز ستالايت ليكون هناك قنوات تلفزيونية عربية، واتبعت سياسة صارمة في منع الحديث داخل البيت بغير اللغة العربية.

ولم يشأ كريم احراج الاب والام بالسؤال عن نتائج محاولتهم، لانه لاحظ الاطفال يتهامسون ويمزحون باللغة الفنلندية، فسأل بصدق:

ـ وهل تعمل الاخت ام كرار؟

ومثلما توقع، كان الجواب:

ـ الحمد لله لدينا ما يكفي والعيشه مستورة.

اراد كريم محادثة هاني ابو كرار عن اهمية العمل للانسان ليجد نفسه، وشخصيته، ويكون له مساحة في هذا الكون، لكنه خشي ان يبدو كلامه تعليميا وثقيلا، وربما في غير محله. حاول كريم التبسط في افكاره:

ـ وكيف تريدها تتعلم اللغة الفنلندية وهي جالسة في البيت؟

فصاح هاني ابو كرار كالملدوغ:

ـ وتربية الاطفال؟

ووجد كريم نفسه يرتدي ثوب المعلم رغما عنه:

ـ عملها لا يعارض ذلك، اعرف امهات عراقيات يعملن، وهذه امامك النساء الفنلنديات لديهن اطفال ايضا.

ولمح كريم القلق في عين الام. اتراها تظنه بطرانا؟ ايتصوروه يتجاوزحقائق واقع المرأة العراقية، وكونها حتى في اوربا لا تزال تعيش وكأنها في العراق. ربة بيت مثالية، ام ومدبرة منزل ومربية، والزوج هو كل شئ. حاول كريم تغيير دفة الحديث، راح يدور في احاديثه مع اسئلة حول طبيعة حياتهم منتظرا الفرصة للحديث حول غرض زيارته. كان السفر ولقاء هاني ابو كرار من افكار فوزي، الذي اخبره عن هاني ابو كرار:

ـ هذا رجل له ذاكرة مدهشة. عاش سنينا طويلة في ايران، وصل موسكو، ثم استونيا، التقينا وتعارفنا في سجون استونيا. حين يتحدث اليك عن شخص ما، يمكنه وصف ملابس الشخص اذا شئت.

ظل كريم لفترة طويلة، يحاول اللقاء بهذا الرجل. لم يشا ان يثير موضوع صاحب على الهاتف. تهاتف معه عدة مرات، على امل اللقاء به عند زيارته الى هلسنكي، ولكن انتظاره طال. سمع عنه الكثير من اخرين، من ابو حسن العدناني، الذي اطرى اعتداله:

ـ هذا الرجل، يصلي لرب العالمين ولاخرته. يتجنب التورط في صراعات رواد المساجد المتناحرين. يقول ان البعض يريد حشر الرب بشؤون السياسة، وهو يستطيع عبادة ربه في بيته، ليس بالضرورة عرض صلاته وايمانه للاخرين.

ومثل ابو حسن العدناني، تعرض هاني ابو كرار لانتقادات مختلفة، ولاحقه البعض بأتهامات باطلة، ولكنه رفض الانخراط في نشاطات كانت تبدو له ذات روح طائفية. نظر كريم بمودة لهذا الرجل، الذي انتقل بعيدا عن ما سماه "وجع الراس":

ـ هنا، استطيع الاهتمام بعائلتي وتربية ابنائي، واستطيع عبادة ربي دون وصاية من احد!

٣

غادر المفتشون المحل، بعد معاينة كل شئ. شككوا في كل كلمة كان يقولها، لكن شاخوان ظل واثقا من نفسه بطريقة ادهشتهم. فكر شاخوان بخبرتهم العميقة مع اصحاب المقاهي والمطاعم. كل اوراق المطعم كاملة وقانونية. خصوصا اوراق رشيدي مكتملة، لا يعوزها النقص. صار شاخوان يفهم دوافع نوري لرفض العمل بالاسود. كان يحذره بأستمرار:

ـ لا اريد تمكين السلطات من العثور على خطأ عندك بسببي، فتلغي بذلك علاقة الثقة معهم، سيظنون ان كل اعمالك غير شرعية. اسألني، لا احد يصدق بكلامي لكثرة ما كذبت واحتلت. وللاسف، وانت الاعرف، سمعة الاجانب اصحاب المطاعم ليست حسنة عند المسؤولين في هذه البلاد.

ما ان ابتعد المفتشون حتى لاحظ شاخوان بأنه تحدث مع المفتشين بلغة اخرى. لغة تختلف عن لغة تلك الايام البغيضة، التي يكون فيها ناعما، ذليلا، منكسرا، وهو يناور بين الاوراق ويخلط الارقام ويزورويدعي كل ما لا علاقة له بالحقيقة لتكون مكاسبه اكبر. كان اليوم واثقا من نفسه وهو يعرض حساباته امام المفتشين. لم يضطر ليكون ناعما اكثرمما يجب. يذكر شاخوان كيف ان سنواته الاولى في العمل، مرت في سباق مع القانون، الكثير من الجهد يمضي في ضبط قوانين اللعبة. كان نوري من اوائل من حذره:

ـ اسمع يا شاخاوان، سمعت من يقول بأن الانسان مهما بذل من جهد لا يمكنه القفز وعبورعمود النور العالي، لكنه يمكنه ببساطة الالتفاف حوله. انت ممن يجيدون الالتفاف حول عمود النور، ولكن يوما ما سترتطم بجدار لم يكن في بالك ابدا!

في تلك الايام الحقيرة، سخر شاخوان من نوري:

ـ انا لا افهمك يا اخي، انت تدعوني لاكون نزيها، والبارحة تفخر بانك لم تشتر بطاقة في القطار!

ساعتها انفجر نوري كمن ينتظر تلك اللحظة:

ـ تدري لو لم اكن احبك، واعرف دواخلك جيدا، لغادرت هذا المكان حتى بدون الرد عليك. تلومني لاني لم اقطع تذكرة في القطار لمرة او مرتين، وربما عشرة مرات حتى، ربما لم يكن عندي ما املك، وانتم بهلوانات مطاعم البيتزا، تربحون الاف الدولارات بالغش والتحايل، تحولوها الى العراق، تشترون اراضي وبيوت من الفقراء المساكين الذي يضطرون لبيعها بسعر التراب لتوفير تكاليف السفر للخلاص من الموت على يد نظام ديكتاتور اهوج، من اجل الوصول الى اي مكان امن في اوربا.

حاول شاخوان ساعتها تحويل الامر الى شئ من مزاح، فلسان نوري كان حادا وقاسيا:

ـ هذا حسد عيشة منك؟

فضحك نوري:

ـ لا يا صاحبي، لن احسد عملا نظيفا، عملت معكم، واعرف كيف تجنون الارباح! قليلون فيكم من يعمل بشكل قانوني، انتم جميعكم صرتم خبراء في التحايل على الضريبة. اعرف حكايات تدبير حرق المطاعم لقبض التعويض من شركات التأمين، واعرف حكاية وجود دفترين للحسابات. الا ترى كيف ان اجورالمحاسبين عالية عندكم؟ لانهم ماهرون في ايجاد الثغرات في النظام الضريبي. اعرف الكثير من اسراركم يا صاحبي.

وبان الغضب، في كلام شاخوان مع نوري:

ـ احذرك يا نوري، لا تساوي جميع الناس بكلامك.

وواصل نوري طوفان كلامه:

ـ لا اساويك مع الاخرين في كل شئ، انت صديقي، وحين احذرك من الاندفاع مع عثمان وغريب في مشاريعهما انطلق من محبتي لك ومعرفتي بدواخلك. هذا غريب عتوي، لحد اللحظة اشترى ثلاثة بيوت في مدينة السماوة، سجلها بأسماء اقاربه، هل رايت كيف يعيش ابناؤه؟ لديه جيش من الاطفال يقبض بأسمهم مساعدات من الشؤون الاجتماعية ولا يوفر لهم سوى المتطلبات العادية، انت بنفسك تعرف انه لا يشتري لهم الا من سوق الملابس المستعملة. انت تعرف بهذا، فأين الشرف هنا؟

لم يرد شاخوان يوما على ثورات نوري، يلمس الصدق في كلامه، لكنه لم يكلف نفسه للتعلم منه. هذا النوري حيره كثيرا، يعيش بشكل فاسق وعبثي، لحد صار يثير حذر العوائل العراقية منه، لكنه لا يتردد لحظة في فضح السلوك الخاطئ عند الاخرين. لتهدئته قال له يومها بكثير من المحبة:

ـ ما لنا والناس يا نوري، تهاجمني شخصيا اقبل منك ذلك، لكن دع غريب وغيره، دع الناس.

وضحك نوري:

ـ يا شاخوان يا عزيزي، وانت الاعرف، لكنني اعرف مثلك وربما احسن منك، ان الاربعة الاف عراقي في فنلندا، ليسوا كلهم مثل هذا عتوّي المطابخ[٥٥]. هناك ناس هربت من الطاغية وجاءت تبحث عن الامان وتربية ابنائها وبناء مستقبلها بطرق شريفة والكثير منهم يعمل بشكل شريف، ولكن هذا اللص شئ اخر. سادع كل الناس وشأنهم، الا هذا الجبان. الا ترى كيف قدم نفسه بطل عصره في مقابلته مؤخرا مع الجريدة، وما هو الا حشرة مخبر وخائن؟ انسيت ما حدثتك عن افعاله هو وسيد عجمي في مخيم رفحا الصحراوي؟ اتعرف ان اخبار ابن عمه عمران غير معلومة لحد الان؟ هناك من يقول انه استشهد اثناء انسحاب الثوار وكان ضمن المجموعة التي ظلت تشاغل قوات الحكومة وتغطي انسحاب الاخرين، ويقال انه القي القبض عليه واعدم في احدى ساحات المدينة، حيث جلبت قوات الامن الناس من بيوتها بالقوة، وصفت مجموعة الثوار الى جدار واعدمتهم امام انظار كل الناس، ويقال كان عمران من ضمنهم وراح يهتف بسقوط الطاغية، وهذا الجبان العتوّي الغريب، ما ان وصل مخيم رفحا حتى راح يتاجر بقرابته لابن عمه، وهو الخائن والمخبر. لم يحفظ لغريب حياته من غضب سكان مخيم رفحا سوى قرابته لعمران البطل. اتدري كيف يتحدث عني بين الناس؟ انت تعرف، نعم، وانت الاعرف، لكنك لا تريد هدم شراكتك معه في صفقة الرز الاخيرة، اعرف عن صفقتكم هذه الكثير. لقد نقل لي متطوعون، والحمد لله هم كثيرون، الكثير من كلام غريب عني، واعرف، وانت الاعرف، انك تصديت لكلامه واسكته، لكنه هل يتوقف؟ اتدري اخر مرة حين قابلته في "المقهى الرياضي" ماذا قلت له؟ لقد اخبرته امام الجميع بأنه يحكي عني بالسوء لانه عاجز عن محادثة امراة فنلندية ويقول لها "مرحبا"، ولانه يشعر بالغيرة والنقص.

تكاد تمر سنتان على ذلك الحديث. الايام تجري بسرعة. وهذا الحديث كأنه جرى البارحة. كثير من الاشياء تغيرت. صار نوري اكثر قربا اليه. يفهم عبثه ومغالاته في علاقاته مع النساء الفنلنديات، وها هو الان يتحول ببطء مثير للدهشة. لم يعد نوري ذاك الفاسق العابث.

صحيح ان لسانه لم يتوقف من التهريج والنقد، لكنه صار اهدأ بكثير. احيانا يبدو له انسانا اخر. ظنه في البداية مريضا، ربما نقلت له احد نسائه مرض خطير، او تعرض لمشكلة ما. اذ صار صموتا، دائم التفكير، منتبها لما يقوله الاخرون، بعيدا عن التهريج امام من لا يعرفهم. وانتبه الى اهتمامه بتلك الفتاة القصيرة، والناعمة، التي تبدو مسكينة ومغلوبة. لا يوجد فيها ما يميزها كأمراة. تبدو حتى من غير الطراز الذي يفضله نوري، او كما يقول بنفسه "صنف اخر". ظن شاخوان ان نوري سيسافر مع كريم الى سافولينا، لكنه ادهشه بأعتذاره:

ـ سالتقي ئيفا اليوم، لديها ما يتطلب وجودي الى جانبها!

لم يزعل شاخوان من كون كريم، سافر الى سافولينا دون مهاتفته واخباره، وعرف بسفره من نوري. يبدو ان كريم لا يقر له قرار اذا لم يعثر على اثر لابن خالته. اي هموم يحمل هذا الرجل؟ كل من حوله له همومه. لا يوجد من هو خالي البال. كل واحد يظن ان همومه هي الاعقد في الدنيا. عشرات الناس تاتيه، تحكي له همومها. كان لسنين طويلة يتسلى بحكايات الناس. زرع فيه ذلك شعوربكونه ذا شأن بين الناس. يحكون له ما عندهم. مطمأنين الى كونه يحفظ اسرارهم. لكنه ومرة واحدة اكتشف كم كان واهما. الحادث كسر له اوهامه. كسر كل ذلك. لم يبق معه سوى دلسوز. جاءه عشرات الناس بباقات الورد. امتلا المستشفى بالزوارمن كل حدب وصوب. جاءه اقارب واصدقاء من السويد، واتصالات هاتفية من كل مكان. لكن كلهم عادوا الى بيوتهم، الى اشغالهم، الى همومهم وتركوه لوحده مع الامه وهمومه. وحدها دلسوز ظلت الى جانبه. لانه كان همها الاساس، وكل شئ في حياتها. بعد الخروج من المستشفى، والمكوث في البيت، راح يراجع كل ايامه، ويحصي عدد الدموع التي سكبتها هذه المرأة بسببه. تبكي بصمت، حتى دون ان تشكو. مرات قليلة التي كانت تعبر عن غيرتها وزعلها. تعلمت الصمت من قسوته. عرفت بكل مغامراته النسائية التافهة. عرفت بفضائحه. وهاهو حادث السيارة اكبر فضيحة. سكرانا في سيارة مع كاريتا يصطدم بجرار متوقف على جانب الطريق. عائدا مع كاريتا من نزوة لهما اسمها الجنس في الغابة. يعرف الكثير من الاماكن في الغابات القريبة ليوقف فيها سيارته دون أن يزعجه احد. على المقعد الخلفي فعلا كل شئ. وشربا كل الزجاجات. رجته كاريتا ان يعودا بتاكسي، لكنه لم يستمع. الطريف انها لم تصب سوى برضوض وخدوش. قذفت نفسها من السيارة مع اول فقدان السيارة لتوازنها، بينما ظل هو خلف المقود والسيارة تتمايل حتى الاصطدام المريع، ليفيق في المستشفى بعد غيبوبة ساعات والرباطات تلفه. كم عدد العظام التي تكسرت لديه؟ حين فتح عينيه كانت دلسوز هناك.عيون محمرة، وشفاه مزمومة. مسحت له جبينه وتهمس:

ـ الاطفال زاروك خلال غيبوتك؟

لم تسأله عن الحادث، من كان معك وكيف حصل؟ فهم انها عرفت كل شئ. حتى قبل هذا، هي تعرف كل شئ. هناك الكثير من المتطوعين لايصال اخباره اليها. بشكل مباشر او باتصالات هاتفية من "فاعل خير"، او ارسال صور له في الديسكو يراقص هذه او تلك. كانت دلسوز تترك له الصور عند طاولة الهاتف حتى يجدها بسهولة دون اجهاد نفسها بحديث ما عن ذلك. كان اسلوبه للخلاص من المواجهة افتعال الصدام والخصام، ليترك البيت ليوم او يومين. وبكل سفالة يسألها:

ـ ماذا تريدين مني؟ ايعوزك شئ؟ ايعوز اطفالك شئ؟

المسكينة لا ترد بشئ. عيونها تقولان له الكثير، لكنه كان ساهيا عنها. من اين لهذه المرأة القوة لتتحمل كل عذابها معه؟ كان حديث التخرج من معهد التجارة، وقابلها في دبكة عيد النوروز، اعجبه هدؤها، وبروح الشباب الطافح في روحه، اعجب بها. سأل عنها وعرف انها رفضت عروض زواج عديدة. اخبر امه، التي فعلت المستحيل لتكون من نصيبه. خطبها وتزوجا خلال اشهر معدودة، لكن من ايام الزواج الاولى عافتها نفسه. لم تثير فيه احاسيسه كرجل. كانت بالنسبة له مثل لوح خشب. كان برودها في السرير يهلكه ودفعه للتفكير بطلاقها، لولا ان جاء الطفل الاول منها، وثم الطفل الثاني، فترك كوردستان.

اقتتال الاحزاب دفعه للهروب خوفا من ان يجبره احد الاطراف للتورط معه في ما يحصل. كان الاقتتال في بداياته. لم تكن كردستان عند القادة اكثر من واردات معبر كمركي سالت لاجله دماء مقاتلي الطرفين. مات الكثير من معارفه، في قتال اهوج لا معنى له، وكانت مخابرات صدام حسين نشطة وتعمل علانية وتصب الزيت على نار الخلافات. كل الناس تعرف ذلك وتتحدث عنه وان بخوف من سطوة مسلحي الاحزاب. كانت دلسوز من المشجعين له للسفر الى تركيا، وفي تركيا امتلك الكثير من الحرية، بدأ يعرف النساء بشكل افضل. بدا يكتشف فحولته. يكتشف جسد المرأة ومعنى الحرية في السرير. صار عنده الكثير من الخبرة مع النساء. وصار حين يشتهي امرأة يفعل المستحيل ليدعوها الى سريره. وبدا يفهم ان ذلك يتطلب ان يكون عنده الكثير من المال. تعلم اول الدروس على يد العاهرات:

ـ المرأة تنساق بسهولة الى سرير الرجل بسبب ماله او مركزه.

من تركيا شحنه مهرب جشع الى هولندا. لكنهم رفضوه، لم يقبلوا اوراقه، سريعا وجد من وفر له صلة مع مهرب اخر، الذي بحزمة من الدولارات، وبدلا من ان يوصله الى السويد

جلبه الى فنلندا. في فنلندا باشر اعماله التجارية من اول الاسابيع. عرف طريق العمل في المطاعم. فهم ان خدمات الاكل هي البضاعة الرابحة في هذه البلاد. في مرة ساءت كاريتا وهي تتلوى بين ذراعيه:

- لم لا تأسسون حزبا تسمونه "حزب البيتزا"، لم اقابل رجلا من الشرق اذا لم يكن يعمل في البيتزا.

وصفعها بقوة يومها. هذه المرأة كانت تجد لذة في قسوته معها. وكان يشعر بالراحة وهو يمارس معها الجنس بعد كل شجار. صارت تثيره ليعنفها وليضربها، ليوجعها ثم يمارس الجنس معها بقسوة. احيانا يلجها حتى قبل ان تكون جاهزة، فيشعربلذة اكبر و صارت مدللته. عرف نساء كثيرات غيرها. لكنهن سرعان ما يهربن منه بعد مواجهتهن لقسوته معهن في السرير. صرخت تلك الروسية وهددت باستدعاء الشرطة، لكنه كمم فمها بحفنة من الدولارات. كانت كاريتا تغيب عنه لشهور عديدة وتعود اليه ذليلة كسيرة، يحملها الى الشقة، وهناك بكامل ملابسها يمارس معها الجنس حتى قبل خلعها للحذاء. استاجر الشقة اولا لنفسه. ثم حين بدأ الاخرون يستفيدون منها، واذ وجد انها مكلفة له ماليا، طلب منهم ان يساهموا في دفع الايجار لكنه احتفظ بالمفتاح لنفسه. حين عرف نوري باخبار الشقة سماها "السينما الحمراء"، وهكذا صار اسمها بين معارفه. استخدم نوري "السينما الحمراء" مرارا دون ان يساهم بدفع شيئا. وصلت اخبار "السينما الحمراء" الى دلسوز. لم تتحدث بشيء، لكنها جعلته يدرك بانها تعرف بامرالشقة. بعد ان بدأ يسير على قدميه، وتجاوز ازمته الصحية، واستطاع العودة الى العمل، كان الشعور بالذنب يدفعه حد البكاء. مرات يسال نفسه، بصوت عال:

- ايعقل انا الذي فعل كل هذا؟

صار الشعور بالعار يلاحقه عند كل ذكرى مرّة. وهذا نوري، الذي لطالما نظر اليه بعدم اكتراث، واحيانا يشاكسه كمجرد فتى بلاي بوي، ويعتقد ان ما قربهما لبعضهما هو عالم النساء، ويظنه شابا مغرورا وصفيقا، اكتشف انه اكثر تحضرا منه. لم يكن نوري يدفع اي شئ لامراة لتشاركه سريره. لنوري فلسفته في علاقاته مع النساء. بينما كان هو يلتقط النساء من بين زبائنه، او من محطات المترو، او من شارع العاهرات. اكتشف شاخوان ان نوري رغم كل استهتاره لا يعلم تماما بموقع شارع العاهرات في هلسنكي. كان لرشيدي ونوري موقفا مشرفا في استمرار عمل المطعم وعدم توقفه خلال فترة مرضه الطويلة، واكتشف في نوري اشياء كثيرة خافية عنه. حادث السيارة كسر له عظامه، وكسر له حاجز الغشاوة ليرى الاشياء بمنظار اخر.

ليس دلسوز وحدها. بل والاخرين. وقبل كل شئ رؤيته لنفسه بشكل جديد. وجد في فوزي وثم كريم اصدقاءا يدفعوه بأستمرار للتوازن والوقوف على قدميه من جديد. كانت دلسوز اول من لاحظ التغيرات فيه. بدأت علاقته باطفاله تتخذ مسارا اخر. بدا يحاول اكتشاف دلسوز من جديد. اكتشاف روحها وجسدها، وكان لناوات موقف جرئ لا يمكن الا الشعور بالاعتزاز بهذه المرأة الجريئة. كل هذا جعله يشعر كل يوم بالعار للسنين التي مرت وهو ساه عن نفسه وعن اطفاله ودلسوز وهو غارق في اوهام مجنونة. راح يردد في كل حين، امام الكثيرين:

ـ انحتاج صدمة ما لنكتشف انفسنا والاخرين؟

٤

قبل سفره الى سافولينا، طلب كريم من بيكا تويفنين مواصلة جهود البحث في غيابه. من شدة اهتمامه بذلك صار بيكا تويفنين ملما بالكثير من التفاصيل عن حادث "السفينة استونيا". مع كريم ذاته، وبمساهمة من فوزي، صار بين يدي بيكا ملفا كبيرا عن حادث السفينة، يصلح ليكون مرجعا لصحفي او باحث، حوى صور مختلفة للسفينة قبل الحادث وبعده، ومقالات واخبار من الصحف والوكالات. هناك صورة نادرة بالاسود والابيض للسفينة استونيا، سنة بنائها في المانيا عام ١٩٧٩. وهناك صور ملونة للسفينة وهي تعمل في السنوات ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠ بين مدينة توركو الفنلندية والعاصمة السويدية ستوكهولم، وفي الاعوام ١٩٩١ ـ ١٩٩٣ حين عملت ما بين مدينة أوميو السويدية وفازا الفنلندية. في كل مرة كانت السفينة تحمل اسما يناسب خط النقل واهواء الشركة المالكة، فهي مرة Viking Sally، ومرة Silja Star، ومرة Vasa King، الا انها في كل مرة ومع تغير الشركة المالكة ظلت سفينة لنقل الركاب والسيارات بين شواطئ المدن الكبرى في دول بحر البلطيق. كان بحر البلطيق هادئا يوم ابحارها من ميناء تالين وهي تعمل تحت اسم "عذراء استونيا"، مساء ٢٧ ايلول ١٩٩٤، في طريقها الى استكهولم حاملة حوالي الف راكب من جنسيات مختلفة، غالبيتهم من السويديين والاستونيين، وبينهم فنلنديون. قال فوزي انه يومها كان في سجن بيارنو الاستوني، وقرأ الخبر في الصحافة. يومها مع اللاجئين العراقيين في سجون استونيا كانوا يخوضون اضرابا عن الطعام للخلاص من ورطة السجون الاستونية. كان يومهم التاسع. امض بهم الجوع والالم لعدم وجود حل سريع لقضيتهم، ومراكز قوى سرية في وزارة الداخلية الاستونية تستخدمهم كرهائن وورقة ضغط ضد الامم المتحدة ودول الجوار في لعبة سياسية ومخططات مافيوية صاروا ضحايا لها، رغم ان

الحكومة الفنلندية ابدت استعدادها لاستقبالهم ضمن حصتها السنوية من اللاجئين. نجح فوزي وغيره في الخلاص من سجون صدام حسين، فتلقفتهم سجون استونيا، لا لجريمة اقترفوها سوى انهم لاجئون يبحثون عن الامان. يقول فوزي ان السجناء سارعوا وارسلوا برقية تعزية الى رئيس الجمهورية الاستونية، واعتبر ذلك تصرفا بارعا منهم للفت الانتباه الى اوضاعهم الماسوية من قبل ممثلهم الذين انتخبوه ليتحدث بأسمهم امام السلطات الاستونية، وللصراخ "نحن هنا"، وبشكل مفاجئ وصل الرد بالشكرمن مكتب رئيس الجمهورية ليمنحهم شيئا من الامل. انهم يعرفون بمصيبتهم. حادث غرق "عذراء استونيا" كان مأساويا، فاجعا، اذ هبطت السفينة مع ٨٥٢ راكبا الى قاع البحر بسرعة خاطفة، ولم ينج الا ٢٣٠ راكبا. كأن مأساة التايتانك تتكرر هنا مع قلة قوارب النجاة، وعدم صلاحية بعضها. انتشرت ايامها التعليقات الساخرة رغم حجم المأساة، اذ ان عددا كبيرا من الناجين كان من الذين ظلوا لساعة متأخرة في مرقص ومشرب السفينة ساهرين يتناولون خمرتهم. قال المتفكهون:

- وتنتقدون شرب الكحول وتعددون مساوئه، هاكم حدثا لا يمكن تجاهله،الكحول كان سببا في نجاة شاربيه الذين ظلوا يتعاطونه طول الليل فكانوا اول الهاربين وثم الناجين.

كان غرق السفينة استونيا صدمة انسانية، ادخل الرعب في نفوس سكان الدول في بحر البلطيق، المحبين للسفر والسياحة، مستثمرين عطلات نهاية الاسبوع، والاجازات القصيرة. تحليلات المختصين تقول ان العاصفة التي هبت فجأة عند الساعة العاشرة مساءا لم تكن مخيفة، ولكنها عند الواحدة ليلا اشتدت. كأن أوكو[٥٦]، اله الاعالي، مالك الرياح، جّن او غضب لسبب ما، وكأن ثمة معاص في هذه الارض لم يعد يحتملها وكانه يريد لها قرابينا لتكفر عنها، فأرسل العاصفة التي حولت امواج البحر الى جبال غاضبة راحت تتلاعب بالسفينة مثل دمية. سرعان ما مالت السفينة بحمولتها، فتكسرت سلاسل ربط وتثبيت سيارات الحمل الكبيرة. بدأ الهياج على سطح السفينة، وراح الناس يتراكضون بدون هدف. كان غالبية الركاب في قمراتهم، لم يفهم كثيرون ما الذي يجري وماذا يفعلون. خلال عشرين دقيقة، انفصلت مقدمة السفينة مثلما يكسر الانسان قطعة خيار مطلقة دويا كأنه الانفجار. هذا الصوت الغريب جعل فرضيات التخريب ووجود قنبلة وصراعات المافيا وشركات النقل تطفو للسطح عاليا. عند الواحدة والنصف ليلا بدأت السفينة بالغرق، خلال ثلاث وعشرين دقيقة اختفت تماما بكل ركابها وحمولتها في مياه البحر الهائج، ليعم الحزن والاسى والخوف والاحتمالات والتكهنات شواطئ بحرالبلطيق والعالم، ولتشهد بلدان حوض البلطيق امواج اسئلة هائجة واشاعات لا حصر لها.

كيف سكن البحر في اليوم التالي بشكل غريب؟ ماذا عن طاقم السفينة، لماذا نجوا كلهم؟ ما هي الاسباب الحقيقية لتخلف مساعد القبطان في اللحظات الاخيرة عن الالتحاق بعمله، ولماذا اختفى بشكل غامض؟ أهي حرب سرية بين شركات التأمين؟ أهي فصل من حرب التجسس؟ لحساب من، ومصلحة من؟ انتهت الحرب الباردة ولم يعد هناك بعبع سوفياتي للكثيرين؟ أتكون روسيا لا تزال تشكل خطرا على جيرانها؟ وما دخل السياسة بحياة ٨٥٢ انسانا بريئا؟ ما هي عوارض ونتائج العقدة النفسية الجديدة التي ظهرت عند فئات من الناس بأسم "استونيا"؟ ما هو مصير الضحايا وحقوقهم؟ ايامها، ومثل غيره، داخ بيكا مع اسئلة وتكهنات الصحافة التي لم تتوقف. تقبل منطق التحليل العلمي لانفصال مقدمة السفينة، الذي سبب تدفق المياه الهائجة بسرعة لداخل السفينة، وبالتالي سبب غرقها السريع، واستبعد تلك الروايات التي لا تريد سوى جني المال من تسويد صفحات الصحف. احصى بيكا عن الفاجعة صدور ستة كتب، ترجمت لمختلف لغات العالم، وسبعة افلام وثائقية مع مئات الساعات من البث التلفزيوني لبرامج خاصة، وسجل ظهور دعوة جادة من الاسابيع الاولى للحادث لتأسيس نادي خاص للناجين من كارثة استونيا، وكوارث مماثلة، وتابع فكرة انتاج فلم روائي ربما ينافس التايتانيك، لكن لم تحقق نجاحا يذكر. ظل الحدث عالقا باذهان الناس لسنوات. وبعد ان قررت سلطات الدول المعنية، تحويل السفينة استونيا وبما فيها الى قبر جماعي وردمها باطنان الأسمنت وهي في قاع البحر، تحول يوم غرق السفينة الى مناسبة حزن تجمع عوائل الموتى، فكل عام تبحر السفن الصغيرة والطائرات الشراعية الى هناك لتلقي بباقات الورد ولتقام مواكب الحزن. وانضم اليهم كريم مطرود متابعا، ومهتما، متعلقا بهاجس تسلل الى راسه: قد يكون صاحب مع ركاب السفينة الغارقة؟ في حديث طويل متشعب عن تجربته مع السجون الاستونية، تحدث فوزي:

ـ كان المهرب احمد عبد السادة، العراقي الاصل، والسويدي الجنسية، يخطط لتهريبنا على السفينة ذاتها، ووضعنا في جوف ناقلة بضائع، وعند اقتراب السفينة من سواحل السويد، يغادر الجميع اماكن الاختباء ويضيعوا بين ركاب السفينة، وفي الميناء يسلموا انفسهم الى السلطات السويدية. نجح احمد عبد السادة في ارسال شحنة اولى من خمسين لاجئا وقبلتهم السويد مضطرة، فطمع بشحنة اكبر وارباح اكبر، كان يتقاضى من كل لاجئ ثلاثة الاف دولار. كان انسانا طماعا، وطمعه جعله يكون غبيا وغير محترز. وزع اللاجئين في شقق سكنية في تالين، بانتظار ان يكون العدد اكثر من مئة. صار عنده ٩٨ لاجئا وكان ينتظر المزيد. كل يوم يتصل بوكلائه ومعاونيه في روسيا لارسال المزيد. لم يكن يعلم ان السلطات السويدية ومن اول الايام

لوصول مجموعة الخمسين لاجئ عراقي الى ستكهولم، وحسب المعلومات التي استقوها منهم، ارسلوا مجموعات شرطة خاصة لمراقبة تالين والفنادق والشوارع والميناء. وحققوا نجاحات سريعة. ضبطوا عدة شقق وراحوا يراقبوها ويتنصتون الى المكالمات فيها. جلبوا معهم كوكبة من المترجمين والعاملين في مكافحة التهريب. ودخلت الشرطة الفنلندية على الخط، بل وكل دول الشمال الاوربي. والعراقيون المساكين مختبئين في شققهم، غير دارين بكل ذلك، يحلمون باليوم الذي يصلون فيه بلدا يمنحهم سقفا امنا بعيدا عن شرطة وسجون الديكتاتور وجبهات حروبه وزنازين سجنه وعذابات الحصارالاقتصادي، ويمكنهم العيش بهدوء وتربية ابنائهم في اجواء مطمئنة. كل هذه الاحلام، جعلتهم يتحملون تجاوزات المهرب الجشع احمد عبد السادة، وسلوكه الفظ معهم. ونجح كبار السن في ضبط الشباب الذين كل مرة ارادو البطش به وهم يروه يتحارش بنسائهم واخواتهم، مستقويا بشلة من مافيا شيشانية تدعمه وترافقه في ترحاله. وهكذا، وفي فجر يوم من شهر ايار ١٩٩٤، داهمت الشرطة الاستونية سبعة شقق مختلفة في مدينة تالين لتلقي القبض على كل اللاجئين، اطفال ونساء، وشيوخ وشباب، المنتظرين قدوم احد لنقلهم الى السويد.

جلس بيكا تويفنين طوال الصباح عند جهاز الهاتف، ولم يترك مكانا لم يتصل به. من اسابيع والمكاتب تحوله من مكان الى اخر. اخفى عن كريم مرات عديدة تلك الخيبات التي كان يحصدها عند سماع ردود حذرة، وتهرب واضح من الاجابة، بل وبعضها اسمعه كلمات جافة. كان يتذرع بالبحث والكتابة، طاردا عن مستمعيه شبح مطالبة احدهم بتعويض او اثارة فضيحة جديدة. لا يزال ثمة هاجس خوف يلف من له علاقة بالحادث. اخيرا حصل على وعد بارسال القائمة النهائية لأسماء ركاب السفينة "استونيا"، طالبوه اولا بأذن قضائي، لكن سيدة لبقة، واذ عرّف بنفسه جيدا، واطمأنت اليه، وعدته ان ترسل ما يريد، شرط ان لا يذكر اسمها امام احد. وصلته القائمة بالفاكس بأسرع مما تصور. وهو يضع امامه صورة قديمة لشاب يشبه كريم في حزنه، وعينين متسائلتين كأنهما تقولان:

- وماذا بعد؟.

على ظهر الصورة كتب كريم بخط واضح اسم قريبه: "صاحب شاكر حنوش"، بحث بيكا بتأن في القائمة، لم يجد اسما عربيا او اسيويا واحدا بين ركاب ضحايا السفينة، كلها اسماء اوربية واسكندنافية. ايكون قريب كريم يتحرك بجواز سفر مزور بأسم اخر كما يتردد في توقعات كريم واصحابه؟ من ادخل فكرة احتمال وجوده على ظهر السفينة في ذهن كريم؟ ايكون فوزي وحده؟

لكن ايعقل ان رجل عاقل مثل فوزي يمكن ان يفعل ذلك؟ ايكون كريم متشبثا بالوهم؟ كل شئ مكن، سخط فوزي يوما وقال:

ـ بفضل ديكتاتورنا المهيب، اسماك بحار العالم، تذوقت جيدا اللحم العراقي.

مع ملف السفينة استونيا، وبدافع خفي، ومن الصحافة اقتطع بيكا، وقبل عامين تماما، تفاصيل ما نقلته وكالات الانباء حين تعطل محرك زورق إندونيسي متهالك وغرق في المحيط الهندي وهو في طريقه إلى أستراليا. في الحادث غرق ٣٥٣ مهاجرا غالبيتهم عراقيون وأفغان ومن بينهم عدد كبير من النساء والأطفال، ونجا من الغرق ٤٥ فقط. وذكرت الوكالات أن كلا منهم دفع ٥٠٠ دولار أسترالي ليصل إلى جزيرة أسترالية نائية في المحيط الهندي، على أمل التقدم بطلب حق اللجوء. الم يكن ممكنا ان يكون قريب كريم معهم؟ لكن وماذا يفعل كل هذه السنين في اندونيسيا؟ المشكلة في كريم انه لا يستبعد اي احتمال يسمع به. هاهو يسافر الى سافولينا، لانه علم بوجود رجل عاش في المخيمات الايرانية كثيرا. التشبث بالامل، من الصفات التي يحملها معه كريم مثل لعنة. حين طالع بيكا ترجمة ملحمة كلكاميش بالفنلندية، وبأمعان، تبين له تماما تلك الخطوط السرية التي يتحدث عنها كريم والممتدة بينها وبين الكاليفالا. بين فاينامو موينن وجلجاميش. كان كريم يبدو له مثل جده كلكاميش حاملا اسئلة الوجود الانساني. سمع فوزي يقول بألم:

ـ كريم لا يبحث عن ابن خالته بقدر ما يبحث عن نفسه.

يكاد يكون البحث عن ابن خالة كريم مثل البحث عن عشبة الخلود. حين تعرف بيكا الى كريم ودعاه الى منزله اول مرة، كان يهمه تقديم صورة طيبة عن الرجل الفنلندي امام هذا العراقي، لكن بعد حين صار هم بيكا ان يفهم دواخل هذا الانسان الحزين. كان يغيض بيكا ان يجد كريم دائما حزينا. فوزي يحاول ان يفسر:

ـ ان كريم رجل جاد، وربما احيانا اكثر مما يجب فيبدو لك حزينا.

لكن الاستغراق في الاسئلة الجادة على طريقة كريم، يجلب وجع القلب ويذهب بالصحة. يوما خلال زيارة كريم له الى منزله، شده كريم وهو يقلب من مكتبته المنزلية كتاب "الطريق الى تامبرا"[٥٧]. حينها لم يكن يجيد اللغة الفنلندية جيدا. ولكنه توقف امام الصور بجد، راح يتحسسها بأطراف اصابعه. عند صورة لضابط يقف بتفاخر وقفة عسكرية نظامية، ويعدم بالرصاص مواطنا مسلوب الارادة، شهق كريم وهو يرتجف، وصاح:

ـ يا لرخص قيمة الانسان حين تشيع روح الطغيان، احقا كانت الحياة في فنلندا بهذا الشكل؟ الموت حسب الهوية؟

كان رجلا يعاف منظر الدم. لم يكن يحب التفرج على صورالحرب في افغانستان. كان يرجو تغيير قناة التلفزيون كل مرة حين تكون هناك مشاهد بشعة، عكس فوزي الذي يقطب حاجبيه ويتأمل بتمعن واهتمام وصمت ما يرى.

اي قدر أهوج ساق هؤلاء الناس ليصلوا القطب الشمالي؟

٥

اتسعت ابتسامة نوري، وهو يرى فوزي مغادرا الترامو ي رقم ١٠، كعادته ليس بعيدا عن مكتب شركة الورق، الذي كان ولا يزال علامة بارزة لموقع مطعم"نيران نوروز"، وليمنح نفسه فرصة رؤية من سبقه الى المطعم ومن يتواجد هناك. رغم ويلات السنين لا يزال فوزي يحتفظ بالكثير من رشاقته ونشاطه رغم محاولة اخفاء العرج الخفيف في ساقه الايسر من اثر جرح قديم. هذا الرجل كان يمكن ان يقتل في جبال كردستان على ايدي قوات صدام حسين، ويدفن تحت صخرة عند خاصرة جبل، وربما يبقى مجهول القبر للابد مثل العشرات من ابناء الجنوب الذين استشهدوا هناك. سنينا طويلة في الجبل عاشها هذا الرجل مثل حيوان بري، مع الالاف من الثوار.هاهو هنا تحت سماء القطب الشمالي، حاله حال الاربعة الاف عراقي المقيمين في البلد باحثين عن سقف امن:

ـ ربما هناك تظاهرة جديدة وهاهو يبحث عمن يحثه للمساهمة؟

قال نوري لنفسه، وهو يتابع عبور فوزي للشارع بحيوية. صباحا هاتف فوزي مقترحا عليه مصاحبة كريم الى سافولينا:

ـ اعتقد من الافضل يا فوزي التواجد الى جانبه!

كان لفوزي رأي اخر:

ـ السفر لوحده هو الافضل لكريم هذه الايام، مهما كانت نتيجة الرحلة، حتى لو توصل الى اخبار حزينة، فكريم من القوة والقدرة لتحملها.

من اسابيع، ورقعة من الورق بخط فوزي في الباب الداخلي لشقة كريم، كلما تختفي يعود لكتابة غيرها، تقول:

ـ ممنوع الزيارات لانشغال كريم مطرود بالكاليفالا!

عند قراءته الرقعة ضحك نوري، وقال لفوزي:

ـ هل هي امراة بحيث لا يمكنه لقاء اصدقانه بسببها؟

رد فوزي بخبث وهو يرتشف فنجان قهوته:

ـ انت من اجل ساقي امراة يمكن لك بيع العالم، ولن يجاريك احد بعدد نسائك، دع الرجل يفعل شيئا ينفعنا به.

ساعتها اراد نوري الدخول مع فوزي في مماحكة، رغبة في المعاكسة، فقال له:

ـ وماذا سيفعل؟ هل سيخترع لنا الكرسي؟

وكاد الزعل ان يركب فوزي. وضع فنجان القهوة من يده ونظرالى نوري بغضب:

ـ اعتقد انك تمزح يا نوري؟ اتعتقد ان سياطك الساخرة يجب ان تجلد حتى اصدقائك؟ لا اعتقد انك جاد في الهزء من جهود كريم لتوسيع دائرة معارفه ومعلوماته، ومحاولة الاقتراب من ثقافة الشعب الفنلندي، لفهم روحه وافكاره.

وزاد نوري من سخريته:

ـ بالنسبة لي اعرف كيف واين اجد روح هذا الشعب،لا احتاج الى كتبكم ونظرياتكم، لن اقف بطريقه ابدا، ربما يمكن لكريم اقناع الفنلنديين التخلي عن فكرة كون الفلافل ورقص هز البطن والدولمة هي كل ما يملك اهل الشرق من ثقافة؟

ورن صوت فوزي غاضبا:

ـ وكيف يمكنك اصلاح اخطاء بعض المؤسسات الفنلندية، التي لا زالت تتعامل مع الاجانب كمجرد ديكور عند حديثهم عن دولة متعددة الثقافات دون وجود عمق لهذا التعدد في الحياة اليومية؟

وضحك نوري وسط غضب فوزي المتصاعد، وبدأ يلون كلامه، ويشدد على بعض الكلمات، وكأنه يؤدي دورا في مسرح الممثل الواحد:

ـ بدون تكاليف، ومجانا لوجه الله، ادلكم على الطريق لتحقيق هذا الذي تسمونه انت وكريم بحوار الحضارات. كيف اسميه لك؟ لا اقول الجنس، فهذا اهانة كبيرة لفلسفتي، وعمق الفكرة التي تطلب وصولي اليها اهراق أطنان من سائلي المنوي المقدس، ربما ستعنفني مثل كريم الذي يسمي ذلك "ضياع العمر بين سيقان الفنلنديات". نعم يا اخي. لا يوجد افضل من "الركض بين سيقان الفنلنديات" لتحقيق هذا الحوار. اللحم فوق اللحم. الاصابع تخمش الجلد، والاسنان تعض الاطراف، والصدور تصهر الصدور، وعلى انغام سيبيلوس سيكون حوارا عميقا، صاخبا،

عنيفا، حيث تغوص "الاشياء" في "الاشياء" وتلتحم "الموضوعات" ببعضها، وتنطلق الصرخات وتجد "الأفكار" طريقها الى...

وضحك فوزي من طريقة نوري في اختيار العبارات، واطلاق الاصوات الساخرة، فترك جديته جانبا وقرر الانتقال الى موضوع اخر ليسلم من لسان نوري اللاذع. سمع نوري من كريم الكثير من المديح والاعجاب عن فوزي. طيلة فترة تعارفهما، بدا له فوزي مترددا عند الحديث عن نفسه. فترة طويلة مرت على تعارفهما ولم يكن يعرف الكثير عنه، اكثر مما يعرفه الاخرون. فلم يحتمل وصاح به مرة:

ـ هل معقول يا فوزي ان غريب عتوي، ولانه ابن مدينتك، يعرف عنك اكثر مني؟

التمعت عينا فوزي، بشئ من الحذر، وسأل:

ـ وما الذي تود معرفته؟

فقال له نوري كعادته مباشرة:

ـ لا اريد سماع قصص عن معارك الثوار في كردستان، فهذه كل من كان في الجبل صار يرويها، حتى الذين لم يرموا طلقة واحدة في حياتهم وقضوا سنوات كردستان في مقرات خلفية عند الحدود يشرفون على احصاء اكياس العدس والحمص يتحدثون وكأنهم مخططوها وقادتها، ولا اريد سماع قصص معسكرات اللجوء في جمهورية ايران الاسلامية، فهذه سمعت منها من زبائن مطعم شاخوان بما يدمي القلب ويجعلك تقاوم اي سعي لنشوء دولة بأسم الدين، ولا اريد...

فصاح به فوزي:

ـ وماذا بقي في حياتي لاحكي لك عنه؟ هذه هي خطوط رحلة حياتي الاساسية. سنوات كردستان الطويلة، وسنوات التشرد في ايران وفي روسيا، ثم السجن الاستوني، واخيرا اللجوء الى فنلندا.

ففرك نوري يديه، وقال:

ـ وماذا عن سنوات ما قبل خروجك من العراق؟

ففطن فوزي الى مقاصده، لكنه سأل للتأكد:

ـ اتريد ان اخوض لك في الحديث عن سنوات الاختفاء في العراق ومطاردات رجال امن حزب البعث لنا؟

وسر نوري للاجابة:

ـ ممكن جدا، ولم لا، لكن شرط ان تحكي لي عن المرأة التي كنت تحب في تلك الايام. يا اخي من غير المعقول انك لم تكن بدون امراة تعشقها او تعشقك، حتى ولو من طرف واحد؟ كلنا نتحدث امامك عن ماضينا، لماذا انت تسد نافذة ماضيك امامنا؟ نحن لا نعرف منك سوى وجه رجل السياسة.

٦

اوقف فرمان سيارته بهدوء عند موقف السوبرماركت، وتحرك بسرعة نحو مكان اللقاء. اختارهذا المكان هروبا من تلك الوجوه الكريهة التي صارت تضايقه بوجودها، فذاك السافل الكذاب، البلاي بوي، نوري شناوة، كلما يراه يستفزه بشكل ما ولا يستطيع رده. وحين انفجر يوما غاضبا، شاكيا امام "ترزه"، قالت له ببساطة:

ـ ولماذا تتعب نفسك وقلبك واعصابك، استبدل المقهى!

وكانت فكرة طيبة. اختار هذا المكان، حيث لا وجود للاجانب فيه. مقهى منعزل، عند اطراف ساحة هاكانيمي Hakaniemi ، يعوده المتقاعدون، يعمه الهدوء، فالعاملون فيه لا يسمحون للسكارى بالعربدة، يطردونهم مع اول مظاهر الفوضى. الى مقهى "النادل" صار يتردد مع غريب، الذي بذكاء مدهش نجح في جلب العديد من المعارف الذين صار يلتقيهم هنا. كان يمكن لغريب مساعدته في تحقيق بعض افكاره لولا انه محكوم برغبات زوجته. تخلىٰ غريب عتوّي عن فكرة الاشتراك في مطعم في مركز مدينة هلسنكي، فضيع عليه الفرصة، بل وسافر فجأة الى دمشق تاركا اياه وحيدا في كآبة لا تفارقه. حاول اقناع اخرين بمشاريع اخرى، فكر بورشة لطباعة دعايات البيتزا، وكل من يفاتحه ينسحب بهدوء ويجد انه غير مستعد للعمل. زارمطعم شاخوان، بحجة انه كان قريبا من المكان. كان يود سماع اخبار ما، ربما ثمة شراكة في مشروع ما تنهد فيبيع الاطراف المختلفة مطعمهم او مشربهم. الم يغتني مروان السلامي من ذلك وصار تاجرا يلعب بالفلوس؟ قابله شاخوان بادب، وكان دبلوماسيا ومرنا. لم يفهم فرمان شيئا من شاخوان. حمد الرب لان نوري لم يكن متواجدا في المطعم، والا لكان اسمعه الاهانات بدون حساب تحت ستار من الكلام البرئ. خطر له السؤال عن كريم مطرود، فعرف انه مسافرالى سافولينا. اراد السؤال لماذا؟ لان كريم ليس من اصحاب الاعمال، ولا يبدو من المهتمين بذلك، يكرر باستمرار بانه مقتنع بعمله كمعلم في مدرسة ابتدائية. وماذا سيقدم له راتب المعلم؟ هل سيمكنه من التوفير؟ مرات كثيرة حاول التقرب الى كريم مطرود، لكن ابن الكلب يتحاشاه. في مجلس تأبين ابوالحسن العدناني، جلس قريبا اليه. كان المكان مزدحما بالناس. لحد تساءل فرمان

باستغراب، كيف لانسان، بسيط، فقير، مثل ابو الحسن العدناني يكون الناس بهذا التأثر لموته، ويحضرون بتلك الاعداد الغفيرة؟ كان كريم مطرود حزينا جدا. يملك فرمان القدرة على تميز المشاعر الكاذبة من المشاعرالصادقة، صار لديه الخبرة الكافية بالناس. يستطيع تمييز اولئك الذين حضروا لاجل السمعة والجاه، والظهور بمظهرالاهتمام بأحزان الناس، او اولئك الذين يجدونها فرصة لتصدرالمجالس والحديث عن نضالاتهم وبطولاتهم. كان كريم مطرود طيلة وجوده، صامتا، لا يتكلم الا حين يسأله احد، فكان يجيب باقتضاب، على العكس من صديقه فوزي، الذي لم يتوقف عن النقاش السياسي طيلة الجلسة. ياله من مزعج. كان المجلس فرصة له، للتبشير بأفكاره السياسية. لم يتوقف عن القول:

ـ ونحن نعتقد...

لم يكن يتحدث بأسمه. يجد في نفسه القوة، والكبرياء، للحديث بثقة. لم يشعر يوما بالارتياح لفوزي. راه مرارا مع والتر اندرسون يتجولان في مركز هلسنكي، ومعهم كريم مطرود احيانا. هل تحدثا يوما عنه؟ بماذا أسره والتر؟ هل عرف فوزي اشياءا جديدة من والتر؟ وماذا يعرف كريم مطرود عنه، غيرهذا الذي يردده نوري استفزازا له؟ يبدو كريم غير منشغل بشؤون السياسة مثل فوزي. في الندوات السياسية لاحزاب المعارضة العراقية، كان كريم دائما موجودا، يجلس في المقاعد الخلفية، وحين يبدأ الجمهور بمحاورة المحاضر، يرفع يده بادب ليقدم سؤالا يصبح محور الحديث. كان كريم يفرض احترامه على الاخرين، بهدوئه، ورزانته، وقلة كلامه، ومظهره الحزين. كان مع "ترزه" مرة، في "اسواق منطقة المركز الشرقي"، حين قابلاه صدفة عند تلك المقهى، في طرف الاسواق، حيث اعتاد الكثير من العراقيين اللقاء هناك، تبادلا التحيات بسرعة، ولم يتوقف كريم كثيرا، وكانت عيناه لا ترتفعان عن الارض، "وترزه" تقف الى جانبه، وكانه يتحاشا النظر اليها. بعد انصرافه قالت "ترزه":

ـ هذا صاحبك، لم يرفع عينيه اليّ، كأنه يخاف النساء، او انه لا زال بعقليتة القروية.

يومها، قال لـ "ترزه" بغضب وبشجاعة يفتقدها معها:

ـ هذا الرجل، محترم جدا، لم يرفع بصره عن الارض، احتراما لك يا امراة!

٧

لم تسع ثيفا للالحاح على لقاء نوري. فلم تفكر بزيارته، رغم انه اخبرها بأن اليوم هو يوم عمل، وسرت كثيرا حين سجل لها بيده وخط ناعم في مفكرتها رقم هاتفه المحمول ورقم هاتف

مطعم "نيران نوروز" وسجل اوقات عمله واجازته. قررت مع نفسها ترك الامر له، بعد فرشها امامه كل شئ ولم يعد بيديها ما تملك لتخفيه عنه او لتناور به. كانت امها توصيها بأستمرار:

ـ لتجعلي اي رجل يتبعك، عامليه ككلب، لاطفيه ودلليه ولكن اخفي عنه عظمة، شيئا ما يحتاجه، فيتبعك لاجله، ولتكن مثلا اسرارك!

ولكنها امام نوري كشفت كل اوراقها. لم تخف عنه شيئا، ادق خصوصياتها حكتها لـه مدفوعـة برغبة قوية لان يطل على اعماقها. لم تعد تعرف كيف تلعب معه. منذ زيارتها له الى مطعم "نيران نوروز" لاعادة نقوده، وهي تشعر بصوت هذا الرجل يحمل شيئا خفيا يسحرها، لا تعبر عنـه كلماتـه الواضحة، والساخرة احيانا، واسئلته الحادة مثل مشرط. التقته عـدة مـرات، في المطعـم، وفي المقهـى الذي يسميه "المقهى الرياضي"، او في "مقهى برافدالو" كان يستمع اليها بكل انتباه. رصدت حركة منخريه وهو يتنفس بعمق حين يصغي لها، واطراف اذنيه حين تتحركان بشكل غريـب عنـد اسـتغرابه من حكاياتها، ورأت زغب الشعر على اطـراف اذنيـه تحت اضـوية المشرب الـساطعة. اقتادهـا الى مقهى "برافدالو". انتظرته عند باب محطة القطار الرئيـسية، كـان الرجـال حملـة الفـوانيس يتـابعون ارتجاف ساقيها. دخنت على عجل سيجارة، وابتلعت الدخان مرارا، وهي تقنـع نفـسها بانهـا هادئـة، وقف قبالتها دون اطفاء محرك السيارة، وفتح البـاب لتـصعد بـسرعة، تحرك فـورا بالـسيارة بهـدوء ظاهر.عبر منطقة كايسانمي Kaisaniemi. قال بصوت واضح:

ـ لا احب محطة القطار كمكان للقاء الاصدقاء.

قاد سيارته عبرساحة هاكنيمي، وبسرعة عبرا جسر "جزيرة الجسر"، سماه لها "جسر المافيا" حين سألته عن معنى الاسم، ضحك وقال انها قصة طويلة، ربما تـسمعها يومـا. اسـتدار ليكـون تحت الجسر، اوقف سيارته في الموقف العام، سارا قليلا، تجاوزا محلا لبيع الاجهزة الموسيقية، غـير بعيد عنه، كانت ثمة نافذة زجاجيـة عريـضة لمقهـى تكـشف المكـان لمـن يجلـس خلفهـا وكأنـه في الشارع. وهو يقتادها الى داخل المقهى:

ـ هنا احيانا التقي بعض الاصدقاء.

في زاوية تطل على جانب من المينـاء والمطاعم العائمـة في سـفن شـراعية مـن طـراز سـفن الفايكنغ، جلسا يرتشفان قهوتهما المرة. لم تتردد في حديثها. يد خفية تدفعها لتفتح فاها وتحكي له ما يختزنه قلبها من الم. قصت له الكثير من صفحات حياتها. يجلس قبالتها، يحرك اصـابعه الطويلة كأنها اصابع عازف بيانو في خصلات شعره الاسود، ويمسح جبينه العريض. كانت تحدق الى عينيه الذكيتين كيف تحدقان اليها بنظرة خاصة، وكيف تتحرك رموشه بقوة حين لا تـتمكن

من ضبط نفسها وتختنق بالدموع وتكاد تجهش بالبكاء احيانا. لم تر في عينيه شيئا من شفقة بها، كانت تخشى هذا. تقول لنفسها ساقبل منه كل شئ الا الشفقة. في عينيه كان ثمة شئ من غضب يستعر في اعماقه يتسرب من صرير اسنانه وهو يعض عليهما بقوة. كانت لا تريد من هذا الرجل اكثر من فهم سبب هروبها من كاري في ذلك اليوم. اليوم الذي لم تعد تعرف كيف تسميه، هل كان يوما تعسا، ام يوما سعيدا. ذلك اليوم، وجدت في نفسها الشجاعة لتقول لكاري وبقوة "لا"، بعد ان كانت تقولها، بخفوت، وتردد وخوف. هددت كاري بالذهاب الى الشرطة فيما اذا مسها. حين استهان كاري بأقوالها مراهنا على ضعفها الذي عرفه منها، دفعته عنها، وضربته بأقرب شئ اليها. كان بخبث يحاول من جديد استدراجها الى سريره. تحملت كاري كثيرا بسبب الخوف من ايذائها، واغتصابها بعنف، وربما يشوه لها وجهها. كل يوم تسمع وتقرأ عن حوادث الاغتصاب التي تملأ البلد، ولم تنس منظر المرأة التي جلبوها الى المستشفى وهي على شفى الموت، بسبب اغتصابها من قبل زوجها. قالت لها آنو:

ـ كل يوم في فنلندا تسجل عشرات حوادث الاغتصاب، وهناك حالات اكثرلا تجرؤ صاحباتها على الابلاغ عنها، لان نظام التحقيق عندنا في الشرطة مريع، خصوصا اذا وقعت الضحية بيد من يتلذذ بطرح اسئلة بشعة يجعل التحقيق بحد ذاته عملية اغتصاب ثانية.

لم تكن تيفا تريد مصيرا كهذا فكانت تستسلم لكاري بطواعية، فيلوط بها دون ان تشعربأي رغبة سوى بالخوف والغثيان. كرهت الرجال ولم تعد تقربهم. حاولت انهاء علاقتها مع كاري حال دخوله السجن بعدما ثبتت عليه تهمة حيازة المخدرات للاتجار. كان يتعامل مع تجار من استونيا، يصلون البلاد كسياح، يسلموه البضاعة ليقوم بنقلها الى مراكز التوزيع لتصل الى كل اوربا. كانت لا تصدق ما تقوله الصحافة من ان فنلندا صارت بوابة لتهريب المخدرات الى دول اوربا، حتى وجدت كاري يعترف بأقواله في المحكمة التي حضرتها بطلب من العجوز المريض لتكون الى جانب كاري كواحد من اهل المتهم. ولم يتركها كاري لحالها. مكالماته الهاتفية من داخل السجن، ورسائله وبطاقاته الملونة التي يصنعها بنفسه، وهداياه، كانت تقول لها انها امرأته خارج جدران السجن. واشفقت عليه كثيرا وهي تفكر بفرحه بزياراتها القصيرة له في سجن كيرافا، ونظرات زملائه السجناء وهم يرونه يودعها الى الباب تحت حراسة الشرطة. في اول اجازة حصل عليها كاري من السجن، لم تستطع ان تقاوم رغبته، وخافته وهي تراه في قمة هياجه الجنسي، وقضيبه ينتصب يكاد يخرق له ثيابه، فتركته يمارس معها الجنس، ولم تستطع مقاومته وهو يلوط بها تلك الليلة. لم يستطع العجوز مساعدتها لتكون علاقتها بكاري مجرد صداقة، ولم تستطع الهرب منه، واخافها العجوز اكثر حين قال بصوت راعش وهو يحك طرف ذقنه:

ـ هذا قدرك يا ابنتي، وليس لنا الهروب من ذلك.

صار كاري قيدا ثقيلا لها. كتبت له الى السجن. لم يرد عليها، وتعامل معها وكانه لم يستلم رسائلها. قالت له انها لا تريد علاقة بهذا الشكل والمستوى. غيرت سكنها، وارقام هواتفها. كانت آنو تراقب عذابها دون معرفة السبب. وكان شيئا طريفا، صديقتها شرطية، ولا تعرف شيئا عن حاجتها للحماية والمساعدة. كانت ثيفا تخشى اخبار انو بالتفاصيل فينتقم منها كاري اكثر. سلب منها كاري روحها وقدرتها على المقاومة، وكأنه نومها سحريا. صارت له تابعا ذليلا، لا يملك القوة ليقول: لا. فجاة مات العجوز، الذي لم تتخل عنه وظلت تعوده وترعى شؤونه، وكانت تبكي احيانا خيبتها بحضرته، وكان يسمع بهدوء دون الرد بشئ. بعد مراسيم دفن العجوز، التي حضرها كاري بحراسة الشرطة، اكتشفت ان العجوز الطيب حاول ربط مصيرها مع كاري، اذ اوصى لهما معا بملكية البيت، اصرت على فصل الحقوق. فكانت رحلة الاوراق والمكاتب، والمحامي العجوز يدور فيما بينهما، وكاري يصر على حضورها في كل مرة، ويتفنن لتكون الى جانبه عند بعض الاجراءات الرسمية، وفي كل لقاء كان يسمعها كلاما عذبا وعبارات غزل تعلمها في السجن. وفاجأها كاري امام المحامي العجوز وحراسه من الشرطة بانه سيتخلى عن حصته في المنزل لصالحها لو قبلت الزواج منه، فلم تقدم اجابة سريعة. علمتها امها ان لا تقدم اجابة قاطعة مباشرة لاحد، وربما هذا كان من الاشياء القليلة التي التزمت بها من وصايا امها. قالت لكاري:

ـ سأفكر بطلبك!

لكنها توقفت عن زيارته، وكتبت له بأنها لا تصلح للزواج منه، وستبقى له صديقة مخلصة. لم يكف عن ملاحقتها. من السجن ارسل لها يخبرها بأنه سيكون في اجازة قريبة، لعطلة الاسبوع فقط، ويرغب بلقائها. حين طلب اللقاء في محل اقامته، ذهبت وهي تأمل ايجاد طريقة لاقناعه بالكف عن ملاحقتها، لكنه واصل غوايتها. مثل اي رجل ساذج اعد الكثير من الشراب والطعام والاغاني كرشوة للبقاء، ولتجد فيه متحدثا لبقا يدير اجادة الحديث، وكأن جدران السجن فتحت له عقد لسانه. لكنها وجدته بشعا بتلك الرسوم التي صارت تغزو جلده بحيث لم يعد مكانا لم يخضر بالنقوش، وصار وجهه النحيف يبدو اكثر قبحا وهو يرتفع مثل وجه سحلية تمد رأسها من بين ركام قبيح. وحين ضربته بزهرية الورد وشجت جبينه، وسمعت دوي الزهرية وهي تتهشم على خشب الارضية، فهمت انها كسرت وللابد حالة الاشفاق والخوف التي كانت تقيدها الى هذا الرجل الذي صار يثير قرفها. وكان نوري عند الباب. كأن السماء ارسلته، وتدفعها من قدر الى اخر، وكأن العجوز من قبره، يرفع يده بهوان ويعبث بشعرات ذقنه القليلة ويكرر لها عباراته الهامسة:

ـ هذا قدرك يا ابنتي!

ملاحظات و اسماء اعلام

٤٢ ـ عزيز محمد: مواليد ١٩٣٤، سياسي عراقي تعرض كثيرا للمطاردة والسجن من مختلف الانظمة العراقية، شخصية معروفة على نطاق عربي وعالمي، كردي القومية، سكرتير الحزب الشيوعي العراقي للفترة (١٩٦٤ ـ ١٩٩٣).

٤٣ ـ مارتي اهتي ساري Martti Ahtisaari: سياسي فنلندي، وكان رئيسا للجمهورية الفنلندية للفترة (١٩٩٤ ـ ٢٠٠٠)، وهو الان شخصية عالمية معروفة، فهو ممثل الامم المتحدة في النزاع بين الاطراف في يوغسلافيا السابقة.

٤٤ ـ مقبرة الغرباء: مقبرة في دمشق، دفن فيها كثير من ابناء العراق المنفيين، والمعارضين لنظام صدام حسين، والذين لم يتمكن اهاليهم من نقل جثمانهم الى ارض العراق، وطنهم.

٤٥ ـ Kittos: كلمة فنلندية، تعني: شكرا.

٤٦ ـ شعلان ابو الجون: شيخ قبيلة الظوالم في مناطق الفرات الاوسط في العراق مطلع القرن العشرين، ومناطق سكنها الاساسية في ارياف مناطق مدينة السماوة والرميثة. تعتبر عملية تحريره من قبل رجاله من السجن يوم ٣٠حزيران، عملية اقتحامية باسلة وخارقة الذكاء، وكانت الشرارة لاندلاع ثورة العشرين في العراق عام ١٩٢٠.

٤٧ ـ المكوار: ذراع من الخشب المتين، توضع براسه كتلة مكورة من القير، وكان الفلاحون يستخدموه كسلاح للدفاع الفردي، وخلال احداث ثورة العشرين كان من اسلحة الفلاحين في مداهمة مراكز الجيش والشرطة لقوات الاستعمار البريطاني.

٤٨ ـ الكينكو Kinkku: كلمة فنلندية وتعني لحم فخذ الخنزير الذي يقدم باستمرار على المائدة الفنلندية، ويستخدم كثيرا في اعداد انواع من البيتزا.

٤٩ ـ ايمل فيكستريوم Emil Wikström : عاش للفترة ١٨٦٤ — ١٩٤٢ وهو نحات فنلندي مشهور ويعتبر واحدا من اهم فناني المرحلة الرومانيتيكية، الذين ارتبطوا بالميثلوجيا والثقافة الوطنية، وانجز العديد من الاعمال الفنلندية التي استلهمها من التراث الفنلندي، اعماله لا تزال تحظى باعجاب الزوار للمتاحف وفي الساحات العامة، من ابرز اعماله، الرجال حملة المصابيح الذين يتصدرون واجهة محطة القطار المركزية في هلسنكي.

٥٠ ـ كاريالا KARJALA: منطقة فنلندية، ضمها الاتحاد السوفياتي الى اراضيه، كجزء من العقوبات على فنلندا لتحالفها مع المانيا الهتلرية وخوضها حرب الشتاء ضد جيوش الاتحاد السوفياتي عام ١٩٣٩ـ ١٩٤٠. بلغت حجم المساحات التي اقتطعها الاتحاد السوفياتي ١٠ ٪ من مساحة الاراضي الفنلندية.

٥١ ـ اغنية كردية شعبية مشهورة، وهي اغنية غزل وتحمل تورية جنسية واضحة وبالعربية كلماتها تقول (بطيخ منقط... بطيخ طري... ارسلته الى البيت حتى يبرد).

٥٢ ـ طه باقر: عالم الاثار العراقي الشهير، ومترجم ملحمة كلكاميش كافضل ترجمة عربية وصدرت بعدة طبعات في مختلف البلدان العربية، ترجمت الى مختلف لغات العالم. وهو من مواليد مدينة الحلة (بابل) عام ١٩١٢، درس فيها وكان من الطلبة الاربعة الاوائل على المدارس الثانوية العراقية عام ١٩٣٣، فارسلته الدولة طالب بعثة الى جامعة شيكاغو، وحصل على شهادتي البكلوريوس والماجستير متخصصا بالتاريخ والاثار، وقد اتقن طه باقر اللغات البابلية والاشورية والعبرية. عاد الى العراق عام ١٩٣٨ وعين خبيرا في مديرية الاثار ثم امينا للمتحف العراقي ومنقبا ومفتشا للاثار ثم مديرا عاما لهذه الدائرة، وكان يقوم بالتدريس في كليتي الاداب وكلية التربية على طلبة التاريخ والاثار. دخل في مواجهات عديدة مع السلطات الحكومية دفاعا عن الاثار العراقية، نجح في وقف هدم المدرسة المرجانية، ولم يتمكن من وقف قرار رفع الباب الشرقي في بغداد. تراس عدة بعثات اثارية في مواقع مختلفة، في العراق وسورية. نشر العديد من الكتب الاثارية، ويعتبر كتابه (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) مرجعا اساسيا من مراجع البحث في حضارة العراق. توفي في الثامن والعشرين من شباط ١٩٨٤.

٥٣ ـ الفوار: قرية في ضواحي مدينة الديوانية يقيم فيها الغجر والكثير من بائعات الهوى.

٥٤ ـ الدكتور ماركو يونتنين: مواليد ١٩٦٦. فنلندي. مستشرق وباحث في الدراسات الاجتماعية يجيد اللغة العربية، وترجم العديد من الكتب الى اللغة الفنلندية مباشرة عن اللغة العربية. وله اصدارات وبحوث عن الثقافة العربية والاسلامية.

٥٥ ـ عتوّي: باللهجة العراقية المحكية تأتي بمعنى القط الكبير.

٥٦ ـ أوكو: زعيم الالهة حسب ملحمة الكاليفالا الفنلندية.

٥٧ ـ الطريق الى تامبرا Tie Tampereelle: كتاب تاريخي بالصور والوثائق عن الحرب الاهلية الفنلندية عام ١٩١٨ من تاليف Heikki Yliangas .

القسم الرابع

١

من ايام والحمى ترهق جسد كريم مطرود. يشعر بالضعف والهوان، وبثقل السنين التي مرت سريعا وسلبته قواه. اجبرته الحمى على ملازمة السرير، رغم كرهه لذلك. منحه الطبيب اجازة لعدة ايام للراحة وكتب له مجموعة من الادوية. لم يجد في نفسه القدرة على بلوغ الصيدلية في مركز المدينة. أنتظر حتى وصول فوزي فاشتراها له. يفتح كريم عينيه ببطء، يشعر بنفسه خاويا وبدون طاقة للقيام ليجلب لنفسه كأس ماء. يشعر وكأنه لم يعطش في حياته مثل هذه المرة. عطش يجعل عينيه تزوغان، عطش لا يشبه عطش ايامه المرّة والمذلة في"السينما"، ولا عطش أيام عبور الصحراء. حاور نفسه:

ـ مالك يا كريم ايعقل ان حمى عادية تطيح بك بهذه الشكل وتجعلك بهذا الحال من الضعف؟

شجع نفسه مثلما كان يفعل مع تلاميذه:

ـ انت قادر على ذلك، فقط حاول، لا تيأس ابدا.

عند اول الصباح حاول التحامل والنهوض للذهاب الى المطبخ. كان من الضعف لدرجة شعر بالاسى لحاله. آوه يا للغرابة، ماذا يجري معي؟ غضبت باولينا، وبرطمت شفاهها لانه لزم شقته، ورفض الانتقال الى شقتها لترعاه عن قرب. زعلت اكثر حين قال:

ـ لا تقلقي، فوزي لن يدعني وحدي.

يدرك حرصها على الاهتمام به، وقلقها الصادق عليه. افتقدت اتصاله الهاتفي اليومي معها، فأتصلت فورا ومزاجها ميال للمشاكسة لنسيانه لها، لكنها حين سمعت صوته الواهن، الذي حاول ان يكون متماسكا، طلبت منه اغلاق الهاتف فورا، وخلال ساعة كانت تجلس على طرف سريره، تفرك له ساقيه واطراف اصابع قدميه. رفض بشدة بقاءها الى جانبه:

ـ عملك اولا، هذا اتفاق تاريخي ومبدئي بيننا، لا اريدك الدخول بأشكالات جديدة مع مديرتك، ولا تجعليني اشعر بأن حمى سخيفة جعلت مني عجوزا.

قبل وصول باولينا الى كيرافا ملأ له نوري ثلاجته بالليمون وعلب عصير البرتقال، واشترى ثوما وبصلا اضافيا، ليحثه على اتباع وصفته الخاصة بمواجهة الانفلونزا باكل المزيد من الثوم، واستنشاق البصل، وشرب الشاي الساخن بالليمون:

ـ من ابي يرحمه الله تعلمت هذه الوصفة، كان لا يزور طبيبا، وهذه وصفة تاريخية، يا استاذ التاريخ، وانت الاعرف، يقولون وجدوها منقوشة على لوح في اوروك، ليس بعيدا عن بيت جد فوزي.

اطلق نوري ضحكة استفزازا لفوزي، الجالس في طرف الاستوديو، الى جانب النافذة المطلة على باحة البناية، يتابع ساحة لعب الاطفال والحركة فيها. ونكاية بنوري رد فوزي وكانه يحدث لا احد:

ـ من عجوز روسي سمعت وصفة افضل، كأس فودكا مع ذرات من الفلفل الاسود، ستفتح كل مجاريك التنفسية وتجعلك حصانا، يا كريم يا بطل.

وصرخ نوري غاضبا:

ـ فودكا وفلفل اسود يا رجل، أتريد قتل المسكين؟

التفت نوري الى كريم فزعا كمن يتصور انه سيقوم باتباع وصفة فوزي فورا:

ـ عيني انت، ابو رحيل، وانت الاعرف، دعك من فوزي ووصفات اخواله الروس، هذا رجل من الجماعه الذين لا زالوا يعتقدون ان كل يوري هو غاغارين، وكل فالنتينا هي تريشكوفا. دعك منهم واسمعني.

لم يكن قادرا على الضحك، ولا قادرا على مجارات مزاح نوري. كان يريد النوم. لو تكف المطارق عن الدق في رأسه. بوووم... بوووم... بوووم. اصوات الموسيقى تأتيه عالية الايقاع، لا يبدو انها تأتي من شقة جارته العجوز صاحبة الكلب المخيف المنظر، البولدوغ الاسود. كل مرة قبل مغادرته الشقة، ينظرالى السلم عبر العين السحرية ليتاكد من عدم وجودها وكلبها. امراة طيبة، حلوة المظهر، بابتسامة طريفة، على عكس ماهو معروف عن العجائز وفضولهن وتدخهلن فيما لا يعنيهن، لكنها لا تسير بدون كلبها، فكان يتجنب كلبها اساسا. تبتسم له بانشراح كلما تلقاه وهي تتفسح مع كلبها حول البناية، وهي تراه يخشى الاقتراب من كلبها وكأنه يقدم لها سببا للفخر بالكلب الكريه المنظر، الذي لا يطيق براطمه وهو يدسها بين ساقيه مثلما فعل في اول مرة. سألها ما اسمه؟ قالت "باكسي". عرف الاوقات المنتظمة لفسحتها مع باكسي، وصار لا يغادر في ذلك الوقت. يا للفنلنديين من قوم لطفاء. سأل العجوز عن عدد

افراد اسرتها، قالت له: نحن اربعة انا وكلبي وزوجي وابنتنا. بووم... بوووم... بووووم. يبدو ان اصوات الموسيقى تأتي من شقة جاريه الشابين. خشي انتباه باولينا الى انزعاجه فتدخل معهم في شجار جديد، مثلما فعلت حينما عرفت بازاحتهم لدراجته الهوائية عن مكانها في مخزن البناية، وحشروها في زاوية بعيدة، واحتلوا مكانه دون استئذانه. لم يتحدث لاحد بذلك، لكن باولينا عرضا عرفت بما حصل ولم تسكت. اكتشف فيها مخالب قطة يمكن ان تخمش. كان جاراه شابين حديثي الزواج، يبدوان له مشغولين بدراستهما وكلبهما الذئبي الملامح الذي لا يعرف اسمه، لولا الحفلات التي لا تتوقف. يلتقيهما احيانا على السلم، ليس اكثر من ابتسامة، و (Moi)[٥٨]، واحيانا حتى بدون اي كلام، بمجرد هزة رأس، ليكونا نموذجا لاي فنلندي صامت. حين علمت باولينا بما فعلاه بدراجته صرخت:

ـ سلوك عنصري!

حاول أقناعها بأن الشابين ربما لايعرفان من هو صاحب الدراجة، وهذا ما تبين حين حدثتهم باولينا، وحين ابديا عدم اهتمامهما بالامر، طلبت باولينا منه رقم هاتف شركة السكن لتتدخل، وحاول فض الامر دون اي تعقيدات، لكنها حين صادفت الفتى في سلم العمارة ببساطة وحزم طلبت منه اصلاح ما فسد. هاهي باولينا تتحدث مع فوزي بخفوت.عن ماذا؟ لم يفهم شيئا. سمع اسم شاخوان يتردد مرارا، لكنه كان اشبه بالسكران، يبتسم بوهن، ويحرك ذراعه بصعوبة. اخر ما يتذكره انه طلب من نوري ايصال باولينا معه الى منزلها، اذ جاءته بقطار الضواحي. علامة طيبة ان دماغه وذاكرته لا تزال تعملان بشكل جيد. تذكر ان سيارة باولينا سرقت من اسبوع ولا تزال تبحث عنها. اجبر باولينا على العودة الى شقتها، وكان نوري عجلا للحاق بعمله فقطع عليها رغبة البقاء اكثر. كانت الحمى الرهيبة تحرق له اجفانه ولا تدعه يفتح عينيه. فوزي قبل مغادرته قال له:

ـ بعد عودتي اذا لم تنخفض حرارتك سأحممك تحت "الدوش" رغما عنك، واعطيك حبة باراسيتول، هكذا اوصى الطبيب. لا تخف، انا الى جوارك يا بطل. سارفع سماعة هاتفك المنزلي حتى لا يزعجك احد، الان نم بهدوء.

وبالاشارة أستاذنه، واستخرج مفتاح الشقة من سلسلة المفاتيح ووضعه في جيبه، وهمس له:

ـ لن اغيب طويلا.

وخرج بهدوء. لم يسمعه وهو يغلق الباب.المطارق تدق في رأسه. صخب الموسيقى يقتحم غرفته عبر الجدران. قبل اسبوع كان مارا عند مدخل العمارة حين علق جاره الشاب، في لوحة

اعلانات البناية اعلانا، عرف أنه اعلان عن اقامة حفل عائلي صاخب بمناسبة الذكرى الاولى لزواجه. يعجب للزوجة الشابة التي ارتضت لنفسها زفة عرس على دراجة نارية. صار يتجنبهم، بعد مشاهدته الزوج يتشاجر في مركز المدينة ويكيل السباب لواحد من اصحابه. لم يعد يجرؤ حتى على تحيتهم خوف التورط معهم بشئ. اكثر ما يغضبه ملامح وجه الزوجة وهي تقطب شفتيها وتبرطم حين تلتقيه مصادفة في السلم، وكأنه يسكن غصبا عنها. الان لا يملك حجة للاعتراض امام حق جاره باستخدام حقوقه، ولا سيما انه اتبع النظام باخطار الجيران قبل الحفل. غيره من الجيران، ربما اتخذ احتياطاته ووجد له مهربا من هذا الصخب بالذهاب الى مكان ما، لكن بالنسبة له وامام هذه الحمى التي هاجمته فجأة دون انتظار لا يملك سوى الاستسلام لها. كانت محاسن رغم ألمها لاي عارض يصاب به، الا انها كانت تشعر بشئ من المسرة السرية اذ تداهمه الحمى، فمن بين كل العوارض الصحية التي تواجهه، فالحمى تحوله الى طفل كبير، كثير الشكوى، كثير التطلب، ولكنه بعد كل هذه السنين وحرماناتها، لم تعد تعاوده تلك الحالة، صار مع الحمى يغرق اكثر في عذاباته، في همومه، في خيالاته، في خيباته وخساراته، فتداهمه الكآبة، ويميل للوحدة مع نفسه ولا يحب رؤية احد لضعفه وعجزه وكيف تفتك به الحمى وتحوله الى مجرد جسد لاحول له ولا قوة. شعر كريم بشيء من البرد، تساءل: هل ترك فوزي شباك المطبخ مفتوحا يا ترى؟ مثلما كان ذلك يوم كانت آريا ترتجف بين ذراعيه، لكنهما لم يتوقفا، واصلا ممارسة الجنس بحماس وكانهما يطلبان الدفء في احضان بعضهما، وحين بلغا الذروة وانهدا خامدين والتفا باللحاف انتبها الى ان شباك المطبخ كان مفتوحا، وان درجة الحرارة خارج الشقة تحت الصفر. اذا كان شباك المطبخ محكم الاغلاق، فهل تيار الهواء الذي يلفحه يتسرب عبر فتحة التهوية في الحمام؟ فتحة التهوية... فتحة التهوية نوري يصر على ضرورة ابتكار طريقة لاغلاقها بشئ ما، فمنها كما يقول تنتقل كل الاسرار في العمارة. وافقه على ذلك، فجأة وعلى غير انتظار تسمع اصوات شجار حاد ولا يمكن لك معرفة المتشاجر، لا تسمع سوى الصياح والشتائم والعبارات البذيئة، وبعد يومين بالصدفة تقابل جارتك، المقيمة في الطابق الثالث وهي تضع نظارة وترخيها على عينيها لتخفي كدمة حول عينها، وتدهش من ذلك. كنت تظن ان الشجار حصل في الشقة التي تعلوك مباشرة، فمنظر الزوج الخشن وطريقة سعاله وبصاقه المقرفة اعطتك هذا الانطباع عنه، ولكن ها انك ترى ان جارتك، التي تحييك بأستمرار باسمة، والتي تعمل بائعة في مخزن المدينة، تغادر الى العمل مكلومة مكسورة الخاطر والسماء تعلم اي اعذار قدمت لمعارفها وزملائها عن سبب

الكدمات. هل تملك الشجاعة لتقول بأن ذلك فعل زوجها الثمل، اذ سجلت اعتراضها على عودته متأخرا ثملا، فرد عليها بالسباب والشتائم واللطمات؟ ويتهمون الرجل الشرقي فقط بالقسوة. ابن الكلب. فتحات التهوية هي حقا كاشفة وفاضحة لاسرار البيوت، فمنها تسمع فحيح الممارسات الجنسية، التي تجري في الحمامات. حكى نوري عن يوم زيارته لاحد معارفه، اراد الاستمتاع بحمام دافئ مستثمرا وجود بانيو كبير ونظيف، ولكنه خرج مهدود القوة من الحمام لانه اجبرعلى مارسة العادة السرية كذا مرة وهو يستمع الى صوت واضح لمارسة جنسية كاملة عبر فتحة التهوية. اين نوري الان؟ تسائل. لو كان يعلم، لم يترك احد منهم يغادره. لو ان فوزي يعلم بأنه عطش الان؟ لو ان محاسن عنده الان؟ لو ان سراب...



هل نام؟ هل لا يزال صاحيا؟ لم يكن بامكانه معرفة ذلك. كم مر عليه من الوقت؟ هل حل المساء، ام هو الليل بوووم...بووم... بوووم. صوت الموسيقى المنبعثة من شقة جيرانه، لا يزال يخترق الجدران، ويدق في رأسه. طبول وابواق ونحاسيات. صوت كمانات تئن، وتتصاعد في حوار متوتر مع كلارنيت منفرد. اوه ماذا يجري؟

أيه أوكو اله الاعالي

مالك الارياح

تعال هنا عندما يحتاج اليك

اقبل الى هنا ان تدعى

اطلق امتك من ضيقها(*)

جلبة واقدام ثقيلة وابواب تغلق. أهو فوزي؟ هل عاد؟ اهم جيرانه على السلم؟ اهي حفلة جديدة؟ هل هو في مساء الاحد؟ اهو يوم الاثنين ام الاحد؟ خبط قوي وصوت اقدام تهز له سريره وكيانه. ايكون جاره المدمن على الخمر في الطابق الثالث تشاجر مع زوجته من جديد؟ هذا يعني ان الشرطة ستصل بعد لحظات وسيمتلئ المر امام باب شقته بالاقدام. الخطوات الثقيلة صارت داخل شقته. تحوم حوله. أهم اللصوص الذين سرقوا مخزن العمارة في الخريف، فبعثروا له ملابس الشتاء التي يحفظها عادة هناك وسرقوا له معطفه الشتوي الوحيد؟ يا للطافة وجه موظفة التأمين، لم يعجبه صدرها المنفوخ بالسيلكون، ولم يعجبه تذمرها من الحاحه على استيفاء ثمن معطفه، واصرارها على جلب وصل الشراء. اين يجده بعد اكثر من

عام وسط فوضى شقته؟ كانت تلفظ اسمه خطأ بالرغم من انه مكتوب امامها في الاوراق Karim Matrod، ولكن لفظته بشكل اثار الضحك في نفسه، وحسن من مزاجه. كاريم ماترد Kareem Matrd. "ماترد" يا خائبة الحظ، يا طويلة الانف، ربما ماتريكس Matrx أحسن[٥٩]. على الاقل افضل من اخرين يكتبون اسمه بالتاء Matrot. هذا الصوت في شقته لا يشبه صوت الاحذية الجلدية على ارضية شقته الخشبية. كلما دخل مكتبة كيرافا العامة توجهت اليه الانظار. لا يعرف هل النظرات تحتج عليه ام بدافع الفضول، فحذائه الجلدي على ارضية المكتبة يصدر صوتا غريبا، ويص... ويص... ويص. يداري خجله بتبادل الابتسامات مع معارفه، زملائه القدامى. زميلته صاحبة العيون الخضر تركت التدخين من فترة طويلة، وتبدو له ارشق يبدو انها تتبع نظام تعذية خاص. قابلها مع زوجها واطفالها في السوبر ماركت. دهش لنحافتها. اراد قول شيء عن ذلك، لكن التردد سكنه، فأكتفى بالتحية والسؤال عن الصحة. وقف يوما مع فوزي عند رف اشرطة افلام الفيديو، ليختاروا فلما. على كرسي قريب يجلس مراهق بشعر اشقر، وجلد رقبته ابيض كانه الحليب، وثمة شامة تلمع عند منتصف الرقبة تذكره بتلك الشامة الناعمة على الجذر الايسر لنهد باولينا. في اول تعارفهما ضبطته يختلس النظر الى الشامة، فأبتسمت بتأمر وشعر بالدم يكاد يطفر من جلد وجهه. المراهق الابيض الرقبة يقلب صفحات كتاب، حين اقتربا منه، قلب شفتيه وبرطم، ناظرا اليهما بأستغراب، كانه يحتج على وجودهما بهذا القرب. انتبه فوزي الى ذلك وضحك، قال له:

ـ احتجاجا منه على صوت حذائك يبدو له كأنه استغاثة ارنب.

الارانب تطلق استغاثة ايضا... ياه، فماذا يطلق اهل العراق، اية اصوات يملكون للاستغاثة؟ اصوات الاقدام التي يسمعها الان، ثقيلة. عديدة. ذهابا وايابا. طرق من جهات مختلفة. دوم... دوم... دوم...! فتح عينيه بهدوء. احدهم ينحني عليه، يحدق بوجهه. بشعر أجعد، وقصة شعر مميزة، وذقن مربعة. باصابع من ثلج يمس له جبينه. في داخله السنة النار تتصاعد. اهي نيران العشق؟ هاهو الشاعر عبد الكريم هداد بحاجبيه الكثيفين، كحاجبي امرأة غير مزججين، يقف على خشبة مسرح مركز الثقافات العالمي في كايسا، يهمس:

(هسيس النار يذكرهم
بنجمة الصبح وتفاصيل الايام الحلوة)

النار... الحلوة. اه النار. النار تحرق له ضلوعه. اقترب منه احد الرجال. انه الحداد ايلمارنين[٦٠].من جاء به الى هنا؟ هل ارسله الاله أوكو؟ بخفوت همس له الحداد ايلمارنين:

الا لا تخف ولا تقلق

فالنار لا تحرق انيسها

اي نار هذه؟ أهي نيران النوروز؟ اهو مطعم شاخوان، ام تلك النيران التي تشتعل كل عام على قمم جبال كردستان؟ هاهم الكرد يطوفون حول نيرانهم يحملون مطرقة كاوة الحداد ويدبكون:

(ئەمروژی سالّی تازەیە نەوروزە هاتەوە

جەژنێکی کۆنی کوردە بە خۆشی و بەهاتەوە)[٦١]

اهي نيران عيد القديس يوحنا المعمدان؟ أهي نيران بيكاهالونين يشعلها ليدعو بها جيرانه ليسهروا معه، ليتناقشوا في الفنون من شعر وموسيقى ورسم، ويعرضوا أفكارهم في كل ما يجري في الثقافة والسياسة والاجتماع، ويستمعوا إلى زوجته مايا، وهي تشارك زوجة جان سيبيلوس في العزف المنفرد والثنائي على البيانو؟ أي نار؟ اهي نيران لقاء الاحبة ام الفراق؟ كيف يمكن أطفاءها؟ كيف...

ـ ماء!

هل هذا صوته؟ لا يظن؟ هناك من تكلم بدلا عنه، وسأله بصوت اجش عميق:

ـ كيف تشعر؟

امال بصره قليلا، فوجدهم يقفون امامه بعيونهم الواسعة، والحواجب الكثيفة، والشفاه الغليظة، بذات قصة الشعر المربعة واذرعهم المفتولة، وقاماتهم الشاهقة، وصدورهم العارية وحلمات صدورهم البارزة كحبات العنب. اهم حراس معبد عشتار؟ أهم جنود كلكاميش حراس أوروك؟ انتبه الى اياديهم، واصابعهم العملاقة. ياااااه، انهم اصدقاؤه الحجريون. مرحبا. مرحبا. الف مرحبا. كيف استوعبتهم شقته الصغيرة؟ بالضبط مثلما يراهم كل مرة. بذات قصة الشعر المربعة، والحواجب الكثيفة. ملامحهم الصخرية قاسية وجادة. وشئ من اطياف الكاليفالا يومض في عيونهم التي تتحرك الان مثل مصابيح القطارات التي يحرسون. فكر: ايبدو مناسبا لو سألهم من اين جاء "أيميل وكستروم" بملامحهم؟ يعرف جيدا أن فيلي فالغرين[٦٢]، اختار فتاة فرنسية، في التاسعة عشر من عمرها، ذكرت كتب التاريخ اسمها، واعتمدها موديلا لتمثال "حورية البحر"، التي تقف كل يوم تدير عجيزتها المدورة، الشهية والسمينة الى المتسكعين في نهاية حديقة اسبلاندي، تلوي رقبتها وترنو بعينيها الى البحر، ومن تحت قدميها تملأ اسود البحر المكان برذاذ الماء وبرده. كرر نوري مرارا:

ـ من بين كل نساء فنلندا لم يجد النحات الا عجيزة فرنسية ليجعلها تمثل فتاة هلسنكي؟ لو كنت امراة فنلندية لخرجت كل يوم بتظاهرة احتجاجا على عدم تقدير النحات لعجيزة المرأة الفنلندية!

كيف فات نوري اللعين، ان الفنلنديين كل عام، يحييون اجمل احتفالاتهم، في الاول من ايار. يوم الـ Vappu[٦٣]، يوم الحرية، عند تمثال أماندا، "حورية البحر"؟ من له مزاج وعقلية نوري الفرويدية ليفكر مثله؟ كل عام يسرع ليتفرج على مئات الشباب الذين تكتظ بهم الشوارع حول تمثال حورية البحر، ليغسلوا بالشمبانيا تمثالها، ويفركون لها نهديها وعجزيتها المكورة لتزداد التماعا، وتبان غمازاتها، ثم يتطوع شاب وشابة ليستحما عاريين في ماء النافورة الذي تكون قد اندلقت فيه عشرات قناني الشمبانيا من مختلف الماركات. التفت ليرى كيف وقف الى جانب سريره اصدقاؤه "حملة المصابيح"، مثلما يراهم كل يوم يحرسون محطة القطار الرئيسية واسرارها، ويشهدون كل ما يجري فيها وحولها، من مواعيد حب وصداقة، ومواعيد صفقات سرية. اراد الصراخ: يا لحملكم الثقيل، هذه الفوانيس التي تحملونها بين اصابعكم ليل نهار يستضئ الناس من نور رمزها، لكن لا شئ يوازي ثقل الاسرار التي تحفظونها في قلوبكم الاسطورية. كم تعرفون من اسرار الناس يا اصدقائي؟ كم شهدتم من حوادث؟ اتذكرون في اول سنة لي في بلادكم، يوم سكرت في عيد الـ Vappu، ووقفت احدثكم؟ سلمت عليكم، وحييتكم بحرارة واحدا بعد الاخر، كان ثمة شرطية فاتنة تقف على مقربة وتضحك بجذل، حد ان النمش في وجهها صار واضحا مثل نجوم ملونة على صفحات خدودها. تبدو مستأنسة جدا لكلامي. كان زميلها يدعوها للاسراع، واقسم لكم يا اصدقائي بالاله أوكو انه كان يشعر بشئ من الغيرة. نعم، ولماذا لا، فالرجل الفنلندي، الذي يبدو صامتا كالحجر ولا مباليا ايضا يشعر بالغيرة، يعتقد بعض الشرقيين خطأ ان الرجل الفنلندي بدون احساس، هكذا يعتقد شاخوان، وطالما ازعجني:

ـ يا اخي، الرجل الفنلندي لا يهمه اين تذهب زوجته ومع من، هذا غريب جدا.

تصور خاطئ. خاطئ. غير صحيح. ابدا. لا. لا.. يا شاخوان، هذه غير مقبولة منك. ينسى شاخوان اشياء اسمها استقلال الشخصية، الثقة، الالتزامات، واحترام النفس. شاخوان ومن يفكرون بطريقته يعتقدون ان لا وجود لمفهوم الغيرة في قاموس شخصية الرجل الفنلندي. هم واهمون. نعم يا اصدقائي، واهمون جدا. هؤلاء لا يدركون ان غيرة الرجل الفنلندي تكون قاتلة احيانا. كيف؟ انتم تتذكرون كل الحوادث في البلاد، انتم حراس هذه البلاد منذ ان وطأتها منذ

مئات السنين ارض اول مستوطن من جبال الاورال طلبا للدفء. حسنا يا اصدقائي، قبل عدة سنين، في الاسبوع الذي قتل فيه شاب صومالي طائش، فتاة فنلندية، لا اذكر اسم مدينته، لم تكن هلسنكي، ولكن مدينة اخرى، ربما توركو Turku. ذلك الشاب الأغبرالذي سبق لشهادة الفتاة في المحكمة ان قادت الى صدور حكم بسجنه لفترة. حضرته، الاهبل، اعتبر ذلك ظلما وغدرا، وقضى ايامه في السجن وسط حالة احباط كانت كافية لملأ قلبه بالحقد على الفتاة المسكينة، التي لم تفعل ووفق تربيتها الا واجبها برواية الحقيقة وما تعرف. الفنلنديون لا يعرفون الكذب، وهكذا ربوا اطفالهم. وهذا الاغبر، التافه، الاهبل، في يوم مغادرتة للسجن بحث عن الفتاة المسكينة، وببساطة طعنها وقتلها. تذكرون يا اصدقائي كيف هاجت فنلندا وانقلبت، وكيف وجدها العنصريون فرصة لنشر الذعر بين الاجانب في كل المدن الفنلندية؟ تتذكرون كيف خرجت تظاهرة عند مكان اقامتكم، دارت حول محطة القطار، تحمل لافتات:

- (Ulkomaalaiset Pois Suomesta)[٦٤]

هل تذكرون كيف ان في مدينة يوينسو Joensuu تظاهر العنصريون بنشاط وهاجموا اماكن وجود الاجانب، وفي عموم البلاد سجلت الشرطة عدة حوادث اعتداء عنصري؟ في هذه الايام العصيبة، لكل مواطن اجنبي ولكل فنلندي مسالم، كنت لا ازال اواصل دراسة اللغة الفنلندية، واتعثر بالكلمات. معلمتنا الرائعة، التي تتحدث عدة لغات بطلاقة، والتي كانت نافذتنا المشرعة الى الحياة في فنلندا، كل يوم كانت تستعرض لنا عناوين الصحف الفنلندية بلغة بسيطة. في هذه الايام التي انشغلت فيها الصحافة ووسائل الاعلام، بجرجرية الشاب الصومالي، لم يغط احد خبر قتل زوج فنلندي لزوجته في حمام المنزل طعنا بالسكين بسبب الشك والغيرة. ارتنا معلمتنا الخبر الصغير، ظهر بسطور قليلة في الصفحات الداخلية لاحدى الصحف، بينما ظل الشاب الصومالي القاتل لايام طويلة بطل الصفحات الاولى لغالبية الصحف. يا اصدقائي، يا حراس اسرار المدينة، اردت القول ان هذه الشرطية الشابة الجميلة، التي يومها يبدو ان ثرثرتي معكم اعجبتها، اصرت ان تبقى على مقربة لتسمع كل حديثي. لماذا؟ لا اعرف؟ كنت منتشيا، ومن كل قلبي انقل لكم مشاعري. حدثتكم بكل محبة، احترت اولا في موضوع اسمائكم. هل تتذكرون أم ان ذاكرتكم صارت تتعثر مثل ذاكرة الخنزير سيد عجمي، ذاك الذي نسي كيف انه اذاق شامل، اخ فوزي، وعائلة فوزي الويل بتقاريره الدنيئة، متخذا من فرن خبز قريب مكانا للمراقبة، وراح يرصد حركة الضيوف والزوار؟ قيل ـ وكل شئ ممكن من ومتوقع من هذا الجاسوس بالفطرة ـ ان سيد عجمي، سيد كارثة، استخدم كاميرا فيدو

لالتقاط صور بعض الضيوف المهمين. والان يا اصدقائي، لو تعلمون كيف لبس سيد عجمي لبوس النضال والوطنية؟ ويحاول تصدر المجالس وعرض نفسه كمناضل. لكن الناس صارت تعرفه اكثر وتتحاشاه. يقال انه صار يكتب تقاريرا للشرطة السرية الفنلندية عن نشاط المعارضة العراقية، يعني انه لا يزال يلاحق فوزي الى منفاه ويحاول كتم انفاسه. السافل لا يستطيع التمييز بين البول والصنوبر. فضحه نوري في كل مكان. وهو يطلق ضحكاته وتشبيهاته الداعرة. الله يلعنك يا نوري. لا...لا استغفر الله، كل الشكر لك يا نوري. فضحت لنا هذا الجاسوس. اراد سيد عجمي دعوة جماعة ليصاحبوه وليشاركوه التفرج مجانا على اجساد الفاتنات القاصدات الراحة والاستجمام عند بحيرة الصنوبر Kuusijärvi. هو يقيم ليس بعيدا عنها. يقول نوري ان سيد عجمي بدل ان يلفظ كلمة صنوبر Kuusi كما هي في اللغة الفنلندية لفظها Kusi فجاء دعوته تتلائم مع اخلاقه ومستواه فهو يستحق ان يسبح في "بحيرة البول" وليس في "بحيرة الصنوبر". ها... ها... ها. اعود لكم يا اصحابي، يا حملة المصابيح واقول، تلك الليلة السعيدة اخبرتكم باني سألت عنكم قاطعة التذاكر في محطة القطار في كيرافا. اريتها صورة لكم، كانت منشورة في احد الصحف: ما هي اسماء هؤلاء الرجال؟ ضحكت مني قاطعة التذاكر بجذل. اصلحت نظارتها الطبية، وهزت رأسها وقالت: لا نعرف لهم اسماءا، انهم بالنسبة لنا "الرجال الحجريون"! زعلت منها، جدا. قلت لها: ايتها الفاتنة، ايعقل ان يكون احد في هذه الدنيا بدون اسم؟ صدقوا ذلك يا اصدقائي. صحيح ان قاطعة التذاكر كانت جميلة، وكان يمكن ان يكون سؤالي مدخلا لدعوتها الى فنجان قهوة وربما تأتي بعد ذلك اشياء اخرى، كما يتمنى نوري، ولكني كنت صادقا جدا في سؤالي. أفي فنلندا حيث القانون فوق كل شئ، ولكل شئ اسمه، لا يوجد لكم اسم؟ لا يمكن السكوت عن هذا. لا... لا... يا اصدقائي...لا. ايعقل ان ايميل وكستروم أكتفى فقط بحماسه القومي الرومانسي، في وقت تصاعد فيه الشعورباالهوية الفنلندية، التي طالما تعرضت للازدراء والتعالي من الشعوب المجاورة، واتهام الشعب الفنلندي بالبربرية والسقوط من التاريخ، ورسم لكم وجوها مجردة، معبرة، من اجواء اناشيد الكاليفالا، التي حفيت اقدام الياس لونرت[٦٥] لجمعها وهو يطوف على قدميه في مناطق شرق فنلندا وكاريلا Karelia؟ لا ايها الاصدقاء، انا اعرفكم جيدا واعرف اسماءكم، اتدرون اين تقابلنا اول مرة؟ هناك عند أسوار أوروك... **"المصنوعة من الحجر المفخور، التي تومض كالبرونز"**، هناك رايتكم لاول مرة، تحرسون عرش كلكاميش، ابن الالهة ننسون. **"كلكاميش الذي راى كل شئ"**، الذي ثلثه انسان وثلثاه اله، الملك الذي بنى اسوار مدينة أوروك، التي لا تبعد اطلالها

الان سوى عدة كيلومترات عن مدينة السماوة، مدينة فوزي، التي كانت نقطة انطلاقنا لعبورالصحراء. مدينة السماوة حيث عمل صاحب لفترة واختفى هناك. ايكون اختفاء صاحب له علاقة بمرافقة كلكاميش خلال صولاته ومغامراته وجولاته؟ ولكن صاحب رجل مسالم جدا، ليس له حظ في **"مقاتلة الاسود الضارية للاكتساء بجلودها"**. ولا بمصارعة ثور السماء والقضاء عليه؟ اعرفكم ايها الاصدقاء من ايام أوروك ، مقاتلين سومريين شجعان صددتم غارات الاعداء على اوروك، وحرستم لفترة حارة المعبد المقدس لعبادة كبير الالهه السومرية آنو، قبل اختياركم لحراسة قصر الطاغية كلكاميش، **"الذي طغى وبغى"** واذل اهل اوروك وضاقت بهم السبل فاشتكوه الى مجمع الالهة، الذي قرر تكليف الاله ارورو فخلق انكيدو ندا لكلكاميش ليدخلا في تنافس دائم علة يلهي كلكاميش عن رعيته وتستريح اوروك. بعد صراع عسير صارا انكيدو الصديق الاقرب والاحب بل والناصح لكلكاميش. الصداقة بين كلكاميش وانكيدو تثيرني دوما، وتذكرني دائما بصداقتي مع صاحب، ابن خالتي سراب. كنا في مشاعرنا وهمومنا واحلامنا نكاد نكون واحدا. وان افترقنا في السنوات الاخيرة، فأن ثمة حاجة، مثل نار تستعر في اعماقي، تدفعني للبحث عن صاحب لاطفأ هذه النار. انا وصاحب ربما كنا نشبه كلكاميش وانكيدوا في محبتنا، ولكن لو سألتموني من منا كان كلكاميش ومن كان انكيدو؟ لا يمكن اجابتكم على هذا السؤال، المهم الان اني قابلتكم هناك في اوروك وتعرفت عليكم في احتفالات عيد القمح، واوروك تشهد الانقلاب الربيعي. انتم المقاتلون الشجعان، الذين حزنتم مع كلكاميش عند مرض وموت صديقه انكيدو بين ذراعيه:

من ترى يا صديقي يرقى الى السماء
الالهة هم الخالدون
اما البشر فايامهم معدودة على هذه الارض
وقبض الريح كل ما يفعلون

انتم يا اصدقائي اردتم مرافقة كلكاميش في رحلته المثيرة ومشاركته مغامراته في بحثه عن سرالخلود، لكنه مضى وحده متحديا كل الصعاب لمقابلة اوتو- نبشتم [٦٦]، الذي اشفق على كلكاميش وهداه الى سر نبتة شوكية تعيش في الآبسو، في اعماق المياه الباطنية، حيث مسكن الاله انكي. سر النبتة انها تمنح خصيصة تجديد الشباب. بعد حصول كلكاميش على النبتة السحرية سرقتها منه الافعى، وصارت تبدل جلدها بأستمرار، وقفزت لتكون رمز الصحة على واجهات كل صيدليات العالم. ليعود لكم كلكاميش، الى اوروك، معززا بالحكمة والتجارب

وليكون ملكا صالحا عادلا. فهم كلكاميش جيدا ان الخلود هو في العمل الصالح ومعرفة معنى الحياة وغايتها. اعرفكم يا اصدقائي من ايام كلكاميش العظيمة تلك. ليس صحيحا انكم قادمون من بطون الملاحم اليونانية، فهرقل[٦٧] لم يكن الا ظلا لصورة كلكاميش، واذا كان فاينامومويننن ظلا لهرقل فهذا يعني انكم اساسا قادمون من هناك، من عند اسوار اوروك. كلكم، نعم، انتم وفاينامومويننن وكل ظلال الكاليفالا قادمون من هناك. تلك الليلة السعيدة، بعد الانتهاء من تحياتي ومناجاتي لكم، اقتربت مني الشرطية الجميلة، بمودة وكأنها تعرفني، وسالتني: الى اين تود الذهاب؟ فقلت منتشيا بسحر نظراتها: الى كيرافا، عاصمة الحب، حيث معبد الاله أنكو. وضحكت الشرطية بجذل لان في كيرافا ليس من معابد الا اذا اعتبرنا قبر جان سيبليوس القريب في مدينة يارفنبا Järvenpää مزارا، او ان بيت بيكا هالونين معبدا، او الكوخ الخشبي، الذي لجأ اليه الكسيس كيفي عندما خرج من مصح الامراض العقلية، وعاش فيه فقيرا معدما، مريضا حتى وفاته وهو شاب، مكانا لسكن الالهة؟ رافقتني الشرطية الفاتنة الجميلة حتى عربة القطار، بدت لي، وهي تحاول ضم خصلات تاجها الذهبي تحت قبعتها العسكرية، وكأنها كوليكي[٦٨] التي اطاحت بعقل ابن لمي الطائش[٦٩] الذي اختطفها لتكون "**دجاجة تحت ابطه**". حين تسندني وانا اتحايل بعدم التوازن للاقتراب منها اكثر لاشم عطرها، اهمس لها بخفوت "بربك يا كوليكي، ايتها الساحرة الفاتنة، اذا كان هناك في اخر العمر حقا ثمة جنة ونار اخبريني قبل موتي حتى احج الى مكة فيغفر لي ربي كل خطاياي". واذ تنظر الي مستغربة، اضيف دون ان تفهم مني شيئا "سأحج على طريقة ملا حسين، واضمن الوجود معك في الجنة، لانك بالتأكيد ستكونين في الجنة، فرغم كل ذنوبك ومعاصيك وكل ما فعلتي وستفعلين فأن الرب لابد ان يفرد لك جناحا كاملا هناك. "**ان الله جميل يحب الجمال**". اوصت الشرطية الجميلة قاطع التذاكر بأن لا يتركني نائما في القطار ويوقظني في كيرافا. اعرف انكم طلبتم منها ذلك، كنتم تتحسسون حيرتي وغربتي والمي، وانصاعت الشرطية الى طلبكم. اذكر اني عند باب القطار قلت لها وبصدق وانا اودعها واشكرها "في حياتي لم اقبل رجلا شرطيا، اتسمحين لي بتقبيل امرأة شرطية؟". ضحكت بدلع لا يناسب بدلتها ومسدسها وشاراتها، قالت "اسفة، انا في الواجب". يعني يا اصدقائي لو لم تكن في الواجب لفعلت. انسانة كريمة. لا ازال ابحث عنها لاخذ منها قبلتي. هو حقي، ولا اعتقد انكم توافقون على تنازلي عن حقي؟ اذا عرفت عنوانها ساشكوها يوما حتى لو الى تاريا هالونين. نحن نعيش في دولة قانون ولكل انسان حقه، لسنا في بغداد حيث صدام حسين بجرة قلم يصنع قانونا، وبجرة قلم غير العلم العراقي

وكتب فيه عبارة "الله واكبر"، ظانا ان لا احد يمكن تغيير ذلك بعد موته؟ اتدرون بكل هذا؟ انتم تعرفون كل شئ. سأقول لكم شيئا ليكن سرا بيننا، ان هذه الشرطية الجميلة اسمها آنو. انا لم انس الاسم ابدا، لان في بلادي البعيدة، هذا الاسم هو اسم كبير الالهه السومرية آنو. لذا ارجوكم اذا مرت يوما بقربكم ذكروها بالتزامها. كنت على الدوام احي النخوة فيكم، واعتبركم وجوه فنلندا وحراسها، لولا ان اعلانات التلفزيون لم ترحمكم. رغم ان الفكرة ذكية، اعترف بهذا، الى انهم حولوكم الى مجرد اداة ربح.

وقف الرجال حملة المصابيح عند سريره كصف من الجنود يتبادلون الابتسامات. لفت انتباهه ايديهم الضخمة الفارغة. اين مصابيحهم التي يحملوها ليل نهار؟ وما الذي يفعلونه هنا، في شقته؟ خطر له انهم سمعوا تساءله، رغم انه لم ينطق شيئا، اذ تقدم له من يقف في الجانب الايمن وقال:

ـ نحن بأنتظار الاوامر مولانا؟

استغرب طريقة المخاطبة. مولانا؟ طول عمره وهو يرفض الالقاب والصفات التي تفصل ما بين الناس وتخلق منهم طوائف وطبقات. همس بخفوت:

ـ ماء!

هاهو احدهم يقرب كأس الماء الى فمه. من هذا؟ اراد التساؤل بصوت عال، واراد الاجابة بصوت اعلى. يااااه، انه اور ـ شنابي[٧٠]. من اين انت قادم ايها البحار الجرئ؟ كيف حال جدنا اوتو ـ نبشتم؟ الا زال مقيما في دلمون؟ اهو على تواصل مع الاله آنكي؟

ـ اشرب؟

وشرب على مهل. رن هاتف. تناوله اور ـ شنابي. ياه وصل الهاتف المحمول حتى الى شورورباك؟ على من يرد اور ـ شنابي الطيب؟ كان الكلام همسا فلم يسمع شيئا مما يدور. هل اور ـ شنابي يخبر اتونابشتم عن تطوعه لنقل كلكاميش في زورقه عبر نهر الموت؟ اهو ينقل تحياته الى اوتو ـ نبشتم، ويخبره عن علته ومرضه؟ سيقول له بأن حفيده كريم مطرود. بالدال وليس بالتاء، مريض! أسيقوم اوتو ـ نبشتم بالتوسط لدى الاله انكي ليعافيه من المرض؟ كان واثقا ان اوتو ـ نبشتم سيفعلها، وسيفعلها الاله انكي ايضا، فكلاهما طيبان ومباشران، ولا يجيدان اللف والدوران مثل بعض قادة احزاب المعارضة العراقية المقيمين في فنادق خمس نجوم، وليس من هم لهم سوى المتاجرة بمصير الوطن. الاله انكي محب للبشر، كل كتب الاساطير تقول هذا، وليس طه باقر وحده، بل كل سكان وادي الرافدين يعرفون بذلك. حين قررت الالهة افناء البشر، لم يستطع احد الخروج على قرارالالهه. حتى عشتار، الرقيقة، الجميلة، محبة الحياة والخصب

والجمال، تصرفت بشكل انتهازي، سكتت وكأنها عضو في حزب سياسي من دكاكين المعارضة العراقية. صحيح، لقد اقامت عشتار مناحة لاجل البشر، وحده انكي، صاحب الموقف المبدأي، الذي كان صادقا ونبيلا، وجمع ما بين اقواله وافعاله، تسلل ومع سبق الاصرار الى احلام اوتو- نبشتم، وصاح به:

- ساقول لك كلاما فاتبع كلامي

انا مرسلون طوفانا من المطر...

ولسبعة ايام وسبع ليال، مثل اقسام كتاب. وليل نهار، مثل فصول حكاية، ومثل الكلمات والعبارات، انداحت سيول الطوفان فوق صفحات الارض. عن هذا تحدثت الاساطير وثم الكتب السماوية. كل الكهان وكل الانبياء. كل المتنبئين وكل الكتاب. هبت العواصف ودفعت مركب اوتو- نبشتم العملاق، وحمولته الثمينة، حيث حمل فيها من كل زوجين اثنين. وحين نشر آوتو اله الشمس، الضوء في السماء والارض، وعادت الحمامة بغصن الزيتون، فتح اوتو- نبشتم باب مركبه وخر ساجدا.

- انهض يا بطل!

٣

لم يستطع النهوض. لم يستطع تحريك ساقه. يشعر وكأنه مثبت الى السرير. الصنوج لا تزال ترن، والطبول تدق والكمانات تئن. بوووم...بوووم...بوووم. التف عليه الرجال حملة المصابيح، وحمله احدهم بين ذراعيه مثل قشة. الى اين؟ انتظروا. لا تحملوني بهذا الشكل. لست طفلا. ماذا ستقول عني تلك الطفلة، في الروضة المجاورة لشقتي؟ طلب مني بيكا تويفنين، الحضور لاجيب على سؤالها، الذي قدمته لنا بهمس، مثل حركة ريشه في الهواء:

- احقا قابلت علاء الدين، أو حقا يطير بساط علاء الدين؟ هل رايته بنفسك؟

سحبه بيكا تويفنين، وتركه امام الطفلة، بدون حماية:

- هذا جار علاء الدين في بغداد، وهو صديقه.

لم يستطع اخبار الطفلة بأن علاء الدين انتقل من السكن بجوارهم من سنين طويلة حتى قبل هروبه من العراق، فمغارة علاء الدين التي يسكنها لم تكن ملكا لاهله، لقد طالب بها صاحبها، ليحولها الى سوبر ماركت فطرد المستأجرين، لكن عزت الدوري استولى عليها ليحولها الى تكية للدروشة، فهاجر علاء الدين وحصل على اللجوء السياسي في

اوربا عن طريق رشوة احد العاملين في مكتب الامم المتحدة في موسكو، ولم يخبر احدا عن مكانه خوف ان تناله يد صدام، فصدام حسين وحتى قبل ازاحتة للاب القائد احمد حسن البكر ليصبح بذلك "فارس الامة الضرورة" وقائدها الاوحد، يحب التأكيد بأن يد حزبه طويله، طويلة، طويلة جدا، بحيث انها انهت وقصفت عمر كثير من العراقيين الذين هربوا من طغيانه، وحتى صالح مهدي عماش سفير نظامه في فنلندا. الاشاعات المختلفة تقول دُس له السم فمات، وهناك من يتهم طبيبه ويقول ان يد صدام حقا طويلة، طويلة جدا، ويمكنها الامتداد من بغداد الى هلسنكي لتضع شيكا بمبلغ خيالي في جيب الرجل المناسب للتوقيع على شهادة الوفاة المطلوبة التي لا تثير الشبهات حول وفاة مهدي عماش. علق صاحب مرة:

ـ يد الثورة طويلة، يعني مثل يد الرجل المطاط[٧١]، ويعني يقدر البعثي يصير حرامي ويسرق الناس بدون علمهم؟

لو كان نوري حاضرا لاضاف:

ـ ويقدر يمد يده تحت اي تنورة ويقرص في المكان الذي يرغب؟

وسمع من يطلب منه:

ـ حاول الوقوف؟

شهق:

ـ كيف لي الوقوف، والى اين تمضون بي؟

لم ينطق بحرف، لكنه استنتج بأن اصدقاءه الرجال حملة المصابيح يقرأون افكاره حتى قبل البدء بحديثه لانهم اجابوه:

ـ نعم يا مولانا، ونحن بانتظاراوامرك؟

فكر: اية اوامر، واين هو الان اساسا؟ هل هذا حلم من احلام الف ليلة وليلة؟ في صباه كان يسرق من دولاب كتب خاله صبحي كتاب الف ليلة وليلة ويهرب الى سطح الدار ويلتهم الصفحات بسرعة. وليلا كان يزوره ابطال القصص تباعا. هكذا قابل وتحدث مع السندباد البحري ليخبره عن رحلاته الى جزر الواق واق حيث تثمر الاشجار هناك نساء اثداؤهن تقطر عسلا، وقابل الامير قمر الزمان وحصانه الطائر، وصادف علاء الدين وهو يحمل مصباحه السحري ، وراى بام عينيه البساط السحري وهو يطير...

ـ البساط السحري جاهز يا مولاي.

قال له الرجل العملاق، وهو ينحني عليه، ويضع يـده تحت ابطـه. اراد التحـرك لكنـه وجـد نفسه ثقيلا، كالمسمر الى الارضية. تقدم منه وجه ايلماري:

ـ ان كنت ترغب بالحركة اخبرنا يا مولانا ؟

اراد التعبير عن انزعاجه. اراد الاحتجاج على هذه الـ"مولانا" التي لا يملون من تكرارهـا. اين هو وماذا يريدون منه، وكيف يستطيعون قراءة افكاره؟ اتراهم مثـل الجـني الـذي اطلقـه علاء الدين من المصباح السحري؟

ــ بالضبط يا مولانا.

قال صوت اولا، وثم بهدوء رد ثانيا:

ـ شبيك لبيك. نحن بين يديك.

تساءل: هل بدأ يخرف؟ لا يمكن ذلك. في الصحراء، وقبيل عبور الحدود العراقية، وحين ظلوا الطريق ونفذت حصته من الماء، خجل مفاتحة احد وهو يعرف ان حصص المـاء محدودة، وبتـاثير الصحراء، اصيب احد الرجال بحالة غريبة، راح يقاتـل الجـان ويتخيلـهم امامـه، لم ينقـذه منهـا سوى جرعة ماء قدمها له المهرب كانت مخلوطة بالبنزين، وسأل يومها باستغراب: ولماذا البنزين يا دليلنا؟ وفهم الحكمة من فوزي: حتى لا نشرب كثيرا. كان فوزي يشد من عزمـه: ايـن انـت الان يا فوزي؟

ـ انا هنا!

والتفت. كان الحداد ايلماري، ينزع عنه ثيابه. لماذا ينشغل بـه ويمرضـه هـذا الحـداد البطـل، الذي تغلب بشبابه وجماله وشجاعته على فاينامو موينن العجوز، رغم كل جبروته ودهائه، لقد صنع الحداد ايلماري "السامبو" من ريشة وحبة حنطة وقدمها مهرا لسيدة الشمال كي تزوجـه ابنتها، فما الذي يفعله هنا وينشغل معه وينزع له ثيابه؟

ـ والان كل شئ جاهز يا بطل؟

جاهز لماذا؟ ماذا يريدون منه؟ وماذا يمكن ان يفعلوا به؟

ـ كل شئ يا مولانا.

كل شئ. يا لسهولة الكلام. كيف يمكن بأمكان احد انجاز او حيازة كـل شـئ؟ كـان يظـن ان بامكانه وضع القمر في جيبه لو اراد ما دام يملك قراره بنفسه، ويملك ارادته الحرة. لكنه وجـد ان ثمة أشياء اعلى من طاقة الانسان حتى لو امتلك حريته وارادتـه. ثمـة قـوانين مفروضـة عليـه، تجعله مسكونا بالخيبات والحسرات والفقدان. نحن مقيدون الى قـوى لا سـلطة لنـا عليهـا. تلـك

القوى الارضية التي تخلق حياتها وقوانينها المجحفة. فقد محاسن زوجته وابنته رحيل. صاروا الان عائلة غريبة عنه. هاهي محاسن لها ابن اخر من رجل اخر. ابن اسمه طارق. طارق بن صالح. يااااه، وهاهي ابنته لها اخ من اب اخر. اب غيره. زوج لمحاسن غيره. وهو هنا على حافة القطب، جار للدببة والفقمة واشجار الصنوبر، وسط الثلج والبرد والعتمة، يبحث عن التواصل الحضاري، ويحاول اقناع الفنلنديين، بان خيط الحوارالبشري، بدأ مع عمر هذا الكون:

ـ لنكن على وعي من الدعوات المشبوهة لفوكو ياما وهنجتون، دعواتهم لا تقودنا سوى الى عرقلة مسير تطور البشرية على اسس الحوار والتواصل، وعلينا البحث عن اسس التقارب والالتقاء قبل التحدث عن التعارض والاختلاف.

ولكن اتراه يحفر في الثلج باظافر عارية؟ اتراه يقف بكل ذاكرته الصحراوية عاريا امام برد الثلج؟ ليس لابلند Lapland سوى صحراء من ثلج. مساحات شاسعة، تذروها الريح فيطير غبار الثلج كأنه الرمل في الصحراء. الثلج والرمل و... السراب. سراب؟ هاهو من سنين يبحث عن سراب، فهل عرف شيئا عنه؟ هل استطاع معرفة ولو خيط يوصله اليه؟ كل يوم يسمع خبرا ما، ويصدقه، ويهرع للقاء ناس لمجرد التمسك بغبار الامل. السراب. هاهي السفينة استونيا تحتل واجهات الصحف من جديد. افلام وثاقية وكتب تحليلية وثمة من يريد انتاج فلم روائي ولكن اين الحقيقة؟ من يعرف الحقيقة؟ لماذا غرقت استونيا؟

ـ نحن هنا لاجل ذلك يا مولانا.

وفجاة وجد رجال المصابيح يحملوه بخفة ويضعوه فوق عنق العنقاء سلطانة الهواء. ولكن لماذا انا؟ لم اقدم لك ايتها العنقاء يوما شيئا ما يذكر؟ لست فاينامو موينن الازلي، **"الذي يوم اقتطع غابة كاليفالا، واضرم النار في غابة اوسمولا، ترك شجرة دلب قائمة فقط ، شجرة وارفة تركها تنمو كمستراح للطير"**، لذا كافأتي فاينامو موينن الازلي بانقاذه يوم اصابه سهم الصغير يوكاهاينن، فتى لابلاندا النحيل، فأسرعت لانقاذ فاينامو موينن ساعة **"انقلب على اصابعه الى الماء وسقط عن متن الايل الازرق"**. فماذا قدمت لك انا ايتها العنقاء؟

ـ لا عليك، اقتعد متني

ارتفع الى عنقي

هاهم يطيرون به مثل جني علاء الدين، مثل البساط السحري. هاهي هلسنكي من تحته. الوقت ليل.الاضوية ترسم خطوطا من الذهب على بياض الثلج الذي يغطي المدينة. الابيض. وهاهي المساحات الزرقاء تظهر. المياه. الازرق. الابيض والازرق الوان علم فنلندا. معلمة اللغة

الفنلندية بأبتسامتها الساحرة، تنغّم بصوتها وهي تشير الى الجدار: الابيض هو الـثلج و الازرق هو البحر. ابتعدوا به كثيرا عن المدينة. لا شئ سوى الازرق. الازرق...

ــ الى اين نحن نذهب؟

تنطلق ضحكات. ثمة من يواصل نزع ملابسه. ويد قوية تسنده وتمنعه من السقوط.

ـ قف، حاول التماسك يا بطل؟

رشاش ماء ينهمر عليه. الماء يغمره. الماء. اعرف. اعرف:

ـ ان اقدم مرهم هو الماء.

البرد والريح والمطر. هداد سيد العاصفة يرسل مطرا مدمرا. العاصـفة الـشديدة، المباغتـة، التي قصمت ظهر السفينة "استونيا". نزلت "استونيا" الى اعماق البحر خلال دقـائق. اسـرع من تايتانك بكثير. هاهو يغوص مع رجال المصابيح في اعماق البحر. دلافين وكلاب بحر والفقمة واسماك ملونة وقناديل بحر، كلها تسبح من حولهم، ولكنها تبتعد عنهم هاربة وهـي تـرى رجـال المصابيح يقودونه من ذراعيه وهم يتقـدمون مثـل طوربيـدات بحريـة. فجـأة وعلـى قـاع البحـر الداكن، ظهرت له كتلة هائلة من الاسمنت. عرف فورا انها السفنية اسـتونيا. قـررت الـشركات المالكة تحويلها الى قبر جماعي لمن مات فيها. ضجت الصحف بين محتج ومؤيـد. بيكـا تـويفنين وهو يمد قامته على الاريكه، يتجرع فنجان القهوة ويفرك اطـراف اصـابعه، ثـم يحـك بهـا ذقنـه الاشيب قال:

ــ احسن طريقة لدفن الاسرار.

هل سيبقى غرق السفينة استونيا لغزا محيرا للناس؟ رغم كل التقارير التي قدمت مدعومـة بالصور لتثبت ان اهمال الشركة لصيانة السفينة سبب انفصال مقدمتها بتاثير الرياح وبالتـالي تسرب المياه وميل السفينة وغرقها؟ الاشاعات والاقاويل لم تنته. هناك من يقـول بـأن مـالكي السفينة طامعين بالتعويضات. الطمع. الطمع. اكل الملك الجبار خراءه بسبب الطمع، فكيـف لا يمكن ان يكون الطمع سببا لموت مئات الابرياء؟ لم ينج من ركاب "استونيا" الا القليل. اكـان الحادث حقا من نتائج حرب المافيات الروسية؟ المافيا. جسر المافيا. كلمـة المافيـا كلمـة عربيـة. "ما في". لايوجد احد. تدق الشرطة الايطالية بيوت العرب في صقلية: اين ذهـب قطـاع الطـرق والبلطجية الذين يعيثون فسادا في الجزيرة من بدايات القـرن التاسـع الميـلادي؟ "مـا في... مـا في". وتشير المرأة العجوز الى الجبل. ويظن الشرطي الايطالي انها تعني اللصوص. ودخلت كلمة "ما في" القاموس الايطالي لتصير مافيا، مافيوزيتـا. أكـان اهنـاك قنبلـة مـن تـدبير المافيـا

سببت انفصال مقدمة السفينة استونيا وغرقها؟ كان يتابع التلفزيون وراى صور قديمة للسفينة وهي تفتح ابوابها الضخمة لسيارات الشحن. الاف اللاجئين العراقيين عبروا سرا بمثل هذه السفن. يعمد اصحاب الشاحنات الى اعداد مساحة فارغة بين البضائع، وهناك وبالاتفاق مع المهربين الذين يجيدون العثور على الراغبين باللجوء، يتم تخبأتهم داخل الشاحنة قبل صعودها الى السفينة. يزودون بالمياه ووجبة طعام ويطلبون منهم السكوت. حتى حاجاتهم يقضوها في اكياس وقناني يجب عليهم اعدادها مسبقا. كم من عراقي هرب بهذه الطريقة؟ مهنة مربحة درت الاف الدولارات على الذين صاروا يمارسوها تحت حجة مساعدة ابناء جلدتهم. هكذا فعل التافه فرمان بوند، والنذل احمد عبد السادة. يرسلون وكلاءهم للبحث عن الزبائن في المدن الروسية حيث وصل العراقيون هربا من الموت في حروب عدوانية، او في زنازين سجون صدام حسين. ناس باعوا كل ما عندهم، بيوتهم وذهب زوجاتهم، واستدانوا ووصلوا موسكو للبحث عن طريق الى الدول عند القطب الشمالي، الى جنات عدن تجري من تحتها الانهار. يجدهم وكلاء المهربين، يزينون لهم سهولة الطريق والامان فيه، تماما مثلما فعل وكيل المهرب احمد عبد السادة في لقائه مع فوزي، الذي كان راغبا بالسفر الى السويد:

- لاكون قريبا من اخي شامل وعائلته.

وكلاء المهرب احمد عبد السادة جلبوا فوزي الى تالين لينقلوه الى السويد ولكنهم في تالين واذ اختلف المهربون فيما بينهم استطاعت الشرطة الاستونية القاء القبض عليهم. قال فوزي:

- غرقت السفينة استونيا، ونحن في زنازين السجن الاستوني، كان مقدرا لنا ان نكون على متنها.

هاهي استونيا امامه. كتلة داكنة عظيمة من الاسمنت. هاهي استونيا يا فوزي. كيف يمكن تحري ومعرفة ما بداخلها؟

- من هنا يا مولانا.

بلمسه من اصابع العمالقة تصدعت كتلة الاسمنت الداكنة وتطايرت مثل ورق كرتون وظهرت السفنية راقده على الارض، هيكلا معدنيا فخما. وفجاة اشتعلت الانوار تباعا، في الغرف والممرات، وراحت السفينة تطفوا امامه، مثل اي سفينة توشك على الانطلاق والابحار. مدينة وسط البحر. اراد الصراخ هل نحن في فلم التايتانك؟ سحبته ايد قويه عن الماء، فركت له جسده بمناشف من القطن. يشم العطر الفاغم. هذه المناشف اشترتها له باولينا، قبل اسابيع، وعلمته تعطيرها عند تنظيفها بسائل خاص. اختفى عن ناظريه رجال المصابيح. ثمة يد تسحبه. من انت؟

ـ تعال، لا تخف، سيكون كل شئ على ما يرام؟

ولماذا لا يخاف؟ العمر كله وهو يسير بين جدران الخوف، وتحت سقوف خفيضة بسبب الخوف. الخوف في بلدنا له ملامح وعيون واسم. بيده سياط وكلاليب كهرباء. كانوا ستة رجال معلقين على بوابة الامن العامة في الديوانية، لم يستطع رفع راسه لينظر اليهم، خوف التورط معهم. كان للخوف اسم. يومها كان الخوف اسمه: انيس التكريتي، تفوح من فمه رائحة الخمر وله سن ذهب مثل عاهرات "الفوار". هاهو يتحرك في ممرات السفينة. يمر عند غرفة الاستعلامات. الموسيقى لا تزال تهدر. تراااا... تيرا... تيرااا. كمانات تتوقف، وكيتار يعلو منفردا. الناس حوله في اماكنهم متصلبين. كانهم تماثيل الشمع. عجيب. وفجأة تدب الحياة في ارجاء السفينة. اللون الكالح بفعل مياه البحر يختفي، الاضواء تشتعل. الموسيقى تهدر.بوووم...بووم..بوووم. يدور في مرات السفينة استونيا. سفينة نوح. من كل زوجين اثنين. يفتح باب قاعة السينما. هناك على الشاشة، تتحرك كتيبة جنود، وقصف مدفعي ودبابات روسية تتحرك، الجنرال مانرهايم يقف على الباب يقطع تذاكر الداخلين:

ـ اسرع يا ولد، اسرع، سيفوتك العرض، لترى حربنا من اجل فنلندا العظيمة كيف كانت لطرد السوفيت المحتلين؟

يفتح باب اخر. الات موسيقية تطفو. الفرقة السيمفونية الوطنية، تعزف"فنلنديا". في صدر القاعة سيبليوس يجلس صامتا، مهموما، متفكرا. آلات نافخة تعزف أكوردات مجدولة ببعضها قويّة عاصفة تشبه انقضاض النسر. في طرف القاعة يقف ايتو استو[٧٢] يبحث له عن مكان مناسب للجلوس. تهدأ الالحان قليلا كانها غيوم مكفهرّة متجهّمة غاضبة. الكسيس كيفي يضع رأسه بين كفيه، يحدق ساهما الى لوحة "الهجوم" معلقة على الجدار. رويداً رويداً تتدخّل الآلات الوتريّة بحالة من التهدئة والاتزان. وسط القاعة تقف الكثير من الوجوه التي صادفها كريم في صفحات كتاب ماتي كلينغه[٧٣] عن تاريخ فنلندا، لا يمكنه اللحاق بملامح وجوهها. وجوه مترعة بالثقة بالنفس، مانحة الاحساس بأنها تقف على أرض صلبة، وسرعان ما تفيض الأنغام رقّة وعذوبة، ثمّ تصدح بالفرح. الياس لونرت يجلس في طرف القاعة والى جانبه ثمة مغني جوال عجوز، يحمل الكانتلا[٧٤] يستمع باهتمام لكل ما يدور. في المكان تطفو اوراق وكتب وحقائب واحذية واغراض منزلية واكواب وصحون وزجاجات الويسكي والفودكا الروسية والجن الالماني. الحمد لله رب العالمين. فودكا روسية غير مغشوشة. اين فرمان بوند ليشتري له بضعة زجاجات ليوزعها. وسيسأله نوري بخشونة وبدون مقدمات:

ـ وكيف تتاجر بالخمرة يا ماموستا فرمان، اين صارت صلاتك وزكاتك؟
وسيضحك منه:
ـ ناقل الكفر ليس بكافر يا ولدي. تعلم اذا اردت بلوغ اي شأن.
هاهو المرقص. الكرة البلورية في سقف المرقص تدور تعكس اضويتها على وجوه الجالسين المتجمدة كانها تماثيل شمع، الفرقة الموسيقية في مكانها، مطربة الفرقة تؤدي اخر اغانيها، كانت تنوي انتاج البوم غنائي من اجور عملها على ظهر الباخرة. ما ادراها انها تلك الليلة تقدم اخر اغانيها. نجا كل اصحاب الفرقة عداها. المسكينة ذهبت للنوم في غرفتها، وظل الموسيقيون اصحابها مع بعض المعجبات. كانت اغانيها سببا لسهر العديد من محبي الموسيقى ونجاتهم.
ـ والخمرة ايضا؟
هذا صوت نوري شناوة ياتيه من لا مكان، وكأنه معه ويقرأ افكاره. راح نوري شناوة يردد كل يوم ما روته الصحف من كون غالبية الناجين من الغرق هم الذين كانوا لوقت متاخر في مشارب السفينة ومراقصها يحتسون الخمر ويرقصون:
ـ لاحظوا يا اصدقائي كيف ان المحرمات كانت سبب نجاة اصحابها.
ترك المرقص باتجاه المصعد. خشي حدوث ما لا يريده فسلك الدرج. تحرك سريعا. عليه تجاوز عدة اجساد تناثرت في الدرج لشباب وشابات يبدو لم يلحقوا للنفاذ بانفسهم، فتجمدوا هناك. كل شئ جرى بسرعة فائقة. هكذا تقول الصحف. عزرائيل عمل بحماس ونشاط تلك الليلة. ملك الموت برأسه العجيبة ذي الوجوه الاربع كانه خمبابا او حارس بوابات الجحيم في العالم الاسفل. هاهو امام الطابق الارضي حيث سيارات الشحن. ولكن هل عليه تفتيشها كلها؟ كيف وردت اليه فكرة امكانية وجود سراب معهم؟ ايامها تردد بان مجموعة من العراقيين اختفت في روسيا. قيل انها اختفت في تالين. هل يمكن ان تكون المافيا الروسية وبعد ان سلبتهم ما يملكون قتلتهم في غابة على مشارف لينيغراد عند الحدود الاستونية ودفنتهم هناك؟ لا تزال السلطات هناك تحقق في جثث لناس مجهولين لا يحملون اي وثائق؟ اخرين قالوا ان مافيا استونية اخبروا العراقيين انهم في طريقهم الى المانيا، ولكن في مقبرة استونية، وفي قبر واحد، دفنوهم جميعا بعد اعطائهم طعاما مسموما. اخبره فوزي ان المهرب احمد عبد السادة، وعلى السفينة استونيا قبل غرقها، نجح في شحن عدة وجبات من العراقيين الى السويد، عندها تساءل:
ـ لو كانت ثمة وجبة من العراقيين اللاجئين على سطح السفينة استونيا، فانها ستكون في سيارة شحن، وغرقت مع السفينة، هل يمكن ان يكون سراب معهم؟

مع اقترابه من سيارة شحن كبيرة، في زاوية من السفينة، مربوطة الى الارضية بسلاسل فولاذية عملاقة، هذه السلاسل التي قيل انها تقطعت مثل خيوط القطن عند ميلان السفينة، حتى لاحظ ان ثمة سلما صغيرا امتد امامه بشكل سحري، يؤدي الى باب السيارة الخلفي الذي فتحه امامه رجال مقاتلون اشداء ظهروا من لا مكان:

ـ تفضل يا مولانا.

ثانية الاصوات من لا مكان، لكنه ميز صوت اور- شونابي. في داخل صندوق السيارة، ثمة صناديق خشبية كبيرة، تحمل علامات "قابل للكسر". ما بها؟ اهي زجاجيات؟ ادوات كهربائية؟ سلع تهريب؟ سكائر ام زجاجات كحول؟ من اين تأتي هذه البضائع؟ الصناديق تسد امامه الطريق وتحجب عنه المشهد الداخلي. تسلق الصناديق وزحف ببطء، فثمة مساحة بين الصناديق والسقف تكفي لظنونه. سرعان ما وجد نفسه في غرفة داخلية بين الصناديق. هناك وجد سبعة رجال وثلاث نساء. احدى النساء يجلس في حضنها طفل لم يجاوز عمره العامين.

ـ اااااه!

عوى وكأنه اصيب بطعنة خنجر:

ـ ما بك يا كريم، يا بطل شد حيلك، كان دوشا خفيفا حتى ترتاح.

اي حيل يا اورشونابي؟ اي حيل بقي للعراقيين؟ كيف استطاع العراقيون وبهذا الشكل اجتياز بحار العالم؟ اي الم مر به هؤلاء الرجال والنسوة وهم يقضون حاجاتهم الضرورية امام بعضهم البعض؟ اي طاقة تملك هذه المرأة لاسكات ابنها عن البكاء في الحالات الحرجة؟ بعض المهربين كان يجبر العوائل على اعطاء حبوب منومة لاطفالهم قبل صعود المراكب. وبعض مرضى الربو كانوا على وشك الاختناق بسبب سوء التهوية في المكان. قيل ان شابا موسيقيا مات بساعات قبل الوصول الى السويد. المسكين اختنق ومات. تفحص الوجوه جيدا. يبدون اقرباء، او بعضهم من عائلة واحدة، فالملامح تتشابه جدا بين الوجوه. لكنه لم يجد وجها شبيها ل سراب. اين انت يا سراب؟ سراب.... سراب... اين انت؟

ـ في المريخ؟

هذا ليس صوتك، لكن تبا لك يا نوري شناوة، يا داعر، يا مسكين، دعك من هذا وانتبه الى نسائك وغرامياتك. لو عرف فوزي بزيارته الى السفينة لربما هزأ منه:

ـ ولماذا أهزا منك؟ كل الاحتمالات ممكنة. ربما يكون سراب قد لجا الى طريق مشابه من اجل اللجوء وحصل ما لا نتمناه له. لا تنس عشرات العراقيين صاروا طعاما للاسماك في مختلف بحار العالم.

- وما المطلوب؟

ضحك اورشونابي، وهو يواصل مسح جسده بالمنشفة الكبيرة.

- الان يا بطل المطلوب منك النوم بهدوء، لو كان نوري هنا، لفاته مشهد عريك وانت بلا حول ولا قوة و"أدوات العمل" كلها مكشوفة.

الحول والقوة والنوم؟ النوم ؟ كانت امه ولاجباره على ترك فراشه تكرر دائما: وهل نفع النوم سكان المقابر؟ الحول والقوة؟ لمن ولماذا؟ علي فعل شيئا ما. علي البحث عن...

- لا تيأس، سنواصل البحث معك؟

- ابحث عن ماذا؟

- عن سراب!

- وماذا عن نفسي؟

ومثل ضربة برق اختفت السفينة استونيا وكل شئ. عاد رجال المصابيح الى جانبه ومن يده قادوه ليشقوا به عنان الزمن. كانت الدوائر تدور به بالوان الطيف الشمسي والعطش لا يزال يحرق بلعومه.

- هل لي بقليل من الماء اولا، قبل البحث عن سراب او عن نفسي، هل من جرعة ماء؟

- تفضل يا مولاي.

اووه، لم لا يكفوا عن هذا. لست الا مولى نفسي. تعثر. كاد ان يغشي عليه. امتدت يد مفتولة، قوية، اسندته اولا، ثم امتدت تحمل كأسا سومريا، لاحظه يوما بيد عشتار وهي جالسة وخلفها الاشجار وامامها عدد من الكاهنات في ايديهن اغصان مورقة ومزهرة.

- مَنْ جدي كلكامش!

وتصاعد طرق الطبول، والصناجات، والدفوف، والمزامير، وسمع دوي الابواق. توووت تووووت... توتووو..توتووو. هذه "الفنلنديا"، هل جاء سيبليوس بنفسه ليعزفها اكراما لقدوم جدي كلكاميش؟ ان الاله انكي الرحيم، ارسل له جده كلكاميش مباشرة ليطمان عليه. شكرا، شكرا لقدومك يا جدي. والله أتعبت نفسك. اراد قول شيء اخر، لكن كلكامش اومأ اليه بالشرب. يحدق الى الرجل الجبار امامه. هذا الملك العظيم باني اسوار اوروك العظيمة وقاتل الوحش خمبابا في غابة الارز، وثور السماء الذي عاث في مدينة اوروك فسادا واهلك المئات من الناس فقرر قتله بالاشتراك مع انكيدو.غضبت الالهة لموت ثورالسماء وقررت موت انكيدو. مات انكيدو. فالانسان مهما علا لن يبلغ السماء طولا.حزن كلكاميش حد الموت.مات انكيدو الذي طارد حمار الوحش. مات الصديق الشجاع، البطل، الجبار، الحكيم، الـ....

ـ اشرب وكف عن الحديث.

شرب كثيرا. كانت المياه تتدفق من باطن الكاس مثلما يشتهي.

ـ هذه كأس الحياة؟

ـ اشرب وبعد ذلك تحدث كما تريد.

اوه يا جدي، اين كنت عني يوم نفذ الماء منا في الصحراء؟ يومها لم تنقذنا كل الدعوات، فاضطر مهربنا الشجاع الى الاقتراب من مضارب بدو مررنا بقربهم، وبسبب من معرفته بتعاملهم مع شرطة الحدود، عمد الى سرقة الماء منهم لاجلنا، كان رجلا نبيلا، يعرف انه بتهريبنا يقوم بعمل مخالف للقانون، ويعرف ان بين زبائنه من هو مطلوب لاسباب سياسية، لذا كان حريص على عدم التفريط بهم. كان لا يعمل لاجل المال فقط، مثل الحقير احمد عبد السادة او فرمان بوند. كان لديه شئ من الاخلاق. كان ابنا بارا لك يا جدي.

ـ كلكم ابنائي.

لا... لا، كيف هذا، فهل الجلادون ورجال الشرطة السرية، من ابنائك ؟ هل غريب عتوي وسيد عجمي وانيس التكريتي ابنائك؟ لا يجب عليك الافتخار بنسبهم اليك. صدام حسين لم يترك زاوية من التاريخ لم يحاول تزيفها وتشويهها، ولو كان بأمكانه لادعى بكتابته لشريعة حمورابي، او بنائه الجنائن المعلقة، يمكنه فعل ذلك بدون خجل، كان ابي يقول من لا يستحي يفعل كل شئ. الا تراه في التلفزيون يعلم وزراءه كيف يغسلون اياديهم قبل الاكل؟ الم يعتبر نفسه سليل امير الفقراء، علي بن ابي طالب، بشجرة عائلة بائسة زورها له جهابذة في التاريخ العربي، طمعا بالمغانم والمكارم؟ انت تعرف كل شئ، انت الذي راى **كل شئ** يا جدي، وحملت اخبارك الالواح الطينية التي ملأت مكتبة اشور بانيبال ، فهل رأيت لي سراب؟ سراب بالنسبة لي مثل انكيدو بالنسبة اليك. انا واياه واحد، لكنه اختفى. انت تعرف بأن انكيدو مات لانه شل حركة ثور السماء وتقدمت انت وطعنته، وقدمتماه قربانا للاله شمش، لكن بالنسبة لي فان سراب اختفى، فجاة، فص ملح وذاب. اي ثور طعنه سراب؟ ابحث عن سراب منذ سنين، قيل لي ربما يكون لم يغادر العراق اساسا. هل هبط مثل انكيدو الى العالم الاسفل؟ شاخوان كان اكثر المتحدثين وبشجاعة حول هذا الموضوع:

ـ لا اريد زيادة احزانك يا كريم، ولكن اتدري ان اجهزة الديكتاتور، تجرب وتختبر اسلحة كيماوية وبايولوجية على السجناء السياسيين، وربما يكوّن ابن خالتك، وابن عمي المفقود مع

هذه الوجبات التي قتلها النظام بهذه الطريقة البشعة، واخفى معالمها والمعلومات عنها ودفنها في قبور سرية ستكتشف يوما ما؟

كيف لي عدم تصديق هذا؟ لقد قابلت ابو حسن العدناني، لمن لا يعرفه، يبدو اشبه برجل مصاب بلوثة. كثيرون يشفقون عليه ويعاملوه كمريض، وهذا ما يحزنه كثيرا. حكى لي كثيرا. الرجل يحمل شعورا عاليا بالذنب. هرب الى سوريا، وقدم افادته للامم المتحدة من اجل الحصول على اللجوء والامان، ولكن لم يتوقف احد مليا عند شهادته. يقول فوزي ان ابو الحسن العدناني وقته موزع بين الصلوات وقراءة القران، و بقية الوقت يقضيه صامتا، محدقا بنقطة ما في مكان واحد، مصابا بالذهول، لذا صار كثيرون يتصوروه مجنونا. لكنهم لا يدرون انه كل يوم وكل ساعة يسترجع مع نفسه مشاهد تلك الليلة يوم حرسوا في الليل الحفارات التي حفرت خنادقا في نقطة من صحراء السماوة لا يعرفون لماذا، وكان يتساءل: لم في منتصف الليل، ومن ماذا تخاف الحكومة، وهي تملك كل هذه القوة والسطوة؟ لكن بعد وصول السيارات الزيل التي اوقفها المسؤولون ليس بعيدا عنهم، وراح يسمع اللغط ويميز اصوات نساء ونحيبهن وبكاء اطفال، وسمع اللكنة في الكلام، عرف انهم من الأكراد. من ايام "منصورية الجبل"، حيث عمل لفترة هناك في مركز الشرطة كان معه شابان كرديان وشاركاه الغرفة الصغيرة، قضى اجمل الايام معهم، كانا كريمي النفس، مؤمنين بربهما لا تفوتهما اوقات الصلوات الا لسبب قاهر، يميلان اليه، ويفضلانه على انفسهم، وحين نقل الى السماوة، ودعاه بالدموع. تلك الليلة، في صحراء السماوة، سمع الجملة التي كان يكررها صديقاه حين يشعران بالظلم من القادة المسؤولين خلال توزيع الواجبات: "تاوانمان چييه"[٧٥]. طلب المسؤولون من الشرطة الابتعاد عن المكان بسرعة والعودة الى مركز المدينة، ووصلت سيارات الامن والمخابرات والحزبيين ببدلاتهم الزيتوني. ما ان ابتعدوا قليلا حتى راح ابو الحسن العدناني وزملاؤه يسمعون صوت اطلاق الرصاص. ظل صوت الرصاص يلعلع طويلا. في اليوم التالي اسره احد سائقي الحفارة كيف طلبوا منه العودة الى المكان في نفس الليلة، لردم الخنادق بالتراب. وهال الرجل ما راى. في الخنادق كانت تتمدد اجساد النساء والاطفال والشيوخ منخوبة بالرصاص. من اين جاؤا بهم، وما هو ذنبهم؟ مرت الايام، وصوت الرصاص يلعلع في راس ابو الحسن العدناني بقية الايام، والصراخ والبكاء اقوى من كل ذلك. عاف الاكل والشراب، بدا جسده ينحف و مرض، ولم تنفع ادعية امه ولا الحاح زوجته على الذهاب الى الطبيب، لم يجرؤ على الحديث لاحد. سمع باغتيال احد الضابط واختفاء سائق الحفارة، لانهما تكلما. فتعلم الصمت، ولجا الى قراءة القران. بعد ذلك بشهور بعد ان علم

ابن خالته بقضيته وقصته شجعه وساعده على الهروب الى سوريا. حين بادر فوزي وعرّفه عليه، لم يكن يظن ان خلف بساطة هذا الانسان، هذا القلب الكبير في محبة الناس تختفي هذه القصة الحزينة والمروعة. مضى معه فوزي الى منظمات حقوق الانسان، سجل شهادته بالدموع، وطلب ابو الحسن العدناني بنفسه تصويرها بالفيديو، قال لهم:

- ايامي قصيرة في هذه الحياة، وسيأخذ رب العالمين امانته، احتفظوا بها بالصوت والصورة ستنفعكم يوما.

ورحل ابو الحسن العدناني، وبقيت شهادته، واملي بمحاكمة المجرمين. ايعقل ان هؤلاء ياجدي كلكاميش من سلالتك؟ هل قتلة الحسين الثائر من سلالتك؟ هل قتلة عبد الكريم قاسم وسلام عادل من سلالتك؟ اخبرني يا جدي ارجوك؟

- نم الان، حاول ان تنام قليلا وساعد لك قليل من الشوربة.

٤

لا زال الصداع رهيبا، ورأسه تدور. لا زالت الاصوات تخترق الجدران وتخترق رأسه. بوووم... بوووم...بوووم. لا يستطيع معرفة اين هو؟ زقورات وسلالم وملويات وقباب وماذن. كم مر عليه من الوقت. يفتح عينيه ببطء، فيرى كلكاميش يجلس قبالته. الملك الذي عرف كل شئ، **"الراعي القوي الجميل"**، جالسا الى كرسي **"على راسه تاج السهول ومحياه يشع بالالق والبهاء وبيد يمسك الصولجان اللازوردي وبالاخرى يمسك كتاب الحكمة"**. يقرا بتأن وحوله ضياء ينهمر من عل وكانه في حضرة الاله انكي. ما ان تحرك قليلا حتى اقترب منه كلكاميش:

- اتحتاج لشئ؟

لم يطالب بشئ. كان يقول لنفسه: ماذا يحتاج الانسان اكثر من ان يكون الى جانبه انسان يحبه ويثق به.

- ش... ش... شكرا يا جدي.

وضحك كلكاميش:

- جدك مرة واحدة يا ظالم النفس؟ هيا يا بطل، يا ابن مطرود، بالدال. شد حيلك، ما هي الا ازمة حمى عابرة. هيا يا بطل، تماسك.

اي بطولة يا جدي كلكاميش، ايها الملك العظيم، هل تعتقدني مثيلا لانكيدو؟ هل انت عازم على اجتراح بطولات جديدة وتريد مناصر لك؟ حاولنا اجتراح بطولتنا الصغيرة في حياة

امنة والمحافظة على موقف. حياة على مقامنا وبمقاسنا. حاولت ان ارتسم خطاك. ان اكمل مسيرتك واتبع خطواتك، اقلدك في شئ من طموحك وجنونك.ان اقتدي بك في رحلة البحث عن الخلود. على الاقل في البحث عن سراب صاحبي. في البحث عن نفسي. فلم اجد سوى العذاب. وجدت في كل مكان غابة من الارز ووجدت فيها خمبابا جديدا لا زال يزأر. وانا الذي كنت اظن انك قتلته من قرون بعيدة ولم يعد هناك ظلم في هذه الحياة، وان الناس سيمكن لهم التعايش بسهولة مع الاخر دون عقد وشكوك وارتياب؟ هاهي باولينا يا جدي. باولينا ملاك قادم من اجواء الكاليفالا، امراة من عطر الورد، تحاول توفير الاحساس لي بالامان، وانا لا اتمكن من ملامسة قاع الامها وهمومها. اه يا جدي. حيرتي تكاد تقتلني، واشعر بالالم يعصر قلبي. آآآآآه ه ه...

ـ اتريد شيئا؟

اريد؟ اريد كل شئ. اريد الامان والمحبة والوصول الى سر الاسرار. اريد... باولينا. اه. اريد البحث عن... أريد... آه... سيدوري. لا اعرف ماذا اريد. هاهي سيدوري، يراها بذلك الزهو السومري، وتلك الاناقة التي طالما بهرته وتجعل الاختام السومرية تشع بالبهاء وهو يتامل نقوش وشكل ثياب تلك العصور. وكاد يختنق، اذ يسمع سيدوري تصرخ بجده، بلوعة وحزن، وخوف:

ـ الى اين تمضي يا كلكاميش
ان الحياة التي تبحث عنها
لن تجدها.

لا... لا. لا يا صديقتي، لا يا سيدوري. لا يا محاسن. محاسن؟! شدي من عزمك يا محاسن، اتركي التشاؤم والخوف، فانا في رحلة يا محاسن للبحث عن العشبة السحرية ولن اعود بدونها. وسانجو من كل المخاطر بعونكم. وساعثرعلى سراب. تضحك سيدوري وتهز يدها. يقلب كلكاميش صفحات كتابه. طبول واجراس ورنين. ينهض كلكاميش يبتعد قليلا. عند جانب سريره ، يظهر انكيدو، حاملا اكياسا بلاستيكية مليئة بما لا يعرف:

ـ غير معقول هذا، هذه ليست حمى. وانت الاعرف. هل يحتاج نقله الى المستشفى؟

ويقترب كلكاميش من أنكيدو ليساله هذا:

ـ لقد تأخرت؟

ويسمع ضحكات كلكاميش، حين يقول انكيدو بصوت داعر:

ـ كنت ابحث عن... عن... عن واقي ذكري، kondom اصلي، اوصاني عليه احد الالهة العظام، وانت الاعرف، مررت ابحث عن نوع جيد، اذ حذروني من انواع مغشوشه جافة، اشتكت منها عاهرات المعبد، وقلن انه يسبب ألما عند...

هاهو انكيدو الداعر، واسع النشاط والمغامرات. اين منه نوري المسكين الذي يتبجح كونه لا يغادر منزله بدون علبة الواقي الذكري، اذ ربما رب العالمين يرزقه بطريدة طازجة، وجاهزة للنكاح تبحث عن شريك ساعة، فيجب ان يكون جاهزا لتشغيل "أدوات العمل" في اي وقت. انت يا نوري يا بن شناوة. يا من لا تجيد فن صناعة الكذب كما يجب. كل اكاذيبك مكشوفة امامنا. لن تنجح سوى مع المساكين. مع البسطاء. رغم كل مهارتك وفنك لم تنجح معي. كشفتك من اول الايام. لو خلقت في زمن جدي كلكاميش لاشتغلت مرافقا لانكيدو فأنت حفيده بتجاربك الجنسية. انكيدو له تجربه جنسية جيدة اذ **"ظل مع البغي ستة ايام وسبع ليال حتى شبع من مفاتنها"**. والاجدر بالفنلنديات منحك لقب ابن لمي، رغم ان ابن لمي لم يكن في زمانه يحتاج الى الواقي الذكري بالقدر الذي تستهلكه انت. يا نوري بن شناوة ألم تقدم لنا يوما محاضرة في المقهى الرياضي:

ـ اضبط قياس واقيك الذكري جيدا. اذا اشتريت اصغر سينفجر ويتمزق حالما تدخل، واذا اشتريت اكبر سيفلت حالما تخرج. وفي كلا الحالتين ستكون الخاسر. تفحص واقيك الذكري جيدا قبل الركوب.

يقترب منه انكيدو:

ـ حاول النوم، دعك من الكلام الان، ربما انت بحاجة الى كأس من الشاي بالليمون ساعمله لك بنفسي.

اراد سؤال انكيدو ما دام الى جانبه، هل سبق له وان تعرف الى ابن لمي؟ هل هناك صلة قرابة بينهما؟ عن اية قرابة تسأل؟ الامور متشابكة عبر خيوط السنين، في شباك الاساطير. في الاغاني. في الموالات. في اللقى الاثرية والمخطوطات. كاوكو ميالي الداعر[٧٦]، الارعن، بعد سقوطه قتيلا قطعت جثته اربا، ووزعت في مكانات شتى، ولكن امه المحبة، لم تتركه. نزلت الى الهاوية، بحثت عن قطع جثته وجمعتها ولحمتها من جديد واعادت الروح الى ابنها بفضل العسل السماوي، فأستوى قائما ليعود الى ما كان عليه. ألم تر كيف واصلت ايزيس البحث عن جثة اوزوريوس الذي قتله اخوه سيت وقطع جثته الى اربعة عشر قطعة ووزعها في طول البلاد وعرضها، فذرعت ايزيس الارض بحثا عن اوزوريوس، ثم حين عثرت عليه وجمعت اجزاءه المبعثرة

نفخت فيها روح الحياة؟ الا ترى كل هذا ينطلق من تموز الذي قدمته عشتار ضحية ولكنها تقضي الايام في ندبه وبكاء روحه الغائبة فتخاطر للنزول الى العالم الاسفل لتحريره واستعادته وبعثه حيا من جديد كاله للقمح والحياة؟ عادت الحياة اليهم كلهم، الى كاوكو ميالي وازوريوس وتموز، فاستمرت الحياة بخصوبتها وجمالها ورموزها وعطاء مبدعيها. لو عدت الى محاسن هل ساعود الى ما كنت عليه؟ هل سانام على فخذها اقرأ في كتاب وهي تحك لي شعر راسي وتمشطه باطراف اصابعها وتتفرج بسكون الى الصور في التلفزيون بدون فتح الصوت، حتى لا تزعجني، ومستمتعة بالصوت الداخلي لصفاء روحينا؟

٥

اقتاده الرجال حملة المصابيح عبر ممر طويل، لماع، يسطع بالاضوية، والالوان. لا يبدو انه ممر مبنى دائرة الأمن في الديوانية. ثمة ايقاع مارش عسكري. صنوج وطبول، ورنين خفيض. ترررن...ترررن...ترررن. يسير بهدوء على طول الممر الطويل. العشرات من الوجوه المعروفة له تماما تصطف وكانها بانتظار مروره. قابلهم سابقا مرارا وتعرف اليهم جيدا. ثمة لوح سري في دماغه، مثل شاشة صغيرة، يشتعل باضوية خاصة فسفورية. كلما صار قبالة وجه معروف له، يشتعل في ذلك اللوح السري الفسفوري اسما مكتوبا بحروف بارزة. وهو يجتاز الممر الطويل مرت عليه عشرات الاسماء. كان من الصعب عليه اللحاق بها جميعا لقراءتها. جون سسيبليوس، الياس لونرت، بيكا هالونين، البيرت ايديلفيلت[٧٧]،...، توفي جانسون[٧٨]،....، اينو لينو[٧٩]،...،...! وهذا فرانس اميل سيلانبا[٨٠]، بهيئته التي تشبه هيئة رجال الدين، ولحيته كأنها لحية ليون تولستوي، لكنه يمشي منتصب القامة. لم لا، وهو الفلاح قوي الجسد والحائز على جائزة نوبل. اي عام؟ اي عام؟ نعم، في عام ١٩٣٩، وكان السبب "لفهمه العميق لطبقة فلاحين بلاده والفنّ الرائع الذي به صوّر طريقة حياتهم وعلاقتهم بالطبيعة". يا ترى لماذا يقف ليون تولستوي والكسيس كيفي على انفراد؟ ما ان فكر بالسؤال حتى اقترب منه الياس لونرت بحيوية ليقول له:

ـ للاحتفاء بلقائك مع تلميذهما فاينو لينا.

وفهم سر وجود كل هذه العدد من الجنود والبنادق والمعدات العسكرية، بحيث تصور وكانه في ساحة حرب. هاهم جنود فاينو لينا غير عابئين بما حولهم، يسخرون من زميل لهم يبدو عابس الوجه. ما أسمه؟ لم يشتعل الضوء في اللوح السري الفسفوري. نسي اسم الجندي رغم انه في

نسخة "الجندي الجهول"، التي استعارها من مكتبة كيرافا وضع خطا تحت اسمه. كان يتصور انه استخدم قلم رصاص كعادته، يضع اشارات ثم يمحوها، لكنه تبين انه استخدم قلم حبر، فشعر بالخجل لانه خرق قواعد الاستعارة بعدم العبث بالكتب والكتابة فيها. ماذا ستقول عنه صاحبة العيون الخضر؟:

ـ لن يقول احد عنك شيئا، فقط نام يا عزيزي ، ارجوك؟

يعرف هذا الجندي جيدا ، يا لبسالته، حارب وقتل ليس من اجل انتزاع فنلندا من قبضة الجيش السوفياتي، وليس لان الجنرال مانرهايم والقيادة تريد تحرير فنلندا العظمى، بل حتى يثبت لزملائه انه ليس جبانا وليكفوا من السخرية منه. واقعيتك يا فاينوا لينا جلبت لك السخط وجعلت كتابك يعتبر صدمة لمجتمعك الفنلندي:

ـ لا اعتقد اني سأخطأ اذا قلت، ان فاينو لينا ساعد الفنلنديين كشعب للتخلص من الكثير من الاوهام الرخيصة لمرحلة الطفولة والمراهقة. ان ماثرة القدرة لمحاكمة التاريخ، الفشل والنجاح، المآسي والافراح، تمثل علامة انبعاث الامة.

ولم يلحق للسؤال: من هذا المتحدث؟ همس له احد الرجال حملة المصابيح:

ـ اورهو كيكّونين!(٨١)

وابتسم لحد كادت ان تنطلق منه ضحكة عالية، تذكر يوم اخذته باولينا الى بيت هذا الرجل، الذي جعل فنلندا تحمل اسم Kekkoslovakia. لكم كانت فترة رئاستك طويلة لبلد ديمقراطي يا سيدي؟ كم؟ واه، ربع قرن؟ هل تعرف ان الطفل في داخلي افلت من بين يدي حين زرت منزلك حين اخذتني مواطنتك باولينا الى هناك، واستثمرت عدم وجود مراقب مكتبك في بيتك المتحف، وقفزت خلف طاولتك والتقطت صورة فوتغرافية؟ كانت باولينا مندهشة من تصرفه وهو يدفع اليها الكاميرا، لكنها فهمت رغبته وحققتها له وهي خجلة من احتمال عودة الحارسة، قال لها:

ـ ستكون صورة نادرة عند الطاولة التي ساهمت في صنع تاريخ هذا البلد، هذا الرجل اسمه معروف عندنا جيدا، هذا من الرجال الحقيقيين الذين كتبوا تاريخ فنلندا الحديث.

ولكن نوري، لا يمل من جمع النكات عن الرجل:

ـ نجح كيكونين في عقد كثير من الاتفاقيات لصالح فنلندا، أتعرفون كيف؟ كان يدعو ضيوفه الى الساونا الفنلندية، وبعد نصف ساعة، تضيق انفاس الضيف من حرارة الساونا والبخار، ويريد فقط مغادرة الساونا والخلاص بأي ثمن، بينما كيكونين يواصل الحديث عن اهمية التعاون

وتوقيع اتفاقات التعاون فيصرخ به الضيف متوسلا للخروج ويوقع له الاتفاق المطلوب فورا. وهكذا عقد هذا الثعلب غالبية الاتفاقات ونجح في كل المفاوضات.

يجد نفسه يقترب من الصفوف التي تقف برزانة وتحي كيكونين:

ـ ماذا يفعل كل هؤلاء هنا، ما الذي جاء بهم؟

ويهمس له احد الرجال حملة المصابيح:

ـ انت من جاء بهم؟

ويندهش:

ـ انا؟ انا فكرتُ بهم فقط، ولم ادعو احدا منهم.

يقترب منه نوري، متصنعا الوقار:

ـ انت يا كريم، تشبه تلك المرأة التي حلمت يوما برجل يلاحقها ويركض خلفها، تعبت من الركض فالتفت اليه: ماذا تريد مني تلاحقني وتركض خلفي؟ فقال لها المسكين: وما ادراني بذلك يا امرأة، انت صاحبة الحلم وانت بامكانك الاجابة والقرار.

وضاقت نفسه. هذا نوري الداعر حتى افكاره الجدية يقدمها في نكتة. نصف المزاح عنده جد. أي قرار يريد منه الان؟ لم حضروا كلهم؟ أيكف عن التفكير بهم ليتوقف حضورهم؟ ايصح هذا؟ انتبه الى كونه منذ ان حضر وهو يدور حول فاينو لينا متجنبا الاقتراب من كل هذه الوجوه:

ـ أبسبب الجنود؟

كان جنان جاسم الحلاوي يقف الى جانبه، بقامته النحيفة، وقبعتة العمالية، كتلك التي يرتديها لينين دائما، في صوره وتماثيله. كان جنان يرتدي قميصا بازرار ناعمة، بالضبط مثلما راه في الندوة الثقافية في جنوب السويد حين كان يتحدث عن احد كتبه.

ـ وما علاقتي انا كريم مطرود بالجنود يا جنان؟

وابتسم جنان جاسم الحلاوي:

ـ اتذكر رسالتك التي كتبتها لي، وتحدثت فيها عن ما سميته جنود جنان جاسم الحلاوي، وعقدت مقارنة مع جنود فاينو لينا؟

ـ نعم اذكر ذلك جيدا، واذكر اني لم ارسل لك الرسالة، ولا تزال بين اوراقي.

ـ ولكنني على اطلاع على كل ما ورد فيها، لا تتعب نفسك بالسؤال كيف، انظر... كيف لي التواجد مع فاينو لينا في مكان واحد، بالرغم من اني لم اكن اطلعت على اوراقك مسبقا؟

ـ نعم، اذكر اني كتبت بأنكما تشتركان في عرض بشاعة الحرب ودمويتها ولا انسانيتها، وان بعضا من جنودكم حاربوا وقتلوا فقط حتى لا يقتلون. اعرف ان الكلمات الكبيرة لا تصنع ابطالا، حياة الانسان اكبر من كل الكلمات. كتبت ان واقعيتكم تستمد حيويتها من حيوية الحياة، واذكر بأني قلت بأن الشعب الفنلندي ربما اكثر شعب يفهم محنة الشعب العراقي، لان ثمة خيوط مشتركة عديدة، الحرب ومأسيها، الجوع ومآسيه، اللجوء وكوارثه،...

ـ كنت تقول بان التاريخ يمد اصابعه ليرسم مشاهدا واحدة وبلغات متعددة.

ـ بالضبط، اغنية الحزن الانساني واحدة سواء كانت بلغة فنلندية او عربية او...

ـ والموت؟

ـ الموت هنا مثلما رأيته في قصصكما هو قدر الجندي، انت وفاينو لينا كتبتما عن الحرب وكيف انها تحمل اقدار جنود عاثري الحظ، خاصة في حروب نظام صدام حسين، حيث ما هي الا حروب حمقاء مجنونة، تهلك الأخضر والبريء والأليف، يرافقها قمع مرعب، يختزل البشر الى آلات صدئة وتوابيت متنقلة. هكذا، في قصصكما معا، اجد مصير الجندي العادي الطموح والسلوك والملامح، ولكنه غير عادي في مصيره ورغباته المتلاشية، لأن للحرب قوانينها خارج الارادة البشرية.

اختفى جنان جاسم حلاوي من المشهد فجاة، حتى دون وداع وانقطع الحوار. أهو طبعه ام هي قوانين ما يجري الان على ظهر هذه السفينة الغارقة في اعماق خليج بوتانيا؟ سار على مهل، ليعود يرى الوجوه من جديد وليعاود اللوح السحري الاشتعال. يبحث عن وجوه لم يرها سابقا. وجوه شابة متألقة. هاهو اللوح يشير الى اسم ياني ساكسيل[٨٢]، ماركو يونتينين، اليكسي اهتولا[٨٣]،...،...، ولكن فاينو لينا يعود من جديد ويقترب منه بهدوء، واضعا يده اليسرى في جيب بنطاله، ويسعل قليلا:

ـ انت تفكر بشكل عميق يا صديقي.

ـ اشكرك جدا، لقد توقفت مليا عند ملف سيرة حياتك، واعجبتني شجاعتك الشخصية.

ـ الكتابة ليست نزهة يا صديقي، والعمل الادبي هو ليس مجرد حامل لهموم الكاتب وانفعالاته، العمل الادبي الصادق يمكنه فتح طريقا للناس للحياة الافضل.

ـ هذا ما فعلته في كتاباتك، ولربما هذا ما اثار الغيض عند البعض منك؟

ـ الافكار الجديدة دائما تجد من يحاربها ويحاول وأدها.

ـ سأظل يا سيدي اتذكرك دائما كفلاح بسيط من مدينة تامبرا Tampere، جندي شجاع من تامبرا، فتحت موهبتك الادبية بابا جديدا للادب الفنلندي.

ـ شكرا على اطرائك، ان لي الانصراف، هناك اشخاص رغم بغضهم لي، لكن علي مجاملتهم، هكذا تتطلب لعبة هذه الليلة وانت سيدها ومخترعها.

راقب باندهاش الحركة الانسيابية لانصراف فاينو لينا من امامه. هناك في طرف القاعة وجده ينصرف للجلوس الى مجموعة من الوجوه الجهمة المكفهرة. اين اللوح السحري الفسفوري ليكشف له هذه الاسماء؟ اين الاسماء؟ لا وجود لاي اسم. لكنه يعرفهم، انهم هم الذين واصلوا الكتابة عن فاينو لينا بسخرية، باعتباره كاتبا قرويا عماليا. ربما كانت الغيرة تحرق قلوبهم لانه كتب روايات كسرت المتعارف عليه، وكشطت الصدأ عن واقع المجتمع الفنلندي الذي تغطيه طحالب البيانات السياسية، فكانت واقعية كتبه صدمة للمجتمع والطبقات الحاكمة؟ وربما لانه كسر التابو في الحديث عن جنود ابطال يرفعون صورة "الهجوم" للفنان Eetu Isto ويهاجمون الجنود الروس. اما ان يعرض لهم فاينو لينا جنودا يجدون انفسهم بدون رغبتهم يخوضون حربا يعتبرها الكثيرين مقدسة، فهذا يثير غيض الكثيرين. كيف يروق لهم ان يتحدث جنود فاينو لينا عن انسانية العدو؟ آه يا فاينو لينا، الحروب تبقى بشعة دائما. ومنذ طفولتك يا فاينو لينا كان الهم الانساني هاجسا لك. بماذا فكرت حين توفي والدك وانت في الثامنة من العمر وارسلوك الى دار الايتام؟ هل فكرت يومها بانك وابطالك القرويين القادمين من المزارع الصغيرة والذين عاشوا حياة الكدح مثلك ستغيضون الكثيرين بكشفكم الحقيقة؟ ياااه. ما اجمل حياة السلام حيث يمكن لانسان ان يعيش ويحب دون رقيب ومثلما يريد؟ الحياة ليست سهلة، مواجعها كثيرة، هكذا يقول لنا جنودك، وضربات الحياة الغادرة لا عدد لها، و"**فنلندي واحد يساوي عشرين روسي، لكن ماذا نعمل اذا ما الحادي والعشرون يَجيءُ غفلة؟** "[٨٤].

٦

عبر ممر اخر قاده الرجال حملة المصابيح. لم يعارض وهم يتحركون على جانبيه كأنهم رجال حراسة. يعني Bodyguards. قادوه الى قاعة تبدو اكثر اتساعا. لغط وضحكات. نساء مع باقات ورد بفساتين عاريات الاكتاف، مكشوفات الظهور، اميرات انيقات مثل مجموعة ديانات[٨٥]، وثمة من تجلس في الظلال وكانها تخشى الضوء، ولا ترى سوى جمرة سيكارتها. رجال بالسموكين، واخرون بثياب تقليدية. تلال من الكتب والصحف. طاولات فارهة. يفتح كريم عينيه ببطء. اضواء لامعة. صوت يتحدث في ميكرفون بأيقاع ونبرة مذيع تلفزيوني. احتار اين هو الان؟ أهذا مدير مدرسته في مدينة الديوانية يتحدث في حفل بمناسبة اعياد حزب البعث الحاكم؟ ام هو في احتفالات مهرجان الثوم في كيرافا:

ـ للثوم دور فعال في علاج التهاب القصبات المزمن والزكام المتكرر والأنفلونزا وله أيضا دور فعال في قتل البكتيريا ومقاومة السموم التي تفرزها...

هل اعضاء جمعية اصدقاء الثوم حاضرون هنا؟ هل هو فوزي المتكلم؟ اين فوزي، عضو هذه الجمعية:

ـ انا هنا.

أكل فوزي رؤوسنا، وهو يشرح لنا فوائد الثوم وكأنه مخترع الثوم... ويزيد مناعة الجسم ضد الأمراض... فهمنا ذلك. والله العظيم فهمنا. وحق العباس "ابو راس الحار" فهمنا كل ذلك. قال لهم فوزي يومها:

ـ وجد الثوم منقوشا على جدران معابد الفراعنة، وورد ذكره في القرآن.

اين بيكا تويفنينين؟ هل سيورطه ثانية ويشتري له مثلما فعل العام الماضي آيس كريم بالثوم؟ من المتحدث؟ هل هو التلفزيون يقدم البرنامج المنوع الذي يتابعه كل اسبوع؟ صوت الموسيقى ترتفع، هل هي "بجعة تونيلا"؟ يبدو اليوم ان سيبليوس معنا. اين هو؟

ـ كلنا معك.

اين انت يا رجل المئة مارك؟ سألتنا مدرسة اللغة الفنلندية: من هذا؟ على اللوح الاخضر علقت بضع صور لرجال من تاريخ فنلندا. حين سألتني مباشرة عرفت الكسيس كيفي. اعرف هذا الرجل الذي كتب عن صراع (الإخوة السبعة) من أجل فتاة جميلة، وحملوا السلاح بعضهم ضد البعض. كنت يا سيدي الكسيس مناديا الى احتكام العقل والحكمة، وكل يوم نسمع من يلوح بالحرب والدمار. هاهو الرئيس الامريكي يريد ان يقود حربا جديدة في الشرق الاوسط ضد ديكتاتور اهوج. اما كان الاحرى بصدام حسين التفرغ لكتابة رواية جديدة، ويحاول الانضمام الى اتحاد الكتاب لربما يجنب شعبه الكثير من المآسي؟ ربما لا يجد الرئيس جورج بوش ساعتها من عمل سوى تلبية دعوة الفنان أكي كاوريسماكي الى نزهة في الغابات الفنلندية لقطف الفطر، لربما يساعده سحر الغابات الفنلندية على الهدوء؟ اشارت المعلمة الى صورة سيبليوس في شبابه. كانت تشبه تماما تلك الصورة على ورقة المئة مارك الخضراء. رفع طالب فيتنامي يده، لا انساه ابدا، بثقة كبيرة، صاح:

ـ رجل المئة مارك.

انفجرت معلمتنا وعلى غير عادتها بضحكة مدوية، وساح العرق على ظهري. هكذا ربما كنت ستبقى في ذاكرتي يا سيد سيبليوس لولا ان العديد من اسطواناتك، يا كاهن الطبيعة الفنلنديّة الجميلة، كانت في منزلي استعارة من مكتبة كيرافا العامة. تعلمت من باولينا، ذات

العيون الكاليفالية، طريقة الاستماع اليك. باولينا لا تشعر بالهدوء الا مع "الفالس الحزين". تعلمت من باولينا القراءة مع مقطوعاتك، اذ يتسلل الشجن الفنلندي ويتحسس قلبي. ويتصاعد الاحساس بوحشة المنفى ويقلقني اكثر. اتعرف عبد الله به شيو؟ شاعر كردي، يقيم في هلسنكي من سنين. أسمع هاهو يصرخ:

ـ رباه كافأني بحياة اخرى!
لتكن قصيرة كالورد والفراشة.
بشبر واحد من الارض أنا أقتنع،
لكن فقط لا أعيش مثل الاجنبي!

"الاجنبي" صار تهمة خطيرة في هذا العالم. الاجنبي الغريب. يغني له ميكو بيركويلا، يرثي له لحراجة موقفه وهو متهم في كل فعل. وجوه عديدة تخطف امام كريم يتعرف اليها. يصافح البعض بحرارة. يحي الاخر بابتسامة. ثمة من يناديه بأسمه. وثمة من كان مشغولا عن تحيته. كان هناك هادي العلوي مع جمهرة من فقرائه يدردشون عن شئ ما. الدكتور علي الوردي منعزلا حذرا من غدر "وعاظ السلاطين". غائب طعمة فرمان يحمل بغداد تحت ابطه في حقيبة. هناك اخرين، محمد سعيد الصكار. عبد الله به شيو. سعدي يوسف. شيركو بيكس. جنان جاسم حلاوي. عبد الكريم هداد. سلام ابراهيم. كريم كطافة. يوسف أبو الفوز. زهير كاظم عبود. رشاد الشلاه،...،...!! في صف ثان وقفت اسماء تاهت عليه. اختلطت عليه. يعرفهم. قابلهم. قرأ لهم. كتبهم في مكتبته البيتية. حسنا... حسنا. ذاك هو جورج والين[٨٦] اعرفك جيدا، بعمامتك ولباسك العربي ولحيتك المشذبة، واتقانك العربية بلهجة البدو، صرت حاج الياس عبد الوالي. طفت بالكعبة متنكرا واقمت الصلاة وقطعت الصحراء مع البدو وكنت من اوائل من اجتازوا شمالي الصحراء العربية، الى جانب نشاطاتك العلمية، طافت اخبار مغامراتك الجنسية لحد اثارة اشاعة ان سبب موتك كان الاصابة بمرض الزهري. وتلك الشابة من هي؟ انتظروا... انتظروا رجاءا. أنها... انها لينا لاندر[٨٧]. هذه امرأة مثلي، مهتمة بالتاريخ، لكنها وظفته في كتابات روايات، وانا مجرد باحث عن الحقائق، لكن يبقى تعاملنا مع الوثائق له ذات المشاعر وان اختلفت الاغراض. وهذا. اوه، مرحبا... مرحبا... انظروا من هنا. كلاس اندرسون[٨٨] انت الوزير الشاعر، السياسي المتعدد المواهب. الا ترى ان السياسة اتعبت قلبك قليلا؟ يعجبني فيك اقتناصك للابتسامة من مستمعي شعرك او محدثيك حول كأس بيرة. حدثني عنك يوسف ابو الفوز مرة، قال:

ـ هذا الرجل العبقري، المتعدد المواهب، من كثرة اجهاده في مهامه الابداعية، كنت اظنه لا يقوى على رفع كفه ومصافحة احد، وحين التقينا في مؤتمرمنظمة Kiila الثقافية[٨٩]، صافحني بقوة وفرك اصابعي حتى كاد يسحقها، وهو يبتسم، ويقول: "ها... ايها العراقي، متى سنفرح بزوال صدام حسين؟"

واعرفك انت ايها الشاب الباسم؟ اهلا وسهلا. اهلا... رأيت لك صورا عند قبة الصخرة، في القدس. يبدو انك شاب كثير التجوال؟ اهلا، ومرحبا اعرف اسمك Jani Saxell، رايتك مرارا في تظاهرات التضامن مع الشعب العراقي ضد صدام حسين. هل انت من اجرى لقاء مع السيد حميد مجيد موسى ، حين زار هلسنكي ربيع ١٩٩٧؟ اذا كنت انت، فلابد انك تذكر كيف اراد المصور المرافق لك ان يلتقط صورة للسيد حميد مجيد موسى امام لوحة زيتية لبوم معلقة في المكان؟ المصور المسكين كان يتصور نفسه اختار خلفية مناسبة، وانه قام بأختيار ناجح ، ولكن ثمة اصوات صاحت بالمصور:

ـ قف!

وجمد الرجل في مكانه. وتعالت الضحكات، حين قال له فوزي:

ـ ستفضحنا بين الناس يا صديقي، اذا كانت البومة عندكم رمز الحكمة، واختارتها واحدة من قنواتكم التلفزيونية علامة لها، فأن البومة في تراثنا علامة للتشائم، وستكون نتائج الصورة معكوسة تماما.

يومها قلت انت بجد:

ـ درس جديد في ثقافات الشعوب.

نعم يا صاحبي. كل يوم نحصل على درس جديد. واعرف الشاب الواقف الى جانبك، اسمه: ماركو يونتنين. نعم. ماركو يونتنين، وهو معروف لدى كثير من العراقيين. ترجم كتاب صديقنا الكاتب العراقي يوسف ابو الفوز الى الفنلندية. ماركو قدم لمن يعرفه درسا بالغ الاهمية. انت عندي يا أخ ماركو تعتبر "نيوتن لغة"، فاذا كان سقوط التفاحة قاد نيوتن لاكتشاف قانون الجاذبية في الفيزياء، فان مهاجمة لص لك في القطار من باريس الى ليون وملامحه الشرقية، لم يدفعك لكره الشرق، بل دفعك لمعرفة الكلمات التي صرخ بها اللص وهو يحاول سرقة حقيبتك حيث احتوت كل شئ من اوراق ومستندات واموال.

ـ ترك لي اسئلة عديدة، وبدات افكر بحال المهاجرين في اوربا، ومعاناتهم، والصور السلبية التي ترسمها لنا وسائل الاعلام خصوصا عن عرب فرنسا. واذ كنت طالبا في قسم الانتروبولوجيا في جامعة هلسنكي، وكنت افكر بدراسة لغة ما غير اوربية، فأن حادثة القطار شجعتني لاختيار اللغة العربية.

وها انت تتحدث اللغة العربية وتترجم وكانك من اهلها، والمغرب العربي صار لك موطن ثان. "مرحبا بالحباب، كدايرين؟ اشحال ما شفناكم؟ شنو واقع؟ "[٩٠]

ـ والله لو كان عندنا جهاز تسجيل لسجلت كل هذا.

ـ ارجوك، ولا كلمة تخرج عن هذا لاي احد، اهلنا علمونا بأنه لا يوجد على المريض حرج.

ـ يا اخي هذا ليس مريضا، وانت الاعرف، هذا بأختصار رجل ابتلع مكتبة عامة.

وشوشة وهمس عند راسه، وضحكات خفيفة. الموسيقى تستمر بضربات خفيفة. دخان وضباب، ضباب،...

٧

يجد في نفسه القوة فجأة لينهض. يحاول القفز دون منح الحراس من حوله فرصة للانتباه او اللحاق به. يمتطي حصانه، ويشهر سيفه:

ـ **انا موجة الطوفان احطم جدران الحجر.**

انا...

تتصاعد الضحكات من جانبه. على امتداد السهل يرى الناس تهرب من امامه، ولا يوجد اي فارس يظهر لمنازلته. اهكذا ستكون نهايته، فارس بل مجد ولا بطولة؟ اين ذهب الابطال والفرسان؟ اين اختفت القلاع والمدن؟

ـ صاحبنا، وضعه يتدهور، وانت الاعرف، لنتصل بالطبيب "زرادشت".

ـ وماذا يفعل؟

ـ ينصحنا بشئ ما.

ـ عزيزي، هذه حالة طبيعية لمن حرارته وصلت الاربعين.

فجأة، وقف كلكاميش الى جانبه يحدق اليه. مد كف يده وجس جبينه. يده باردة كانها الثلج. ماذا يفعلون به. هاهو كلكاميش ينزع له قميصه. رجال المصابيح يظهرون ويلتفون حوله. صار بيدهم مثل الدمية. ما الذي يجري؟ ماذا حصل؟

ـ ثوب نومك أبتل ثانية، نستبدله لك، سترتاح بعد هذا.

يظهر فاينامو موينن، يرفع يده، ويصيح:

ـ دعني افعل ذلك يا جدي كلكاميش، اعتقد ان التعرق بغزارة علامة جيدة.

يتنحى كلكاميش قليلا، ويترك فاينامومويننن يفعل ما يشاء. هاهو فاينومونين ينافسه على جده. ها انت تعترف اخيرا. نعم يا صاحبي الازلي. كلنا قادمون من هناك. من اعماق

تاريخ واحد. انت يا فاينومويننن لم يختلقك منشدو الاغاني الشعبية في ساعات استراحاتهم، انت قادم من البعيد... البعيد. انت ببطولاتك وجولاتك تبقى في ذاكرة الشعب، علامة وهوية، مثلما هو جدنا، جدي وجدك كلكاميش. ولكن ما هذا، ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟

ـ يا اخي حاول النوم رجاءا.

اوه انظروا. انهم قادمون على شكل مجاميع. كيف لي تمييزهم. اين اللوح السري الفسفوري. لتشتعل الاضوية بالاسماء. انظروا هذا شاخوان وعائلته. انها السيدة دلسوز. تلك تاوات. الاخوان يارمو وتاريا. اوه. من هذا؟ يوسف ابو الفوز. شادمان علي. مروان السلامي. منتصر هادي. تحسين شاكر. فرمان طه. حسين الزوراني. رباب خليل. سالم غفور. سالار صوفي. طاهر معيوف. السيد بيكا تويفنين والسيدة كريستينيا. يااااه ما اكثر الوجوه. مالذي جاء بكم.

ـ لتعرفنا الى جدك كلكاميش؟

يا ايها الناس. ايها الاصدقاء. هو ليس جدي وحدي. ارجو ان تكونوا دقيقين في عباراتكم ومصطلحاتكم. هو جدنا كلنا. منذ شمشون الجبار الذي ولدته امه العاقر اثر معجزة، ومرورا ب ثيسيوس الاغريقي الذي انجبته امه من عشيقها اله البحر بوسيدون، واخيل في الياذة هوميروس ابن الالهة تيتيس، و ذو القرنين الذي بلغ مغرب الشمس، وحتى هرقل الاغريقي ابن الاله زيوس، وحتى يومنا هذا. الجميع جالوا في الاصقاع بحثا عن الحياة، والجميع صارعوا المحن والمخاطر، وعبروا بحار الموت حيث تشرق الشمس. يا اصدقائي يا احبتي. يا من تعتقدون بأن...

ـ يا اخي لا نعتقد ولا هم يحزنون، نام لخاطر ربك، عجيب هل ستشرح لنا هذه الليلة كل الكتب التي قرأتها؟

ـ دعه لوحده رجاءا، الطبيب "زرداشت" يقول ليس من خوف من هذا، يجب ان نساعده فقط لخفض حرارته.

ايها الاصدقاء. لا ارى بينكم زوجتي محاسن. ولا ابنها طارق. والاهم من كل ذلك اين ابنتي رحيل؟ رحيل؟ رحيل... امها سمتها رحيل وانا كنت في رحلة طويلة. مثل جدي كلكاميش في رحلة طويلة ابحث عن الحياة. عن سر الحياة. ابحث عن سراب. اين سراب؟ لماذا هو غير موجود معكم؟ اين انت يا...

ـ يا اخي رجاءا دعنا ننقله الى المستشفى.

ـ وماذا سيفعلون هناك، قال الطبيب "زردا شت" ستنخفض حرارته، والحالة لا تستمر كثير من الوقت، علينا فقط الانتظار.

ملاحظات و أسماء أعلام

* هذا القسم يوظف بشكل كبير مقتبسات من الكاليفالا ومن ملحمة كلكاميش وضعت باللون الاسود (بوند) لتيمييزها، ولم توضع بين اقواس لتحقق انسيابية عند القراءة بأعتبارها جزءا عضويا ومتكاملا مع النص.

٥٨ ـ Moi: كلمة تحية فنلندية بين المعارف والاصحاب تعني "مرحبا".

٥٩ ـ ماتريكس Matrex: بطل فلم العنف والحركة الامريكي بنفس الاسم، الذي ظهر عام ١٩٩٩.

٦٠ ـ الحداد ايلمارنين: من الشخصيات الرئيسة في الكاليفالا

٦١ ـ نص باللغة الكردية من اغنية كردية في استقبال يوم النوروز للمطرب الكردي المشهور حسن زيرك وهي من قصيدة للشاعر الكردي المشهور قانع، تقول: (هذا اليوم، حل عام جديد ، جاء النوروز، عيد الشعب القديم جاء بالفرح).

٦٢ ـ فيلي فالغرين Ville Vallgren 1855 – 1940 : نحات فنلندي من اشهر اعماله حورية البحر، المعروفة بأسم اماندا، الذي اختار له فتاة فرنسية لتكون موديلا لتمثال يرمز الى مدينة هلسنكي.

٦٣ ـ Vappu: يوم الحرية، وهو من اهم الاعياد الشعبية والرسمية في فنلندا، ويصادف يوم الاول من ايار وتنظم فيه الاحتفالات والمسيرات الشعبية والسياسية.

٦٤ ـ Ulkomaalaiset Pois Suomesta: جملة باللغة الفنلندية تعني "اطردو الاجانب من فنلندا" وهي من اشهر شعارات الحركات العنصرية في فنلندا.

٦٥ ـ الياس لونرت Elias Lönnrot 1802—1884: طبيب فنلندي دار سنينا طويلة لجمع الشعر الشعبي من افواه المغنين الجوالين. وثم نسق ونشر ما جمعه في كتاب الكاليفالا، التي يعتبر النقاد ٤٠ ٪ من نصوصها من تأليفه.

٦٦ ـ اوتو- نبشتم: في ملحمة كلكاميش وملحمة الطوفان هو الشيخ العجوز الذي عاش اكثر من خمسمائة سنة ويقيم في دلمون (دولة البحرين في الوقت الحالي) وعرف اسرار الخلود، وهو يقابل شخصية نوح في كتب الديانات السماوية.

٦٧ ـ هرقل Heracles: بطل الاساطير اليونانية (اللفظ اللاتيني Hercules)

٦٨ ـ كوليكي Kyllikki: احد شخصيات الكاليفالا الاسطورية.

٦٩ ـ ابن لمي: احد شخصيات الكاليفالا .

٧٠ ـ اور- شنابي: في نصوص ملحمة كلكاميش هو بحار يعمل عند اوتو- نبشتم وساعد كلكامش في الوصول الى مكان اقامة اوتو- نبشتم وساعده على اجتياز نهر الموت.

٧١ ـ ـ الرجل المطاط: من ابطال القصص المصورة للاطفال.

٧٢ ـ ايتو أستو Isto Etetu 1865-1905: رسام فنلندي عاش مغمورا، حتى عام ١٨٩٩، حيث رسم لوحة "الهجوم"، التي اصبحت رمزا قوميا ونضاليا في تأريخ فنلندا ضد احتلال روسيا القيصرية لفنلندا، ودخلت اللوحة في كل بيت فنلندي، ومن كان يعتقل وبحوزته تخطيط من اللوحة كان يرسل للسجن في سيبيريا، واللوحة تمثل فتاة تقف بثياب لون العلم الفنلندي، الازرق والابيض، وخلفها البحر العاصف، وتصارع نسر هائج برأسين يهاجمها لينتزع منها كتاب ضخم يرمز الى الدستور الفنلندي.

٧٣ ـ ماتي كلينغه Matti klinge: مواليد ١٩٣٦ مؤرخ واستاذ جامعي، الف العديد من الكتب عن تاريخ فنلندا.

٧٤ ـ الكانتلا: الة موسيقية فنلندية وترية شعبية، قريبة من الة العود وتشبه الة الطنبور، كان المغنون الشعبيون يعزفون عليها نصوص الكاليفالا.

٧٥ ـ تاوانمان چى يه: عبارة باللغة الكردية معناها "ما ذنبنا"

٧٦ ـ كاوكو ميالي: من شخصيات الكاليفالا، شخصية عابثة.

٧٧ ـ البيرت ايدلفيت Albert Edelfelt: عاش للفترة ١٨٥٤-١٩٠٥ رسام فنلندي حاز على شهرة عالمية، بدأ بالرسوم التاريخية ثم رسوم الحياة الواقعية والمواضيع الشعبية، واهتم برسم الطبيعة الفنلندية. تنقل كثيرا واقام لفترة في فرنسا، وعرف العالم بالثقافة الفنلندية.

٧٨ ـ توفي يانسون Tove Jansson 1914-2001: فنانة وروائية فنلندية، من اصول سويدية، كاتبة مشهورة للاطفال، ابدعت للاطفال شخصية مومين الكارتونية Moomin عام ١٩٤٥، والتي اصبحت معروفة في كل اوربا والعالم، وتركت الكثير من الكتب والقصص المصورة لهذه الشخصية، التي دخلت كل بيت اوربي كدمية والعاب واشرطة افلام كارتون.

٧٩ ـ أينو لينو Eino Leino 1878-1926: شاعر فنلندي، ومسرحي. يعتبر من المجددين للشعر الفنلندي، مزج الاسطورة بالتاريخ، و تاثر بافكار نيتشه ، وكان اول من ترجم دانتي الى الفنلندية، وعاش حياة بوهيمية.

٨٠ ـ فرانس أيميل سيلانبا Frans Eemil Sillanpää 1888-1964: اديب فنلندي، ابن لعائلة فلاحية من غرب فنلندا، درس العلوم الطبيعية لكنه تركها حصل على جائزة نوبل عام ١٩٣٩. حازت رواياته شهرة واسعة.

٨١ ـ اورهو كيكونين Urho Kekkonen 1900-1986: من أهم الشخصيات السياسية في تاريخ فنلندا الحديث، صحفي وحقوقي. من قادة حزب المزارعين (حزب الوسط حاليا). رئيس وزراء فنلندا للفترة (١٩٥٠ ـ ١٩٦٥) ورئيس الجمهورية الفنلندية للفترة (١٩٥٦ ـ ١٩٨٢)، في عهده تميزت العلاقات بالاستقرار والتطور مع الاتحاد السوفياتي وكان مهندس سياسة الحياد بين المحاور في فترة الحرب الباردة.

٨٢ ـ ياني ساكسيل Jani Saxell: مواليد ١٩٧٢، كاتب روائي وصحفي فنلندي، معروف بتضامنه مع قضايا الديمقراطية في الشرق الاوسط. حاز جائزة الدولة الفنلندية عام ٢٠٠٠ عن روايته الاولى.

٨٣ ـ الكسي اهتولا Aleksi Ahtola: صحفي فنلندي، تميز بأهتمامه بقضايا الشرق الاوسط، خصوصا القضية العراقية.

٨٤ ـ من العبارات الشهيرة في رواية "الجندي المجهول" للكاتب فاينو لينا وتحولت الى مثل فنلندي.

٨٥ ـ ديانات: جمع اسم ديانا، اشارة الى الاميرة ديانا.

٨٦ ـ جورج اوغست والن Georg August Wallin 1811-1852: هو الرحالة والمستشرق والاستاذ في جامعة هلسنكي، زار البلاد العربية وتعلم لغتها، وسمى نفسه (الياس عبد الوالي)، كان من أوائل المستكشفين الأوروبيين لجزيرة العرب، بعد تخرجه مباشرة من جامعة هلسنكي عام ١٨٢٩، غادر من هناك نحو هامبورغ ثم باريس ومرسيليا ثم إلى استانبول ومنها نحو القاهرة.

٨٧ ـ لينا لاندر Leena Lander: كاتبة فنلندية من اصول سويدية. مواليد ١٩٥٥. كاتبة روائية، حازت روايتها (بيت الفراشات المظلم) جائزة الدولة عام ١٩٩١. توظف التاريخ والوثائق في كتاباتها، وانجزت عدة اعمال روائية لاقت رواجا، وترجمت الى عدة لغات عالمية.

٨٨ ـ كلاوس اندرسون Claes Andersson: مواليد ١٩٣٧ من اصول سويدية. شاعر وموسيقي فنلندي وطبيب نفسي وكاتب روايات ومسرحيات، ترجم شعره إلى عدة لغات بضمن ذلك الألمانيةِ الإسبانيةِ الإنجليزيةِ، الفرنسية والروسية. من قيادة حزب اليسار الفنلندي. وزير الثقافة الفنلندي لفترة ١٩٩٥ ـ ١٩٩٨ نشر كتاب حول تجربته السياسية.

٨٩ ـ كيلا Kiila: منظمة ثقافية للكتاب والفنانين الفنلنديين، تعتبر واحدة من اعرق المنظمات الثقافية، وهي تجمع للكتاب والفنانين اليساريين، تأسست في عام ١٩٣٦، بعد تحالف القيادة السياسية

الفنلندية حينها مع الحكومة الالمانية واغلاقها الحدود الثقافية مع اوربا والعالم، فأستعارت المنظمة اسمها من شقفة الخشب المثلثة الصغيرة (في اللغة العربية الكلمة المناسبة ربما تكون جُذاذة)، التي تتواجد في كل بيت فنلندي لتحافظ على باب البيت مفتوحا دائما، وليعمل اعضاء المنظمة بهذا المعنى ويجد لتعزيز التبادل الثقافي مع كل بلدان اوربا ومع مختلف الثقافات الانسانية. تضم المنظمة حاليا ٤٢٠ عضوا من مختلف الانواع الابداعية، من كتاب نثر وشعراء وفنانين موسيقيين وتشكليين، وفي نيسان ٢٠٠٦ انتخب الكاتب العراقي يوسف ابو الفوز لعضوية هيئتها الادارية كأول كاتب من الشرق الاوسط ينتخب لهذا الموقع.

٩٠ ـ (مرحبا بالحباب، كدايرين؟ اشحال ما شفناكم؟ شنو واقع؟)، جملة باللهجة المحكية المغربية وتعني (اهلا بالاحباب، كيف حالكم ؟ لماذا لم نراكم؟ ماذا حدث؟).

القسم الخامس

الفصل الاول

١

بدا الامر، بدون مقدمات طويلة. كأن ثمة شئ خفي، يستتر، مكبوتا في النفوس، لم يعرفه كريم وصار سببا لما حصل. اذ من غير المعقول انفجار مروان بهذه الهستريا ومع نوري بالذات. تبين لكريم بان نوري، الى جانب عبثه، وسخريته، رياضي وحيوي، ومقاتل جيد. عجب لسرعته في تفادي قبضة مروان الغاضب، وقدرته على ضبط اعصابه لامتصاص هياج مروان.

من ايام ومروان في هلسنكي، وصل من مدينة تامبرا Tampera، في زيارة لم يعلن عن اسبابها، رغم انه ابلغ شاخوان عن قرب وصوله، فاستعد نوري لاستقباله. عرف كريم من شاخوان ان نوري مشغول مع ضيف، صديق قديم، تبين انه مروان السلامي. ادرك كريم بأن شاخوان يعرف اسباب زيارة مروان الى هلسنكي، لكنه كعادته كتوم في الحديث عن خصوصيات الناس وما يعده اسرارا حسب اعتقاده. من الايام الاولى لتعارف كريم مع شاخوان ونوري سمع باسم مروان، وكان الاسم يتردد في احاديث نوري كثيرا، مصحوبا احيانا بالضحكات. سمع كريم قصصا طريفة عن علاقة نوري ومروان تختلط فيها الحقيقة بالمبالغة، واثار استغرابه، ما سمعه مرة كون مروان انتقل الى تامبرا هروبا من صديقه نوري، وهو يصرخ:

ـ لو بقيت في هلسنكي، سأقتل ابن شناوة يوما ما.

مروان متزوج من فنلندية. التقاها كريم مرات محدودة مع مروان، كانت شابة بشوشة المظهر، لكنها ممتلئة قليلا مثل غالبية الفنلنديات، ووجه دائري بنظرات ذكية ومسحة طيبة. احدى لقاءات كريم مع مروان كانت في مجلس عزاء ابو حسن العدناني، حيث جاء مع مجموعة من العراقيين المقيمين في تامبرا خصيصا للمشاركة في العزاء. كان مروان شابا مفتول العضلات، مستقيم القامة، وبكفين عريضين، كانه مصارع، رغم ان ذلك لا يتناسب تماما مع ملامح وجهه الطفولية. قال فوزي وكأنه يجيب عن سؤال في عيني كريم:

ـ كان ابوه حدادا!

في مجلس العزاء جلس مروان قبالة كريم ولم ينطق حرفا. شرب الكثير من اقداح الشاي والقهوة. خرج مرارا ليدخن خارج صالة العزاء حيث تعالت نقاشات العراقيين، وحيث كان عباس جامعة يردد بشئ من الالم:

ـ علينا شكر الملك عزرائيل لانه يجمع العراقيين في الماتم، والا فنادرا ما يلتقي العراقيون، لاحظ ان الصوماليين لديهم نواديهم الثقافية وجمعياتهم، والروس كذلك، واليوغسلاف، وغيرهم، اما نحن...

فقاطعه ملا حسين:

ـ هناك الجوامع، بيوت الله، يا ابني!

فقال عباس جامعة:

ـ ولكن يا ملا ليس كل الناس تؤم الجوامع، والجوامع بيوت عبادة، وهناك وظائف للجمعيات الثقافية والاجتماعية لا يمكن للجوامع ان تؤديها.

كان كريم يرقب اهتمام نوري الملحوظ بمروان، واحاديثهما الخاصة على انفراد التي لم تنقطع. همس له فوزي وهو يغالب ابتسامة:

ـ لا يغرنك كل هذا، فهما الاخوة الاعداء!

من احاديث الاخرين، تشكلت صورة عن مروان، كشاب خجول، متردد، كتوم. ترك مروان هلسنكي قبل سنوات غاضبا من نوري، وانقطعت اخباره. اشتغل في تامبرا عاملا في مطعم. صاحب المطعم التركي رجل مسالم وطيب، لاحظ جهادية مروان وبساطته، بعد نصف عام من عمله، دعاه ليكون شريكه بدون رأس مال:

ـ عملك يا بني هو رأسمالك.

بعد اقل من سنتين، وبشكل مفاجئ توفي الرجل التركي، فاشترى مروان من أبنائه الطلبة بقية الحصص بأسعار رمزية، قيل ان صديقته الفنلندية ساهمت بمساعدته. حين وصل خبر زواجه منها، تألم نوري لانه سمع بخبر زواج مروان من الاخرين، وسكر يومها وشتم الصداقات ومروان وكل أهل مدينة الرمادي. من نوري عرف كريم بأن مروان قبل انتقاله الى هلسنكي كان يقيم في مدينة توركو Turku. جاء هلسنكي كما يردد، هربا من الاجواء الدينية المخيمة على جماعات من ابناء الجالية العراقية هناك:

ـ يا أخي، فضيع، فضيع جدا، كل يوم يأتيك من يريد هدايتك الى الله، الى الطريق الصحيح، وكأننا ابناء قحبة وكافرون. لماذا؟ لاني لا اشارك في صلاة الجمعة في المسجد، وهناك

عدة مساجد وكل واحد منهم يعتبر نفسه هو الاقرب الى رب العالمين. "اتركوني يا ناس" صحت بهم. اعرف طريقي الى ربي، ولكن بدون فائدة.

وسأله نوري يومها:

- ولكن لم انت بالذات يا مروان؟ لماذا لم يقربني احد لهدايتي الى السراط السليم؟

وقال مروان شيئا، أثار غضب نوري ساعتها، لكنه كتمه:

- ربما لمعرفتهم، بكونك ضال تماما، ولاينفع معك نصح وهداية، وتفاديا للسانك الزفر.

لم يحصل مروان على شقة للسكن في هلسنكي. كان هناك الف شرط وتعقيد للانتقال والسكن في العاصمة. كل فنلندا تريد الانتقال للعيش في العاصمة! كأن فنلندا هي هلسنكي فقط، مما جعل الحكومة المحلية للعاصمة، تضع اشتراطات كثيرة للانتقال والعيش فيها. بادر نوري ودعا مروان لمشاركته السكن والمساهمة في دفع الايجار. كان مروان رغم وسامته، وشكله الذي يغري النساء، جاهلا بأمورهن. صار يشعر بشئ من الغيرة لقدرة نوري على اصطياد النساء بسهولة. لم يبرد فراشه من حرارتهن ابدا. يقف مروان مبهورا وهو يرى نوري، يفلسف العلاقة مع المرأة:

- اتدرون ان رجالنا الشرقيين، الذين يقولون ان للمرأة نصف عقل واهمين ومغرضين، بل وانتم الاعرف، هذا يعني انهم اغبياء ومتخلفون جدا. صحيح ان للرجل عقلا كاملا، هذا صحيح جدا، ولكن انا اعتقد ان للمراة بشكل عام عقل ونصف.

وينقل نوري نظراته بين مستمعيه متلذذا بانصات الاخرين اليه، ويرصد مروان كيف يترقب كل واحد بقية كلام نوري:

- ولكن يحصل ان أسبابا عديدة تجعل عقل المرأة الكامل يتوقف عن العمل تماما، وللاسف يبقى يعمل فقط نصف العقل. اما كيف يتوقف عقل كامل فانتم الاعرف!

كانت العلاقة بين نوري ومروان مصدرا للكثير من الاحاديث والقصص، التي يرويها نوري احيانا بشئ من الخلاعة او الجدية. وكان تذمر نوري من جهل مروان شديدا، ولا ينتهي:

- قررت تقديم لمروان دروس خاصة في التعامل مع المرأة الاوربية، بل وحتى في طرق نكاحها. طلبت منه مراقبتي، كيف اتحدث، كيف اتصرف مع النساء. لكن لا فائدة. كنت احدثه عن كل شئ. اقول له، المرأة بشكل عام لا تحب الرجل المتردد، هي ترغب الرجل الجرئ. تقترب منها، تراها لاول مرة، لا تعرف اسمها، ولا تعرف هل هي متزوجة ام لا، ولكنك تصرف معها وكأنك تعرفها من سنين طويلة وانكما اصدقاء حميمون. وعليك اختيار بداية موفقة للحديث تحثها

للاستمرار والمواصلة. تجلس قريبا منها، ترتشف قهوتك، او بيرتك، بصمت دون النظر اليها، او تخالسها النظر بشكل ينفرها منك. تصرف وكأنها غير موجودة، بشئ من الاهمال، لكن بدون اهانة. تتصفح جريدتك وكأنك تتابع باهتمام موضوع ما. فجأة تلتفت اليها وتتحدث بطريقة وكأنك تستكمل حديث انقطع بينكما لسبب ما. باغتها وكأنك في حلبة ملاكمة، وواصل التقدم وتسديد الضربات. عليك حساب خطواتك وكلماتك، وخلال ذلك يجب ان تقدر وتعرف: كم كأسا شربت هذه المرأة الجالسة لوحدها غارقة في افكارها؟ فالمرأة الفنلندية لا تحب المتطفلين، لكنها تحترم الرجل المهذب. الحديث مع امراة لم تشرب شيئا، يكون غير الحديث مع امراة شربت كأسا وفك لها لسانها وشيئا من توترها وجديتها. مع كأسها الثاني، سيمكن لك دفعها للحديث عن نفسها وهمومها اكثر. بعد الكأس الثالث ادعوها للرقص. حاذر الصاق وسطك بها، على عادة العراقيين المنفرة، دعها تفعل ذلك بنفسها ان ارادت. عندها اجعل اصابع يدك تتحرك بحذر على اطراف كتفها، وحدق عميقا في عينيها، وهنا ستعرف انها ستشاركك سريرك هذه الليلة، او ان لحظاتك الجميلة معها ستنتهي في المشرب او المرقص. يجب ان تعرف جيدا ان اخر ما يمكن ان تتحدث به مع اي أمراة هو الجنس. المراة تكره جدا ان يكون ذلك اول المواضيع في الحديث مع رجل تعرفت اليه قبل فترة قليلة. اخر ما كنت اتحدث به مع النساء هو موضوع الجنس. اخر ما كنت احاول قوله هو الايحاءات الجنسية. كنت دائما احرص على تجاهل هذا الموضوع، رغم انني التهب شهوة ورغبة. المراة الذكية تلمس ذلك، وتشمه، وتدركه. لديها حواس خاصة تتميز بها فيعظم عندها الرجل المقابل فتقوم بملاحقته والسعي لامتلاكه. مشكلة مروان انه لا يتعلم بسرعة من ذلك، ولا يستوعب الدروس جيدا. كان يرتكب الحماقات كل مرة، فترى النساء يتركن مائدته سريعا، او يتجاهلنه بادب. المرأة الفنلندية مؤدبة جدا. مؤدبات الى درجة غريبة. تصور مرة في السرير احداهن القمت قضيبي فمها، لكنها قبل مواصلة مص "الآيس كريم" سالتني: ممكن؟ كان مروان يعتقد ان مجرد رؤية النساء لعضلاته وشعر صدره سيجعلهن يهرعن الى سريره. ربما حاز نجاحا مع نساء لا يبحثن سوى عن نكّاح فتي لليلة واحدة، ولكن المراة، اي امراة، حتى العاهرة، لا تريد من الرجل فقط عضلاته، تريد شيئا ولو بسيطا من روحه، من طيف رومانسي قرأت عنه، او شاهدته في فلم سينمائي. ليس بالضرورة على الرجل حفظ كثير من الشعر او جمل قصصية من كتب معروفة، كما يفعل احدهم يثير الضحك عندي وهو يتلعثم باقوال لشكسبير لم يحفظها جيدا. اؤمن بان الرجل عليه محاولة صناعة جمله بنفسه، لتشعر المرأة حين تنام الى صدره بان هناك شيئا خاصا بها في داخل هذا الرجل الذي منحته

جسدها. بعد ممارسة الجنس، وحين تتوسد المرأة ذراعك او صدرك، هذا يعني انك لامست شيئا في قلبها، وليس فقط فرجها!

اعترف شاخوان امام كريم، بانه رغم كل تجاربه السابقة، وقصصه مع النساء، يقف فاغرا فاهه امام نوري، الذي من الصعوبة الفصل بين جده او هزله، فيقول له بطريقة يقلد بها اسلوب نوري في الحديث:

ـ يا نوري، بربِ الملائكة، وانت الاعرف، لو تكتب تجربتك في كتاب سيكون حدثا، أسأل فوزي، ان مثل هذه الكتب تلقى رواجا في هذه البلاد وربما تحصل بسببه على جائزة فنلنديا[91].

ومع كل هذا، كان نوري يشعر بشئ من الذنب، لان مروان لم يتعلم شيئا خلال الفترة التي قضاها معه. وحين التقى نوري زوجة مروان، جاء ليلطم على رأسه امام شاخوان وليعترف بأنه كان فاشلا في التأثير على مروان لتكون له ذائقة مناسبة في النساء. احيانا ومن اجل مروان اضطر نوري لعقد صفقات مع نساء:

ـ سارافقك هذه الليلة، لكن على صاحبتك هذه مرافقة صاحبي ايضا.

قال له شاخوان:

ـ يعني انك صرت له قوادا.

لم يزعل نوري:

ـ سم ذلك ما شئت. كنت اشعر بالالم حين اراه كل مرة يعود خالي الوفاض. كنت ارافق بعض النساء الى منازلهن، وأعود بعد يوم او يومين لاراه كئيبا حزينا، وحيدا، وفي نظراته شئ من اللوم، وكأني مسؤول عن خيبته.

كان نوري ايامها لا يزال عاطلا عن العمل، وكان مروان أنهى في مدينة توركو دورة خاصة للتسويق والتجارة. فكان مروان يبحث عن بداية طريق لتحقيق احلامه، ساعده نوري وأرسله الى شاخوان ليعمل وبالاتفاق مع مكتب العمل، لعدة شهورا كمتدرب. بعد نهاية فترة التدريب صار مروان يعمل بالاسود مع شاخوان. كان شاخوان يعيش ايامه الصاخبة في "السينما الحمراء"، فكان مروان خير من يحل في غيابه ليراقب العمال ويسجل له كل شاردة وواردة تحدث هناك. لم تمض فترة، حتى اصطدم مروان بعنجهية شاخوان، وتشكيكه في كل شئ. كان شاخوان فظا ومتشككا. في يوم وجد شاخوان ان المطعم لم يبع بشكل جيد، صرف مروان بهدوء، مشيرا الى عدم صلاحيته. وجاء مروان الى نوري غاضبا:

ـ يا اخي صاحبك شاخوان فضيع، فضيع جدا، كنت احس وكأنه يتهمني بالسرقة. انا الذي كنت اعمل معه كل النهار باجور لا يقبل بها اي عامل غيري.

عندما تعرض شاخوان الى الحادث المروع، الذي اقعده على الكرسي المتحرك حينا، جاءه مروان من تامبرا، هلعا، حزينا بصدق:

ـ احلف بالله، اني لم اسمع بذلك الا قبل ايام، يا اخي فضيع، والله فضيع هذا، كيف تقود سيارتك وانت سكران؟

بعد شفاء شاخوان، ومراجعته كل شريط حياته السابقة، وكأنما تكفيرا عن ذنوبه واخطائه مع مروان، صار كلما يحل مروان في هلسنكي، يقوم بأبداء الاهتمام الشديد به، ويغرقه بالهدايا والدعوات. مع حضور مروان الى هلسنكي رتب شاخوان هذه الدعوة في مطعم صيني ليس بعيدا عن "جسر المافيا". حضر كريم بناء على هاتف شاخوان واصراره. في المطعم الصيني، حجز شاخوان طاولة منعزلة تكفي لاثني عشر شخصا. اخبرهم فوزي بأنه سيحضر متأخرا قليلا لانشغاله بالاعداد لندوة في معارضة السياسة الامريكية التي تواصل دق طبول الحرب ضد العراق. في المطعم، كان هناك الكثير من المدعوين. لم يتعرف كريم على الجميع، لكنه عرف اغلبهم. بعضهم يعرفهم كريم جيدا، التقاهم في مطعم شاخوان او في مناسبات عامة. عرف بينهم عباس جامعة، الطبيب زردا شت، منتصر هادي، يوسف أبو الفوز، حسين الزوراني وسالم غفور. الجميع حضروا احتفاءا بمروان الذي بدا حزينا، مهضوما، بشكل واضح. ولكسر حالة الوجوم، التي طافت في الجلسة، راح نوري يطلق نكاته يسارا ويمينا. طوال الوقت كان مروان يرد على اسئلة الاخرين بجمل قصيرة، مقتضبة. لاحظ كريم ان مروان لم يأكل جيدا. شعر شاخوان بالحرج للجو المتوتر الذي خيم على المكان، وكأنه هو المسؤول عنه. لم تنفع فوضى نوري ومحاولته زرع المرح في الجلسة. كان ثمة شئ خاف عن الجميع. بعد ارتشافهم اقداح القهوة، وقبيل انصرافهم، بدأ البعض يسأل مروان عن مدينة تامبرا. الناس وفرص العمل، وحياة العراقيين هناك. سأله عباس جامعة:

ـ سمعنا انك رزقت بولد؟

وارتجفت كفا مروان. لاحظ كريم ذلك. ولاحظ كيف اجاب بهزة خفيفة من راسه.

ـ الا تفكر بالعودة الى هلسنكي، يعني تشتري مطعما هنا؟

كان السائل يعرف مروان من ايام معكسر سورناين sörnäinen للاجئين في شرق مدينة هلسنكي. تحدثا قليلا عن ذكرياتهما هناك، اذ وصلا البلاد في اوقات متقاربة. واذ شق مروان طريقه في عمل المطاعم، التحق صاحبه بالجامعة، وحصل على الماجستير في الهندسة الميكانيكية. كان المهندس متحدثا لبقا، ويقدم اسئلته بأدب. كان واحدا من مئات الشباب العراقيين، الذين

استثمروا وجودهم في اوربا بشكل ناجح، ودخلوا الجامعات ليتعلموا ويحصلوا على شهادات وتخصصات تنفعهم وتنفع بلادهم مستقبلا. كان كريم يشعر بالامتنان لشاخوان لهذه الدعوة التي تحمل فيها الكثير من روح الالفة، وتضم كثيرا من الوجوه الطيبة. في الوجوه الملتفة حول الطاولة، رغم الاختلافات والتباين بين شخصياتها، الا ان كريم كان يرى فيهم الوجه الطيب للعراقيين المقيمين في فنلندا. عراقيون وصلوا المنافي وسعوا لبناء حياتهم من جديد. منهم من سعى لاكمال دراسته، ومنهم من حاول يؤسس لعمل تجاري، ومنهم من عمل في وظائف الدولة. كانت يؤلمه سماع كون نسبة العاطلين عن العمل بين العراقيين، تفوق كل الجاليات الاخرى، رغم ان العراقيين هم اصغر جالية في فنلندا. صار كريم يفهم غضب فوزي كلما تابع البيانات الدورية لوزارة العمل:

ـ النسبة تكاد تبلغ ٨٠٪، رغم ان عدد العراقيين يتجاوز قليلا الاربعة الف لاجئ، هذا يمنح الصحف الصفراء والعنصريين فرصة للتشكيك بأسباب لجوء العراقيين، وترتفع نغمة كونهم هاجروا لاسباب اقتصادية وللاستفادة فقط من قوانين الضمان الاجتماعي.

وهو غارق في افكاره، لم ينتبه كريم الا مع صوت مروان يرتفع فجأة غاضبا:

ـ نوري، رجاءا يا أخي. استغفر الله رب العالمين ، ارجوك يا نوري. احذرك للمرة الالف.

ولكن نوري، واصل ضحكته الهازلة:

ـ يا اخي لماذا تعقد الامور، في كل صلاة لك عليك شكر ربك لانه ارسلني لاقف في طريقك، وعليك ان تعترف لي بأن فضل كل التطورات في حياتك يعود الى قضيبي، ولك ان...

وفجأة طارت الصحون، واختلطت الامور، وقفز مروان باتجاه نوري، لكن نوري زاغ بمهارة وهو يواصل الضحك بشكل متوتر:

ـ يا ناس هذا الولد اخبل، أشهد...

ووجه مروان لكمة، واخرى الى نوري، الذي بمهارة يحسد عليها، كان يتفاداها. امسك القريبان بمروان، وحاولا تثبيت حركته، لكنهما لم يقدرا عليه، اذ راح يحاول الافلات منهما، وهو يتمتم بشكل غير واضح:

ـ الف مرة قلت لك يكفي، انت فظيع، فظيع.

وانقلبت كراس وتزحزت طاولات. وصدرت صرخة من أمراة والطعام في فمها. ووقف عدة رجال وبيدهم الشوك. صدم الجميع، من هذا الانفجار المفاجئ. حتى نوري، شحب وجهه، وصارت ضحكته، باهتة بدون معنى. بسرعة، وانصياعا لاوامر شاخوان غادر الجميع المطعم. راح شاخوان يعتذر من الزبائن، وتفاهم مع صاحب المطعم. سمعوه يكرر بصوت عال:

ـ لا داعي للشرطة، انا اعوض كل شئ. يجب ان تثق بي، انت تعرفني.

٢

اقترحت دلسوز، على شاخوان، ان تكون دعوته لاصدقائه خارج المنزل. صحيح انه يوم جمعة لكنه يمكن ان يغيب عن المطعم ساعة او اكثر، فرزكار ورشيدي يقومان بالواجب. اخبرته بأنها يمكن الطلب من صديقاتها، ناوات أو شادمان مساعدتها في الطبخ لعشرة رجال او اكثر لو كانت هناك ضرورة قصوى، لكنها ذكرته باتفاقهما:

ـ في البيت تكون الدعوات العائلية فقط، ودعوات الرجال واتفاقات العمل خارج البيت، الا عند الضرورة القصوى.

في البداية تردد شاخوان، لكن مع وجود متدرب جديد لديه في المطعم، قدر ان غيابه سوف لن يؤثر كثيرا. وافق شاخوان على اقتراح دلسوز، بدون نقاش طويل، وهو يعدد لها فوائد الدعوة في المطعم:

ـ اتفق معك، فهناك بعض المدعوين، لستِ على علاقة وثيقة معهم، واعرف انك ستتعثرين في الحركة امامهم، ثم ان مجموعة رجال يجتمعون، ربما يطيب لهم المرح والسخرية وانت تعرفين رجالنا، ستتطافر الكلمات الفاحشة بدون حساب من البعض، خاصة ان مروان ونوري يلتقيان بعد فراق.

لو كان شاخوان، من اول ايامه معها كما هو الان متفهما، رقيقا، محبا، لما كانت دلسوز خسرت سنينا طويلة من عمرها بين الدموع والالم. ولما كانت فكرت يوما بالانتحار. لم يمنعها من ذلك سوى مستقبل اطفالها، وموقف ماريو الانساني المساند. ناوات كان من قادها بحزم الى غرفة ماريو. كانت ناوات اول من عرف بتفاصيل مصيبتها. يومها انفجرت دلسوز امام ناوات بالبكاء المر. وبدون سابق انذار. كانتا معا، في الساونا، لوحدهما، امرأتان شاباتان، كانهما شجرتا برتقال غضتان، تفوحان بالعطر والطيبة. يفترض بعد الساونا، ان يندفعا، نظيفتين، بجلد شفاف، طاهرتين، نقيتين سعيدتين الى سرير ازواجهما، بدل ان يتدثرا امام التلفزيون، بملابسهما الثقيلة، يفركان اكفهما بالم، وهما يلتهمان اكياس الذرة، والحسرة تتكسر في قلبيهما، اذ يشاهدان في التلفزيون افلام الحب، التي تعرضها الفضائيات بسخاء عجيب. كانت ناوات مشغولة في زاوية الساونا تحت رشاش الماء، تحلق شعر عانتها بحذر، وكانت دلسوز تفرك ساقيها بالليفة. ناوات في مزاج طيب، ربما بفعل الماء، وحرارة الساونا التي تدفع الانسان

للشعور بكونه اكثر نقاءا، وافكاره اكثر طراوة، وتشيع فيه شيئا من الخدر كالسكر الخفيف.
راحت ناوات تواصل رواية، نكتة خليعة، عن ذلك القروي الذي اخذ زوجته الى طبيب المدينة اللعوب، الذي انتبه الى فارق السن الكبير بين الزوج العجوز والزوجة الشابة الصبية، فاخرج الزوج العجوز من الغرفة، وراح يلاعب الزوجة ويثيرها، وحين استجابت له، عرى صدرها وراح يمص لها اثدائها، في الوقت الذي استبطأ الزوج زوجته فراح يراقب من ثقب الباب، وفي الوقت الذي امتطى الطبيب الزوجة دخل القروي غاضبا وهو يصرخ:

ـ افتهمنا اتريد تنكح المرأة، لكن لماذا تشرب حليب الطفل؟

في الوقت الذي تعالت ضحكات ناوات، لم تنتبه الى شهقات دلسوز، التي سرعان ما تحولت الى عواء مر. هرعت ناوات الى دلسوز، احتضنتها بذراعين قويتين، ورفعت راسها بكفها، والذعر في عينيها، وهي تلهج:

ـ ماذا؟ خير؟

وكانت دلسوز، تهمس بخفوت جدا:

ـ لا شئ.

ولم تتركها الا بعد ما سمعت منها قصة عذابها!

هو الحظ، وربما الاقدار، الذي جعل جدتها تكون عندهم تلك الايام. دخلت امها المستشفى لايام للعلاج من عارض صحي. كان الاب مطمئنا وهو يتابع اعماله، لوجود الجدة مع الاطفال، التي جاءت من القرية خصيصا لتكون معهم عند غياب الام. كانت دلسوز في السابعة من عمرها، وكانت يومها، واختها الصغيرة بناز تلعبان الى جانب البيت. سرجنار هادئة، تحت شمس الربيع، والشوارع مبتلة تحت اخر الامطار، حين وصلت تلك العجوز، صديقة الجدة التي تقيم في قرية بعيدة نائية، وتلك الزهرة النحاسية ترتعش على طرف انفها. لمحت جدتها تمد راسها من الباب، فأقتربت منها، فاستدعتها الجدة الى داخل البيت، لم تدر دلسوز لماذا؟ اخذتها الى الحمام، وحممتها بالماء الحار والصابون، وراحت تتلو عليها الصلوات. والعجوز تطلب منها التعجل لانها تأخرت. قدمت لها جدتها قبضة من الجكليت، وانامتها عارية على السرير وراحت تطبع القبلات على راسها وخدها وتواصل قراءة الادعية. فتحت العجوز ساقيها بقوة، وحول فرجها وداخله، وضعت ولدقائق اعشابا استخرجتها من كيس تخفيه تحت ثيابها. راحت دلسوز تصرخ، شعرت بالهلع، وهي ترى العجوز تستخرج من كيسها شفرة ترى الرجال يحلقون بها لحاهم. كأنها رغم سني عمرها الصغيرة، وفي لحظة وعي غريب، تجسم لها مستقبلها العاثر.

راحت ترفس، وتصرخ، فجثمت جدتها على ساقيها بقوة. جلب صراخها اختها بناز، التي مدت رأسها في الغرفة، وما ان رأتها دلسوز حتى راحت تستنجد بها:

ـ بناز اختاه، نادي ابي.. ابي، ستقتلني هذه العجوز.

ومدت العجوز اصابعها القوية، وبالموس، اقتطعت شيئا، فانفجر لهيب الالم، ونهر من الدم. في تلك اللحظات دخل الاب، وكالثور الهائج دفع العجوزتين بعيدا، وهو يرى ابنته وسط الدماء التي تندفع من بين ساقيها الصغيرين، راح يصرخ وهو يدرك ماذا جرى:

ـ ماذا فعلتن بابنتي؟

فقالت العجوز، وهي تخفي شفرتها:

ـ نطرد عنها الشيطان!

وضع ابيها يده في كتف العجوز وسحبها خارج الغرفة، وراح يرفسها بكل قوته، وعاد الى الجدة ووجه لكمات عديدة جديدة لوجهها وهو يسحلها الى جانب العجوز، وسحب مسدسه ووضعه في صدغ العجوز، ثم في صدغ الجدة:

ـ ساقتل كل من يتحدث بما جرى.

هرع، الى دلسوز، دس يشماغه الاحمر بين فخذيها وحملها بين ذراعيه، وهو يصرخ بالجدة:

ـ حين سأعود من المستشفى، سأقتلك لو وجدتك هنا.

كبرت دلسوز ولم تستطع نسيان ما جرى لها. كانت الالام تصاحبها في كل حين، ولم تستطع تشكو لاحد غير امها. منعهم ابوهم من حضور جنازة الجدة عند وفاتها، وبدون علم الاب ذهبت امها لزيارة قبر الجدة، ثم مجلس العزاء. كبرت دلسوز وكانت تشعر ان ثمة شيئا ناقصا فيها كأمراة. كانت اثار الجرح واضحة على فرجها، جعلها تمتنع عن الكشف عن نفسها امام زميلاتها وقريباتها. ولم تزر يوما حمام المدينة، كانت تدخل حمام البيت لوحدها، حتى اختها بناز التي نسيت ما جرى، لا تجعلها تدخل معها. كانت امها تشيع عنها بأنها خجولة، وهكذا عٌرفت بين الجيران والناس، وهكذا تعرفت عليها ام شاخوان واعجبت بها واختارتها لتكون كنتها. في تلك الايام البعيدة البغيضة، بقيت دلسوز تتعالج طويلا في المستشفى وسط سرية تامة يفرضها ابوها الموظف في دوائرالدولة، والذي شعر بالعار لما حصل لابنته. اخذتها امها الى بغداد، وكانت الطبيبة متفهمة لحالهم، وامراة حنونة وعاملتها كابنة. لم يعرف احد بما جرى، وحتى مماتها، لم تتحدث الجدة بشئ، خوفا من تهديد الاب الصارم. كانت تظن ان الناس في المدن، تركوا ختان البنات من سنين طويلة، وان قليل منه يحصل في بعض القرى، لكن الاخبار

وتقارير منظمات حقوق الأنسان تثير الرعب والقرف. لم تنتبه دلسوز لاثار ما جرى على حياتها، الا بعد زواجها من شاخوان، الذي كانت امه تستعجل الزفاف. لم تمتد فترة الخطوبة اكثر من عدة اشهر، كان فيها ابوها وامها اسعد الناس. قبل الزواج بأسبوع اختلت بها امها، وبهمس وكلمات غير متصلة، راحت تحاول توجيهها بشئ عن حياتها الجديدة:

ـ ستتحولين الى امراة، يعني لن تبقي بنتا كما كنت، يعني...، اوصيك ببيتك وزوجك اولا. وتلك القضية اعني... قد تسبب لك في البداية احراجا واعني...، تصرفي بحكمة وقوة، هذه قسمتك من ربك، احكي الحقيقة لزوجك، وشاخوان ابن حلال وسيفهم المشكلة، اعني...!

في الاسبوع الاول، بعد ممارساتهما الجنسية الاولى انتبه شاخوان، لاثار الجرح، سألها وفي عينيه ذعر وخيوط شك رهيبة، فروت الامر بصراحة تامة، وهي تحسد نفسها لانها تماسكت ولم تكن هناك دموع كثيرة. استمع اليها شاخوان واجما. لم تدرك عواقب كل ذلك، بعد اسابيع ادركت ان الامور لم تكن عادية. كانت استجابتها في السرير بطيئة جدا مع شاخوان، الذي يصهل بين ساقيها مثل حصان. لم يكن امام شاخوان مجالا للتراجع عن زواجها، بعدما ادرك ان برودها معه بسبب ذلك الشئ البغيض، الذي يسبب لها الكثير من الالم، وكان على دلسوز تحمل الكثير من المعاناة لاخفاء الامها.

بعد اسبوع من اعترافها لـ(ناوات)، جاءتها لتقودها عنوة الى ماريو:

ـ اسمعي، السيدة ماريو، هي الطبيبة والاخصائية الصحية المسؤولة عن النساء الاجنبيات في بلديتكم، اعرفها جيدا، ساعدتني بأشياء كثيرة غير منظورة، صحية ونفسية ومعنوية. رويت لها قصتك بدون ذكر اسمك، طلبت مقابلتك، وسأخذك اليها بالقوة.

بعد لقاء سريع، طمأنتها ماريو الى ان حالتها ستكون في كامل السرية، ورتبت لها جدول مواعيد، فيها راحت دلسوز تكتشف نفسها يوما بعد اخر. بعد عدة كشوفات وتحاليل، بدأ الامر بعدة جلسات حديث عامة، مع فناجين القهوة وكؤوس العصير، حتى تكسر ذلك الجدار من الجليد الذي غلفت دلسوز به نفسها. سألتها ماريو:

ـ ان كنت تريدين مني مساعدك في حياتك الخاصة والعامة والزوجية، فساعديني. ختان النساء من العادات التي قلت نسبيا في بلد مثل بلادكم، لكن في افريقيا لازال الامر شائعا، وهناك حالات مسجلة في مختلف دول العالم، في اكثر من ٢٨ بلدا، معظمها في افريقيا وهناك دول من اجل منعه اصدرت قوانين اعتبرته جريمة. والى اوربا اتى بعض المهاجرين بهذه العادة معهم، وعلينا مواجهتها ومحاربيتها، انها ثقافة يجب ادانتها. تابعت عدة حالات، بشكل مباشر

او غير مباشر، فارجو الاطمئنان الى ان لدي تجربة طيبة يمكن مساعدتك بها. الختان يتسبب في جراح نفسية دائمة، بالاضافة الى الالم عند الممارسة الجنسية والالم المبرح عند الولادة، شئ طيب ان لا خراجات ولا نزف دائم في حالتك، وعليك التحلي بالشجاعة. الختان ليس ممارسة خاصة بدين ما، أو طبقة محددة. الدراسات العلمية بينت انها ممارسة اقدم من المسيحية والاسلام، كانوا يظنون ان ازالة الجزء الاعلى من البظر يساعد على التحكم في الطاقة الجنسية، وتأهيل الفتاة لدخول مرحلة النضج كإمرأة، وعثر على علامات تدل على الختان على المومياءات في مصر، ولا تتفاجئي ان قلت لك حتى خمسينات القرن العشرين ظلت الازالة الجزئية للبظر توصف كعلاج طبي في اوربا الغربية والولايات المتحدة لامراض الهستيريا والصرع والاختلال العقلي عند النساء.

وبدأت تطرح عليها سيل من الاسئلة الغريبة. اسئلة عن صديقاتها، عن ما تقرأ، برامج التلفزيون التي تحب مشاهدتها، عن الذي يعجبها في الرجال، عن ما تكرهه فيهم، عن حياتها الزوجية، عن خصوصيات علاقتها بزوجها، عن ما يعجبه وما يكرهه، عن تجاربها الجنسية، عن ممارستها للعادة السرية قبل الزواج، عن الاوضاع الجنسية التي يفضلها زوجها، عن ثيابها الداخلية، عن طقوس الحمام، نوع الصابون وعشرات الاسئلة التي لا تنتهي وتتوالد عنها اسئلة اخرى لو طرحها عليها احد غير ماريو لظنتها اسئلة سخيفة. شعرت دلسوز مع ماريو ان هذه المرأة دخلت وتسللت الى كل زوايا حياتها ببراعة شديدة. عادت معها الى ايام طفولتها، الى شوارع سرجنار وازقتها، والى مدرستها الابتدائية والمتوسطة، وابن جيرانهم الذي لم تكن تستطيع النوم دون ان تراه، لكنها لم تجرؤ يوما على الرد على سلامه او النظر في عينيه. كانت اسئلة ماريو والحوارات معها جعلتها تنزع جلد الخوف عن روحها. لم تكن ماريو تتصرف كطبيبة بقدر ما كانت صديقة محبة. ويوم بعد اخر جعلتها تنتبه الا انها لم تكن امراة كاملة، ولا زوجة كاملة، وانها ايضا لا تعرف شيئا عن ذوق شاخوان، ولا تعرف شيئا عن الرجال. كانت ماريو، ومع افلام الفيديو، تشرح لها تفاصيل جسد الرجل والمراة ومناطق الاثارة الجنسية، التي سمتها لها بـ"مفاتيح الجسد"، واين تكمن:

ـ هناك امراة، يكون مفتاح جسدها في صدرها، ويمكنها وصول الذروة، وتتفاعل مع شريكها لو اجاد رجلها مداعبة نهديها فقط. ما جنته عليك جدتك كان جريمة، وستكون جريمتك اكبر لو استسلمتي وانهيت حياتك بيدك.

كانت دلسوز تشعر بغباء ما تفعل مع ماريو، هاهي تكتشف جسدها، وتتعلم كيفية العثور على مفاتيح جسدها وجسد زوجها، لكنه كان ساه عنها مع عاهراته، وبعيدا عنها في مطعمه وصفقاته والاعيبه، وواجهتها ماريو بقوة:

ـ هل تشعرين بمسؤولية عن برود حياتكم الزوجية، وما ال اليه سلوك زوجك من فظاظة معك وافتقادكم التفاهم الزوجي والسعادة؟ اذن تحملي مسؤولية هذا الجزء وباشري بأن تستعيديه عنوة.

حين تشعر دلسوز بعبث ما تعلمت، وصعوبة انجاز ما تريد، كان صوت ثاوات يرن في بالها:

ـ انت قادرة، كنت تظنين قيادة السيارة شيئا لا يمكن لك اجادته، وهاك انظري كيف انك الان سائقة ماهرة!

وكأن السماء كانت الى جانبها. لم تذهب هدرا قراءاتها للقرآن، ولا صلواتها، ولا ايام صومها. ارسل رب العالمين ملاكا ليدفع سيارة شاخوان ويجعلها تتدحرج لتطحن له عظامه، ولتجد نفسها امام مسؤولية استعادته لحياته ونشاطه من جديد. حين غادر شاخوان المستشفى، سمعت منه لاول مرة كلمة "حبيبتي"، قالها بصوت خافت ولكن بصدق عميق، ولم يعد يناديها كما السابق بأسمها حين يكونان معا، او "أم كورش" امام الضيوف للاحترام. كانت ماريو صادقة حين كانت تقول لها:

ـ حاولي، مرة واخرى، لا يوجد خاسر في هذه الحياة، حتى الخاسر فهو رابح للخسارة!

٣

عرضا، عرف فرمان، بدعوة شاخوان لمجموعة من اصدقائه في مطعم صيني. اتصل الى منزل عباس جامعة. يشعر بالالم لأضطراره للاتصال، والسؤال، لكن ترزا كانت تنفخ في رأسه:

ـ لن تخسر اكثر من السلام عليكم.

يريد السؤال عن نظام الحصول على مقاعد الدراسات العليا في جامعة هلسنكي. هناك من قال له ان اخر الطلبات يجب أن تقدم في نهاية شباط، والتقويم امامه على حائط المطبخ يقول انه في الواحد والعشرين منه، قيل له ان في دول اوربية عديدة، صار بعض العراقيين، وتحت اسم مواجهة الحصار الاقتصادي والتضامن مع الشعب العراقي، يوفرون مقاعد دراسية لطلبة الدراسات العليا، وياخذون من الطلبة عمولات باهضة، مستفيدين من بعض الثغرات في القوانين الاوربية. اراد تقديم هدية لم يحلموا بها للمسؤولين عن ملكيات الاراضي في

السليمانية، ان يوفر لابنة المسؤول مقعد دراسي ليكون الى جانبه في المعركة القادمة حول مشكلة الارض وحق البناء فيها. كما توقع فرمان رفعت اخته نافتاو الهاتف، وعرفت صوته مباشرة. لم تدعه يبدا سؤاله، مباشرة ابتدأته بالتحية الحارة، مما أدهشه، واثار استغرابه، وثم جاء السؤال الذي توقعه:

ـ هل اطلق سراح دلشاد؟ وكم حكمته المحكمة؟ هل زرته وقابلته؟

قال فرمان لنفسه ان نافتاو تعرف تفاصيل القضية، نشرتها الصحافة بالتفاصيل، وتحدثت عنها قنوات التلفزيون، ونشروا صورا للمسروقات والمسدس الذي كان بحوزة دلشاد وجماعته، وطبلت الجماعات العنصرية للحدث. لم يستطع فعل شيئا لمساعدة ابنه. سجنت ترزا نفسها في البيت ولم تغادره لاسبوع، ولم تعد ترد على المكالمات. كانت الشرطة تراقب دلشاد وجماعته وتصور كل افعالهم منذ بدأت نشاطاتهم تاخذ طابعا منظما اكثر. بعد اعتقال دلشاد عرف فرمان مصدر تلك الصرفيات واجور السفر الى السويد كل مرة، ومصاريف تلك الحفلات الصاخبة المتكررة، وسلاسل الذهب التي كان يقدمها هدايا لامه واخواته. كان يظن انها سرقات صغيرة تافهة، فكان يغض البصر عنها، ويعتقد ان ابنه سيعقل حالما يكبر. في المدرسة قال له المدير بصرامة وهو ينظراليه نظرات غريبة:

ـ في مدرستنا اثنان وعشرون طالبا اجنبيا، بينهم ستة طلبة عراقيين عرب واكراد، وتوجد لدى بعضهم مشاكل بسيطة، لا نكاد نقضي معها وقتا يذكر، لكن ابنك يا سيد فرمان، حالة شاذة. انظر شهادات وتقارير المدرسين عن زملائه العراقيين. كلهم من الطلبة البارزين والمتفوقين، وتتوقع لهم المدرسة مستقبلا باهرا، وفيهم من هو مؤهل لنيل جائزة ومكافأة وزارة التعليم لتفوقه، ودعم خاص وتسهيلات لقبوله في الكلية التي يرغب. اما ابنك، فللاسف جدا، تحدثنا معك مرارا، ولم نجد اي تعاون يذكر. ومرارا اضطررنا طلب مساعدات المشرفين الاجتماعيين والشرطة احيانا، ولكننا نجد انفسنا الان مضطرين لنقله من مدرستنا الى مدرسة خاصة لامثاله، تدار ضمن برامج تربوية خاصة. ان ابنك صار يشكل خطرا على زملائه وان لم تثمر النتائج فأنه سيكون خطرا على المجتمع.

كان يعتقد ان المدير يبالغ كثيرا، وان فيه ميلا عنصريا، وقد يكون من هؤلاء الذين لا يحبون ذوي الشعر الاسود، لكن يوم ان اتصلت به الشرطة، وهم يلقون القبض على ابنه وعصابته في مواجهة مع حراس سوبر ماركت، ويجد ان جميع اصحابه يعترفون بأن دلشاد هو زعيمهم، شعر بالاحراج والالم، و اعتبر ترزا مسؤولة عن الحال الذي وصل اليه دلشاد:

ـ انت... انت وحدك المسؤولة، كنت تفرحين وانت ترينه زعيما لاقرانه، كنت تفخرين بذلك، انا مشغول باعمالي والسفر، وانت تركتيه يفعل ما يشاء، ولم تسأليه يوما لماذا تأخر.

وهاهي اخته ثافتاو تسال وكأنها تشمت به. كان يود الرد بخشونة، يقول لها شيئا يغيضها، حين سمعها تسأل وبصوت مكسور، وحنون، وبكل ألم صادق:

ـ اخي فرمان، اتحتاج شيئا ما؟ اي مساعدة؟ ماذا يمكن ان نفعل انا وعباس؟

وتلعثم، لم يستطع الرد مثلما جهز نفسه وفكر قبل المكالمة. اراد قول شيء محدد، عن احساسه بالمهانة وابناء الاخرين يتقدمون ويبرزون ويتفوقون وابنه الان في السجن، في الاصلاحية. اراد شتم نفسه وزوجته لانه تجاهل كل الدروس والمحاضرات التي كانت تقدم للاباء والامهات عن اساليب التربية والاندماج مع المجتمع الفنلندي. اراد شتم نفسه لانه استهزا بكل الكلام الذي قيل في المحاضرة التي قدمها كريم مطرود في مركز الثقافات العالمي، وهو يحذر الاباء والامهات من ضياع ابنائهم اذا لم ينتبهوا الى المتابعة لتحقيق التوازن في شخصياتهم بين ما هو شرقي وما هو اوربي، كان المسكين يكاد يتوسل بهم:

ـ يا اخواني، نحن مسؤولين بشكل اساس عن اخفاق ابنائنا، وعدم انتمائهم الى هذا المجتمع الذي يعيشون وسطه. لاننا يجب ان نكون عيونهم التي ترى الطريق الى النجاح والتطور، والا فسوف لن ينفع الندم اذا ما واجهنا فشل ابنائنا في حياتهم. ولاكون مباشرا وربما انحرافهم، او حتى خداعهم من قبل الجماعات الارهابية والمتطرفة التي تحاول تصوير وكأن المجتمع الاوربي مجتمع فاسد كافر ومتحلل واباحي. انت ايها الاب وانت ايتها الام اسألي نفسك كل يوم: ماذا تعرفين عن افكار ابنائك حول المجتمع الفنلندي، وقبل كل شئ اسالوا انفسكم اولا، ماذا تعرفون انتم؟

لكن احد لم يسال نفسه، لا هو ولا ترزا. اراد فرمان القول لاخته ثافتاو كل هذا، لكنه فكر بالمكابرة، والقول بان السجن سيعلم دلشاد وسيكون رجلا. اراد فرمان ايجاد جملة يهدأ بها انفعاله الداخلي، ويقطع صمته وهمهمته على الهاتف، واخته ثافتاو التي تردد "فرمان، هل انت معي؟"، اراد قول شيئا يعبر منه الى غرضه الذي لاجله اتصل، لكنه بلع كل كلماته، وتعثرت الحروف على اطراف شفتيه، ثم وجد نفسه فجاة يبكي بحرارة في الهاتف، ينهد مثل جدار قديم يتهدم، وترزا الى جانبه تلطم وتخمش وجهها، وتحاول سحب سماعة الهاتف من يده، فدفعها بدون صوت غاضبا بعيدا عنه:

ـ شكرا، اختي ثافتاو، شكرا جزيلا لك وللاخ عباس، هل هو موجود، هل يمكن الحديث معه؟

وعرف فرمان ان شاخوان دعا عباس مع اخرين الى عشاء في مطعم صيني على شرف وجود صديق لهم اسمه مروان وصل هلسنكي، واعطته عنوان المطعم ان كان هناك شئ عاجل يتطلب لقاء عباس. وكررت اخته استعدادها لاي خدمة. شكرها وهو يستعيد رباطة جاشه، ويشعر بألم في جنبه، صار يعاوده بين الحين والاخر، ولم يخبر به احدا ولا حتى ترزا. هاهو شاخوان يسخر منه، ولا يحسب له حساب بين الاخرين، كأنه يستنكف منه. ليس وحده، كثيرون صاروا يتجنبونه بعد اعتقال ابنه دلشاد ووضعه في سجن الاحداث. كان يقرأ في عيونهم نظرات الادانة. هل هو الاب الوحيد الذي يحصل له امر كهذا؟ هناك من هربت ابنته منه، واسكنتها الدولة في مكان سري ومنعته الشرطة من الاتصال بها، وهناك من صارلابنته "بوي فريند"، وصارت تتمخطر معه علنا، وهناك من ابنته تدخن وتشرب وتزور الديسكوات كل عطلة اسبوع. وكلهم بعمر دلشاد وبعضهم اصغر منه، لماذا وحده يسخرون منه ويتجنبونه؟ ألأن صور دلشاد ظهرت في الصحف؟ وماذا عن القصص التي يسترها اصحابها بصلواتهم ولحاهم، او بالحديث عن الحرية والديمقراطية، ماذا عن ذلك؟ وهل يعتقدون انهم قادرون على تربية ابنائهم مثلما يريدون؟ ايظنون انه لم يحاول؟ لماذا كل هذا السعي والعلاقات والمؤامرات، وهذه الجهود، من اجل ماذا يجمع المال، ويعقد الصفقات؟ لقد صغّر نفسه امام أناس لا يستاهلون حتى تحيته، وقدم هدايا لا تعد لمن لا يستحقون فلسا، اليس كل ذلك من اجل ضمان مستقبل جيد لابنائه؟ ايريدونه يكون مثلهم، يعيش على تلك الرواتب الفقيرة، التي تقدمها دوائر الدولة، والتي يذهب اغلبها للضرائب والبقية لايجار البيوت التي ترتفع كل مرة؟ يعرفون ان فنلندا واحدة من اغلى بلدان العالم، فكيف له ان يرتب حياة ابنائه وبناته، وهو يملك جيشا من البنات والاولاد؟ الا يرون كيف ان متطلبات ابناء هذا العصر تغيرت عن مطاليب هذا الزمن؟ كيف له ان يغلق فم ترزا ومطاليبها التي لا تنتهي؟

كانت ترزا تدور حول فرمان، تهزه من كتفه، تريد فهم ماذا قالت له اخته لتجعله هكذا ينهار. وضع سماعة الهاتف وقال لها بصوت غريب:

ـ لم تقل شيئا، لكنني شعرت لاول مرة كم انا بعيد عنها!

٤

ـ ما الذي يريدونه مني؟ كلهم؟ حتى دلسوز اقرب الناس؟

كانت ثاوات تسأل نفسها، وهي توقف سيارتها عند زاوية البناية، وتترجل بغضب تنظر بأتجاه بيت دلسوز. كانت حديقته، ساكنة، هادئة، وكلب الجيران يطلق نباحا من خلف زجاج النافذة الكبيرة، وهو يراها تقترب. هاتفت دلسوز وسألت:

ـ أوحدك؟ ماذا تفعلين؟

فصاحت بها دلسوز فرحة:

ـ طبعا وحدي، والاطفال معي، شاخوان الليلة مشغول مع اصحابه، دعاهم الى مطعم صيني وسيعود الى عمله وسيتأخر كثيرا، تعالي نامي عندي هذه الليلة، لك عندي عريس.

واطلقت دلسوز ضحكة، ولم تدر ان ثاوات هاربة من عريس حقيقي، يلاحقها كالمراهق المجنون، وصار يترصدها بشكل يخيفها احيانا. اليوم لاحظت يارمو يتعقبها من بعيد عند السوبرماركت بأتجاه موقف السيارات، لو سألته عن سبب وجوده، لادعى نيته زيارة اخته. ارادت ضرب رأسها بشئ صلب، الصراخ بصوت عال:

ـ حتى انت يا يارمو؟

لم تنظر اليه، سوى كونه، اخا لها، مثل اخته تاريا، التي كانت لها حجرا صلدا، في قاع ايام ضياعها اللزجة، بعد ان راح عثمان يسومها العذاب. لولا تاريا ودلسوز لما استطاعت ثاوات الوقوف على قدميها. كانت تاريا تقول لها:

ـ أنسِ... أنسِ كل شئ وانظري الى الامام.

وتفرد لها اصابعها الى الامام، باشارة موظفي المطار وهم يحددون مكان الطائرة على مدرج الطيران. كان يارمو لاهيا عنها، بعمله وصديقة له تقيم شمال فنلندا، تعرف اليها خلال احدى رحلات العمل وهو ينقل بشاحنة الشركة التي يعمل فيها سائقا بضاعة الى شمال البلاد. يوما سالته بفضول:

ـ اين تقيم حبيبة قلبك؟

ضحك، وهمس بغموض:

ـ هي جيران بابا نوئيل، تقول انه عمها.

لم يكن يارمو متفرغا لها ولا لمساعدة اخته في رعاية ابيهما المسن. كانت ثاوات تجد حرية اكبر في المجئ لزيارة تاريا في اي وقت تشاء. والد تاريا العجوز كان قليل السمع، و يقضي نهاره، في الجلوس امام شاشة التلفزيون، متابعا البرامج الاجنبية، مستفيدا من شريط الترجمة المكتوب. تأجل ارسال ألعجوز الى ماوى المسنين، بانتظار قرار يارمو بالانتقال للعيش مع صاحبته. كانت تاريا ترغب بارسال والدها الى ماوى المسنين لينال رعاية اكبر، فعملها يدفعها احيانا للتأخير، ويارمو كثير الغياب، دون اشعار بالذهاب او العودة، فكانت تاريا تخشى موت والدها لوحده دون وجود احد الى جانبه. يارمو بدلا من اعلان قرار الانتقال للعيش مع

صاحبته، اعلن انفصاله عنها، وصار يقضي جل وقتـه في المنـزل كئيـا واجمـا وانتقـل للعمـل في شاحنات نقل داخل العاصمة، فتغيرت كل الامزجة والبرامج. تغيرت تفاصيل علاقة ثاوات مـع تاريا، وتغير جدول الزيارات واللقاءات. صارت لا تملك الحرية الكاملـة لزيارتهـا كمـا الـسابق. صارت ثاوات تجد يارمو الكئيب امامها كل يوم، وكانت تلاطفه معتقدة انها تساعده في الخروج من كآبته، ولم تنتبه الى مخاطر ذلك الا بشكل متأخر. اوصلها يوما الى شـقتها، وحـاول دعـوة نفسه الى داخل الشقة. على عارضة الباب، وبحزم وضعت أمامه ساعدها، فسأل بكل بساطة:

ـ اتخشين مـني؟

قالت له ثاوات بصوت واثق وخفيض وعينها على باب جارها التركي:

ـ ليس منك، ولا من غيرك، ولكن لا تنس انا فتاة شرقية مسلمة.

فبحلق بها كما المذهول:

ـ ولكنك تختلفين عـنهم.

فضحكت بصدق:

ـ ومن قال لك ذلك؟ في عروقي يسير عصير ذات الدماء التي طبخت تحت نفـس الـشمس. فقط ان دمائي وبسبب عشرتي معكم اختلطت قليلا بمياه اوربية وهواء فنلندي، فصار لها طعم يختلف قليلا.

ورفع صوته بأستغراب:

ـ لكنك دائما معنا في البيت وفي خارجه.

وتمالكت نفسها حتى لا تغلق الباب بوجهه:

ـ معكم، وليس معك، وفي بيتكم وليس بيتي. ارجوك لا اريد الجيران رؤيـة رجـل في شـقتي حتى لو كان انت، ستجلب لي بذلك المشاكل.

وانصرف، غاضبا، معتبرا طرده اهانة، وعدم احترام. في اول الـصباح، وقبـل شـرب ثـاوات لفنجان قهوتها، طلبتها تاريا بالهاتف للتباحث معهـا في الامـر الـذي ظنتـه بـسيطا وعـابرا، وليصيبها الوجوم، من اعتراف تاريا بان يارمو حدثها بكل شئ:

ـ لا اخفي عليك، باني اعرف بميل وتعلق يارمو بـك مـن فـترة. حاولـت ثنيـه لانـي اعـرف ماهية تفكيرك، ولاني اعرف قلق يارمو. لم احدثك بالامر لاني اعتبرت الامـر قـضية شخصية وهو قادر على مفاتحتك بعواطفه، لكن ما حدث البارحة، لـن يجعلـني اسـكت. جـائني يـارمو منهارا، يطلب مـني مفاتحتك بفكرة الزواج منه.

وهرعت ثاوات مفجوعة الى دلسوز وهي تنوح:

ـ دله[٩٢]... انقذيني. هناك من يريد الزواج مني.

وضحكت دلسوز حتى مالت:

ـ اخيرا، ستتخلصين من البرد وينقذك من حيرتك والتقلب وحيدة في السرير. ستتخلصين من الحيرة اذا تابعت افلام اخر الليل حائرة ماذا تفعلين، وسيكون لك شئ ساخن بين..

ولم تترك دلسوز تكمل جملتها. من شدة نقمتها، دفعت دلسوز لحد كادت ان تسقط. رغم ان دلسوز نادرا ما تمزح مع أمراة غيرها. كانت دلسوز اليوم بمزاج رائق. وسرعان ما فغرت دلسوز فاها حين عرفت اسم العريس. قضتا كل المساء تتحدثان في الموضوع. لم يعد زواج أمراة عراقية من رجل اوربي مشكلة. كثير من الرجال العراقيين تزوجوا من اوربيات. الامر دائما اسهل عند الرجال. حتى بين النساء تكسرت تلك الجدران. عشرات الشابات العراقيات تزوجن من شباب اوربيين. في هلسنكي، حضرت ثاوات عرسا لشاب مهندس فنلندي، كانت عروسه الكردية سعيدة مثل ملاك، رغم ان والديها وقفا واجمين، يستقبلان المدعوين. فرضت الفتاة عليهم الامر بحدة:

ـ بدون موافقتكم ساتزوجه. القانون الى جانبي وانا حاملة جنسية البلد. اذا وجدتم فيه ما يعيب اخبروني، وسأتركه.

ولم يكن هناك ما يعيب، لكن التقاليد هي التي تمنع. لم يوجه الوالدان كثير من الدعوات. كان هناك فنلنديين اكثر من العراقيين. وامتنع بعض العراقيين من الحضور، خوفا من كون حضورهم يجعل الامر طبيعيا ويشجع بناتهم على الاندفاع في نفس الطريق. قالت لها شادمان علي، التي كانت حاضرة هناك:

ـ كان قرار مباركة الزواج شجاعا من الاب الذي اراد ضمان سعادة ابنته، فالاقارب للاسف معارضون كلهم.

بعد ايام من الحفل، سمعت ثاوات امراة تقول:

ـ لم يعد لدى رجالنا...

وخفضت المراة صوتها واطلقت كلمة، لم تسمعها ثاوات لكنها فهمتها، وهي تسمع ضحكات النساء الجذلات. شعرت ثاوات بالغضب. كانت تود قول شيء، لكنها ضبطت نفسها، والا ظنوا انها تنوي ذلك ايضا.

قال كريم مطرود مرة:

ـ النفوس المريضة تطلق الاشاعة بسهولة، ويظل الانسان الصالح طول حياته يعاني من تكذيبها.

هاهو يارمو يلاحقها بحبه مع العرض بالزواج. صارت تخشى التورط بأشاعة ما. ليس في يارمو ما يعيب كرجل. شاب وسيم، بعيون زرقاء، وشعر اشقر، مثل ابطال السينما. حين راقصها مرة، في عيد ميلاد اخته، لاحظت كيف كان يحاذر الالتصاق بها، زاد ذلك من احترامها له، وجعلها لا تراقص سواه في الحفلات العائلية. حصل وراقصت غيره، فاحست بهم كيف يستنشقون عطرها بحركة ذات معنى. أو يحركون اطراف اصابعهم على كتفها، او من يدفع صدره بحركة ساذجة للاحتكاك بنهدها. فكانت تخبرتاريا بذلك فيغرقان بالضحك لمراهقة رجال يبدون وقورين. كانت ناوات تنظر الى يارمو باحترام كبير. علاقتها مع تاريا صارت تتعزز كل يوم. صارت لديهما معا اكوام من الاسرار. لم تكن ناوات تخشى من يارمو يوما شيئا سيئا، وان حاذرت الظهور معه في مكان عام. حين ينسى نفسه، ويعاملها كفتاة اوربية، كانت تذكره بالخطوط الحمراء بينهما. كان يفهم بسرعة. لم تدر ان كل ذلك التمنع كان دافعا له لاحترامها اكثر والتعلق بها، ويوم سكر وجاء يطرق لها باب شقتها بدون سابق انذار، طردته وتركت العمارة وهربت الى دلسوز، وهي تجهش بالبكاء خائفة

ـ دله، حبيبتي، لو علم اهلي سيقتلوني، سيظنون السوء بذلك، من يمكنه اقناعهم بأنه شقيق صديقتي، وانه كان سكران، وانه تصرف بحرية كرجل اوربي و...

وانقطعت ناوات لفترة عن زيارة تاريا، التي صبت جام غضبها على اخيها، الذي اختفى لاسبوع، لا احد يعرف باخباره. وحين التقت ناوات بتاريا، قالت لها بأختصار:

ـ لا املك شيئا ضد يارمو، ولكن كوني مطلقة، فأن زواجي من فنلندي، أي فنلندي، سيجلب لي المشاكل مع اهلي وبين الناس، سيشاع اني طلقت من اجل هذا. افهميني يا تاريا لو كان لي خيار الزواج من فنلندي، فلن اجد افضل من اخيك يارمو.

وجاءتها دلسوز بفكرة الزواج من فوزي:

ـ اسمعي، ما دمت لست مقتنعة بالزواج من الذين تقدموا لك، واسبابك مقنعة، ما هو رايك بشاب عربي، ليس فنلنديا ولا روسيا، نقترحه عليك وعليك التفكير، واهلك سيوافقون لانه مسلم. ما رايك بفوزي عطية؟ هو انسان محترم والف من تتمناه ولديه عمل رسمي، وفارق السن ليس كبير بينكما. أبي كان اكبر من امي بعشرين سنة، وهو يكبرك فقط باربعة عشر عاما، وهذه شادمان علي زوجها يكبرها بثلاثة عشر عاما، وهو عربي ايضا!

وحارت ناوات وتألمت. اي حياة هذه التي لا تمنح المرأة الشرقية الطمأنينة ما دامت بدون رجل؟ أيحسبون عثمان رجلا، وهو الذي كان يمكنه بيعها لو تطلب انجاح صفقاته؟ ام ان فرمان رجلا، وهو يبحلق بها كل مرة يقابلها بشكل يدعوها للغثيان؟ او ذاك الملا حسين، الذي صدمها عامدا في محطة المترو ليكلمها تحت ستار الاعتذار، وليهرع بعدها الى شاخوان، مصطحبا جيش من الرجال ليسأل مِن مَن يمكنه خطوبتها، وهو الذي لم يمض سوى شهور على زواج ابنته التي تكاد تكون بعمرها؟ في حفل النوروز الاخير، اصطحبتها دلسوز بالقوة، مجبرة اياها على ارتداء الزي الكردي:

ـ دع ثيابك الاوربية، لوقتها المناسب. انت تحبين عيد النوروز وتعتزين به مناسبة قومية. اعرف ان لك ذكريات عنه في طفولتك ومراهقتك، واعرف انك راقصة ماهرة. كل هذا اعرفه من ثرثرتك، لكن حفل النوروز، ومع وجود هذا الكم الهائل من الناس، مناسبة جيدة ليراك الشباب العزاب ولتراك العوائل وانت بجمالك بثيابك القومية. ناوات، حبيبتي، تعرفين حبي لك،انت بمنزلة اختي الاصغر، الا ترين الامهات كيف يستعرضن بناتهن المؤهلات للزواج؟ الا ترين البنات يرتدين كل ذهب امهاتهن لتبدو الواحدة منهن عروسا غنية، تعالي عسى ان نجد لك عريسا طيبا!

٥

كان شاخوان يشعر بالاسى لما وصلت اليه حالة مروان من توتر وطريقة عنيفة لحل الامور. لم يكن يعتقد ان فوضى ومرح نوري يمكن استفزاز مروان بهذا الشكل. عند باب المطعم اقترب شاخوان من كريم مطرود، وهمس باذنه، بشكل يشبه الاوامر:

ـ سأخذ نوري معي وابتعد عن المكان، خذوا مروان معكم حتى يوم الغد. سنتهاتف لاحقا.

هاهو نوري الى جانبه صامتا كأنه قد من حجر. فهم شاخوان بأن نوري لم يكن بحاجة لمزيد من التوتر فتشاغل عنه بمتابعة الطريق وتبادل اطراف الحديث مع عباس جامعة، الذي رافقه طالبا انزاله عند اول محطة مترو.

ـ السيارة مع الاولاد وامهم، فضلت ان احرك ساقي قليلا.

لم يكن نوري مصيبا بما فعل. ابدا. يذكر شاخوان جيدا، ان مروان مل تكرار نوري لتلك القصة السقيمة، التي يحاول فيها نوري اخفاء غدره بمروان. كان في سلوك نوري يومها شيئا من نذالة. عبثا يحاول تغطية ذلك بصور كاريكاتيرية يعكس عن سذاجة مروان. احتار شاخوان تماما

مع هذا النوري!! ما الذي يدفعه للاصرار على ارتكاب مثل هذه الاخطاء؟ أهو طبع ام تطبع؟ سنوات وسنوات، كان شاخوان يرى ويلمس بنفسه اخطاءه، في عيون اطفاله، الذين كانوا يخافونه حين يصرخ بأمهم، ويرفع يده احيانا لتتوقف في الهواء في منتصف الطريق وهو يصرخ:

ـ استغفر الله... استغفرالله!

كانت تلك كلمة والده، التي طالما رددها، كلما توقف عن ارتكاب خطأ ما، كأن يهم بضربهم، او اطلاق شتيمة بحق احد ما. كان والده، فلاحا بسيطا، ارتبط بالارض، وامتلك حكمته وطيبته من علاقته بها. يفكر شاخوان بكل ما يجري، فيرى أن الطمع هو من يدفع بنوري للاساءة الى مروان تكرارا، بل والتصرف بنذالة معه، وليس الشهوة وحدها. الطمع بسلب الاخرين ما عندهم ليبدو هو الافضل بينهم. ومن اجل التباهي بأنه الاحسن. للحفاظ على هذه الصورة يفعل نوري كل ما يشاء. وجد شاخوان ان نوري في سلوكه هذا يشبهه كثيرا في تلك السنوات البغيضة، حين كان الطمع يحركه ليبدو زير نساء، غنيا ووجيها بين الاخرين. كم من صفقات تجارية عقدها مع عثمان وفرمان وغريب، دون معرفة الناس بانه كان لسنين طويلة شريكا لهم؟ وحين حاول عثمان توريطه مع المايسترو لولا تحذير ثاوات في الوقت المناسب؟ كم مرات كان مروان يرجو نوري الكف عن ايذائه والسخرية به متشبثا بالمحبة، ونوري اللعين، تتملكه روح سادية غريبة لمواصلة ايذاء مروان؟ طوال الفترة السابقة، وكلما تتوفر المناسبة، كان نوري العبثي، الساخر، لا يكف عن المزاح وتكرار تلك القصة التي صارت سقيمة لكثرة ما قصها الاخرون مع اضافات ورتوش ينال بعضهم فيها من نوري نفسه. تلك القصة التي حين سمعها كريم مطرود لاول مرة، لم يضحك، بل نظر باندهاش وسأل فوزي:

ـ وكيف قبل مروان بذلك؟

فاجابه فوزي:

ـ جمع حاجياته وترك هلسنكي للابد!

كان نوري، يكرر الحكاية مرارا بدون ملل. تلك الليلة، التي يعتبرها كريهة، وبعد التعارف الى الفتاتين، وكانتا صديقتين حميمتين، باهرتي الجمال، دخلتا المشرب بفوضى يلفت الانتباه، بذل جهدا كبيرا، وقام بالعديد من المناورات، حتى دعاهما الى البيت للعبة شطرنج وكأس شراب، فاستساغتا الفكرة بسرعة. كان مروان حاضرا، ومطواعا في تنفيذ توجيهات نوري، على امل استدراج الفتاتين ليقضيان الليل في شقتهما. ولاستكمال فكرته خطط نوري مع مروان لسهرة حمراء مشتركة. مع استجابة الفتاتين السريعة، وانطلاق اساريريهما، سارع مروان ليختار

صاحبة الشعرالاحمر، التي كانت تكرر بأنها لاعبة شطرنج ماهرة، واصطفاها لنفسه. لم يجد نوري وقتا للمحاججة فترك مروان يجلس طوال السهرة الى جانبها، ويسقيها بنفسه، محاولا الظهور بمظهر الجنتلمان. في الشقة، وبعد ان خسرت ذات الشعر الاحمر دست الشطرنج وتهاوى ملكها سريعا امام حصان نوري، ونفذت زجاجة النبيذ الوحيدة، فجأة، وبدون مقدمات نهضت ذات النظارة الطبية، لتعلن انها قررت العودة الى بيتها. طوال الطريق في الترامواي كانت ذات النظارات الطبية تجلس الى جانب نوري تتبادل القبل معه بحرارة وسط نظرات احتجاج امراة عجوز تجلس قبالتهما. لاحظ مروان ان الاجواء بدأت تسوء، من وقت ان دخلت الفتاتان الحمام معا، وتصاعدت الشتائم المتبادلة من هناك دون معرفة السبب. لم يبد مروان اي قلق حين اعلنت صاحبة نوري عن الانسحاب. كان مروان هادئا، منتشيا، بشئ من التشفي كون نوري، زير النساء، سيقضي ليلته في فراش بارد، بينما هناك انثى ستملأ له فراشه دفئا، وسيطيح بكل قلاعها في سريره. قبل مطالبة ذات النظارات الطبية الاتصال بسيارة التاكسي ليعود بها، طلبت لاعبة الشطرنج مزيدا من النبيذ. ارتبك مروان. زاغ نوري ودخل الحمام ليستحم، وخوفا من ان تضيع منه ليلة حمراء، استاذن مروان ذات الشعر الاحمر ليجلب لها ما تريد من اقرب مطعم، ووجد الفرصة ليصاحب ذات النظارات في تاكسيها ووعد بالعودة بالنبيذ وبعض المقبلات على امل سهرة حتى الصباح. بعد اكثر من نصف ساعة وهو يعود مسرعا، منتشيا بكأس الفودكا التي تناولها سريعا عند البار، ومتوجسا من ضجر فتاته في غيابه، وفي باله ان نوري لا يزال في الحمام، فهو بطئ جدا في الاغتسال. حالما دخل مروان الشقة، سمع ضحكا وصياحا يصدر من داخل الحمام. لم يكن صعبا ليعرف بأن ذات الشعر الاحمر في الحمام مع نوري، وان تلك الصيحات هي صيحات الاثارة والشهوة يطلقها الطرفان وهما يمارسان الجنس هناك. كان نوري ودون علمه بدخول مروان يصيح بنشوة:

ـ كش مات... كش مات!

هذه الصيحة، التي قيلت بعد ذلك، مرارا بقصد المزاح، صارت شتيمة بالنسبة لمروان ويمكن العراك بسببها لو قالها احد لاغاضته. ليلتها لم ينتظر مروان من نوري تفسيرا لما حصل. جمع اغراضه، وعلى طاولة الهاتف ترك مبلغا بحصته من ايجار الشقة واختفى.

اوضح نوري مرارا، لكل من حادثه، ولمروان نفسه، فيما بعد، ان لاعبة الشطرنج، دخلت عليه الحمام عارية بحجة الاستحمام معه، ولتخبره بأنها صرفت صاحبتها خصيصا لاجله، لانها اختارته من اول السهرة ليكون لها، ولكن صاحبتها سبقتها اليه، وحالما دخلتا الشقة، وفي

الحمام عرضت عليها التبادل بهدوء، ولكن صاحبتها رفضت غاضبة، ناكرة عليها ما تفعل فكان ان غادرت، فلم يعد امامها سوى ان تفكر قليلا: هل تلحق بصاحبتها ام تنتظر؟ وكان حظها حسنا بعدم وجود مزيد من الشراب وكون صاحبه طيبا جدا وبريئا، فغادر لينفذ طلبها ويمنحها ربع الساعة المطلوبة للفوز به. كرر نوري بان الفتاة اعترفت امامه بانها نادرا ما تلعب الشطرنج، بل ولم تمس احجاره من ايام دراستها المتوسطة. مروان من جانبه قال لهم، بصدق، وهو يكاد ينحب، وبعد سنة من الحادثة:

ـ فظيع، فظيع ما حصل. انا لا استبدل اهلي واصحابي من اجل امراة عابرة، ولا من اجل كل نساء الدنيا، ولو كان طلبها مني مباشرة، مثلما فعلت الفتاة ذاتها بأن صرفت صاحبتها، لكنت تنازلت له عن طيب خاطر، امثالهن يملأن المراقص كل ليلة، تصور اننا حتى لا نتذكر اسمائهن، لكن ان يستغفلني وانا صديقه الذي امنته على روحي واسراري وجعلته بمنزلة الاخ، فظيع، فظيع، يا للاسف.

تطلب جهدا كبيرا لاصلاح ما بدر من نوري، ووجد شاخوان نفسه يدخل على الخط، خاصة بعد لجوء مروان اليه، طالبا منه المساعدة في عمله الجديد:

ـ اعرف شخصا في تامبرا، سيترك عمله مع صاحب مطعم تركي، وسيترك لي محل سكنه ومحل عمله، صاحب المطعم يريد مني شهادة خبرة، هل يمكن منحني شهادة جيدة؟

ووجدها شاخوان فرصة، ليضع نوري ومروان وجها لوجه مرة اخرى. كان مروان طيب القلب، ظل فترة طويلة شاهدا على كل حياة شاخوان السرية، وعلاقاته النسائية الصاخبة، لكنه لم يحاول التدخل يوما ما في شئ. يقوم باعماله في المطعم مثل خادم مطيع، وكان شاخوان يجد في ذلك لذة، وهو يوجه اليه الاوامر بطريقة عسكرية. كان مروان لا يتذمر، وحين يتعرض اليه احدهم، كان لا يجد غير تكرار:

ـ فظيع، هذا الانسان فظيع!

حين صار مروان شريكا لصالحب المطعم التركي، تصاعدت الكثير من اقوال الحسد والغيرة عند البعض، لكن اكثر ما اغاض مروان، ذلك المزاح الثقيل من البعض بدوافع خبيثة:

ـ على مروان تسمية مطعمه "كش مات"!

وتطلب من شاخوان بذل جهد لعقد الصلح بين الاثنين، واستجاب مروان بعد ممانعة، لكن نوري اراد تهديم كل شئ في اول لقاء:

ـ بدل الزعل مني، المفروض تشكرني وتشكر قضيبي الجبار، لان بسبب افعال قضيبي ونذالته هربت حضرتك الى تامبرا وانفتحت عليك ابواب الخير وسيقان بنات تامبرا.

وسكت مروان على مضض. صار قليل التردد الى هلسنكي. ابتعد عن الجميع وصار يمنح جل وقته الى عمله وانشغالاته، حتى وصول اخبار زواجه. شعر نوري بالذنب، كيف يتزوج مروان دون اشعاره ودون التمكن من حضور زفافه؟ في مبادرة مفاجئة، طلب نوري سيارة شاخوان الذي سر لذلك كثيرا، وبادر ليملأ له خزان السيارة بالبنزين. بدون موعد سابق وصل نوري مدينة تامبرا. انهمرت دموع مروان وهو يرى نوري في باب مطعمه فاتحا ذراعيه، محملا بالورد والهدايا، مسد لحيته الطويلة، بسمل وحوقل، ورفع يديه الى السماء شاكرا ربه، وهو يقرأ الفاتحة. ■

٦

في قطارالضواحي، في طريقهما الى كيرافا، قال لهما مروان بكل بساطة:

ـ جئت لاكمال بعض مستلزمات طلاقي من زوجتي.

وتبادل فوزي النظرات المعبرة مع كريم، الذي فهم اضطراب مروان طيلة ايام وجوده في هلسنكي بينهم رغم كل الرعاية التي يلقاها من قبل الاخرين، خصوصا من شاخوان ونوري. واعتقد انه فهم سر عدم حديث شاخوان عن اسباب زيارة مروان، وايضا اسباب فوضى سلوك نوري، الذي تصرف بحمق وهو يحاول اخراج صديقه من حالة حزنه، فبدلا ان يكحلها عماها. ود فوزي لو انه استطاع الهمس باذن كريم:

ـ هاهو عراقي اخر سيتحدث عن الفوارق الثقافية عذرا لاخفاقاته في حياته الزوجية.

اذ لم ير مروان من فوزي وكريم تعليقا على تصريحه لهما بأمر طلاقه، او سؤالا لما قاله لهما، والذي توقع ان يثيرهما ، أكمل بصوت هادئ:

ـ لا يوجد عندي ملاحظة على سلوكها، فهي امراة طيبة ومحترمة، وهي من ساعدني على تكوين نفسي، ولدينا ثقة متبادلة طوال فترة علاقتنا، ولكني اهتديت اخيرا الى طريق الحق والى ربي، واريد ان اعزز ايماني بالحج، واتزوج من امراة مسلمة، عرضت عليها اعتناق الاسلام لنكسب كلانا ثوابا من الله رفضت بشدة وصرنا نتشاجر كل يوم، فاتفقنا على الطلاق، بدون مشاكل اكبر.

وفغر فوزي فمه وحاصره شئ من الضحك راح يقاومه. صار يفهم سر تخبط نوري في سلوكه مع صاحبه مروان المؤمن. كان نوري موزعا بين محبته لمروان والسخرية منه. رجل مثل نوري لا يستوعب فكرة الهداية من شخص مثل مروان لطالما هو واياه مارسا افعالا لا يجد نوري

غضاضة في روايتها. مع مروان لطالما عاشا "ليالي السندويش"، كما يسميها نوري. حين سمع فوزي لاول مرة بالتعبير، تصور ان الشاب يدعو الشابة الى اكلة سندويش عادية، خبز وسلاطة ونقانق، وحار في سر الاكلة وعلاقتها بالجنس، وضحك منه الاخرون، لحد اثارت غيضه. وتبرع من شرح له كيف ان فتاتين يمكن ان تصحبان شابا وتضعانه في السرير بينهما، ويعيشان ليلة يكون فيها كل شي مباحا. بوجود مروان في الشقة مع نوري، ولاكثر من مرة صارا طرفا في لعبة "السندويش". صار سرير النوم يشهد حفلات جنس صاخبة بوجود فتاة او فتاتين او حتى اكثر. حين يتحدث مروان الان عن الهداية والحج وطريق الحق، يقدر فوزي شعور نوري وهو يرى صاحبه يترك خلفه كل ذنوبهما المشتركة تاركا اياه وحده يتحمل وزرها. كم صار فوزي يأسف لكل ما يحصل مع مروان. يتذكر فوزي كيف سمع بواحدة من قصص مروان لاول مرة. اي شعور بالالم ولد ذلك في روحه، وكيف احتقن غضبا. سمع القصة من شاخوان حين ثار شاتما ما فعله صدام بتهديم اخلاق الناس. حين سأله عن اسباب ثورته، حكى له ما يفطر القلب:

ـ تصور ان الاخ الكبير من العراق يتصل بأخيه الاصغر في فنلندا، وهو شاب هادئ، وفقير، من اهل الله، اسمه مروان، شاب من اهل الرمادي، تعرفه، ذاك الشاب الذي عمل معي لفترة، ثم اختلفنا. وليقولوا له اخيه الاكبر ان ابوك مريض. يهرع المسكين مروان ليستدين ما يقدر عليه، ويرسله لهم عبر الاردن ووسطاء يعرفون كيف يبتزون عملاءهم وياخذون عمولات خاصة. بعد ايام تتصل الاخت الكبرى، وبعد دموع وعبرات، تطلب المزيد لان الاب دخل المستشفى، ويقترض مروان مبالغ جديدة ويرسلها. وبعد اسبوع يعاود الاخ الاكبر وهو ينحب ليخبر مروان بان عملية جراحية ستجرى للاب وان الطبيب يقول اليوم قبل الغد. ومروان طبعا يواصل اقتراض الاموال اللازمة وارسالها. استدان المسكين من كل معارفه، وجاءني خجلا مترددا فقدمت اليه ما تمكنت منه، كل ذلك ليضمن المسكين حياة ابيه الذي حرم منه. لكن للاسف، هاهي اخته تتصل به نادبة وناحبة لتطلب مصاريف مراسيم دفن ومجلس فاتحة والده. ولبس مروان الاسود، واقام مجلس عزاء صغير، حضرناه، لكننا جميعا لم نكن نعرف ما هو التالي من القصة. يتصل الاخ الاكبر، يطلب مصاريف بناء قبر الوالد، وتتصل الاخت الكبرى تطلب مصاريف مجلس عزاء الاربعين. ومروان يستدين، ويعمل بالاسود ليل نهار ليسدد ما يرسل. نبهه نوري يومها بانه يرسل مبالغ كثيرة، وان ديونه صارت ثقيلة، وتجعلهم هناك يظنونه مليونيرا وقادرا على كل شئ، فكان يقول "اخوتي مساكين فجعوا بأبي، لا اريدهم ان يحتاجوا لاحد غيري". ويوما يرن تلفون مروان، ويكون والده على الخط. تصور، الاب بذاته، وكاد مروان

ان يجن "ابي، من اين تتكلم؟" ويجيب الاب وهو يجهش بالبكاء "من الجيران الطيبين يا ولدي، ناس اشراف دبروا رقم هاتفك وساعدوني لاتحدث معك، لماذا يا ولدي، لا تسأل عني، ولا يهمك امري، وانا مريض لوحدي، والناس تتصدق علي". ويصرخ نوري "واختي واخي، اين هم؟" فيرد الاب بحسرة "لم ار وجوههم يا ولدي من شهور طويلة. كان اخوك يزورني كل شهر مرة، والان توقف، ارحمني يا ولدي، افعل شيئا". هل سمعت بمثل هكذا فنتازيا يا فوزي؟ الاخ والاخت في بغداد متفقين وموزعين الادوار بشكل جيد بينهما لسلب مروان كل ما يمكنهم!

ويحدق فوزي الى مروان، اهو حقا ذاك الشاب الذي استغفله اخوانه بشكل جارح، وسلبوه ما ادخره، وجعلوه يعمل لاكثر من عام ليسدد ما ارسل لهم؟ هاهو يتحدث بثقة، عن الحق، والنور والايمان. طلق زوجته لانها لا توافقه في مسعاه، وبعد شهور سيكون اسمه الحاج مروان. وربما يطلق لحيته اكثر، ولا تكون له علاقة بذاك الفتى بطل "ليالي السندويش"، الذي سرق له نوري فتاته من سريره ليضاجعها في الحمام. ما هو فهمه للدين، وللاسلام، والحياة؟ هل سيكون مروان رجلا صالحا يهدي الناس للحق والعمل الصالح، حسب تعاليم الاسلام الحقيقية التي جاء بها النبي محمد بن عبدالله، والتي تدعو للسلام والتسامح والعدالة الاجتماعية؟ ام انه سيرتدي لغة التشدد والسلفية ثوبا ويكفر كل من خالفه الرأي، ويتزنر بحزام الاسلام السياسي ليبحث عن عصي يضعها في عجلة تقدم الحياة؟

مرارا خاض فوزي احاديثا عن نشاط الدعاة المسلمين في اوربا، وكان ينظر بحذر الى النشاطات التي تمول من مصادر سلفية صارت معروفة يوما بعد اخر.

- الصحافة في هذه البلاد حقا لا ترحم ولا تجامل احدا.

يقول كريم، فيرده فوزي:

- هي الشفافية التي ننشدها يا صاحبي، وحيوية السلطة الرابعة.

سمع فوزي تفاصيلا عن نشاطات جهات رسمية لدعم بناء مسجد كبير في مدينة توركو، ولكن المشروع توقف لاسباب لم يعلن عنها تماما، لكن الاشاعات اشارت كون الجهات الرسمية الفنلندية تحفظت على جهات تمويل المشروع. مضت الاشاعات اكثر وقالت ان الممول جهات اسلامية سلفية، و الحكومة الفنلندية خشيت امتلاك القادة الارهابيين واجهة علنية لهم في البلاد، واحداث ١١ ايلول لم تزل ماثلة في اذهان الناس. في ندوة دعاهم لها ابو الحسن العدناني، لداعية اسلامي، اقامتها جمعية اسلامية تحت عنوان فضفاض "نحن والثقافة"، اسرع فوزي مع كريم، واخرون. هناك، في المكان الذي غطت جدرانه الايات القرانية، وجدوا الكثيرين من

معارفهم قد سبقوهم. كان هناك حسين الزوراني، الطبيب زراد شت، يوسف ابو الفوز، ومنتصر هادي وسالم غفور. كان العراقيون يبحثون عن طرق وسبل لجمع وتوحيد كلمة العراقيين للعمل المشترك، وتحشيد الطاقات ضد نظام دموي همجي اذاق العراقيين المر والعذاب، وكانت فكرة ابو الحسن العدناني، حين قال:

ـ يا اخي تعالوا، واسمعوا الناس، هم يعرفون تماما من انتم، انا حكيت لهم عنكم، الستم تدعون الى لجان تنسيق بين القوى السياسية، تعالوا وان توفرت الفرصة قولوا افكاركم وبرنامجكم.

في الندوة تحدث الداعية الاسلامي عن الجهاد ضد من لا يؤمن بالله، واهمية جمع التبرعات، واشار الى امور لا علاقة لها بعنوان الندوة. كان اسلوبا ذكيا لجمع الناس والحديث بامور دينية مختلفة، اخر ما موجود فيها هو كان موضوع الثقافة.



غادرت ئيفا المكتبة العامة لباسيلا، وهي تحمل بين يديها عددا من اسطوانات الموسيقى. لم تزل تعيش تحت خدر لحظات مصاحبة نوري لها الى مخزن الملابس القريب الى سكنها. لا تدري لو كانت امها حية، كيف ستنظر الى الامر وهي التي كانت تتهمها دوما، بكونها لا تملك ما يكفي من الجرأة:

ـ احيانا، قد ترتكب المراة حماقة ما، ولكن يجب ارتكابها بجراة، الرجل قد يحب في المراة ضعفها، ولكنه اكثر يحب منها جرأتها.

واتتها الجرأة لتطلب نوري بالهاتف وتدعوه:

ـ ثمة تخفيضات في الاسعار، وددت شراء شيئا لنفسي، قلت لربما بأمكانك مصاحبتي او تجد شيئا تحتاجه لنفسك.

وشعرت بالاسى لتسرعها وحماقتها. ارادت الضحك من نفسها. ماذا ستقول عنها آنو لو عرفت بذلك؟ الفتاة عادة تدعو الرجل الى حفل موسيقي، مسرحي، الى مرقص، اما دعوة رجل مثل نوري، رجل شرقي، الى مشوار تبضع، كان يبدو لها شيئا من جنون. ماذا سيقول عنها؟ تلعثم نوري قليلا، على الهاتف، وعلى غير عادته، لكنه كان واضحا:

ـ عليك معرفة ان لدي هذا اليوم قليل من الوقت لاقضيه معك، فأنا مشغول جدا مع صديق قادم من تامبرا لزيارة هلسنكي، ومساءا مدعوين معا الى عشاء في مطعم صيني، كنت سأدعوك لمرافقتنا لولا ان اللقاء رجالي بحت.

واطلق ضحكة مجاملة، ولكن نوري فاجأها حين سبقها الى مكان اللقاء في الموعد المقترح. ذكر لها نوري مرارا، انه سكن لفترة في منطقة باسيلا Pasila قبل الانتقال الى منطقة كورسو Korso، وعليه فهو يعرف منطقة سكنها جيدا. في محل بيع الملابس لاحظت ثيفا كيف كان نوري يراقب ايقاع حركاتها، وهي تختار الملابس المناسبة، وهي تقلب بصرها بين الالوان، وتتفحص الاسعار والقياسات. كانت تبحث عن تنورة تصلح لاوقات المساء. لم تجد القماش المناسب، واشترت لنفسها نظارة شمسية، وراحت تجربها ونوري يراقبها بصمت وظل ابتسامة خفيفة على شفتيه. خطر لنوري شراء شيئا لنفسه. فابدت حماسها لمساعدته. لم يخف عنها، كيف انها المرة الاولى التي يجد فيها امراة تهتم بأختيار ملابسه بلمسات خاصة. اعجبها ان تختار له فانلة بلون السماء، تصلح للامسيات في البيت. كانت ترى في عيني نوري لمعان الرضا وهي تراقبه يمط رقبته في فتحة الفانلة، ويدور لترى مقاسها على جسده. حين وقفت عند باب غرفة قياس الملابس مترددة في الاقتراب ناداها بصوت ملئ بالدفء. وعندما وقفت في الدور لتدفع قيمة ما اشترت، دفع نوري ثمن كل البضائع، ارادت الاعتراض، همس:

ـ المرة الاولى التي اشتري لك فيها شيئا.

طوال الوقت وثيفا تفكر بهذا القدر، واليد الخفية، التي ترسم لها حياتها. يوم بعد اخر ترى بأن ثمة خيوط ارتباط سرية بدأت تشدها الى هذا الرجل، واذ دفع ثمن النظارة، شعرت بذلك شئ من الدفء العائلي. لا تجد في ذاكرتها شيئا عن ابيها وهو يشترى لها يوما شيئا ما، ولم تصاحب رجلا يوما ليشتري لها شيئا، كان كاري بفظاظة يطلب منها شراء حاجاته دون دفع قيمتها احيانا.هاهو رجل تترقب دوما اللقاء به وفي داخلها كثير من الاطمئنان نحوه. رجل لا تنتظر منه الغدر بها، ولا يطلب منها ما لا ترتضي تقديمه. وفي كل لقاء يبدو لها نوري باحثا عن شئ في دواخلها. يبدو لها مترعا بالاسئلة المتواترة باحثا عن سر خفوت صوتها، عن اجوبة تنتظر وقتا مناسبا لتقولها له. قبل مصاحبتها الى محل بيع الملابس، اخذها الى مقهى "برافدالو"، هو من دلها عليه:

ـ مكان ظريف، قريب الى البحر، وهناك عدة مطاعم، وثمة موقف مجاني للسيارات لمدة ٢٤ساعة، تحت "جسر المافيا"، المقهى اسمه "برافدالو". اسم يبدو غريبا، منحوتا من الروسية والاسبانية، اصحابه اسباني وزوجته الروسية، وهكذا تجدين هناك كل الروس والانضبان مع بعض، فوزي دلني عليه، عرف المكان ايام كان على وئام وصحبة مع امراة روسية. المكان جميل، ليس بعيدا عن "جسر المافيا".

وسألته بفضول:

ـ ولماذا "جسر المافيا" يا نوري؟

التفت اليها باسما، وفي عينيه الذكيتين يطوف شئ من الانشراح:

ـ هذه التسمية ابتكرتها بنفسي، نتداولها بيننا، نحن مجموعة من الاصدقاء. منذ اكثر من عامين، حدث اني اوقفت سيارتي في موقف السيارات تحت جسر "جزيرة الجسر"، وقضينا وقتا انا وفوزي في مقهى برافدالوا. ونحن ننصرف باتجاه موقف السيارة، جرى حادث غريب امامنا، تماما مثل افلام هوليود. كان الوقت نهارا، وفي الصيف الجميل، انت تعرفين، تكون المنطقة مكتظة بالناس حيث الحركة والنشاط، والناس تشع قلوبهم بالفرح، وكان الميناء القريب مكتظا باليخوت، والمطاعم العائمة مزدحمة بالزبائن. شخصيا احب جدا هذه المنطقة، وازورها باستمرار، خصوصا الجلوس في المقهى ومراقبة حركة الناس، ومشاهدة اطراف من هلسنكي، وقباب الكنائس القريبة. يوم الحادث الغريب ونحن نقترب من سيارتنا، كانت ثمة فتاة تودع احد الشباب بالقرب من سيارته، وكان كل شئ طبيعيا وكنا نمزح انا وفوزي حول امر ما، وفجاة وصلت بسرعة المكان سيارتان ظهرتا من لا مكان وتقافز منهما عدة رجال مسلحون، يتصايحون، احاطوا بالشاب والشابة، ارتبك الشاب، حاول قول شيء صاحوا به:

ـ لا نعلم شيئا، هذه اوامر المايسترو!

حاول منعهم، لكموه بقوة والقوه ارضا، وداسه احدهم بحذائه، وسحبوا الفتاة ورموها في المقعد الخلفي لاحد السيارات، وبسرعة تحركوا واستداروا وصاروا فوق الجسر لعبوره بأتجاه منطقة هاكنيمي. حالما تحركت السيارات ركض الشاب الى سيارته، فتح بابها الخلفي واخرج مسدسا ضخما، وحرك سيارته وتبعهم، وبوووم... بووم، بالضبط مثل افلام هوليود تماما. اثار صوت الرصاص الفزع في المكان كله. كسر ايقاع كل اليوم الصيفي الجميل، وانطلقت صرخات خوف من هنا وهناك. انا وفوزي انبطحنا فورا على الارض، خفت شخصيا بشكل حقيقي من الرصاص الطائش، كنا قريبين اليهم. ما ان شعرنا بابتعادهم قليلا حتى ركبنا سيارتنا وهربنا من تحت الجسر بأتجاه معاكس. قال فوزي ربما ستحسبنا الشرطة من عناصر المافيا، ومن يومها سميته "جسر المافيا". الغريب ان صحافة المبياء التي تتصيد حوادث الاثارة لم تشر الى الحادث بشئ، ومصادر الشرطة كذلك، برنامجهم "تلفزيون الشرطة" الذي طالما عرض اخبار الجرائم وتفاصيل دقيقة عن طرق تنفيذ الجرائم باسهاب كبير لحد ان كريم مطرود يعتبره احسن برنامج لتعليم الجريمة، هذا البرنامج لم يذكر شيئا، كان امرا غريبا في بلد يعتبر الاول في الشفافية.

واذ سمعت ئيفا جوابه، كتمت ضحكة ولكنها لم تخف ابتسامتها:

ـ اتدري، سمعت ان كلمة مافيا اصلها عربي، وتصورت انك تقصد شيئا له علاقة بك او بموطنك؟

وضحك بعمق، ولم تستطع الا مجاراته. واذ سمعت منه في مرة سابقة، كونه بحاجة لان يعرفا بعضهما اكثر، قالت له بجرأة:

ـ دعنا من المافيا الان، واسال ما تود معرفته عني اكثر؟

خطر في بالها، ان رجال الشرق، يتشابهون كلهم، في خاصية طرح الاسئلة. سمعت عن هذا عدة مرات. سمعت ذلك من آنو التي رافقت لفترة شابا جزائريا. كانت تقول انها ملت منه، وهربت لانها صارت تنام على سؤال وتفيق على سؤالين. لم ترغب ئيفا بأحراج نوري، بكبح الاسئلة التي تراها تدور في عينيه، من الايام الاولى بادرت لتحكي له بنفسها، كلما يخطر في بالها عن افكارها وماضيها واحلامها. كانها نبع طمرته طويلا الصخور ووجد لها منفذا. لم تعد تشبه نفسها. حتى آنو لاحظت ذلك. حكت لنوري عن نشاطاتها، وحين رأت صديقه فوزي لاول مرة قالت له:

ـ اعرف هذا الرجل.

والتفت اليها نوري مصعوقا، وكانت حركته المفاجئة كافية، لتضع امامها الف علامة استفهام: اين وكيف ولماذا ومتى، الخ، فاسرعت لتقول:

ـ في احتفالات الاول من ايار، العام الماضي، قدم خطابا في مهرجان "منظمة السلام الفنلندية"، كنت هناك مع صديقتي آنو، هي عضوة نشطة في المنظمة.

ووجدت الفرصة مناسبة لتروي له شيئا لم تحكيه له بعد:

ـ هل سمعت بقضية "بنات الثعالب"؟

وهز نوري رأسه باستغراب. وعيونه تقول: هل هي فرقة موسيقية، ام عصابة سرقة؟ فواصلت ئيفا بدون توقف:

ـ كنت اعرفهن ولو عن بعد، كنت اعرف ميا سالي، التي راح اعلامنا الغبي، بدل الحديث عن اصول مشكلة مزارع الفراء يتحدث عن باروكتها وعن البسة البنات المنقوشة برسومات الزهور خلال محاكمتهن. اشتركت في هلسنكي في عدة تظاهرات ضد ارهاب الحيوانات واستخدام فرائهن في ملابس سخيفة. اعرف الان جيدا، ان اشتراكي في التظاهرات من اجل حقوق الحيوان كان اسلوبا للبحث لنفسي عن قضية، بل كنت ابحث عن ذاتي. اكره الحروب واكره مظاهرالجوع والمرض، هذا دفعني للبحث في الصحافة عن نشاطات التضامن مع مشاكل

الشعوب، وفي مهرجانات منظمة السلام التقيت آنو، وتعززت علاقتنا وصرنا صديقتين قريبتين. ايامها لم اعرف كاري بعد، لقائي به كان نكسة حقيقية في حياتي، تصور داعية ومحبة للسلام والتسامح تكون اسيرة قبضة رجل مثل كاري في علاقة ملتبسة. في التظاهرات من اجل حقوق الحيوان قابلت ايضا كيرسي كولتالاهتي، ليس لي صلة مباشرة بها، لكن كنت اراها وارى نشاطها. واعجبت بها وبزميلاتها. يا للاسف تحطمت حياة شابات جميلات لمجرد قيامهن بعمل جرئ للفت انتباه الناس الى الضيم الذي يلحق بحيوانات بريئة. السجن والغرامات الثقيلة ستكون قيودا ثقيلة في حياتهن المستقبلية. بقيت اياما ابكي في سريري وانا اتابع وقائع جلسات محاكمة الفتيات، كنت اسأل نفسي هل يمكن لي امتلاك شجاعتهن، في الذهاب ليلا الى اقفاص الثعالب وفتحها، ومنح الحيوانات البريئة امكانية التمتع بالحرية؟

كانت ثيفا تحرك يديها باضطراب، وترى كيف يتابع نوري حركة اصابعها. تنظر في عينيه الذكيتين وتهجس بان في روح هذا الرجل الساخر ثمة شئ كامن بانتظارها. لم تحاول الايحاء له بشئ في علاقتها به. حاولت ضبط مشاعرها، دواخلها، ترويض نفسها. في ساعات كانت تشعر بالرغبة للنهوض والنوم على صدره والانخراط بالبكاء. كانت تحسه قريبا لها بصمته. كانت تنكمش في كرسيها، وتحكي ببطء، فيدفع بكتفيه العريضين باتجاهها ليقترب برأسه منها ليسمعها، فتشم عطره الهادئ. من فتحة قميصه، كان يلوح لها على طرف كتفه اثار جرح، خجلت سؤاله، وخمنت ان الوقت مبكر لتقدم اسئلة. لاحظت انها لا تزال تعرف القليل عنه. وانها تكاد تكون قد حكت له كل تاريخها. وكانت تشعر بالراحة لذلك. كان كاري لا يحفظ حتى اسم شارع محل عملها. واذ لاحظت ثيفا بأن نوري يلاحق ببصره عقارب ساعته، ورغم انها كانت ترغب بالاستمرار بالجلوس اليه، قالت له بهدوء:

ـ اعتقد ان علينا الانصراف.

بعد زيارة محل الملابس، غادرها، وهو يفرش على وجهه ابتسامة عريضة، تشعر بأن هذه الابتسامة ستكون مفتاحا لتوازن حياتها.

الفصل الثاني

١

كان فوزي ينصت بهدوء الى حوارات كريم مطرود مع مروان السلامي، ولم يشأ ان يتدخل. بدا مروان متشنجا في جمله المضطربة. ربما بحكم ما حدث في المطعم الصيني، وربما بسبب موضوع الطلاق. كان فوزي يدرك ان كريم كفوء بخوض النقاش، والامر ليس عويصا، فلطالما خاضا هو وكريم نقاشات بنفس الاسلوب مع البعض ممن لا يملكون افقا حرا في الحديث، حيث تجدهم متقولبين في نصوص وكليشات جاهزة وثابتة. كانت احداث ليلة البارحة ثقيلة، ومزعجة، وخلفت توترا في النفس مهما حاول احدهم ان يكون هادئا. قبل وصول القطار محطة مدينة كيرافا، اقترح كريم ان يصطحب مروان معه، فلم يعارض فوزي، وحين طلب منه كريم مصاحبتهم ايضا شكره فوزي وتوجه الى شقته، على امل اللقاء صباحا والافطار معا. حين وصلهم صباحا، وجدهما منغمسين في سجال لا نهاية له. يدور من موضوع الى اخر، وان كان في فضاء واحد هو هموم العراقيين ومأساتهم مع نظام دموي ديكتاتوري. بادر فوزي لاعداد الفطور، ومنح كريم الفرصة لمواصلة احاديثه مع مروان التي بدا انها متواصلة من ليلة البارحة. حين يتحدث كريم مطرود، يشعر فوزي، بأن كلماته، تحمل معها، تلك الحرقة التي صنعتها سنوات الالم، والشعور بالغبن والحرمان من الامان والاهل، سواء في التشرد داخل الوطن، ايام كانت كلاب البعث تطارده، او خلال تشرده خارج العراق حتى وصوله فنلندا وامتلاكه شيئا من الاستقرار. عند بعض الكلمات يشدد كريم على مخارج الحروف لتخرج كلماته وكأنها طلقات رصاص. مرات كثيرة كان يشعر فوزي بداخله ان كريم يصلح ليكون داعية سياسي اكثر منه مدرس تاريخ. لم يكن كريم يميل في كلماته الى استخدام الشتائم والكلمات الخشنة، مثل نوري او غيره. عبارات كريم دائما تأتي امينة لروح المدرس، التي تتلبسه دائما، ومسؤوليته امام تلاميذه والناس. مع كريم، اكتشف فوزي حقيقة ما يقال كون المهنة تترك اثرا بالغا على شخصية الانسان. عبارات مهذبة، واعية، تعليمية، ولكنها ليست تقريرية، انها موحية، تخاطب العقل، تعكس اسلوبه الذي عرف عنه بان يترك لتلاميذه ومحدثيه فرصة

التفكيروالمشاركة في الموضوع. حين يتحدث كريم عن فظاعات النظام الديكتاتوري وما يلاقيه الناس من عسف وظلم، كانت كلماته تحتد، وتعبيراته تكون قاسية ولكنه ابدا لا يجعلها تخدش سامعيه. تحت كلمات كريم كان يمكن لفوزي وغيره ان يلمس ان هناك كلمات اخرى يستعر فيها الغضب، كان يمكن لغيره استخدامها لكن كريم لا يريد قولها بنفسه، يترك لسامعه فرصة التفكير بها. لم يكن كريم يتحدث كثيرا عن ماضيه امام الاخرين، لكن مع فوزي،كان يسمح لنفسه بالخوض عميقا في اشياء عديدة. يدخل ذلك السرور في نفس فوزي، كون كريم يخصه بالكثيرمن هواجسه وافكاره، منذ لقاءاتهما الاولى على ارض الوطن:

ـ تصور يا فوزي، يوما جاءني مدير المدرسة غاضبا، لاني تحدثت مع طلابي عن صلاح الدين الايوبي. انت تعرف ان سلطات حزب البعث العراقي بكل جبروتها، وكل اجهزتها المخابراتية الطلابية وما تصرف من امكانيات على اغاني ومهرجانات ومحاضرات وغيره، لم تستطع ان تمسح ذاكرة العراقيين فذاكرة الشعوب لا تقاوم. خصوصا ابناء الشعب ممن يجدون في النظام اكبر مزور لتاريخهم عبر حملة تبعيث المجتمع. ان الشعوب تظل ابدا تقاوم التزييف بحفظ الحقائق وصقلها عبر الذاكرة. وهكذا يوما جاءني، احد تلاميذي المشاكسين وهو شاطر ومجتهد، ليسألني "استاذ كريم، هل حقا ان صلاح الدين الايوبي كردي؟ الرجال كبار السن في حينا يقولون ذلك؟". تعرف يا فوزي اساليب رجالات النظام المخادعة، بعضهم بذكاء لا يذكر مباشرة بان صلاح الدين الايوبي عربي، لكنهم كانوا يدورون حول الموضوع ويتسترون بكونه قائد اسلامي ويتجنبون تماما ذكر كون صلاح الدين من اصول كردية. وكان علي ان اكون امينا مع التاريخ وحقائقه، هكذا علمنا جدك ماركس، وان اكون امينا مع تلاميذي، فهذه رسالتي كمدرس. تحدثت لهم عن نشأت صلاح الدين الايوبي، عن عائلته، وانجازاته العسكرية، وحتى عن ما سجله المؤرخون من انتقادات له، ودعوتهم لقراءة بعض الكتب عنه واعطيتهم اسمائها.

يذكر فوزي انه سأل كريم مباشرة:

ـ الا ترى ان هذا كثير على طلاب بسنهم، وفيه يلمس ايضا شئ من تحدي لادارة المدرسة البعثية بأعتباره تجاوزا للمنهج المقرر؟

وكأن كريم كان بأنتظار سؤال فوزي. ابتسم اولا، لكنه بسرعة اندفع يوضح:

ــ بالنسبة للطلبة. أبدا ليس كثيرا، فأنا عودت طلابي ان لا استهين بقدراتهم وامكانياتهم. وكنت اتبع معهم اسلوب الحث على البحث والمطالعة خارج المنهج. وكانت هذه واحدة من مشاكلي مع ادارة المدرسة. كانوا يريدون من الطلبة ان يكونوا مجرد ببغاوات،

يحفظون ما يملى عليهم، وكنت اسعى لحث قدراتهم واشراك عقولهم في التفكير والدراسة. بالتاكيد كان هناك طلبة كسالى ومشاغبين، كانوا يتحججون بان هذا ثقيل ومرهق لهم، لكن غالبية طلابي كانوا ينتظرون محاضراتي بشكل يثير حسد وغضب بقية الاساتذة الذين كانوا ينفذون سياسة ادارة المدرسة. وكان الاساتذة يستغربون مني حين اتحدث مع طلابي واستخدم معهم عبارات مثل "ومثلما تعرفون..." فحقا، كان غالبية طلابي يعرفون جيدا شيئا من خلفيات حديثي وكان هذا يسبب حرج لبعض المدرسين الذين ناصبوني العداء لعدم امكانيتهم مجارات الاسلوب الذي استخدمه، وايضا لبعض الاساتذة الذين يوافقوني الاراء والافكار التربوية ولكنهم يخافون من عواقب مخالفة تعاليم الادارة. انت تعرف يا فوزي، كيف ان نظام حزب البعث ايامها، استشرس في سياسة تشويه التاريخ وصار هاجسه الاول غسل ادمغة العراقيين من خلال فلسفة تبعيث كل شئ في المجتمع العراقي، وهكذا بدات حملات التشويه المتعمد والتعتيم المظلم على عهود العراق السياسية في التاريخ الوسيط والحديث، والعمل على تشويه تاريخ رجالات العراق المعاصر من زعماء ومثقفين، وتزوير وقائع وثورات، وكل ذلك من اجل ادلجة الخطابات والكتابات التاريخية لتكون منسجمة مع النهج البعثي، وصدرت اوامر رئاسية لسحب كتب ومصادر محددة بالاسماء من المكتبات العامة واحراقها ، ومما زاد الطين بلة، ان اصبح البعض من المؤرخين العراقيين ابواقا اعلامية ودعائية للسلطة، وعليه صار المعلمون والمدرسون محاصرين بسياج من النار البعثية لا يمكنهم تجاوزه، جدار من الاوامر والتشويهات والتعديلات واجبار على استخدام تعابير ومصطلحات شوفينية وطائفية لا يستسيغها العقل المحايد، فكانت الصدامات بين الكثيرين من المدرسين وانتهت اما بترويضهم بالقمع او اسكاتهم بقتلهم وتغيبهم في السجون، او اختيارهم لطريق الهروب للحفاظ على النفس وها انا واحد منهم امامك.

يتذكر فوزي جيدا الاحاديث المتفرقة التي جرت بين شاخوان وكريم حول اسباب مغادرته العراق. كان كريم في البداية يتحاشى ذلك، ولكنه مرة مزح مع شاخوان وقال له:

- كل الذي جرى معي هو بسببكم يا ابناء الشعب الكوردي؟

وانتفض شاخوان، لم يفهم ما يقصد كريم، الذي واصل:

- صاحبكم صلاح الدين الايوبي هو السبب!

كان نوري لا يخفي اعجابه بشخصية كريم، وكان يردد باستمرار:

- ما يعجبني في كريم انه لا يود تقديم نفسه بطلا، رغم انه فيه ملامح من البطولة.

وكان ثمة الكثير مما يمكن ان يرويه كريم ويفخر به عن مواجهاته لرجالات النظام البعثي. كانوا يعرفون كونه مستقلا سياسيا، وغير منضوٍ لاي حزب سياسي، وكان هذا يخيفهم اكثر. كانوا لا يعرفون كيف التعامل معه ومحاصرته، وهم يرون كيف تترك كلماته تاثيرها على الطلبة والاساتذة. كان رجال النظام في الادارة، يعرفون جيدا كيف يتعاملون مع خصومهم من الشيوعيين والاحزاب الاسلامية. لكن مع امثال كريم، هؤلاء الذين يمكن ان يكونوا مثالا للاستقلال بالرأي والعمل المخالف لسياستهم وخططهم، كانوا يرون فيهم خطرا كامنا، فبأي لحظة يمكن ان يقفوا الى جانب خصومهم الشيوعيين او من الاحزاب الاسلامية. لهذا صارت اجتماعات اللجنة الامنية لادارة المدرسة، تعقد اسبوعيا لترى تطورات عملها مع امثال كريم، رغم انهم صاروا يتناقصون. كان مدير المدرسة يطمح لمنصب اعلى في مديرية تربية المحافظة. لم يعد يكفيه كرسي الادارة. فمن معلم في مدرسة ريفية، الى معاون مدير ثم وخلال سنة واحدة الى مدير مدرسة ثانوية، يدير عشرات الاساتذة من حاملي شهادات البكالوريوس، وهو الذي يحمل شهادة معهد المعلمين. كان يرى نظرات السخرية تتناقل بين الاساتذة، حتى من بين البعثيين، وذلك حين يجلس منفوشا في صدرالقاعة في اجتماعات مجلس المدرسين. كان المدير يشعر بالغيض حين يتحدث الشيوعيون. كان الشيوعيون يجدون ثغرة في كل شئ ليوجهوا من خلالها النقد له وللادارة. لم يستطع المدير اخفاء سروره يوم اختفى الشيوعي تركي سلمان مدرس الكيمياء، الذي كان لا يكف عن المطالبة بتوبيخ ومحاسبة الطلبة من اعضاء منظمة "الاتحاد الوطني" لكسلهم وغياباتهم. بعد شهر واذ رميت جثته مهشمة امام منزل داره ساد الوجوم الصفوف الدراسية، واجهش احد المدرسين بالبكاء وهو يسمع الخبر.استنفر الطلبة البعثيون خوفا من ان ينظم الطلبة الشيوعيون وانصارهم فعلا ما. لم يتوقع احد ما قام به كريم مطرود. في بداية الدرس طلب من الطلبة الوقوف حدادا على روح المدرس القتيل. طلب من مجلس المدرسين تشكيل وفد لمقابلة المسؤولين في الدولة والتحقيق في مقتل المدرس. كان الجميع يعرف، انه مات تحت التعذيب في دائرة امن المحافظة، وليس بشكل غامض على يد لصوص كما اشيع من قبل اجهزة السلطة. كان على مدير المدرسة ان يتحرك. فالاوامر عنده تقضي بضبط المدرسة باي شكل. كان الجو السياسي متوترا في كل البلاد. جريدة الحزب الشيوعي العراقي حملت بلاغ اجتماع قيادة الحزب الذي عقد في اذار، وفيه طالب الشيوعيون بانهاء الاوضاع الاستثنائية والتهيئة لانتخابات عامة والكف عن المطاردات والاعتقالات والاسقاط السياسي. كان عام١٩٧٨ مليئا ومكتظا بالاحداث بالنسبة للمدرس كريم مطرود. من شهرين اخبرت محاسن

زوجها كريم مطرود بان الطبيبة اكدت لها حملها، وهاهو زميله وابـن مدينتـه الـشيوعي المسالم تركي سلمان يجدونه مهشما في كيس بلاستيكي كأنه نفاية. كان غضب كريم الذي اندلع يومهـا في غرفة المدرسين منصبا على مدير المدرسة كممثل لكل ما يجري، صاح به بصوت واضح:

ـ أتمنى حقا ان يكون حادث القتل من فعل لصوص، او ان يكون ذلك حقا كما تقـول بانـه عمل ثارات قديمة مع عائلة الفقيد. ولكن اخشى ان تكون انت وتقاريرك السبب وراء ذلك.

حتى رفاق المدرس القتيل من الشيوعيين، لم يجرؤ احد مـنهم لتوجيـه الاتهـام مباشـرة الى المدير، ولكن كريم فعلها. يومها وبعد انفضاض اجتماع المدرسين، ونجاح المدير في عرقلة تكـوين لجنة من المدرسين لمقابلة المسؤولين للتحقيق في اغتيال المدرس، قال كريم وبصوت مـسموع لاحـد المدرسين الشيوعيين:

ـ جبهتكم الوطنية جنت ليس على حياة تركي سلمان وحده، بل علينا جميعا!

بعدها باسبوع اختفى كريم. قيل اعتقل. وقيل هاجر، ولم يعرف له مكـان. وحكيـت اشـاعات واساطير. هناك من قدم وصفا له حين قابله في احد السجون. وهناك من روى مقابلته له في بغـداد متنكرا. وتصور كثيرون انه ما زال في المعتقـل وربمـا تحـت التعـذيب سيقبل الانـضمام الى حـزب البعث العفلقي. لكن غياب كريم مطرود طال كثيرا، مما دعـا ادارة المدرسـة الى اسـتقدام مـدرس جديد للتاريخ. كان فوزي يدرك جيدا، خشية ورهبة كريم من الحديث عن الماضي، وخصوصا ايامه الاخيرة في العراق. الاحاديث ستجر للحديث عن الاهل، ويخشى كريم كثيرا الاسئلة الـتي توجـه لـه عن زوجته وابنته. لمس هذا في تحاشي كريم لاسئلة المعـارف مـن العـراقيين والفنلنـديين. خـصوصا الفنلنديين، فأذ يقدمون اسئلتهم بدوافع انسانية مجردة من اي دافع سوى التعرف على هذا الغريـب الذي حل ببلادهم، كانت الاسئلة تأتي مباشرة وموجعة. تذكر فـوزي يـوم اصـفر وجـه كـريم حـين وجهت له سيدة فنلندية سؤالا عاديا عبر الطاولـة يـوم اجتمعـوا في النـادي الاجتمـاعي في مدينـة كيرافا. كان فوزي يتردد الى النادي الاجتماعي كلما توفرت له الفرصة واحيانا يصاحب زملاء لـه في العمل. كل اربعاء يتم اختيار موضوع ما وتترك الحرية للحاضـرين للحـديث والمناقـشة حولـه. ليست ثمة بروتوكولات، وليس من محاضر او مدير للجلسة، كان كل حاضر يجد فرصـته في التعـبير عن وجهة نظره في الموضـوع المثـار. لم يكتـشف فـوزي النـادي الاجتمـاعي بنفسه رغـم علاقاتـه الواسعة، كريم دله عليه، ولكنه اكتشف ان كريم لا يرتاده كثيرا. وحين سأله لماذا:

ـ الفضول البرئ يدفع بعض الفنلنديين لتوجيه اسئلة تبدو لي قاسية، فلا اود تعريض قلبـي لمثل هذه السهام.

عبر المائدة الصغيرة، حيث ازدحمت الاكواب والاطباق، كان فوزي يرى اضطراب مروان وهو تحت سهام كريم المتتالية، الذي لا يمنحه فرصة للنجاة:

ـ يا عزيزي، فوزي، حاول الاشتراك معنا في هذه الدردشة الاخوية. الاخ مروان لا يتزحزح من فكرة تكفير الاخرين ما داموا ليسوا معه، فنحن واياك كفرة ما لم نوافقه على رأيه. انا ارى ان الاسلام قد اسئ اليه كثيرا بهذه الافكار السلفية واراها متحجرة تماما، واعتبرها وافدة على المذاهب الاسلامية العراقية.

ويرى فوزي كيف ان مروان ينتفض، وكأنه أهين:

ـ يا اخ كريم، الاسلام لا يتجزأ.

وهو يرتشف فنجان شايه، قال كريم بثقة:

ـ الاخلاق لا تتجزأ، هذا اوافقك عليه حيث لا اجتهاد في ذلك. لا اقصد تجزأة الاسلام وقوانينه، القرأن كدستور للاسلام حمال اوجه، وعليه ما الذي يمنع الاجتهاد في ان يكون هناك اسلام اوربي يهضم ويستوعب قوانين هذه البلاد المتطورة وعاداتها ويحافظ على اسس الاسلام في التسامح والحبة وعمل الخير.

كان مروان محمر العينين، ربما بسبب السهر والارهاق، وثمة حبات عرق تلتمع على جبينه:

ـ ولكن هذا يا اخ كريم يعني تجاوز الثوابت الاسلامية.

وحتى لا يبدو بعيدا عنهم، منشغلا بأفكاره الخاصة، بادر فوزي وسأل:

ـ ولكن يا اخ مروان ماذا تعني بالثوابت، بالنسبة للمسلمين السلفيين في كل مكان الثوابت هي غيرها بالنسبة للمسلمين الواقعيين او المعتدلين.

ويبدو ان سؤاله، اثار مروان، فاذ كان يتلقى الاسئلة من شخص واحد، اثاره كونه صار يبدو محاصرا بين شخصين، ولا يخفيان معارضتهما لافكاره رغم انهما يناقشاه بهدوء، فأرتفع صوت مروان وفيه رنة غضب:

ـ يا اخوان، انتم تكفرون بالرب وبدينكم، اسس الأسلام واحدة لا يوجد هناك اوربي أو واقعي وغيرها من تحريفات الغرب، الله سبحانه وتعالى انزل وحيه على نبي واحد، وهناك كتاب واحد هو دستورنا المقدس.

ولم يشا كريم ان يتراجع في حماسه لايصال افكاره:

ـ ايها الاخ العزيز، الكفر كلمة كبيرة على مسلمين مثلنا، انا افهم ان الدين هو علاقة مباشرة بين الرب والانسان، والسياسة هي علاقة بين انسان وانسان، الخلط بين هذين الامرين

وأي تقاطع بين هذين الخطين يسبب فوضى واساءة مباشرة للرب، وما يقوم به الان غالبية جماعات الاسلام السياسي من نشاطات في كل مكان هو هذا الخلط الذي من وجهة نظري يصل حد الكفر احيانا.

بدا لفوزي ان مروان ليس غرا بالشكل الذي حاول ان يعرضه لهم نوري، ولا غبيا. هذا الشاب يبدو يعرف عن ماذا يتحدث، ومؤمنا بأفكاره. فات نوري ان يعرف بان صاحبه مروان لم يعد ذاك الشاب البسيط الذي كان هدفا للمقالب والسخرية:

ـ رسالة الاسلام هداية الناس الى الايمان، واذا كانت قضايا الامة تحتاج الى رأي فاصل فلماذا لا يقوم شيوخنا وائمتنا بدورهم وجهودهم وفقا لاحكام القرأن.

ونظر فوزي بأتجاه كريم، وكانه يستأذنه في اخذ دوره، فقطع كريم قطعة خبز وراح يدهنها بقليل من الزبدة، ويمضغها ببطء، فقال فوزي:

ـ ولكن يا اخ مروان، نحن نعيش في زمن الانسان فيه ليس بحاجة لمن يفرض عليه اسلوب حياته واي ملابس ترتدي زوجته وكيف يتحدث في الشارع او... ان ما هو غير لائق في بلد عربي قد يكون مقبولا هنا، وانا معك ان عملية التمدن لا تعني الركض خلف القشور، واقصد قشور الحياة الاوربية وايضا مظاهر وقشور الدين. انا اؤمن بان الدين ليس بالشكليات. الدين امر عظيم يمنح الانسان توازنا روحيا، والاسلام عقيدة عميقة المعنى تتعلق بالصدق والشرف والنزاهة وحب العمل. الدين يا اخ مروان بالاقناع والرسول محمد قال لا اكراه في الدين.

ارتجفت يد مروان، وقال من بين اسنانه:

ـ انتم تأولون اقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كما تريدون، وتحت حجة ذلك يقوم البشر بالتطاول على الذات الالهية بوضع القوانين كما يطيب لهم. ان الشريعة الاسلامية يجب ان تكون التشريع الوحيد الحاكم بين الناس، ان الشريعة هي الدين الحق وما غيرها باطل بما في ذلك الدساتير والقوانين، ليس من حق أي انسان سن القوانين لان ذلك أمر مقصور على الله وحده، ان صياغة التشريعات والقوانين هو صورة من الالحاد والشرك الصريح وان كل من يؤمن بذلك او يحكم به يعتبر كافر مرتد.

٢

لايام وبيكا تويفنين مشغول مع كريستينا. يدور حولها مثل الفراشة، وشعور بالمرارة الخوف والقلق من فقدانها. توافد الابناء حالما سمعوا بانتكاس وضع امهم الصحي. يقطع بيكا ردهات

المستشفى عدة مرات، دون ان يرى شيئا او يتنبه لاحد. القلق يمنعه من التركيز والقراءة والاحاديث السوية. قال له الطبيب بأن حالتها صارت تحت السيطرة، ولكن يتطلب ان تمكث بعض الايام تحت المراقبة والرعاية الصحية المباشرة. فجأة مثل علاء الدين خارجا من مغارة، يحيطه الضباب واطواق الزهر، مثل جني خارج من القمقم وحوله هالة من الدخان، يطل عليه كريم مطرود، مسرعا، بقامته المشوقة، وهو يمسد شعره الفضي، قلقا، متلهفا:

ـ افتقدتك، هاتفت الى البيت، وردت ابنتك. وها انا هنا.

يشعر بيكا دائما، ان في اعماق هؤلاء الشرقيين، ثمة شئ يفتقده عند غيرهم من كل معارفه. سماه كريم مرة "حيوية الروح". لهم قدرة على وضع لمساتهم الخاصة على كل فعل انساني بطريقة لا يشبههم فيها احد. شئ مثل البهارات الشرقية في الطعام. منذ زمن، كانا يتمددان في حديقة المنزل، تحت شمس اب التي شجعتهم لتناول وجبة طعام خفيفة هناك. وعد فوزي بالالتحاق بهم، وكانت ابنته الكبرى حديثة الزواج مع عريسها في ضيافتهم، وكانت كريستينا الى جانبهم تواصل حياكة ما بيديها مستمتعة بالشمس، وقد غطت كتفيها بلفاح صوفي خفيف، ويتحدثون عن تلك الحواجز التي يمكن ان تنشا بين الناس. كان كريم مترددا قليلا، ربما لعدم معرفته الجيدة لطباع عريس ابنته، الذي بضخامة جسمه ونقوش البحارة على زنوده، اربك كريم قليلا. مر قليل من الوقت، وثم أنطلق في احاديثه والتعبير عن وجهات نظره:

ـ في هذه البلاد، قياسا بمجتمعات العالم الثالث، يبدو ان كل شئ متوفر للانسان، حتى يمكنه العيش بسعادة، ولكن على الصعيد الروحي، وربما بسبب ما يسميه البعض"التخمة الحضارية" نجد الانسان ضائعا وكانه بدون مرجعية فكرية. اعتقد ان الانسان الاوربي بشكل ما يفتقد الى شئ يمكن لنا ان نسميه "حيوية الروح".

كانت كريستينا دائما، تحب الخوض في الاحاديث مع كريم. كانت ترى فيه انسانا قريبا الى افكارها. كانت احيانا تحسبه ابنا لها ولد بعيدا عنها. بعد عامين من معرفتها لكريم، ورؤيته وحيدا في حفل رأس السنة، في جمع ضم الازواج والعشاق، قالت لبيكا بحسرة:

ـ لو ان لدي بنتا بعمره، كنت اتمناه زوجا لها.

من جانبه، كان بيكا يلمس كم يحمل كريم من ود غير عادي نحو كريستينيا. تملكت كريستينا صعوبة كبيرة في التحدث لفترة طويلة. فتاتي احاديثها متقطعة، وتاخذ وقتا اطول بسبب الاستراحات الاجبارية. كانت حكايات كريستينيا ممتعة، ومسلية، فكان كريم يملك صبرا عجيبا لا يجاريه فيه احد، في الانصات الى كريستينا وهي تجمع كلامها المبعثر لايصال ما تريده

الى كريم، الذي كان يتفاعل جدا مع ما تحكيه. كانت ابنته تظن في البدء ان كريم يفعل ذلك مجاملة لهم، ولكن مع الايام، كان يفاجئهم بتذكره لتفاصيل ناعمة ربما غابت عنهم ووردت في حكايات كريستينيا، رغم انهم سمعوا الحكاية منها مرارا. اصطحب بيكا كريم الى كافتريا المستشفى. طلبا فنجاني قهوة، وجلسا يتهامسان:

ـ الطبيب يمنع دخول احد عليها. ولا يمكن زيارتها الان. ساخبرك حين يكون ذلك ممكنا.

ووضع كريم باقة الورد وكيسا ورقيا صغيرا على طرف الطاولة امامهما، وقال ببساطة:

ـ هذا لها. الى عزيزتي كريستينيا.

كانت عينا بيكا تتساءلان عن محتويات الكيس الورقي، ففتحه كريم وعرض له ما بداخله، ومن بين ابتسامة عريضة قال:

ـ حتى لو لم تستطيع اكله، فأن كريستينيا ستفهم لماذا.

في الكيس الورقي كانت هناك حلقات بيضوية من الكعك المنزلي. ذاك الكعك الفنلندي المحلى بالسكر الذي يعجب كريستينيا. شعر بيكا بمعنى ما يقصده كريم ب "حيوية الروح". لا ينسى هذا الرجل شيئا. هذه لمسة اخرى من تلك الروح الفياضة بالمحبة. مد بيكا يده نحو كريم وفرك اطراف كتفه الاقرب اليه. كان بيكا يريد السؤال عن فوزي، حين بادر كريم للقول وكأنه يقرأ افكاره:

ـ لدينا ضيف من خارج هلسنكي، كنا مشغولين، معه البارحة واليوم، تركته مع فوزي، واسرعت بنفسي. كلفني فوزي ان انقل لكم تحياته، وقال انه سيكون هنا في اقرب فرصة.

مع هؤلاء الناس يشعر بيكا، بأنه لا يجد صعوبة في الافصاح عما في داخله. في اول تعرفه الى كريم، كانت ابنته الصغرى تنظر بعين الشك الى هذا العراقي، الغريب، الذي تراه في مكتبة المدينة العامة، صامتا حزينا، والذي جاء به ابوها من الشارع، ليشاركهم مائدتهم، وليظل عندهم النهار كله، ملقيا عليهم عشرات الاسئلة التي بدت لها مضجرة. بعد عام تقريبا، صارت ابنته لا تمل من ترداد اسم كريم امام الاخرين في كل مناسبة:

ـ هذا رجل وجد نفسه ويعرف اين يقف، ويعرف تماما الى اين يسير، وهو انسان حنون بشكل خيالي، له ابنة بمثل سني، ودوما يمنحني الاحساس بأنه يراها في بعض مني.

وهو يرتشف قهوته، ينظر بيكا الى عيني كريم السوداوين وحواجبه الكثيفة. هل حقا وجد هذا الانسان نفسه كما تقول ابنته؟ كان بيكا يظن ذلك، لولا ان كريم ذاته، في سهرة معه، قال:

ـ هل يعجبك الشعر؟ انا اقرأ الشعر، ولكثرة ما كنت اقرأ تصور اصحابي اني ساكون يوما شاعرا. تعرف ان لكل شاعر لغة محددة وعبارات مفضلة. لدينا شاعر عراقي عبقري اسمه

سعدي يوسف، يمكنه ان يختصر ازمان وامكنة في عبارة واحدة. كثافة في اللغة وعمق في الصور، وفلسفة ايضا، اسمع ماذا يقول:

ـ اسير مع الجميع

وخطوتي وحدي.

بيت شعري فيه كثافة من لغة القرآن. المهم، وجدت ان سعدي يوسف في شعره يلح على كلمة "هواجس"، وكان واضحا لي كونها معادل لكل هذا القلق الذي تحمله الشخصية العراقية التي لا يمكن لكلمة اخرى ان تعبر عن دواخلها. قرأت ايضا وكثيرا للشاعر بابلو نيرودا وتسائلت ترى اية كلمة تستهويه؟ وجدته يلح كثيرا في استخدام مفردة "الجذور". سألت نفسي لماذا؟ الجواب هنا ربما نجده في كتب التاريخ، وربما يكون في غيرها، لكنني وجدت ان نيرودا الذي عاش حياته، بكل الوانها بجدية هائلة، يحاول ان يعكس هويته، شخصيته. الجذور يا صديقي بيكا، هي من تحدد هوية الانسان. ويظل الانسان، مبحرا في هذه الحياة، يبحث عن الجزيرة المفقودة، يبحث عن نفسه، وعن جذوره، وعن هويته، وكلما يعتقد انه بلغ شاطئ هذه الجزيرة المسحورة يجد انها من جزر السندباد، جزيرة فوق حوت عملاق نائم، سيستيقظ يوما ما فيهدم كل شئ. الانسان، هذا الكائن العجيب، هويته في اعماقه، في روحه، لكن هل يمكنه ان يبحر في دواخله، في هواجسه ليعثر على جذوره؟

تنحنح كريم ليوقظ بيكا من شروده، وليحاول ان يقول شيئا. ابتسم بيكا، وهو يغالب ابتسامة ودودة:

ـ هل ضيفكم عراقي؟

وابتسم كريم بشكل يوحي بقصة طويلة:

ـ نعم هو عراقي، ولكن الطريف جدا، انه لا يعتبر صديقا لي ولا حتى لفوزي، بالعكس نحن واياه في تضاد يكاد يكون تام، في التفكير والسلوك، لكن الامر صار هكذا، مثل فلم سينمائي كما قال فوزي جاءت به الحبكة لتضعه في طريقنا.

انتظر بيكا، حتى انهى كريم رشفة فنجانه ليرضي فضوله بالمزيد من الحديث:

ـ هو زميل لاصدقائنا، واستضفناه انقاذا لموقف متوتر بينه وبين اخرين حصل البارحة خلال دعوة عشاء. وهكذا من يومين وانا وفوزي في نقاش وسجال مع هذا الضيف حول الاسلام والتشدد في الدين.

لم ينس بيكا ابدا، تلك الاحاديث الصاخبة، التي خاضها مع كريم وفوزي، بمشاركة اخرين حول هذا الموضوع. كان فوزي اكثرهم حدة في ادانة الاعلام الاوربي، الذي لم يرحم الاجانب وفي تحميلهم وزر اخطاء المجموعات المتطرفة المتشددة. صاح بهم فوزي مرة:

ـ اتدرون، رغم انكم لا تملكون في فنلندا ابراجا، لكني صرت اخاف الجلوس في المقهى المجاور لمركز التجارة العالمي في هلسنكي، ربما يظنونني ارهابيا.

كان كريم يحاول ان يكون اهدأ، يناقش الامور من باب تاريخي وفلسفي:

ـ الاعلام العربي، ليس بافضل من الاعلام الاوربي، فكلاهما يعرضان افكارا تقليدية وطائفية وعنصرية، لا تسمح لايجاد ارضية للحوار الثقافي والحضاري. الاعلام في اوربا صار بعضه ابواقا للعنصرية والتعصب والتمييز، وعندنا صارت غالبيته ابواقا للعنف والتطرف. هناك خلط تاريخي في المفاهيم. اذا لم تستطع اوربا ان تميز بين معنى المقاومة والارهاب، ولم تستطيع المؤسسات الاسلامية ان تستوعب التيارات الراديكالية وتعاملها كانحراف هامشي، فأن الارهاب كمدرسة سيتغذى من الطرفين ويصير من الصعب السيطرة عليه، لا تنسوا ان هناك لا يقل عن خمسة عشر مليون مسلم يعيشون في اوربا الان.

ولكن كريم كاد ان يفقد عقلانيته واعصابه يوما، لما حصل معه، في محطة هلسنكي. كان ذلك في اعقاب احداث ١١ /٩ الارهابية في نيويورك. جلس في قطار الضواحي المتوجه الى كيرافا. وضع حقيبته الجلدية في العربة، في سلة الحقائب فوق المقعد الذي جلس اليه. نظر الى ساعته ثمة الكثير من الوقت لانطلاق القطار. وتذكر ان لا خبز لديه في شقته. قرر ان يسرع الى اقرب مخزن، ليشتري الخبز ويعود الى مكانه، وترك حقيبته مكانها ليكون خفيفا في الحركة. وغاب عن باله ان ثمة عيونا كانت ترصده من اول وصوله القطار. حين عاد، وجد الهرج والمرج، والشرطة في المكان. اقترب بهدوء، وقلق:

ـ ماذا هناك؟

وتوجه اليه رجال الشرطة بهدوء، وعجوز تشير اليه باصابع مترجفة:

ـ هذا هو!

وحار بين الضحك والغضب. ايهما يسمح له بالانطلاق اولا، وايهما يكبته؟ ظنته العجوز ارهابيا، وظنت ان حقيبته ربما تحمل قنابل ومتفجرات، فاطلقت الصراخ والاستغاثة بعد ان رأته يترك عربة القطار مسرعا تاركا حقيبته فيها. اعتذر رجال الشرطة من كريم، وهم يغالبون ابتساماتهم، وغطت العجوز في عرقها، ولم يستطع كريم ان يتحمل نظرات الاخرين اليه والاشارات بالاعين والنظرات. غادر القطار وانتظر مجئ القطار التالي. يومها لم يترك شيئا لم يشتمه جراء هذا الرعب الذي سكن قلوب الناس وصار كل ذي شعر اسود مشبوها بكونه ارهابيا.

التفت بيكا الى كريم ليخرجه من صمته:

ـ وهل وصلتم مع ضيفكم الى نتيجة؟

نظر كريم اليه، نظرات كأنها تقول: وهل انت في حال يسمح للحديث والتفكير بهكذا امور؟ فكرر بيكا السؤال بهدوء. فزحف كريم بكرسيه قليلا بأتجاه الطاولة:

ـ اعتقد، وتذكر كلامي يا بيكا جيدا، ان فنلندا كدولة ستدفع الثمن غاليا يوما ما، اذا لم تتبع سياسة حازمة مع تلك الجماعات التكفيرية، الاصولية المتطرفة، التي تعمل بأسم الاسلام، وصارت تنشط في فنلندا تحت واجهات ثقافية وصارت تمد بوزها هنا وهناك.

لم يفاجأ بيكا بتوتر كريم في كلامه، لكنه خمن ان هناك اشياء جديدة:

ـ وهل صاحبكم، اوحى لكم بأشياء وافكار جديدة؟

ضرب كريم طرف الطاولة، فاهتزت باقة الورد:

ـ ليس بالضرورة ان تكون هناك اشياء جديدة، ان لقاءنا بهذا الرجل، اثبت لنا انهم نشطون بشكل كبير. تصور يا بيكا، ان هذا الرجل، وقبل فترة ليست بعيدة هرب من جماعات اسلامية، قال لأنها تتعامل معه بخطاب طائفي لم يعجبه ايامها، لكنه في مكان عمله الجديد وقع بين براثن التكفيريين الاصوليين، الذين يدفعهم تعصبهم وجمودهم ونشاطهم الى نسف كل الامال التي كنا نتحدث عنها عن امكانية المصالحة بين الاسلام والحداثة.

يتذكر بيكا تلك الاحاديث والامال عن نتائج الاحتكاك بين الجاليات الاسلامية في اوربا، والحضارة الاوربية، وكيف انها يمكن ان تولد صيغة توفيقية. كان كريم متفائلا جدا بذلك:

ـ هذه الصيغة التوفيقية يمكن ان تعبر البحرالابيض المتوسط وتساعد المجتمعات الاسلامية في الخلاص من ورطتها التي تتخبط بها مع التيارات الاصولية المتطرفة.

وسأله يومها:

ـ اترى يا كريم في اوربا العلمانية منقذا للشرق المتدين؟

قال كريم بثقة، وكأنه يرسم الكلمات:

ـ الامر لا يتعلق بفرد غريق ويحتاج لمن ينقذه، نحن يا اصدقائي امام حضارات مختلفة، تعاني من ازمات شديدة، الامر هنا ربما يتعلق بالحظ، رغم تحفظي على تعبير الحظ، واعتقد ان لاوربا حظا كبيرا في حيوية الدماء الجديدة، اقصد ملايين المسلمين الشباب الذين يعيشون بين ظهرانيها، على الاقل لتتخلص من وصمة "اوربا العجوز"، والامر بالنسبة للمسلمين الذين لابد ان يتأثروا بالجو المحيط والحداثة السائدة والقوانين، وبالتالي فأن فهمهم للدين سوف يتجدد باكثر من طريقة وشكل.

٣

كانت ايام طويلة قد مرت على اعتقال دلشاد، حين التقت ثاوات ب ئافتاو وابنتها الكبيرة، في"امسية النساء"، في النادي الاجتماعي، في قاعة محطة السلام، ليس بعيدا عن المكتبة العامة في منطقة باسيلا. كانت بعض الصحف اليومية لا تزال تتحدث عن قضية دلشاد، وعن عصابته وتنشر بعض التفاصيل. في استراحة الطعام خلال العمل، حاصرتها احدى زميلاتها بسؤال ان كانت تعرف عائلة الفتى الاجنبي زعيم عصابة الفتيان، فاضطرت ثاوات للكذب. شعرت في داخلها بشئ من التشفي ب فرمان لما حصل. بادرت ثاوات يومها وهاتفت دلسوز لتسأل:

ـ هل سمعت بما حصل؟

كانت كل التفاصيل عند دلسوز. اثارثاوات ان دلسوز كانت حزينة جدا. وانتبهت ثاوات الى ان لا مكان للشماتة هنا. فهذه دلسوز التي تكره فرمان، ولا تطيق زوجته ترزه، تقدم لها درسا جديدا عن الحياة في هذه البلاد:

ـ سينسى الناس اسمه، ولكنهم سيذكرون فقط انه كردي من العراق، وهذا وحده سيشطب اشياء كثيرة مما عمله وانجزه الناس الطيبون، وستصيرين انت متهمة بفعل غيرك.

لم تكن دلسوز تخشى ان يقل زبائن زوجها، ولكنها كانت تفكر بأطفالها، وهكذا ما ان سمعت بخبر اعتقال دلشاد حتى بادرت لزيارة مدرسة اطفالها واللقاء بالادارة، التي كانت متفهمة جدا لمخاوف دلسوز وكل الامهات والاباء. خصوصا وان الصحف لم تترك تفصيلا ولم تتحدث عنه. فرحت ثاوات حين تلقت دعوة لتكريم مجموعة من الطلبة المتفوقين الاجانب، وكان بينهم عدة طلبة عراقيين. المسؤولون هنا يعملون بذكاء ومسؤولية. تذكرت يوم اختاروا للبلاد ملكة جمال سمراء، صحيح انها كانت جميلة، ولكن كان هناك منافسات اجمل، لكن اختيارها للفوز وهي سمراء، كان ذلك ضمن حسابات رسمية تصب في معاداة نشاط العنصرية، وهكذا وجدت ثاوات اخبار المتفوقين وصورهم تتصدر الصحف، واجريت معهم لقاءات تلفزيونية، كان لثاوات حصة من كاميرا المصور الذي التقط صورتها، لتهاتفها تاريا وهي تصرخ:

ـ ملعونة، يا انت يا كردية، رايتك في اخبار الساعة العاشرة، وجه فوتوجنيك[٩٣] حقيقي، مكانك في هوليود وليس مترجمة او بائعة في سوبر ماركت.

في مكان عملها، ولبعض الوقت لازم ثاوات بعض الحرج من حادث دلشاد. تزايد هذا الحرج حين وصلت الى "الامسية النسائية" ودون ان تدري بيدها جريدة تحمل صورة للمسدس

التوغاريف الذي كان بحوزة دلشاد ساعة القبض عليه. عثرت الشرطة بسرعة على بائع المسدس على اثر اعترافات دلشاد ونشرت قصته بالكامل مع الصور الملونة الكبيرة. كان البائع رجلا روسيا في الاربعين من استونيا، يقيم بشكل غير شرعي، في شقة عاهرة روسية، حولت شقتها الى مكان لاستقبال ومبيت فتيات يأتين من المدن الروسية القريبة، يسترزقن في عطلة الاسبوع. سمعت ئاوات يارمو وهو ينقل لاخته تاريا غضب زميله الروسي المهندس الميكانيكي في شركة النقل، وهو يشتم:

ـ تبا للايام، بعد ان غزونا الفضاء صرنا نغزو العالم بعاهراتنا.

في الصحيفة، التي حاولت ئاوات اخفاءها، كانت هناك صورة لدلشاد مع بائع المسدس وهما يدخنان. كان دلشاد يبدو فتا غضا، رغم ملامحه القاسية. كان يمكن ان يكون شابا نافعا، مثل غيره. مثل اولئك الطلاب الفتيان الذين كانوا ضمن الوجبة التي كرمتهم وزارة التعليم لتفوقهم، وحضر ممثل رئيسة الجمهورية ليسلمهم جوائزهم، وسمعته ئاوات حين سأل اقرب الطلبة اليه:

ـ من اين؟

قال الفتى بسرعة:

ـ من العراق!

كان يتحدث بكل فخر، وهو يعبث بخصلة متمردة من شعره الاسود. قبل اجابته بقليل على سؤال ممثل رئيسة الجمهورية، عرفت ئاوات ان هذا الفتى الذي تزوج والداه خارج العراق، ولد في سوريا، وعاش لفترة في موسكو مع عائلته الهاربة بحثا عن اللجوء، قبل ان تصل فنلندا عبر وساطة المهربين. لم ير العراق يوما، وكان يتحدث عن العراق وكأنه جاء منه البارحة. سألته ئاوات:

ـ ماذا يعمل ابوك؟

واجاب الفتى وهو يفرك اصابع يده ببعضها:

ـ ابي رسام، يعمل الان مصمم اغلفة في دار نشر كتب.

وتذكرت ئاوات ذلك اليوم، الذي ارسل فيه لهم فوزي مع شاخوان بطاقات دعوة الى مهرجان ثقافي اقيم في جامعة هلسنكي. في يوم الافتتاح ذهبت ئاوات لتجد الجميع سبقوها الى هناك. غالبية من تعرف. كانت هناك دلسوز واطفالها، وهناك قابلت نوري وكريم مطرود، وعباس جامعه وئافتاو وابناءهم. قيل لها ان فرمان كان هناك ايضا ولكنه انصرف بسرعة لارتباطه

بموعد على امل العودة. كان هناك جمع كبير من العراقيين مبتهجين باسبوعهم الثقافي. كان فوزي يدور نشطا بين الجميع، وارتقى المنصة الصغيرة، وبصوت واثق، متوهج رحب بالجميع:

ـ هنا، في هذه القاعات، مع قصائد الشعر والاغاني، والمعزوفات الموسيقية، مع اللوحات التشكيلية التي تفور بالالوان، نقول كلمتنا موحدة. نحن ممثلي الشعب العراقي الحقيقيين، ويوما بعد اخر يتأكد لنا ان سفارة نظام صدام حسين ليس الا وكرا لرجال المخابرات واللصوص.

واذ وقفت تتأمل احدى اللوحات بشغف واهتمام، وجدت نوري قريبا منها، مبتسما بخجل لا يناسب سمعته:

ـ اعجبتك؟

ردت بحرارة:

ـ جدا.

كان هناك فيض من اللون الازرق، اللون الذي تعشقه. لون اسمها ولون احلامها. لون البحر والسماء. قطع نوري استرسالها ليقول لها:

ـ ما رأيك بالتعرف الى خالق هذه اللوحة الجميلة.

وبعد لحظات، كان الى جانبها يقف رجل، انهكته السنون، وبلحية كثة مثلما تعرف عن الفنانين، ولا تكاد تعثر لشعرة سوداء فيها. بظهر محني، وسمين، يتحرك بثقل، وبطء. صافحها، وعيناه الصغيرتان، تلمعان اعجابا، وهو يتفحصها وكانه يختزن ملامحها للوحة قادمة:

ـ هذه اللوحة بالذات، اثارت اعجاب اغلب الزائرين، ربما لكونها الاقرب الى روحي، ووجدت أن اغلب الناس يجدون فيها شيئا منهم، هذا يفرحني جدا، ان تكون حياتنا مليئة بالامل والتفائل.

في صوت الرجل، احست بغيوم الهم، تطوف على كلماته، وتتسلل الى اصابعه. واذ تسرق النظر الى لوحته، ترى كيف ان ضرباته اثناء الرسم عصبية جدا، وتترك اثرها على اللوحة بشكل واضح مما يعطي اللوحة عنفوانا اكثر. واذ راحت تبسط افكارها عن اللوحة امام الفنان، اعربت دلسوز عن دهشتها:

ـ يا ملعونة، انت صرت مثقفة، تحكين في الرسم واللون والضربات واشياء لا اعرفها، اين ذهبت ناوات التي تخاف ان تغادر شقتها لتشتري كيلو رز؟

الفنان الخجول، المتعثر بالكلام، العجوز، نسيت اسمه، لكنها ظلت تذكر مكان عمله:

ـ كنت انوي العمل في دار تصميم ازياء، كنقاش للالوان والرسوم، كانت دراستي بهذا الخصوص، لكن الامر ليس بهذه السهولة في فنلندا، لم ايأس وجدت عملا كمصمم اغلفة كتب في

دار نشر حديثة التكوين. اعجب الادارة استيحائي لاجواء ثقافتنا العراقية في تصميم اغلفة كتب عصرية. في هذا المعرض، للاسف تجدين السياسة تمد بوزها بقوة، فتعطل شيئا من جماليات اللوحات، فالعراق يا ابنتي سيبقى همنا الدائم.

كان موضوع العراق هو السائد تلك الليلة، يوم تكريم الطلبة المتفوقين وابن الرسام مصمم الاغلفة من ضمنهم، بل وكان من انشطهم. التقطت ناوات معهم عدة صور بكاميرتها، ولاحظت ان بعض الرجال كانوا بحجة الاسئلة يتحركون تجاهها ويحتكون بها ويقدمون اسئلة، من تلك النوع الذي تعرف المرأة مسبقا لماذا يسألها الرجل. كانت اخبار تحشيدات الجيوش الامريكية وخطر الحرب على العراق طغت على كل الاحاديث الجانبية في الاحتفال. حضرت ناوات الحفل كمترجمة. كان هناك بعض الضيوف العرب حضروا من السويد والدانمارك والنرويج وفق اتفاقات دول الشمال الاوربي. من فترة طويلة وناوات بين الحين والاخر تقوم باعمال ترجمة بالقطعة. صارت الدوائر الرسمية تتعامل معها ويشترطون على شركة الترجمة اسمها، وارسلوها كذا مرة الى مكانات عديدة، وحضرت حفلات عديدة. مرات عديدة اعتذرت لان مواعيد الترجمة تتعارض مع عملها في السوبر ماركت. كان عمل الترجمة يحسن دخلها كثيرا. تشعر ناوات بكثير من الارتياح، هذا العام كان حافلا بالنجاحات اذ فأجاها مدير السوبر ماركت التنفيذي بخبر ترقيتها وارتفاع راتبها ليكون بمستوى يسمح لها بتغيير اثاث بيتها والتفكير باستبدال سيارتها. في حفل تكريم الطلبة المتفوقين، تابعها احد الضيوف من الدانمارك. لاحظت كيف كان يتفحص بنظرات متوترة اصابع يديها عن خاتم خطبة او زواج. قدم نفسه بجرأة وقدم لها بطاقته، ووعد بالمهاتفة. كان شابا جريئا من اهالي زاخو، يعمل في وزارة التعليم الدانماركية في مشروع خاص بتعليم الاجانب. فهمت انه مطلق من زوجته الدانماركية، ولديه طفل، وحين اراها صورة ابنه صاحت ناوات بصدق: "يا له من طفل جميل"، مما اثار الفرح في عيني الرجل الزاخولي. فرحت ناوات جدا، حين عرفت ان الزاخولي سمع عن شاخوان. كادت تطير فرحا اذ فهم اشارتها حين الحت الى كون شاخوان مثل اخيها الكبير وبمقام ولي امرها في فنلندا، وان زوجته صديقتها ومخزن اسرارها. لم يستطع الشاب الزاخولي ان ينفرد بها كثيرا. اعتذرت عن محاولته لقاءها في هلسنكي، اعطته عنوان مطعم شاخوان، وفهم رسالتها: "اهلا وسهلا، ولكن ادخل البيت من بابه". لم تبادر ناوات لتخبر شاخوان ولا حتى دلسوز عن المعجب الزاخولي الذي اتصل بها حالما بلغ محل اقامته ليشكرها ويعبر عن اعجابه بشكل اكثر جرأة. قبل ان تصل مكان لقاء "امسية النساء"، مرت على المكتبة العامة، وقرات بريدها الاليكتروني.

وجدته قد ارسل لها بطاقة بالايميل مزدانة بالورد، ليخبرها ان له زيارة قريبة الى فنلندا في اواخر شهر اذار، وانه يامل بلقائها ليتعارفا اكثر. واشتعل في قلب ثاوات بريق اخضر. وفكرت نهاية اذار ليست بعيدة، وتقويمها يقرأ تأريخ: ٢٨ شباط ٢٠٠٣.

في الاستراحة سحبت ثافتاو الصحيفة من يد ثاوات، دون استئذان، وقالت بحرقة وبدون مقدمات:

ـ اخي فرمان مثال للاب الفاشل، لو تدرين يا ثاوات كم مرة حذرته، وكم مرة واجهه عباس صراحة، اتدرين اية أعذار يقدم تعبيرا عن فشله؟

وسكتت ثاوات. لم تشا ان تحرج ثافتاو كثيرا، ففرمان هو اخوها على كل حال، والظفر لا يتخلى عن اللحم، ودلشاد السجين هو ابن فرمان. قالت ثافتاو بألم:

ـ للعلم هذا ليس اول اب فاشل اسمع منه هذا الجواب السخيف، هناك غيره كثيرون ممن لا يريدون الاعتراف بفشلهم، حين تهرب بناتهم، او حين يدمن اولادهم المخدرات، او يرتكبوا فحشا، لا يملكون غير ما قاله فرمان لي وهو ينفخ صدره: "هذه ضريبة الغربة". شماعة سهلة، وجميلة لتغطية فشلهم، وتبرير انشغالهم وابتعادهم عن هموم ومشاكل ابنائهم. ومن تجربتي كأم يا ثاوات، ارى مهما تكن انشغالات الاباء موجبة ومطلوبة، فهم اول من يتحمل المسؤولية عن ضياع الابناء.

لم تشأ ثاوات ان تخوض كثيرا في خصوصيات حياة فرمان، تدرك ثافتاو جيدا عدم ارتياح ثاوات لاخيها فرمان، بل وربما كرهها له، فلفترة طويلة كان يدعم موقف عثمان بدون حدود، وسمح لنفسه بأن يوجهها مرة في احد زيارته:

ـ يا ثاوات، صحيح اننا نعيش في اوربا، لكننا مسلمون وشرقيون ولنا عاداتنا وتقاليدنا التي يجب نحترمها، فلا داع لان تفضحي كل مرة زوجك ما ان يغضب منك، ويمد يده عليك وتركضي الى الشؤون الاجتماعية. من منا لم يضرب زوجته؟ والرجل شرعا له الحق في منع زوجته من ارتداء الملابس اذا وجدها غير محتشمة.

ارادت ثاوات ان تترك فرمان وتهرع الى الحمام لتقذف كل ما بجوفها. تعرف ثاوات كيف يحاول عثمان الاساءة لها، واغاضها تدخل فرمان اكثر. امعقول منه هذا الكلام السخيف؟ اهو رجل يدعي الغباء، ام تراه لا يبصر حقا ماذا ترتدي ابنته؟ ارادت ان تصرخ ثاوات بصوت عال، في شوارع المدينة، هذا رجل يسمح لنفسه ان يعترض على ملابسي لانه يعتقد ان بنطلوني ضيق قليلا، وهاكم ابنته كل يوم تكشف ما طاب لها من مناطق جسدها، وباثارة رخيصة من مراهقة لا تجيد اللبس والاناقة. كانت ثاوات ترصد جيدا بنات ثافتاو وتقارنهن مع بنات

فرمان، وترى الفارق في التربية. عن هذا تحدثت كثيرا مع تاريا وحتى مع يارمو، وشهدت نقاشا عويصا كان كريم مطرود وفوزي طرفا فيه. كان ذلك في حفل النوروز، في الاستراحة على مائدة العشاء. الجميع لاحظ كيف تكون ملابس المراهقين، وكيف تميل للتمرد، وكان الكثيرون يرون حرج الاباء من ملابس ابنائهم، لكن كثير من الاباء لم تعد لديهم سلطة على الابناء، الذين صار المحيط الاوربي العامل الاكبر في تشكيل شخصياتهم. كانت ناوات ترى جيدا الفرق بين ابناء ترزه وابناء نافتاو. ترى كيف ان ترزه تمسك بقشور الحياة الاوربية، وانشغال فرمان بشفط الفلوس يدفع الابناء الى التمرد. قال كريم مطرود:

- يبدا الضياع حين يجد المراهق نفسه بين عالمين. موزعا بين ثقافتين، ثقافة البيت المتحفظة، والمتخلفة احيانا، وثقافة المحيط المنفتحة والمتحررة. هنا يبرز دور العائلة لتكون الصمام الذي ينظم عملية الانسجام، والتعامل بحذر مع تأثيرات هذه العوامل. في داخل كل مراهق ومراهقة هناك شخصيتان، شخصية تنتمي الى العائلة وافكارها وثقافتها، وشخصية تنتمي الى المدرسة والمحيط الاوربي. وهناك تعارض كبير في ثوابت كثيرة عند الشخصيتين، ابناؤنا يعيشون هذه الدوامة، ويجب ان نكون دائما الى جانبهم.

وتتذكر ناوات، يوم لقائها مع خولة. يومها كانت تنتظر تاريا في مقهى منزو في كايسا نيمي، ليس بعيدا عن محطة المترو، حين لاحظت في زاوية من المقهى، شابات مراهقات فنلنديات، وتعرفت فيهن الى فتاتين عراقيتين. لم يكن سبب تعرفها، الشعر الاسود، او اللغة فقط، حين صاحت احداهن:

- لا تخافي، انظري جيدا.

عرفت ناوات فيهما فورا، تلك الفتاة التي رافقت امها الى الطبيب، لعلاجها من مرض نسائي، وتذكرت اسم الام. كان اسمها وداد. امراة، متعبة، حزينة، تسير بعرج خفيف، وذكية في عباراتها، وحادة احيانا. تتذكر ناوات ان وداد صارت لا تطلب سواها للترجمة، بل وكانت تشترط وجودها للقاء اي طبيب. وكانت تقول لها بشجاعة:

- ابنتي خولة شاطرة في المدرسة وتتحدث الفنلندية مضبوط، لكني اشعر بشئ من الحرج حين ترافقني الى الطبيب، انا بصراحة لا اريد عائلتي ان تعرف ضعفي، اريد ان اكون امامهم دائما قوية، وانت مثل ابنتي، ارجوك لا تتضايقي مني اذا الححت بالاسئلة عند الطبيبة.

كانت ناوات منشغلة مع احدى الصحف المتوفرة في المقهى لخدمة الزبائن، حين سمعت ذلك التساؤل الذي يحمل معه كل الخوف. التفت ناوات فرأت خولة وعرفتها. كانت خولة جميلة بشكل

خرافي، ولم يستطع الحجاب ان يخفي جمال وجهها، ولا استطاع الثوب الطويل وارادنه الطويلة، ان يخفي تناسق الجسد وفتوته. ومن اللقاء الاول بها مع امها، لمست ثاوات فيها امارات الذكاء، وتبدو واثقة من نفسها بشكل اعجب ثاوات. حدثت دلسوز عنها. حاولت ثاوات ان لا تحرج الفتيات بوجودها فغطت وجهها قليلا بالصحيفة، وسرعان ما صار الكلام همسا، وعرفت ثاوات ان البنات انتبهن لها، وشعرت انها صارت قيدا للفتاتين، فحاولت ان تغير من اتجاه جلستها، وتهمل الفتاتين اللاتي سريعا ما اندلع شجار خفيف بينهن، وبعد دقائق غادرت احداهن ومعها زميلات لها، لتجد ثاوات، خولة تقترب من طاولتها، تقدم التحية وتسأل بجرأة:

- انا ابنة وداد، اتذكريني، ممكن اجلس.

ولم يكن امام ثاوات سوى الموافقة. بعد لحظات من جلوسها استخرجت خولة سجائرها وبدأت تدخن. وبدون مقدمات وجدت ثاوات نفسها تسأل:

- ايعرف اهلك بتدخينك؟

فضحكت خولة لتقول:

- بالطبع لا ، اتعتقدين ان ابي او امي سيقتنعون بذلك؟

وارادت ثاوات ان تشاكس قليلا:

- ولكنهم يمنحوك حرية الجلوس في المقاهي.

فقالت خولة بصدق:

- اه.لو عرفوا بذلك، لكانت قيامتي.

وسألت ثاوات:

- يعني...

فردت خولة بسرعة:

- اهلنا يظنون اننا الان في المكتبة العامة، وكنا هناك حقا، مررنا بسرعة، جعلنا البعض من معارفنا يروننا ليشهدوا بوجودنا عند الضرورة، ولكننا تسللنا من هناك بهدوء، وها انا اثرثر معك، بينما غادرت صاحبتنا زينب للقاء صديقها، وسنلتقي عند وقت محدد ونعود معا بعد ان نجد مكانا مناسبا، حمام اي مقهى في الطريق، نفرش فيه اسنانا ونمسح كل الماكياج عن وجوهنا.

وشعرت ثاوات بالغضب، لهذه الجرأة والصراحة المفاجئة، وكل هذه الشيطنة من مراهقة لا تعرف عواقب ما تفعل، وكان بودها خطف السيكارة من يد خولة وصفعها، الا ان ثاوات ضبطت نفسها:

ـ والثقة التي منحها لك الاهل يا خولة، والصدق مع النفس واحترامها؟

وهي تنفث دخان سيجارتها في الهواء، على طريقة ممثلات السينما:

ـ اوتعتقدين ان هذا لا يعذبني، انا لا املك الا ذلك، اعرف حدودي، لا املك غير اكاذيب صغيرة، ليس لي Boyfriend، وانا مجتهدة في دروسي. بنات صفي الفنلنديات يسهرن في الديسكو، وكل واحدة عندها Boyfriend، وبعضهن يشربن البيرة والنبيذ، انا لا املك سوى الكذب على امي والتستر على صديقتي وهي تقابل صديقها، وشرب عدة سجائر في الاسبوع.

وتزايد الغيض في دم ثاوات، وتذكرت وجه الام وداد المسكينة، وهو يتلوى المـا وهي لا تمل من تكرار شكواها والخوف على مصير اطفالها من الحياة في فنلندا:

ـ ما الذي افعل يا ابنتي ثاوات، قولي لي، هاهي ابنتي تنضج، صارت تغسل، وحواليها في كل مكان كل شئ مبذول، الناس عرايا، في التلفزيون والشارع والمدرسة، والرجل مع المراة، مص ومحاضن في كل مكان، تفتحين تلفزيون تجدين رجل راكب رجل، المجلات تأتي مع الدعايات الى البيت مجانا، وانا افرفح واركض، ماذا اقدر ان اغلق، اي نافذة، واي باب. عيون ابنائي تشوف كل شئ. ابنتي صارت الان تعرف اكثر مما اعرف وانا الام التي عاشرت زوجها سنينا طويلة.

وكانت ثاوات صادقة تقول للام:

ـ لا خوف ابدا، ان كانوا تحت مراقبتك ورعايتك الدائمة.

وها هي الابنة، تسمي سلوكها مجرد "أكاذيب صغيرة". وكان على ثاوات ان تستغل الوقت قبل مجئ تاريا لتتحدث الى خولة بشئ من المسؤولية، ولم يكن امامها سوى التلويح بفضحها امام امها.

ـ هذه "الاكاذيب الصغيرة" قد تقودك الى الهاوية يا خولة، اعتبريني مثل اختك واسمعي كلامي. هلاك اي بنت في كذبها على اهلها، وانت لديك ام طيبة، وتخاف عليك، واذا فلت لساني مثلا واخبرت امك فقد تفقدين حتى مشاوير الخروج مع صاحباتك.

وارتجفت اصابع خولة:

ـ اتظنينني فتاة فالتة بدون اخلاق، او من نوع تلك الفتيات المغامرات، اللواتي يفعلن الاعاجيب لتحقيق ما يرغبن به. لا يا ثاوات، انا خولة، ولست من هذا النوع، اعرف فتاة لا اريد ذكر اسمها تعتبر مثال للحشمة والعفة امام اهلها والناس، تصوري تخجل اذا دخلت عليها امها الى الحمام، وملابسها محتشمة بشكل واضح، وعيونها دائما في الارض، ولا ترد على احد

لو تحارش بها، لكنها في الوقت نفسه تصاحب رجل بعمر ابيها، تزوره الى بيته سرا، ويقال انها ترقص له عارية. اتعرفين اين تعرفت هذه الفتاة على صاحبها؟ في غرف الدردشة في الانترنيت، انا ايضا كنت لفترة ازور غرف الدردشة، كنت اهرب من اهلي الى المكتبة حتى ازور غرف الدردشة في مواعيدها، وصار اسمي المستعار معروف هناك بين رواد الغرف، وكان يمكن ان اقع في حبائل كثير من الشباب الذين راحوا يحومون حولي، لكنني كنت افكر بأمي قبل كل شئ. امي لم تأت الى اوربا الا من اجلنا، فتوقفت تماما عن زيارة غرف الدردشة، خصوصا بعد المشكلة التي حصلت لاحد زميلاتنا وصدقت اكاذيب احد الشباب وعرف اسمها واسم عائلتها وراح يبتزها بالف طريقة. عندها صدقت بمن كان تقوله لنا مدرستنا بان الانترنيت يجب ان يكون مساعدا للدراسة والفائدة فقط. انا اعرف حدودي يا ناوات، ولست مثل الفتاة المحتشمة التي تعتبر نفسها شريفه لانها فقط لا تزال باكرا ولم تفقد بكارتها. لا يا ناوات لست من نوع هذه الفتاة اللعوب. انا اعرف معنى الشرف، وانا مجرد فتاة محاصرة في بيتي، ليس عندي سوى الهاتف لاسمع حكايات صديقتي عن لقاءاتها مع صديقها وعدد القبلات التي تبادلتها واياه سرا، لا اجد مجالا لتبديد طاقتي الا بأرضاء نفسي بافعال صغيرة، اكاذيب صغيرة، احاول اقناع نفسي بأني متمردة، اما التمرد الحقيقي، فليس لي علاقة به.

وصمتت ناوات. وسؤال يرن في بالها:

ـ ما هو التمرد الحقيقي للفتاة الشرقية في اوربا؟ اهو حرية ان يكون لها Boyfriend وحرية ممارسة الجنس؟ ام هو بناء الشخصية عبر الاستفادة من امكانية الدراسة والتعلم من هذه الحضارة بما يدعم شخصية المراة الشرقية التي ظلت طويلا حبيسة قوانين الاسرة القاسية، وقوانين الرجل وسلطته وتعاليمه؟

٤

مرت ايام على عودة مروان الى تامبرا وبدأت الاجواء تهدأ، ولكن نوري لم يستطع ان ينسى كل ما حدث. كان يشعر بان ثمة شئ خطأ معه، او مع مروان، او مع الجميع. لم الامور لا يمكن لها ان تكون بسيطة وسهلة؟ ما الذي يدور في عقل مروان، واي جرثومة تسللت الى دماغه؟ ما الذي يجعله عدوانيا ضد الناس بهذا الشكل؟ ويرى ان الجميع كافرون، وليس سواه مؤمنا، ويعرف الله والشريعة؟ ايعقل انهم بهذه السرعة والقدرة استطاعوا غسل دماغ مروان؟ ولم كل هذه السنين، وهو، نوري، يعيش بهذا الاحساس بعدم الاكتراث لاحد؟ اهي من جانبه

انانية مفرطة، كما يلومه فوزي؟ كان من اجل ان لا يخلو سريره من امراة يبذل المستحيل، يمارس مختلف الالاعيب لجر امراة ما الى سريره. حتى لو خدع اصحابه. لم يكن يحب ان يتفوق عليه احد. لو طلب مراقصة امراة في مكان ما، ورفضت، ورغم ان الامر عادي جدا، فانه يترك المكان فورا. كان يرى الرجال، حتى الفنلنديين، ينتقلون من امرأة الى اخرى يطلبون مراقصتهن، ترفض الاولى، والثانية، وثم توافق بعدها اخرى. معه كان الامر يختلف. من المرة الاولى يجب ان توافق والا فلا حظ له في البقاء في ذلك المرقص. كان يختار نساءه بحيث لا ترفضه اي منهن. كان يجيد ذلك. يسأله مروان بصدق:

ـ كيف تقتنع بك النساء من الطلب الاول؟

فيضحك نوري، بغرور:

ـ اضع على زندي، تحت ثيابي خرزة زرقاء.

وراح مروان الغبي، يراقبه حين ينزع ملابسه، وهو يظن ان لديه حقا خرزة سحرية، تؤثرعلى النساء وتسحرهن. كان نوري يعتقد بان مروان غشيم، وأن القط يأكل طعامه. هاهو يبدو وحشا لا يمكن لاحد مسه. حين انفجر غاضبا في المطعم الصيني، ادرك نوري بأن مروان صار انسانا اخر تماما. ليس له علاقة ابدا بمروان السابق. كان يريد قتله لولا الاخرين. حين سمع بتدين مروان، تصور نوري الامر مجرد طقوس صوم وصلاة، على غرار كثيرين، لهم مظهر المؤمن ويمارسون كل الممنوعات. مثل تلك الحسناء من شمال افريقيا، كانت في سرير شاخوان مرة، قامت من تحته، لبست شادرها الابيض، استاذنته، ادت الصلاة في وقتها وعادت اليه ليواصل نكاحها. اما ملا حسين فهو البنك المتنقل في فنلندا. يقرض الالف دولار لمدة شهر ليقبض الف ومئة دولار. استلف منه شاخوان الف وارسلها لاهل زوجته، بعد ثلاث شهور فهم شاخوان ان ملا حسين صندوق ايداعات. حيث كل هذه القروض التي يقدمها هي من اموال الاخرين، وهو يأخذ لقاء عمله الحصة الاكبر من الارباح، ويقبض اصحاب الاموال اجزاء بسيطة. حين سأل نوري المرحوم ابو الحسن العدناني، قال الرجل:

ـ هذا ربا ياولدي، والربا في الاسلام حرام.

مروان الان، لا يوجد لديه حلال. كل شئ امامه حرام. تغير شكله. حلق شاربيه، واطلق ذقنه، وصار يرتدي ثوبا قصيرا مضحكا ولباس داخلي طويل ابيض. والمسبحة لا تفارق يده. باع المطعم وافتتح محلا كبيرا لبيع اللحم الحلال شركاؤه من الشمال الافريقي، بنفس هيئته وافكاره، ويقال هم من استطاعوا التاثير عليه وكسبه الى صفهم. عراقيون قادمون من تامبرا

قالوا لنوري ان مروان وشركاءه على واجهة محلهم كتبوا "مجزرة اسلامية". الم يجد اللعين غير كلمة "مجزرة" لتكون عنوانا لمحله؟ ام تراه يعمل بعقله الباطن؟ صار مروان انسانا اخر. ليس ذاك الشاب الغر، البسيط، الذي جاءه، وهو لا يعرف كيف يحكي مع امراة، وقف امامه يوما، وبتردد ليقول له:

ـ نوري، بشرفك، علمني كيف احكي مع النساء.

كان الجميع يشير لنوري بالاصابع، كخبير وزير نساء لا يجارى. بلاي بوي، كما سماه مرة غاضبا كريم مطرود، وكما يغيضه بذلك فرمان بوند. كانت اياما حافلة، على نوري ان ينزعها من على جلده. يشعر بالخجل للكثير من التصرفات فيها، ويرى انه كان يمكن له تجاوزها. كيف له الخروج من ثوب اللامبالاة، والاهتمام اكثر بنفسه، وبمستقبله، وبالاستماع اكثر وبجدية الى ملاحظات وتقريعات فوزي وكريم وشاخوان، وايضا الى اسئلة ثيفا؟ ثيفا التي دخلت على الخط من حيث لا ينتظر. صارت تدفعه الى زوايا يخشاها ويكرهها. هل يمكن ان يكون محبا ومحبوبا؟ لا يعتقد ان ما يحمله لثيفا هو الحب. هو شئ اخر غير ذلك. انها لا تشبه اي من نوع النساء اللواتي عرفهن ومررن بسريره. صادف واحدة تشبهها بقصر قامتها. كانت من نساء تلك الايام، التي يشعر الان بأنها بعيدة عنه، ولم يعد يشتاق لها. كيف كان وكيف صار يشعر الان؟ كانت ليلة صيفية ، من الليالي البيضاء، كل شئ ساطع، و تستطيع ان ترى السنجاب وهو يثب على اشجار الصنوبر، حين التقى تلك القصيرة القامة، التي سماها القطة. كان اسمها كاتيا. التقاها في "مشرب الليالي البيضاء". سحرته بقصر قامتها التي كانت تضفي على التفاتتها اثارة جنسية وهي تخطر بتنورتها القصيرة التي تكشف عن ساقين قصيرين مكتنزين يضجان بالاثارة كانهما منحوتان على يد نحات الهي. حكى لشاخوان عنها. كان شاخوان لا يزال مثله، مشغولا بليالي وقصص شقة السينما. كان لا يزال فاسقا مثله. تكاد تغيم عيون نوري، وهو يتذكر ما حصل تلك الليلة. احقا كان ذلك هو نوري؟ يذكر كيف روى ما جرى لشاخوان، الذي ترك ما بيديه وجلس يستمع الى روايته، التي كان يشعر فيها بنفسه، الاسكندر المقدوني، مؤسسا لأول عولمة في التاريخ، لكنها عولمة بين سيقان النساء، بينما يشعرالان بسخافة ما كان يفعل وما كان يقول:

ـ اتدري يا شاخوان اين تعرفت عليها؟

صاح به شاخوان بلهفة لسماع التفاصيل:

ـ وما ادراني،؟ بالتاكيد لا ادري، هل انا قوادك؟

مد نوري يومها ساقيه، ورفعهما، واضعا اياهما فوق الطاولة، وشعور بالتفوق يجتاحه وهو يرى شاخوان لا يمكنه تحقيق ما يحققه هو بسهولة، دون حاجة لتاجير شقق ولا شراء هدايا، ولا اغضاب زوجة:

ـ في "مشرب الليالي البيضاء"، انت تعرفه، رغم كونك ليس من زواره الدائمين. لا تسالني كيف، انا ساخبرك. التقيتها على الدرج المؤدي الى قبو الحمامات. كانت قادمة مثل غيرها لتؤدي عملا مقدسا. هل تذكر الدرج الخشبي الملتوي. درج طويل بدرجات ملتوية. ينتهي بباحة صغيرة، تكفي لوقوف اربع او خمس اشخاص، وعلى جانبيها ابواب الحمامات. في الباحة الصغيرة امام الحمامات طالما التقى معارف، وطالما وقف امثالي يتصيدون طرائدهم. كنت على وشك المغادرة والصعود الى الصالة بعد ان صففت شعري، وفرشت اسناني جيدا، فأنا احمل مستلزمات العمل معي في جيوب بذلتي. كان يصاحبني ليلتها مروان الاغبر، الذي سبقني في الصعود على الدرج، ليعود الى الصالة وهو يتوعد بان يظفر باجمل النساء تلك الليلة. كنت قد اوصيته ان لا يسرع في صعود ونزول الدرج، فانا لي خبرة بالمكان، خاصة اذا كان رطبا، وخصوصا ان الدرج كان زلقا ذلك المساء. لكن الاغبر التفت لينظر الى الفاتنة صاحبة الساقين العاجيين التي اجتازته نازلة باتجاهي، وهوب... وريت ربك لا يعمل بك يوما ما عمل بمروان. تزحلق المسكين سريعا بشكل غريب وعجيب. خفت ان تتكسر له فقرات ظهره، لكن الدرج كشط له ظهره فقط، وخرب كل اناقته، فغادر المسكين المرقص كله وتركني وحدي، وهذا ما كنت اريده. كان الرب تلك الليلة الى جانبي. ظل المسكين بعدها اسبوعا لا يتحرك، رغم انه ساعتها تماسك، ولم يقل حتى آه. رجل حقيقي. ساعتها منحني مروان الاغبر اجمل فرصة لاضحك منه سوية مع ذات المرأة التي سببت سقوطه. ياله من منحوس وبدون حظ، لم تكن تلك زيارته الاولى للمرقص، وهو يعرف مساوئ هذا الدرج. كنت في اسفل الدرج، تحت في طريقي للصعود، وكانت هي اعلى السلم تماما تنزل بهدوء وكأن تحت قدميها الصغيرتين ثمة سلة بيض. قدميها الصغيرتين وهي تنزل تطرقان ليس على خشب السلم بل على حواف قلبي. هل تعرف؟ انت لا تعرف طبعا. تبلغ درجات السلم ٣٢ درجة. نهض مروان، ودخل الحمام من جديد، ووقفت بحجة انتظاره، واتملى بحرية قامتها التي لفتت انتباهي جدا بقصرها المثير. كان ذلك القصر، يجعلها تبدو مثل دمية، وكانت ذات ساقين مثيرتين بشكل غريب، تظهران من تحت تنورتها السوداء القصيرة، التي تلتف على ساقيها المصبوبتان من الحليب والقيمر، كانهما عمودان قصيران في محراب مقدس. لحظة ان رايتها اول مرة، كانت اعلى الدرج. كانت مثل قمر يبرز من غيمة. شئ ما كهرب كل جسدي وكل كياني، كأني واياها مجالان مغناطيسيان يقتربان

من بعضهما البعض. عند الدرجة الخامسة ابتسمت اشرقت شمس في تلك الفسحة المعتمة من العالم. لا اعرف تصورت انها تبتسم لنفسها، ولكني لاحظت انها ترمقني بثبات مثلما افعل.حين صارت عند الدرجة السابعة بدات اشم عطرها المسكر، كنت اصعد ببطء وحين حاذيتها على الدرجة العشرون، اهتز كل بدني لم استطع الا ان اتابع كل خطوة منها كنت اود ان اقول شيئا الا انها نظرت لي بشبق وغنج ولا اعرف كيف طارت الي من فمها كلمة: "انتظرني". بقيت واقفا في مكاني انتظر ان تنهي مهمتها العظيمة ان تبول لا... لا يمكن القول ببساطة هكذا "تبول". كانت تقوم باجمل فعل انساني. بالنسبة لي، في تلك اللحظة، لولا هذه البولة لما التقينا وتعارفنا. لم يتطلب مني وقتا طويلا لمراقصتها، وكان المنظر يبدو كوميديا لمن يراني معها، حيث كنت أضطر لاحني قامتي، وثني ركبتي ليتناسب مع قامتها القصيرة، ولكني لم اعبأ باحد. وانا ادور معها حول حلبة الرقص، قلت لها:

ـ ارجو ان لا نواجه مشكلة فيما بعد؟

وردت علي، متغابية:

ـ مشكلة في ماذا؟

وخرجنا معا، لم اتركها تودع صديقاتها، قلت لها سنعود حالا الى المكان. وهناك في جانب من الحديقة، في ظلال شجرة بدأت معها. رفضت المواصلة اكثر في مكان مكشوف. لم اعد احتمل، اخذتها الى بناية قريبة، اعرف كيفية التسلل الى مدخلها، واعرف كيفية ايقاف المصعد بفتح بابه الداخلي، واوقفت المصعد عند الطابق السابع، حيث مقرات شركات تجارية، لم نغادر غرفة المصعد لان باحة السلم مليئة بالكاميرات. كانت قد نضجت تماما ولم تعد تمانع ما يجري حتى لو كان في كنيسة. كادت ان تفضحني بصراخها وانا اكتشف ان قصر قامتها لم يكن عائقا امام نكاحها، اذ امتطتني وانا اقف في المصعد وراحت تصهل وانهكتني وجعلتني اصرف كل ما احمل من ورق. بعد عودتنا، افترقنا عند باب المرقص، قالت لي بأن صاحبها سيكون هناك، فتركت المكان حالا وانا اصدقها تماما.

كان ذلك شئ يفتخر به بين اصحابه، يرويه بأكثر من صورة. قال له شاخوان يوما:

ـ لماذا لا تكتب هذه الحكايات في كتاب، ربما تبيعها للسينما؟

صارت هذه القصص الان شيئا يعذبه. قصر قامة ثيفا، لا يعطيها اي اثارة جنسية، مثلما فعلت تلك القطة الشبقة، التي قالت انها تعمل في مكتب وزير. حين قص ذلك لشاخوان، صاح فرحا بجنون:

ـ هذا يعني، اللاجئون المساكين نكحوا الحكومة؟

قصر قامة ئيفا، وشعرها الطويل المنفوش احيانا، الذي لا تجيد تسريحه، وثيابها التي تبدو وكانها لم تعرف المكواة جيدا، ذلك يدفعه الى الشعور بان تحت هذه الاهمال للنفس يختبأ عند هذه المرأة حب عميق لامراة ستكون انيقة وجميلة ومثيرة، فقط لو يتوفر لها أهتمام ورعاية اكبر. لفت انتباهه اصابع يد ئيفا الصغيرة كيد طفلة، واظافرها عديمة الطلاء. كيف له أن يخرج هذه المرأة من حالة اهمالها لنفسها؟ لم تحتاج ناوات للكثير من الوقت لتكون فتاة من طراز خاص. حين شاهدها تمر قرب محطة القطار الرئيسة عجلة، رفع بصره بدون ارادته لينظر باتجاه الرجال حملة المصابيح، اصدقاء كريم مطرود، خجل من تحيتها، فنادته بصوت عذب. وهو يقترب منها، تفحصها بسرعة. القوام المفتول وساقيها الملفوفين ووركها العريض، والثياب الانيقة الجاكيت البيج القصير وبنطلونها الضيق الرمادي المخطط بخطوط ناعمة طولية صفراء، فيبدو كأنه جلد حمار الوحش، متلائما مع قصة الشعر المصبوغ بلون الكستناء. والكفين الكبيرين، كانهما كفي رجل، وكتفيها العريضين ورقبتها المستقيمة. حياها بحرارة، وشدت بقوة على اصابعه. كانت تنظر الى ساعتها، وهي تحدثه، يدرك ان حركتها هذه لا تدل على عجلة، بقدر ما تدل على ارتباك، فتنفس بعمق ودفع صدره للامام، وشعر انه في موقع القوي:

ـ اخ نوري، اريد استبدال جهاز الستالايت القديم في شقتي، واريد شراء جهاز جديد من شاخوان، وانت تعرف علاقتي به، فلو تحدثت معه مباشرة فسوف لا يأخذ مني ثمنه. هل يمكن ان تساعدني بشراء جهاز ستالايت دون ان يعرف شاخوان انه لي تحديدا، وسأدفع السعر لك بالتمام، وايضا ارجو منك مساعدني في تركيبه.

وضحك نوري:

ـ ستجبريني اذن على الكذب مع شاخوان.

وابتسمت ناوات، كانها تقول له:

ـ يا شيطان يا ملك الكذب، دعك من ادعاء البراءة.

لكنها قالت له:

ـ كنت اليوم في امسية نسائية في باسيلا، وانا قادمة الان من هناك، اعطتني الاخت ئافتاو، زوجة عباس جامعة، رقم هاتف شاب لبناني يبيع الاجهزة الكهربائية ولكنه يتعامل بالاسود، ولا اريد التعامل معه، رغم ان اسعاره ارخص، شاخوان كما تعرف مصادره شرعية، وافضل التعامل مع ناس معروفين لي بشكل جيد.

ثم اخرجت هاتفها المحمول:
- هل يمكن ان تعطيني رقم هاتفك لاتصل بك؟
خجل نوري، فقال لها:
- ولو يا اخت ناوات، هاتي رقمك انت وانا اتصل بك حين ارتب الامور.
ضحكت ومدت يدها باناقة لتخرج من جانب محفظتها بطاقة بعنوانها واسمها وارقام هواتفها، سلمتها اليه، بطرف اصابعها، حيث لاحظ كيف ان طلاء الاظافر معمول وكانه عمل فني.
- سانتظر منك لتخبرني عن السعر، وفترة الاستلام، حتى يمكن ان نحدد يوم لتركيبه. الى اللقاء.
وابتعدت تمشي بغنج، ونوري يبلع ريقه خجلا. ولا كأنه نوري، زير النساء ، الذي داخت منه وبه مراقص ومشارب فنلندا. كل ذلك صار بسبب شاخوان ومشاريعه، واقتراحاته للزواج من ناوات، جعله وكريم يبتعدان عن هذه المرأة خجلا. كان نوري يود ان ان تكون له اخت مثلها، مجرد صديقة مثل ناوات. لكنه هل يمكن لامراة ان تثق به، بعد كل هذه السمعة الرديئة وما صار معروفا عنه من قصص خليعة حقيقية ومختلقة بين العراقيين؟ وذاك التافه فرمان بوند، لم يترك احدا، لم يذمه امامه. فرمان رجل ذكي ودنيء، يجد في سيرته مكانا رخوا هشا ليصيب ويؤذي من خلاله اصدقاءه، فوزي وكريم وشاخوان. حتى عباس جامعة، نسيبه، لم يسلم من لسانه ، لكن رب العالمين لم يتركه بدون عقاب. هاهي اخبار ابنه دلشاد في كل الصحف، وصورته صارت معروفة لكل فنلندي. حتى ثيفا، سألته:
- اتعرف هذا الفتى، او عائلته؟
ولم يجد شرفا في الادعاء بمعرفته، فكذب ببساطة. وحين سألها عن سبب اهتمامها، لم تكذب عليه:
- مجرد فضول، انتم العراقيون، من اصغر الجاليات في فنلندا، قلت لربما تعرفه او تعرف عائلته.
حين اجتمعوا في المقهى الرياضي بعد انتشار خبر اعتقال دلشاد، كان كريم غاضبا ومتوترا:
- اتدرون في محاضرة لي عن التربية وموضوع اختلاف الحضارات، في نهاية المحاضرة،اعتبرني فرمان مغاليا، وكوني اتحدث بشكل نظري لان لا اطفال معي لارى عمليا كيف كيف تكون مسؤولية الاب؟
صاح نوري يومها:
- دخيل الله ودخيلكم من هكذا اب تافه وحقير؟

وانتبه نوري جيدا الى ان كريم لم يكن مسرورا لهذه اللهجة، ومع ذلك واصل نوري متجاهلا كريم، ومتوجها بكلامه الى فوزي:

ـ بربك فوزي، وانت الاعرف، ان تلقي الشرطة الفنلندية القبض على فتى عراقي متلبسا بالجرم المشهود، ثم تكشف التحقيقات التي نشرت الصحافة معلومات عنه، انه زعيم شبكة لصوص تضم فتيان مراهقين عراقيين وفنلنديين وروس وينشطون بشكل منظم، والزعيم يملك سلاح ناري قالت الصحف انه مسدس "توكاريف"، ولا تريدني ان اسب والده واشتمه، هذا اضافة الى كونه ابا مدعيا وكاذبا وتافها.

لم يجب احد بشئ. يعرف نوري بانهم جميعا سمعوا ويعرفون عن فرمان بوند ما فيه الكفاية، وكلها اشياء ليس في صالح فرمان، ولكن فوزي كعادته لا يعطي رأيا سريعا في قضية لا تزال خيوطها متشابكة بين التحقيقات والصحافة واقاويل الناس. والحاحا منه، صاح نوري بفوزي:

ـ اعتقد اني مخطيء يا فوزي لاني اشركتك في الحديث، فأنت وجماعتك لا تستعجلون الامور، يقال حتى ممارستكم للجنس تكون على مراحل.

ضحك فوزي:

ـ انتبه يا نوري ان معاييرك الجنسية لا تنفع معنا!

ابتسم كريم، ورفع كفه لنوري راجيا الهدوء. يعتقدون انهم اذا لم يسكتوه، فأن بأمكانه ان يواصل المزاح حتى يهرب الجميع. التفت نوري الى كريم، محاولا جذب اهتمامه اكثر:

ـ تحدثنا عن تأثيرات المجتمع الاوربي على العائلة العراقية، وانت الاعرف، انت شخصيا ادنت ومباشرة وبشكل قطعي الاباء والامهات وحملتهم المسؤولية الاساسية، احاول ان ابين لفوزي ان الاب حتى ومع عدم رضاه على ما يكتسبه ابناؤه من عادات اوربية جديدة، فهي تكون طبيعية جدا بالنسبة للمجتمع الفنلندي، ولكن الاب يراها مخالفة لعادات مجتمعنا في العراق، ولكن الاب يظل محكوما بكونه ابا يتمنى ان يكون ابناؤه سعداء وهانئين و...

وثار فوزي:

ـ أيكون سعيدا بالسرقة وكسر القانون؟

قال كريم وهو يحاول التقاط اطراف الحديث:

ـ كل انسان يمكنه ان يكسر القانون بطريقته؟

وبصوت عميق، كأنه يخرج من قبو قال نوري وعيناه تلمع:

ـ انت تقصد اني ايضا اكسر القانون لاني اشتغل احيانا بالاسود مع شاخوان؟

وتنحنح فوزي:

- ياجماعة النقاش ليس بهذا الشكل، ليس...

وعاد نوري لرفع صوته:

- نعم، فكريم يصعد الاتهامات بدل ان يصعد الحجة. ولا اعرف لماذا يدافع عن شخص كلنا متفقون انه سافل و...

وقاطعه كريم:

- ربما هو دوري لاصعد صوتي مثلك يا نوري. انا لا ادافع عن احد، انا اتحدث عن ظاهرة تستحق الدراسة، واتحدث بشكل مجرد، لا يهمني الاسماء ابدا في احاديثي. انتقال العراقيين الى بيئة جديدة، مجتمع اخر بثقافة وقوانين ومؤسسات تختلف جذريا عن المجتمع العراقي يفرض على العراقين تغيرات كثيرة ايجابية وسلبية.

صاح نوري بطريقة مسرحية:

- انا واثق ان كلا منا قرأ عشرات المقالات بهذا الخصوص، واشكرك يا اخ كريم على تذكيرنا او تذكيري شخصيا بذلك، ولكن حديثي وانت الاعرف يتحدد بمسؤولية الاباء. حول موضوعة التوجيه والارشاد.

وقال فوزي وهو يغمز لنوري:

- واذا كان الاب بذاته بحاجة الى توجيه وارشاد من اجل ان يكون افضل؟

صاح نوري بفرح:

- رحم الله والديك وكل موتاك. اخيرا نطق ابو الهول. وهذا ما اريد الوصول اليه، الكبار هم اساسا ضائعون وهكذا تاه الصغار.

وبانزعاج قال كريم:

- الضياع هنا له ايضا اشكاله.

٥

وصل كريم مطرود الى ساحة الحافلات الملاصقة الى محطة القطار الرئيسية، قريبا الى المسرح الوطني، بالقرب من تمثال الكسيس كيفي، ومثلما توقع، حين ترك المقهى الرياضي، عرف انه سيكون الاول هناك. تمشى كريم قليلا بجانب التمثال البرونزي المخضر كانه مطلي بطبقة من العشب السحري، مفكرا بأطراقة الكسيس كيفي الحزينة والعميقة، معجبا بقدرة واينو

التونين[٩٤]على التقاط ذلك التعبير الفلسفي في نظرة الكاتب الذي قدم اعمالا صارت من كلاسيكيات الادب الفنلندي. في كل مرة يقف كريم امام التمثال يحدق براحة يد التمثال، وينظر الى عروق يده البارزة التي تعكس مهارة عمل النحات. اي دماء تسير في قلوب هؤلاء العظام؟ واي سؤال لم يستطيعوا الاجابة عنه؟ قدم الكسيس كيفي اعمالا حملت سؤال الانسان الازلي في البحث عن نفسه، منذ كلكاميش ومرورا بكل الحضارات حتى الكاليفالا والزمن المعاصر. هاهو كريم مطرود يجد نفسه هنا، تحت سماء القطب الشمالي، مبكرا يذرع الساحة حيث ستنطلق مظاهرة ضد الحرب. ايجد تجار السلاح واصحاب الرأسمال انفسهم وذواتهم في قيادة حرب يشنونها على بلد يحتضر تحت سياط ديكتاتور هم من ساهموا في خلقه واستمرار حكمه؟ هم من مده بقوى الاستمرار والقوة، وجعلوه يصبح هتلرا وحجاجا جديدا، والان يعزفون اسطوانة انقاذ العراق من سطوته! ايصدق بسطاء الناس بحججهم؟ ربما، فالذي يشوف الموت يرضى بالحمى. وحمى الحرب ربما اهون لهم من موت صدام حسين الذي يذيقه اياهم كل يوم. كيف يمكن لبسطاء الناس النجاة من الموت؟ لو نجوا من سياط الديكتاتور الارعن، فهل سينجون من قنابل المنقذ؟ حالما بدأت تتعقد الامور صار يفكر بأبنته أكثر. من خلال ام عامر، وعبر قريب لها، تاجر عراقي، قالت له ام عامر انه يملك شبكة من بائعات المفرد في الساحة الهاشمية في عمان، كانت ام عامر احداهن، يبيعن العطور الرخيصة وعلب السجائرواشياء اخرى، ارسل كريم لابنته فكرة مغادرة العراق مع امها واخيها، واستعداده التام لمساعدتهم جميعا ماليا. كانت ام عامر تقوم بجهد كبير لتأمين اتصاله بابنته، لا يجازف كريم بالاتصال بها مباشرة. لا يزال قلبه لا يحتمل قصص الرعب التي سمعها عن قدرات مخابرات صدام حسين. في ذاكرته ذلك الاب الذي استلم رسالة في مظروف واحد من ولديه الهاربين خارج العراق. كان كل واحد منهما يعيش في دولة ثانية، وارسلا رسالتيهما في تاريخ مختلف، وبدون اتفاق ما، لكن مجئ رسالتيهما في ظرف واحد اثار ارتياب الاب. اوصى الذاهبين لابنيه يستفسر فاكدا له انهما لم يفعلا ذلك يوما، بأن كتبا له رسالة في مظروف واحد، وزالت عن محيا الوالد المسكين اي مشاعر للفرح من استلام الرسالة، او حتى مشاعر الدهشة وسكن محلها الخوف والرعب. يبدو ان ضابط المخابرات، وبعد ان قرأ رسائل الابناء، اراد ان يوصل تحذيرا معين للاب، او انه تكاسل اعادة كل رسالة لمظروفها، فارسلها في مظروف واحد، بعد شهور غادر الاب العراق، والخوف يلاحقه حتى وهو يعيش لاجئ في بلد اوربي. لا يوجد شئ يتقنه نظام صدام حسين غير كتم انفاس الناس، لا علاقة لرجال النظام بتطور مستوى حياة الناس وسعادتهم، لهم علاقة فقط في التفنن في ايجاد

اسباب لموت المزيد من الناس. كل مرة كان كريم يتصل بأم عامر هاتفيا، وبدورها تخبر قريبها التاجر في عمان، وبطرقه الخاصة يقوم الرجل باتصالاته. كانت رسالة رحيل الجوابية قصيرة، ومن سؤال واحد:هل وضعك المالي يمكنه تحمل نفقات تنفيذ الاقتراح؟ وكانت ابنته مصيبة في سؤالها. مصاريف الحصول على جوازات سفر، والرشاوي، كانت اكبر بكثير من اجور السفر. وبدأ كريم بالاستدانة، من هنا وهناك. لم يطلب ذلك من احد مباشرة، ولكن اصحابه فهموا حاجته. كان فوزي اول المبادرين، فاجاه بظرف مغلق وبه مبلغ من المال. لم يكن كبيرا، لكنه كان التفاتة لا يمكن تجاهلها. وادرك كريم ان فوزي شجع الاخرين لمساعدته وشرح لهم اوضاعه. لم يتفاجأ بمعرفة شاخوان لحاجته، تردد اولا خجلا، لكن شاخوان اعرب عن استعداده للتكفل بتوفير نفقات السفر من العراق الى عمان، وحين اعترض كريم، قال له شاخوان بروحية رجل اعمال:

- اعتبرذلك قرضا مفتوحا بحقك، يمكنك تسديده حين تشاء.

ووافق كريم على ذلك. لم يكن امام كريم اي خيار. اوضاعه المالية لا تسمح له بنفقات غير عادية. راتبه الشهري بالكاد يكفي ايجار شقته وقوائم هاتفه، وكل ثلاثة شهور يرسل مبلغا بسيطا لرحيل ليساعدها وامها. لم يتحدث عن همومه المالية امام باولينا، اوضح لها بأنه سيحاول اخراج ابنته وامها، ومعهم طارق، وهو يتابع الترتيبات، ولكنه ابدا لم يتحدث عن اي شئ له علاقة بالمال. هاهي رحيل ترسل له خبرا عن كونها ستكون في عمان في العاشر من اذار. وسيكون معها امها واخوها طارق. طارق سيكون الرجل "المُحْرم" الذي بدونه لا يمكن لامرأة عراقية عبور الحدود. وفكر كريم بكون صالح وهو في قبره، يبدو وكأنه يفكر بمستقبل رحيل ومحاسن. وكأن صالح تزوج محاسن لتلد طارق ليكون رجل المستقبل الذي سيكسر لأمه ظلام القوانين التي تجحف حق الانسان في الحركة والسفر. رتب كريم كل شئ لاقامتهم في الاردن. قدم له فوزي عونا كبيرا. في عمان الان هناك غرفة بانتظارهم، دفع كريم ايجارها مقدما، وسيصل الى عمان بعد ان يتأكد من وصولهم اليها، وهو يحمل في داخله كل الخوف والرهبة. لم يكن خوف كريم من لقاءه ابنته وحدها، ولا من لقاء طارق، بل من لقاء محاسن. فلا يعرف بأي شكل او صورة سيكون لقاؤه مع محاسن. هل عليه ان يكون امتدادا لكريم الذي غادر قبل ربع قرن وانجبت منه محاسن ابنتها رحيل؟ ولكن، هل ستكون محاسن مؤهلة لهذا الانتقالات والتحولات؟ انه يفكر بشكل نظري وقاسي، وتبدو افكاره مجرد احلام، وربما اوهام. الناس يمكن ان يتغيروا بين يوم وليلة، وبينه وبين محاسن انهار من الايام جرت فيها مياه احداث كثيرة. لمحاسن الان افكارا عن الناس والحياة غيرتلك الافكار الاولى للمرأة التي عرفها. ام عامر تحاول ان تزوق له الامور، وتحثه على ان يكون المبادر:

ـ ربما ستجد فيها طباعا غير تلك التي عرفتها فيها، عليك ان تعرف ان ذلك لم يكن بخيارها، الحياة هي من جعلتها هكذا. عليك ان لا تتردد في مساعدتها لتعود مثلما كانت.

لم يفهم كريم ما كانت تريد قوله ام عامر. كانت تراهن على حبهما الذي ما زال جمرا تحت رماد الايام. حين الح بالاسئلة، نظرت اليه بعمق، ومسحت شفتيها الممتلئتين باطراف اصابعها:

ـ اعرف عنك انك رجل ذكي، ومحاسن تقول عنك ان كتب التاريخ علمتك الكثير، هذا وانت في العراق، فكم تعلمت وانت خارجه؟ انا اؤمن بان رب العالمين سيساعدك وسيهديك الى معرفة ما تهدم بينكما.

كيف سيرمم كل ما تهدم بينه وبين محاسن؟ ربما سينجح في بناء علاقته بشكل جيد مع رحيل، ستكون علاقة اب وابنة، مع الزمن تمتلك حرارتها وتمتليء بالتفاصيل الجديدة، ومع طارق سيكون الامر ربما اسهل. سيكون له عما، صديقا، وظلا لاب ثان وسيجعله يشعر بحنان كبير. يعرف كريم نفسه بأنه يملك الكثير مما يؤهله لمحبة الناس، لكن محاسن، كيف لكريم ان يسلك اليها، ليدخل قلبها من جديد؟ واي طريق يسلكه اليها؟ وماذا عن باولينا؟ اهكذا بكل سهولة يطردها من حياته وهي التي صارت له الزاوية الامينة، هنا، عند القطب الشمالي؟ كيف سيوفق بين كل هذا؟ ورفع كريم رأسه والتقت بأطراقة تمثال الكسيس كيفي، فاراد ان يصرخ:

ـ ماذا تقول يا الكسيس كيفي؟ حرك يدك، ارفع راسك قليلا، دعك من هذه الاطراقة الحزينة وكلمني.

اقترب كريم قليلا من التمثال البرونزي، محدقا من جديد بخضرة الصدأ التي تكسوه وبعروق يد الكاتب النافرة. كان يريد ان يهمس بشئ ما للتمثال، لنفسه، حين سمع صوتا ينادي:

ـ كريم مطرود.

والتفت كريم. كان هناك العديد من الناس والمعارف قد تجمعوا. كان فوزي من يناديه، وهو منشغل بتوزيع اللافتات على بعض الاشخاص. تحرك كريم وهو يحكم لفاحه حول رقبته. كان الى جانب فوزي جمع من الشبيبة الفنلندية ينشرون لافتاتهم واعلامهم. توجه اليهم كريم وهو يزرر جاكيته، القى التحية دون كلام. واجهه العديد بالابتسامات. تعرف الى وجه كيمو ولم يعرف بقية الاسماء، لكنه يعرف هذه الوجوه جيدا. التقاها في مناسبات عديدة، وفي تظاهرة الخامس عشر من شباط الماضي، يوم ان خرجت اوربا كلها ضد الحرب، كانوا الى جانبه. هرع اليه فوزي:

ـ تصورت انك سوف لن تأتي، ولكن بيكا تويفينين نبهني الى كونك تدور حول التمثال كأنك تحاوره. ماذا قال لك نوري؟ هل قال انه سياتي من باب الجاملة كعادته، رغم انه يتمنى الحرب للخلاص من صدام؟ هاك هذه صورة صدام وانيابه تقطر دما، اذا وصل نوري فستكون من حصته، والا فعليك رفعها حتى وصولنا السفارة الامريكية.

اقتربت من المكان تلك السيدة الانيقة القصيرة، بشعرها الكستنائي القصير، ونظارتها الطبية الصغيرة، وابتسامتها العريضة. انها من قيادة منظمة السلام الفنلندية. حين صارت على مقربة، تحركت بخطوات سريعة، وصافحته بحرارة:

ـ تيرتو اهوكاس[٩٥].

قال له فوزي عنها بحرارة:

ـ في لقائها لا أشعر بكوني في حضرة قائد سياسي ومنظم جماهيري، اشعر بحضورها الامومي، والامر لا علاقة له بي شخصيا، سألت اخرين، فنلنديين، هكذا قالت لي أنو وهكذا قال كيمو.

سالت السيدة بادب وبصوت خافت:

ـ اين فوزي؟

واشار كريم الى فوزي، الذي كان يدير لهم ظهره، مشغولا مع بعض الاشخاص، ويوزع عليهم رسومات كاريكاتيرية للرئيس بوش ولطوني بلير وصدام حسين تظهرهم كمجرمين قتلة. قال له فوزي ان كيمو قضى يومين يعمل توليفا لها. بدأ الجمع يكبر بسرعة، ظهر كثير من الناس. شباب في غالبيتهم. لاحظ كريم قلة عدد العراقيين. قال له شاخوان:

ـ سوف لن يشارك كردي واحد لان الاكراد مؤيدون للحرب.

عند بداية الزقاق قريبا الى المسرح الوطني، ظهر نوري يتقدم مجموعة من العراقيين، يبدو انهم وصلوا بقطار الضواحي، عرف فيهم كريم بعض الاسماء. حسين الزوراني، منتصر هادي، تحسين شاكر، يوسف ابو الفوز، سالم غفور وعباس جامعة، واخرين. تحركوا باتجاه فوزي الذي راح يرتبهم بصفوف وسلمهم لافتات وبيانات. حين اقترب كريم من نوري، وجده يحمل لافتة باللغة الفنلندية ، فقال له فوزي:

ـ يا كريم، صارت صورة صدام بأنيابه من حصتك.

في الخامس عشر من شباط الماضي وتلبية لنداء الحملة الدولية المناهضة لضرب العراق، وحيث خرج ملايين الاوروبيين الى الشوارع مرددين الهتافات ورافعين الشعارات الرافضة للحرب،

وفي هلسنكي دعت "لجنة التضامن مع الشعب العراقي" الى مظاهرة ضد الحرب. ووجد كريم نفسه في مقدمة الصفوف. كانت درجات الحرارة ١٥ تحت الصفر، كان البخار يتجمد عند فتحات الانف، وكانت شوارب الرجال تبدو مبيضة، واتصل به فوزي، باعتباره عضو اللجنة وأحد منظمي التظاهرة:

ـ لابد من حضورك يا كريم.

لم يكن هناك مجال للاعتذار بأي سبب. كان فوزي، حين يتحدث معه، يجعله يشعر وكأن كل شئ متوقف على مشاركته. وذهب كريم الى التظاهرة، رافعا شعار "لا للحرب"، وحين مر بقرب مجموعة فنلنديين سأله احدهم:

ـ هل انت مع صدام حسين؟

وسارع كريم ليبحث عن من يعطيه صورة صدام مشطوبة بعلامة X حمراء. اعتذر البعض عن حمل صورة صدام المشطوبة، وكان كريم يفهم خوف الناس الذي يسكن تحت الجلد، وحيرتهم، بين المشاركة في التظاهر او عدم المشاركة. وادرك كريم كم يبدو فوزي وجماعته في ورطة من هذا الفهم السهل والخاطئ لموقفهم وشعاراتهم. انت ضد الحرب يعني مع صدام، انت ضد صدام يعني مع امريكا. حين كانت شوارع اوربا، رغم البرد، تلتهب بمظاهرات معاداة الحرب، كانت وسائل الاعلام تنقل اخبار عرض صدام حسين السري للولايات المتحدة الامريكية بمنح الشركات الامريكية كل العقود النفطية الرئيسية والاستعداد الكامل لتقديم كل ما هو مطلوب أمنيا وعسكريا لقاء تخلي الولايات المتحدة عن مشروعها بشن الحرب واسقاط نظامه. يا له من سلوك عاهر من نظام لا يريد قادته سوى النجاة بجلودهم، ولا يهمهم مصير الشعب. كان شاخوان يسأل فوزي بشئ من اليأس:

ـ وهل ستنفع تظاهراتكم في ايقاف الحرب، او ازاحة صدام؟ حتى لو تظاهرتم بالملايين في اوربا، المهم ان تكون هناك تظاهرة ولو من عشرين شخصا في بغداد.

وكان يرى الحقيقة في كلام شاخوان. الحرب على الابواب، والتصريحات من البيت الابيض الامريكي تزداد شراسة كل يوم، ولا يبدو ان احدا سيسمع الاصوات الغاضبة والرافضة للحرب والهادرة في شوارع اوربا وكل العالم. اتفق مع رحيل على مغادرة العراق باسرع ما يمكن. لا يملك خططا جاهزة للمستقبل وماذا سيكون بعد ذلك. هناك مجرد افكار اولية. ربع قرن وهو بعيد عن ابنته ومحاسن. لا يريد ان يخسرهما بسبب حرب تشن لرغبات صقور الراسمال الامريكي وغباء ديكتاتور صار الكرسي جزءا من عجيزته ولا يمكنه الحركة بدونه. الزمن يمر بسرعة. هم في

الاول من اذار. الربيع بدا يطرق ابواب العالم. حاملا معه الامل بحياة جديدة للاشجار والطيور والبشر. وفي بلده شبح الموت يطوف في الشوارع وسماء بلاده التي صيرها خوف الناس رمادية. التفت كريم فرأى ثاوات ايضا. فوجئ بها. هذه الفتاة تكاد تختلف عن كل بنات جنسها من العراقيات، وبحضورها المظاهرة جعلها تحمل موقفا تعارض به الكثير من ابناء قوميتها. ليس بعيدا عنها كان نوري يمزح مع يوسف ابو الفوز وحسين الزوراني. وكان عباس جامعة يتحدث الى ثاوات بخفوت وهي تبتسم. كان عدد النساء الشرقيات قليلا جدا. الى جانب ثاوات تقف بضع نساء، عرف فيهن شادمان علي ورباب خليل. رباب زميلته التي التقاها في دورة لرفع كفاءة المعلمين الاجانب. لاحظ كريم ان ثاوت كانت كعادتها بملابس انيقة، وكأنها في حفل وليس في مظاهرة. معطف اسود طويل، ولفاح رمادي، ومن تحت طرف معطفها يبان بنطلون رمادي بخيوط فضية ناعمة طولية. وكان حذاؤها بكعب منخفض، ويبدو من الجلد المبطن. هذه امراة تعرف كيف تبدو جميلة ببساطة وبدون تكلف.اين زوجة تيمو لترى ثاوات، وحتى تكف عن ازعاجه بأسئلتها التي لا تنتهي، وهي تحكي عن فوضى ذوق نساء شرقيات صادفتهن مرة في الباخرة القادمة من السويد. وانفجرت باولينا مع زوجة اخيها:

ـ وهل وجدت كريم ممثلا لكل الشرقيين في فنلندا، واذا كنت لا تشعرين بالارتياح لملابس الشرقيين وطريقة حديثهم، فلا تتعاملي معهم وابحثي لك عن غيرهم، فمزرعة زوجك، اخي، تمتلئ بأزواج اولئك النسوة، ومن كدهم وتعبهم يحقق الارباح الخيالية.

اتفق كريم مع باولينا اللقاء بعد التظاهرة. ستكون في انتظاره في مقهى "برافدالو". لم تشارك باولينا في التظاهرة لارتباطها بمواعيد سابقة. لم يقل كريم لباولينا يوما كلمة احبك، لكن هذه المرأة الصموت تجعله يحمل لها شعورا اكبر من الحب. لم تحاول باولينا ان تحمّله اكثر مما يجب. رجال الشرطة يملأون المكان متوفزين، متحفزين. صار لديهم خبرة كبيرة. ما ان تكون هناك مظاهرة للشرقيين فلابد ان تكون هناك مشكلة ما. كل برد فنلندا، لا يمكن ان يبرد لهم دماءهم الشرقية. في التظاهرة السابقة، قبل اسبوعين، صاح به نوري:

ـ ماهذا التوافق الغريب، اليوم ١٥ شباط، ودرجة الحرارة ١٥ تحت الصفر، الحمد لله لم يختار فوزي وجماعته المظاهرة في يوم ٢٠!

انتبه كريم كيف ان الايام تمر بسرعة.

٦

مرت التظاهرة حاشدة بالالاف. ضجيج وصراخ، واصوات تتقاطع تقتحم "مقهى الاجنحة السحرية" فتكسر الهدوء والسكون، حيث راح بعض الزبائن يقتربون من زجاج الواجهة العريضة لينظروا الى ما يحويه الشارع. تركت باولينا الصحيفة من يدها، واقتربت ببطء تسترق النظر من بين الاكتاف. كانت تريد ان ترى كريم واصحابه. لم تشأ ان تشارك هذا اليوم معهم في التظاهرة، رغم ان كريم سبق وان اصطحبها الى العديد من نشاطاتهم. تحججت بموعد سابق، وكانت تريد من كريم هذه الايام ان يخلو الى نفسه. ان تتركه مع نفسه وهو يعيش ازمته، رغم كونها جزء من هذه الازمة. لم تتشأ ان تحرمه من احلامه. لم تشأ ان تكون انانية فتقف امام احلامه بلقاء ابنته، حتى ولو كانت معها امها، وما يجلبه هذا اللقاء من مخاطر لتوهج جمر الحب القديم. في ساعات الصفاء، وفي الشهور الاولى لتعارفهما، طلبت باولينا من كريم ان يحدثه عن محاسن. كانت تريد ان تفهم كريم اكثر. كيف يفكر وكيف يكون تعامله مع الاخرين. كانت ترى كيف تغيم عيناه بالخوف كأنه يخشى فتح صندوق مليئ بالاسرار. كان كريم يهرب منها، متعذرا بأكثر من سبب. لم تتوقف في الحاحها وأسئلتها. كانت تريد ان تعرف اشياء مخبأة في روحه، علها تستطيع تلمسها. كانت تلمس حب كريم لها. حب من نوع لا يقال بالكلمات. لم تسمع هذا الرجل يقول لها يوما، كلمة من تلك التي تريدها كل امرأة، لكنه كان يجعلها تشعر بأنها مرفأه ومرساته. هرع اليها مثل الغريق، يستكين الى صدرها مثل الطفل. لطالما جلسا الى التلفزيون يتابعان فلما، ويسند رأسه الى صدرها مثل الطفل، فيغمرها دفء كبير لالتصاقه بها. وكثيرا ما تلتفت لتجد انه ينظر الى وجهها ومحياها ولا علاقة له بما يجري في على شاشة التلفزيون. تسأله مبتسمة:

- ماذا؟

ينظر اليها، بصمت. يهز رأسه، ويمد اصابعه، ليغلق فمها، ويغمض عينيه، ويدفن وجهه بين نهديها، وسرعان ما ينتظم تنفسه، تشعر بانه على وشك ان يغفو. بعد لقائه بصديقة محاسن في ستكهولم، الحت عليه حد الزعل، وبعد تردد كثير، همس لها:

- ليس من اللباقة ان يحكي رجل لامراة عن امراة اخرى سبق وعاشرها، ربما يجرح من تستمع اليه او يسئ للثانية البعيدة.

تماسكت باولينا، وقالت بجدية:

- هي تاريخك، وماضيك، واريد ان افهمك اكثر من خلال ذلك. تحدث بالشكل الذي يعجبك.

حين كان يتحدث كريم عن محاسن، وحين حدقت بالصور القليلة لها، القديمة والحديثة، كانت باولينا تتسائل عن ذلك السر الذي يجعل رجلا مرتبطا بأمراة بهذا الشكل رغم السنين لطويلة التي فصلتهما. لم تكن محاسن اجمل منها. تعرف باولينا ان عيونها جميلة، وسحرت كريم من الايام الاولى، وانها تبذل جهدا في المواظبة للحفاظ على قوامها، برغم تعديها الثلاثين. لا تزال تستخدم بعض التنورات والبناطيل القديمة من ملابسها. لم تسمح لنفسها بأن تزداد وزنا. كانت سنيكا تشعر بالغيرة منها، وهي تغير تنوراتها كل فترة:

- يا باولينا، اتعتقدين ان للاكل الجاهز علاقة بكبر بطني في الفترة الاخيرة.

فتطلق باولينا رصاصاتها باذن سنيكا مباشرة:

- هذا بسبب رداءة اوضاع ممارسة الجنس مع عشاقك في الغابات والسيارات.

لم يشعر كريم يوما بالارتياح لسنيكا، بعد معرفته بقصص خياناتها الزوجية المتكررة، وكان يندهش لسر عدم طلاق زوجها لها، رغم انفضاح الامر اكثر من مرة، وكان يجد صعوبة في فهم ما تقوله له باولينا:

- مُلكية البيت، الحساب البنكي، اليخت، السيارات واشياء اخرى مثل رعاية الاطفال، كلها لو تقاسموها بعد الطلاق سيفقد كل منهم شيئا من توازنه المالي والاجتماعي، وللحفاظ على كل هذا في صورة زاهية امام الاخرين، يستمران في حياتهما معا كزوجين شكليا، ومن جانب اخر كل له حياته الخاصة.

لم تسمع باولينا يوما من كريم شتيمة لاحد، ولا يميل لاستخدام كلمات نابية. كان امينا لاخلاق وصفات المدرس المثالي، لكن عند ورود اسم سنيكا، يشعر كريم بالقرف والامتعاض، وتنطلق منه كلمة Vittu باحلى ما سمعته من انسان طول حياتها، بلكنة محببة لديها تجعل هذا الرجل يسمو في روحها وكيانها. كان كريم لا يطيق شخصية سنيكا اللعوب، ويتهرب من لقائها، لكنه لم يحاول يوما ان يتعرض لعلاقتها معها. يهمس لها مشاكسا:

- اعرف عمق ارتباطك بسنيكا، فقط دعيها بعيدا عني!

تدرك باولينا عمق ارتباط كريم بزوجته السابقة بمحاسن وبأبنته. تعرف ان هذا الارتباط يشكل لكريم جانبا اساسيا من شخصيته. لانه جذوره. تفهم باولينا جيدا ان الامر عند كريم لا يرتبط فقط بالسنوات القليلة والمعدودة، التي قضاها مع محاسن في علاقته الزوجية السعيدة. تفهم باولينا جيدا معنى تلك السنوات وما تركت من اثر عميق وراسخ في روح كريم. تجد

باولينا ان من السخف محاولة طمس ذلك، ومحاولة التغطية عليه. قال لها يوما كريم بحرارة، وطيف امتنان في عينيه:

ـ اتدرين، معك اتحدث كثيرا عن ابنتي وعن محاسن، يبدو الامر حتى مخالفا للواقع. كان يفترض بك ان تبعديني عن التفكير بهما، لكني معك اجد نفسي اتحدث عنهما وافكر بهما، اكثر من كل يوم اخر.

كانت باولينا، تدرك جيدا ان علاقة كريم مع محاسن تأتي امتداد لتاريخ كريم مع مدينته وناسه واصدقائه، وما محاسن الا واحدة من قمم تلك الايام البليغة الاثر في تضاريس روحه، بل وهي قمة مهمة. وحين تنظرالى علاقتها مع كريم، تجد ان ثمة انسجاما انسانيا شفافا يتواصل بينهما. وان علاقتهما قطعت اشواطا كبيرة. تجاوزت التقليدي في علاقة رجل بأمراة. لطالما كانت مع كريم يمارسان مختلف الطقوس بشغف ومتعة، يتحدثان، يمرحان، يتأملان، وثم ينتبهان الا ان الوقت مر، ولم يمارسا الجنس. لم يكن هناك غير قبلات سريعة خاطفة. كان وجود كريم بحد ذاته عندها عالما كاملا، مثلما تشعر بروح الاطمئنان التي تغزو كريم بحضورها الى جانبه. تتذكر باولينا جيدا كيف انها في الفترة الاولى عانت من احاديثهما باللغة الانكليزية مع كريم، ووجدت ان استخدامهما للغة ثالثة يجعل مشاعرهما تمر عبر مرش يسرق كثير من وهج احاديثهما. وفهمت باولينا اسباب تعثر علاقات البعض ممن يتحدثون بلغة ثالثة، واعتقدت انه ربما يكون واحد من اسباب الانفصال لبعض الزيجات. وسرعان ما تحولت في الحديث مع كريم الى اللغة الفنلندية. لم يعارضها كريم في ذلك، كان مسرورا لانها تأخذ بيده لتعلم اللغة الفنلندية ليساعده في عمله وعلاقاته واهتماماته. كانت باولينا تجد نفسها اكثر حرية في لغتها الام. تجد نفسها تسبح بليونة في مياه ساكنة، بينما ترى كريم يبذل جهدا، في البحث عن المفردة المناسبة، وحين تستعصي معه يستعيرها من اللغة الانكليزية. في الاحاديث السياسية والثقافية العامة مع كريم، لا تجد باولينا اشكالا ما، لكن في تلك الاحاديث الخاصة، الشفافة، التي يجب ان تنطلق بكلمات قليلة، موجزة، لتصيب شغاف القلب، تفقد الاشياء بريقها حين يتعثر الحب بسبب اللغة لايصال ما يريد، وتكون التعاسة اكثر حين يحتاج ان يورد هوامش ليشرح افكاره، تتحول العبارة الرومانسية ليس الى رسالة حب، بل الى مقال في التاريخ واللغة مليء بالهوامش والشروحات. عبارة الحب يجب ان تكون مثل قطعة خبز لينة مطلية بقليل من الزبدة، تهضم نفسها بلذة ونعومة، ولا تكون مثل حجر يخنق من يأكله. ان تكون الكلمة لينة مثل جوارب شفافة ولكن مطاطة ومتينة لا تتمزق بسرعة. حين يتحدث كريم الفنلندية تراه

باولينا كمن يسبح بصعوبة، وكأنه يرتدي طوافات حول جسده لاعانته على بلوغ الشاطئ لايصال الفكرة التي يقصدها، ورغم تطوره واجادته للحديث باللغة الفنلندية وجهوده في البحث وقراءة تاريخ فنلندا، الا انها تبقى تشعر بأن هناك اشياء ناقصة. فتقارن كريم بغيره من الرجال الشرقيين ممن تزوجوا فنلنديات. الامر لا يتعلق بطيبة وحسن اخلاق كل انسان. الامر تراه يتعلق بتلك التفاصيل الناعمة، البسيطة التي ترد في احاديث الانسان، ويجهل المقابل كل تاريخها وخلفياتها. في حوار متشعب قال كريم يوما:

- يوم قال ستالين لمحاوره الفنلندي "قد يكون لكم رأي آخر ولكني لست مسئولاً عن الجغرافيا".، فرغم ان ستالين كان محقا بكون الجغرافيا تفرض واقعا لا سبيل لمواجهته، وهو كان يرسل تحذيرا من اتخاذ فنلندا لاي موقف سياسي يضر بالاتحاد السوفياتي، طالبا من فنلندا ان تحافظ على خيار الحياد في الصراع بين محاور الشرق والغرب، الا اني اجد نفسي اتعارض مع ستالين هنا، لانه اهمل التاريخ. اشياء كثيرة تكمن في التاريخ. التاريخ عندي وفي مرات عديدة يتجاوز الجغرافيا.

من يومها، وهي تتوقف امام اهمية التاريخ عند كريم، ليس كأهتمام ومادة للبحث، بل وكفلسفة للنظر في عمق الاشياء. ظلت باولينا تحرص على ان تتبسط مع كريم في امثلتها واستعاراتها، وان تورد ما يعرفه ويفهمه، وتحذف من احاديثها ما يستعصي عليه. ادهشها كون كريم بفترة قصيرة اطلع وصار على معرفة بتفاصيل لربما بعض الفنلنديين لا يملكون الوقت للتوقف عندها. كان اهتمام كريم بالكاليفالا مثار اعجابها واصحابها. جعل زوجة اخيها تيمو تنظر بأعجاب الى كريم، وتطلب من باولينا دعوته الى بيتهم الصيفي في عطلة الاسبوع. هناك راح كريم يتحدث عن التلاقح الحضاري وعن الملامح السومرية التي وجدها في الكاليفالا. استفز تيمو من افتراضات كريم وتصاعدت روحه القومية الفنلندية، وكأن كريم يسطو على شئ خاص به. وكان كريم صارما:

- ارجو ان تعرف يا عزيزي تيمو ان هذا المسمى صموئيل همنغتون ونظريته حول صدام الحضارات، ما هو عندي الا رجل مخرف، وشبه مجنون، لانه يتصرف كمطية للعولمة الراسمالية، لدعمها في محاولة ايجاد اعداء جدد بعد نهاية الحرب الباردة، ويمكن لك ان تضع فوكوياما عراب نهاية التاريخ معه في عربة مجانين واحدة. هناك شئ في الحضارات الانسانية، اسمه التواصل، التلاقح، الحوار. وأستطيع ان افرد لك عشرات الامثلة والكاليفالا واحد من هذه الامثلة.

من اجمل اللحظات لباولينا التي تمر بها مع كريم حين يكون صامتا، ساكنا، غارقا في افكاره. مثل مياه بحر شاسع وعميق، تحار في معرفة ما يحوي من اسرار في اعماقه. وما ان تشتبك اصابعها باصابعه، وتشتعل فيها نيران الرغبة، ويشتبك جسداهما في حوار صامت، حتى تشعر بنفسها تسبح في اعماق هذا البحر مفتوحة العينين، وترى كل ذلك الجمال المدهش، والاضواء التي تنطلق في سماوات خفيضة تمس لها كل خلاياها. في الايام الاولى كانت تعجب لكون كريم يمارس الجنس معها مفتوح العينين. ضحكت حين قال لها انه يريد ان يراها كيف تشعر وكيف تستجيب:

ـ لا أريد ان اعيش مع الحالة مجردة وكأني أشتبك مع جسد فقط. انا لا امارس الجنس، انني امارس الحب، واريد ان أرى تفاصيل افعالك. لا تضحكي، اريد ان ارى افعال الحب الصغيرة كلها. اريد ان ارقب انتصاب حلمتي نهديك لحظة توترك، اريد رؤية عضة الشفة اللاارادية لحظة الايلاج، اغماضة العين الاجبارية وارتجاف جلدة الوجه لحظة تواتر الايلاج، وبداية صرخة بلوغك الذروة، وتلك التنهيدة كأنهيار جبل جيلدي وانت تنزلين من قمة الذروة بأتجاه السكون بين ذراعي.

وتعلمت باولينا منه ذلك. صارت لا تغمض عينيها ابدا. في المرات الاولى كادت تنفجر بالضحك، لان الامر بدى لها طريفا ومسليا، لكنها اعتادته، وراحت تشعر بالامتلاء بالرغبة اكثر وبالقدرة على التفاعل اكثر، وفي تلك المرات التي يجعلها كريم تبلغ الذروة اكثر من مرة، ويفجر اضواء اللذة في روحها، كانت لا تتمالك نفسها فتغمض عينيها لتسبح اكثر في اعماق روحه، وتفقد سيطرتها على نفسها وتطلق صرخات بصوت عال، وكأنها وحش بري.

من خلف الزجاج المضبب، ومن خلف كتف امراة انتصبت امامها فجأة، لاح كريم لباولينا في الطرف البعيد من الصفوف التي صارت قبالة نافذة المقهى العريضة. تحركت على مهل لتكون في موقع جيد لرؤيته بوضوح. كان كريم يسير على مهل، غارقا في افكاره، وكأنه بعيد عن كل شيء، رغم كل الضجيج والفوضى والالاف المتدافعة. ليس بعيدا عنه تسير بعض الوجوه التي سبق وان راتها باولينا معه، او قابلتها في مكان ما. عرفت فوزي بسرعة، وهو ينتقل بين المتظاهرين، ويطلق الصيحات. كان نوري هناك، وكعادته يبدو مراحا، هازئا وكأنه في عيد او مهرجان، من حوله تنطلق الابتسامات وهو المتحدث. ربما يروي لهما نكتة داعرة جديدة. حكى لها كريم كيف كان لا يطيق مقابلة هذا الرجل، وثم كيف تحول عداؤهما الى صداقة حميمة:

ـ انظري يا باولينا، ان من اسرار علاقتي بنوري وحبي له، اننا مختلفان جدا. وربما في اغلب وجهات النظر، ولكني اتلمس في هذا الرجل ارضية للتغير نحو الاحسن، لان كل تاريخ هذا

الرجل لا علاقة له بأسلوب حياته الحالية. اجده وكأنما ينتقم من نفسه ومن مجتمعه للاخفاقات في شؤون كثيرة، سياسية واجتماعية، وارى ان في داخله انسانا، شفافا، وقادرا على العطاء، بحاجة فقط الى عامل ايقاظ من هوسه الحالي باللامبالاة وعدم المسؤولية.

في التظاهرة، كان هناك بعض النساء العراقيات. لم يكن عددهن كبيرا. كريم يسير ليس بعيدا عن تلك الفاتنة التي قابلتها في مهرجان الثوم، كأنها ممثلة هوليودية. قال كريم ان نوري يسميها "سكالي". كان كريم يحمل لوحة كاريكاتيرية لوجه صدام حسين، وانيابه تقطر دما. يسير صامتا، محدقا بفتور الى الامام يدفع بقامته التي لم تفقد نضارة الشباب وحيويتها رغم اطراف الشيب الذي يغزو فوديه. كم اغاضها وهو يرفض صباغة شعره:

ـ انت مجنونة يا باولينا، شكلي هكذا هو جزء من تأريخ حياتي، اتريدين مني تزييف نفسي وتاريخي؟ ليكن ما يكن، لتكرهيني ان شئت، هذا انا، لون قلبي ولون شعري سيبقى مثلما صنعته امنا الطبيعة.

تراجعت باولينا قليلا، حين رأت كريم ينظر بأتجاه واجهة المقهى الزجاجية. اتراه خمن انها ستكون هنا للقاء سينكا، قبل ان تذهب للقائه في مقهى البرافدالو؟ لو نظر جانبا لربما رأى سيارتها التي ركنتها في موقف الساحة قبالة تمثال القيصر الكسندر الثاني. حين يكون كريم معها، ويتركان سيارتها في موقف السيارات هنا، ويكون كريم بمزاج رائق، يلتفت الى تمثال القيصر الروسي ويناديه على غير عادته وهو الرجل الرزن والصامت دوما:

ـ للاسف يا فخامة القيصر، بعد كل ذاك السلطان والجاه، صرت مراقبا لموقف السيارات. حسنا، انتبه الى سيارة باولينا ، هذه الفاتنة تهتم باحفادك وترعاهم، ففي روضة الاطفال حيث تعمل، هناك بعض منهم، ومنهم تعلمت كلمات يمكن ان تشكرك بها.

وتجد باولينا نفسها مجبرة، لتجاري كريم فترفع يدها باتجاه التمثال لتقول بصوت عال:

ـ Spasepa[٩٦]

ما ان مر اخر المتظاهرين، حتى لمت باولينا اغراضها. قدرت باولينا ان التظاهرة ستلتف عند القصر الرئاسي، ثم تعود بمحاذاة سوق الميناء ومن جديد تلتف مع الميناء بأتجاه مرسى البواخر، ثم تواصل بأتجاه السفارة الامريكية. هناك ستتلى الخطابات والهتافات، وثم تسلم بيانات الاحتجاج الى السفارة ، وهذا سيتغرق وقتا يكفي لجولة صغيرة في المحلات التجارية القريبة قبل التوجه نحو مقهى "البرافدالو". في مظاهرة ١٥ شباط الماضي اصر فوزي على أختيار كريم ليكون ضمن الوفد الذي سلم المذكرة. يومها تأخروا كثيرا عند البوابة حتى جاء

من استلم المذكرة. تجمدت اطراف الجميع، كانت درجة الحرارة ١٥ تحت الصفر. وراح غالبية المتظاهرين يرقصون ويدبكون. اشعل بعضهم النار لكن الشرطة لم تسمح لهم لان المكان كان غير مناسب. حين عاد كريم من السفارة، كان منزعجا من التأخير، وانزعج اكثر حين سمع بانهيار بعض المتظاهرين بسبب البرد، وكان بينهم بعض معارفه.

سارت باولينا على مهل بأتجاه اقرب المحلات، تحدق الى الواجهات الانيقة للمحلات التجارية، للالبسة والمعدات الكهربائية، وترى الوجوه حائرة، ونظرات واجمة في وجوه الكثيرين. كان كريم يقول لها انه في ايامه الاولى في فنلندا كان يخاف كثيرا من الصمت الحائر في وجوه الفنلنديين، ويخاف ان يوجه سؤالا، او يجيب على سؤال. كانت الوجوه تبدو له بلا حياة، وبعضهم بنظرات عدوانية، بحيث كان يعجب، كيف يحكى عن الحرية في العلاقات بين الرجل والمرأة. كان يتساءل:

- وكيف يمكن لهما التعارف والحديث ما داما بهذا الصمت المريب؟

قررت باولينا ان تعود. عليها ان تقود سيارتها ببطء في الشوارع الداخلية، نحو الموقف العام عند "جسر المافيا". كادت باولينا ان تطلق ضحكة، اذ صارت تستخدم تلك الاسماء التي راح يبتكرها نوري وتنتشر بين حلقة الاصدقاء والمعارف من حول نوري وكريم واصدقائهم. قال لها كريم يوما، وهي تسأل عن "الجسر العباسي" في كيرافا:

- يا سيدتي، هذا من ابتكارات نوري، كل شئ هنا، له اسمه وفق قاموس نوري الخاص، ولعدة اسباب، غالبيتها لانه يحاول ان ينقل بلاده الى هنا كأسلوب تعويضي. فالجسر الحجري فوق نهر كيرافا، ليس بعيدا عن المسرح الصيفي، ولانه منحنى كطراز الجسر الاثري في كردستان العراق، فهو صار في قاموس نوري "الجسر العباسي". والمقهى قرب محطة القطار هو "المقهى الرياضي"، ومسؤولته في مكتب العمل استبدل اسمها الى ام غزوان لانها تشبه جارته، وسوق الميناء صار له اسمه "سوق السمك". وهكذا بعد سنوات، اذا اتبع العراقيون قاموس نوري ووافقوه عليه، فيجب ان تكون لهم خرائطهم الخاصة لفنلندا، حيث كل شئ له اسمه الخاص.

على مهل حركت باولينا سيارتها من مكانها وهي تشكر القيصر ثانية، بتلويحة صغيرة، والتفت خشية ان يراها احد، فيظن أنها جنت. هل اصابها فايروس الجنون من اصحابها العراقيين. كادت ان تضحك مع نفسها، اتراها جنت حقا لتحكي مع تمثال؟ تذكرت باولينا شهر أب الماضي، يوم مهرجان الثوم في كيرافا. دعاهم فوزي الى المدينة لمشاهدة المهرجان، وهيأ لهم طعاما عراقيا، اكتشفت ان كريم ساهم في اعداده. في المسرح المفتوح، الذي يحمل اسم "مسرح الشمس"، كانت فرق شبابية غنائية وراقصة تقدم عروضها، وعلى مصاطب المتفرجين،

سكر نـوري وراح ينـشر فوضـاه، واسـتقطب اهتمـام النـاس بهرجـه. التـف حولـه مجموعـة مـن السكارى، ومجموعة من الشباب الاجانب وسحبوه جميعا امام الميكرفون، وراحت الفرقة تـضبط ايقاعها على ايقاع كفيه وصوته، وغنى اغاني راقصة عديدة. كان نوري يختـار الحانـا معروفـة، يونانية وانكليزية، ويؤلف كلاما بالعربية لا احد يفهمه سوى جماعته ويخلطه بكلمـات فنلنديـة وانكليزية. لم يكن صوته غنائيا، لكنـه كـان يـؤدي بـشكل سـاخر ومـضحك، واذ كـان الجميـع غارقون بالضحك دون ان يفهموا كلماته. فهمت باولينـا ان مـا يرتجلـه نـوري لـيس سـوى كـلام فاحش وساخر. الطريف ان نوري صار نجم الحفـل، وراح الجميـع يـدورون حولـه ويرقـصون، حتـى فوزي وكريم. ويومها قالت امرأة الى جانبها:

ـ لقد جن العراقيون.

وضحك كريم وفوزي، لما قالته المراة، فقال كريم لباولينا:

ـ ما دمنا جننّا، فتعالي وجنّي معنا، لا يوجد اعذب من الجنون بالحياة.

على مهل قادت سيارتها في الشوارع القديمة المرصوفة بالحجارة. هذه الشوارع التي اغرم بها كريم. كل مرة يطلب منها ان يغـادرا شـقتها ويتجـولا حـول الكاتدرائيـة، عنـد بنايـة جامعـة هلسنكي، عند بناية محافظة المدينة. في هذه الشوارع يتمشى كريم بهدوء، عكس كل الامـاكن الاخرى. يسير بخطوات حذرة و قصيرة، وكأنه يخشى ايذاء حجارة الشارع. يفتح ذراعيـه، وكأنـه يريد الطيران، يسحب شهيقا عميقا، ويهمس لها:

ـ شمي، شمي رائحة التاريخ. تصوري يا باولينا في هذه الازقة، سـار ليـنين خـلال هروبـه مـن حكم القياصرة، في طريقه الى المنفى وفي عودته الى روسيا سرا. في هـذه الـشوارع تظـاهر الاف الفنلنديين، ضد الاحتلال القيصري. هذه الشوارع يجب ان تصان من جهات دوليـة. ان لا تـسمح لاحد برمي اوساخ عليها، كل يوم يجب ان تنظف وتمسح كالزجاج.

تحدق اليه. تراه احيانا مبالغا ومضجرا ربما، واذ تكون على عجلة من امرهـا احيانـا، لبلوغ مكان ما، ويكون كريم معها، يفاجأها ويتوقف ليحدق بافريز بناية، ونحت بارز من شرفة المكان:

ـ اترين؟ اترين هذا الجمال؟

لطالما اجبرها كريم على ان تركب معه الترام فقط ليدور بهما، في شوارع هلـسنكي القديمـة، تلك الشوارع التي يعتبرها احسن ستوديهات حية ومفتوحة لتمثيل الافلام التاريخية. في سـاحة الكاتدرائية امسك بها يوما، واشار الى زقاق تمر كل يوم منـه دون ان تنتبه اليه:

ـ انظري، من هذه الزاوية، صوروا الممثل عمر الشريف، في فلم دكتور زيفاكو، وهو يلاحق الترام، حيث كانت حبيبته يارا في داخله. كان ذلك من اخر مشاهد فلم دكتور زيفاكو. كانت هلسنكي ايام الحرب الباردة، مكانا ليس لشبكات التجسس ضد الاتحاد السوفياتي، بل وكمكان مناسب لتصوير الافلام الامريكية والغربية، فكما تعرفين شوارع هلسنكي القديمة لها قرب من عمارة وتصميم شوارع بطرسبورغ وموسكو القديمة.

وتعجب احيانا لقدرته على جمع المعلومات، وبحثه ونبشه لها. جاءها يوما مسرورا:

ـ اليوم عرفت معلومة جديدة، تحتاج الى المزيد من البحث والتدقيق. اتعرفين لماذا في زمن الحكم القيصري لفنلندا، كانت كل قطعة حجر في رصيف شوارع هلسنكي يجب ان لا تقل وزنا عن ثلاثة عشر كيلو غرام؟

ولم يتركها تجيب، بسرعة اجاب على سؤاله:

ـ حتى لا يمكن للمتظاهر الفنلندي الغاضب، ان يقلعها من الارض ويرمي بها الشرطة الروسية القيصرية. ايها الفنلنديون لقد سبقتم الفلسطينين في ثورات حجارتكم.

٧

عند السفارة الامريكية، من الجانب الخلفي، في جانب من الحديقة العامة المجاورة، حيث ممرات المشاة التي حولها المراهقون الى مكان للسباق على زلاجاتهم الخشبية، احتشد الالاف من المناهضين للحرب. شباب وفتيات بعمر الورود. وجوه طافحة بالحيوية والنشاط. بكوفيات عربية، وقمصان بصور جيفارا. وباعلام المنجل والشاكوش وحمامة السلام. والشعارات الساخرة والمباشرة. صورة لطفل عراقي يبكي ومن فوقه رموز لقنابل امريكية تتساقط. صور كاريكاتيرية لجورج بوش وطوني بلير. مجموعة من الشباب تغني مقاطع من اغنية المطرب "جورج مايكل" الجديدة. لم يكن هناك برنامج للخطابات. اعدت مسبقا كلمة مشتركة بأسم المتظاهرين، تتحدث فيها "لجنة مناهضة الحرب" بصيغة عامة ضد الحرب. بذل فوزي جهدا كبيرا لتثبيت الاشارة الى الديمقراطية وحقوق الانسان في العراق. يكاد فوزي يفقد سيطرته احيانا على نفسه، حين يدخل في نقاش مع بعض الاوربيين. ايمكن لليسار الاوربي ان يكون بهذا الشكل من العمى السياسي؟ اتراهم يفكرون ويعملون بمنطق القرون الوسطى، او حتى الجاهلية العربية؟ "انا ضد ابن عمي ومع ابن عمي ضد العدو". حتى لو كان ابن عمي قاتلا وسفاحا ومجرما، مثل نظام صدام حسين؟ ايكون عداء اليسار الاوربي للسياسة الامريكية، يجعلهم

يستجيبون لديماغوجية نظام صدام حسين الديكتاتوري في مواجهته الفارغة للسياسة الامريكية؟ الا يدركون بأن امريكا اغمضت اعينها طويلا عن جرائم نظام صدام حسين لمصالحها في المنطقة؟ من ساعد صدام حسين على قمع انتفاضة ١٩٩١؟ من ساعد صدام حسين على تصنيع الاسلحة الكيمائية؟ الاقمار الاصطناعية الامريكية، التي صورت حتى اعقاب السجائر في معسكرات الفدائيين الفلسطينيين في بيروت، اين كانت يوم قصف صدام حسين مدينة حلبجة الكردية بالخردل والسيانيد وتناثرت الاف الجثث للنساء والاطفال والشيوخ، ولم يكن بينهم مسلح واحد؟

يدور فوزي بين المتظاهرين. يوزع البيانات التي تعارض الحرب وتنادي بمساعدة الشعب العراقي لانهاء النظام الديكتاتوري في العراق. ينظر فوزي الى الساحة الاسفلتية امام السفارة الامريكية، ويبتسم لنفسه. الايام تمر بسرعة. وكأن ما حصل عام ١٩٩٧ كان البارحة. ذلك اليوم اراد شاب صومالي الاعتداء عليه ولكمه، لانه هتف ضد صدام في التظاهرة. كانت ازمة النفط مقابل الغذاء على اشدها، حين تم تنظيم مظاهرة ضد احتمال قصف بغداد او حرب جزئية من قبل الولايات المتحدة الامريكية، وكان نظام صدام حسين يلعب بأعصاب العالم بماطلاته للامم المتحدة. رفضت احدى الجمعيات الثقافية العربية في فنلندا التظاهر ضد صدام حسين، وارادت ان تتظاهر فقط ضد امريكا، كلف فوزي بالاتصال بهم، اوصاه رفاقه بالمرونة مع من يتحدث معهم. عبر الهاتف قال فوزي لممثلهم:

ـ لم اغادر بلدي بسبب امريكا، رغم معارضتي لسياستها العدوانية والكيل بمكيالين في تعاملها مع الاوضاع في الشرق الاوسط، وسنتظاهر ونرفع شعارات ضد السياسة الامريكية ولكن ايضا ضد جلادي شعبنا.

وفهم ضابط الشرطة حقيقة الامر فعزز عدد رجال الشرطة، وشدد فوزي عليه:

ـ يا حضرة الضابط انتم تتحملون مسؤولية اية محاولة اعتداء علينا، وشخصيا اضمن لك عدم مبادرة اي شخص من جماعتنا لاي عنف.

اخبره الضابط بأنه لا يمكن ان يمنح موافقة لمظاهرتين في وقت واحد ومكان واحد. كان فوزي حائرا. غدر به ممثلو هذه الجمعية الثقافية العربية. بتكليف من رفاقه اجتمع اليهم، واتفق معهم ان ينظموا تظاهرة مشتركة، ولتوزيع المهام، اتفقوا ان يقوموا هم بأخراج اجازة التظاهرة، وسيتكفل فوزي بالتبليغات والاعلان ودعوة الناس. وطوال اسبوع عمل بكل طاقته. كانت السيدة تيرتو اهاكوس، شكلت لمساعدته مجموعة من شباب منظمة السلام كانوا

يعملون الى جانبه مثل خلية نحل. كان كيمو انشطهم، وتلك الفتاة الجميلة، التي كان يخشى الوقوف طويلا امامها، لان لديها عينين سوادوين ساحرتين، حين تحدقان به عميقا، تجعل قلبه يضطرب. لولا هذه المجموعة لما انجز شيئا ولظل يعمل منفردا. رفاقه رغم تمنياتهم الطيبة، وتشجيعهم له، الا انهم مشغولون بأستمرار، ولكنهم وعدوا بالحضور الى التظاهرة، وصاح بهم غاضبا:

ـ ادعوا الناس، ساعدوني بدعوة الناس، سارتب كل شئ بنفسي، نريد تظاهرة تقول للفنلنديين ان لنا موقفا مما يجري في بلادنا.

وضع كيمو اعلانا في الانترنيت موجه للفنلنديين. ارسلوا اعلانا لعدة صحف محلية، نشرته بعضها في صفحاتها الداخلية. طبعوا الاعلان على شكل ملصق صغير، ووزعته مجموعة من الشباب الفنلنديين في اماكن التجمعات الشبابية. لجأ فوزي الى كل علاقاته مع الجالية العراقية لاستثمارها. لم يترك احدا لم يتصل به. كان نوري كثير التذمر من طلباته، وصاح به يوما:

ـ انت تستغل صداقتنا لتوريطي في السياسة. انا انفذ طلباتك لاني اشفق عليك وانت بدون سيارة وتريد نقل كل هذه اللافتات واللوحات بالقطار ثم بالترام.

التفت اليه يوما وسأله:

ـ فعلا يا فوزي، كيف توفق بين كل هذا؟

ووجد فوزي نفسه يغادر رزانته ويهمس لنوري:

ـ بهذا طبعا، وليس بهذا.

وأشار بسبابته الى راسه اولا، ثم نقلها الى ما بين فخذيه. كان المكان الاول الذي تم اختياره للتجمع عند تمثال الحدادين الثلاثة، وحين اتصل به ممثل الجمعية الثقافية العربية ليقول له بصوت جاف، وبلهجة تبدو غاضبة:

ـ لن نسمح بأي شعار ضد اي زعيم عربي معاد لاسرائيل.

صاح به فوزي:

ـ حتى ولو كان جزارا وجلادا لشعبه مثل صدام حسين؟

وصار واضحا لفوزي ساعتها يجب ان تكون هناك تظاهرة ثانية بديلة. ويعني يجب ان يكون مكان تجمع اخر. وكان الوقت ضيقا جدا. وهرع مع كيمو الى البوليس للحصول على اجازة. وشرح فوزي الامر بصراحة للضابط، الذي فرش امامه خارطة المكان، وقال له بروح تعاون بارزة:

ـ يمكنك ان تختار مكانا قريبا، وبوقت يتقدم او يتأخر قليلا.

أختار فوزي بداية حديقة الاسبلاندي، عند تمثال الشاعر اينو لينو، ليكون مكانا لتجمع وانطلاق التظاهرة البديلة، واختار ان تكون بعد نصف ساعة من بدء تجمع التظاهرة حسب الاتفاق الاول. لم يلحق فوزي واصحابه لابلاغ الجميع عن تغيير مكان وزمان التظاهرة، فوجدوا في النصف ساعة زمنا كافيا للتواجد عند تمثال الحدادين الثلاثة لارسال من جاء حسب التبليغ الاول الى تمثال الشاعر اينو لينو حيث يقف كريم مطرود ومنتصر هادي ويوسف أبو الفوز وحسين الزوراني واخرون يرفعون شعارات ضد صدام حسين وضد الحرب. ووصل العراقيون من مختف المدن الفنلندية، من مدينة كوبيو Kuopio وتوركو ومن ضواحي هلسنكي. وصلوا بالباصات او بسياراتهم الخاصة. لحق فوزي ورفاقه لاخبارهم بالتغيرات، فجاؤا مباشرة الى تمثال اينو لينو. وصلت الى التظاهرة عشرات الرسائل والبرقيات من تجمعات العراقيين، ومن برلمانيين وقادة سياسيين فنلنديين. بذلت السيدة تيرتو اهاكوس جهدا في وصول برقيات تأييد من برلمانيين وقادة سياسيين معروفين مما اعطى زخما للتظاهرة. كان جمعا مثيرا للانتباه. حين تحركت تظاهرة الجمعية الثقافية العربية، كان مرورها بالقرب من تمثال الشاعر اينو لينو، وصعّد فوزي وجماعته هتافاتهم. لم يختار فوزي المكان عبثا، كان عامدا يريد ذلك ان يحصل. اوصى المتجمعين بضبط النفس وعدم الاستجابة للاستفزاز. واوصى ضابط الشرطة بتعزيز الحراسات وتوقع اعتداءات. كان يريد للناس ان يفهموا ان هناك موقف رافض للديكتاتور ايضا، وليس للحرب فقط. وجه فوزي اللافتات بأتجاه الشارع، وكان هناك رسم كاريكاتيري بحجم كبير، يتقدم التجمع، اخذه فوزي من جريدة عراقية، وبمساعدة من كيمو وفتاة اخرى اسمها آنو، يفترش النمش وجهها، كبروا الرسم ولونوه قليلا. بذكاء رسم الفنان "بسام فرج" صدام حسين يصوب مسدسا الى رأس مواطن عراقي، وهو يصرخ بأتجاه الامم المتحدة: "اذا ضربتم سأضرب". في بدء التجمع، اعطى فوزي لكريم مطرود حزمة من هذا الرسم الكاريكاتيري وقال له:

ـ ربما يطلبها احد منا.

وتلقفها المواطنون الفنلنديون وهم يطلقون الابتسامات التضامنية، وشعرت حسناء فاتنة بالحسرة لانها لم تحصل على نسختها، فسجل كريم عنوانها، ووعد بارسال نسخة من الرسم بالبريد. غضب منظمو التظاهرة الاولى، لان العديد من الفنلنديين، حين رأوا شعارات التظاهرة الثانية تركوا التظاهرة الاولى والتحقوا مع التظاهرة الثانية. رجل فنلندي بشعر اشيب ونظارات طبية، صاح:

ـ انا ضد الحرب وضد صدام. انا معكم.

فاعطاه كريم مطرود رسما كاريكاتيرا لصدام وانيابه تقطر دما، فحمله بزهو، وهو يربت على كتف كريم. التف الفنلنديون بالعشرات حول التظاهرة العراقية، وراحو يستمعون الى فوزي الذي ارتقى دكة تمثال اينو لينو، الذي فيما بعد راح بعض العراقيين ممن لا يستذكرون اسم الشاعر يسمونه "تمثال فوزي". تحدث فوزي لمن حواليه بأختصار، بشكل قال له كريم عنه انه بدا طريفا وعمليا. لم يكن غرض فوزي استعراض امكانياته اللغوية. لكنه راى التعدد في اقوام الناس، فتحدث بجمل قصيرة بدت لكريم مطرود وكأنها مهيأة مسبقا. كان فوزي يقول العبارة بالعربية اولا، ثم يعيدها باللغة الفنلندية، ثم بالانكليزية. وكان التصفيق يتصاعد في كل مرة. لم يحاول فوزي ان يكون خطابه جافا، طعمه بنكتة عن صدام حسين، وقرأ اسماء مرسلي البرقيات، التي بينت ان الشعب العراقي ليس لوحده يواجه المحنة. كانت ناتاليا هناك تدور حوله، غير معنية بما يدور، مشغولة مع كاميرتها. كانت تدور حول التمثال وتلتقط الصور بغزارة. قال له نوري:

- هل صاحبتك تشتغل مع المخابرات الفنلندية؟ اخاف كل صورنا تروح لهم.

قال له طاهر معيوف الذي كان قريبا :

- لا تخف الكاميرات القريبة من المكان، من الصباح توجهت الى هنا وسجلت كل شئ بالتفاصيل. نحن في فنلندا يا اخي نوري، في دولة "Big Brother!"[٩٧]

من اول بدء التجمع وصل الى المكان العديد من الصحفيين. اثار انتباههم وجود تظاهرتين في مكانين متقاربين. وكانت الهتافات من عند تمثال الحدادين الثلاثة تصل قوية من تجمع اعداد من بعض الفلسطينيين والجزائريين والمغاربة والصوماليين والسوريين، الذين رفضوا الانضمام الى التظاهرة التي تدين نظام صدام حسين. قال احد ممثلي هذه الجمعية العربية الى فوزي:

- لا تنس يا اخي ان صدام حسين هو الرئيس العربي الوحيد الذي تحدى امريكا واسرائيل.

وقال له فوزي وهو يكز على اسنانه:

- وهو الرئيس العربي الذي اغتال الملايين من ابناء وطني في سجونه وحروب داخلية وخارجية مستمرة حتى الان.

عند السفارة الامريكية كانت هناك تظاهرتان، تفصل بينهما الحواجز التي وضعتها الشرطة. التي تنتشر حول المكان ومجموعة من الكلاب البوليسية جاهزة للانطلاق. كان فوزي طوال الطريق يوصي الجميع بالهدوء، وان لا يبدر منهم اي خطا او توتر. كانت السيدة تيرتو اهاكوس، ترى توتره ودورانه، فاقتربت منه، ووضعت ذراعها على ذراعه، وربتت على كفه

بهدوء، وابتسمت له بصدق. منحه ذلك كثيرا من الاطمئنان. كان يرى كيف ان نتائج عملهم اثمرت. وان تظاهرتهم منتظمة، ولا توجد اي خروقات، وانهم استطاعوا تحشيد الكثير من الناس الى جانبهم، كانت التظاهرة الثانية يشوبها البرود والفتور، وكأنهم يريدون الانصراف بسرعة. لم ينس دور نوري، في نشر القفشات، وطلبه بالحاح ان يرفع شعاره الخاص ويردده لوحده ول مرة واحدة عبر الميكرفون، وقال له كريم:

ـ اذا كان شعارا داعرا، فما عليك الا ان تنظم لنفسك تظاهرة خاصة، تكون المشترك الوحيد فيها، سنرافقك على الرصيف ونصفق لك، ونساعدك في دعوة الصحافة.

كانت الهتافات تتصاعد من الطرفين، وكان فوزي وبالميكرفون اليدوي يدور حول التظاهرة ويطلق الشعارات والنداءات ضد الحرب وضد صدام حسين. وبمثل لمح البصر، وكأن من لا مكان، قفز شاب صومالي، بجسم فتي منحوت، وعبر الحواجز وكانه في حلبة سباق، ومثل نمر هائج اتجه نحو فوزي. التفت فوزي الى رفاقه. وصاح بهم ان لا يتعرضوا الشاب، وواصل هتافاته. صار الشاب على مقربة وهو يطلق السباب والشتائم. التف بعض رفاق فوزي حوله. وانطلق شرطيان شابان مثل البرق، وكانهما في فلم سينمائي، اختطفا الشاب الصومالي من امام فوزي قبل ان تصل قبضتة لتضرب وجه فوزي، وبسرعة اقتاداه بعيدا واختفيا معه في الزقاق القريب. انفضت التظاهرة، وفوزي يحمل غضبا من مشاهدة بعض العراقيين في التظاهرة الثانية. سأله كريم عنهم فقال له:

ـ هؤلاء جماعة السفارة.

كانت سفارة نظام صدام حسين، تنشط بسخاء من خلال بعض المؤسسات العربية الثقافية والسياسية. في تلك التظاهرة وصلت سيارة مسرعة يقودها وجه معروف لهم، لتتبرع للمتظاهرين، المتضامنين مع نظام صدام حسين ووزعت عليهم سندويتشات وعلب بيبسي كولا. لم يستغرب فوزي ذلك. فقبل ايام من التظاهرة، كانت تلك الجمعية الثقافية العربية تشكو من الافلاس وعدم كفاية النفقات لاصدار مجلتها الدورية. وجاءت الى فوزي المعلومات عن شراء سفارة صدام حسين لاعداد قديمة من مجلة الجمعية بأسعار خيالية، لتغتني الجمعية ويتغير موقفها. وصار واضحا لفوزي سبب موقف الجمعية المتشدد في الدفاع عن نظام صدام حسين. وفكر فوزي بان ليس كل الناس يمكن شراؤهم، فهؤلاء تكون افكارهم، مكشوفة، مصنعّة، يمكن مناقشتهم، ودحرهم بسهولة، لكن هناك ذلك الصنف من الناس الذي يتحرك وفق قناعات، تبدو لصاحبها راسخة، لا يقبل حتى التفكير في مناقشتها. ياتيك ليقول لك ببساطة:

"ان سرقة النصارى حلال". كيف؟ اليسوا اصحاب دين وكتاب مثلك ويؤمنون بالرب ولهم نبيهم يقص القرأن عنه اجمل القصص؟ يقول لك شيوخنا قالت ذلك، وأأمتنا افتوا بذلك. سأل فوزي من ابو الحسن العدناني يوما، ان ياخذه الى سماع احد هؤلاء الذي يشجع الفتاوي الغريبة. حذره كريم مطرود من الاصطدام به، او مناقشته:

ـ هؤلاء يا فوزي، ابرياء من الاسلام براءة الذئب من دم يوسف. ايعقل ان دين محمد يوصي بالخلق السئ، ومحمد الذي عرف بالرسول الامين، فصار له شأنا بين اهله والناس؟

هناك، في المكان الذي يفترض ان يكون بيت الله، وبيت التسامح والامر بالمعروف والنهي عن المنكر، استمع فوزي، الى ترهات اكاذيب واراجيف، كشفت نوع ناس لا تعرف شيئا عن حياة محيطها، يعيشون متقوقعين في دائرة ظلامية. صار فوزي يفهم لم يضايقون ابو الحسن العدناني، ويحاولون تشويه حاله بالقول انه مجنون، مستغلين كونه يعاني من اضطراب نفسي بسبب ما مر به من تجارب حياتية صعبة. كان فوزي، يخشى المناقشة معهم، ليس عن جهل، ولكن لانه يعرف ان هؤلاء يتكلمون بقناعات مسبقة، بالنسبة لهم افكارا مقدسة لا يمكن التزحزح عنها، ويدرك انها تأتي وفقا لمصالح نفعية وليس عن ايمان حقيقي. يتذكر فوزي جيدا لقاءه بذلك الشاب المغربي. كان لقاءا عرضيا في المقهى الرياضي. كان جالسا بشكل منفرد، في انتظار نوري، شاغلا نفسه بمتابعة الاخبار في صحيفة عربية بين يديه. اختار للجلوس مكانا في الممر الطويل ينظر من خلاله عبر الزجاج المضبب الى محطة القطار، واصدقاء كريم مطرود، الرجال حملة الفوانبيس، وعينيه تراقب الدرج الصاعد من هناك من اتجاه المحطة. كان في باله ان نوري ، وهو غالبا ياتي من هناك، حيث يمكنه ايقاف سيارته بجانب محطة القطار، ويوصي الرجال حملة الفوانيس بالانتباه اليها، فانه سينتبه اليه فورا. وفجأة جلس الى الكرسي الجاور الى فوزي شاب بملامح من شمال افريقيا. حين تكلم الشاب، ومن لهجته تأكد ذلك لفوزي. سلم بأدب، وطلب فنجان قهوة، ومن جديد وجه نظراته الى الصحيفة بين يدي فوزي. كان زبائن "المقهى الرياضي" في هياج وازدحام وهم في انتظار مباراة كرة قدم، وكان فوزي يحسب الدقائق لقدوم نوري. بعد التحية وعبارات مجاملة سأله الشاب:

ـ ومن اين اخ العرب؟

تنحنح فوزي، وفي باله كل وصايا نوري وملاحظاته، عن هوس واعجاب الكثيرين من ابناء الشمال الافريقي بشخصية صدام حسين، الذي بالنسبة لهم هو القائد العربي الوحيد الذي اطلق صواريخ بأتجاه اسرائيل، ورغم انها لم تحدث اضرار ما، وان اسرائيل قبضت من الولايات المتحدة

مليارات الدولارات ثمنا لسكوتها، حتى يدير البيت الابيض الامريكي ازمة احتلال الكويت وفق خططهم، التي فرخت اتفاقيات اوسلو لحل مشكلة الشرق الاوسط، فان الشارع الاسلامي القومي العربي، اعتبر صواريخ صدام حسين باتجاه مناطق خالية، مهجورة في اسرائيل، عملا بطوليا واسطوريا. قال فوزي:

ـ من العراق.

فهب الشاب، منتشيا لسماع الجواب، ورفع يده هزها في الهواء بحركة بدت لفوزي استعراضية ومبالغ فيها:

ـ يا هلا، بالابطال، اشبال صدام.

وكاد فوزي ان يغص بقهوته. وشعر بحجم القهر لهذه الشتيمة التي يوجهها اليه شاب، يبدو انه لا يعرف بوجود حوالي اربعة ملايين عراقي خارج العراق هاربين من صدام حسين ونظامه. وفهم فوزي بان هذا الشاب لم ينتظر ليعلن "صداميته" بعد عدد اخر من الاسئلة، فهو هكذا ومن اول سؤال كشف دواخله. خطر لفوزي ان الشاب ربما يقول ذلك عامدا، فلربما رصد لقاءاته مع نوري وكريم في المقهى، وربما لديه فكرة عنه، اذ لماذا هذه المباشرة في كشف افكاره. وبنفس الوقت، فكر، ما دام هذا الشاب معجبا بصدام حسين، فيمكن مسامحته لضحالة تفكيره، وعدم امكانيته فهم الحقائق واستعابها.

اقترب الشاب بكرسيه من فوزي اكثر، وهو يردد:

ـ انا من المغرب ، يا هلا والف هلا بفرسان العرب.

وبسرعة سأل بدون مقدمات:

ـ لم ارك في احتفال السفارة الاسبوع الماضي؟

وابتسم فوزي لهذا الشاب الذي لا يترك للمقابل فرصة للتساؤل، فهو يقدم له المعلومات جاهزة عن نفسه، ومع ان فوزي فهم السؤال جيدا، الا انه اجاب:

ـ اي سفارة يا اخي؟

وضحك الشاب بأستغراب:

ـ سفارتكم، سفارة العراق.

حاول فوزي ان يضبط اعصابه، وتمنى ان لا يصل نوري حسب الموعد، فلربما سيشتبك مع الشاب المغربي، كما حصل مع غيره، فرد فوزي بكلمات غاضبة وان حاول ان يقولها بشكل هادئ:

ـ ليس لي علاقة بهذه السفارة، لا اعرف حتى اين يقع هذا الماخور.
بهت الشاب، وتلفت ثم رد بهدوء:
ـ ولم تسئ لي يا اخ العرب؟
فقال له فوزي، بصبر نافذ:
ـ لم اسئ لك او لغيرك ما دمت لا اعرفك؟ اود بقولي ان احسم معك نقاش بدون فائدة، لقد قلت لك رأي يمكنك ان تسمعه من حوالي اربعة الاف عراقي هم لاجئين في فنلندا هربوا بسبب قسوة وظلم النظام. هل هذا يكفي لمعرفة سبب جوابي لك؟
وبصبر عجيب، واصل الشاب المغربي:
ـ الك اسبابك السياسية ؟
حاول فوزي ان يكبت هياجه الداخلي:
ـ طبعا، وتركت بلادي مثل ملايين غيري لان النظام صادر ليس حق الناس في الراي بل وحياتهم. من فر بجلده من العراق ليس السياسيون وحدهم، بل ناس عاديين يبحثون عن الامان، وتركت بلادي لهذا السبب لاني اريد ان اعيش بامان.
وسأل الشاب بشئ من الفضول او الاستغباء:
ـ وهل وجدت الامان هنا؟
فضحك فوزي:
ـ هل تريد تغيير الموضوع؟
ضحك الشاب، وقال:
ـ لا مجرد تساؤل، تعرف اننا غرباء، وخصوصا في هذا البلد حياتنا عبارة عن سلسة من الاسئلة.
اعجب فوزي بهدوء الشاب فبادر للحديث:
ـ اذن هل تسمح لي ان امارس هذا الدور ؟
بدى السرور على محيا الشاب المغربي فقال بصدق:
ـ تفضل، اسأل ما تريد.
ولم يتردد فوزي:
ـ كنت هناك في ما تسميه السفارة في الحفل الاخير، كما يبدو؟
فرد الشاب:

ـ نعم هي فرصة طيبة للقاء الناس، وصلتني دعوة عن طريق احد الاخوة الفلسطينيين، وبعيدا عن السياسة شربنا واكلنا، يا اخي كان كرم الاخوة العراقيين بدون حدود.

دفع فوزي زفيرا عميقا، وهو ينظر الى وجه محدثه الحيادي الملامح:

ـ تقصد كرم النظام الجائر من اموال الشعب العراقي، وفي شراء الذمم بكاس عصير او ويسكي او وفخذ دجاجة حيث يصير جلاد شعبه بطلا وكريما.

ودهش الشاب، وكأنه يفاجئ برد فوزي:

ـ لا يا اخ العرب، لا تفهمني بهذا الشكل، الاخوة في السفارة، يحاولون جمع كلمة ابناء الجالية العربية المقيمين في فنلندا، و...

كان وصول نوري، انقاذا لفوزي، اذا اعتذرا بسبب ذلك وغادر المكان، على امل اكمال النقاش فيما بعد، وفوزي يزداد قناعة، بأن هناك اشياء خطأ كثيرة في وعي الناس، ومن الصعب اصلاحها بسهولة وستستمر وقتا طويلا.

وفي تظاهرة اليوم، لاحظ فوزي، بعض الوجوه العربية المعروفة. تبادل معهم التحيات. اقترب منه احدهم، شد على ذراعه:

ـ نحن معكم ضد الحرب وضد الطاغية ايضا.

وقال فوزي لنفسه ان الدنيا بخير، ليس كل الناس سواسية في قناعاتهم. لم يستطع الديكتاتور شراء كل الناس. كان يدرك تاثير الجمعيات الدينية على افكار الناس. اذ من بعد غزو الكويت بدا خطاب صدام حسين يلتقي مع خطاب التكفيريين والاسلام السياسي في معاداة امريكا، وقال معظم المراقبين بأن هذا سيكون وبالا على مستقبل الشعب العراقي. راى فوزي كيف كان كريم مطرود يدور حزينا واجما مع لافتة وجه صدام الكاريكاتيري. يعرف بأن كريم في قمة توتره قبل سفره. الامر عنده الان ليس القلق فقط على مجمل الاوضاع، صار يتصاعد اكثر مع اقتراب موعد مغادرة ابنته وامها للعراق، وقرب لقاؤه بهم. اقترب منه كريم:

ـ ماذا افعل بصدام حسين؟

ومن لا مكان بزغ نوري، ليقول بصوت فاضح:

ـ بول عليه يا اخي. مثلما سيغضب ويبول عليّ شاخوان اليوم، اليوم السبت، وانتم الاعرف كيف يكون العمل، تركت المطعم وقلت ل شاخوان اجازة ساعتين فقط، وها اني معكم من ثلاث ساعات. انا مجبر اخ فوزي للانصراف الان، هذه المرة عليك ان تحمل لافتاتك بواسطة القطار الى كيرافا. او تعالوا بالتراموي الى المطعم واتركوها هناك، وبعد ذلك انقلها الى شقتك. اتفقنا. طيب مع السلامة.

ملاحظات و اسماء اعلام

٩١ ـ جائزة فنلنديا: ارفع جائزة ادبية فنلندية، تأسست عام ١٩٨٤، وتمنح سنويا من قبل المجلس الاعلى للثقافة والفنون لافضل كتاب لمؤلف فنلندي الجنسية، وتبلغ قيمتها المادية ٢٦ الف يورو.

٩٢ ـ دله: من اسم دلسوز وهو كنية تدليع.

٩٣ ـ fotogenek: تعبير في التصوير يعني صالح للتصوير.

٩٤ ـ Wäinö Aaltone 1894-1966: نحات فنلندي. في عام ١٩٣٩ اقام نصبا من البرونز للكاتب الفنلندي الكسيس كيفي.

٩٥ ـ Terttu Ahokas: مواليد ١٩٤٧/٤/٢، قيادية في منظمة السلام الفنلندية، والحزب الشيوعي الفنلندي، متعددة المواهب، وعملت كمترجمة متخصصة من اللغة الانكليزية والروسية، في الترجمة والكتابة الصحفية والموسيقى، وناشطة في منظمات المجتمع المدني، وتميزت بعلاقات طيبة مع ابناء الجالية العراقية، وتبنت مواقفهم في النضال من اجل اسقاط نظام صدام حسين، وهذا اهلها لانتخابها قبيل غزو العراق لتكون رئيسة "لجنة التضامن مع الشعب العراقي"، التي نظمت نشاطات عديدة ضد الحرب والديكتاتورية، رحلت للاسف اثر مرض عضال، في ٢٠٠٥/١٢/٣، وفي يوم الجمعة، ٢٠ كانون الثاني ٢٠٠٦، شهدت العاصمة الفنلندية، هلسنكي، حفل تشييع ومراسيم دفن الفقيدة المناضلة تيرتو أهوكاس بمساهمة من اصدقائها العراقيين.

٩٦ ـ Spasepa: كلمة روسية تعني شكرا.

٩٧ ـ Big Brother: برنامج تلفزيوني معروف، من برامج الحقيقة، بدأ اولا في هولندا ١٩٩٩، اعدت على غراره برامج في غالبية التلفزيونات الاوربية، حيث يتم وضع مجموعة من الشباب في مكان واحد معزولين عن العالم الخارجي، ليعيشوا حياتهم الطبيعية لمدة عدة شهور، وحيث تنتشر وبعلمهم المسبق وبموافقتهم، في كل زاوية من المكان، كاميرات ترصد كل احاديثهم وافعالهم وردود افعالهم وحتى خصوصياتهم. البرنامج اخذ اسمه من رواية جورج اورويل ١٩٤٨.

القسم السادس

١

هل تعرفين الكثير من اغاني الاطفال؟

رغم انك لم تعودي طفلة، الا انى واثق ان امك علمتك الكثير. فهي امرأة رائعة، كنت ارى كيف كانت تتعامل بحب مع اطفال الجيران، واطفال الاقارب، وكيف تلتمع عيناها الشهلاوان عندما تدخل السرور الى قلب طفل، فلي ان اتخيل يا ابنتي كيف كانت امك في تعاملها معك في سنوات طفولتك؟

اقول هذا وانا استعيد تلك الاغنية التي طالما غنيناها ونحن اطفال صغار، حين نرى حمام الفاختة على اطراف المباني واغصان الاشجار وهو يهدل:

"يا كوكتي.. وين اختي؟

بالحلة؟

وشتاكل؟

باقلا

وأيش تشرب؟

ماي الله"

حين غادرتكم، لم تبارحني هذه الاغنية، ظلت تحت مسامات الجلد مختبئة مثل برعم حزن ازلي. بمجرد نكأ الجلد بأغنية عابرة، او اسم، او عبارة، حتى تهطل امطار الذكريات، ويعم الطوفان، وتنبت للقلب اجنحة ليطير في فضاء كالح، ووحوش خرافية تهمهم وتزبد لتفترس الامال والاحلام.

ياآآآآه يا ابنتي، يا لحزن اهل العراق الازلي. من ايام كلكاميش والطوفان، مرورا بمأساة الامام الحسين، ووصولا الى كارثة حلبجة ومجازر الانفال والاهوار؟

كانت جدتك، أمي، مثل كل أم عراقية، تذهب الى تعزية اي ميت في مدينة الديوانية. ليس مهما انها على معرفة وثيقة بأهله، يكفيها كون احد صاحباتها تعرف احدا من اهل الميت. حين تهم جدتك بالخروج، ونسألها الى اين؟ يكون جوابها بسيطا، ومعبرا:

- اروح ابكي قليلا!

صحيح ان في مساهمتها شئ من التضامن الانساني، ولكن جدتك هناك، ومثل بقية النساء يبكين بحرية، ويجهشن بالبكاء الصادق، لحد انها تعود الينا مبحوحة الصوت، محمرة الخدين، خائرة القوى. لم يكن بكاء النساء لاجل الميت، الغير معروف لهن، كن يندبن ويبكين حالهن، ويفرغن همهن واحزانهن المتراكبة. لم أر امي يوما بغير الثوب الاسود، مثل كثير من نساء معارفنا وجيراننا من حولنا. يقولون ان كل امراة تنشد الاناقة يجب ان يكون لديها على الاقل ثوب اسود واحد في خزانتها، لما للاسود من مزايا لكشف جمال المراة. ليأت مهندسو الازياء وفنانو الموظة ويروا السواد في العراق. ثياب الحزن والاسود في كل بيت. لا يوجد بيت لم يفقد عزيزا، لا توجد عائلة تخلو من اسباب الاحزان. لقد منح صدام حسين النساء العراقيات فرصة كارثية للاناقة في الاسود الدموي. هكذا يمكن التساؤل لم شعراء العراق يندبون ويبكون دوما؟ اسمعي هذا الشاعر الشاب، عبد الكريم هداد ماذا يقول:

"وقلبي حديقة تخاف،
والله تخاف،
من ليلي يجن،
احزن واقول اخر حزن"

اتعرفين يا ابنتي معنى خوف الحديقة من الليل؟ الخوف من الوحشة واللصوص والاعداء والموت؟ في هذه الايام واذ صارت الامور اكثر دموية، يواجه العراقيون في منافيهم سؤالا من الاخرين، من ابناء الاقطار العربية خاصة: لم هذا الحزن في اغاني العراق، في اغاني ناظم الغزالي وداخل حسن وحضيري ابو عزيز وفؤاد سالم وسامي كمال غيرهم، لماذا؟ وفي كل مرة امام سيل الاسئلة على العراقي احالة السائلين الى التاريخ ليروا صفحاته الدامية. ليروا ان هذا البلد العريق بتاريخه وحضارته، موطن الانبياء والرسل، ظل دائما موطن الافكار الحية الجديدة في البحث عن كينونة الانسان والعدالة، وايضا موطن الثورات والانتفاضات والصراعات من اجل الجديد والافضل. هل قرأت ملحمة كلكاميش؟ ارجوك يا ابنتي ابحثي عنها، اعرف ان الحاكم الغاشم لا يسمح للناس الا بقراءة خطبه والاستماع الى هذيانه الشوفيني. القادمون من العراق يقولون لنا لا كتب هناك سوى كتب خطب الديكتاتور، وكتب الأدعية الدينية. يا للكارثة!! اي عملية غسيل دماغ جماعي يمارسها هذا النظام؟ ارجوك حاولي العثور على كتاب ملحمة كلكاميش، لابد الحصول على نسخة منها في احدى المكتبات العامة. حين نقرأ ملحمة

جلجامش وبعد أربعة آلاف سنة ونودّ تعلم شيء عن التأريخ البشري، نجد اننا نقرأها لأننا نريد معرفة معنى الحياة. لو توفر لك الكتاب توقفي عند سؤال صاحبة الحانة، سيدوري، وهي تسأل كلكاميش. كان كلكاميش في طريقه للبحث عن سر الخلود حين استوقفته صاحبة الحانة لتقول له واحدة من اهم الحكم في كل الفلسفة العالمية:

الى اين تمضي يا كلكاميش،

ان الحياة التي تبحث عنها لن تجدها؟!

لكن كلكاميش سار باحثا عن عشبة الخلود رغم الاهوال التي صادفها في رحلته.هكذا من بعده واصل العراقيون السير باحثين عن عشبة السعادة، حاملين احلامهم وجراحهم واما لهم، وهم يئنون، باحثين عن معنى الوجود ومعنى الحياة ومعنى السعادة، حاملين خيباتهم واحزانهم وجروحهم. طيورنا صارت تأن مثلنا.

بعيدا عنكم يا رحيل، ظل هديل الحمام -اي نوع منه- يذكرني بكم، بالاهل، بالاحباب، لذا كنت اضيف دائما لأغنية عبارة:

"يا كوكتي

سلمي لي

على اهلي"

اذكر لك هذا، وانا استعيد لحظة مروري مع صديق فنلندي، اسمه بيكا تويفونين، قرب منزلهم. كان صديقي يستخرج بريده من صندوق بريده، ليس بعيدا عن موقف سيارته، وسمعت فجأة هديل الحمام. كانت تندب:

- يا كوكتي...!

عويل بذات الحزن والشجن. عويل وندب كأنه ندب العراقيين على موتاهم واحبابهم. كأن الحمامة تسألني عن أمنياتي وهي تلوذ بشجرة السرو. كأن احلامي تنبجس عارية امام توهج صوتها الاسطوري، في وحشة هذه البلاد التي كل يوم تدفعني للصراخ ككاهن سومري يبحث عن دفء الحقيقة. ايعقل هذا ان هذا الطائر الجميل لحق بي من العراق الى هنا، الى القطب الشمالي؟ رفعت راسي، يقودني صوت الهديل لارى فاختة، كتلك التي نراها في طفولتنا عند بيوت اهالينا، حمامة بريشها الرمادي وعنق اخضر، وجناح عريض. سالت صديقي بيكا عنها، فعرفت اسمها باللغة الفنلندية. اتدرين يا رحيل ان مثل هذا الطائر ورد اسمه في ملحمة كلكاميش ويسميه بعض المترجمين "طير الراعي" وترجمه طه باقر باسم "طير الشقراق". تتحدث ملحمة كلكاميش عن رفض كلكاميش لعرض عشتار للزواج، مذكرا اياها بافعالها الانتقامية:

لقد رمت طير الشقراق المرقش
ولكنك ضربته وكسرت جناحيه
وهاهو الان حاط في البساتين
يصرخ نادبا: " جناحي... جناحي"

ان طير الشقراق يا ابنتي يكثر عندنا في العراق، وهو يطلق صوتا يعتبره طه باقر يشبه اللفظ البابلي "كيي" ويكتب بالباء بثلاث نقاط. ويعني"جناحي". وهكذا حين ارى هذا الطائر وهو يطير ويتقلب في الهواء ويصرخ "جناحي" اسأل تلقائيا: اتراه قادما من عندكم الى القطب الشمالي ليذكرني بجناحي الكسير بسبب البعد عنكم؟ بعيدا عنكم يا ابنتي حالي مثل حمامة اخرى تحكي قصتها الكاليفالا الفنلندية:

حلقت وطافت
خفقا بالجناح تطير
باحثة عن مكان لعشها
عن مأوى تفتش
شرقا طارت وطارت غربا
للشمال الغربي طارت وللجنوب
ولم تلق ذلك المكان
حتى ولا مكانا سيئا
اين ستبني عشها
اين سيقام مسكنها
طارت عائفة وحومت
وهي تفكر وتتأمل
أأشيد بيتي في الريح؟
ام ان عشي سيكون فوق العباب؟

٢

من اسابيع لم اكتب لك. اشياء كثيرة حدثت. وكما يقال كثير من المياه مرت تحت الجسور. وهي هنا جسور حياتي، التي اكلتها سنون المنفى الموحشة، الكئيبة، بعيدا عنكم. من ايام وانا

اتحين الفرص لاختلي بالدفتر الأخضر لاكتب لك عن شئ جميل، شفاف وممتع صادفني هذه الايام وكنت افتقدته حينا، وظننت انه عافني لسبب ما، وها هو يزورني يمتلكني من جديد، بروح الشعر والالوان والحنين. ربما يكمن سبب زيارته، بحكم كوني في الايام الاخيرة صرت اتحدث عنكم مع اصحابي بأستمرار، وهذا جعلكم في كل لحظة تسكنون خيالي -لا يعني هذا نسياني لكم ابدا!-. اريد ان احكي لك عن الاحلام. نعم يا ابنتي الاحلام، واقصد هنا الاحلام العادية بذاتها، التي يراها الانسان حين يخلد الى النوم، وتزوره صور عديدة يظل عالقا بباله شئ منها بعد نهوضه من النوم. حين كنا نعيش انا وامك معا، في تلك السنين البعيدة، الجميلة، كانت كل يوم تروي لي حلما جديدا. اشياء عجيبة، غريبة وطريفة، تراها امك في نومها، وتقضي نهارها في البحث عن معان الحلم. كانت تؤمن بالاحلام بشكل لا يصدق، ربما اكثر شخص في عائلتها، واعتقد انها لا تزال كذلك، وربما صارت الان اكثر ايمانا، وان بطريقة مغايرة. كانت تعتقد ان الاحلام ومضات قدسية من عند الله، كنت اقول لها ان هذا الطبع سيلازمها للابد، وكنت امزح معها باستمرار، بل هذا كان واحدة من اجمل مواضيع مزاحنا، خاصة حين ترى بعض الاحلام الفنطازية وتروح تنغص لي يومي بسبب حلم. مثلا حين تراني متزوجا من امراة ثانية فهي تعتقد ان الزواج في الحلم ما هو الا رغبة للارتباط بشخص اخر، او حين ترى نفسها تداهمني في سرير مع امراة تعرفها فتعتقد ان هذا اشارة الى رغبة دفينة عندي تجاه تلك المراة. تصوري انها مرة، رأت حلما كهذا وكانت جارتنا هي موضوع الحلم. كانت جارتنا امرأة عاقلة، ورصينة، وتحترم امك واعاملها مثل اخت تماما، في الحلم رأتني امك معها في سرير واحد، فكان ان صدت عن المراة، وراحت تخاصمها من اجل منعها من الدخول الى منزلنا، خوف تحقق شئ من عالم الحلم الغريب. كان هناك الكثير من الهلوسات التي كانت احيانا تخرجني من طوري معها وتجعلني اغضب جدا. كنت احاول اقناعها بانها لا يمكن رؤية رغباتي في احلامها، وان ما تراه هو مخاوفها الشخصية، وحين فشلت معها في تغيير قناعاتها أتبعت اسلوبا اخر. حولت الامر الى شئ من نكتة، صرت امازحها حول هلوساتها، واسخف مما ترى حتى لا تسيطر على قناعتها ما تراه في الحلم. كل صباح كنت اشاكسها واسال:

ـ ماذا عرض لنا تلفزيونك خلال النوم؟

وتورطت وحكيت لها عن كتاب تفسير الاحلام لابن سيرين. ما حصل انها اهلكتني بالسؤال والطلبات حتى دبرت لها نسخة تجارية من الكتاب خلال احدى زياراتي الى بغداد. حتى سراب، اقصد صاحب، اهتم بالبحث عن الكتاب بعد استماعه الى الحاحها في الطلب. وفاجأتني بأنها

حصلت على كتب اخرى. صارت كتب تفسير الاحلام كتبها المفضلة، وصارت تعرف كل اشارة وماذا تعني. صرت اتورط لو رويت حلما، حتى لو سخيفا، لاجدها تهرع الى الكتب تبحث لتعرف ماذا تعني رموز الحلم. منها تعلمت كثيرا من معاني الرموز في الاحلام، كما تعتقد هي طبعا، فرحت اتسلى معها بطريقتي. صرت ارى كثير من الخبز في احلامي، فالخبز يعني خبرا طيبا. صرت ارى المزيد من الخوف في الحلم، فهو يعني الامن والطمأنينة. كنت أأكل كثيرا من الزبدة في الاحلام، فهذا يعني المزيد من المال والرزق الطيب، وهكذا صرت اشاكسها واستحضر كل الرموز التي تعني اشياءا طيبة. هي تدرك لعبتي جيدا. جلبت لها بعض الكتب العلمية وبعض المقالات لتشرح ظاهرة الحلم. حتى صاحب حدثها عن عالم الحلم واسبابه بشكل علمي، لكن امك اصرت على التمسك بابن سيرين وبوجهات نظرها، بل صارت مرجعا للجارات والاقارب لحد كان يثيرني احيانا. صرت اعود الى البيت تعبا لاجد امك مشغولة، مختلية مع امراة تقص لها حلمها وتبحث لها عن معنى الحلم وتفسره. صرنا نشاكسها وننايها "ملا محاسن". اسأليها عن ذلك؟ ربما ستروي لك نوادرا لا املك القدرة لحكايتها لك، يتطلب امراة لتحكيها لامراة اخرى مباشرة. وسط هذا الاهتمام، والمزاح والمنغصات، بهرتني امك بروحها الطيبة التي سرعان ما بدأت تتفجر، وتظهر الى السطح. لكثرة ما صارت تسمع احلام الناس، وتعرف همومهم وتتلمس مخاوفهم، راحت تبتعد كثيرا عن كتاب ابن سيرين ورموزه وتفسيره للاحلام. صار لامك تفسيرها ورموزها الخاصة بها. من خلال تفسيراتها المبتكرة راحت تزرع الامل في قلوب الناس، وتخفف عنهم احزانهم وتزرع عندهم فرحا لايام قادمة. صارت تمنحهم سعادة واملا عبر الكذب الابيض، الذي اجادته في تفسيرها للاحلام. اتدرين، حين رأيت مؤخرا نسخة اصلية منقحة من كتاب ابن سيرين في منزل فوزي، حكيت له شيئا عن ذكرياتي ومواقفي الطريفة مع امك بسبب هذا الكتاب، ولم اتمكن من ضبط نفسي لاستعارته. قرأته بأمعان وبتلذذ غريب، محاولا تقمص روح امك وشخصيتها ايام ايمانها بهذا الكتاب ورموزه. كنت اسعى ليساعدني ذلك لتلمس شيئا من روح امك. حين لاحظ فوزي اهتمامي بالكتاب، اخبرني انه حصل عليه هدية من احد السجناء معه في سجون استونيا، واحتفظ به للذكرى وانه نادرا ما فتحه وقرأ ما فيه. اعرف ان لفوزي فلسفته الخاصة بالاحلام، واخبرني انه لفترة كان يسجل احلامه وكوابيسه، في دفتر خاص وكان يراجعها بين الحين والاخر، وان احد اصدقائنا وهو كاتب (في رسائلي السابقة لك ورد اسمه: يوسف ابو الفوز) استعار منه دفتره، واستاذنه في الاستفادة من بعض الاحلام، وبعد فترة وجد فوزي ان صديقنا الكاتب وظفها واستخدمها في كتابة بعض قصصه المنشورة.

لماذا هذا الحديث عن الاحلام؟

قبل ايام رايتك في الحلم يا رحيل. لم تكن لك تلك الملامح التي تحملها صورتك التي جلبتها لي ام عامر، بل كنت بتلك الملامح في الصور القديمة التي بقيت احملها معي، قريبة الى قلبي، كل سنوات ترحالي ومنفاي. طفلة، صغيرة، حالمة، بضفائر طويلة، كما انت في الصور الاولى التي هربتها امك لي في سنوات منفاي الاولى. في الحلم لم تكن امك معك. كان هناك من حولك اجواء سومرية، بابلية. نساء باكتاف عارية، بثياب بيض طويلة، كتلك الازياء السومرية التي نراها في النقوش والاثار. رجال بلحى وذقون مربعة، مدببة. ومدرجات وزقورات. كان هناك الكثير من الحراس والمقاتلين، برماح وسيوف ودروع. كنت حزينة، واجمة، وحائرة كانك تبحثين عن شئ ما هناك. اراك تتنقلين في المكان بحذر وخوف، وكنت اتابعك وكأني احمل الة تصوير فيديو واتعقبك. كان السؤال الذي يعذبني: عن ماذا تبحث ابنتي؟ كان هناك مهرجان صاخب، كثير من الناس والموسيقى والاضواء. في اليوم التالي توقفت مليا عند الحلم. كنت سعيدا اذ رايتك، بذاك الجمال، وكنت حزينا لانك بدوت بذاك الوجوم والحيرة والحزن. ليس لي شأن هنا بكتاب ابن سيرين رغم انه يعتبر الجمال في الحلم دلالة على سوء حال العدو، وان جمال الثياب وعدا بالنجاح، والحزن علامة سعادة، كنت ادرك ان ما اراه هو انعكاس لكل هذه المخاوف والقلق عليكم التي تحاصرني يوميا وانا اتابع تطورات الاوضاع في العراق، واراها تتردى يوما بعد اخر، ولكني رحت افكر بقابليات النفس البشرية للتخاطر، واتساءل: اتراك تحاولين بعث رسالة ما؟ ماذا تقولين لي بها؟ هل تجديني هنا شبيها بامك في فترة ايمانها بالاحلام، ام واقعا تحت تاثير حزني واشواقي لكم؟ اعرف جيدا ان بعض الانبياء والى جانب الوحي تلقوا نبوءات المستقبل في صورة حلم، هناك حلم ابراهيم بذبح اسماعيل، وحلم يوسف بسجود ذويه. واعرف ان كلكاميش الجبار، ربما بسبب كون ثلثه انسان وثلثيه اله، حلم بانكيدو، صديقه البريّ، خارق القوة، قبل أن يلقاه وتتوثق صداقتهما. وادرك تماما ان الاحلام تعود الى مشاغل الواقع والحاجات النفسية للنائم، وان فرويد لم يستطع سرقة سحر الحلم من الناس وان يهتك اسراره ويرفع عنه الهالة الاسطورية، بالرغم من كل جهوده العلمية الجبارة، وظل الادب كما كان عونا للكتاب والفنانين للطيران فوق شروط الواقع. ادرك كل هذا، ولكني هنا يا رحيل لا اريد ان اكون مثل اي احد، لست نبيا، ولا حتى فنانا او كاتبا، انا اب مهضوم، اب يبحث في ثنايا الحلم عن مغزى ما، متوقفا عند سؤال: ماذا تريد ان تقول لي ابنتي؟

٣

في هذه البلاد، يا أبنتي، وللاحترام، يستخدم الناس اللقب اسما لمناداة الاخرين، فانا بين غالبية الفنلنديين ببساطة: مطرود، وحتى بعض اصدقائي الفنلنديين مثل بيكّا تويفنين ينادونني كذلك، ولكني: كريم، بين المقربين مثل فوزي وشاخوان. المعارف البعيدين، وكما تعرفين حسب عاداتنا، ومن جانب الاحترام ينادونني: "أبو رحيل". احب ذلك جدا. اود لو ان الناس نسوا اسمي، يكنوني فقط باسمك. اليوم، كنت في احدى دوائر الدولة، ملأت استمارات اعتيادية كان فيها حقل: الاسم واسم الاب واللقب! ياااااه، اخيرا هناك من يسأل عن اسم الاب. كما ترين ان اسم جدك اختفى تماما من حياتي اليومية، ولذا سعدت اليوم بكتابته وتسجيله على صفحات الاستمارة. لا احاول تعقيد الامر، لكني رحت اتساءل مرارا: يا ترى اتفخر رحيل بأبيها الذي هو انا؟

ساكون طول عمري، ممتنا، وفخورا، بجدك، ابي: حسن مطرود. يمكن لي ان احدثك صفحات كاملة عنه، فهو كأنسان، كادح، قضى عمره في تربية ابنائه، وكان يأمل في شيخوخة هادئة. كان له اسلوب جميل في تربيتنا، اكتسبه من مهنته، الحلاقة، التي علمته فن رواية الحكايات. احيانا يرى ما يخص الناس من مشاكل، واخطاء فيجمعنا نحن ابناءه، ليحكي لنا شيئا وغالبا ما يكون قصة. حين نخطأ لم يكن يلجأ الى العصا والضرب مثل غالبية الاباء الا في النادر. ربما في طفولتنا المبكرة. لا اذكر انه ضربنا مرة، ومنذ دخولي المدرسة الابتدائية. كان ضرب الطلاب ايامنا سائدا في المدارس، فكل معلم وله عصاه المعروفة لضرب وتاديب الطلاب. كان المعلمون يخشون الاقتراب مني، لمعرفتهم بأن جدك لم يكن يضربنا. الان، يعود الى ذاكرتي طيف احد الامسيات، سمع جدك حوادث معينة في المدينة، جمعنا وسألنا سؤالا بدى غريبا لمن بمثل سننا. كنا ثلاثة ابناء صبيان وفتاة:

ـ يا ابنائي، ما هو اسوا شئ يمكن ان يحمله الانسان من صفات؟

وحرنا في الاجابة، كنا اطفالا صغارا، كبرنا، عمك شهاب، الذي مات للاسف في اول ايام الحرب العراقية الايرانية. ورحنا نتهامس على طريقة برامج المسابقات في التلفزيون، ولكننا عجزنا على الاتفاق فيما بيننا. كانت عمتك سعاد، التي تكبرنا جميعا، تبتسم وتضحك، طلب منها جدك عدم الاشتراك في الاجابة، اذ كانت سمعت السؤال منه، وتعرف الاجابة جيدا. ولم يتركنا جدك ننتظر طويلا، طلب منا الاقتراب منه اكثر:

ـ سأقص لكم، قصة، من تلك القصص التي تحبونها. عن بلاد لا هي بلاد. ومكان لاهو بالمكان. السماء فيها ليس كالسماء. الناس فيها ناس اخيار، ولكنهم ليسوا كالناس. وكان للناس ملك. تقول عنه الاخباروالقصص، انه ملك جبار يعرف كل الحكايات والحكم، ولكنه عجز عن معرفة جواب سؤال واحد. معرفة الجواب تقوده الى فتح صناديق الكنوز والابواب السرية في القصر المسحور في جبل الحكمة. بلغت الملك الاخبار عن رجل، شيخ، متصوف، يملك من الحكمة، ما يفوق كل الشيوخ والحكماء. ببساطة لان الشيخ عمره بلغ اكثر من ثلاثة مئة عام، فهو يملك حكمة اجيال واجيال. وفي يوم، ركب الملك الحكيم، حصانه، واصطفى له حراسا مخلصين وترك قصره. سار يقطع الفيافي والقفار حتى وصل مكان الشيخ الحكيم. وصل وهو يحمل اليه، سؤالا واحدا: ما هو اسوأ شئ يمكن ان يحمله الانسان من صفات؟ الرجل الحكيم ضحك وقال للملك، ان هذا شئ ليس ابسط منه، ولكن الجواب له ثمنه، لانك عند معرفته، ستكون سيد الحكماء وستفتح امامك كل الابواب. فرح الملك الجبار، وقال انه مستعد لتقديم ما يشاء، فهو يملك من الاموال والاراضي والجواري والسفن ما يمكنه جعل الشيخ الحكيم من اغنى اغنياء العالم. الشيخ الحكيم واصل ضحكه، وقال للملك: ما اطلبه ليس مالا، ولا ارضا ولا سفنا ولا جواريا. طلب من الملك الذهاب خلف الشجرة القريبة ويقضي حاجته، ويأتيه بطرف عود يابس بقليل من خرائه. أسرع الملك لتنفيذ طلب الشيخ الحكيم بسرعة، وهو يرى ان الامر ابسط ما يكون. وبسرعة وقف الملك امام الشيخ، وفي يده العود اليابس وفي طرفه الخراء. طلب الشيخ من الملك لحس طرف العود بلسانه. تسائل الملك: انا الملك الجبار، الذي قطعت الفيافي والقفار، الحس خرائي بلساني؟ وماذا سيقول عني وزرائي ومواطنو مملكتي وسكان الامم والكتب؟ ضحك الشيخ الحكيم وقال: سيقولون انك قدمت ذلك ثمنا للحكمة واسرارها. التفت الملك يمينا ويسارا، كان لوحده مع الشيخ الحكيم، وفكر بكنوز القصر المسحور والابواب السحرية وما تخفي خلفها من جواري واسلحة وكنوز مخفية. قال الملك الجبار لنفسه: ايها الملك العظيم، لقد قدت الجيوش الجبارة، وفتحت البلدان والعواصم، وسجد لك الجبابرة والابطال، فهل يعقل ان تلحس خراءك بهذه السهولة؟ واراد الملك استلال سيفه ليقطع رأس الشيخ الحكيم، لكن صوتا، ناعما، مراوغا، جاءه من داخل روحه، يهمس له: ايها الملك الجبار، ستكون اغنى واكثر قوة بما ستملك من كنوز واسرار، فلا تتردد، ما هي الا لطعة، يدوم طعمها الردئ للحظة، ولكن ثمنها ورخاؤها يدوم العمر كله. وبسرعة لطع الملك طرف العود، والشيخ يواصل الضحك بسرور اكثر. أغاظ ضحكه الملك، لكن الشيخ التفت الى الملك، وقال له: هاهو الجواب المطلوب بين

يديك يا حضرة الملك. وتلفت الملك حائرا، وهو لا يرى شيئا، فواصل الشيخ الحكيم: أسوا ما في حياة الانسان يا حضرة الملك هو الطمع، فالطمع وحده جعل ملكا، جبارا، غنيا، مثلك، يلطع خراءه بنفسه!

اكتب لك هذه القصة بالذات، من قصص جدك، لان احداثا جرت هنا في الاونة الاخيرة، بين طائفة من العراقيين، رغم انهم ليسوا من قائمة اصدقائي، لكني مرغما اجد نفسي قريبا اليهم، فأعرف بهذا الشكل او ذاك شيئا من تفاصيل حياتهم وربما يعرضني ذلك الى رذاذ، افعالهم. بعض من هؤلاء الناس وللاسف جعلهم الطمع يفقدون الكثير من هيبتهم، واحترام الناس لهم، وراحوا يلطعون كل شئ. احدهم اتوقع له ان عائلته ربما ستتهدم ويضيع ابناؤه بسبب طمعه المتزايد، وهو يحاول نهش حقوق الاخرين بالف طريقة، فهو مثل المنشار في علاقته مع الناس. هذا صنف من الناس يا رحيل، لا هم لهم الا جمع المال، حتى ولو بطرق غير شرعية. هؤلاء يا ابنتي، لا يمثلون وجه العراق، ولا علاقة لهم بجروح العراق ومستقبل العراق. هؤلاء مستعدون لان يلطعوا، وكل يوم، خراءهم، من اجل زيادة ارباحهم وارصدتهم. اما بسطاء الناس من العراقيين المقيمين في هذه البلاد، وهم كثيرون، فهم مشغولون يا ابنتي، بهموم حياتهم اليومية، بتربية ابنائهم، وبناء مستقبلهم، وبمساعدة اهاليهم في الوطن، وبمتابعة ما يجري على ارض الوطن، من حرب اجهزة النظام الامنية الدائبة ضد بسطاء الناس، هذه الحرب القذرة، التي تجعلني امتنع عن مهاتفتك لاني لا اريد تعرضك لاي خطر بسبب حنيني.

٤

لم تعد احلامي، يا رحيل، ممتعة، ناعمة وساحرة، وتجلب الفرح والمسرة. لقد شاهدت مؤخرا بعض الكوابيس، ومرضت قليلا ورأيت هلوسات عجيبة وغريبة. صديقي فوزي، الذي كان قريبا مني، يقول انه لم يفهم شيئا مما جرى لي، لاني كنت اجيب على اسئلتهم بطريقة غريبة واحيانا تكون غير مفهومة. في كلامي كان ثمة عبارات غير معروفة لهم، ويبدو أن حوادث التاريخ والاسماء فيها تداخلت وتراكبت مع احداث الحاضر. شخصيا ارى ذلك منطقيا وسط توتري وعذابي الداخلي، الا ان ذلك يضغط على اعصابي ويتعبني. في الشهور الاخيرة لي في العراق، مرت عليّ ايام يا ابنتي، كنت ارى فيها الكوابيس كل يوم. في يقظتي وفي منامي. كانت امك المسكينة، مرات كثيرة، تقفز من النوم، لتنقذني من الاختناق وانا ارفس غائصا في وحل كابوس ووجوه غريبة كريهة تطاردني. كنت مطاردا في النوم والصحو، ورجال امن

ومخابرات، بدو، من اعالي الفرات، من عشيرة الديكتاتور، بوجوه كريهة، مكفهرة دائما، وحزم شوارب كثيفة مائلة، غزت المؤسسات والمدارس والشوارع ووسائط النقل، وراحو ينغصون علينا حتى احلامنا. بعد مغادرتي الوطن، صارت مساحة الكوابيس اكبر. صرت ارى وجوه الجلادين، تطاردني في منفاي. صرت ارى أنيس التكريتي، كل مرة بشكل اخر، وضمن تفاصيل مخيفة. مرة كنت ايامها لا ازال في دمشق، حين زارني انيس التكريتي في كابوس مرعب، ليخبرني بانه سيذبحك، ورأيت مشهد دم ورأس يتدحرج، وصراخ امك الذي ملأ فضاء الكابوس وايقظني من النوم. جعلني ذلك اهرع لاتوسل بصديق مقرب لمساعدتي. احتراما لي جازف الرجل واتصل بعائلته في بغداد، الذين بادروا وزاروا امك في الديوانية ليطمأن قلبي على اخباركم. كان زوج امك، صالح، لا يزال حيا، لم تأكله الحرب بعد، بعث لي بنبل وروح كريمة، وصية بالاطمئنان الى انك ستكونين بخير طالما هو حي يرزق. وكان امينا لوصيته. رحل المسكين. مضيفا لامك هما اخر.

في بداية زواج امك من صالح، شعرت انها غدرتني، يعني خانتني. كنت العنها كل يوم الف مرة، وارجمها مع نفسي بأقذع الشتائم. يوم معرفتي بزواج امك، كانت المرة الوحيدة، في ايام هروبي، التي شعرت بها بأني مهزوم تماما وبشكل مباشر.كنت مخذولا بشكل تام. بكيت بصمت، حد تقطع قلبي. كانت تدور في بالي كلمة واحدة، تطحن روحي: لماذا؟ مع الشهور والسنين، تفهمت حال امك، وحين سمعت تفاصيلا عن الاخلاق الطيبة لصالح، ورعايته الطيبة لكم، جعلني اقبل بوجوده في حياتكم مع بعض الالم في روحي. وان كان لقائي بأم عامر جاء متأخر جدا، لكنها ساهمت في نزع الاحساس بخيانة امك لي، حين روت لي تفاصيلا عن علاقة امك بزوجها الجديد. كيف ان امك لم تدعه يقرب سريرها لفترة طويلة، وكيف ان الرجل المسكين اراد طلاقها، وان ضغوطات هائلة مورست مع امك، وبأشكال مختلفة. كان خالك حسن، يضغط بدناءة لاجل التخلص من اعالة ومسؤولية امك وأيضا للنكاية بي، وكانت ام عامر واخرون يريدون لامك الاستقرار في حياتها وتربيك في عهدة زوج لم يكن سيئا كأنسان. اتصدقين اني حزنت لموت صالح في الحرب حين بلغني الخبر؟ وحين علمت انه سجل بيته بأسم امك، فهمت كم هذا الرجل كريم النفس، واراد الوفاء لامك ليضمن لها مستقبلها؟! صحيح انها ام ابنه الوحيد، الذي هو اخوك طارق، لكنه يعرف ان لامك ايضا ابنة من رجل غيره، وكان يمكنه تسجيل البيت بأسم ابنه فقط. عدم انانيته، ووفائه الكبير لامك، جعلني اثق بأن هذه الدنيا لم تزل حقا تحمل الكثير من الامال وما هو طيب.

اتدرين اي سؤال كان يعذبني في هذا الامر كله؟ لا تستغربي من ذلك، فأنا انسان مثل غيري، وامك كانت حبي الكبير. كان السؤال: هل احبت امك صالح مثلما احبتني؟ كيف كانت احاسيسها وهي حامل بطفله، الذي صار اخيك طارق؟ هل ساهم الطفل في كسر جدران البرد بين امك وصالح؟ تقول لي ام عامر:

ـ ان محاسن كانت زوجة صالحة، مخلصة، في علاقتها مع صالح، لكن قلبها كان معك.

ظهرت أم عامر واحاديثها في حياتي بشكل متأخر جدا، بعدما استطعت كباح غضبي، وترويض جراحاتي، واقناع حالي بأن امك صارت امراة اخرى. صارت "ام طارق"، وليس محاسن التي اعرف وعشقت. حتى المساعدات المالية، التي كنت ارسلها لكم بين الحين والاخر، اصدقك القول يا ابنتي، كنت عند ارسالها افكر بك اولا قبل كل شئ. وان كنت اقول لحامليها من باب الكبرياء انها لك ولامك. لا اعرف كيف صارت طباع امك الان. أقصد قدرتها على التعبير عن افكارها، لأني اذكر انها في ايام خطوبتنا وثم زواجنا ومعيشتنا معا، كانت تواجه صعوبة كبيرة في ذلك. حين كنا نختلف، كنت اخاف ظلمها حين لا تجد في نفسها القدرة للدفاع عن نفسها، وطرح وجهة نظرها الصحيحة بطريقة سليمة. هل تغيرت، ام لا تزال كما كانت؟ اعرف انها الان امرأة متعبدة، تصلي وتصوم، ومحجبة، وكما يقولون ملتزمة بدينها، لكن افكارها، ما تحت الحجاب وخلف الصلوات والادعية، كيف هي الان؟ لقد مرت سنوات طويلة، وثقيلة يا ابنتي، وكان بودي ان امك لو كانت تستطيع الكتابة لي، ارسال شريط فيديو، كاسيت، مثلما يفعل الناس، لاتعرف على افكارها، كيف كانت ترى الامور التي مرت، وكيف ترى الامور الحالية؟ اتدرين، ان اسلوب رسالة الفيديو والكاسيت ابتكره العراقيون وتفننوا فيه كطريقة للتواصل، لكني لم الجأ اليه، ولم اطلب منكم تنفيذه، لاني كنت لا اريد ان يصل الى اجهزة الديكتاتور اي شئ عن صلة ما لي بكم، وهكذا حُرمت من معرفة الكثير من اخباركم وافكاركم، وحرمت من سماع اصواتكم. اقول لنفسي الان، لو التقينا يوما، كيف ستكون لهفتك لعناقي؟ احسد صالح وهو في قبره، لانه شهد طفولتك، وشهد العابك وشيطنتك. تقول ام عامر انه كان في اجازاته من جبهة الحرب، يقضي جل وقته معك، كانت محبته لك، وابوته لك، طريقا الى كسب ود امك. أأكون زرعت جنينا في جسد حبيبتي، ليكون جسرا لغيري اليها؟ اكان جسرا الى روحها ايضا؟ هل لا يزال ثمة مكان لي في قلبها، قلب محاسن؟ ام ان صالح قد امتلكه مثلما امتلك جسدها؟ اعليّ تصديق ام عامر، التي كررت اكثر من مرة:

ـ كانت محاسن اقرب ناسي، وصندوق اسرارنا واحد. ترملت وانا صغيرة، لا ازال بثياب العرس، وزوجني اهلي بعدها بفترة قصيرة، ليتعوق زوجي الثاني بعد حين كما تراه، ولم تكن محاسن بأحسن حال مني، ولم يكن لنا من حديث غير ندب حظوظنا، ولم يكن اسمك يترك لسان محاسن. لم تدينك ولم تحملك مسؤولية تركها وابنتها. كانت تجد لك عذرا في ذلك، لكنها لا تخفي المها بسبب غيابك واستفراد اخوها حسن بها. ورغم زواجها من صالح الرجل الصالح، الا انها لم تبغضك يوما.

علمت انك لفترة كنت تنادين صالح "بابا"، وحين كبرت، احتفظت بمودتك معه، لكنك صرتي تنادينه "عمو". تقول ام عامر، ان امك شدهت لذلك، حيث لم يعلمك احد وطلب منك ان تناديه "عمو". كان ذلك اختيارك بذاتك، وكان اشعارا دائما لامك بوجودي. كنت تسألين كثيرا عني، عن صوري، وعن مصيري. ابنتي يا رحيل، شئت ام ابيت، يجب مواجهة الحقائق. الامر ليس هينا ابدا. معك ربما اكون قادرا على بناء جسور العلاقة بين الاب والبنت، لكن كيف لي ان ابنيها مع امك؟ بأي شكل ستكون، لو اننا التقينا؟ ايمكن ان تكون امك امراة غريبة عني تماما؟ لا يمكني استعياب هذا. قلت لك، اني عرفت غيرها نساء عديدات، ولكنهن، كن نساء عابرات، حتى وان احتللن مكانة واحتراما ما في روحي ونفسي. كن محطات سفر في رحلتي نحو المجهول. وبعضهن محطات حانية، آمنة، جلبن الهدوء في صراعي مع روحي. توفرت لي فرص عديدة للزواج، من نساء رائعات، بامكانهن اسعادي، وبالامكان ان يكون لي منهن ابناء وتكون لي عائلة، لكني لم استطع استعاب فكرة ان تكون لي عائلة اخرى. في الكاليفالا، الملحمة الفنلندية، يرى الرجل ان السقوط من الاسرة موتا. لم يخطر لي يوما ان تكون لي زوجة غير امك، وطفلا غيرك. هل توقفت عندي الحياة؟ لا... ابدا، انا لست من هذا الصنف من الناس المتشائمين، وان كنت حزينا دائما. اؤمن بكون عجلة الحياة تدور، وانها لابد ان تدور، ولكني لم اتمكن يوما من تخطي فكرة ان لي عائلة في العراق، هي انتم. وهكذا اعود الى عذابي مع سؤال ازلي: هل يمكن لنا، انا وامك، ان نبني حياتنا من جديد بعد هذا العمر والخيبات؟

٥

ورد في رسالة سابقة اسم انيس التكريتي. ربما سيشتت هذا الاسم افكارك يا ابنتي، لذا لابد من الحديث عنه.

ان الحديث عن هذا الرجل، الوحش، يعني الحديث عن تجربة اعتقالي من قبل اجهزة أمن النظام الفاشي. سأحاول ان اروي لك هذا الامر باختصار. ربما للتاريخ، ليبقى في ذهنك شيئا

عن معاناتي، التي كانت تشبه معاناة الكثيرين امثالي. وربما كانت معاناتي اقل من الاخرين، فلقد خرجت سليما من زنازينهم واقبيتهم، بينما خرج غيري وهم يحمل تشوهات جسدية ونفسية ظلت ترافقه طول العمر. استطعت انا الحفاظ على حياتي وفررت من العراق، بينما زملاء لي لا زالوا مفقودين، او سلمت جثثهم لاهاليهم بعد ايام واسابيع. ربما تكون امك قد روت لك جوانب من معاناتي وقصتي، لكني اعتقد ان لا خسارة في رواية ما حصل. وبدءا لاقول لو تدرين بالحجة التي اعتقلوني بسببها؟ كانت التجاوز على تاريخ الامة العربية! بالتأكيد تعرفين صلاح الدين الايوبي؟ لا حديث للانظمة العربية، غير الفخر وبديماغوجية فجة بصلاح الدين الايوبي. كنت يوما في المدرسة، أقدم درسا في التاريخ، حين بادر احد الطلبة للسؤال:

ـ هل صحيح يا استاذ كريم ان صلاح الدين الايوبي كردي؟

كان الطالب، من اولئك الطلبة المعارضين لتنظيمات "الاتحاد الوطني لطلبة العراق"، كان يريد بأجابتي اغاضة البعثيين وانصار النظام، لانه يدرك اني سأجيب بما لا يسرهم. عندكم في المناهج الدراسية التي وضعها النظام الديكتاتوري، بعد اتباعه سياسة أعادة كتابة التاريخ، وفق افكار حزب البعث وفلسفة ميشيل عفلق وعقلية صدام حسين، صار كل شئ يحمل ملامح وروح قومية شوفينية. هكذا صار صلاح الدين الايوبي عربيا. بالنسبة لاسلوبي، في تدريس التاريخ، كنت الجأ الى حث الطلبة الى عدم الايمان بكل ما يقرأون، فالتاريخ المكتوب حمل الكثير من الاباطيل والتضخيمات والتشويهات. ألم يتحدث المؤرخون العرب عن انه وقف فوق جسر بغداد مئة الف من العامة وذلك في القرن الرابع الهجري ثم نكتشف ان ذلك الجسر لا يسع ولا يمكن احتمال وقوف مئتي شخص؟ كنت احث طلابي على البحث والاطلاع واستخدام العقل. كان مدير المدرسة يتحجج في معارضتي بكوني القي اعباءا ثقيلة على كاهل طلبة مدرسة اعدادية، وهم ليسوا طلبة جامعات، او دراسات عليا، وكنت اراهن على الحقيقة وتعليم الطلبة منهج البحث العلمي. وهكذا تحدثت لطلابي عن صلاح الدين الايوبي، الذي ظل بالنسبة لي قائدا اسلاميا، رغم بطولاته المذهلة كقائد عسكري في معركة حطين لاستعادة القدس، الا انه كان قائدا ديكتاتورا، ملأ البلاد بعيونه وجواسيسه، وامتلأت سجونه بمعارضيه، وحين دخل القاهرة ارتكب، وبمعايير عصرنا الحالي، واحدة من ابشع الجرائم ذات الصبغة الطائفية في التاريخ، حيث احرق المكتبة الفاطمية التي كانت تضم دررا من المخطوطات الادبية والفكرية. وهو من أمر بقتل المفكر المتصوف شهاب الدين السهروردي بتهمة الزندقة، الذي يعتبر أحد ابرز الفلاسفة الرواد في التنوير والتهذيب الفكري. مع كل هذا لم اخف على الطلبة ان

لصلاح الدين جوانب مشرقة، جعلت منه عند كثيرين اسطورة انسانية. بعد عجز مدير المدرسة، والمسؤول الحزبي في المدرسة عن ايقافي في اتباع الاسلوب الذي اريد في التدريس، عمدا الى اللجوء الى اساليب قذرة، وراحا يسجلان عني عشرات التقارير الامنية، كان هناك طلبة متطوعون للمساهمة في كتابة ذلك. وصلتني تحذيرات من بعض المدرسين للتخفيف من أساليبي في مواجهة المدير. نصحوني بمداهنة المسؤول الحزبي قليلا. لكن يا رحيل كيف لي مثلا القول ان صلاح الدين عربي وهو كردي؟ انا لم اشتم احدا، ولم أهين احدا. لم يكن في عصر صلاح الدين الايوبي وجود للفكرة القومية. كان الرجل، حاكما وقائدا بأسم الدين الاسلامي، ومحاولة دراسة التاريخ العربي الاسلامي، بعقلية الفكرالقومي الشوفيني في العصر الحديث، كان بالنسبة لي جريمة لا تغتفر. وهكذا في حوالي الساعة التاسعة مساءً، وانا عائد من مركز المدينة، وليس بعيدا عن منزلنا، حيث كنا نقيم انا وامك، اعتقلوني واقتادني ستة مسلحين من فوج طوارئ حزب البعث. تصوري يا ابنتي ستة رجال مدربين ومدججين بالاسلحة لاعتقال مدرس لا يملك غير كتبه وقلم الطباشير الذي وجدوا انه اخطر من كل اسلحتهم. حين وصلنا الى مبنى دائرة الأمن، غرقت فورا وسط أمواج بحر من الاسئلة بدون اجوبة. ضياع تام، ومجهول داكن، مثل ليل بلا نهاية. كان مجرد ذكر إسم هذه الدائرة أو المرور بالقرب من جدرانها يثير عند بسطاء الناس الخوف والسأم والغثيان. لم اتوقع اني بهذه السهولة سأكون احد زوار هذا المكان. انزلوني اولا من السيارة، عند بوابة الاستعلامات المصفحة بكتل اسمنتية والمزودة بأجهزة اتصال متطورة. كنت أنتظر في ممر قصير، وكنت من شدة اضطرابي اعد خطواتي فوجدت انها عشرين خطوة. وكنت اعتقد انها عشرين خطوة قبل الموت. كان الممر يؤدي الى البناية الرئيسة التي يجلس فيها الضباط ومنتسبو الأمن، وكانت تلوح بعض من غرف السجن الصغيرة، عرفت فيما بعد ان نزلائها من اصحاب التهم المختلفة، جميعهم في انتظار التحقيق والتعذيب. بعد قليل اقتادوني عبر بوابة السجن الاولى، وعبرنا البوابة الثانية، التي رأيت فيما بعد سجناء ربطوا اليها بحبال كالحيوانات. ادخلوني غرفة كأنها قفص، كان هناك انسان يتحرك بصعوبة، سألني عن اليوم والتاريخ، لم اتمكن من معرفة اسمه او تهمته، لم امكث طويلا، اذ سرعان ما اخرجوني ثانية. وفهمت الرسالة. كانوا وفق تنظيم مدروس يريدون ادخال الرعب في نفسي. ادخلوني الى قاعة واسعة ازدحمت بعشرات الرجال من الشيوخ والشباب. كان هناك يقف اكثر من سبعين رجلا. لم يجرؤ احد على الكلام. صاحوا بنا: لا احد يتحرك او يتكلم بدون ان يطلب منه ذلك. امتثلنا للاوامر، وقفنا مثل تماثيل حجرية. بال شاب على نفسه وساقاه

ترتعشان. وقفت في صف مع مجموعة من السجناء. كنا نقف صفوفا، كل خمسة او سبعة صفا واحد. راحوا ينادون الاسماء ويوزعون اصحابها على الغرف. تحرك. تحركت. قف. وقفت. ادخل. دخلت. كانت الغرفة التالية مزدحمة بعشرين شخصا يفترشون الارضية، ومتراصين كانهم في علبة سردين. كان بعضهم هياكل عظمية حقيقية. لم يكن الضوء يدخل الغرفة بشكل تام. لم نكن نعرف الليل من النهار. كنا نرى وجوهنا حين تفتح الباب، او حين يتسلل قليل من ضوء الممر عند توزيع الطعام. كان الباب يفتح ثلاث مرات في اليوم لتوزيع الطعام، الذي من الجريمة تسميته طعاما.كان مجرد شيئا غريبا يقدم لايهام السجين بأنه طعاما، وان له معدة تهضم ويتطلب تسكينها. صمون يابس، وشوربة بصل او عدس، ولا وجود لشئ اسمه لحم او فواكه. تعرفت على بعض نزلاء الزنزانة. طلاب، محامون، عمال، وكادحون. شيوعيون واسلاميون، وناس لا علاقة لهم بالاحزاب والسياسة، لكنها تريد ان تعيش مثلما تريد وتفكر. اقترب احد السجناء مني، لحظة دخولي، همهم بسؤال، فهمت منه:

ـ لماذا انت هنا؟

وبصراحة اجبتهم:

ـ لا ادري؟

لم اكن اعرف السبب الحقيقي. ادرك انهم مستاؤون من رفضي الانضمام لتنظيمات حزب البعث، وادرك انهم لا يحبذون اسلوبي في التدريس، وانهم مغتاضون جدا من اسلوبي في الحياة وان لي اصحاب وعلاقات طيبة مع مختلف الناس، شيوعيين، اسلاميين وقوميين. لم اكن اضع الانتماء الحزبي معيارا لعلاقتي مع أي انسان. كنت اتابع سلوك الانسان وتاريخه، وارى علاقاته، ان وجدته طيبا وجيدا مع الاخرين، فهو سيكون طيبا معي، فكنت اقترب منه، او افتح له قلبي ليقترب، وبالعكس. كان مدير مدرستي مغتاضا جدا لان علاقتي كانت رائعة مع المدرسين الشيوعيين في المدرسة، وكانت لنا اهتمامات ثقافية ونشاطات اجتماعية مشتركة. وكنت ادرك اني اعتقلت لادفع ثمن هذا كله، لكن لم يوجه لي احد تهمة محددة. كان السجانون يسمون زنزاتنا "السينما". كانوا يسخرون من السجناء لاذلالهم. رغم ان المكان كان حقا مثل شاشة سينما، تعرض فيه افلام حقيقية لاذلال الانسان والحط من قيمته، بشكل مخالف لكل الشرائع السماوية. كل سجين له الحق ان يخرج لاستخدام التواليت ثلاث مرات يوميا، وعليه الخروج هرولة ويعود كذلك. كان الوقت ثمينا لاستثماره في التبول والتبرز، ومن يتأخر ينال حصته من سوط الحارس. لاسبوع لم يسأل عني احد. تركوني في "السينما" دون

ان يرد احد على اسئلتي. كان السجناء يغادرون، يختفون أو يعودون وهم كتل من اللحم وتسيل الدماء من جروحهم في كل مكان. احدى المرات رموا في زنزانتنا شابا ريفيا، بقوام نحيل، ظل لاسبوع، صامدا امام كل انواع التعذيب، ولم ينطق بشئ مما يعرف. حين يعودون به الى "السينما" يصفر لحنا غريبا، كان يثير السجانين والجلادين. قيل انه متهم بتوزيع منشورات ضد النظام. جاء احد الضباط الكبار، دخل غرفتنا، ومرافقوه يوجهون مصابيح الضوء الى وجوهنا ويركلونا باحذيتهم لنبتعد، وانحنى الضابط الكبير وحدق طويلا بوجه الشاب طريح الارض. كان الشاب يصفر لحنه دون ان يتمكن من فتح عينيه ليرى الغضب الذي اكتسى وجه الضابط الذي قال لمرافقيه:

ـ اعتبروه ضمن حصة الـ ٥٪!

فيما بعد، عرفت ان هذا رمز لمن يتم تعذيبهم حتى الموت. لم ار الشاب بعد ذلك، ولم يعرف احد اسمه ولا عنوانه. كنا نحن السجناء، الذين لم ياخذونا بعد الى "المعصرة"، نحاول التخفيف عن العائدين منها، ونترك لهم امكنتنا للنوم، اذ كان الازدحام في الزنزانة لا يسمح للجميع بالنوم براحة، وكان بعضنا ينام وهو يجلس القرفصاء، وفعلت هذا مرارا حين كانوا يأخذون جاري الى "المعصرة". عرفنا اسم "المعصرة" من السجانين. كان يفتحون الباب، وينادون على احد السجناء، ويصرخ الضابط بحنق:

ـ خذه الى "المعصرة "!

كان عذاب نزلاء "السينما" يفوق من يكون في "المعصرة". كنا ونحن في "السينما" نسمع صراخا متواصلا، واحيانا صراخ نساء وبكاء اطفال، كان يستمر احيانا حتى الفجر. واخذوني الى "المعصرة". وعرفت اسم جلادي فورا. فتح الباب ونادوا اسمي. ربطوا عيوني، واصدر احدهم أمرا:

ـ خذوه الى ابو عروبة.

وهبط قلبي من بين ضلوعي، الى اسفل بطني. كان صيت هذا المجرم اكبر من جسمه القصير، وشكله المكور واسمه: انيس التكريتي. حكى لي عنه زميل مدرس من انصار حزب الدعوة الاسلامية تفاصيل عجيبة، لو حذفت نصف الاحاديث واعتبرتها مبالغات، فالنصف الباقي كاف ليشيب الشعر. كان انيس التكريتي يفخر علنا ان عمه كان من كلاب الحرس القومي في ١٩٦٣، وساهم مباشرة في تعذيب سلام عادل. اقتادوني معصوب العينين عبر عدة سلالم، وكنت اسمع الانين والصرخات والصفعات تتصاعد من بعض الابواب وانا امر بمحاذاتها

وهناك من يقتادني. وصدر الامر بالوقوف. ووقفت. نزع احدهم العصابة عن عيني، وبالكاد استطعت تمييز الاشياء. أنزلوني الى قبو مظلم تقريبا، درجاته معدودة، ربما سبع. ممره لايتسع لأكثر من شخص واحد. كان هناك من يدفعني بعنف. كدت اسقط. كان قبوا معتما، رطبا، وثمة دخان ازرق داكن يتصاعد امام ناظري، وكان ثمة رائحة عفنة، لا تطاق تملأ المكان. كانوا يا ابنتي عامدين يخلقون اجواء لا انسانية لممارسات لا انسانية. وفجأة شعت اضوية فسفورية، بالكاد يمكن للمرء فتح عينيه امامها، ورايته امامي. كنت لمحته مرة او مرتين عند باب مشرب نادي المعلمين، حيث كان هناك غرفة خلفية للعب القمار، كان يتردد اليها البعض من المسؤولين والمدرسين، وكان مدير مدرستنا من زوارها غير الدائمين. كان وجه أنيس التكريتي كريها، اثار جدري واضحة في وجهه، تجعله اكثر قبح، وشواربه مشذبة بطريقة تشبه شوارب المجرم صدام حسين. اقترب مني، فشممت رائحة الخمرة والسجائر القوية تفوح من فمه. قدم لي سيجارة، فرفضت بهزة من راسي فقال:

ـ اعرف انك لا تدخن، ولا تشرب من الخمر سوى عرق المسيح، ولا تطيق لعبة الدومينو، وانت تعرف ان مدرس الكيمياء في مدرستكم هو عشيق زوجة مدير مدرستكم، وانك صددتها حين تعرضت اليك مرة، وان زوجتك حامل في شهرها الخامس، وانت تريد بنت وزوجتك تريد ولد. وبعد؟... اعرف قرابتك من سراب وماذا يعني لك سراب، واعرف اصحابك كلهم، هنا في ملفك كل شئ. حتى سعر اخر قميص اشترته لك زوجتك من الاورزدي باك. اتريدني ان اقول لك لونه؟ لدي قائمة بأخر الكتب التي استعرتها من المكتبة العامة في المدينة، وكأن الكتب التي تملا بيتك لا تكفيك. انتم اهل الكتب تف عليكم وعلى اليوم الذي ولدتكم فيه أمهاتكم، لقد ملأتم البلاد بأفكاركم الوسخة.

كان يا ابنتي وهو يتحدث، يقترب ويبتعد من مكان جلوسي الرطب بشكل رتيب. وبدون توقف يطقطق بأصابع يديه، يلفهما بطريقة غريبة، يشبكهما، ويصدر منهما اصواتا متتابعة، وكأنه يعزف لحنا وحشيا، وكنت اتصور انها ستنخلع من كثرة ترداد ذلك. حين يرفع صوته ويصرخ احيانا، يفتح شدقيه لحد يبان نابه الذهبي في فكه الأعلى. لم يحاول ان يصفعني، او يضربني، جعلني هذا افكر بانه يبحث عن سبب لاستفزازه، فقررت البقاء هادئا، ولا اجيب بشئ يسبب لي اشكالات معينة، ولكن سوف لن اسمح له بالتجاوز علي:

ـ من نفشل معه، في التحقيق في "المعصرة"، نرسله الى "الفرن". واعلمك مباشرة بما يجري هناك. هناك لا دور للكلام والحديث. هناك الكهرباء تقوم بهذا الدور ومعها التعليق

بالمراوح وقلع الاظافر والضرب بالسياط على الاماكن الحساسة و... وماذا بعد؟ اعتقد ان لديك صورة جيدة عما نفعل هنا؟ وعليك ان تعرف اننا تركناك في "السينما" اسبوع لتسمع وترى بعينك نتائج اساليبنا. سأعيدك الان الى "السينما" وغدا فجرا، ستاخذك سيارة الى بيت اهلك بكل احترام. لا نريد ان تحكي لاحد عما حصل، هذه اسرار بيننا وبينك. لديك يوم اجازة، وبعد غد صباحا عند الثامنة ستكون في المدرسة، بثياب نظيفة، وحليق الذقن ومزاج طيب. مدير المدرسة لن يتعرض لك ابدا، نحن من نتابع شؤونك مباشرة. ستراجع مع تلاميذك بعض الدروس الماضية وتصحح لهم بعض المعلومات الخاطئة التي سبق وقدمتها. مدير المدرسة سيسلمك قائمة بكل المفاهيم الخاطئة التي تعلمها تلاميذك منك في الايام الماضية، وسيقدم لك مديرك نصائح ضرورية عن اساليب التدريس. ها انا افعل ما لا يمكن ان افعله مع غيرك. لماذا؟ لاني معجب بك وبصداقتك مع سراب، وكنت اتمنى ان تكون لدي صداقة مع احد بمستوى صداقتكم. لكن يا استاذ كريم حسن مطرود، وحق الرب العلي القدير، لو عادوا بك اليّ ثانية، ومر وجهك امامي في "السينما" فسيكون حديثنا بشكل اخر، وساعمل منك فلما بالالوان، ولا يمكنك لومي لاتباع لغة تفاهم جديدة معك.

وطق اصابعه بشكل اقشعر له جلدي. كان انذارا قاتلا. عند الفجر كنت امام البيت. لم اتاخر كثيرا، وسط وجوم امك وحيرتها، جمعت قليل من ثيابي وغادرت الديوانية الى السماوة. لم افكر بما سيكون بعد ذلك. كنت اريد الابتعاد عن الديوانية باسرع ما يمكن. عن عيون مدير مدرستي، وعيون انيس التكريتي التي تتابعني في مشاويري وترصد تحركاتي في المدرسة. قبل اختفائه عمل سراب لفترة في السماوة، وله من المعارف ما يكفي، وكنت تعرفت على بعضهم، ويمكن لهم مساعدتي. في السماوة، بعد اسابيع، عرفوني على فوزي. لم انتظر طويلا. مشيا على الاقدام، مع المهربين، عبرنا معا الصحراء، وصرنا في الكويت.

٦

هل تعرفين يا رحيل ماذا يعني في عادات اهلنا حين تتشاجر العصافير؟

كانت جدتك، امي، حين ترى العصافير تتشاجر، وتلعب، تعتقد ان ثمة ضيف قادم من بعيد، ضيف عزيز فارقنا من زمن طويل، ولايام يسكن روحها هاجس الانتظار. تنظف البيت وكأن ثمة عرس سيقام فيه، تهيأ اجمل ثيابنا، وتهيئ مواد لاحسن طبخات الطعام، وتبقى عيوننا جميعا شاخصة الى قدوم الضيف العزيز. ولكثرة اقارب عائلتنا ومعارفنا،

فانها تقبل بأي ضيف، مهما كانت منزلته، من اجل اثبات صحة نبوءة العصافير. بالنسبة لنا نحن الاطفال، وحتى حين كبرنا، كان لا يهمنا نوع الضيف، يهمنا الخيرات والتسهيلات التي تهل علينا بسببه.

يوما قال لي صاحب:

ـ اتمنى لو كنت شاعرا، لاكتب قصيدة أسميها "شجار العصافير"، أضمنها كل الشوق في قلب ام او اب، او زوجة او اخت، او حبيبة وهي تحترق في انتظار حبيب.

استهوى الامر صاحب جدا، وظلت راسخة في بالي امنيته الشاعرية، وكذلك اعتقادات امي، وهكذا كلما حط عصفور بالقرب مني نطت الى حواف القلب ذكريات تلك الايام البعيدة.

قبل ايام كنت في شقة فوزي، حين حط عصفوران في شرفته، وكان لعبهما وشجارها وزقزقتها يجعل القلب يخضر بالذكرى واللوعة. وحدثته عن قصيدة صاحب التي لم تكتب، وعن انتظارات أمي للضيوف البعيدين. ضحك فوزي وقال بمرح مغلف بشئ من الحسرة:

ـ لتتشاجر العصافير ما طاب لها، لا انتظر ضيفا من البعيد، حتى العروس طارت!

هذا الرجل، اجد نفسي احيانا افكر بحاله، واحيانا اكثر مما افكر بنفسي. ظاهريا تجدينه، متماسكا الى حد اللعنة، وفي داخله تجدين السنة نيران اللوعة والالم تتصاعد كل حين ولمختلف الاسباب. صرت افهم لماذا مرة، وفي جلسة احاديث مكاشفة، قال عن نفسه:

ـ نحن يا كريم، ظلمنا الزمن، نحن ورغما عنا ننتمي الى جيل يجب تسميته جيل الخيبات.

وحين لاحظ فوزي علامات الاستفهام في نظراتي، واستغرابي من نغمة الحزن في صوته، واصل بصوت مجروح:

ـ في ايام الجبل، ونحن نصد هجوما عسكريا لقوات نظام صدام حسين، صحت برفاقي بما يتذكره عديدون منهم، وقيل لي ان بعضهم رواه على لساني... باننا نحن لسنا فقط جيل الخيبات، الذين غدرت بنا التحالفات السياسية والاجتهادات الفكرية اليمينية للقيادات الحزبية، نحن جيل فتح عينيه على دموية الصراع الطبقي ووحشية الطبقات الحاكمة، فكان علينا خوض طريقنا عبر الدم والخيبات المتتالية!

وحين يشير فوزي، الى ان العروس "طارت" فهو يومئ الى فشل مشروع الزواج الذي تورط به. لم تحو مسيرة حياة هذا الرجل على محطة استقرار ليتسنى له التفكير بالزواج. حقا هو يشبه، كثيرين من ابناء جيله، الذين لم يحسن التاريخ مكافأتهم على اعمالهم الجليلة. اتدرين كم من امثاله، تزوجوا بشكل متاخر، أو لا زالوا بدون زواج، وكان يفترض ان ابناءهم الان انهوا

المدارس الاعدادية او المتوسطة على الاقل؟ اذكر احد الاخوة، من اهالي مدينة الناصرية، وصل الكويت في نفس الايام التي وصلتها، والتقيته هناك وكانت لنا صحبة طيبة. قال انه حين ابلغ والده بانه قرر مغادرة العراق الى الكويت هربا من البعثيين، اجهش والده الكادح البسيط في البكاء، وقال له بلغته واسلوبه:

ـ مع الاسف ياولدي، هذا وقتك، وقت نكاحك.

هكذا، في الوقت الذي كان يجب ان يتزوجوا، ويبنوا أسرا، تشردوا في ارجاء العالم. منهم، مثل فوزي، من رجع الى كردستان، ومنهم من ظل مشردا بين عواصم المنفى، ولم يتمكنوا من بناء الاسرة التي ينشدون، فالاستقرار ضروري لنجاح مشروع تكوين اسرة. حين وصل فوزي الى فنلندا صار أهله واصدقاؤه يمارسون ضغوطا مختلفة عليه من اجل الزواج. خصوصا اخاه شامل، وهو اكبر منه، وهو لفوزي بمنزلة الاب. كان فوزي لا يرد طلبا لشامل، ليس فقط لانه اخوه، ولكن لان شامل ايضا، له تأريخه ومعاناته التي تستوجب التقدير والاحترام. مجئ فوزي الى اوربا، كان من اسبابه وجود شامل فيها، حيث توفرت فرص لفوزي للسفر الى بريطانيا، لكنه باختصار كان يقول لاصدقائه ومعارفه:

ـ السفر الى السويد، يعني السفر الى شامل.

كان فوزي فخورا بأنه بنى علاقة صداقة مع اخيه وكان كثيرا ما يتحدث عنها لمن حوله لحد اثارة غيرة ـ وربما ملل ـ الاخرين. مع فوزي معا بنينا علاقتنا الحميمة واساسها الاحترام والصراحة والشفافية. صرنا بمنزلة شغاف القلب لبعضنا البعض. لم يكن فوزي يخفي عني الكثير من تفاصيل حياته الشخصية، وحتى للعديد من أصدقائه فسيرة حياته معروفة وفيها الكثير مما يمكنه الفخر به. كثير من الامور في حياة فوزي معروفة للكثيرين. نوري الوحيد بيننا الذي ظل يلاحق فوزي بأستمرار ليعرف المزيد من التفاصيل، وخصوصا عن علاقاته السابقة مع النساء:

ـ يا اخي فوزي، وانت الاعرف، لدي احساس، اظن ان هناك شئ ناقص لم تحكه لنا بعد، ثمة ما تخفيه عنا لنفسك.

علاقتي القديمة مع فوزي، سمحت لي الاطلاع على وقائع عديدة من حياته، ربما لم يحك بعضها للكثير من الاصدقاء. ادرك كم هو انسان عادي. في محطات رحلته المتعرجة والقاسية، تعرف هذا الرجل الى نساء يصلحن زوجات طيبات، لكن الرحيل الدائم، كان يهدم كل شئ يبدأه. في الشهور الاولى لدراسته اللغة الفنلندية، عاش علاقة زمالة مع أمراة روسية، وتطورت

العلاقة بشكل طيب. اذكرها جيدا، التقيتها عدة مرات بصحبة فوزي في مناسبات عامة. امراة عذبة، ورقيقة، رزنة ومحبة للنكتة. اسمها ناتاليا. مهندسة صوت، في راديو بطرسبورغ، جاءت الى فنلندا مستفيدة من كون امها من اصول فنلندية:

ـ بعد فشل زواجي، ووصولي الى طريق مسدود مع زوجي، بادرت لطلب الطلاق، ومع تدهور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في روسيا كان عليّ التفكير بمستقبل اطفالي، وجئت فنلندا من اجلهم.

كان لديها طفلان مثل الزهور. وكانت تعاني من الوحدة والغربة:

ـ في روسيا كانوا يقولون عنا بأننا فنلنديون، وهنا يقولون عنا بأننا روس!

تعلق فوزي بالاطفال، وصار يقضي جل وقته معهم، احيانا يترك امهم ليأخذ الاطفال الى المسبح او لمجرد التسكع معهم في شوارع العاصمة. يصحبهما الى معارض الرسم، المسرحيات، حفلات الموسيقى، أو الى مدينة الالعاب حيث هناك، وغير عابئ بما حوله، يتحول الى طفل كبير، يمرح ويصرخ ويغني. يوما وبحضوري سألته ناتاليا:

ـ كيف تشق طريقك الى قلوب الاطفال؟

قال لها فوزي مستغربا سؤالها:

ـ ببساطة جدا، افكر مثلهم، واتكلم مثلهم، انسى ان لي كل هذه السنين، فلا يجدون صعوبة في التعامل والتفاهم مع طفل مثلهم.

لا يفتعل فوزي ما يقول. هو هكذا منذ ان عرفته في تلك الايام الصعبة، في العراق، يوم كانت ضباع قوى الامن تلاحقنا من شارع الى شارع، بغية اذلالنا وسحق انسانيتنا. كان فوزي طفلا مع الاطفال، وحكيما مع الحكماء. لكنه رجل بائس الحظ ان كان هناك ما يسمى بالحظ. لم يفترق مع ناتاليا بضجيج او بشجار. تم الامر بهدوء، بقليل من الدموع والحسرات وان بلوعة كبيرة. ادركت ناتاليا، انهما لو عاشا معا، سيكون ابا طيبا لاطفالها، لكنه بالرغم من الفته مع اطفالها، سيطالبها بأن تلد له طفله الذي يحمل شيئا من ملامحه. كانت ناتاليا تعرف انها لا يمكن ان تنفذ له هذا الحق ، لانها قررت تكريس حياتها لاطفالها، وان لا تجازف بتعقيد حياتها، بزواج واطفال جدد من اب اخر. أحترم فوزي خيارها، فكان الافتراق بدون ضجة. المشكلة كانت في ترتيب انسحاب فوزي من حياة الاطفال بهدوء دون صدمة، الامر الذي كان يضغط على فوزي اكثر من غيره لتعلق الاطفال الشديد به. لايزال فوزي، يرسل لهما بطاقات التهنئة في الاعياد والمناسبات، وان توقف عن لقائهما من فترة طويلة، ولا يزال حين يلتقي ناتاليا صدفة تلتمع عيناه وترتجف شفتاه:

ـ يا اخي لا استطيع ضبط نفسي، هذه المرأة لاكثر من عام كانت تناديني حبيبي، وكانت تتوسد ذراعي، وكنت...!

وهكذا بمجرد معرفة شامل، الاخ الاكبر لفوزي، بتعثر علاقة فوزي مع ناتاليا، ومن باب المسؤولية التي يحملها كأخ كبير، وجد له عروسا:

ـ الحب ممكن ان ياتي بعد الزواج، ان رغبت بان يكون لك طفلا عراقيا، فلتكن امه عراقية، يمكنك بهذا تحقيق توازن في شخصية الطفل. هاك انظر اي معاناة يعيشها اطفال العراق في المنفى؟ في المدرسة والمجتمع يكتسبون ملامح الشخصية الاوربية، فكرا واسلوبا، وفي البيت من الاب والام والاصدقاء والاقارب يكتسبون الشخصية العراقية، ولو كان الاب عراقيا والام اوربية، سيعيش هذا التمزق داخل الاسرة ايضا، على الاقل لو كان الوالدين عراقيين، سيكون هناك ثمة استقرار نسبي داخل الاسرة، ويبدأ مجهود الوالدين في عدم ضياع طفلهما منهما، ها انت تجد عشرات الاطفال الان لا يربطهم بالعراق سوى كون الاب او الام عراقيا، وتراه حتى في البيت يتكلم اللغة الاوربية.

كانت الضغوط متواصلة لانتزاع موافقة فوزي للقبول باختيار زوجة لم يلتقها. لم يكن امامه سوى صورة للعروس المقترحة، جاءت بها قريبتها التي تعيش في اوربا، وتطمينات شامل التي يكررها لفوزي في كل حديث هاتفي. واتصل بي شامل اكثر من مرة:

ـ اخ كريم، انت تعرف بحكم قربك من فوزي، مسؤوليتي تجاهه، وانا اعرف ان الامر ظاهريا يبدو غير مناسب للزواج بهذه الطريقة، ولكن الفتاة من عائلة محترمة، واهلها معروفون بالنسبة لنا جيدا، فلا يمكن ان تشذ عنهم، فالغصن من تلك الشجرة!

كان الامر يبدو طريفا، رجل مثل فوزي يريد تغيير العالم، وبكل هذا التاريخ السياسي والنضالي، يوافق على الزواج بطريقة الجدات. كانت اتصالات شامل الهاتفية لا تنقطع مع فوزي. كانت تجري احيانا بحضوري. وافق فوزي مبدئيا على الخطوبة، ولكنه طالب بأن يصله شريط فيديو من العراق، يصور الفتاة وهي تتحدث وتتحرك، وتقوم باعمال البيت. ومازحا اقترح نوري:

ـ دع اختك تأخذها للحمام العام.

هل يا ترى لا زال سائدا هذا الاسلوب بين الناس في العراق؟ كانت الامهات، يدعون الفتاة الى الحمام العام ليتفحصن مشيتها وحركاتها وطولها، ويشممن رائحة جسمها، وكل ما يمكن ان يكون عيبا في جسدها. اعتقد ان الامور الان اختلفت، سلسلة الحروب غيرت الكثير من

العادات والاخلاقيات، والمد الديني وحملة النظام الايمانية التي دفعت الناس للجوامع والنساء للحجاب، ساهمت في انغلاق المجتمع واختفاء عادات كثيرة. كان فوزي يريد سماع صوت الفتاة، فهم شيئا من افكارها. كان شامل يتحرك من مسؤوليته كأخ اكبر، ويشعر بالتقصير لعدم زواج فوزي الذي تجاوز الاربعين من العمر. لم يطل المشروع طويلا. وصل شريط الفيديو بعد انتظار. في زيارة لاقرباء فوزي الى عائلة الخطيبة، اصطحبوا معهم كاميرة فيديو واخرى فوتغرافية وصوروا الخطيبة في احاديثها وجلساتها مع اهلها، وهي تضحك لنكتة او تجلس تراقب التلفزيون. لاحقت الكاميرا الخطيبة بشكل كاف، او بأختصار بما يكفي لوقوع الكارثة. شريط الفيديو ومجموعة الصور التي وصلت الى فوزي كانت صورا لفتاة اخرى لا يعرفها ولا علاقة لها بالصورة الاولى. فالعروس كما اظهرتها الصور، فتاة مفرطة السمنة، لا تشبه فتاة الصور الاولى الرشيقة، المشرقة الوجه، بشكل لا يمكن الا فهم عملية الغش التي وجد شامل نفسه انه ورط اخاه فوزي بها، فكان ان ترك لفوزي حرية التصرف مباشرة حتى لا تنقطع كل خيوط علاقته مع اصدقائه. هكذا وجد فوزي نفسه، يخوض صراعا مرا مع نفسه، فبعد هذا التاريخ المزدحم بالمواقف وبما يفخر به، يجد نفسه طرفا ربما في مأساة ما. فماذا سيقول الناس عن الفتاة لو سمعوا بأنسحاب خطيبها المناضل؟ في ليلة صعبة وحزينة، وبعد التسلح بكأسين فودكا، رفع فوزي سماعة الهاتف ليقول لقريبة العروس بالم:

- اسف، لست مستعدا للارتباط بعد، اعلن انسحابي.

ولفترة، رفض فوزي التعليق على الامر، وبدورنا تجنبنا الاشارة اليه، واذ حاول نوري مرة المزاح حول ذلك صده شاخوان وعنفه.

افهم تماما يا ابنتي، ان الشعوب عند المنعطفات والمحن تطلب الحماية، مثل القنفذ الذي يلتف على نفسه لحمايتها، فالمجتمعات، تلتف على نفسها، وتعود الى عاداتها القديمة وتتمسك بالدين والغيبيات، لكن المؤلم جدا ان ماكنة النظام الديكتاتوري، واذ ساهمت بالحروب والارهاب المنظم، في قتل الروح الانسانية، دفع ذلك بالناس لتغيير اخلاقهم، وعاداتهم. عند البعض، صار مبدأ الغاية تبرر الوسيلة شعارا ومبدأ يحتذى كل يوم، هذا امر مؤلم جدا؟ شعر فوزي بالخيبة مما جرى، ليس الالم الشخصي وحده هو ما حاصره. كان مسحوقا بما يجري في وطنه. توقف نشاطه لفترة، وكان علي اخراجه من دوامة الحزن الداخلي الذي تلبسه، ولا يريد للاخرين لمسه. عرف شاخوان، ونوري بما جرى، اذ اختفت و"طارت" صورة العروس من اطار المرآة في صالة شقة فوزي. علقها فوزي هناك ليعتاد وجهها، وافاق ليجد نفسه اعتاد وجه امراة اخرى،

لا تشبه الشجرة ولا الغصن الذي تحدث عنه اخوه شامل بأخلاص. لم أحاول الاشتراك في الضغوط التالية التي واصل شامل ممارستها مع فوزي للبحث عن عروس جديدة. وكان شامل مدفوعا بنوايا صادقة يحاول اقناع فوزي بمشاريع جديدة. من جانبي فكرت ربما تصلح ناوات زوجة لفوزي. كانت ناوات تتقدم في حياتها المهنية، فهاهي تعمل نهارا وتدرس مساءا، عازمة على نيل شهادة المدرسة الاعدادية من المدارس الفنلندية للالتحاق بالجامعة. حين سمعت بذلك، كنت واثقا ان فتاة مثلها قادرة على ذلك. حتى وان راح البعض يتهمها بأنها صارت اوربية. لم اتحدث عن فكرة الارتباط بها لفوزي مباشرة، لاكثر من سبب، منها لان فوزي كان يلتقيها باستمرا في اكثر من مكان ومناسبة، وبامكانه التفكير بها بنفسه، وايضا لان فوزي قال لي ببساطة وقناعة:

ـ على ارض العراق، وتحت هواء العراق، تعرفت الى فراشتي العراقية. حبي الاول، التي طارت مني، وتركتها دون وداع، ودون اعتذار. لقد قامت امي بذلك نيابة عني، هي الان لها عائلتها، زوج واطفال، ولا اعرف لحد الان تفاصيل ما جرى لها، بل واخاف حتى السؤال عنها. وهناك، تحت سماء وهواء العراق، سأجد يوما المرأة التي انشد. ساجدها بنفسي ودون حاجة لوسيط، وهذه المرة سألتصق بها حتى تراب القبر، فلا تقلقوا من كوني لحد الان بدون زواج.

تركت امك يا رحيل، مضطرا. وترك فوزي فتاته التي وعدها بالزواج مضطرا. وغيرنا هناك المئات واكثر، تركوا أعز ما لديهم مضطرين. تركتك وانت لا تزالين جنينا، ولم اكد اتعرف الى صورك الاخيرة التي حملتها لي أم عامر. متى واين يمكن لنا تحقيق ما نريد دون ان يكون هناك مسدس مسددا الى رؤوسنا؟ دون ان يكون هناك كاتم صوت يترصدنا؟ متى يمكن للانسان رسم أمانيه مثلما يشتهي؟ متى يمكن لي لقاء صاحب ـ سراب لارى ان كان كتب قصيدة "شجار العصافير"؟ وهل يمكن لاحد غيره ان يكتبها؟ وكيف يمكن كتابة قصيدة مثل هذه؟ هل ستكون قصيدة مثقلة بالحزن واللوعة والالم، ام سيكون هناك فيض من الحب والامل؟ أم...



٧

في رسالة سابقة تحدثت عن الشعر، هذا ذكرني بزيارة شاعر عراقي الى فنلندا، اسمه عبد الكريم هداد، مقيم في السويد، وهو واحد من الاف المثقفين العراقيين، الذين ارتضوا حياة المنفى الثقيلة، حفاظا على حياتهم ومواقفهم الرافضة لكابوس الديكتاتورية والارهاب السياسي. قرأ الشاعر في امسية شعرية قصائدا ميلئة بالحزن والحنين الى الوطن، وتحدث عن تخريب الثقافة

العراقية على يد مؤسسات النظام الديكتاتوري، والدور الذي مارسه مثقفون عراقيون جندهم النظام الديكتاتوري، أو تطوعوا بذاتهم ليكونوا شرطة ثقافة، سلطوا اقلامهم على زملائهم ليكتبوا عنهم تقارير امنية ادت بحياة الكثيرين منهم، أو للغياب في سجون الديكتاتورية، وفي احسن الاحوال تركوا الوطن مضطرين، حالهم حال الالاف، بل الملايين من العراقيين غيرهم. قال الشاعرعبد الكريم هداد ان جرائم هؤلاء المثقفين بحق الشعب العراقي والثقافة العراقية اكبر من جرائم شرطة النظام الديكتاتوري. ذكرني قول الشاعر بحكاية سمعتها من فوزي عدة مرات، يقول رواها له فلاح كردي، خلال وجوده في كردستان، والحكاية عن شجرة البلوط الصغيرة التي شكت يوما الى امها، شجرة البلوط الضخمة، قائلة:

ـ الا ترين يا امي، كيف ان هذه الفأس الحادة، تنكل بنا، نحن الشجرات، تنكيلا، وحشيا، لا رحمة فيه؟

فضجت شجرة البلوط باغصانها الجبارة، وقالت:

ـ يا ابنتي، هذا لان مقبض الفاس مصنوع من خشب البلوط!

نعم يا رحيل، فأن عصي فأس الديكتاتور، لم تأت من كوكب في الفضاء الخارجي، وانما من بين ابناء شعبنا، وهذا يجعل ضربات فأس الديكتاتورية تكون قوية في جسد شجرة العراق، اعتقد هذا ما عناه الشاعر عبد الكريم هداد بأدانته لشرطة الثقافة.

طيب لاحاول ان ابعدك عن هموم السياسة واعود الى الشاعر عبد الكريم هداد، الذي وفي جلسة خاصة في "المقهى الرياضي"، اهداني احد دواوينه وهو بعنوان "أخر حزن". كتب لي بحروف كبيرة اهداء ظريفا، قصيرا: "بكم كبريائي" ووقع اسمه بحروف ناعمة. كنت اتمنى لو ان هناك طرق امنه لارسل لك هذا الكتاب، لقراءته والاطلاع عليه، لاني لكثرة ما قرأت قصائد هذا الديوان حفظت بعضها، وصرت ارددها في جلساتنا الخاصة، مع فوزي ونوري وشاخوان. ساكتب لك هنا مقطع من احد القصائد التي شدتني:

"أنا وليلي
احكي ل كاسي
كل الحزن الراسم لوني
أسكر بهمومي الما خلصت
وتتطوطح روحي وي ظنوني
وازرع قلبـي نجمة ليل

تنشد عل الظلوا عدلين

ايا روحي خو تدرين

معاندنه الحظ، ومن سنين

قلبـي نجمة وتشاورني

وين الممشة؟

متغربين... متغربين"

هل توقفتي عند عبارة "تنشد عل الظلوا عدلين"؟ آه، لو تدرين يا ابنتي كم مرة توقفت عند هذه العبارة والكتاب حائر بيدي؟ كم هي بليغة ودقيقة نبوءات الشعراء وحكمهم؟ ان عبارة من شاعر تعادل احيانا طنا من بيانات الاحزاب السياسية. لقد اكلت الديكتاتورية الكثير من ابناء شعبنا. الالاف ماتوا وفقدوا في حروب عدوانية لا مصلحة لنا بها مع الجيران. الالاف من الشباب العراقي فقدوا في حملة ابادة بشعة سماها النظام "حملة تنظيف السجون". الالاف ماتوا بالاسلحة الكيمياوية في حلبجة ومناطق مختلفة من كردستان.هناك ١٨٢ الفا ضحايا الانفال الذين لا يعرف احد عنهم. الالاف من ضحايا قمع انتفاضة ١٩٩١، ومثلهم ضحايا السجون. اتدرين عند زوال هذا النظام البغيض ـ وتذكري يا ابنتي كلامي هذا جيدا ـ سيقف كل العالم واجما امام حجم الحقائق التي ستتكشف عن اعداد ضحايا الديكتاتورية. وهكذا ـ انا وابناء جيلي ـ نقف حائرين امام سؤال: من بقي حيا يا ترى من اهالينا واحبابنا؟ سنعود الى وطننا بعد زوال كابوس الديكتاتور، لنجد انفسنا بدون شواهد على ماضينا. بدون اصدقاء دراسة، حيث اكلتهم الحروب والسجون والمنافي. وبدون امكنة حبيبة، حيث هدمتها الحروب ونتائج سياسات النظام البغيض التي لم تبن شيئا بقدر ما هدمت. بين الحين والاخر اتابع القناة الفضائية التلفزيونية للنظام الديكاتوري. اعرف ان هناك لا يوجد شيء غير تمجيد الديكتاتور وهذيانه الممل، ولكن من اسباب متابعتي لها هو محاولة للبحث في التقاريرالمصورة التي تعرضها القناة احيانا عن شواهد ما من حياتنا السابقة. تصوري، يا ابنتي، كان فوزي يوما جالسا الى جانبي، لم ينتبه الى ان الكاميرا تدور في شوارع السماوة، مدينة طفولته وصباه، لولا ان المذيع ذكر لنا ذلك. ظلم الارهاب طال البشر والمدن والطبيعة. وها أن فوزي، ومن فترة يحاول وعلى مهل ايصالي الى قناعة ما حول مصير صاحب. الحقائق تكاد تقودني للاقتناع بها، لكني لا اجرؤ على تصديق ذلك. كل شيء لا يزال مجرد افتراضات. فوزي يعتقد ان صاحب ربما لم يغادرالعراق اساسا، وان النظام غيبه مثلما غيب الالاف من ابناء شعبنا. ربما يكون نزيل زنزانة من زنازين سجون النظام التي تنتشر في كل مدن العراق، والتي ساهمت ببنائها شركات عالمية، تصوري حتى فنلندا شملتها الاشاعات في هذا الامر. صرت

احيانا افكر بكون صاحب ربما يكون نزيل زنزانة في سجن ابو غريب الرهيب، وربما يكون تحول الى فئر اختبار في تجارب النظام للاسلحة البيلوجية والكيمائية التي اخضع لها النظام سجناء الرأي؟ وربما يكون واحدا من الضحايا الذين كاد مصيرهم الفاجع جلب الجنون لابي حسن العدناني.

لاحدثك عن ابو الحسن!

كان ابو الحسن شرطيا. وجد نفسه في يوم ومجموعة من زملائه الشرطة يرافقون مجموعة اربع حفارات الى صحراء السماوة. لم يعرف احد ما هي المهمة. الضابط وحده، كان يعرف بالامر. حين بلغوا المكان، في بقعة منعزلة، قبيل وصول مدينة السلمان، حيث القلعة الرهيبة "سجن نقرة السلمان"، امر الضابط سائقي الحفارات بحفر خنادق مستطيلة، طول كل واحدة منها ٢٠ إلى ٢٥ متراً وعرض الواحد منها مترين وعمقها ٢,٥ إلى ٣ أمتار. كان ذلك بعد احداث قصف مدينة حلبجة بالاسلحة الكيماوية، لم يجرؤ احد من الشرطة للسؤال ما الغاية من هذه الخنادق. مع اقتراب المساء، وصلت سيارات عسكرية ست او ثمان سيارات مرسيدس معبأة بالافراد بالزي الزيتوني وملابس قوات الحرس الجمهوري، وقفت بعيدا عنهم، ووصل ضابط من الجيش، امر الشرطة بالانصراف وابقى الحفارات وسائقيها. حين مرت سيارة الشرطة المغادرة بجانب سيارات الزيل العسكرية، سمع الجميع، لغطا، واصوات نسائية، وبكاء اطفال. ما الذي يريدونه من هؤلاء الناس؟ لم يكن الامر صعب التخمين. كانت هناك الكثير من الاشاعات تدور بين اهالي السماوة، عما يجري في صحراء المدينة، لم تبتعد سيارة الشرطة كثيرا، حتى حملت الريح الصوت الكثيف ل لعلعة الرصاص، الذي استمر لفترة طويلة. وقع ابو حسن العدناني، طريح الفراش. لم يعد يقرب اكلا، ولا يطيق الحديث مع الناس. قدم طلب باحالته على التقاعد مبكرا، رفض طلبه. بعد فترة، اغتيل ضابط الشرطة الذي اشرف على حراسة الحفارات، قيل انه تحدث عن حفر الخنادق. لم يطق ابو حسن العدناني صبرا وتحدث هنا وهناك عما شاهده تلك الليلة. سرعان ما وصلته اشارة من احد ابناء عشيرته، المتنفذين في الدولة بضرورة تقصير لسانه. خاف ابو حسن العدناني على نفسه وعائلته كثيرا. في ليلة ظلماء ومع عائلته عبر الحدود الى سوريا ولجأ الى مكتب الامم المتحدة. ولم يصدق احد ما رواه لهم، بعد حصوله على اللجوء في فنلندا، سكت ولم يعد يحدث احد. لكنه كثيرا ما كان يقضي جل اوقاته بالصلاة، وقراءة الادعية، معتقدا كونه يتحمل شيئا من ذنب اولئك الذين لا يعرفهم ولا يعرف شيئا عن مصيرهم.

لا يطاوعني قلبي يا رحيل للتصديق باحتمال موت صاحب. أيكون بحثي عن صاحب، عن سراب، هو بحث عن سراب؟ ايكون سراب، ليس مجرد اسم فقط؟ قلبي يقول لي انه موجود، لا يزال حيا تحت السماء، يتنفس مثلنا، يعيش مثلنا، ولابد من العثور عليه.

القسم السابع

الفصل الاول

١

ربما بدا الامر مع دلشاد في التمرد من تلك الرحلة المرتجلة الى شمال فنلندا. لم تقم بها المدرسة. نظمها مجموعة من اصحاب دلشاد، وترك فرمان ابنه يذهب معهم بعد غضب ترزه لممانعته اولا، وتشكيكه في غاية الرحلة. سأل فرمان بشكل جاد، فقال دلشاد:

ـ لرؤية "الاوروراابوراليس".

فرح فرمان مع نفسه بأن أبنه صار رجلا، وان السفر ربما سيعلمه الاعتماد على نفسه. وحين ساله عن هذا "الاوروراابوراليس"، راح ابنه يقدم له كلاما لم يفهم منه شيئا. كانت اخته اكثر ذكاءا منه، اقتربت بهدوء وقالت:

ـ انها يا ابي ظاهرة يمكن مشاهدتها في شمال فنلندا والسويد، اضواء خفاقة غريبة، اذ يحدث وهج متصل تنبعث منه اشعة صاعدة تنفذ الى كبد السماء، انها حزم من الضوء الخافت المشوب بالصفرة او الحمرة ولكنه قلما يتلون بالاخضر او البنفسجي. السبب كما يقول العلماء هو انطلاق دقائق مشحونة بالكهربة من الشمس.

وشعر دلشاد بالأمتعاض لان اخته تفوقت عليه، رغم تقدمه عليها في السن والدراسة. لم يشعر فرمان يوما بالقلق من ابنته، اكثر مما كان يشعر بالقلق من ابنه. ربما بدا الامر من تلك الرحلة. كان في البدء حذرا، متخوفا، حين علم بعدد البنات الكبير المشتركات في الرحلة. خاف على ابنه من ان يصاب بمرض جنسي فالصحف تنقل تقارير عجيبة وغريبة عن انتشار الامراض الجنسية بين المراهقين في المدارس الفنلندية، وتسجل ارقاما تبدو مبالغ بها لذلك، خصوصا للمراهقين بسن ابنه، وتتحدث الصحف عن انخفاض مريع في سن المراهقين البادئين في ممارستهم الجنس. تحلل اخلاقي لا يمكن ترك ابنه يضيع وسطه. حين حاول الاعتراض على كون الرحلة تمتد لحوالي اسبوع، انبرت له ترزه محتجة:

ـ يا فرمان، ابنك صار كبيرا ولم يعد طفلا، ولماذا تخاف عليه؟! في كل الاحوال هو ولد!

وجدها محقة. كل ابناء معارفه واصدقائه يسافرون ويتحركون، وكل منهم لديه صديقة بعمره، وحتى اكثر من صديقة، فلم يمنع ابنه عن ممارسة حقوقه. من بعد تلك الرحلة، بدا تمرد دلشاد عليه. صارت سفرات دلشاد تتكرر، وايضا بقاؤه الطويل خارج المنزل، ولاحظ قلة اهتمامه بدراسته. طلب من ترزه الاهتمام بدلشاد اكثر. كانت سفرات فرمان وانشغاله تعيقه على معرفة كل شئ. كانت ترزه دائما تطمأنه على الهاتف، وحين يسأل عن ابنائه كان جوابها الدائم له:

ـ اهتم لشغلك، وانتبه لنفسك، دعك من دلشاد ومشاكل دلشاد، انا كفيلة به.

في البيت كان يشعر بالفرق بين دلشاد واخوانه، بين دلشاد واخته التي تصغره قليلا. بقية الابناء لا يزالون اطفالا. لا يزالون مبكرين على اثارة مخاوفه، ومعهم يجد كل الراحة والسلوى. البنت الكبيرة، تسهرعلى راحته في اوقات انشغال امها. كانت ترزه دائما مشغولة عنه وعن اطفالها. زيارات وسفرات وجولات في المحلات والاسواق. النساء صرن يسخرن منها، ويعتبرنها "مختار أسواق منطقة المركز الشرقي"، ويتفهم شكواها:

ـ ليقولوا ما يقولوا، وهل عند الناس شغل وعمل غير الحكي وثم الحكي، احنا مثلهم ايضا نحكي، فهل تريدني اسجن نفسي في البيت وانت دائما مسافر وخارج البيت، واطفالك مشغولون بمدارسهم عني. كل شئ حاضر وجاهز لهم، ملابسهم نظيفة ومكوية، والثلاجة دائما مليئة بالاكل، فماذا يريدون مني.

لم يفكر فرمان يوم، بماذا يحتاج الابناء من ابائهم. يجري ليل نهار. اهان نفسه واذلها. صار مذموما بين بعض الناس. سلك اساليب عمل رفضها الاخرون. يقول لنفسه، "سأكوّن نفسي وبعد تحقيق ما اريد التفت لاصلاح علاقتي مع البعض وارمم كل شئ". هاهو دلشاد يكسر له ظهره. مرة واحدة الى السجن. وكيف، بفضيحة نقلت اخبارها حتى الصحف السويدية. اتصلوا به من السويد ليخبروه بذلك. اتصل به محمود الاقرع وبدلا من ان يشكره لمساعدته في الوصول الى السويد، اتصل به ليلقي عليه محاضرة:

ـ احقا هذه صورة ابنك؟ حين قالوا لي ان هذه صورة دلشاد ابن ماموستا فرمان، لم اصدق، ورب العباد، ورسوله الكريم لم اصدق. ايعقل هذا يا ماموستا؟ انت الذي كنت تهدينا الى الطريق الصحيح، اين صومك وصلاتك؟ رب العالمين سيحاسبك قبل محاسبة ابنك.

ابن الكلب، الاقرع اللعين، لولاه لظل متسولا، سائبا مثل الكلب في شوارع اليونان، وربما يرجع الى تركيا حتى يتذوق سياط الجندرمة الاتراك الحاقدة، خصوصا اذا عرفوا بانه كرديا

وعبر بلادهم سرا الى اليونان وبشكل غير شرعي، وضحك منهم واستغفلهم. هل يمكن للشرطة التركية ان تسمح لكردي بالسخرية منها؟ ابن الكلب نسي انه بوصوله السويد تخلص من كل هذا، وصار الان انسانا يحكي بصوت عال. حين كان لا يزال في اليونان وفي كل اتصال هاتفي معه، يشعر فرمان وكأن محمود يريد الدخول في اسلاك الهاتف ليقبل له يديه. جعل منه نبيا، وكانت كلمات الشكر لا تترك لسانه. بذل فرمان المستحيل لايصال محمود الى السويد. ضغط على ئاوات كثيرا، واحرج البنت المسكينة من اجل استيفاء المبلغ المطلوب منها حتى يصل محمود الاقرع. لو يدري ابن الكلب، كم تطلب منه ذلك من جهد؟ كم من مرة سافر لاجله؟ يتصور لا توجد تكاليف لرحلته الى السويد. بحث له في السويد كلها طويلا، حتى استطاع الحصول له على جواز السفر المطلوب. قدم الصفات المطلوبة للجواز المناسب ووزعها لاكثر من شخص من باعة الجوازات المزورة والمسروقة، وانتظر ثلاث شهور حتى نجح اصحابه في العثور على المطلوب. سافر عدة مرات الى السويد خصيصا لاجل ذلك. عرضت عليه عشرات الجوازات المزورة او الاصلية المسروقة، او الاصلية التي يحتاج اصحابها اموالا فيعمدون الى بيعها. لكنه اخيرا عثرعلى جواز السفر المطلوب. كان جواز سفر سويدي لعراقي من البصرة حاصل على الجنسية السويدية، باعه المسكين لحاجته ارسال ثمن علاج امه الراقدة في المستشفى. صار جواز السفر من حصة محمود الاقرع. حصل عليه فرمان عن طريق ملا حسين، الذي اخذ عمولته كاملة قبل تسليم الجواز. الحق يقال ان جواز السفر كان نظيفا، وسالما بدون عيوب. لم يكلفه الامر اكثر من تبديل الصورة، وتزوير الفيزا. وكل شئ ترتب بطرق لا يكشفها اي جهاز متطور. الا يقولون ان العلم في خدمة الانسان؟ حين وصل محمود الاقرع الى السويد، زاره فرمان الى مجمع اللاجئين خارج ستوكهولم، وحسب الاتفاق، قبض منه المتأخر في الدفع، ومن باب المجاملة، دعاه الى زيارة فنلندا، وفرح محمود لذلك بشكل اثار انتباه فرمان، وسأل كثيرا عن امكانية سفره الى فنلندا وهو لا يزال مقيما في المجمع، اي قبل البت في امر قبول لجوئه. سأل عن المراقبة في الموانئ والتفتيش ونوع الوثائق المطلوبة للسفرالى فنلندا. قال انه يريد لقاء ابنة عمه ليشكرها على مساعدتها له ويطمأن عليها. وراح محمود يسأل بشكل غير مباشرعن ئاوات، عن عملها وحياتها. لم يشأ فرمان الدخول في اشكالات عائلية، فلم يتحدث بأي شئ مما كان يسمعه عن ئاوات. فكر بأن الكثيرين سيقومون بذلك نيابة عنه، فلا يريد توريط نفسه بمشاكل لا تعرف نتائجها، ثم ان ئاوات لم تكن يوما سيئة معه. كانت تخدمه في زياراته لزوجها السابق عثمان، وان كانت تبدو لا تطيقه، وتشعر بالحرج من وجوده. اليوم، في اول المساء، في

محطة القطار الرئيسة، وهو يتفحص لوحة حركة القطارات، في طريقه الى منطقة باسيلا، للقاء احد القادمين من كردستان، راى ناوات تقطع الصالة مسرعة. تسير وكأنها أميرة. حيته دون الرغبة بالتوقف اليه، لكنه، اقترب منها صافحها. امراة ذكية. عامدة قالت:

ـ انا مستعجلة ذاهبة الى بيت شاخوان، تأخرت عليهم، الجميع ينتظرني الان، لدينا جلسة لوداع الاخ كريم مطرود قبل سفره!

كان عثمان غبيا، حين ترك هذا الجمال للفنلنديين يستمتعون به. يقولون ان لناوات علاقة مع شاب فنلندي طالما شاهدوها معه. شاهده البعض خارج من شقتها. جارها العامل التركي فضحها امام زميل كردي له في العمل، فحين تخاصما شتمه:

ـ لا تكون رجلا معي، انتم فقدتم رجولتكم في اوربا، بناتكم تركن اللعب معكم وصرن يلعبن مع الفنلنديين.

واذ حاول الشاب الكردي تفادي الشجار، واصل الشاب الكردي:

ـ جارتي كردية، وارى واشاهد رجال فنلنديين من كل نوع، كل يوم في بيتها وسهر ورقص حتى الصباح. اغلق فمك احسن لك.

سكت العامل الكردي مهانا. بعد العمل، تبع زميله العامل التركي وعرف عنوان سكنه، وبعد يومين عرف ان الجارة المقصودة هي ناوات، وعرف كل الأكراد في فنلندا بالقصة. حين سمع شاخوان الخبر، اقتحم المطار يبحث عن العامل الكردي، وكاد ان يخنقه وهو يضغطه الى الحائط و يهدده بغلق فمه والتأكد قبل ترديد اشاعات واكاذيب. العامل التركي من جانبه انكر كل شئ، وراحت زوجته تحكي احلى كلام لشاخوان عن ناوات. ولكن ما ادراها، وهي امراة مثلها؟ جنس حواء واحد. كل واحدة منهن تدافع عن الثانية. تحميها، وكأن هذا يجري في دمائهن. في البيت يرى فرمان بناته متضامنات اكثر من ابناءه الذكور. الله يحرسهم ويحميهم له جميعا. آآآآآآه من دلشاد. كل الوجع والوخز في قلبه والامه من دلشاد. اخفى الامه عن ترزه وعن الجميع. لا يريد لاحد كشف شعوره بالضعف. يريد البقاء قويا عند الجميع. آآآآه دلشاد. لو ان دلشاد لم يجازف ويخاطر كثيرا. اغراه الاخرين، خدعوه، صوروا له الامور سهلة، واستهواه اللعب بالنار. الايام الاخيرة، قلت زيارات فرمان ولقاءاته مع الاخرين. قرر زيارة اخته نافتاو، حتى لو عارضت ترزه ذلك. عليه اعادة بناء علاقته مع اخته. لم يعد له غير بناته وزوجته. بناته الحبيبات يدورن حوله مثل العصافير. صار يشعر بتقصيره معهن. الصغيرة لا تتركه ينام لوحده. مع اول المساء تتكوم في حضنه وتلف ذراعها حول رقبته، معيقة اياه عن متابعة نشرة الاخبار.

وحين يبدأ المسلسل المصري، يترك التلفزيون لترزه وحدها وينصرف الى غرفة بناته ليفرجنه على كتبهن والعابهن. من سنوات طويلة لم يدخل غرفة بناته ولم يجلس معهن. ابنته الكبيرة حين دخل غرفتها، انتبه الى انها صارت امراة. صار لها اسرارها النسائية. صارت تخجل منه. حين توجه الى غرفتها، احمّر وجهها وركضت قبله، وراحت تصرخ به طالبة الانتظار، وهي ترفع سروال من هنا وحمالة صدر من هناك، ثم تخفي ذلك في ادراج دولابها. رغم انشغاله عن ابنته الا انه لا يشعر بأن له صعوبة ما في التعامل معها. ليس مثل الصعوبات التي يعانيها في التعامل مع اخيها دلشاد ومحاولة فهم ما يريد. يشعر احيانا وكأن دلشاد يكرهه، او لا يطيقه، تماما عكس اخته، التي تجلس الى جانبه ساكنة، محدقة اليه، ساهمة وهو يتحدث عن اي شئ. يشعر بالحيرة من بعض الاباء حين يتحدثون عن بناتهم بشكل غريب:

ـ ما اصعب تربية البنات الشرقيات في اوربا؟

ويتحرك في قلب فرمان الغيظ من كلام كهذا. اذ لا توجد لديه مشاكل مع ابنته، على عكس ابنه دلشاد الذي كان لا يجعله يرتاح ويهنأ يوما. لم يكن موضوع سهولة تربية البنات يعود الى طباع ابنائه فقط. بل الى دور امهم. كل بنت سر امها. هكذا علموه منذ كان صغيرا. هكذا سمع جده وابيه يكرران ذلك. كانت امه امراة بسيطة، لم تجرأ يوما لتقول كلمة "لا" لابيه. لكن اخته ئافتاو لا شبه لها مع امه، يقال ان عباس جامعة مثل الخاتم في اصبع ئافتاو. ئافتاو. آآآ ه ه ه. يشعر بالكثيرين من حوله غير معجبين بشخصية ترزه. يقولون عنها انانية، ولا تكترث لمصائب الاخرين، واخته ئافتاو وبدون خجل منه تقول عنها انها عدوانية وحقودة، لكنه يرى في ترزه اما صالحة. كان يلمس ويرى كيف انها تتابع بناتها على كل صغيرة وكبيرة. لم تكن تسمح لابنتها بالتأخر ولو دقائق خارج المنزل. اشترت لها هاتف نقال، وامرتها ان لا تغلقه في اي ظرف كان. وهكذا صارت تتابع ابنتها لاي مكان. تتصل بها وتسألها عشرات الاسئلة عن كل شئ؛ حتى عن الصوت الغريب الى جانبها. تماما عكس ما كانت تفعله مع دلشاد. تركت له الحبل سائبا. يقضي فرمان العديد من الايام خارج البيت، بعيدا عن عائلته، ويعود احيانا من السفر ليجد ان دلشاد ومنذ عدة ايام غير موجود في البيت، ويسأل:

ـ اين ابنك يا ترزه؟

وتضحك وتخفض صوتها:

ـ لا تخاف عليه، هو ولد. يا رجل صار... احم... احم، سلاح ابنك بطول ذراع.

كانت ترزه تعرف كيف تمسك العصا من وسطها مع بناتها. ولكنها مع دلشاد اضاعت بوصلتها في السير معه.صارت تتحرك بدون اي اتجاه. تتخبط معه، مطمئنة الى كونه ولد. ولم تنجح معه حتى في تحسين مستواه الدراسي. كان هو مشغولا عنهم، لم يهتم لكل الاشارات والملاحظات التي تصله من الاخرين. في محاضرة كريم مطرود في المركز الثقافي العالمي، حضر هناك ليس من اجل المحاضرة، وانما لانه اراد رؤية ومراقبة ما يجري. لا يريد ان يسمع الاخبار من الاخرين. اراد معرفة من الذي يحضر وربما تكون هناك اخبار ما جديدة تهمه. اما ما حكاه كريم مطرود فقد اعتبره مجرد لغو مثقف يضيع وقته بين الكتب، لان كريم مطرود لا ابناء له في فنلندا، فيتحدث احاديث كتب وورق، ولا توجد لديه اي تجربة عملية. ابنة كريم مطرود من زوجته التي طلقته تعيش مع امها في العراق، فيقدم حضرته ملاحظات تربوية على مزاجه للاباء والامهات. ولكن فرمان، واذ يعود لما حكاه كريم مطرود من سنين يجده محقا ومصيبا:

ـ هناك الان جيل جديد من ابنائنا، ممن نشأوا وولدوا في هذه البلاد، تحت سماء القطب الشمالي، واصبحوا يواجهون بشكل يومي وحاد مشكلة الهوية والانتماء، وعلى عوائلهم تقع مسؤولية مساعدتهم والمساهمة في الاخذ بايديهم. على بعض العوائل الخروج من تحجرها وتمسكها الاعمى بالهوس الشرقي الفارغ، وتتوقف من الركض وبدون استراحة خلف المال والشهادات والمناصب، دون الالتفات الى تزويد ابنائهم بثقافة التعايش والتسامح لفهم الاخر والتزود بالفنون والآداب والمفاهيم الاوربية الحضارية. هذا بلد منحنا الامان والسلام، فهو وطن ثان لنا، وعلينا المساهمة وبمسؤولية في بناء فنلندا متعددة الثقافات. نقدم للفنلنديين افضل ما عندنا ونأخذ لانفسنا افضل ما عندهم. ان اجيالنا القادمة ستشعر بالامتنان لنا. يجب علينا محاربة التقوقع والانكماش والركض خلف مفاهيم بالية بحجة الحفاظ على العادات والتقاليد، لان ذلك يؤدي الى انفصال ابنائنا عن زملائهم الفنلنديين، وانعزالهم عنهم وعجزهم عن الاندماج بهم على المستوى الشخصي والثقافي، وهذا سيؤدي الى نتائج كارثية، لان انعزال ابنائنا سيسبب رفضنا من الاخر، ويأخذ هذا الرفض اكثر من شكل وصورة، وسيقود رغما عنا الى نوع من الصدامات، وسيضعها ابنائنا في اطار الروح العنصرية وايضا الصليبية ضد المسلمين، وستكون النتائج وخيمة جدا على الجميع.

كان فرمان يستهين بأي ملاحظة او نصيحة. كان دماغه يابسا حقا. قالت له اخته ئافتاو يوما:

ـ اهتم لابنائك، انتبه يا فرمان، خصوصا لابنك دلشاد، صارت الناس تشكو منه، في الحفلات بنات الناس يخافن المرور بجانبه، لانه غير مؤدب ولسانه زفر.

وشعر يومها بالاهانة لكلام اخته. شعربأنها تغار منه، لان الرب رزقه بثلاث بنات وولدين، بينما هي وعباس لهم فقط بنت وولد. كان فرمان يشعر بان الغيرة تحرك اخته ثافتاو في الحديث معه، ونقل حديثها يومها الى ترزه ، التي ثارت واربدت، وارادت رفع الهاتف لتشتم ثافتاو:

ـ ما لاختك وابنائي. لتهتم بابنائها، وزوجها ابو فم الاعوج. عباس جامعة. ما أكبر اسمه.

ولوت ترزه فمها وقطّعت اسم عباس ونطقته بشكل كاريكاتيري، وكاد فرمان ان يغص بالضحك يومها، لان ترزه شتمت من سمى عباس بهذا الاسم الكبير.

٢

كانت دلسوز تبدو سعيدة جدا، لان تحقق لكريم مطرود أمرُ تمناه يوما. العام الماضي، ولغيابه عن هلسنكي، لم يشهد الامسية التي نظمها الشيوعيون العراقيون لاحياء ذكرى مجزرة حلبجه في يوم وقوعها. يومها تقاطر العراقيون،عربا واكرادا، الى مركز الثقافات العالمي في كايسا، للاستماع الى شهادة شادمان علي. كان كريم مطرود يومها في السويد. بعد عودته، ابدى اسفه، وعبر عن رغبته لسماع تلك التفاصيل:

ـ فرصة وراحت مني، آه لو بادرتم لتسجيلها بالفيديو. يا فوزي، لم فاتكم الامر؟ من الممكن للانسان قراءة الكثير عن احداث حلبجه في الصحف والكتب، ولكن سماع ومباشرة تفاصيل ذلك من انسان شم الخردل بنفسه، ولا يزال متضررا بسببه، امر اخر تماما. في نبرات الصوت يمكن تحسس معنى فقدان الانسان لبصره لفترة، وفي حركات الاصابع يمكن رصد فعل الموت الذي نقرا عنه في الكتب.

طلبت دلسوز من شاخوان دعوة كريم مطرود:

ـ في ١٦ اذار، ذكرى مجزرة يوم حلبجه، ستقدم شادمان شهادتها من جديد في هلسنكي، لكن كريم هذه المرة ايضا سيكون على سفر، كما تعرف سيسافر الى الاردن صباح يوم ١٢ اذار، ما رأيك ان نحقق له امنيته وندعو شادمان لتقص له هنا خصيصا ومباشرة شهادتها؟

لاحظت دلسوز كيف بدأ كريم مطرود، ومن لحظة وصوله، مرتبكا، مضطربا، على غير عادته، وهو الرجل الرصين المتماسك دوما. هل ذلك بسبب وجود ثاوات؟ لم تعتقد ان ذلك هو السبب؟ التقاها كريم عدة مرات بعد ان اقترح عليه شاخوان فكرة اقترانه بثاوات. بدا لها متفهما للامر ومتجاوزا لاي حرج بسببه. في داخلها تحمل دلسوز بود اخوي وامتنان دائم نحو كريم مطرود. من الأيام الأولى لتردد اسمه أمامها صار يتعزز تأثيره الايجابي على شاخوان. في

تلك السنوات السوداء، طالما قيّم شاخوان الناس بشكل خاطئ وظلمهم، ويا ما أطلق عليهم احكاما سريعة، بالسلب او الايجاب. لكنه بعد ان تعرف الى كريم مطرود كان حذرا في الحكم عليه. تحدث امامها عن كريم مطرود باحترام ملحوظ وبشئ من الاعجاب. وما ان زار كريم مطرود منزلهم لاول مرة حتى عبر شاخوان عن سروره كون الاطفال ألفوه واحبوه بسرعة. وسريعا دارت الايام، وتطورت علاقة الصداقة بين كريم وشاخوان. تفرح دلسوز حين ترى زوجها يهتم بعلاقاته بالناس الطيبين والجيدين امثال كريم. تشعر بالامان اكثر. وتشعر بالاسى لان شاخوان صرف زمنا طويلا في صحبة من سرقه منها وابعده عن اطفالها.

كانت شادمان تجلس الى جانب ثاوات في طرف الصالون البعيد، يتحدثن بهمس. بدت شادمان قلقة على زوجها الذي تأخر قليلا، اذ وعد بالالتحاق بها حالما ينتهي من التزاماته. يظن فوزي انه ربما اخطأ العنوان. قال شاخوان:

ـ ولا يهمك يا اخت شادمان الهاتف المحمول موجود!

بدأت الاحاديث بين الحاضرين تدور بشكل تقليدي. كانت دلسوز تراقب قلق ثاوات، التي وصلت متأخرة على غير عادتها، متشائمة من مقابلة فرمان صدفة في طريقها. ارتباكها ينعكس في تجنبها الحديث مع كريم بشكل مباشر، مذ عرفت باقتراح شاخوان. يومها انفجرت ثاوات غاضبة:

ـ لا املك شيئا ضد كريم كانسان، ولكن اتظنيني يا دلسوز بضاعة كاسدة؟ ارجوك لا تجعلوني اشعر وكأني لا ازال اعيش في ازقة سرجنار. ثم كيف تسمحون لانفسكم بالتفكير بتزويجي من رجل لا زال مرتبطا بعلاقة مع امراة فنلندية محترمة؟

على شاشة التلفزيون، كانت الاخبار مستمرة عن التحشيدات العسكرية الامريكية على حدود العراق. والفضائيات مشغولة مع مؤتمر القمة العربي في مدينة شرم الشيخ المصرية، ومبادرة الشيخ زايد حاكم دولة الإمارات العربية المتحدة بالطلب من صدام حسين بالاستقالة ومغادرة العراق. سال شاخوان:

ـ هل تظنون ان صدام حسين سيوافق على عرض كوريا الشمالية بمنحه حق اللجوء اليها؟

كان كريم مطرود يستمع بهدوء، ناقلا عينيه بين الحاضرين، ويهز ساقه بشكل متواتر. مع نفسها تساءلت دلسوز:

ـ لم يبدو هذا الرجل حزينا دائما؟ الا يجدر به ان يكون سعيدا وهو على وشك لقاء ابنته؟

انتقل الحديث ليدور عن الطقس واحوال الفنلنديين. كانت دلسوز تلاحظ النظرات الخاصة التي يتبادلها زوجها مع كريم حين يأتي الحديث عن طباع الفنلنديين، كأنهما يتذكران بصمت اشياء لا يعرفها الاخرين سواهما. تعرف دلسوز قسما منها، فشاخوان وامام شعوره بالذنب لم يترك شيئا لم يحدثها عنه. وتعلم دلسوز جيدا بان كريم يعرف الكثير من اسرار زوجها، وفي كل نظرة يتبادلها شاخوان وكريم كانت تشعر بان ثمة حكاية لا يسمح لهما الظرف والمكان للحديث عنها، وفي الحكاية اكيد هناك ظل امراة ما، و لابد ان يكون شاخوان في موقع الاتهام، فنظراته امام كريم دائما لا تكون بالثقة التي ينظر فيها للاخرين. تدرك جيدا الدور الايجابي الذي لعبه كريم في لفت انتباه شاخوان الى اخطاء افعاله واصلاح سلوكه. كان كريم حازما مع شاخوان وقاسيا احيانا.

وتصاعدت الاصوات مع وصول زوج شادمان، معتذرا عن تأخره، وما ان قال زوج شادمان شيئا لفوزي، لم تسمعه دلسوز حتى بدأ الحديث ينتقل الى اخبار الحرب، اذ بادر فوزي للقول:

ـ ليست بدون معنى تأتي تصريحات وزير الدفاع الاسرائيلي في صحافة اليوم، وتوقعه قيام هجوم امريكي كاسح على العراق بعد منتصف الشهر الحالي!

كان الجميع ينتظرون بدأ شادمان لحديثها، خصوصا كريم. وبدا لكريم كيف ان شادمان تعيش توترا حادا، ظهر في ارتجاف اصابعها، واطراف شفتيها، وحركة رموشها. اراد كريم طلب الاستغناء عن الحديث كله، لكن نظرة من زوج شادمان جعلته يفهم ان الامر طبيعي ويمكن تجاوزه. كانت ملامح وجه شادمان تبدو مختلفة تماما عن الايام العادية. اختفت البسمة التي كانت لا تفارق شفتي هذه المرأة وتجعلها تكشف عن صف ابيض من الاسنان، منذ ان تعرف عليها كريم بمعية زوجها في حفل عيد النوروز. كانت جذلة ومسرورة، تحث زوجها على المشاركة في الدبكة الكردية، وكان هو يطلق الضحكات معتذرا، فقادته قسرا الى حلبة الرقص، لكنه سريعا ما ان ترك الحلبة. كانوا يبدون له على الدوام ثنائيا متفاهما وسعيدا. يتذكر كريم ابتسامة شادمان الترحيبية به ونوري يوم ان صادفاها مع دلسوز وثاوات ونساء اخريات لا يعرفهن في مهرجان الثوم في كيرافا. كان الفرح من حولهن يتناثر كما العطر. اليوم بدت له شادمان حزينة، وجهها معتما، وهو يفهم تماما ذلك. يفهم جيدا بأي كابوس سيزج هذه المرأة اذ تحكي لهم عن احداث يوم ١٦ آذار ١٩٨٨. يوم وبتحد سافر لكل الأعراف والمواثيق والأخلاق الإنسانية، أرسل ديكتاتور بغداد طيور شره الحديدية لتخترق سماء مدينة وادعة، ولتنثر غيوم الموت، ولتمطر السماء سموم الخردل والسيانيد وليكون حصيلة ذلك موت حوالي خمسة آلاف

مواطن كردي وإصابة سبعة آلاف اخرين، والغالبية كانت من الأطفال والنساء والشيوخ، لا لجريمة اقترفوها سوى انهم بشر. حينها صمتت القوى الكبرى عن الجريمة التي تضاهي في بشاعتها ما حدث في هيروشيما. فيما بعد وحين تطلبت اللعبة السياسية كشف جرائم النظام، كتبت وباستحياء الصحف الأمريكية عن الجريمة، وتكلمت بعض الوكالات. شادمان كانت هناك يوم المجزرة، واستشهد أبوها ذلك اليوم الحزين بالقنابل الكيماوية، وهاهي هنا امامهم، في هذا التجمع الذي سعى له شاخوان بأقتراح من دلسوز، لتروي لهم الحكاية التي قرأ عنها مرار في الصحف، وشاهد صورها البشعة. الامر بالنسبة له يختلف تماما، تقرأ الحدث في الكتب، يكون ملكا للتاريخ، لكن حين تسمعه من شهوده، من شهود عيان، يكون مختلفا تماما، حتى وان رووه بكلمات بسيطة ومباشرة. ان نبرات صوتهم، ايماءات ايديهم، لمعات عيونهم، تضفي على الحدث صورة اخرى. ثمة فرق هائل بين رؤية اطفال حلبجه القتلى في الصور التي التقطها مراسلوا الصحف وهم يؤدون واجبهم الصحفي بحيادية وحرفية، وبين ان تسمع عن هؤلاء الاطفال من الذي عرفهم قبل موتهم، وشاهد جثثهم قبل التقاط الصور. تكاد تلمس ارتجاف صوت المتحدث الشاهد وهو يتكلم عن ذلك. من اول الكلمات بدأت شفتا شادمان ترتجفان. كان كريم يتوقع ان تسفح هذه المرأة اثناء حديثها دموعا، وان تواصل يديها الارتجاف، لكن شيئا من ذلك لم يحصل، تماسكت بشكل يثير الاعجاب، ولم يكن هناك سوى تهدج في الصوت عند اماكن محددة من الحديث. كان كريم مطمئنا الى ان شهادة شادمان امامه، وامام الاخرين، والتي قدمتها مرات عديدة في محافل عامة، ستكون وثيقة توشم بالعار تأريخ نظام شوفيني دموي. للاسف لم يتسن له حضور تلك المرات التي عرضت فيه شادمان شهادتها في مكانات عامة، ليرى تجاوب الاخرين معها، وتاثير ذلك عليهم. ظهرت لتحكي عن ذلك في الصحف الفنلندية مرارا. سمع عن شجاعتها، عن دقتها في روي الاحداث، وعن كونها حين تتحدث لا تحب ان يقاطعها احد. قال فوزي وهو يطلق زفيرا قويا:

ـ وكيف يجرؤ احد مقاطعتها وهو يرى احتراقها حين تروي شهادتها؟

في انتظار بدء شادمان الحديث، رأى كريم مطرود والاخرون، كيف تسللت بحذر يد زوج شادمان، وامسكت بيد زوجته القريبة وليشد عليها بقوة، كانت شادمان تنظر الى لا احد وهي تبدا حديثها بهمس اولا، ثم تصاعد صوتها عميقا، شجيا. كانت تتحدث بثقة كأنها تحدث التاريخ:

ـ ربما يهمكم معرفة بعض المعلومات لتساعد على تصور الاحداث وشخوصها، خصوصا الاخ كريم الذي اتشرف بأن اروي له القصة اكراما لرغبته وطلب الاخت دلسوز، وليعذرني

الاخرون ان كانوا سمعوا القصة سابقا، او سيحزنهم ما ارويه. انا كما يعرف كثيرون منكم من مواليد ١٩٧٠، وعشت تقريبا كل حياتي في العراق في مدينة السليمانية. في عام ١٩٨٨ كنت وأخي ئالان مواليد ١٩٧٤، وأختاي شارو مواليد ١٩٧٧، وشيلان مواليد ١٩٧٨، نقيم مع أبي وهو من مواليد١٩٣٧، وكان يعمل بنّاءا ومعروفا بين الناس بأسم أسطه علي، وكان كادرا في التنظيم السري للحزب الشيوعي العراقي، وكنا نسكن في مدينة حلبجه، بعد ان هرب اليها والدي من كثرة المضايقات التي تعرض لها في مدينة السليمانية. وبحكم كون مدينة حلبجة هي اصول والدي العشائرية، وهناك تواجد قوى لنشاط المعارضة وخاصة فصائل "البيشمركة"، فهذه كانت تمنحه دعما روحيا وسياسيا كبيرا. كان البيت الذي عشنا فيه في محلة تحمل اسم (كاني عاشقان)، و تقع في طرف المدينة وهي قريبة إلى منطقة كولان المليئة بالبساتين. تلك الايام كانت الأجواء السياسية مضطربة، فهناك احتمالات هجوم إيران على مدينة حلبجه ، لاختراق الاراضي العراقية، وكان هناك خوف بين الناس من رد النظام الديكتاتوري،الناس تدرك من تجربتها، بأن النظام سوف لن يكترث لهم في رده العسكري، وهكذا وانتشرت إشاعات تفيد بان الحكومة في حال لو دخلت قوات الباسدار الإيرانية مدينة حلبجه فأنها ستستخدم الأسلحة الكيمياوية، مثلما فعلت في مرات سابقة في مناطق من كردستان مثل منطقة كرميان. وهكذا في ظهر يوم ١٤ آذار ١٩٨٨ كنت عائدة توا من مدرستي، وكنا في موسم امتحانات، وحين اقتربت من البيت، حتى وجدت ان مجموعة من مرتزقة النظام يحاولون اقتحام دارنا. سألوا عن أبي، وذلك على اثر وشاية من خائن، للاسف لا زال طليقا، والذي رافق المرتزقة إلى باب بيتنا، تملكني الغضب يومها، وتمكنت من الاقتراب من الخائن وشتمته وبصقت عليه!

دارت دلسوز ووزعت كؤوس الماء، فأخذت شادمان كأس ماء وشربته دفعة واحدة، وواصلت كلامها بنبرة غاضبة:

- لم يكن ابي في الدار، كان مختبئا بعيدا عن انظارهم. فأعطانا المرتزقة مهلة أسبوع لمغادرة مدينة حلبجه. مساءا أرسلني أبي لإيصال رسالة حزبية إلى بيت أحد رفاقه ليطلعه على تطورات الموقف. ابلغني الشخص الذي سلمته الرسالة، ان انقل إلى أبى اقتراحهم بضرورة ان نترك البيت حالا، والانتقال تلك الليلة والاختفاء في بيت رفيق لابي اسمه (باقي) تحسبا لاي تجاوزات محتملة من قبل أجهزة النظام. عدت بسرعة ووصلت دارنا مع أول الظلام وانتقلنا فورا إلى بيت باقي لنسكن مع زوجته وطفله. وطيلة ليلة ١٤-١٥ آذار، واذ كنا في توتر من محاولة جهاز الامن البحث عن والدي والقاء القبض عليه، كان قصف الراجمات من قبل النظام

الديكتاتوري مستمرا لاطراف المدينة. ولم ننم طيلة الليل، لان إيران بدأت هجومها لاحتلال مدينة حلبجه. سقطت قنابل قريبة جدا من مكاننا، ولان بيت السيد باقي ليس لديهم ملجأ، فجرا انتقلنا جميعا إلى مكان أخر اقترحه السيد باقي. بقينا حتى منتصف النهار وقرر أبي العودة إلى بيتنا. لم نكن مرتاحين من قرار والدي بالعودة، كنا نخاف من عودة المرتزقة، الا ان ابي كان له تقدير اخروأطعناه، وعدنا رغم القصف المستمر للمدينة. أخذنا من بيتنا بعض المواد الغذائية، وذهبنا إلى ملجأ قريب يعود لجيراننا وهو ملجأ واسع نسبيا. وجاءت إلى الملجأ عوائل كثيرة، حوالي خمسين شخصا!

بهدوء وزعت دلسوز اقداح الشاي الساخن. لم تحاول ان تسأل شيئا. كان الجميع يشكرها بهزة من رؤوسهم، وهم يحدقون الى شفاه شادمان التي ترتجف اثناء حديثها:

ـ وأمضينا نهار يوم ١٥ آذار في الملجأ. وجاء لمقابلة أبي عناصر من رجال مرتزقة الحكومة لهم علاقات سرية مع الحزب الشيوعي واقترحوا على ابي ترك المدينة، فالسلطات تبحث عنه، والافضل له الذهاب الى مكان اخر، واقترحوا الذهاب إلى مدينة السليمانية وكانت هناك سيارة (زيل) حاضرة جهزوها لنقلنا بحمايتهم. ذلك اليوم كان الكثير من العوائل قد رحلت أو أرسلت أطفالها ولم يبق معنا من جيراننا سوى السيدة افتاو زوجة احمد كوكوي التي كان لها مواقف وطنية قبل ان يغيب النظام الديكتاتوري مصيرها فيما بعد، وايضا كان معنا جارنا الطيب مام نوري وزوجته. حاول أبي إرسالنا وحدنا إلى بيت عمي في مدينة السليمانية فرفضنا وقررنا البقاء معه. عصرا هدأ القصف قليلا، كان الحديث يدور بان الأمور ليست سهلة، وكان الناس يتوقعون ان الحكومة ستلجأ إلى الكيمياوي. وحين غادرنا الملجأ وجدنا الإيرانيين قد اصبحوا داخل حلبجة. وتوقف طيران السلطة عن المجيء، وتوقفت الراجمات عن القصف. وأثار ذلك أبي وقال: "ان هذا الهدوء يسبق شيئا ما، ويجب مغادرة المدينة بسرعة، ولكن عليّ هذه الليلة زيارة بعض رفاقي واطمأن إلى حالهم، وغدا نغادر". ورافقته في زيارته لبعض رفاقه المختفين في بيوت المدينة، وزرنا بيت صديقة لي وودعتها.

حرك كريم مطرود ساقيه، فضربت طرف الكرسي المجاور، واصدرت صوتا، فألتفت اليه الجميع، فاعتذر بابتسامة خجولة. وعاد الهدوء ليخيم على الجميع. لا تسمع سوى التنفس العميق وصوت شادمان المتهدج:

ـ صباح يوم ١٦ آذار وبشكل مبكر نهضنا من النوم أخذنا بعض الأكل وملابس بسيطة. جمع أبي كل بطاقات هوياتنا الشخصية ووضعها في جيبه الجانبي. كان أبي يعرف انه في

منطقة (باخ كولان) ثمة كهف صناعي بناه المقاتلون الأنصار، ويستخدمونه للاختفاء في بعض الاحيان، وحين وصلنا الكهف وجدنا ان المطر هدم جداره، والماء يملأ كل أرضيته. عند الظهر عدنا إلى بيتنا وبلغناه حوالي الساعة العاشرة والنصف، قبل تناولنا وجبة الظهر من الطعام. كنت أقوم بشؤون البيت وتقريبا في حوالي الساعة الحادية عشرة جاء الطيران الحربي وبدأ قصف مدينة حلبجة بالقنابل. ولان بيتنا يقع في محلة كاني عاشقان في طرف المدينة، وقريب إلى منطقة كولان المليئة بالبساتين فأننا كنا بعيدين عن القصف المباشر. اذكر جيدا، انه لحظة بدأ القصف كان أبي يتمشى في ساحة البيت، وبسرعة حملت أختي شيلان وركضت إلى الملجأ. الى هناك سبقني أخي ئالان وأختي بهرا، وظل أبي في ساحة البيت يراقب الموقف ثم جاء بعدنا. بقينا طيلة النهار في الملجأ حتى العصر، وفي كل مرة كان أبي يخرج ليستطلع الموقف، وكنا نحسب انه هجوم عادي مثل كل مرة. لم نكن نعرف ما يجري وكان الطيران مستمر في قصف المدينة. امتلأ الملجأ بالناس ولم يعد هناك مكان. وبدأ بعض الناس بالهرب من المدينة. طلبنا من أبي ترك المدينة فوافق ولكنه قال، اننا سنذهب مباشرة بعد انجازه مشوارا صغيرا ليطمئن إلى حال بعض رفاقه، وطلب مني ان نكون جاهزين لمغادرة المدينة حال عودته. وما ان وصل باب الملجأ حتى عاد اليّ، امسك بكتفي وقال: "اذا لم اعد اهتمي بأخوتك". حاولت ثنيه عن الذهاب، وحاول اخواتي، قال: "اذا كان الانسان يموت مرة واحدة فلابد منها" وخرج. غادر وكان حزينا ومهموما جدا.

صدرت همهمة من طرف الصالون. كانت دلسوز تغالب دموعها، وتكبت عبرة تتكسر في صدرها. طفرت دمعة من عين شادمان، فرفعت اصابعا مرتجفة لتمسحها. احس كريم بالخجل لانه خلق جوا كهذا. اراد ان يقول شيئا، لكنه اثر الصمت للاستماع الى بقية الحكاية:

ـ بعد مغادرة ابي بقليل جاء شاب إلى الملجأ وصاح: "انهم يقصفون كيمياوي"! ومثلما تعلمنا من الأنصار الذين كانوا يدخلون مدينة حلبجة باستمرار ليلا، بللنا قطع قماش بالماء ووضعناها على وجوهنا. وتولد لدي لحظتها شعور كسر قلبي، وجعلني ارتجف، بان أبي سوف لن يعود. لم اود ان اجعل اخوتي الاصغر مني يعرفون مشاعري، كنت اشغلهم باشياء مختلفة، وانتظرنا عودته طويلا. أظلمت الدنيا، ترك كل الناس الملجأ وبقينا لوحدنا. وجاءت عائلة بدون الأب، فكانوا يلطمون ويبكون، وفجأة دخل أبوهم فعمهم السرور وغادروا جميعا، فقلت لاخوتي ان أبي سيعود وكنت أحاول تهدأت اختي اللتين كانتا تبكيان بصمت. قلت لأخي ئالان ابق مع أختيك وسأذهب لأبحث عن أبي، رفض أخي د وأختاي أيضا ان اذهب وحدي واتفقنا

على الذهاب معا. حين وصلنا إلى مدخل المحلة قابلنا جارنا مام نوري وزوجته والسيدة افتاو، فأخبرناهم باننا نبحث عن أبينا، غضبوا منا وقالوا ستموتون، ومنعونا من الذهاب وأجبرونا على العودة إلى الملجأ.

رن تلفون شاخوان فأطفاه دون ان يرى من هو المتصل، وابتسم معتذرا لشادمان:

- حارتنا تقع في منطقة عالية قليلا، ولم يكن هناك قصف مباشر على حارتنا. وكان مام نوري يهدئنا. نام اخوتي وبقيت طول الليل انتظر، واتسمع لكل خطوة. كنت أخشى ان يعود أبي ويرى باب الملجأ مسدودا وربما يظن أننا تركنا الملجأ. حاولت المغادرة ليلا ولكن مام نوري منعني وقال نهارا يمكن ان تذهبي. فجر يوم ١٧ آذار استأذنت مام نوري بان اذهب فقال لي خذي أخاك معك، فايقضت أخي ئالان من النوم وذهبنا. كانت مدينة حلبجة ساكنة، كل شئ موحش. مررنا في حارتنا فلم نر أحد. خطف من بعيد، شخصان أو ثلاثة لم نلحق حتى نتكلم معهم. وفي وسط المدينة، بدأنا نشم وبشكل خفيف رائحة غريبة، لكنها غير كريهة. ذهبنا إلى حارة (كاني قولكا)، حيث كان المفترض ان يذهب أبي إلى هناك، وهي تبعد مسير عشرين دقيقة تقريبا عن موقع الملجأ، شاهدنا جثث ناس ممددة في كل مكان. الوجوه مبيضّة وكأنها مرشوشة بطحين، وبعضها مسود تماما. كان ثمة أناس يحتضرون ويطلقون أصوات ألم. كان مشهدا فظيعا. لم ابك ولم اصرخ. أصابنا ذهول عجيب، وصمت. جسمي كان يرتجف. حاولنا العثور على أبي، فكنا ندور بين الجثث ونبحث. ذهبنا إلى بيت رفيق ابي علي حاج إسماعيل وطرقنا بابه، لم يرد أحد. قريبا منه تسكن أخته أمينة، زوجة الشهيد سيد توفيق، فذهبنا إلى بيتها، هناك أمام الباب شاهدنا سيارة (بيكاب)، وفيها ناس ميتون، كانوا يحاولون الهرب. لم نذهب إلى بقية الحارات، شاهدنا فقط حارة (كاني قلكه)، واغلب الصور التي نشرت عن الشهداء في هذه الحارة شاهدناها بأعيننا أنا وأخي حتى قبل حضور الصحافة. لم نستمر في التجول طويلا، وللأسف ان أبي قد استشهد في زقاق أخر قريب، حسب رواية الشهود التي تأكدنا منها ولكننا في ذلك الوقت لم نصل الي ذلك الزقاق. وإذ بدأنا نشعر بالتعب وما زلنا نشم الرائحة ، تأكدنا انه الكيمياوي، ولم نكن نعرف ماذا نفعل، وبدأنا نشعر بصعوبة في المشي، بدأنا نشعر بالتعب وحرقة في عيوننا. في هذه الأثناء بدأ يظهر ناس اخرون في المكان.

سحبت شادمان شهيقا عميقا، وفركت اصابع يديها، وهي تحدق نحو كريم بعيون متوثبة بالالم. كانت نظراتها تقول له "هذا هو التاريخ يا أستاذ التاريخ" وكان كريم يشعر بحرقة في القلب، وهو ينصت:

- بعد عودتنا إلى الملجأ، أخبرنا مام نوري ان الأفضل لنا مغادرة الملجأ ونبتعد، اقترحت عليهم الذهاب إلى بستان كولان حيث هناك سقائف الفلاحين (خانه باخ) يمكن استخدامها. قبل بلوغ المكان صادفنا بعض العوائل هاربة. التقينا بالسيد احمد محمود المعروف باسم (احمد لادا)، وهو أخ لرفيق وصديق لوالدي، وهو يعرف أبي جيدا، ونعرف عائلته بشكل طيب، وكانت معه عائلته زوجته وبناته، ومعهم ابنة رفيق والدي صديقتي زيان وأخوها كوران. سألتهم ان كانوا قابلوا أبي، لم يكن لديهم أي معلومات عنه. اتفقنا جميعا ان نبقى معا على مقربة من المدينة ومعنا مام نوري وزوجته والسيدة افتاو. كان القصف مستمرا ولكن بشكل متقطع. وجاءت حوالي خمس عوائل أخرى إلى البستان. بقي الجميع معنا في البستان حوالي أسبوع، ثم عدنا الي بيوتنا. بدأت بعض العوائل تغادر إلى إيران، أنا واخوتي رفضنا المغادرة وقررنا انتظار أبي مهما كان. في أول يوم وصولنا إلى البستان التقينا حاج لائق وهو صديق لمام نوري الذي كان يبحث عن عائلته، بعد أيام سمعنا صياح استغاثة وطلب مساعدة، وجدنا انه حاج لائق إذ عثر على جثث عائلته ونقلهم لوحده بعربة تستخدم في أعمال البناء ويريد دفنهم في مقبرة كولان.

همس زوج شادمان باذنها شيئا، فهزت رأسها بالموافقة، ففهم الجميع انه يذكرها بشئ ما:

- من الأيام الأولى بدأت عيوني وعيون أخي ئالان تتأثر وتظهر عليهما غشاوة خفيفة. لم اكن أستطيع القراءة، ولم اعد أرى جيدا، وكنت احتاج دائما الاقتراب من الشخص لرؤية ملامحه جيدا. كان لدينا في البيت قطرات عين لمعالجة الحساسية استخدمناها. لا ندري ان نفعت بشيء، إذ تدريجيا وخلال أسبوع تحسن بصرنا. كنا نشرب مباشرة من ماء النبع الجاري، ونتجنب كل ما هو مكشوف. وبقينا ننتظر ظهور أبي بشكل مفاجئ، مثلما ظهر اخرون. بعد حوالي أسبوعين جاء السيد حاجي باقي كوكوي، وهو شيوعي سابق، ومن الذين ساهموا في جمع الجثث في المدينة. كان يمت بصلة قرابة للسيد احمد لادا، وبعد ان اجتمع إلى السيد احمد لادا ناداوني، وعرضوا علي بطاقة هوية شخصية لاتعرف عليها، فوجدت انها بطاقة هوية أبي، وقال انه وجدها في جيب أحد الشهداء، إلى جانب بطاقات هوية أخرى، وقد اخذ هذه البطاقة ودس البقية في شق في الحائط عند المكان الذي عثروا على الجثة فيه. وكانت أهم دليل على استشهاد أبي، ووصف لنا المكان، وفورا أخذني السيد احمد لادا ومعنا زيان ابنة أخيه، إلى المكان فعثرنا على باقي بطاقات الهوية، وكانت بطاقات هوياتنا التي اخذها أبي معه، وعرفت مكان استشهاد أبي وكان في زقاق في حارة كاني قلكه. بعد عثورنا على بطاقات الهوية اقترح

السيد احمد لادا ان نذهب إلى منطقة شهيدان حيث جمعوا جثث الشهداء، حيث في الوقت الحالي تقوم مقبرة جماعية. كان الغرض ان نرى المكان. كان الأمر فوق التصور، إذ وجدنا مئات الجثث قد جمعت وكومت مثلما يكومون حجر البناء أو الحصى، وإذ ذهب السيد احمد لادا ليتكلم مع أحد الرجال وما ان حاولنا أنا وزيان الاقتراب اكثر حتى بدأنا بالتقيؤ من شدة رائحة الجثث. كان هذا بعد أسبوعين وكانت الجثث تبدو مسودة ومنفوخة. بقيت هذه الصورة في بالي كابوسا دائما، واقتنعت حتى لو كانت جثة أبي موجودة فمن الصعب التعرف عليها. لم اقتنع بأستشهاد أبي تماما. كان في داخلي شئ من أمل بان أبي ربما يكون ما يزال حيا، ساعد على ذلك المواصفات التي قدمها حاج باقي لجثة أبي، وكون بعض المفقودين يظهرون بين الحين والاخر. كنت اتعلق بوهم، وكنت اقول ان أبي لو كان حيا فسيظهر بسرعة لانني كنت اعرف انه لا يمكنه العيش بدوننا.

وشربت شادمان كأس ماء اخر. كان فوزي ينظر باعجاب الى رفيقته، هذه المرأة الشجاعة، التي قاست ما قاست، وكل مرة تجلد قلبها وهي تحكي للناس قصتها ومأساة حلبجة لتعرف الناس على وحشية نظام لا يعرف الرحمة والانسانية:

- اقترب يوم ٣١ اذار، وهو يوم تاسيس الحزب الشيوعي العراقي فقررنا ان نحتفل بعيد الحزب، كنا نريد رفع معنويات الاخرين. انا وزيان رتبنا الحفلة. ورغم كل الدمار حولنا أجتمعنا في الوقت المحدد حوالي عشرة من الشباب والشابات. كل واحد قدم مساهمة، كانت حفلة رمزية حزينة جدا، دقيقة الصمت كانت طويلة جدا، لم تكن هناك أغاني، قرأ بعضنا قصائد شعر، وحتى الأغاني الثورية قرأنا نص كلماتها، وزعنا شاي وجلسنا صامتين، وبعد انتهاء الحفلة انخرط بعضنا في البكاء. وبقينا طوال ٤٠ يوما بقرب عائلة السيد احمد لادا، نهارا نكون في بيتنا وليلا ننام في بيتهم، لم نزر مركز المدينة طيلة الفترة الباقية. بقينا في بانتظار شئ ما. كانت الحياة المعيشية صعبة. كان لدينا أرانب ودجاج ومخزون من الرز والحبوب كنا نقتصد في استخدام ذلك. وللاسف سادت سرقة بيوت المدينة المنكوبة المهجورة من قبل عصابات اللصوص، التي عرف الناس اسماء زعمائهم جيدا، فبعضهم يحتل مواقع قيادية في بعض الاحزاب السياسية. في نهاية نيسان تقريبا، عاد من إيران حاج مكي المعروف بكنية "هيوا" وهو من رفاق ابي. عاد الى بيت السيد احمد لادا، وقابلته وسط عائلة احمد لادا، وكنت قلقة من الحديث معه عن أبي، فهو كان على اتصال مع أبي ولديه معلومات عن حركته. وحين أتيحت لي الفرصة للحديث معه سألته عن اغلب الرفاق الذين نعرف، ولم اسأل

عن أبي، ولكني لم احتمل، قبل ان يذهب الى النوم وجهت له سؤالي المّر، وبدأ الرفيق يتحدث عن معنى الاستشهاد والبطولة وحجم مصيبة مدينة حلبجة، فأصبت بالغيبوبة، فحديثه قطع آخر خيط من الأمل الكاذب من احتمال وجود أبي وعودته حيا. تلك الليلة بكيت بحرقة، وبصمت، لان الجميع كانوا نياما. ولم أشأ ان يعرف أخواني، لكن صديقتي زيان جمعتهم في اليوم التالي وأبلغتهم بكل شئ فأخذت عني مهمة شاقة جدا. وفي اليوم التالي قررنا ان نلجأ الى إيران، وبعد أيام بدأت مسيرة الهجرة ومعنا دينار عراقي واحد قدمته لي صديقتي زيان هدية في الحفلة الحزينة التي اقمناها.

٣

تجلس وداد وحيدة في الصالة الى شاشة التلفزيون. ابنتها خولة في غرفتها، مشغولة مع كتبها ودروسها، وابنها اياد لا يزال خارج البيت. وبقية اطفالها يلعبون في الساحة امام البيت. عاركت ابنها اياد اليوم حتى يهتم اكثر بأخوانه الصغار، ولا يتأخر كثيرا خارج البيت. وعدها بان يحضر كما طلبت منه وقبل ان تذهب الى النوم. حتى لو تأخر هذه المرة، فهل سيمكنها النوم دون حضوره؟ تحمد ربها ان اطفالها يسمعون كلامها، ومستورين يحرسهم الرحمن الرحيم. فكرت وداد بحبس ابنها اياد في البيت وتمنعه من الخروج حين سمعت باخبار ابن فرمان ورأت صورته في الجريدة، وترجمت لها خولة كل ما كتبوه تحت وحول الصورة. جلست الى ابنها طويلا وهي تقرأ له الصلوات وترشه بماء مبارك جلبته من ملا حسين، خصيصا لطرد الحسد. لا يقلقها الا ابنتها خولة. مثل القطة، ناعمة، ملساء، وقليلة الكلام. اذ تتكلم كانها تموء، لكن لو حوصرت فأنها تبرز مخالبها وتخرمش وتوجع. تجعلها تفكر الف مرة قبل ان تتركها تغادر البيت الى اي مكان. منذ كانت طفلة ووداد تسمع الناس يرددون "عليك ان تخاف من الساكت". وهم محقون فمن يتكلم يفضح نفسه، والساكت مثل البئر المردوم لا تعرف مياهه هل هي عذبه ام مالحة. كانت تخاف ان يخدعها احد هؤلاء الشباب، الذين تراهم على دراجاتهم يطوفون عند ابواب السوبرماركت بشعورهم وحلقهم وسلاسلهم، وربما يسمعها احدهم كلمة حلوة ويلعب بعقلها، وتخسر أبنتها وسمعتها بين الناس. وكانت تصيح بغريب:

- يا رجل اعطي من وقتك لابنائك. على الاقل ابنك، صار بطولك، واهلنا يقولون اذا كبر ابنك صير له مثل الاخ.

ويرمقها بنصف اغماضة عين:

ـ وانت ما هو دورك؟

لم يكلف غريب نفسه اكثر من توصية ابنه:

ـ انتبه لاختك!

ولم يكلف نفسسه ان يشرح لابنه كيف ولماذا؟ في الشهور الاولى من وصولهما الى فنلندا، امسك غريب يوما بأياد وقال له:

ـ اسمع ابني اياد لا تسمح لاختك بالحديث مع أي ولد غريب.

واستغرب اياد طلب والده، وهو يرى البنات والاولاد في المدرسة يدرسون ويلعبون ويمرحون معا. فسأل بحيرة:

ـ لماذا يا بابا؟

وصاح به غريب حانقا:

ـ لانها شرفك يا ولد.

ورد اياد بأستغراب اكثر:

ـ وماذا يعني الشرف يا بابا؟

ولم يحاول غريب تقديم جواب لابنه، ولم يكلف نفسه الحديث معه، حتى بعدما كبر وصار صبيا. صارت المشاريع التجارية الفاشلة هي الشاغل والهم الاول لغريب. لفترة طويلة ساور وداد الشك بكون غريب يلعب القمار. سمعت الكثير عن الاجانب الذين ادمنوا لعب القمار في المطاعم والمقاهي. وصارت ترسل ابنها اياد مع غريب، لتسأله عمن قابل اباه وماذا فعل؟ قال لها اياد، ان في مقهى في محطة القطار الرئيسة دائما حين يرافق اباه يرى الكثير من الاجانب يلعبون بالمكائن ويخسرون مبالغا كثيرة. وحذرت غريب بقسوة، فقال لها صادقا:

ـ اجننت يا امراة؟ انا اترك مالي وحلالي، تعبي وشقائي، يذهب في لعبة حرمها رب العالمين؟

وكلما تطلب منه الاهتمام بابنائه، يكرر ذات الجواب ملقيا عليها اعباء كل شئ. صارت وداد مشغولة جدا بهموم ابنائها. كان اياد طفلا مطيعا، هادئا، منذ صغره يهتم بأخته ويرعاها، فكانت وداد ترى في وصايا غريب لاياد للاهتمام بأخته شيئا لا معنى له. صارت بنفسها تهتم بخولة وترعاها، وصارت ترافقها حتى في مشاويرها الى المكتبة العامة. كانت وداد تجلس بعيدا عن ابنتها، تراقبها وهي تقلب الجرائد والصحف، او تجلس الى الكومبيوتر. كانت وداد ترى صاحبات ابنتها يمزحن معها، ويحاورنها، ويضحكن معها، وهن ينظرن باتجاهها. وانفجرت خولة يوما بالبكاء امامها:

- ارجوك يا امي، ان زميلاتي يسخرن مني وانت ترافقيني مثل الشرطي الى كل مكان.

وانهدت وداد بالبكاء ايضا الى جانب ابنتها وهي تراها مصيبة في لومها. حارت ماذا تفعل، وهي ترى الاب مشغولا بالركض خلف مشاريع تجارية خاسرة، وهي لا تريد ان تفقد ابناءها. هاهو ابن فرمان في السجن، وهاهي ابنة احدهم تفر من اهلها. وتلك ابنة فلانة، يقال اجهضت سرا، ولا يعرف اهلها بذلك رغم ان كل العراقيين في فنلندا يتداولون قصتها. طمأنتها ام رعد، وهي تستمع لشكواها، وهي تهون عليها:

- عيني وداد، اسم الله على بنتك وابنك، معدلين ومؤدبين، ويخافون منك ويسمعون كلامك، ويحسبون لك الف حساب، لا تخافين عليهم.

ونصحتها ناوات المترجمة، وهي تسمع همومها:

- كوني الى جانب ابنائك دائما، وافضل شئ هو ان تتحدثي بأستمرار معهم عن همومهم.

جلست مع ابنائها ومن بين دموعها كلمتهم:

- انتم عيوني، كل شئ عندي بالدنيا. صحيح انا غير متعلمة، و لا اعرف القراءة والكتابة لكن الدنيا علمتني الكثير. لم افكر يوما بالمجئ الى اوربا، ابوكم هو من اجبرني بالمجئ الى هنا، وانتم الان كبرتم، وتعرفون الصالح من الطالح. عيوني، لا اريد منكم اي شئ، سوى ان لا تنزلون راسي بين الناس. والناس تقول راحت وداد لاوربا وضاع ابناءها منها. اهتموا بدراستكم، وكل ما تريدوه انا اوفره لكم، ملابس، فلوس، فقط قولوا لي. اطلبوا مني، لا تطلبوا من ابيكم.

ولم تكن تجد حدا لمطاليب الصغار من ابنائها. الصغار من ابنائها لا يتعبون راسها بالتفكير مثل اياد وخولة اللذين صارا يفهمان الكثير. كانت تنتبه كيف ان ابنتها صارت تتاخر كثيرا في الحمام، وتعرف ان هذا سن تنتبه فيه الفتاة الى جسدها. ولم تكن تخاف الا من ان تخطأ ابنتها وتكسر لها عيونها بين الناس. تلمس وداد كيف ان ابنتها خولة شاطرة ومجتهدة في المدرسة، لولا انها تكذب عليها احيانا، والمشكلة انها لا تجيد الكذب، ودائما تكتشف اكاذيبها. جلست اليها يوما، وقالت لها بمحبة:

- يا بنتي، تعالي نتكلم مثل صاحبات، نحن نساء ونفهم بعضنا. كلشي ما اريد منك، فقط لا تخفين عني شيئا، اذا واحد قال لك "سلام عليكم" قولي لي.

كانت خولة تتحجج بمشاوير ام رعد، وتصرعلى تبيان مرورها الى هناك لدقائق، ثم تجري الى المكتبة العامة. وثارت وداد حين اكتشفت ذلك:

ـ ماذا تفعلين هناك؟

وارتجفت أبنتها خوفا، وهي ترى عيون امها تكاد تخرج من محجريهما:

ـ من اجل الكومبيوتر.

وجمعت وداد ما عندها واشترت كومبيوتر. وبدأت المشاكل في البيت. كل واحد من ابنائها يريد الكومبيوتر في غرفته، وكحل وسط وضعوه في الصالون. وكانت خولة هي الاكثر استخداما له، طالما هي في البيت تكون عند هذا الجهاز العجيب الذي صار شاغلها ليلا ونهارا. وكان اياد يراقبها ويتابعها، ويحذرها:

ـ والله اذا دخلت الى غرفة الـ...

وحارت وداد، اي غرفة؟ وكيف توجد غرف في هذا الصندوق العجيب؟ وشرحت لها خولة الامر، ولم تفهم وداد كثيرا. وراحت بين الحين والاخر تستمع لاحاديث الناس من داخل جهاز الكومبيوتر، حتى غريب، صار بين الحين والاخر يطلب من اولاده ان يفتحوا له غرف محددة حيث يسمع اخبار السياسة ودائما اخبار العراق هي الاولى. وتعلمت وداد ان تطلب من ابنائها ان يفتحوا لها الكومبيوتر ايضا وتسمع الناس يتحدثون في كل شئ؛ يتصايحون ويتعاركون ويضحكون. سبحان رب العالمين، عالم غريب عجيب، لا تفهم تماما كل ما يجري فيه، مثلما هي الان، جالسة، وحيدة تتابع التلفزيون، ولا تفهم شيئا مما يجري. جورج بوش يهدد، وصدام حسين يزامط. وجيوش ودبابات وصواريخ الدنيا كلها تجمعت حول العراق، الناس تموت من الجوع والخوف، وهذا صدام ابن القحبة ملتصق بالكرسي، يرفض تركه والاستقالة. الشيخ زايد يقول له احترم نفسك واستقيل يا رجال، وهو ابن القحبة ماسك الكرسي باسنانه، والناس صارت محرومة من النوم الهادئ. اتصلت بابنة عمها الى البصرة، لتطمأن عليهم وتسمع اخبار الاقارب، لتخبرها ابنة عمها بأن هدى في دمشق. وثارت وداد واربدت وكاد ان يغمى عليها. هدى وغريب في دمشق في وقت واحد. هل الامر مجرد صدفة؟ ولم تنم الليل كله. تسألها ابنتها خولة، خائفة، وهي ترى امها، تلوب داخل البيت من غرفة الى اخرى دون ان تستقر على امر:

ـ هل اخذك الى الطبيب؟ أتشكين شيئا؟

ولا تستطيع وداد ان تخبر ابنتها عن النار التي تستعر بين ضلوعها. اي طبيب ينفع مع غريب عتوي؟ قلبها يحدثها ويقول لها ان في القضية ثمة لعبة. هذا غريب ابو الكاولية لا يعرفه احد احسن من وداد. لم يحفظ عهدا لاحد، طول حياتها معه وهي تعاركه. يا رجل، والله عيب، انت صرت اب. يضحك:

ـ انت غشيمه، الذي يصير حمل تاكله الذئاب.

وراح ابو عدنان كل اسبوع يسهر عندهم مع غريب. عرق وباجه، واخر الليل يخرجان معا، لا تستطيع ان تسأل الى اين؟ وحين تسأل:

ـ يا بنت الناس، هذا الرجل يحمينا، دعينا نخدمه، حتى لا يرسلوني الى خطوط الجبهة.

وظلت وداد على نار تتنظر اتصال غريب بها من دمشق. لم يعطها رقم هاتف للاتصال به، اتصل بها اول يوم وصوله، قال انه يسكن في غرفة في بيت بلا هاتف، وسيتصل بهم عند الضرورة. وظلت تنتظر دون ان تعرف كيف تتصرف. بعد ايام اتصل غريب عتوي وهو يبدو بمزاج طيب. كانت قد مرضت ونحفت. قلبها يوخزها من غريب. جاءها ابوها يوما ليقول لها بحزم:

ـ جاءك نصيبك يا ابنتي.

ولم تكد تعرف باسم غريب عتوي حتى اظلمت الدنيا في وجهها. لا احد يعرفه في السماوة بغير"غريب ابو الكاولية". بعد شهرين كان زواجها. اخذتها امها مرة الى المستشفى ورأته هناك، بروب المستشفى الابيض، واعجبها شكله وهو يتحرك بين المرضى. كان يبدو لها سيد المستشفى بلسانه ومجاملاته مع الناس. لم تحدثه وتكلمه الا في ليلة الدخلة. حاولت ان تقنع نفسها: "هذه قسمة رب العالمين". قالت لها احد النساء:

ـ غريب ممرض شاطر، ولكنه لم يترك امراة من اهل السماوة لم يتحارش بها.

قالت لنفسها، هذا كلام بسبب الغيرة، ولكن بعد الزواج وكل فترة كان لغريب فضيحة تصلها اطراف من اخبارها. كل من يعاركه يصيح به ويشتمه:

ـ ابو الكاولية.

رفض عم غريب ان يزوجه ابنته هدى، رغم ان بينه وبين ام غريب عهد بذلك، قال لامه:

ـ لو باقي اسمه غريب عتوي كنت وافقت، بس اسمه صار بين الناس غريب ابو الكاولية.

ولم يتوقف غريب عن زيارة الكاولية حتى بعد زواجه. كان هناك يلتقي اصحابه وخلانه. في الانتفاضة، طلبت وداد منه ان يجلس في بيته ويتجنب المشاكل، لكنه لم يسمع كلامها. خدعه احد التجار بصلواته ومسبحته، ليسرق له مخازن الحكومة، وليعطيه حصته تراب الفلوس ويخذ الباقي له. هرب غريب والتصقت تهمة سرقة مخازن الحكومة بأسمه، والبضائع ظلت في مخازن التاجر، الذي صار من اغنياء السماوة وتحلف الناس بأسمه. قال له عمران، المسكين:

ـ يا غريب، يا ابن عمي، حاول تطهير ذنوبك.

كان غريب مثل الكلب يهز ذيله لمن يعطيه عظم دسم. في رفحا، ترك شرب العرق وراح يصلي وصارت لحيته اطول من مسبحته. استبشرت وداد خيرا وشكرت رب العالمين بهدايته، ولكن غريب رافق سيد عجمي من الايام الاولى. كانت وداد لا ترى تناسبا حتى في الشكل بين زوجها الضئيل الجسم وسيد عجمي بقامته الطويلة واكتافه العريضة، والذي راح يوسوس لزوجها ويشكله مع الناس. كانت وداد تعارك غريب كل مرة:

ـ ياغريب اترك هذا الرجل، سمعته زفت عند اهل السماوة.

ويغضب غريب، ويحوقل ويبسمل:

ـ يا بنت الناس، وما ادراك بما يقوله الناس؟ كلنا سمعتنا زفت!

وتاتيها الاخبار الى خيمتها:

ـ اختفى من اهل مدينة الخضر، شاب مثل الوردة، يقولون كان مدعو عند سيد عجمي على العشاء، ومن بعد تلك الليلة لم يره احد.

اشيع ان الشاب مل حياة المعسكر ومعاملة الشرطة السعودية، وعاد الى العراق، وبعد فترة عثر على جثته مقتولا خنقا بين الرمال، ليس بعيدا عن اراضي المخيم. صارت وداد تخاف، ان ينتقم احدهم من غريب، ويترك لها ايتاما:

ـ يا غريب ما عليك بهم، يا غريب انتبه لنفسك واطفالك.

حين وصلوا فنلندا، تمنت ان يفتح عيونه، ويهتم لاطفاله، الذين كبروا في الصحراء، ولم يشاهدوا شيئا. التقت بام رعد، وتعرفت على اولاد اخيها، الله يستر عليهم، شلون شباب، شاطرين بالمدرسة، وينحلف براسهم، مؤدبين وخلوقين، ودائما صورهم في الجرايد الفنلندية وفي التلفزيون، يدرسون ويلعبون رياضة ويعزفون موسيقى. قالت لغريب:

ـ يا رجل، يا ريت ابنائنا يصيرون مثل ابناء اخ ام رعد، ساعدني عليهم.

قال لها وهو يولول:

ـ هذه مهمتك.

وراح مع فرمان بوند يدور من مقهى الى مقهى، وكل فترة مشروع تجاري فاشل. والان يريد اقناعها بانه يبحث عن مشاريع تجارية في دمشق. كيف تصدق بهذا؟ مشاريع مع من؟ وماذا تفعل هدى حبه الاول ومعشوقته في سوريا؟ قبل خروجهم من العراق كانت هدى تتردد عليهم بأستمرار، ولا تعرف وداد ماذا توسوس في قلب غريب، وكانت تقترض منه مبالغ دون ارجاعها، قالت له:

ـ يا غريب، بنت عمك هذه امراة خفيفة، ريحتها الزفرة طالعه، وكل يوم مع زوج، صاروا ثلاثة، دير بالك منها تضحك عليك.

غضب منها. اراد ان يضربها:

ـ هذه التي لا تعجبك هي عرضي وشرفي.

يتصور غريب انها تغار من هدى، لانها حلوة. واذا كانت حلوة؟ هذا من رب العالمين. جمال الانسان بروحه. لو لم يكن هناك عرج قليل في ساقها الايمن لما وافق ابيها على زواجها من غريب. سمعته يقول لامها:

ـ لا اريد ان تعنس أبنتك وداد، ساوافق وامري الى الله.

وهاهو غريب الان مع هدى في الشام. ماذا يفعل؟ ماذا تخطط هدى؟ حين اتصل بها غريب من دمشق فاجأته وداد:

ـ كيف حال هدى؟

ارتبك غريب وتلعثم:

ـ وما ادراك؟

ضحكت وداد بروح النصر وهي تغالب قلقها وخوف غريب الواضح في كلامه يرجف قلبها اكثر:

ـ انا وداد، اعرف كل شي.

سعل غريب، وقال:

ـ هدى وضعها جيد وسألت عنك وتسلم عليك، موجودة مع اخيها هارون تزور اطباء في دمشق، قبل ثلاث ايام التقيتهم، من ارجع الى فنلندا احكي لك التفاصيل، المكالمة من هنا غالية، مع السلامة.

نسي غريب حتى السؤال عن اولاده، ولم يطلب محادثتهم كما يفعل عادة حين يغيب عنهم لايام. يريد غريب اقناعها بانه مشغول ولثلاثة ايام لم ير فيها هدى. لم تحاول وداد الاستعجال بالاحكام وان تترك نفسها تظلم الناس. فكرت وداد، ربما هدى لديها مشروع زواج جديد، وغريب يخجل الحديث في هذا الموضوع. لامت وداد نفسها، لانها تبدو قاسية مع غريب. رب العالمين لا يقبل بهذا. استغفرت ربها، وقررت الصلاة اربع ركعات كفارة لشكها بزوجها. اعترفت لنفسها بانها قاسية مع غريب. لكنه تصرفاته هي السبب. دائما يفاجئها بما لا يمكن تصديقه. لم تشعر يوما بانه مثل باقي الازواج. لا توجد عنده لهفة وشوق لفراقها. لم تحس بهذا يوما. رغم العشرة الطويلة والزاد والملح. يخرج من البيت وكانه خارج من السجن. شكت لام

رعد، فواستها وطلبت منها زيادة ركعات صلاتها وايمانها برب العالمين. فكرت وداد بالحج، ووافقها غريب. اعجبته فكرة ان يصير اسمه "حاج غريب"، وضحك:

ـ ملا حسين ليس افضل مني.

الكثير من العراقيين في فنلندا ذهبوا الى الحج. تقول خولة في المدرسة سألها بعض التلاميذ، حين كتبوا عن ذلك في الصحافة:

ـ كيف يذهب بعض المسلمين في فنلندا الى الحج وهم عاطلون عن العمل، من اين لهم تكاليف السفر الغالية؟

ولم تجد ابنتها الجواب. ولم تجد وداد الجواب. اليس الحكومة تعطيهم رواتب؟ يقول غريب:

ـ لا فضل لاوربا على العراقيين، هذه كلها فلوس نفط العراق تعود الينا. كانت اوربا خرائب، وعمروا انفسهم بفلوس النفط ايام الاستعمار.

ابنتها خولة تقول ان فنلندا لا علاقة لها بهذا الكلام، لانها لم تستعمر اي دولة، بل مئات السنين كانت مستعمرة من جيرانها. وتكاد وداد تموت غيضا. يا نفط يا صخام. رافقت ام رعد الى مجلس النساء في فاتحة ابو الحسن العدناني. دارت بهم سيارة ابن اخ ام رعد طول النهار في هلسنكي وضواحيها. تفكر وداد مع نفسها بأن هذه البلاد عامرة. رب العالمين يحبهم واعطاهم، هم ايضا اهل كتاب و يعترفون بالله. اخذتها خولة الى الكنيسة الكبيرة، بقبابها الخضراء واعمدتها البيضاء، وحيث السلم الحجري العريض العالي الذي بالكاد صعدته، انقطع ظهرها. كانت الدنيا باردة. في داخل الكنيسة التي تاخذ العقل بسحرها وجمال نقوشها احست بالامان والدفء. جلست على المقعد الخشبي الطويل. اغمضت عينيها وتلت ايات من القران الكريم. بيت الله واحد. تعجبت وداد لكون غريب يصدق بما يقوله لهم ملا حسين بان الفنلنديين كفار وسرقتهم حلال. قالت له: يا غريب، ليش اتيت الى هذا البلد اذا كانوا كفار، وليش تاخذ مساعدات منهم وتأكل معهم.

يضحك منها. يهز يده ويغمض عينه:

ـ طول عمرك تبقين بدون فهم.

تصلي وداد كل يوم لربها وتطيل الدعاء لحفظ اولادها، وليزرع الفهم في راس غريب. ويرجعه لاولاده سالم بدون مشاكل.

دخل ابنها اياد، واتجه الى الصالة. كانت خولة هناك، عند الكومبيوتر، حين تركت غرفتها لم تنتبه لها وداد، صاح اياد بأخته:

ـ انهضي، الم تشبعي، حان دوري.
نهضت اخته، بسرعة، وقالت:
ـ ساترك لك الكومبيوتر، عندي في الغرفة كتاب اهم.
مرت خولة بقرب امها وداد، انحنت عليها، شمّتها من رقبتها، وقبلتها في خدها:
ـ ها ماما، خير انشاء الله، من ايام وانت حزينة، ومهمومة.
لم ترد وداد، كانت عيونها غائمة بالنعاس والقلق، وهمست خولة:
ـ ماما، وعدت ايزابيلا اتصل بها، ممكن اسحب الهاتف الى غرفتي؟

٤

غادرت خولة المنزل، وهي تنظر الى الخلف باتجاه باب العمارة. رفعت بهدوء عينيها الى الشرفة، فلربما خرج اياد يراقبها ليتأكد اي اتجاه سلكت. تركت اياد عند شاشة الكومبيوتر. قال انه جلب من صديقه برنامج لعبة جديدة يريد فحصها، ولكنها لم تكمل ما بين يديها من واجبات، فطلب منها الذهاب الى المكتبة العامة. صاحت به:
ـ وما ذا اقول لامي؟
قال لها وهو يضحك:
ـ يا سلام، تهتمين كثيرين للاصول. امك ساقول لها انك ذهبت الى المكتبة العامة. بغياب ابيك انا رجل البيت وانا امرتك بذلك.
ثم انتبه لنفسه وقال بصوت اقل نبرة:
ـ او من الاحسن لك ولي اتصلي بأم رعد ستجدين امك هناك.
ولم تكن امها هناك. أرتدت خولة ملابسها بسرعة، لتخرج غير مصدقة بان اياد يفك اسرها بهذه السهولة. قدرت ان لديه شيئا خاصا، يريد استثمار غياب امهم لرؤيته فطردها من البيت. لم تلاحظ ان هناك فيلم فيديو في حقيبته يده. ربما يكون القرص المدمج يحوي فيلم بورنو خاص. وماذا تستطيع ان تفعل لتمنعه؟ غيره من الشباب، يفعلون الاعاجيب، واخوها اياد يبدو غشيما قياسا بهم. تركته لوحده موافقة على اقتراحه. ان يكون اياد في البيت لوحده ويشاهد ما يشاهد، افضل من مصاحبة شباب ربما يعلموه تدخين الحشيش او يصاحب بنات مريضات جنسيا. ولكن الى اين تذهب الان؟ هل تتصل ب ايزابيلا؟ ربما تورطها بالذهاب معها لمقابلة صديقها الجديد. تقول انه يختلف عن كل الذين عرفتهم سابقا. هو حقا يبدو شابا عاقلا وهادئا. ربما تنهي معه

تلك الفترة الصاخبة، يوم كانت ايزابيلا تورطها لتحرس لقاءاتها مع عشاقها. يا للفظاعة! كيف كانت تقبل القيام بذاك الدور؟ ربما هو حاجة داخلية؟ أذ كانت تعوض لها شيئا بالاستماع الى ما كان يجري؟ كانت ايزابيل تلتقي بأحد عشاقها في المطبخ في الطابق الارضي، وكان على خولة التظاهر بالقراءة والجلوس في الصالة قريبا الى الدرج لتنبههما وبدون صوت حين تنزل الجدة نحو المطبخ، او حين تصل الام غفلة من الخارج. اخذتها ايزابيلا يوما الى منزل احد عشاقها، واختلت به في الغرفة الخلفية. لم تخبرها ايزابيلا بتفاصيل ما يجري بينها وبين عشيقها ذاك. كانت تسمع همهمة واصوات وضحكات خفيفة، وشعرت بدبيب حار يسري في جسدها، والدماء تفور في اطرافها. كان يمنحها شئ من الراحة. تصورت الامر ليس اكثر من قبل حارة، ومداعبات. وحين سمعت خطوات تقترب من خلف المنزل في الحديقة الجانبية، هرعت الى الغرفة الصغيرة لتنبههم بالاشارة، لكنها حين دخلت الغرفة، اصيبت بالوجوم، واطلقت صرخة لا ارادية وهي ترى عجيزة الشاب مكشوفة امامها وساقي ايزابيلا في الهواء، فز الشاب على اثر صرختها وقفز عن ايزابيلا، وراح بسرعة يزرر ثيابه ويحاول دس قضيبه من فتحة بنطلونه. ظلت ايزابيلا في مكانها مثل المخدرة مكشوفة الساقين والوسط وبنطالها مرمي الى جانبها، فصاحت بها خولة:

- جاؤا، البسي ثيابك.

قفزت ايزابيلا مذعورة لترتدي ثيابها بمثل البرق وكأن شيئا لم يكن. ودخل اب الشاب، فسلم بهزة من رأسه ومضى الى شؤونه دون التوقف او الالتفات الى شئ ما. طيلة الوقت كانت خولة ترتجف، و تتصبب عرقا، وتقرأ الصور القرانية وتستغفر ربها لما فعلت. بدات ترفض القيام بدور الحارس، لكنها احيانا ترضخ امام ضغط وتوسلات ايزابيلا. كانت خولة ترى كيف ان ام ايزابيلا لا تكترث لافعال ابنتها، لكن الجدة لا تزال شديدة مع حفيدتها، وترفض انفرادها مع اي شاب، وتحاسبها لتأخرها كثيرا:

- لا زالت صغيرة.

تقول لخولة، التي حاولت منع ايزابيلا ونصحها. لم تنجح خولة في اقناع ايزابيلا بالكف عن مغامراتها المجنونة، التي كانت تسرق منها الوقت وتنتهي بسرعة دائمة بالدموع والرسوب في احد الاختبارات. لم تكن خولة تعرف، كيف واين يمكن لايزابيلا العثور على هؤلاء الشباب، ليسوا من طلاب المدرسة، وبعضهم يعيش في مناطق بعيدة. فطيلة الوقت هما معا، في المكتبة العامة، او في المدرسة فاين تجدهم ايزابيلا؟. مشاركات ايزابيلا في النشاط المدرسي كثيرة، خصوصا في فرقة التمثيل. حاولت المعلمة اقناع خولة:

ـ لك جمال باهر، وصوت قوي النبرات، ولغتك الفنلندية سليمة.

لكن برنامج التدريب يتطلب التأخير، واحيانا يكون في ايام السبت او الاحد. رفضت خولة لانها حالما تتأخر قليلا حتى تقوم القيامة في المنزل ضدها. حاولت التقليل من لقاءاتها مع ايزابيلا لما تسبب لها من مشاكل واحراجات احيانا، لكنها في كل مرة تعود اليها. تملك ايزابيلا صفات لا تجدها خولة عند غيرها من البنات. البنات الفنلنديات حذرات في التعامل معها كونها محجبة وترتدي الزي الاسلامي من الربطة والجلباب. الطلاب يرون فيها شيئا غريبا وسطهم، خاصة أيام الصيف، حيث يتبارين الفتيات في ارتداء كل ما يساعد على كشف المزيد من اجسادهن. كانت احداهن، وبشعر احمر منفوش دائما، وهي مشاكسة جيدا، وتسير دائما وثمة ثلاث او اربع صبية حولها من الطلاب، وكثيرة الشجار مع غيرها، سمتها "الغراب". قرأت خولة في احد مواقع الانترنيت بان العرب هم اول من ابتكر اسلوب التصافح بالايدي. يمد العربي يده، ويبسط كفه لتقول: "هاك يدي فارغة من أي سلاح". انها دعوة للسلام، ولذا راح العرب حين يلتقون يرددون تحية: السلام عليكم. كانت المدرسة اجرت مسابقة، والجائزة كتاب ثمين، لاطرف معلومة تاريخية غير مسموعة. وفازت خولة بالكتاب. ونشرت المدرسة الحكاية في مجلة المدرسة، والى جانبها رسم تخطيطي لرجل عربي يقول السلام عليكم. وكان هناك في زاوية المقال صورة لخولة وهي بالربطة والجلباب. وظهر من تسلل في غياب الطلبة و كتب عند صورة خولة، وفي اكثر من نسخة من المجلة كلمة "غراب". لم يعرف احد من فعل ذلك. وفاجأ الطلبة يوما تلك الفتاة المشاكسة، ذات الشعر الاحمر المنفوش، ترسم على السبورة غرابا يقول: السلام عليكم. دخلت خولة الصف اثناء ذلك، وكما عودت الطالبات، كانت تقول لهن: السلام عليكم. مثلما كان هناك طالب صيني يحيّ الطلاب باللغة الصينية. كلمة التحية، وباللغة الأم. ارادت المعلمة التي طلبت منهم ذلك ان تكوّن جسرا ما بين الطلاب. بعد ان القت خولة التحية، انفجر بعض الطلاب بالضحك. لم تفهم خولة السبب، فابتسمت. حين جلست واستدارت ورأت رسم الغراب على السبورة، وكلمة التحية، انفجرت بالبكاء. سرعان ما رأت ايزابيلا تندفع نحو الفتاة المشاكسة، تنهرها، وفجأة اشتبكت ايزابيلا مع تلك الفتاة وانطرحتا على ارضية الصف. ولاول مرة ترى خولة، فتيات فنلنديات يتشاجرن بهذه الشراسة. ذلك اليوم، اصاب الوجوم كل المدرسة. التف حول خولة وايزابيلا العديد من الطلاب والطالبات. والكثيرين اعتبروا ايزابيلا بطلة واعطت تلك العنصرية المشاكسة درسا متميزا. لكن في اليوم التالي لم يتكلم احد عن الموضوع، كأن شيئا لم يحدث، وتغيبت الفتاة العنصرية، وبعد ايام عادت الى المدرسة ولكن

لتواصل دراستها مع صف ثان، وكانت خولة احيانا تراها هنا وهناك، فتغض النظر عنها، ولم تحك يومها لاهلها شيئا عن الموضوع. اياد نقل الى اهله كل شئ. وطلبت منها امها دعوة ايزابيلا الى البيت. وجاءت ايزابيلا مع جدتها. كانت الجدة امرأة بسيطة. عجوز شهدت الحروب الفنلندية وتحكي عنها كثيرا ومأسيها، حكت عن ايام الجوع والعوز وعن البطاقة التموينية، وشفتاها ترتجفان. قال اياد ساخرا:

ـ ربما تتصورنا لجأنا الى فنلندا بسبب الجوع؟

كانت ايزابيلا جنيّ في ثوب فتاة، وتعبر عن افكارها احيانا بطرق جنونية. لم تكن تلك اول زيارة لايزابيلا الى بيت خولة. احكمت ايزابيلا اغلاق باب غرفة خولة عليهما، بعد ان تركت اياد مترجما بين الجدة والاب والام، وقالت لخولة بسرعة:

ـ هيا اخلعي ثيابك، اتركي هذه الملابس الاسلامية الكئيبة واريني جسدك.

فزعت خولة من ذلك الطلب الغريب. وارادت ان تهرب من الغرفة المقفلة عليهما. فصاحت بها ايزابيلا:

ـ لا تخافي ايها الغبية، لست سحاقية، انا اتبهذل واتجنن حين ارى جسد شاب عاري، واذوب لو لامسني، ولكن اريد ان ارى الان كيف هو جسد البنات المسلمات. تعالي هنا. اقتربي.

وكأنها نومت، وبدون ان تعارض خولة. راحت اصابع ايزابيلا تتحرك بسرعة، وكانها روبوت، وراحت ثياب خولة تتطاير عنها في الهواء. ومعها تتطاير ثياب ايزابيلا. لتجد خولة نفسها وايزابيلا يقفن قبالة المرآة باجساد عارية، وبسراويلهن الداخلية فقط، ونهودهن مشرعات امام المرآة. وطيف ضحكة غريبة يخنقهن:

ـ لست بكافرة، لكني لا ازور الكنيسة ابدا، الا حين تجبرني جدتي، وانت فتاة مؤمنة تؤدين الصلوات الاسلامية اليومية... الخمس، نعم قلت لي انهن خمس، انظري... انظري يا خولة، حقا ان رب العالمين واحد، وجسد المرأة خلقه الرب بذات المعاني والصفات المشتركة. انظري. بشرتك سمراء، وبشرتي حنطاوية. شعرنا متقارب اللون، نهدك مدور ونهدي مستدق الطرف. حلمة نهدك ارجوانية وعريضة، وحلمة صدري ناعمة ومستدقة. لكن اجمل شاب في العالم سينحني ويقبل احذيتنا حتى يلاعب هذه النهود ويعض واحد منها. لم يحاول البعض تصوير وكأن انسان يختلف عن انسان اخر؟

بعد تلك التجربة المضحكة، راحت خولة تخاف جنون ايزابيلا. التي وفي واحدة من جولاتهم في هلسنكي، ومعهن زهرة ابنة ملا حسين، اخرجت علبة سجائر وقالت ببساطة:

- يا بنات، تعالوا ندخن.

في مرة ثانية، كان دعوة لتذوق البيرة. شربت زهرة واخريات، فصاحت خولة:

- حرام!

فصاحت بها ايزابيلا:

- وهل نحن نقتل انسانا، او نسرق، ان الرب يتساهل حتى انه لا يضعها في سجل الخطايا الصغيرة.

لم تستطع خولة احتمال كل افعال ايزابيلا. صارت تخافها. كانت تريد ان تحكي لاحد ما. حكت لام رعد بالتفصيل عن جنون ايزابيلا. كانت تخاف ان تحكي لامها، حتى لا تمنعها من لقاء ايزابيلا. تدرك خولة ان ايزابيلا لا تقصد ايذاءها، وانها تحبها، وتعرف كم هي تحب ايزابيلا. لكن ايزابيلا لها سلوكها وافكارها، وتربيتها الخاصة. وهدأت ام رعد من خوفها، وراحت تضحك عند بعض القصص. طلبت منها ام رعد ان لا تستجيب لاي ضغوط من ايزابيلا لان تتعلم اشياء منكرة وحرام ومخالفة لعادات العراقيين:

- يا أبنتي يا خولة، انتم عائلة فقيرة ومستورة، وامك انسانة طيبة، فعليك ان تتذكري شيئا مهما، لا تقومي بعمل اي شئ لا يمكن ان تتحدثي عنه لامك وابيك والناس. اذ كان كذلك معنى ذلك انه عمل خاطئ. العمل الصحيح دائما يكون في النور، ومكشوفا تماما. واهل هذه البلاد يا ابنتي لهم حياة غير حياتنا، وعادات غير عاداتنا، فبعض ما هو مقبول عندهم، يكون حراما وغير مقبول عندنا، وما هو حرام عندنا قد يكون مقبولا عنهم، وعليك ان تختاري اما ان تكوني معهم او معنا.

وكانت خولة تفكر، كيف يمكن ان يكون الانسان موزعا بين هذا وبين ذاك؟ كيف يمكن امكانية ايجاد حل وسط بين طرفين مختلفين في كثير من التفاصيل والبديهيات. فحسب كلام ام رعد، اما ان تكون لها حياة مثل حياة ايزابيلا وربما مثل حياة ام ايزابيلا، فتخسر خولة حياتها مع امها وابيها واخوتها وام رعد وغيرهم، او يكون لها حياة مثلما تريد امها وابوها تماما فلا تعود ترى ايزابيلا ولا تصاحبها الى تلك المشاوير الصغيرة، مشاوير الأكاذيب صغيرة.

صارت خولة تحكي لام رعد ما تفعله مع ايزابيلا، وما يحصل لها. تجد نفسها تختلف تماما حين تكون مع ايزابيلا، حتى كلماتها تختلف، ونبرة ضحكتها. تشعر بنفسها اكثر ثقة، رغم الخوف الداخلي. وكانت ام رعد تضحك احيانا وتغضب من خولة، وحين تجد ان خولة لم تخرج الى مركز العاصمة، لفترة طويلة او ان اهلها أشغلوها بشؤون البيت، كانت ام رعد تهاتف خولة وايزابيلا وتطلب منهما الحضور حالا ثم ترسلهما في مشوار ما. كانت ام رعد تقول لها:

ـ لا اريد ان تشعر ايزابيلا بان اهلك يمنعونـك، لكـن تـذكري يـا خولـة، انـا اسـاعدك لـيس لارتكاب الخطا وليس من اجل الاكاذيب الصغيرة، بل لتقضي وقتـا طيبـا مـع صـديقاتك، انـا واثقة، انك لا تخيبين ظني بك.

وكانت ايزابيلا وخولة واخريات يتجولن في الاسواق والمحلات، يتفـرجن علـى اخـر الالبـسة، والموديلات. وكانت ايزابيلا الملعونة، لا تترك محلا لا تجرب فيه الثياب الجديدة. ولطالما طلبت من خولة ان تجرب بعض الملابس. كانت خولة حين تستجيب تشعر بالالم وهي ترى نفسها فتاة اخرى، بثياب اخرى. وترى ان جمالها مدفون في ذلك الجلباب الذي لم يمنع زهرة عن فعل كل شئ. تعـرف خولة بأنها اجمل من ايزابيلا بكثير، لكن جمالها مدفون في هذه الثياب الـتي تجعلـها تبـدو حقـا وكأنها الغراب. هاهي ايزابيلا، تملك العديد مـن الملامـح الجميلـة. بـشرتها الحنطاويـة، وجهها المستدير، الشعر الطويل الاسود الذي لو حلته يكون كصفحة ليل ساحر، ولكـن ايـزابيلا تحـرص على لم شعرها في ضفتيرتين على جانبيها تزينهما احيانا بالاشرطة الملونـة. لـيس مـن عيـب في وجه ايزابيلا سوى انفها الافطس الذي ورثته من ابيها، ويجعل بعض من يشاكسونها يـضغطون على انوفهم لاستفزازها. تعرف ايـزابيلا كيـف تختـار وترتـدي ملابـسا تجعـل الانظـار تكتـشف مواطن الجمال في جسدها بينما ترى خولة نفسها حبيسة هذا الجلباب الذي جلبوه لها مـن أيـران كهدية عظيمة ولم يكن الا عذابا شديدا. في كل مرة ترى ايزابيلا تجرب عددا من الثيـاب تبـادر خولة لتسالها:

ـ هل ستشترين شيئا؟

وتضحك ايزابيلا:

ـ انت مجنونة، وهل لدينا المال الكافي لذلك. امي تعمل سائقة حافلـة، وتقاعـد جـدتي لهـا وحدها. فمن اين لنا الدخل الكافي لكل هذه الملابس. اتدرين ان امي كثيرا ما تشتري لنا بعض الاحتياجات من سوق الملابس المستعملة. امي تقـول سـوق الامـاكن المـستعملة نعمـة مـن رب العالمين لكثير من الفنلنديين. كثير من العوائل لـديهم مكـائن خياطـة يدويـة صـغيرة، يـشترون ملابس مستعملة ويصلحوها، بأستبدال ازرار، او قص كم اوغيره، عـائلتنا من هذا النوع.

قررت خولة اليوم ان تمنح نفسها الفرصة لتتجول لوحدها. ان تمنح نفسها اجازة من مرافقـة الاخرين. لن تذهب بعيدا. ربما تذهب الى المكتبة العامة فيما بعد. لا تريد ان يراها احد يعرفها تتسكع هنا. ربما يظن بها الظنون. البارحة رات فرمان بوند في ذلك المقهى. لم ينتبـه لهـا. كـان يتحدث بصوت عال، ويحرك يديه غاضبا، ابتعدت بسرعة حتى لا يراها. هذا صديق لابيها وربما

يختلق شيئا عنها ويحكيه لابيها عنها. ضاع منه ابنه، فربما ينتقم من ابناء الاخرين بافتعال القصص عنهم. الم يقولوا انه كان سببا لطلاق ثاوات من زوجها، لاختلاقه القصص والاشاعات عنها؟ ستدخل تلك المحلات. لن تتصل بايزابيلا حتى لا تخرب لها يومها. ايزابيلا فتاة شاطرة وذكية، وخفيفة دم، لا تملك بقية الفتيات الفنلنديات صفاتها. ربما بسبب الدماء الشيلية الجارية فيها. امها فنلندية قوية الشخصية، مهذبة، كثيرا ما تقابلها خولة وتبدي اعجابها بتسريحة شعرها الذي تصبغه بلون اقرب الى الاحمر فيمنحها مظهرا اكثر شبابا. ابو ايزابيلا وصل الى فنلندا مع اول وجبات اللاجئين، مع مجموعات الشيليين الهاربين من انقلاب عسكري حدث هناك. مرارا تقول المعلمة لهم:

ـ لم تعرف فنلندا كلمة اللجوء جيدا، الا مع وصول اول وجبات اللاجئين الشيليين في ١٩٧٣!

ولكن ايزابيلا لا تعرف اللغة الاسبانية، ولا تتذكر ابيها جيدا، رأته في الصور فقط، فقد طلق امها واختفى، وقيل لامها انه هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية، وهناك من قال لها انه عاد الى شيلي ليلتحق بالمقاومة السرية لنظام العسكر وثم فقدت اثاره. تغضب ايزابيلا من بعض مشاكسيها بسبب شعرها الاسود، وبعض ملامح ابيها:

ـ انا فنلندية، ولدت هنا، وعشت هنا، ولا اعرف شيئا عن شيلي اكثر من اي طالب، لكن العنصريين يعتبروني شيلية، ويضايقونني لهذا السبب فقط.

نظرت خولة الى ساعتها. تخاف السير وحدها، خصوصا في الشوارع الفرعية حين يحل الظلام، لا تريد ان يتكرر معها ما حصل العام الماضي. حيث لا احد يمكن ان يهب لمساعدتها. الشوارع فارغة دائما. كانت عائدة الى البيت حين اوقفها رجل اربعيني. كانت تظنه يسال عن عنوان ما، لكنه فاجأها وكمم فمها وسحبها بقوة، وأراد ادخالها عنوة الى سقيفة موقف السيارات القريب. دفعته بقوة، فسقط ولم يفلتها فسقطت معه. جثم عليها ورائحة الخمر تفوح منه بشكل مقزز. رفسته مرة واخرى، لكنه كان قويا. صرخت فلم يسمعها احد. كان يحاول ان يفتح ثيابها عند صدرها، فلم يتمكن. وقع غطاء راسها فانكشف شعرها، فلم تهتم، لمت ساقيها بقوة، وبشدة، وهي تحس بقضيب الرجل مثل السيف منتصبا يكاد يشق لها بطنها. كان يرفس ويتحرك معها وكانه يرقص. لاول مرة، شعرت بأن الجلباب له فائدة، والرجل لا يعرف كيف يرفعه عن جسدها. وهو يرى شدة مقاومتها يبدو قرر ان ينهي شهوته في ثيابه. لاحظت خولة كيف ارتخى جسده وخف توتره، وبكل ما اوتيت من قوة دفعته عنها، انقلب الى الجانب الاخر وظل في مكانه غير عابئ بما يمكن ان تفعل. حملت خولة حقيبتها واسرعت بالهروب وهي تبكي

وتكفف دموعها. توجهت الى بيت ام رعد وهي ترتجف. لم يكن زوج ام رعد هناك، لم يكن قد وصل بعد. فقصت لها كل شئ. قبلت يدي ام رعد ان لا تخبر اهلها وخصوصا امها بما جرى، فسوف لا يدعوها تخرج ابدا، ولربما ابيها يجعلها تترك المدرسة. اغتسلت ورتبت حالها، وبالهاتف وجدت لها ام رعد عذرا وطلبت من امها ان تتركها تنام عندها تلك الليلة. ومرت كأتعس ليلة، وهي تفكر بالفتيات اللواتي نجح رجال طائشون بأغتصابهن في حالات كهذه. في اليوم التالي لم تذهب الى المدرسة، وقالت للمعلمة في الهاتف انها متوعكة. جاءتها ايزابيل لتطمأن عليها فحكت لها كل شئ. فقالت لها ببساطة:

ـ انت مجنونة يا خولة، كان يمكن ان يقتلك ذاك السكير الاهوج، لماذا قاومتي. في هذه البلاد لنا اسلوب خاص، ففي مثل هذه الحالة، بعد فشلك في الخلاص من الرجل، عليك ان تستسلمي، دعيه يفعل ما يشاء. سيكون مؤلما نعم، لكن ان تفقدي عذريتك في عملية أغتصاب افضل من انك قد تفقدين حياتك.

وردتها خولة ببساطة:

ـ انت لا تعرفين عاداتنا وتقاليدنا، في مثل هذه الحالة، الموت عندنا اهون.

تشعر خولة بالعذاب من لبس الجلباب. لا تريد ان تستمر بلبس هذا الحجاب. ولا تستطيع اقناع اهلها بتركه. حاولت ان تحكي مع امها، فصرخت بها:

ـ كل شئ الا هذا. اياك.

ترى هذه الملابس ثقيلة عليها. وتمنعها من ان تكون طبيعية وتتحرك بحرية. مرارا تساءلت هل الشرف والحشمة والايمان في هذه الملابس؟ تعرف زهرة ابنة ملا حسين جيدا. زميلة لها في نفس المدرسة، وكن صاحبات وعلى وفاق قبل ان يختلفن وتنطوي زهرة على نفسها. زهرة محجبة وتلبس دائما الثياب السوداء، وملابسها طويلة قياسا بباقي الطالبات المحجبات. ولكن الجميع يعرف ان لزهرة الف قصة مع العديد من الطلاب في حمامات المدرسة. لم تمنعها ملابسها المحتشمة من مطاردة الباحث الاجتماعي في المدرسة حتى طردها علنا بعد ان مل منها، وهي تفتعل كل يوم سببا لزيارته. خرجن مرارا مع بعض وتسكعن في مركز هلسنكي، ودخلن افلاما سينمائية لا يسمح لهن اهلهن برؤيتها، ودخن السجائر مع بعض. كانت خولة ترى كيف ان زهرة دائما ترتدي ملابس خاصة تحت الجلباب، وفي اقرب مكان تخلع الجلباب وتضعه في حقيبة خاصة تحملها معها، تطلق شعرها، وتضع مكياجا خفيفا وترتدي نظارات شمسية او نظارات طبية مزيفة خاصة، ولن يعود بامكان حتى والدها التعرف عليها لو قابلها. ما تعلمته خولة من

زهرة كان الكثير، وكان يمكن ان يسبب لها ولاهلها المصائب. لم تكن زهرة حين تغادر منزل اهلها، وخصوصا في مركز العاصمة تستخدم اسمها الحقيقي ابدا. دائما كان لها اسم مختلف. وتصنع لنفسها شجرة عائلة عجيبة غريبة، فلا يعود لها علاقة بالعراق، فتكون مرة مصرية ومرة اخرى لبنانية. ولا يكون لزهرة الجديدة المنتحلة معرفة وعلاقة مع زهرة ملا حسين، وتسالها خولة بصدق:

ـ اين تعلمت كل هذا يا زهرة؟

وتضحك، وتهز راسها:

ـ من الانترنيت يا غبية. الم تسمعي ببنات غرف ال Chat؟ في غرف الدردشة، في كل غرفة هناك لي هناك اسم، ولي عنوان ولي قصة. وعندي عشرات المعجبين، هناك الف مكان لاستخدام الانترنيت، مقاهي الانترنيت، المكتبة، الجيران. الم تسالي ايزابيلا يوما من اين تأتي بعشاقها؟ من هناك يا غبية. هي أجرأ منا، وظروفها تساعدها، امها لا تسال عنها. بعد نصف ساعة من الدردشة يعطيها الشاب رقم هاتفه فتتصل به. اما انت، فستبقين مثل جدتي، المسكينة، ماتت في مخيمات العربية السعودية ودفناها هناك. لم تر غير الخيم والصحراء وشرطة المملكة السعودية.

وتشعر خولة بالاسى لمصير زهرة. ذاك الطالب اليوغسلافي في الصف الثامن، لازال وفي كيس بلاستيكي يحتفظ بواحد من سروايل زهرة الداخلية. سروال اسود بزهرة فضية في مقدمته، يقول للطلاب والطالبات انه احتفظ به للذكرى، وعلى الكيس كتب له احدهم بحروف عربية واضحة كبيرة: "بسم الله الرحمن الرحيم. صنع في العراق". كل مرة يريه لاصحابه، يضحكون بحرارة ويصرخون بعربية مكسرة: "الله واكبر... الله واكبر"، وكان ذلك يغيضها ويغيض غيرها من الطلاب المسلمين. كثيرون لا يعرفون بقضية لباس زهرة الداخلي، وحاولت خولة بث دعاية بان ذلك كذبة وافتعال، لم يكن في بالها الدفاع عن زهرة، كانت خولة تشعر انها تدافع عن نفسها. لم ترد يوما على تحية ذلك اليوغسلافي المتكبر البذئ. الملعون لديه عينان ساحرتان وقامة رياضية، يغري بها كل بنات المدرسة. قيل ان زهرة اسقطت جنينا من هذا اليوغسلافي او من غيره لا احد يستطيع التأكد من ذلك. اختفت زهرة لعدة شهور من المدرسة، قيل انها كانت مسافرة، وقيل انها مريضة، وقيل انها حاولت الانتحار. وحين عادت في العام التالي، كانت منكسرة ووجهها اصفر ولا تشبه حالها. لم تعد تختلط بها وبغيرها كثيرا. لا احد يعرف سبب عودتها. ربما خوفا عليها ان لا تنتحر او طردا للاشاعات. في كل الاحوال زهرة لم تعد زهرة. تعرف خولة، ان

ابو زهرة، ملا حسين، يصنع التعاويذ والادعية لامها ولغيرها من النساء، وحين مرض اياد جاء ليقرا عليه ايات من القران ويغسل له وجهه ويديه بماء من قنينة خاصة، لفها بعدة قطع قماش، يقول انه من ماء يحمل بركات قبر الرسول محمد. بعد عودة زهرة الى المدرسة، صارت قليلة الكلام، وتشعر بانكسار دائم. حاولت خولة مرة ان تقترب منها، ان تتجاذب واياها اطراف الحديث، فشلت. قالت لها ايزابيلا:

ـ هذه البنت لديها مشكلة نفسية عويصة.

لم تفكر يوما خولة بان تخرق وصايا امها او تعبث بالثقة بينهما، وصارت لا تسمح لايزابيلا بأن تعلمها، ماهو سيئ. خصوصا بعد ما طارت الاقاويل عن زهرة وثم عن زميلتهما زينب، التي هربت من بيت اهلها وصارت تعيش تحت رعاية الدولة. لم يكن سلوك زينب مثل سلوك زهرة، ولكن والدها كان يمنعها كثيرا من الخروج، وكان يضربها باستمرار، فرصدت الباحثة الاجتماعية كل ذلك، وسجلت ادارة المدرسة دعوى ضد والد زينب وبموجب القانون اسقطوا عنه حق رعايتها. صارت خولة، تميل اكثر الى دراستها، الى الهدوء والتفكير برعاية اخوتها الاصغر. صارت تقترب اكثر من الطالبات الاجنبيات، المسلمات خصوصا، لانها تراهن منطويات على انفسهن، يخشين التبسط في الاحاديث مع غيرهن. فكرن معا وبمساعدة المعلمة بتنظيم رحلات الى متاحف العاصمة. بحثت في الانترنيت، وجدت خولة ان من يرغب بزيارة كل متاحف هلسنكي يحتاج الى شهور طويلة. مع عدد من الطلاب والطالبات، اختاروا اهم المتاحف، مما له علاقة بمناهج الدراسة، وقدمن القائمة للمدرسة. كان فيها زيارات من غير تلك الرحلات التي تنظمها المدرسة، طلبن من المدرسة ان تاخذهن الى المسرح. صارت خولة اكثر اهتماما بدراستها. وصارت تهتم اكثر لدراسة اياد، وتساعده. وحين علمت بمعاناة امها من مجموعة الامراض التي تحملها، صارت تهتم كثيرا بشؤون البيت، ورعاية امها واخوانها. وكانت ام رعد خير صديقة لها رغم فارق السن. وكل مرة تقول لها:

ـ اه يا خولة يا ريت عندي، اخ غير متزوج لن اترك احد يتزوجك غيره.

تشعر خولة بالرضا عن نفسها لكنها غير مقتنعة بالكثير مما يجري حولها. مرات كثيرة صارت خولة تطلب بحدة من ايزابيلا الاختيار بينها وبين جنونها، حين ترى ان ايزابيلا تجاوزت الحد المعقول. فكانت ايزابيلا تهرع اليها، وتغرق راسها في صدرها، وتهمهم كنوع من البكاء. حتى ام ايزابيلا لاحظت بعض التغيير في ابنتها. وفي لقاء بين ام ايزابيلا وامها في السوبر ماركت وام رعد التي كانت تصاحب امها وقامت بالترجمة، عادت امها فرحة مسرورة لان ام

ايزابيلا شكرتها لكون ابنتها ايزابيلا تتعلم من خولة اشياء كثيرة طيبة. لم تكن خولة تريد اكثر من العيش حياة طبيعية. ان لا تكون نشازا بين الاخرين. كان لا يكفيها ان تكون متفوقة في دراستها، ومتميزة بين زميلاتها. تجد خولة ان امها والاخرين يكلفوها فوق طاقتها. ابوها يسألها احيانا اسئلة غريبة. حين يسمع ضحكتها في الهاتف مع صديقاتها، او حين يجدها تنظر من الشرفة. لا يوجد في باله سوى ان يكون هناك رجل ما. ليس من شئ في قاموسه غير الخطأ والحرام. وكأن الرب لم يخلق المراة سوى للخطيئة. الامور غير متوازنة عند ابيها ابدا، حتى عماد انتبه الى ذلك، واحرج أباهم مرة عامدا. قالت امهم، ان ام رعد تبحث لقريبها عن عروس عراقية تناسبة. لم يخطر لخولة ان تكون هي المقصودة، لانها لا تفكر بالزواج حاليا وامها تعرف ذلك جيدا، وايضا لان الرجل يكبرها كثيرا، لكن اباها سأل فجاة:

ـ كم عمره؟

قالت امها:

ـ اعتقد تجاوز الثلاثين قليلا.

صاح أبوها فجأة:

ـ غبي، هذا رجل غبي. كيف يتزوج الان ويترك كل هذه الفنلنديات الجميلات، الاول عليه امتاع شبابه، وثانيا يبني مستقبله فيجمع لنفسه مبلغا جيدا من المال ويحقق مشروعا تجاريا وثم يفكر بالزواج ويورط حاله مع الاسرة، حتى ذلك الحين يمكنه مصاحبة فنلندية وينشغل معها وحتى يمكن ان تعلمه اللغة الفنلندية بشكل ممتاز.

شدهت امهم وهي ترى زوجها وعلى مسمع من اولادها يعتبر الاسرة ورطة، وشعرت خولة بالالم لما سمعت، لان ما يقوله ابوها، لم يكن مزاحا عابرا، بل ذاك هو حقيقة تفكيره، ووسط الصمت سمعت اياد يطلق ضحكة ويقول:

ـ يعني بابا، يمكن خولة ان تصاحب فنلندي لفترة حتى تتعلم لغة فنلندية بشكل احسن؟

اضطرب ابوها، توقعت خولة انه سيثور وسيضرب اياد، لكنه ارتبك واطلق ضحكة مفتعلة، منتبها الى كون ابنائه لم يعودوا اطفالا سذجا، وكون المدارس تعلمهم الكثير وتجعلهم مشاكسين وجارحين احيانا. شعرت خولة بالراحة من ان امها المراة البسيطة جلست اليها مرارا مثل اي امراة مجربة، ثقفتها الحياة، لتكسبها كصديقة وهي تحكي لها ببساطة شؤونا نسائية خاصة. حين تقارن امها بأبيها، ترى بأن اباها ظالم كبير لامها وللعائلة كلها. وتجد الكثير من الثغرات في شخصية والدها لا تعجبها ولا تشجعها على الجلوس اليه والحديث معه. لا يملك ابوها تأريخا

مشرفا بين الناس وهناك القاب سيئة كثيرة له بينهم. هذا التاريخ يجعل اياد المسكين يبتعد عن العلاقات مع الطلبة العراقيين ويتحاشاها حتى لا يسمع منهم ما يدفعه للشجار، وتجد اغلب علاقاته مع طلاب مدرسته الاتراك والهنود والفنلنديين، حتى صار يحكي بعض الكلمات التركية، وتعلم اغاني هندية. ليس في تفكير والدها سوى المال ومحاولة استغفال الاخرين، ولطالما كانت النتائج لغير صالحه. يبدو لها ابها مثالا للانانية.لا يهمه سوى نفسه. لا يحمل لامها اي عواطف. ولشد ما يعجبها قناعة امها ورضاها بما هي عليه، وايمانها بالبساطة. ورغم انها ترى في سلوك امها بعض القسوة مع ابيها في محاسبته ومراقبته، الا انها تعتقد ان اباها بدون ذلك لربما عاد الى سيرته التي جعلت عمه يرفض تزويجه ابنته هدى، عدوة امها الاولى، تلك التي ظل ابوها طول عمره، يحمل في داخله الشعور بالنقص لعدم زواجه منها. في احدى شجاراتهم، الذي ابتدا حين دار حديث عائلي عابر وورد اسم هدى فجاة، فز ابوها كالماخوذ لسماع الاسم، انتبهت امها له بغضب، وراحت تسخر منه وتناكده طوال الوقت. كانت امها قاسية جدا مع ابيها، وفاحشة في القول:

- تعرف يا غريب، انت لا تحب هدى ولا تعشقها مثل سائر الناس حين تحب وتعشق، ولا في يوم من الايام احببتها او ستحبها، انت تريد فقط تنام ولو ليلة واحدة معها وتنكحها وسترتاح بعد هذا، راح تخلص من عقدتك. انا اعرفك. هذه هي علتك. ان علتك ليس في قلبك، علتك بين رجليك.

قررت خولة ان لا تغيض امها يوما. ان تبذل جهدها لرعايتها. تشعر بأن الحياة ظلمت امها كثيرا، فلا تريد ان تكون عاملا اضافيا لألام امها بسبب امراضها ومعاناتها. لم تعد خولة تهتم لأبيها كثيرا. لم تعد تحسب له حساب، من يوم ان ضبطته في المطبخ، وامهم نائمة، يتحدث همسا في الهاتف لا تدري مع من، ويتمتم بكلام غريب، فهمت منه كلمة "حبيبتي". ولم يكن صعبا عليها التخمين، اذ كان حديثه قبيل سفره بأيام الى دمشق. فشعرت بوضاعة ابيها، وبسمو امها التي رغم كرهها للسفر وعدم موافقتها على ترك العراق، لكنها امراة مخلصة لم تشأ ان تترك زوجها وحده في محنته، فرافقته كل هذه السنين، وهو كالمراهق يتحدث خلسة مع امراة هابطة السمعة، الناس تردد ان عدد ازواجها بعقد زواج عند الملا اكثر من ازواجها عند القاضي. حين التقت خولة صدفة بتلك الفتاة الكردية الجميلة، المترجمة، في مقهى منزو في منطقة كايسا نيمي، كانت ايزابيلا معها، وايضا بضع فتيات، كانت هناك زينب. شعرت خولة بالخجل فيما بعد من كونها تحدثت بصيغة المظلومة. حديثها مع المترجمة، افهمها ان ازالة الظلم لا يتم

بالظلم، معالجة الخطأ لا تتم بالخطأ. لا يمكن ان تظلم امها واخاها لانها تشعر بالحاجة لان تنفس عن نفسها، وتسمح لنفسها بالقيام بافعال جنونية صغيرة تثبت بها نفسها. بعد لقائها بالمترجمة ثاوات طلقت "الاكاذيب الصغيرة" وتركت التدخين وسط احتجاج ايزابيلا، التي سرعان ما انساقت لضغوط خولة واوقفت التدخين ايضا. سمعت خولة كثيرا عن ثاوات. امها بنت لها علاقة طيبة مع هذه المرأة الجريئة المتحررة. قبل ايام، حين التقطت عدسة المصورين وجه ثاوات في مظاهرات الاول من اذار ضد الحرب، صاحت بها أمها:

ـ شوفي خولة، هذه المترجمة ثاوات، صديقتي، شوفي شلون حلوة، يا سبحان الخالق.

قبل فترة كانت امها تحكي لها عن ثاوات، قالت لها:

ـ ابنتي خولة. انظري الى هذه البنت المترجمة ثاوات، هي مراة مثلي مثلك، وتعيش لوحدها، لا اخ، لا زوج، لا رقيب، سوى ضميرها وربها، وتعيش اشرف من كل واحدة.

ولم تجرأ خولة لتخبر امها بلقائها مع ثاوات وحديثهما. اخبرت امها بانها تعرف ثاوات، سمعت عنها والتقتها يوما، ولكن خولة لم تجد في نفسها الشجاعة لتفضح نفسها وتحكي كل شئ. قررت مرارا ان لا تخفي عن امها شيئا، لكنها تتوقف في اللحظات الاخيرة. ربما لا تفهمها امها وتكون النتائج عكسية. هذه المرة قررت ان تحكي لامها كل شئ، وستبدأ اليوم بالاعتراف لامها عن تدخينها وتركها للتدخين ودور ثاوات في ذلك. لاحظت خولة انها كانت تنظر الى الواجهات الزجاجية للمحلات، ولا ترى شيئا. كانت كل افكارها مع خولة التي تصارعها بداخلها. غادرت المكان بسرعة، اقتربت من المكتبة العامة. لم تدخلها. قدرت ان الوقت قد حان للعودة الى البيت، لتنجز شيئا ما من واجباتها المدرسية، وتساعد امها التي تكون قد عادت الى البيت.

٥

دار فوزي في اقسام السوبر ماركت، اشترى كل ما سجله في قائمة التسوق التي يمسكها بين اصابعه. هذه عادة تعلمها من الفنلنديين. كان يود ان يستضيف كريم هذه الليلة بالذات، لكن كريم طلب منه ان تكون سهرتهما في الليلة التالية، فهذه الليلة لن يكون في كيرافا لارتباطه بموعد سابق. لم يخبره مع من، ولكن فوزي قدر انه يعرف هذا الشخص. ود فوزي ان ينفرد مع كريم لوحدهما، ثمة اشياء بوده البوح بها لكريم وحده، لكن نوري ما ان سمع رد كريم، حتى حشر نفسه معهم.

ـ لو اخرتها يا فوزي يومين فتكون احتفالية بمناسبة عيد المرأة، شخصيا، وانت الاعرف، اعتبرهذا العيد، يوم الثامن من اذار، اهم مناسبة في العالم، ولكن ليس ثمة مشكلة عندي اذا صارت جلستنا في السادس من اذار، ساهرب من شاخوان بأي صورة واكون معكم، لنحتفل رغم اننا سنكون مستعجلين يومين.

قدر فوزي ان كريم سيكون مع باولينا. هي امراة، ليست فقط جميلة، بعيونهاالساحرة، وقامتها الفتية ، بل هي شخصية تستحق الاحترام والحب. كان كريم مترددا جدا في الارتباط معها، وكانت باولينا الاجرأ لكسر هذا التردد. لمس فوزي ذلك في اكثر من مناسبة ولقاء. الايام الاخيرة، ومع اقتراب موعد سفر كريم، في الثاني عشر من اذار الى عمان للقاء ابنته وامها، يرى فوزي تأزم حال كريم بشكل واضح. من عشرته مع هذا الرجل تعلم فوزي ان كريم ليس بالسهولة ان يفصح دائما عن كل ما هو خاص به، ولكن فوزي يستطيع بنفسه تخمين اشياء كثيرة عنه بشكل صحيح. الانسان تاريخ كما يقول كريم بذاته. من شهور طويلة، لاحظ فوزي كلما زادت باولينا اقترابها من كريم، كلما كان كريم يتأزم اكثر. لم يرغب فوزي يوما بان يسأل كريم مباشرة عن ذلك، كان يدرك تقريبا حيرته بين الحاضر والماضي وما قد يجلبه المستقبل. في روح كريم لا زالت ثمة جمر حب يستعر تحت رماد السنين. لم تستطع كل سنوات المنفى، ولا كل النساء اللواتي عرفهن كريم ان تطفأ نار زوجته السابقة محاسن. يذكر فوزي حالة توتر واضطراب كريم وهما يضعان اول خطواتهما خارج الاراضي العراقية. ظن فوزي ان كريم سيغير رأيه ويطلب من المهرب اعادته الى نقطة الانطلاق في مدينة السماوة. كانت الصحراء يومها، موحشة، وكان فجرا غريبا من شهر تموز الساخن، وهما يصلان مدينة حفر الباطن السعودية. واذ راح من معهم من الرجال يتنافسون على استخدام التواليت، اختلى كريم جانبا يسفح دموعه بصمت. اقترب منه فوزي وقال له:

ـ انا مثلك يا صاحبي تركت اهلي وخطيبة للمجهول!

رد كريم بعواء مكبوت:

ـ امرأتك لا تزال مجرد خطيبة يا فوزي، ولكني يا اخي تركت محاسن وحدها، وهي حامل.

ـ لها اهلها!

ـ اهلها؟ ان كل خوفي على محاسن يأتي من اهلها.

وبينت السنين صحة مخاوف كريم. افترق فوزي عن كريم طويلا. غادرا من الكويت الى اليمن معا، ومن هناك التحق فوزي بالمقاتلين الانصار في كوردستان، بينما ظل كريم في اليمن،

ثم تركها الى ليبيا، ودارت السنين الطويلة ليلتقيا من جديد في فنلندا. كان كريم قد شاخ قليلا، وابيض شعره، ولكن ذات الحزن ظل غائما في عينيه. ذات الشعور بالذنب يراوده كل يوم. ذات الاحساس بانه خذل محاسن في الوقت الذي كانت تريده ان يكون الى جانبها. بلقائهما من جديد، وتجاورهما في كيرافا، لم يصدق كريم انه عثر على شخص يعرف تاريخ احزانه ويمكن ان يبثه اياها:

ـ اتدري يا فوزي ان ابنتي رحيل الان طالبة في الجامعة؟

وضحكا حين رد عليه:

ـ اذن قريبا يمكن ان نقول لك يا ايها الجد؟

قال لكريم مرة، مواسيا، وهما يستعيدان تفاصيل عبور صحراء السماوة باتجاه المملكة العربية السعودية:

ـ تعرف يا كريم، لنا ان نفخر بذلك، لاننا لم نهرب يومها لجريمة، كنا اصحاب مواقف واصحاب فكر وكان الارهاب السياسي اقوى منا لنواجهه.

فرد كريم بحنق والم:

ـ ولكن الناس البسطاء لا يفهمون هذا يا كريم، انهم يرون صورة ثانية، صورة هزيمتنا وخوفنا وهروبنا، انه هروب رغم كل تنظيراتنا.

وواصل كريم بالم:

ـ انت يا فوزي، رجل سياسة، واخوتك غادروا العراق لمثل اسبابك، لذا ارى الامر طبيعيا في عائلتكم، انتم عائلة محترفي سياسة. لكنني انا رجل مستقل، مجرد مدرس تاريخ، متزوج حديثا، وزوجتي تحدت اخوتها لتتزوجني، ولولا دعم والدها، الرجل الطيب، لما تم زواجنا، وفجأة تجد هذه المرأة نفسها وحيدة وببطن منفوخة وزوجها خارج الحدود لا تعرف اين هو والى اي مصير ذاهب. اتعرف حجم المي؟ حتى لو غفرت لي محاسن ما حصل ايامها فلن اغفر لنفسي ابدا.

ـ وهل هذا هو سبب عدم اقدامك على الزواج حتى الان، رغم توفر الفرص؟

ـ اأ.. ر.. ربما، نعم!

ودخلت باولينا بقوة في حياة كريم. لكنها لم تستطع اطفاء نيران محاسن. لم يكن الامر مجرد عاطفة الحب والشعور بالذنب. كان الامر بالنسبة لكريم يتعلق بالمسؤولية. المسؤولية عن امراة تحمل منه جنينا تركها وحيدة. واذ ترد كلمة المسؤولية في باله، يشعر فوزي باصابع حجرية تخمش له قلبه. زاغت عيناه وكاد فوزي ان يصطدم بعربة امراة عجوز امامه، وهو يتحرك بين رفوف

البضائع. دائما يفكر فوزي بكون محاسن مثلها مثل حبيبته، فراشته المسكينة. لم تكن سوى امه تعرف بتفاصيل قصته معها. لم يكن في حال يسمح له بالحديث عن الحب ورفاقه يموتون تحت التعذيب في الاقبية السرية لاجهزة الامن البعثية. العشرات اجبروا على التوقيع على المادة ٢٠٠[٩٨]، واعلنوا غصبا عنهم البراءة من تأريخهم السياسي والحزبي. الرعب والخوف في شوارع العراق. كان يدور من مدينة الى مدينة، لا مكان ثابتا له ليأويه ويتخفى فيه، وضباع رجال الامن يتعقبونه من باب الى باب، فكيف يمكن ان يحكي عن الحب والغرام. كانت المسكينة تزور امه بين الحين والاخر لتبكي بين ذراعيها. كانت امه تملك من الحكمة والقوة ما يكفي لتقول له:

ـ اسمع ابني، اعرف تعلق هذه الفتاة بك، وتعلقك بها، ولكن وضعك لا يسمح لك بالارتباط بها باي شكل، لا بخطوبة ولا بزواج. وانت لا تزال غير مستعد لذلك، انصحك ان تدوس على قلبك، واذا عرف اهلها بارتباطكما ستكون لها مشكلة كبيرة، فعمها المسؤول عنها رجل شرير، واذا عرف رجال الامن ربما سيضايقونها بسببك، ويكون الامرمثل فضيحة. الافضل ان تختفي من حياتها تماما.

كانت فكرة مغادرة العراق قد بدات تتبلور، ولا حل غير عبور الصحراء، فأسمه على قوائم المنع من السفرعبر المطارات ومعابر الحدود. والى مخبأه جاءته امه والحزن والخوف يجعل دموعها تسيح بدون صوت. لتخبره بأن فراشته، لا تريد منه، اي التزام، لا زواج ولا خطبة، ولا اي شئ، سوى ان يكون سالما وعزيزا، وتطلب منه وتبارك سفره خارج العراق. وخمن فوزي ان كل ذلك من تدبير امه التي تريده ان يغادر العراق بأسرع ما يمكن. طلب فوزي من امه ان تؤمن له لقاء مع فراشته ولو دقائق. كان فوزي يريد ان يسمع منها مباشرة ما نقلته له امه:

ـ لا تعذب نفسك، انت لم تتخل عني، انت لم تخذلني كما تقول او تتصور، انا واياك يا حبيبي ضحايا زمن اغبر. زمن لا مكان فيه للحب. سافر وكن مرفوع الرأس، وسابذل كل جهدي لاقاوم ضغوط اهلي للزواج، لا اعرف كم سأقاوم، لكني سأبذل كل جهدي. كيف ستكون الامور؟ لا ادري. ربما تتحسن الامور وتعود الينا قبل ان اكون بذمة رجل اخر، ولكن من اليوم انت غير ملزم بأي شئ تجاهي. انت انسان حر ولا اريد سوى سلامتك.

ولم يكن هو يدري، ولا اي واحد يدري، كم ستطول سنون المنفى. في الكويت تراهن اخيه شامل مع احد اصدقائه بأن الفترة ستكون خمس سنين فقط. الاصدقاء اتهموا اخهه شامل بالتشائم. كان العراقيون متفائلين جدا، بامكانية ان يحصل تغيير، انقلاب في الجيش، او تغيير داخل السلطة الحاكمة:

ـ لا يمكن للشعب العراقي ان يحتمل تجربة عودة الحرس القومي من جديد!

وكان الديكتاتور صدام، وعلى جثث ابناء الشعب العراقي، وحتى رفاقه من قيادات حزب البعث الذين انقلب عليهم، يصعد نحو قمة القسوة والرعب، بسرعة قصوى، ويتشبث وينفرد اكثر بالحكم، متسترا بسياسة عربية قومية ديماغوجية، وتساعده اجواء تهادن عالمية وحرب باردة حول مناطق النفوذ، على مد مخالب ارجل كرسي حكمه عميقا في جسد الشعب العراقي الذي ناء طويلا تحت ثقل كرسي الديكتاتور. بعد خمس سنوات من الانتظار والصمود، وبدلا من ان يعود فوزي والعراقيون من منافيهم، تهشم جناحا فراشته العاشقة، وزوّجها عمها وادخلها قفص زوج يكبرها سنا. حين سمع فوزي الخبر كان امرا عارضا. كان في الجبل، مع مفرزة من الانصار، في قرية كردية على مشارف مدينة السليمانية، ينتظرون وجبة من الهاربين من جحيم الديكتاتورية، قادمين عبر خطوط التنظيم الحزبي، باحثين عن ملاذ امن في الجبل. كان فيهم شخصان من ابناء السماوة. على موقد النار، وهو يسأل عن مصائر الناس من رفاقه ومعارفه. كانت الاسماء ترد بحذر، وكانت الاجوبة دقيقة، وعرضا عرف فوزي بخبر زواجها. لم يكن الشخص يعرف اسمها جيدا، لكنها يعرف جيدا عمها، وكونه مسؤول عن ابنة اخيه الطالبة الجامعية، التي انهت دراستها، وزوجها عمها في صفقة رابحة لمقاول ناجح في المدينة. شعر فوزي بطعنة في القلب. لم يشعر بالغضب من حبيبته، بل من هذا الزمن الاغبر كما كانت تقول له، هذا الزمن الذي لا يسمح للانسان بأن يتحمل مسؤوليته تجاه من يحب. لم يحاول فوزي ان يحكي لاحد عن عذاباته. خصوصا عن قصته مع فراشته المسكينة. يفهم انها صارت الان زوجة لرجل اخر، حتى وان كانت لا تحبه، فلها منه عدة اطفال، ويعرف جيدا حبيبته، كيف هي انسانة مخلصة لنفسها وتحترم ارتباطاتها، فلم يريد تحريك المواجع مع نفسه. حين راح نوري يلاحقه بالاسئلة عن ماضيه، كان فوزي يتجاهل كل اسئلته، ويتغابى احيانا. كان فوزي يدرك ان نوري مجرد باحث عن قصة، يسمعها، وربما لو اعجبته ينتحلها مع اول امراة يقابلها ليستدر عطفها، او لربما ليدهشها، بصورة الرجل المغدور عاطفيا، ليتمكن من استمالتها الى سريره. كان فوزي كلما ترد في باله صورة فراشته عند وداعها له. على مراى من امه، وكيف انهارت بين ذراعيه، بوجه مصفر وعيون منتفخة من البكاء، يشعر بقلبه ينقبض ونار حقده على الديكتاتورية تزداد اشتعالا. كانت عينا فراشته تتفجران بالدمع بشكل غريب، لم يعهده في امراة من قبل. ربما بسبب رهافة الموقف واللحظات. هكذا تصور له الامر. ووجد نفسه، بدون ارادة يشاركها الشعور، دفن وجهه في صدرها، وراح يعوي كاظما صوته محاولا ان يتماسك. اقتربت منهما امه، واحتضنتهما معا. وقالت بصوت مبحوح:

ـ ابكيا يا ولدي، لا تخجلا من الدموع، اغسلا روحيكما بالدموع، الدموع رحمة من رب العالمين للانسان المفجوع.

يتذكر فوزي جيدا، كيف ان امه لم تبك يومها. تماسكت، ربما لشعورها بان احدا يجب ان يكون متيقظا، ويتحمل مسؤولية ادارة الموقف. لم يعرف شيئا عن مصير فراشته لاحقا، ولا عن مصير زوجها. كان يخجل ان يسأل. يخجل ان يخدش لفراشته حياتها الجديدة. اتبع نصيحة امه واختفى تماما من حياة حبيبته. لم يكن قادرا على الدفاع عن حبه لها، هذا الامر ولسنوات عديدة ولد لديه احساسا خاصا من الضعف والانكسار. كانت تجربة كردستان، فرصة له جيدة، ليستعيد الثقة بنفسه. في المعارك، كان رفاقه يتصورونه احيانا متهورا، او محبا للتفوق عليهم، وهم يرونه ينطلق بين رصاص العدو متجاوزا تحذيرات امكانية الاصابة او الموت. كانت عوامل عديدة تتقاذفه وهو ينجز مهامه القتالية بتلك الصورة، ليس غضبه وحده من سلطة غاشمة، وقوات مرتزقة تذيق الناس عذابا، كان القليل جدا من رفاقه المقربين اليه، يعرفون ان ثمة عوامل اخرى داخلية خاصة تحركه ايضا وتدفعه. كان فوزي يريد ان يقتل ويطمر ذلك الانسان الضعيف الذي فر بجلده تاركا حبيبته تحت رحمة عمها ليزوجها لاول خاطب ثري. ليلة ان عرف بزواجها، كاد ان يختنق غيضا. كان يتصورها كيف تغص في دموعها وزوجها يفترس جسدها ليلة الزفاف. كان يتصور اي الم يسكن في روح تلك الفراشة المسكينة. كانت تهمس له:

ـ لو اجبرت على الزواج يوما من رجل غيرك، فيجب ان تعرف ان الامر لن يتم الا بعملية اغتصاب.

مرارا كان فوزي يود الصراخ بأن الوطن كله مغتصب. الناس والارض والفرح والسعادة والاحلام، وحتى في المنفى ضباع الديكتاتور تلاحق احلام الناس!... كان يوما، بهيا من ايام كيرافا، كان اول الثلج، وشاحا ابيضا كبيرا فوق البيوت والاشجار. رقائق الثلج تنزل على اكتاف الصبابا كأزهار "الربنوك"، تشع العيون بالمحبة، وتحمر خدود الصبايا وهن يتخاطفن عند تمثال الريح في مركز المدينة. كان فوزي، ومثل كل مرة يحدق بذلك التمثال الصغير الجميل، ثلاثة خطوط من الحجر، ثلاثة اعمدة قصيرة مائلة لايتجاوز طول احدها المتر. كيف استطاع الفنان المبدع ان يضمنها تلك القدرة على منح الاحساس بحركة الريح؟ اقترب منه، ذاك الرجل ليسأل عن عنوان دائرة رسمية:

ـ هل الاخ، عراقي، ممكن ان تساعدني؟

ودله فوزي على العنوان المطلوب. صادفه مرة اخرى فحياه، ومرة اخرى دعاه الرجل الى فنجان قهوة، فارتاب فوزي. لايبدو الرجل من سكان كيرافا، وحين ذكر فوزي اوصافه لبعض المعارف، لم يتعرف عليه احد. في المقهى الصغير المقابل لدائرة مكتب العمل تأكد لفوزي بان الرجل يعرفه جيدا:

- لا تنسى بان لك اهلك واقرباؤك في العراق، فكر بهم، ودعك من شغبك وتصوراتك وافكارك الخاطئة، الوطن بحاجة لجهود كل ابناءه و...

لم يرتشف فوزي شيئا من قهوته. نهض بهدوء، وقال للرجل:

- قل لمن ارسلك، ان العنوان خطأ.

لم يشا فوزي ان يخبر كريم بما حدث. نصحه رفاق له بضرورة الحذر وابلاغ الشرطة الفنلندية وكل معارفه، وضرورة ان يقلل من تأخره ليلا وعودته مفردا الى منزله. وساعة ان عرف كريم بالتفاصيل، اصيب بشئ من الهلع، وسطع بعض الخوف في عينيه. يعرف فوزي شجاعة كريم جيدا، كانت تجربة الصحراء مثالا في ذاكرته ابدا، وثمة مواقف اخرى عديدة، لكن تفكير كريم بأبنته رحيل هو الذي يقلق نهاراته ولياليه، جعله يبدو هذه المرة ضعيفا جدا. بذل فوزي جهدا لتهدئة كريم بان رجل سفارة نظام صدام جاء خصيصا يقصده، هو فوزي، بالذات. وهي محاولة لاخافته ليس الا. يومها تجرأ وكاشف كريم برغبته ان يقلل من الخروج معه، حتى لا يسبب له ذلك اشكالا ما لابنته رحيل وامها. غضب كريم، وبدأ يعتذر بخجل من حالة ارتباكه والخوف الذي تملكه، وصار لا يفارق فوزي ابدا كرد فعل على ما بدر منه. وكأن ما حصل، فجر في كريم نبع شكاوى. راح فوزي كل يوم يسمع شيئا من مكنونات كريم الخاصة. صارفوزي يفهم اكثر اهمية وجود باولينا في حياة كريم. كيف تمنح هذه المراة لكريم الشعور بالالفة والامان، وكيف يقود ذلك كريم الى المزيد من التوازن والثقة بالنفس. كان يرى كيف يكون كريم محتلفا بوجود هذه المراة، ليس فقط وكما يقال ان وجود المرأة يجعل الرجل اكثر نبلا، بل كيف يكون اكثر حيوية وتفاؤلا واملا. في مهرجان الثوم الماضي، في السبت الثالث من شهر آب، ازدحمت كيرافا بالالاف من الزوار. قالت احصائيات الصحف المحلية انهم كانوا ٣٣ الفا قدموا من مختلف المدن الفنلندية. ولاجل استقبال الزوار، اكتست كيرافا الجميلة والوادعة بأحلى الحلل. أغلقت الطرق الداخلية و منع فيها مرور أية سيارة عدا سيارات الإسعاف والشرطة. في كل زاوية من المدينة نصبت الخيام وفتحت الأكشاك. مهرجان تجاري لبيع كل شئ، لوحات واعمال فنية، منتجات أعمال يدوية، ملابس جاهزة وقديمة، معدات منزلية وأثاث، أدوات مطبخ وزينة، أدوية ومستحضرات تجميل و

أشرطة موسيقى وأفلام فيديو، مواد غذائية ومعلبات منزلية، وكل ما يخطر في البال. الطريف أن الكثير من المبيعات التي لها علاقة بالثوم. في كل مكان انتشر الحواة والمهرجون والسحرة، ورسامو الكاريكاتير وعازفو الالات الموسيقية. كان الفنلنديون في كيرافا يحتالون للبحث عن وسائل للفرح، فمن يصدق ان للثوم عيد ومهرجان؟ كانت فكرة رجل أعمال ذكي انتبه الى كون مدير بلدية كيرافا بداية ثمانينيات القرن الماضي، من المعجبين بالثوم. وكيف كان المدير في كل مكان يتحدث عن اهمية وفوائد الثوم الصحية. خطرت لرجل الأعمال النبيه فكرة ان يبادر لاقتراح تنظيم مهرجان للثوم في المدينة. كان له ما أراد وتأسست (جمعية أصدقاء الثوم)، في ١٩٨٣، وبلغ عدد أعضائها الالاف. دعت الجمعية الى تنظيم المهرجان، وكان المهرجان الأول في صيف عام ١٩٨٦، ونجح بشكل كبير وصار ينظم سنويا. ومنذ ان استقر سكن فوزي في كيرافا، وكل عام، كتقليد ثابت، صار يدعو مجموعة من الاصدقاء الى منزله، لتناول وجبة طعام خفيفة ومشاهدة المهرجان ومشاركة الناس فرحهم. كان فوزي بأستمرار يقول لاصحابه:

- يمكن للفرح الصادق ان ينتقل بالعدوى.

الى كيرافا وصل الكثير من العراقيين من المعارف والاصدقاء. قابلهم فوزي في الشوارع يدورون بين مكائن العاب الاطفال والدواليب الهوائية التي تنصب في مقابل بناية المكتبة الحديثة في ساحة الهوكي. قابل زوجة شاخوان ومعها ناوات وشادمان علي ورباب. مرت مجموعة عوائل عراقية، منقسمين الى مجموعات. كان الرجال يسيرون مع بعض والنساء مع بعض. حياهم فوزي جميعا. فهم انهم التقوا عرضا في شوارع المدينة، وشكره بعضهم لابلاغهم بموعد المهرجان. قابله الطبيب زردا شت وزوجته، كان معهم صديقهم سيروان واطفاله. كان هناك عباس جامعة وعائلته. كان هناك حسين الزورائي ومنتصر هادي ومعهم سالم غفور ويوسف أبو الفوز. لم يرى بيكا تويفنين في هرج المهرجان. اعتذر عن الدعوة لانشغاله. كان هناك مجموعة من العوائل من اصدقاء شاخوان وصلوا بدعوة منه، فانشغل معهم ولم يحضر وجبة الطعام. ذلك اليوم اصر كريم على مساعدته في الطبخ، وهيأ بنفسه انواع طيبة من السلاطات. كانت باولينا هناك، حضرت بشكل مبكر، ذهبت اولا الى شقة كريم، ثم جاؤا معا. نوري تحول الى مصور المجموعة، راح يلتف حولهم ويلتقط صور من كل الزوايا. حرص كريم على ان ينفرد مع باولينا. حين يكون كريم بعيدا عن اعين العراقيين، يختلف في تصرفه مع باولينا كثيرا. لمس فوزي ذلك اكثر من مرة. بوجود العراقيين يكون كريم اكثر توترا وتحفظا، لا يتجاوب بسهولة مع مبادرات باولينا. تمد باولينا ذراعها اللى كريم، فيشعر فوزي بان يد كريم ترتجف قبل ان يمسك بكف باولينا،

وترف عيناه بسرعة، كأنه فتى غر، يخاف انكشاف امره. واذ راح نوري يلح على كريم ويطلب منه أن لا يبتعد عنهم، قال له:

ـ اتركه يا اخي، ربما لديهما شئ خاص يودان حكيه لبعضهما.

احتج نوري:

ـ وكيف لي ان التقط لكم صورا جماعية وانتم بهذا الانتشار؟

على مقاعد مسرح الشمس، هناك حيث مصاطب طويلة من الخشب على شكل اقواس تلتف حول رقعة اسمنتية بمستوى منخفض، تشكل المسرح الصيفي، الذي يعلوه رقعة كبيرة من القماش السميك كأنها شراع، هناك جلس فوزي ومعه كريم ونوري وباولينا، يتفرجون الى عروض مدارس المدينة للازياء، وثم بدا عرض لافضل دراكولا يقدمه طلاب المدارس. كان التصويت يتم بالتصفيق، وكانت كفا كريم وباوليا يلتهبان كل مرة. كانا منتشيان جدا بوجودهما معا. وسرعان ما بدأت تظهر تاثيرات الفودكا التي شربها نوري في الشقة، او تلك التي مزجها بزجاجة الكولا وجلبها معه، واعطى القليل منها للاخرين محتجا بكون الكمية لا تكفي. ما ان انتهى العرض وفاز الدراكولا النموذجي بدأت فقرة مفتوحة للغناء. كان المتفرجون، يبادرون بانفسهم للغناء عند الميكرفون، ووجد فوزي ان نوري تفجرت فيه موهبة الغناء فجأة، واحاطت به بسرعة مجموعة من الشباب المهاجرين، من الذين يدورون في المهرجان بحقائبهم يبيعون الاقراط والخواتم. كان نوري يغني شيئا غير مفهوم لاحد، لكنه يبدو راقصا وممتعا. وسرعان ما دفعت ايادي من الحاضرين بنوري ليكون عند الميكرفون. لم يكن صوت نوري صالحا للغناء، لكنه كان منتشيا و مسرورا، وكان كريم ضمن مشجعيه والمجموعة التي اندفعت معه الى خشبة المسرح. كانت باولينا هناك في قمة فرحها. بثيابها الشرقية، المزخرفة بالزهور، والموشاة بخيوط ذهبية، واقراطها الكبيرة، تبدو وكأنها تؤدي دور غجرية شقراء في مسرحية هزلية. تعالى التصفيق لنوري من كل المتفرجين يشجعونه وهو يغني بخليط من الانكليزية والفنلندية اغنية ارتجلها على لحن عراقي فلكلوري، وسرعان ما تصاعد صوته بأغنية لا يعرف فوزي اين وجد نوري كلماتها الفاحشة:

جيناكم جيناكم... يا حيف ما نكناكم

جيناكم من بغداد... وعيورتنا مثل اوتاد

جيناكم جيناكم... يا حيف ما نكناكم

جيناكم من السماوة... وعيورتنا تتلاوة

وراح يتلفت حواليه، وكلما وقعت عيناه على احد الاصدقاء، يختار اسم مدينته ويرتجل له كلاما فاحشا يتناسب واسمها. كان نوري يلون الكلمات ويزخرفها، يخلط العربي بالفنلندي بالانكليزي، ولا احد يفهم عليه جيدا. وكانت باولينا قد حدست ما يفعل نوري فراحت ترجو كريم ان يترجم لها. حول نوري راح يدور مجموعة من الشباب والشابات الفنلنديين، اخذهم المرح، كان كريم وباولينا غارقين في الضحك حد ان كريم كان يمسك بطنه بكلتا يديه. ولم يكن فوزي مختلفا عنهم، فقد راحت خاصرته تؤلمه من الضحك. بيكا تويفنين الذي وصل متأخرا وورطه نوري بالكاميرا صار مصورا له ولحفلته الفنية المرتجلة. راح بيكا يدور بين الجميع ويلتقط للمجموعة الهائجة الصور من كل الاتجاهات. امرأة فنلندية صاحت من لا مكان:

- جن العراقيون!

وكان فوزي يرقب جنون نوري ومعه كريم وباولينا. شاركهم فوزي جانبا من جنونهم، رقص وغنى معهم، ونزع عنه ثوب الحزن والرزانة، كان مسرورا جدا لفرح اصدقائه.

٦

دار بيكا تويفنين، في ارجاء البيت. رصد المطبخ وصالة الانتظار. كل شئ مرتب. يمكن لكريستينا ان تفخر به دائما امام زميلاتها بكونه مدبر منزل شاطر. تحسنت صحة كريستينا كثيرا، وبامكانه تركها هذا المساء وحيدة، وتلبية دعوة فوزي للاحتفاء بقرب مغادرة كريم وسفره الى الاردن للقاء ابنته، بعد غياب طويل. تبدو له تذمرات زوج ابنته مؤخرا بلا معنى، بل سخيفة، بسبب ما يعانيه من مشاكل في موقع عمله مع مديره. قال لابنته بعصبية:

- زوجك مجنون، لديه النقابة والقانون والوثائق فلا يمكن لاحد ان يتجاوز عليه ويظلمه.

لكن زوج ابنته يصرخ متذمرا:

- هذه ليست حياة؟

ماذا يقول هؤلاء العراقيون اذن عن حياتهم؟ ربما ان زوج ابنته يريد ان تكون الامور اسهل من هذا بكثير، ان يضعوا له حقوقه في فمه بملعقة من فضة؟ ربما لا يتذكر كيف عاش اباؤه واجداده في زمن حرب الشتاء وحرب الاستمرار، وكيف كان الفرد لا يجد ملابسا تكفيه، ولا طعاما يكفي اطفاله؟ هل يمكن لزوج ابنته التمعن قليلا في قصة اي من اصدقائه العراقيين؟ بعد لقاءه بفوزي وكريم واصدقائهم، صار بيكا يفهم جيدا معنى نصيحة بوذا:

ـ لا تسأل الغريب مطلقا عن قصته، انها حزينة دائما. غالبا ما ينسى، لكنك لن تنسى هذا مرة اخرى!

يعتقد بيكا ان شاشات السينما ستمتلئ بالافلام الدرامية لو سجلت كل قصص العراقيين. اي قدرة لهؤلاء البشر على تحمل كل هذا؟ اي محن يمكن ان تكون اكبر من كون الانسان لا يدري بما يخبئه له المستقبل؟ يتذكر بيكا جيدا، كيف انه سهر الليالي، يقرأ العديد من المؤلفات والدراسات عن الشرق والعراق والاسلام، زار مكتبة جامعة هلسنكي، وابتهجت كريستينيا بأهتمامه المفاجئ، وجاءا حتى بترجمة للقرآن وقرأاها معا. كان يقول لكريستينيا:

ـ عل هذا يساهم في مساعدتنا للامساك بشئ، يساعدنا للاقتراب اكثر من اصدقائنا.

اذ يتذكر بيكا هذا، يعود بذاكرته الى ذلك اليوم ساعة ان سمع من فوزي تلك القصة الطريفة، وهو يرويها له بشئ من السخرية:

ـ حين بلغني خبر وفاة امي، عزاني جميع الاصدقاء، وحضروا مجلس العزاء في شقتي الصغيرة لمواساتي. انت تذكر تلك الايام الحزينة؟ كان وفاة امي امرا لم استطع اخفاء تاثيره على مزاجي وحالي. ولا انس زياراتك المتكررة لي ايامها، ولا يمكن نسيان موقف كريستينا الرائع يوم راحت تفتعل المناسبات حتى اكون بينكم ومعكم، ولا تتركني اقضي مساءاتي وحدي. صديقنا كريم كان في مقدمة الذين تاثروا وشاركوني الحزن، ربما لانه قابل امي وعرفها ولها منزلة خاصة في قلبه. كانت امي اخر انسان من المقربين الينا، ودعنا عند عبورنا الصحراء. رافقتنا ووصلت معنا الى اخر نقطة يمكنها الوصول اليها. في ايام حزني على امي، كان كريم على علاقة مع تلك المراة آريا، أتذكرها؟ لم يصبر عليها كريم طويلا فافترقا. كانت اريا تحاول ان تكون لطيفة ومجاملة معي تلك الايام. دعاني كريم الى المقهى القريب من المسرح الصيفي في كيرافا، ليس بعيدا عن "الجسر العباسي" كما يسميه صاحبنا نوري، هناك كنا نرتشف القهوة المرة، زرت مع كريم معرضا للرسم في الكاليري القريب هناك، وادهشني اللون في لوحات فنانة تعاني، مشاكل في بصرها، كان ثمة شئ غرائبي في اللوحات، وضربات في الفرشاة تبدو وكانها احتجاج على العالم وتحمل شيئا من غموض وتوتر المشاعر. كنا نتحدث عن ذلك حين وصلت اريا الى هناك. قبل ان تصل اخبرني كريم عن احتمال قدومها اذ اخبرها عن مكان وزمان لقائنا، واخبرها سلفا بأسباب حزني وحالتي. نزعت آريا قبعتها فانثال شعرها الهائج، ووضعت ساقا فوق ساق، فانتبهت لتناسقهما، وفهمت حرصها على ابرازهما كل حين. طلب لها كريم كاس بيرة مضاعف ارتشفته بسرعة دلالة عطشها. بعد ان دخنت سيكارتها الاولى، ولكسر

الصمت الذي كان يحوم حول جلستنا، تحدثت آريا وقدمت لي التعازي مثل اي سيدة محترمة. وتجاوبا مع حالة الحزن، حاولت اريا ان تكون مجاملة جدا معي، واصلت الكلام وفاجئتني بقولها:

ـ اقدر حزنك يا فوزي بسبب وفاة امك، انا اعرف الحزن جيدا، لقد جربته.

وشكرتها، شكرتها بصدق يا صديقي بيكا، وكدت الوم كريم مباشرة واعاركه امامها لكونه صار يتهرب من هذه السيدة الجميلة ويقول لنا:

ـ ليس لي عندها سوى سيقانها وما بينهما لان ذلك كل ما تملك.

الطريقة والنبرة التي قالت بها اريا جملتها جعلتني احدق مباشرة الى كريم، وعيوني تحمل اكثرمن سؤال واحتجاج. وواصلت اريا كلامها.

ـ حين مات "ويسكي"، حياتنا في البيت كلها تدهورت.

وتوقفت لتجرع شيئا من بيرتها، فوجدتها من جانبي فرصة للترحم على الميت، فلا يهم متى واين، فقلت:

ـ الله يكون بعونكم، العزيز دائما فراقه صعب.

فشجعها كلامي للاسترسال:

ـ جدا، يا فوزي، العائلة كلها صارت في فوضى، لم نذهب للمدارس ليومين، وحتى بعد اسبوع كنا نفاجئ جدتي بأنها تبكي احيانا بشكل سري.

فقاطعتها لاحاول ان ابين شيئا من تقاليدنا وعاداتنا العراقية:

ـ عندنا، يقولون ان البكاء على الميت واجب.

فأيدتني بهزة من رأسها:

ـ حقا، انا واختي، كنا بنتين في عمر متقارب وولد هو اصغر منا بعامين، كان في الخامسة عشر، وكان ويسكي مقربا منه جدا، نحن الثلاثة، لو تدري يا اخ فوزي كم بكينا يومها؟

ولا اعرَف لماذا خطر لي ان اسال:

ـ متى حصل ذلك؟

فقالت اريا بحماس:

ـ كنت في السابعة عشر من العمر، كنا نعيش بالقرب من محطة قطار كيرافا، مع امي وجدتنا ام امي، تصور لقد صادق ويسكي كل العاملين في المحطة، كان ذكيا، وغيورا، تصور كان غيورا جداً، كان طفلنا المدلل. والطريف ان جدتي في البداية كانت تدعي انها لا تحبه لكنها سرا كانت تلاعبه وتكلمه و...

والتفت الى كريم، في عيوني ثمة شئ بدا كريم يفهمه، ومن اجل ان يتوضح لي ذلك سالت اريا:
ـ وكيف تلاعبه؟
فعدلت من وضع ساقيها واندفعت للامام فكاد صدرها ان يندلق على الطاولة:
ـ كان ويسكي كلبا طيبا، لا يمل من اللعب، وقد دربه اخي على حركات كثيرة وطريفة، وحين كان يأتينا ضيوف، كنا نقضي وقتا طيبا ونحن نريهم مهارات ويسكي في القفز والمشي على قائمتيه الخلفيتين و...
والتقت نظراتي ونظرات كريم، ودفعة واحدة انفجرنا انا واياه في ضحكة، كانت قوية، حد ان اريا جفلت لها وقطعت كلامها وهي تنظر لنا بأستغراب، وتساءلت:
ـ ما بكم؟
ولم يستطع بيكا ان يحبس ضحكته ساعة سماع القصة، فأين حال فوزي من حال اريا؟
من تلك القصة وبيكا يحرص على محاولة الفهم الصحيح لحال اصدقائه. كان لا يتمنى ان يضع نفسه في موقف كموقف اريا. كان موضوع اختلاف العادات والتقاليد والثقافات الموضوع الساخن دائما في لقاءاته مع كريم وفوزي. تلك الحوارات تزيد من اقترابهما من بعضهما البعض. كان بيكا يرى كيف ان اصدقاءه ليسوا مبهورين بالحضارة الاوربية، بقدر ما يبحثون عن نقاط قوتها. احيانا يلمس عندهم بعض التعالي، خصوصا عند الحديث عن تاريخ الحضارات، يقول له كريم:
ـ حين اطالبكم بقراءة ملحمة جلجامش، فالامر يعود الى الايمان بأن هذه القراءة، للملحمة كتبت قبل اكثر من اربعة الاف سنة قبل الميلاد، لا تعلمنا فقط اشياء عن التأريخ البشري، بل وتساعدنا على معرفة معنى الحياة.
ويقودهما الامر للحديث عن موضوعهما الاثير: حوار الحضارات.
كان كريم يبدو لبيكا مسكونا بالامر. لايجد فرصة يتوقف فيها عن طرح اراءه ومعلوماته:
ـ حين جمع الياس لونرت اناشيد الكاليفالا، لم يكن في باله ان (هينري وادسورث لونغفيلو)[٩٩] سيكتب من بعده كتاب (هياواثا) كملحمةً وطنيةً أمريكية يجمع فيها بتاثير الكاليفالا اساطير الهنود الحمر. هكذا هو التواصل الحضاري.
ويسانده فوزي بدون تردد، حتى كأنهما يشكلان جبهة واحدة حين يجتمعان معا، وكانهما يقرأان في كتاب واحد:

ـ بأعتقادي ان النقطة الجوهرية والمحورية في الآلية المقترحة لايصال حوار الحضارات الى مستويات عملية ونافعة وواقعية، هو مناهج التعليم. الحديث عن تعدد الثقافات امرا يجب ان ينتقل الى مختلف مستويات مناهج التعليم بدل ان يبقى حبيسا في الندوات الاكاديمية.

هاهو كريم، الذي لم يكل يوما عن العمل والنشاط في ايصال افكاره، ليس الى تلاميذه، بل والى ابناء جاليته والى كل المساهمين في ندواته، هاهو يجد نفسه في حال لا يسر اصدقاءه. يلاحظ بيكا كيف ان فوزي، يحاول ان يخفف اضطراب وتوتر كريم بأكثر من اسلوب، وما دعوة هذا المساء الا جزء من هذا السعي. من الايام الاولى كان كريم مترددا جدا في الحكي عن نفسه. تطلب وقتا حتى توفرت لبيكا صورة عن حياة كريم السابقة، ليعرف جسامة ماسآته. وتطلب وقتا من كريم ليكسر جدران التحفظ ليحكي لبيكا عن همومه:

ـ ربما يبدو لك يا بيكا، عملية انفصال رجل وامراة امرا عاديا مثلما هو عندكم، وكلاهما ستكون له علاقاته الجديدة وحياته الجديدة، والزمن هو الطبيب كما يقول المثل الفنلندي، ولكن عندنا لا يمكن الهروب من الماضي، من تاريخ المشاعر، تصور حتى ان نساءنا ورجالنا في علاقاتهم العاطفية عندهم الغيرة لا ترتبط بالحاضر فقط، بل واحيانا تنتقل الى الغيرة من ماضي الطرف الاخر ايضا.

كان بيكا احيانا يجد حقا صعوبة في فهم كل شئ. رغم ان كريم وفوزي يشكلان حالة متطورة جدا، وليبراليين أجتماعيا قياسا بغيرهم من مواطنيهم، الا انه لا يمكن ان يفهم ان رجلا متحضرا مثل فوزي يصرح:

ـ لن اجرؤ على الزواج من امراة اوربية، ليس لعدم امكانية التجانس والانسجام، بل يمكن لعلاقة لي مع امرأة اوربية ان تكون علاقة صداقة ناضجة، لكن لتكوين اسرة، وفي النظر الى المستقبل، اجد معوقات كثيرة، واذ اطمح لان يكون اطفالي مرتبطين بجذوري فلابد ان تكون الام عراقية او من اي بلد عربي!

ويتسائل بيكا، اهو هذا الامر الذي يمنع كريم من التقدم خطوة اكثر في علاقته مع باولينا، التي التقاها مؤخرا كذا مرة، ويجدها حائرة لا تعرف ماذا تفعل؟ ويدرك بيكا ان كريم بذاته يبدو لا يعرف ماذا يفعل، رغم ان قراره بالسفر يكاد يكون حسما لحيرة طالت امامه. لكن السؤال ماذا سيكون حين يلتقي بزوجته؟ من سيكون الماضي بالنسبة له؟ اتبقى زوجته السابقة مجرد ماض جميل، ام ان باولينا ستنتقل لصفحة الماضي؟ وجد بيكا في باولينا امراة قوية، تدرك جيدا، حال كريم فلم تحاول ان تتحرك وفق غرائزها كامراة، ولا

وفق العواطف الانانية. كانت باولينا في احاديثها تدرك حجم مسؤولية كريم امام ابنته وامها. الامر عندها ليس حديث نظريات في حوار الحضارات واختلاف الثقافات، الامر يتعلق بحيوات ملموسة، وارتباطات عميقة لا يمكن لكريم الهروب منها. لم يفاجأ بيكا، حين اخبره كريم بان باولينا ساعدته في توفير بعض تكاليف الرحلة القادمة الى الاردن، واستقرضت له مبلغا من زوجة اخيها، التي لم تتردد في منح كريم القرض، ولكن بعد ان أصر كريم ان يكتب لها كمبيالة بالمبلغ ووقع عليها وباولينا كشاهد. في الخريف الماضي، وحين وصل الى فنلندا، ضيوف من لندن، وكانوا في ضيافة فوزي وكريم، حضرت باولينا معهم، وكانت خير دليل يتحرك مع الضيوف في زيارة الى بيت سيبيليوس، في منطقة إينولا. رافقهم بيكا الى هناك، والى عدة اماكن، ودعاهم الى جولة في الغابة لجمع الفطر. كان فوزي مسرورا بعرض خبرته التي اكتسبها بمرافقته مرارا في جولاتهم في جمع الفطر في الغابات المحيطة بكيرافا، بينما كان كريم يصرح مباشرة:

ـ بدون بيكا لا استطيع تمييز الفطر الصالح جيدا، انا اجيد اكله فقط.

والتفت اليه بروح منشرحة:

ـ انتم الفنلنديون لحميمية علاقتكم بالفطر ليس فقط موائدكم تزدحم باطباق الفطر، بل احيانا اخشى ان باولينا ربما يوما ستصحب الفطر معها الى سرير النوم.

وهو يرصد تلك العلاقة الشفافة بين كريم وباولينا، كان بيكا يعجب كونها امتدت فترة طويلة، ولكنها ظلت عند مستواها الاول. لم يتحركا نحو العيش معا رغم ان هذا كان يجب ان يحصل من فترة طويلة. الان مع مشروع سفر كريم الى الاردن، وتطورات الوضع في العراق، يرى بيكا ان حظوظ باولينا صارت اقل في استمرار الارتباط بكريم. يعتقد بيكا ان كريم سيختار جذوره. بتاثير عوامل الابوة والمسؤولية والحب لن يتخل كريم عن ابنته، ولن يتخل عن زوجته السابقة، ربما بتأثير الاحساس بالذنب. لكن ماذا عن الحب؟



تحرك الضابط البو فيلكمان بسرعة، على اثر استدعاء عاجل بالراديو. كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءا. تعلم خلال دراسته وعمله اهمية تسجيل الوقت. من درج في السيارة استخرج مفكرة جديدة، وكتب في الصفحة الاول: اليوم والتأريخ: الجمعة- ٧ اذار ٢٠٠٣. وسجل في مفكرته

الساعة ٤٩: ١٦ استلام البلاغ

الساعة ٥٤: ١٦ الابلاغ بالمهمة

طُلب منه التوجه حالا الى قرب المستشفى الجامعي. كل شئ كان في محله بانتظاره.

الساعة ١٧: ٠٩ وصول المكان

وصل البو فيلكمان على عجل. اصدر اوامره من سيارته ليسبقه الفريق الفني. اثر البلاغ العاجل تحركت الوحدة ٢٤، التي تستقل السيارة رقم ٩٠٨ ب ك ف، كانوا في دورية تقليدية، على امل التحرك بعد ساعة لتقديم العون والمساهمة في عملية مراقبة لمحطة بنزين في شرق منطقة أيرا، حيث وردت معلومات ان هناك ربما تتم عملية ترتيب تسليم شحنة سكائر مهربة وصلت عبر هلسنكي من استونيا وستنقل الى وسط البلاد. كان لقاء المهربين في المقهى المجاور. صدرت الاوامر بتشغيل كل كاميرات المنطقة للمراقبة، وزيادة عدد رجال الشرطة بالملابس المدنية في المكان. كان دور سيارة الوحدة ٢٤ تمويهيا، مجرد المرور بالمنطقة والدوران بشكل روتيني والابتعاد والانصراف لادخال الاطمئنان الى قلوب المهربين بأن الشرطة ابتعدت وان المكان خال. الاوامر التي وصلت الوحدة ٢٤ كانت قاطعة: "اتركوا المهمة الاولى، لدينا ما يكفي من العناصر في المنطقة. تحركو الى العنوان الجديد". جاء البلاغ الاول من الجار التركي، الذي رأى رجلا يغادر الباب الخلفي للبناية "٩ ب" بشكل مشبوه. كان مسرعا ويتعثر، واختفى بسرعة خلف المنعطف، تبعه بهدوء فلمحه يجري مبتعدا، واختفي تماما عن ناظريه بسرعة. اثار ذلك استغرابه وشكه، فعاد مسرعا الى البناية. لم ير الرجل من قبل. حسبه من مدمني المخدرات الذين يلجأون احيانا الى درج البناية الخلفي للنوم او لتعاطي المخدرات. صعد الدرج بتأن لم يجد ما يثير الانتباه. كانت زوجته واطفاله عند اخيها من يوم امس. عاد من العمل في المطار تعبا، من فترة وهو يعمل عاملا في المطار، كان يفكر بالنوم حالا، على امل الالتحاق بزوجته واطفاله صباح الغد فهو يوم عطلته وزوجة اخيه الفنلندية تهيىء حفلا صغيرا بمناسبة يوم المراة. وجد باب شقته مقفلا، لكنه لاحظ باب جارته المطلقة مواربا وغير مقفل. خشي الاقتراب من الباب، قال للشرطي الذي سجل اقواله:

ـ توقعت ان يكون الرجل الهارب لصا، سرق شيئا، قلت لماذا اورط نفسي؟

لكن الرجل التركي لاحظ ان العجوز في الطابق الارضي، التي لا تفارق شباك غرفتها، لمحته يدخل العمارة، وذلك قد يثير الشك حوله لو كانت هناك جريمة سرقة. كانت جارته المطلقة حذرة في التعامل معه، ولم ترد يوما عليه باكثر من التحية التقليدية، بينما كانت تحدث زوجته وكل نساء العمارة بحرية. اقترب من الباب وراح ينادي بهدوء:

- سيدة ثاوات؟ هل انت هنا؟

لم يرد احد- في تلك الاثناء مرت بقربه الجارة الروسية، القاطنة في الطابق الاعلى، في طريقها للخروج، وهي تحمل طفلها الاصغر الذي طالما تركته عندهم او عند الجارة المطلقة لترعاه اثناء غيابها. بادر الجار التركي وحكى شكوكه للجارة بسرعة. كانت الروسية على علاقة طيبة مع جارتهم، اللطيفة، التي طالما ساعدتها، عندما تخرج في مشاويرها، او مواعيدها. دفعت الروسية الباب، وهي تسأل:

- ثاوات؟

لكن ما ان انفتح الباب قليلا، حتى شق السماء صراخ المراة الروسية، الذي بلغ صالة المستشفى القريبة، واوردت ممرضة مناوبة انها تصورت ان الصراخ قادم من داخل صالات المستشفى لشدته. تراجعت الجارة الروسية مذعورة، لتسقط بين ذراعي جارها التركي، الذي دفعها وتقدم بحذر من الباب ودفعه بقوة، ليرى ما لا يمكن تصوره وتحمله. خلال دقائق وصلت الشرطة. قدم التركي اوصاف الرجل الهارب كاملة. متوسط الطول، ممتلئ قليلا، بنطلون جينز، وجاكيت اسود طويل. لم ير وجهه. كان يرتدي طاقية سوداء. العجوز قالت انها رات رجلا بملامح اجنبية، لكن بصرها لا يساعدها لتحديد ملامحه جيدا. عممت الاوصاف على وحدات الشرطة المتجولة. حين وصل الضابط البو فيلكمان المكان كانت الوحدة ٢٤ قد جمعت اقوال الجيران. تعلم البو فليكمان من خبرته العملية ان للمعلومات في التحقيق الاولي تأثير كبير على الوصول الى مفتاح القضية، واحيانا يكون كل المفتاح في تلك المعلومات. كان الفريق الفني يعاين المكان ويرفع البصمات من كل زاوية في الشقة. خصوصا المكان حول الجثة. كانت القتيلة بملابس الخروج. شابة جميلة، بجمال شرقي اخاذ. لاتبدو الجريمة من حوادث الاغتصاب. رفع البو فليكمان بهدوء بطرف قلمه حافة تنورتها ولاحظ لباسها الداخلي في محله. لا كدمات على جانبي فخذيها. لا كدمات على الوجه ولا رضوض ظاهرية. اربع طعنات وحشية وجهت لجسد القتيلة. بسلاح ابيض، يبدو على البلوز بقعة دم عريضة وسطها اثار نصل حاد رفيع. احدى الطعنات في الصدر جاءت في القلب تماما. تمر من اسفل النهد الايسر. لاحظ الطبيب الشرعي ذلك فورا، قدر انها سبب الوفاة المباشرة. لم تكن الطعنة في القلب هي الاولى. كانت طعنات البطن هي الطعنات الاولى. سجل الضابط البو فيلكمان كل ذلك. ثمة اثار عنف واضحة على فم القتيلة. اشار لها الطبيب الشرعي بطرف بنصره الذي افرده وحركه بشكل دائري حول فم القتيلة. القاتل كتم انفاس القتيلة بكف قوي ولم يترك لها مجال الصراخ. استخدم بلوزة نسائية لذلك. يبدو انها من ملابس القتيلة كانت في المكان. كانت الجثة ممدة بشكل مائل اقرب الى باب الخروج. الشقة نظيفة، ومرتبة. شقة امراة

وحيدة. لا يوجد اثر لعراك او مقاومة. سجل الضابط البو فيلكمان ذلك في مفكرته. القاتل فاجأ القتيلة عند الباب. ربما عند دخوله فورا. اذن القاتل على معرفة وثيقة بها. لم تمنعه القتيلة من الدخول. لا يوجد في المطبخ اثار اعداد قهوة او شاي. ولم تقدم لها عصيرا. الطاولة فارغة الا من صحف اعلانات. القاتل لم يجلس، لا توجد اثار جلوس على المقعد الطويل المرتب. ارتدى الضابط البو فيلكمان القفاز البلاستيكي بحذر، وفتح برفق دولاب الملابس، وتفحص الثياب بنظرات خاطفة. عطر فواح هادئ، ينم عن طبع غامض. مرر اصابعه بين ثنايا الملابس المرتبة، باناقة واناة. عند سريرالنوم، ثمة مرآة عريضة كبيرة تواجه السرير، تحتها تماما دولاب صغير، هناك ازدحم المكان بادوات التجميل. اقلام احمر الشفاه، عطور، ماسكات شعر، شامبوات، دهون يد، شفرات حلاقة نسائية، وصناديق صغيرة لحفظ الاكسسوارات. فتح الصناديق بهدوء، فوجد ثمة سلاسل ذهبية وقلائد، واقراط، وخواتم. لم يكن ارتكاب الجريمة بهدف السرقة. سجل ذلك في مفكرته. في دولاب الملابس لاحظ الضابط بين ثياب القتيلة مبلغ من المال. لم يكن كبيرا. اقل من ١٠٠٠ يورو. طلب من وحدة الشرطة ٢٤ ان تاخذ اقوال كل الجيران. واصل الضابط البو فيلكمان تفحص الشقة. وعاد لتفحص الجثة. لاحظ انها لم ترتد حذاء الخروج، رغم انها بشكل يوحي بالاستعداد للخروج. هل تكون قادمة من الخارج، وهناك من لاحقها ودخل الشقة بعدها؟ سجل السؤال ووضع تحته خطان. العجوز لم تستطع ان تقدم مساعدة حول وقت مشاهدة المشتبه به، لكنها ذكرت انها لم تر ثاوات خارجة ذلك اليوم. اذ كلما تخرج كانت تلوح لها بذراعها. الجارة الروسية كانت في صدمة متواصلة:

ـ لا عدو لها. من يفكر بقتلها. امراة رائعة، ممتازة. طالما تركت ابنائي معها، كانت تهتم بهم وبصحتهم، بينما كنت ازور صاحباتي او...

لاحظ الضابط البو فيلكمان البومات صور مرتبة في زاوية من الدولاب الداخلي. قلبها بسرعة، وطلب من عريف الشرطة ضمها الى اوراق التحقيق. كانت الدماء تملا المكان. لاحظت الشرطية وبذكاء وكانت اول من دخل البيت ان الطعنة في الصدر سببت رشاش من الدم اصاب الجدار المقابل. وقف الضابط البو فيلكمان قرب الجثة، في المكان المفترض لوقوف القتيلة وهي تتلقى الطعنات من القاتل، ادرك ان دم القتيلة لابد ان يكون لوث ثياب القاتل اثناء اندفاعه. سجل الضابط البو فيلكمان ذلك في مفكرته واضافه الى بلاغ البحث عن القاتل. طلب الضابط البو فيلكمان من المصور التقاط صورة لكل زاوية في الشقة. سمح باخراج الجثة وحملها الى المستشفى الجنائي من أجل تشريحها. وامر بقفل وحجز الشقة. سجل كل ذلك في مفكرته.

الفصل الثاني

١

ثلاثة ايام مرت، وكل شئ لازال ملتبسا وغريبا. من هو قاتل ئاوات؟ عدة احتمالات وردت في بال شاخوان، لكنه لم يشأ الاستعجال في الحكم على احد وتوجيه الاتهام لاي كان بدون ادلة ثابتة ونتائج تحقيق الشرطة. قال له كريم، بحزن شديد:

ـ يجب عدم ترك القاتل يفلت ابدا.

يتحدث كريم مطرود وكانه يعرف القاتل. الجميع يتحدثون وكأنهم يعرفون القاتل. دلسوز صاحت بوجه المحقق وهي تنشج:

ـ مهتمتكم القاء القبض عليه قبل اختفائه.

ثلاثة ايام مرت حين اتصلت به دلسوز. كان شاخوان عائدا من أيصال طلبية بيتزا الى احد البيوت. كان في مواجهة بناية الاطفائية، في الاستدارة تماما، ليس بعيدا عن المطعم، حين رن هاتفه المحمول. كان يوما رهيبا:

ـ اترك كل شئ بيدك وتعال الى البيت؟

احس شاخوان بشئ يعصر قلبه، وهو يستمع الى طلب دلسوز الغريب. صوت زوجته المرعوب، وهي تتحدث بلهجة يهجس فيها وكأن شيئا مريعا حصل. خطر في باله اطفاله. صرخ بدون ارادة، ويده ترتجف على مقود السيارة:

ـ هل الاطفال بخير؟

وأنزاح عن قلبه هم كبير وهي تشهق:

ـ الاطفال بخير، اعتقد ان ئاوات تعرضت الى حادث سيارة.

لم يسأل شاخوان، لماذا الى البيت، وليس الى المستشفى؟ تعرف دلسوز انها هاتفته يوم الجمعة، وتعرف ماذا يعني يوم الجمعة لمطعم بيتزا في ايام شهر اذار مع تحسن الجو وميله الى الدفء. حيث يتحرر الناس من بعض ملابسهم الثقيلة ويسعون لقضاء المزيد من الوقت خارج

منازلهم، وخصوصا ان السبت القادم هو يوم عيد المراة؟ يجد الفنلنديون في هذا العيد فرصة للفرح والاحتفال، وتزدحم بهم المطاعم والبارات، خصوصا ان هذا العيد صادف مع عطلة نهاية الاسبوع. هيأ شاخوان المطعم بصورة افضل. المزيد من الاهتمام بالنظافة، وضع زينة خاصة، عمل ترخيصات في الاسعار، ووجد فرصة في تنفيذ اقتراح نوري:

ـ لا يوجد شئ بدون تكاليف يا اخي شاخوان، ولكن المطعم سيحصل على زبائن اكثر، اذ يمكن اعتبار اقتراحي ضمن نشاط المطعم الاعلاني، وسيكون اسلوبا حضاريا جدا. في يوم ٨ اذار، كل طلب نرسله الى البيوت نرسل معه وردة، وكذا كل سيدة تدخل المطعم، يكون لها تخفيضات خاصة مع وردة. ومقدما احذرك، اذا وافقت على تنفيذ اقتراحي، فعليك جلب كميات اضافية من الورد، لاني ساوزع حسب مزاجي، فالمرأة الجميلة ساعطيها اكثر من وردة.

وجد شاخوان الاقتراح طريفا وعمليا جدا. تطوع كريم ومن خلال باولينا اتصلوا مع أخيها تيمو، واتفق شاخوان معه على شحنة من ورد الزنبق بتخفيضات خاصة. ومن اجل تجاوز الارباك والازدحام في العمل، بحث شاخوان عن عمال اضافيين. جاءه الانقاذ من فوزي حين اقترح عليه الاستعانة ببعض المعارف ممن يبحثون عن عمل خلال عطلة الاسبوع فاختار شاخوان واحدا منهم، شابا صغيرا هادئا ونشطا. وهكذا يأتيه طلب دلسوز المفاجئ وهو في غمرة التحضير ليوم استثنائي في العمل. من خلال حياته مع دلسوز، التي لم تطلب يوما منه شيئا خاصا بدون سبب واضح، عرف شاخوان انها لا تبادر الى هكذا طلب ان لم يكن هناك ما يستوجب حقا. حرك شاخوان سيارته بسرعة بأتجاه المطعم، متجاوزا حدود السرعة. اوصى رشيدي بادارة الامور في غيابه، وطلب من رزكار الاهتمام بايصال الطلبات حتى وصول نوري:

ـ ساتصل بنوري وانا في الطريق، وسأكون على اتصال معكم.

حين صار شاخوان على مقربة من محل سكنه، لاحظ سيارة الشرطة. لم يعر اهتماما لها. تحرك بسرعة بأتجاه شقته، ليجد ان الشرطة قد سبقته الى هناك. دارت الاف الاسئلة في ذهنه. هل هناك شئ ما يستيقظ من ماضيه البعيد وجاءت الشرطة لاجله؟ وما علاقة تاوات بكل ذلك؟ من سنين عديدة، ابتعد كثيرا عن صورة شاخوان المخادع، المحتال، البعيد عن زوجته واطفاله، وطلق كل اعمال الغش والخداع. ترك التعامل مع عثمان وفرمان واوقف اي نشاط له معهم او مع امثالهم. اوجد علاقات تجارية متوازنة ونظيفة مع ناس يسعون للحصول على رزقهم بطريقة قانونية وشريفة. لم يعد يخشى زيارات المفتشين الاقتصاديين المفاجئة، وكل اوراقه مع دائرة الضريبة سليمة، فكل شئ معه يسير وفق القانون. صحيح ان ارباحه لم تعد كما الاول،

لكن المطعم لايخسر ابدا، ويسدد التكاليف. وايضا اعماله التجارية الجانبية صارت تدر عليه ارباحا اضافية. تلعثم شاخوان وهو يرد تحية الشرطية الشابة، وهي تطلب منه رقمه الشخصي:

ـ ايمكن معرفة لم كل هذا؟

مع ابتسامة عريضة تفرش وجهها المنمش، قالت لهم الشرطية وهي تغلق دفترملاحظاتها.

ـ كل شئ سيكون واضحا بعد قليل. لا تخافوا. هناك امور لا املك حقا بالحديث عنها. يمكنكم استخدام سيارتكم وتتبعونا الى المركز القريب.

كانت دلسوز لا تتوقف عن طرح الاسئلة:

ـ هل اصابة ناوات قوية؟ هل اصطدمت السيارة بها بشكل جانبي ام من الخلف؟ هل تشوه وجهها؟ هل كسر شئ من عظامها؟ هل صدمتها سيارة صغيرة ام كبيرة؟

كانت الشرطية، تشعر بالضيق من الاسئلة، ولا تجد في نفسها القدرة على ايقاف دلسوز. طوال الطريق ظلت دلسوز تخمش وجهها. فبرزت خطوط حمر على طول خدودها. لم يشأ شاخوان منعها، وتركها تعبر عن نفسها كما تريد. كان المحقق شابا في مقتبل العمر. جلس قبالتهم، ينظر الى عيونهم مباشرة، ويدور بين اصابعه قلما فضيا بغلاف معدني. اجلسهم الضابط في زاوية من الغرفة الواسعة، شديدة الانارة. بعد الترحيب بهم، قدم نفسه. مسح باطن كفيه ببعضهما، وقال بوضوح:

ـ اريدكم تعلمون اننا سنسجل بالفيديو كل كلمة تقولانها، ونحن نتمنى تعاونكم حتى نتوصل بسرعة الى معرفة قاتل ناوات.

وصرخت دلسوز واغمي عليها. ظن المحقق ان الشرطية اخبرت دلسوز وشاخوان عن الغرض من استدعائهما. واعتذر منهما، وبدا مرتبكا قليلا، مع مشهد اغماء دلسوز المفاجئ. عنف الشرطية امامهم، التي هرعت لتسند دلسوز وتنعشها. لم تتوقف دلسوز عن البكاء، طوال فترة طرح المحقق للاسئلة. ابتدأ شاخوان الحديث، ولم يترك شيئا يعرفه لم يحكيه عن ناوات. تحدث شاخوان عن تفاصيل قصة ناوات مع زوجها عثمان. تحدث عن المضايقات التي تلقتها في حياتها بسبب سوء الفهم من الاخرين والشكوك والاشاعات التي راحت تنتثر حولها بدون وجه حق. تحدث عن طموحات وامال ناوات. تحدث عن جديتها وقوة شخصيتها وسلوكها المتزن. لم يستطع شاخوان تحديد احد بكونه القاتل. سأله المحقق عن علاقة ناوات باهلها. فهم شاخوان فورا، ان المحقق يفكر بكل جرائم الشرف التي حدثت في البلدان الاوربية، وارتكبها رجال شرقيون بحق بناتهم اواخواتهم او زوجاتهم، والتي نشرت عنها الصحافة ما يكفي من التحقيقات

والمعلومات والمبالغات. يعرف شاخوان ومن احاديثه الدائمة مع اصدقائه، ان الاجانب جلبوا نوعا جديدا من الجرائم لم يعرفها المجتمع الاوربي قبل وصول الشرقيين:

ـ ايعقل اننا لا نقدم للغرب الا ما يسئ الى صورة حضارتنا؟

قال شاخوان يسأل كريم، يوم قتل رجل كردي ابنته في السويد، وضج الاعلام في الحديث عن تفاصيل الجريمة. يتذكر شاخوان ان كريم رد باستفاضة:

ـ ذلك لعجزنا كجاليات في تقديم صورة ايجابية مشرقة مغايرة. لا توجد عندنا في المنفى مؤسسات ثقافية مؤهلة لهذه المهمة، بالرغم من وجود مئات الكوادرالثقافية والعلمية والاكاديمية، التي تجد نفسها مبعثرة تعمل بشكل منفرد دون مبادرة من طرف سياسي من اجل لمها في اطار مؤسساتي واحد. الاحزاب السياسية نشاطها سياسي وذو طابع شعاراتي، وغالبية جوامعنا عبارة عن ادوات تبشير ديني بل وكثيرا ما يكون تبشير سلفي او يكون نشاطها يتعارض مع طبيعة القوانين الديمقراطية لهذه البلدان. هكذا راحت جالياتنا تنكمش على نفسها في اطارات تبدو احيانا ذات طابع منغلق على نفسه، واحيانا متعصب، بعيدا عن امكانية الاندماج مع الاخر لتقديم ما يمكنه تغطية حادث جريمة بشعة.

ويظل سؤال من هو قاتل ناوات يعذب شاخوان. هل يمكن ان يفعلها عثمان؟ يعرف شاخوان ان رجلا مثل عثمان ليس بتلك الشجاعة. ليس من النوع الذي يمكنه المجازفة ويضيع منه كل ما جناه وانجزه لسبب مثل هذا. ولكن مع ذلك، لم لا يفعلها عثمان؟ رجل مخادع ولئيم وحاقد ولاينس ابدا اساءة احد له. ظل عثمان يعتبر رفض ناوات له وطلاقها منه، اكبر اهانة تلقاها في حياته. فلم لا يحاول قتلها للانتقام منها. وان لم يقتلها بنفسه، ربما يكون مساهما في جريمة قتلها؟ لم يستطع شاخوان التعبير عن هذه الافكار للضابط. لا يوجد تحت يديه دليل ملموس يشير الى تورط عثمان. هذه فنلندا ولا يمكن اطلاق التهم جزافا. القانون هنا هو السيد. بذل شاخوان جهده، ليعكس حقيقة حياة ناوات النزيهة، كونها الصديقة المقربة لهم، ويعرفون الكثير من تفاصيل حياتها. بدورها لم تنس دلسوز اثارة انتباه الضابط الى وجود محمود ابن عم ناوات الذي وصل السويد وظهر ككابوس في حياة ناوات:

ـ طيلة الفترة الماضية، وهو يجمع المعلومات عنها، يسأل كل عراقي يلقاه عن ابنة عمه. ناوات كانت تقول لي انه يفعل ذلك لانه يطمح للزواج منها. فكرنا معا بايصال خبر اليه، بأن ناوات لاتفكر في الزواج حاليا، وانها تريد مواصلة دراستها. من اول ايام وصول ابن عمها الى السويد، صارت ناوات تهتم لامر الزواج بشكل جدي، كانت تخاف ان يفرض عليها اهلها واخوتها زواجا لا

ترغب به، وكانت تطمح للعثور على شاب مناسب يخلصها من ابن عمها في حال تقدم اليها بعرض الزواج. كان يهم ئاوات جدا العثور على شاب يناسبها يسمح لها باستمرار حياتها على النمط الذي صارت عليه، وللاسف ان كثير من شبابنا لا يعجبهم نمط حياتها؟

وسأل الضابط وهو ينقر قلمه الفضي على طرف الطاولة:

ـ ما الذي لا يعجبهم؟

وتناولت دلسوز جرعة من الماء، بدأت تستعيد رباطة جأشها، انتظم تنفسها وصوتها:

ـ لانهم يرونها متحررة اكثر من اللازم. ئاوات صارت بشكل مغاير لما اعتادوه من المرأة الشرقية، لبسها وجدول اوقاتها وعلاقاتها وتفكيرها، كل شئ صار يختلف. صارت في جوانب عديدة تشبه اي شابة اوربية، ولكنها بنفس الوقت حريصة جدا على الحفاظ على سلوك نظيف ونزيه.

وبدون مقدمات، سأل المحقق، وكأنه ينتظر الفرصة المناسبة لهذا السؤال:

ـ الم يكن لها علاقات عاطفية، مع رجل محدد؟ هل هناك اشارة عن علاقات جنسية مع...

ولم تترك دلسوز الضابط يكمل سؤاله، انفجرت غاضبة:

ـ كانت ئاوات اطهر انسانة اعرفها، ومن يقول عنها عكس ذلك فهو من يجب التحقيق معه عن مقتلها يا حضرة الضابط.

لم يتدخل شاخوان في اجابات دلسوز. كان يريد من دلسوز قول ما تريد، وكان واثقا ان دلسوز لن تتوقف عن محاولة مساعدة الشرطة للعثور على قاتل ئاوات:

ـ قتلوها يا حضرة الضابط، لانه لا يمكنهم استعياب وجود امراة مثل ئاوات خارج نطاق سياطهم.

يشعر شاخوان بكلمات دلسوز تمس بسياط من نار اثار جروح لا تزال طرية في روحه. لم يكن ليختلف عن هؤلاء الذين تلومهم دلسوز، وتحملهم مسؤولية مقتل ئاوات:

ـ المراة عندهم ليست بانسان، هي مجرد كرسي، جاكيت، يمكن استبداله واستخدامه عند الطلب، ويمكن ركنه جانبا عند عدم الحاجة اليه.

شرب شاخوان ربما كاس الماء الخامسة، خلال جلسة الاستجواب، وفكر بأن الشرطة قد تفهم ارتباكه بشكل خاطئ، ويسبب له احراجا. وفاجأه الضابط:

ـ هل تعرف شناوة، نوري شناوة جيدا؟

وارتبك شاخوان. ما علاقة نوري بمقتل ئاوات؟ في التظاهرة الاخيرة ضد الحرب، لاحظ شاخوان كيف ان ئاوات اقتربت من نوري ووشوشت له شيئا. ضحكا معا. لم يفكر شاخوان وجود

شئ ما يمكن القلق منه. ليس لان نوري بدأ يتغير الايام الاخيرة، ولكن لان نوري كان ولا يزال يحاذر من علاقة مع اي أمرأة عراقية. في عيد نوروز السابق، عاركه بعد الحفلة مباشرة:

ـ يا ربي لماذا يا شاخوان ورطتني واخذتني الى الحفلة؟

ـ ما الذي حصل؟

ـ انا متعاهد مع نفسي، وانت الاعرف، ان لا اقرب من الصنف المحلي، لان كل ما بعده هو مشاكل وعقد ووجع رأس.

ـ والان؟

ـ الله يا رب العالمين، قابلت صورة ملاك نزل من السماء، او بلغة كريم مطرود كانت الالهة عشتار بلحمها وشحمها تمشي على الارض.

ـ كيف ؟

ـ عزيزي شاخوان، تقول رب العالمين خلق كل الكون بيوم واحد وبقية الايام كان مشغولا بخلق هذه الفتاة، ويرسم تفاصيل جسدها ؟

ـ لهذه الدرجة؟

ـ انت لم ترها، لو ان مايكل انجيلو وجواد سليم ومعهم فيصل لعيبي ومن لف لفهم مجتمعين لا يمكنهم نحت مثل جسدها. الجلد مشدود ومطلي بأشياء سحرية تجعله يلمع بلا ضوء، تناسق في الاطراف كأنها... لا اعرف ماذا، اما الطول يا سلام... يا سلام، طول مثالي بالنسبة لي، يعني اذا تمددت في السرير معها، وحصل الاشتباك والقتال، وسحبت اقسام البندقية، ستكون الفرضة مقابل الشعيرة تماما، فلا يمكن اخطاء الهدف، واما شعرها ياه... ياه النسيم ياخذ منه دروس في الجمال.

ـ وبعد؟

ـ اما صدرها، كيف اصف لك صدرها ؟ كل نهد كأنه خنجر منتصب، ولدي استعداد للانتحار هناك بدون كتابة وصية.

ـ لهذه الدرجة؟

ـ لهذه الدرجة، ولكن...

ـ لكن ماذا.

ـ تبين انها من جماعة فوزي!

ـ كيف؟

ـ ابوها احمر!

ـ وما المانع؟

ـ يا عزيزي، يا شاخوان، لي قرار قديم، وانت الاعرف، بان لا اقرب الصنف المحلي، والان يظهر لي صنف محلي وايضا احمر، هذا يعني اني طول العمر ساظل اسمع: قال الفيلسوف ماركس، والرفيق الخالد فهد، وقالت حقوق المرأة، و... لا عيني... لا... لا، وانت الاعرف، ابقى عازب احسن لي واكثر امانا.

ـ ولماذا كل هذا التعقيد، لو كان غرضك سليم وشريف وتعجبك البنت، تعرف عليها واخطبها، وبعد....

ـ من الان بدات اول المشاكل. أتعني ان حضرتك تفكر مثلهم تماما، تريدني اتزوجها فورا، انت تنسى من هو نوري؟ طير اسطوري حر في السماء، لا يمكن حبسي في قفص بيت زوجية ولا بامراة كزوجة، ولذلك لا اريد التورط مع اي صنف محلي. يا اخي، ما ان تتورط وتقول لواحدة من الصنف المحلي: انت جميلة. او تجازف وتقول لها: ممكن نلتقي؟ حتى تقول لك اذهب واخطبني من اهلي. ما لي ووجع الرأس. الصنف الاجنبي احسن واخف وجعا.

ـ يعني تريدها مثل الطالبة الفنلندية التي حكى عنها فوزي، تعيش مع صاحبها سنتين في شقة واحدة وسرير واحد، ويسألها فوزي كيف حياتك، هل هناك مشروع زواج؟ تقول لا تزال تعتقد انها بحاجة الى وقت للتفكير هل يمكن الزواج من صديقها ام لا؟

ـ بالضبط يا اخي، الصنف الاجنبي احسن. تلتقي وتعاشر وتفحص واذا تريد ممكن تجربته وتركه يعني مثل بضاعة المحلات الكبرى.

الان من يرى نوري لا يصدق بان هذا الرجل هو ذاته نوري السابق. بات نوري يتحرك نحو استخدام لغة جديدة، تكاد تختفي منه تلك الروح العبثية، واللاابالية. يكاد الامر يثير الدهشة. قاوم نوري كثيرا حتى يمكن السماح لامرأة بتحريك قلبه. عرف عشرات النساء الجميلات الفاتنات. فجاة يجدون نوري يهتم بامراة عادية جدا، بل واقل من عادية. ماذا وجد عندها، لتحوز اهتمامه؟ لابد من وجود شئ اخر غير جمال الجسد. مثلما قاتل ثاوات، اذا لم تكن جريمته لاجل السرقة، فلاجل ماذا؟ ايعقل ان ابن عمها الكلب هو القاتل؟ لكن ثاوات هي من ساعدت محمود الاقرع على الوصول الى السويد؟ اتكون قد عملت وشقيت ودفعت لفرمان بوند اجور جلب قاتلها؟ اشارت دلسوز امام المحقق مرارا الى شكها بابن عم ثاوات. المشكلة ان الامر مجرد شكوك. لا يمكن اثبات شئ. الشرطة وحدها تستطيع قطع الشك بالادلة. واذ راى شاخوان يوم

التظاهرة حديثا جانبيا بين ئاوات و نوري، لم يشك بشئ، لانه يعرف ئاوات جيدا، حتى لو كانت ثمة ملاحظات على سلوك نوري عند البعض. لم يكن شاخوان ليسمح لنوري بدخول بيته، لو لم يكن يدرك بان نوري يعرف حدوده ولديه خطوط حمراء. حتى دلسوز قالت له عدة مرات:

ـ لا يبدو لي نوري مثلما يحكون عنه، من انه زير نساء ومحتال، هذا رجل صامت، خجول، يضحك قليلا، ويسمع اكثر من غيره.

حقا، يبدو نوري غير ما هو عليه حين يكون بين العوائل والناس. يعود الى نفسه تلقائيا. يجده شاخوان يقترب من شخصية نوري المختفية تحت ستار التهريج والعبث. يكون ببساطة نوري الحقيقي، الشفاف والهادئ. ويبدو ان ئيفا، هذه الفتاة الضئيلة الجسم، تمكنت من التاثير على نوري بشكل ما ليستيقظ في داخله نوري الحقيقي. لم يفاجأ شاخوان حين جاءه نوري، بعد المظاهرة بأيام، ليقول له:

ـ تعاهدنا انا واياك على الصراحة والصدق، وثمة انسان كلفني بمساعدته في قضية بسيطة، ولكن ذلك سيجبرني على الكذب عليك، وحتى لا تذهب بك او بغيرك الظنون، ساكون مجبرا لاحكي لك ما كلفتني به الاخت ئاوات، وطلبت ان يكون بدون علمك لاعتبارات معينة.

عرف شاخوان بقضية الستالايت. وحين عرض المحقق صورة نوري، و قال:

ـ الهاتف المحمول لئاوات يحمل مكالمات عديدة في الايام الاخيرة، ما بين القتيلة ونوري شناوة. ماذا تظن باعتقادك سبب هذه المكالمات؟

تبادر الى شاخوان موضوع الستالايت فرواه للمحقق. كان امرا طريفا. في الفترة الاخيرة، بدا شاخوان يوسع من اعماله، بدأ يستفاد من المطعم كمكان وكمكتب للتجارة الخارجية بالجملة والمفرد. بدا يتعامل بصفقات بسيطة. اجهزة كومبيوتر محمولة، اشرطة فيديو فارغة، غسالات منزلية صغيرة، اثاث منزلي وغيرها. يدفع عمولات بسيطة ليشتري اجزاء من صفقات صغيرة. ويجد زبائن من بين معارفه. كثيرا ما يقصده البعض يبحثون عن سلعة او بضاعة، وحالما يوفر عددا منها، حتى يجد له زبائن اخرين بسرعة. اشترى نوعا من مصابيح النوم، من النرويج. عرف بوجودها من خلال مهدي، احد اصدقاء فوزي الذي زار هلسنكي، وبقي اياما في ضيافة فوزي، وعرضا تحدثا عن الامر. تطوع شاخوان واوصله بسيارته الى المطار، وكان مهدي مسرورا حين طلب منه شاخوان توفير بعض هذه المصابيح وشحنها له على عنوان المطعم. حصل على مجموعة تكفي لغرفتي نوم، بعد اسبوع وصلته من عدة عوائل طلبات على هذه المصابيح. كان من مصلحته ان هناك نوع من النساء واحدتهن لا يمكنها النوم، وهي تعرف ان صاحبتها تملك شيئا لا تملكه بنفسها. يسخر نوري من هكذا نساء، ويردد بفوضى:

ـ ان كانت لك زوجة من هذا النوع، فأياك ان تحدثها عـن الحجم الكـبير لقـضيب صـديقك، ستحاول امتلاكه!

كانت مصابيح النوم ضربة حظ جيـدة. قـدم شـاخوان لـصديق فـوزي عمولتـه مـع هديـة، واستطاع توزيع بضاعته الى اكثر من ثلاثين عائلة، جلبت له ارباح مناسبة سـاعدته لاسـتبدال سيارة دلسوز بواحدة افضل، سماها نوري لهم "مصباح الهناء". المسكينة ثاوات اقترحـت عليـه توسيع اعماله التجارية، وقالت له بين الجد والمزاح:

ـ كثيرمن العراقيين في فنلندا يعملون في البيتزا، فكر يا شاخوان معي، اذا سقط نظام صدام حسين، هل ستصدر بيتزا الى العراق وكردستان؟ اعتقد عليك التفكير بالمستقبل. المطعم مشروع رابح ومضمون لو اردت العيش طول عمرك في فنلندا فقط، لكن اذا كنت تفكر حقا بالعودة الى وطنك، فكر كيف يمكن خلق علائق تجارية مع موطنك، وانا مستعدة بعد انهاء دراستي العمل معك في شركتك الجديدة للاستيراد والتصدير ولكن كمدير عام و ليس اقل!

بدا شاخوان يقتنع شيئا فشيئا في افكار ثاوات. بدأ يقنع نوري، بمشاركته العمل في هذا الاتجاه لتوسيع اعماله، وبدأ يجد له شركاء خارج اطار عمل المطـاعم والبيـزا. كـان يلـتقط اخبار البضائع من الانترنيت ومن المعارف. صارت دلـسوز تقـضي وقتهـا عنـد الانترنيـت لتضع امامه كل مرة قائمة ببعض البضائع المطروحة للبيع. كان الشراء عبر الانترنيت اقل تكلفة من غيره. يشترط عليهم ارسال البضائع مفردة، واحيانا يرسل رشيدي الى سـتكهولم لاستلامها والعودة بها، ولكنه غالبا ما يرسل نوري، خصوصا داخل فنلندا. يجدها رشيدي فرصة لزيارة اخته وانجاز المهمـة، ويجـدها نـوري فرصـة للـهروب مـن هلـسنكي والاخـتلاء بنفسه. بدأ شاخوان يتعامل بتوفير الستالايت لطالبيها، وصار له زبائن كثيرين بين العوائل الشرقية. اعتمد قاعدة لنفسه في مبيعاته، بوضع هامش ربح بسيط، فيحصل على زبـائن اكثر من غيره، ويعزز اسمه بين الزبائن. اتفق شـاخوان مـع نـوري علـى اخبـار ثـاوات بأنـه اشترى الستالايت لها بتخفيض عال، وحقيقـة الامـر باعـه لهـا بـسعر التكلفـة فقـط. بعـد التظاهرة الاخيرة، حين التقوا جميعا في بيته، كان مكان جلوس نوري بعيدا عن مكان جلوس ثاوات، ولم يلحظ شاخوان حديثا خاصا ما بين ثاوات ونوري. لم يشعر بأن هناك شـيئا اخـر غير قضية الستالايت بين نوري وثاوات. هل يظن المحقق ان ثمة علاقـة مـا تـربط بـين نـوري وثاوات؟ مستحيل!

٢

يدور نوري في شوارع هلسنكي بسيارة مطعم شاخوان، بعد تسديد بقية تكاليف شحنة الورد، وجد عنده بعض الوقت للتجول في منطقة ما حول الميناء، والقاء نظرة على البواخر والزوارق والبحر. في حقل الورد، وهو يوقع على الاوراق والايصالات، لاحظ نوري كيف ان تيمو، لا يشبه في ملامحه اخته باولينا كثيرا. فهل هما من ابوين مختلفين او من أمين مختلفتين؟ ولكن كيف له سؤال باولينا عن ذلك، وهو ربما لن يلتقيها بعد ذلك. غدا سيكون سفر كريم، وهو يوم حزين لباولينا، فهذه المرأة صار كريم بالنسبة لها، كل حياتها. حياة نوري جعلته يعرف النساء جيدا الى حد ما. اصدقاؤه يعجبون من قدرته على تمييز النساء، ولم يكن امرا يحتاج الى خبرة خاصة. الامر يتعلق بالمراقبة والرصد وامكانية معرفة الصدق والكذب في حياة الانسان. لا يميل الى تلك التفسيرات التي يقدمها علماء النفس. اذا حك محدثك طرف انفه فهو يكذب عليك. واذا حكت المرأة طرف شفتها العليا بطرف اظفرها، فانها تبالغ قليلا. ما هذا الهراء. كل شئ يعتمد المنطق. الحقائق يفرضها المنطق. يعجب معارفه دائما منه، حين يكونون في مرقص ويعجب احدهم بامرأة ويحاول الاقتراب منها لاستدراجها، فيقول له:

ـ اتركها، لا تنفعك هذه الليلة، انها في فترة دورتها الشهرية.

ويكذبه اصدقاؤه، يضحكون منه، ويصرخون به:

ـ هل انت زوجها، ام حارس ملابسها الداخلية؟

ويندهشون حين يكتشفون بطريقة ما انه على حق، والامر بالنسبة اليه بسيط جدا. لا يحتاج الى اكثر من ملاحظة طريقة مشي المراة. علمته مراقبته الدائمة، وعلاقاته بالنساء، كيف تكون حركة اقدام المراة، وكيف تكون انفراجة ساقيها في مختلف الاوقات. كان يبني استنتاجاته على مراقبة وممارسة كبيرة. يجلس الى أمرأة لا يعرفها، ويسألها عن الوقت. من جوابها، من صوتها، من نبرته، وطريقة لفظ الكلمات، وحركة العيون والاصابع، يمكن تقدير شيئا ما عن شخصيتها. ويحدد لنفسه التوقف او المضي في الاسئلة معها. هل هذه المراة راغبة بأستمرار الحديث ام لا؟ كانت عيون باولينا، أحد المفاتيح له، لمعرفة صدق هذه المرأة في عاطفتها نحو كريم. حين مرض كريم، واصابته الحمى وجعلته يهلوس بطريقة غريبة، هاجت هذه المرأة وشعرت بشئ من الغيرة، لانه وفوزي قضيا وقتا اكثر منها في رعاية كريم. كان نوري يلاحظ كيف صارت تسعى للتقرب اليه كمحاولة لفهم كريم اكثر من خلال فهم اصدقائه. صار نوري يتابع تلك الاحاديث والنقاشات الدائرة بين فوزي وباولينا، وكان يفهم اعجاب فوزي حين يسمعه يقول لكريم:

ـ صارت باولينا تعرف عن مشاكلنا وهمومنا اكثر من كثير من بعض العراقيين.

لم يكن فهم كريم بالنسبة لها، يقتصر على ما تفعله بعض الاوربيات، بلبس ثوب شرقي، او بتذوق اكلة شرقية، الامر عند باولينا اكبر وابعد من الثوب والاكلة وقطعة الموسيقى، الامر يتعلق بمحاولة الاقتراب من الانسان، من خلال فهم همومه، فهم تأريخه. اخذه فوزي مرة عنوة الى احدى الندوات في جامعة هلسنكي، كان الاستاذ المحاضر، من زوار البلدان العربية، ويعرف كلمات عربية كثيرة، وجلس تحت لوحة كبيرة احتلت تقريبا كامل الجدار للرحالة جورج والين، كتب على جانبها بلغة عربية "الحاج عبد الوالي"، وتذكر نوري كيف اخذهم كريم يوما جميعا لزيارة قبره:

ـ هذا الرجل عرف عن الشرق وعن بلادنا الكثير، اتدرون وهو في طريقه من الجزيرة العربية الى ايران مر ببغداد، وخلال طول رحلته هذه جمع مخطوطات عربية نادرة تعتبر ثروة حضارية والان محفوظة في جامعة هلسنكي تنتظر من يكشف الغبار عنها.

كانت صورة الحاج عبد الوالي بلحيته وعمامته تجعله يبدو لنوري كأنه ملا حسين، ولكن بدون نظارات طبية. في القاعة جلس قريبا الى كريم وباولينا العديد من المعارف. كان هناك عباس جامعة، يوسف ابو الفوز، حسين الزوراني، الطبيب زراد شت، سالار صوفي، سالم غفور، شادمان علي، واخرون. دارت احاديث كثيرة حول حوار الحضارات والتلاقح الحضاري. قال نوري لفوزي وهم في طريقهم الى المحاضرة:

ـ يا اخي اتركوني، احقق التلاقح الحضاري بطريقتي الخاصة، وهي مجربة وناجحة وعملية جدا، واكثر رومانسية.

يعرف نوري تماما، بأن فوزي، لا يريد فرض اراء ما عليه، لكنه يريد اخراجه من لا اباليته كما يسميها. في قاعة المحاضرات، واذ بدأت النقاشات، وكان لكريم مطرود صولة فيها، فوجئ نوري بباولينا وطريقتها في النقاش، والحديث عن امور بدت له لا تتناسب مع كونها معلمة في روضة للاطفال. لم يكن ذلك بتأثير كريم، ولكنه مترافقا مع علاقتها به، بل شعر نوري بأن ذلك من اسباب اعجاب كريم بهذه المرأة. في لقاءات عديدة، كان نوري يحاول رؤية شخصية المرأة المجردة في باولينا. كيف تلاحق بعينيها الخضراوين كريم، حين يتحدث مع امرأة غيرها، او حين يرفع بصره صدفه ويقع على امراة قادمة او مدبرة. كانت تراقب بمكر اتجاه نظرات كريم. ضبطها نوري مرة، والتقت نظراتهما، فارتسمت ابتسامة على شفتيها، كانت عينيها تقولان له:

ـ من حقي ضبط نظرات رجلي.

في الاحاديث القصيرة، التي كان يجريها معها، لم يتطرق يوما، الى خصوصيات علاقتها مع كريم. واذ يتحدثون عن اوضاع العراق، ومأسيه، وحال الاهل، ويرد ذكر ابنة كريم، لم يلمس يوما انزعاجا منها. يدرك نوري حيرة ومسؤولية كريم، وهو يجد نفسه بين باولينا التي قدمت له الكثير، وبين ابنته وامها اللذين عانوا بسببه الكثير. هاهو يحزم حقائبه بشكل جاد لتحقيق احد احلامه الذي تعثر اكثر من مرة. بعد غزو الكويت، فكر كريم بلقاء ابنته، لم تعثر على رجل مُحرم يسافر معها وامها. حين بدات بالبحث توجهت اليها انظار رجال الامن، وسؤال:

ـ ما سبب السفر؟

خشي الجميع معرفة رجال الامن بغرض الزيارة الحقيقي، وعندها ستكون الكارثة، فالغى كريم المشروع برمته. وانقطعت الاتصالات لفترة بين كريم وابنته. يخشى كريم جدا الاتصال المباشر بأبنته، وكان يحذر كل من يجازف للاتصال بأهله:

ـ انت موجود في اوربا في امان، وهم هناك بمواجهة فوهات الموت. اصبر يا اخي، ودع الناس تعيش بدون خوف من طرق الباب فجرا.

اتفق نوري مع شاخوان على اخذ سيارة المطعم لينقل كريم الى المطار صباح الغد. من سيكون في وداع كريم؟ لا يعرف نوري بذلك. هل ستكون باولينا في وداع كريم؟ وماذا عن عملها؟ وحتى لو كانت هناك، امن المعقول سؤالها وفي اجواء الوداع والحزن سؤال مثل لماذا لا يشبهك اخوك تيمو؟ يدرك نوري ان الفنلنديين عمليون جدا. يمكنك سؤالهم في اي وقت تشاء، اي سؤال، المهم ان يكون سؤال ذا معنى، وضروريا، وليس سؤالا يبدو سخيفا. المهم ان السؤال يحرك شيئا في عقل الانسان. يحرك شيئا ما مثلما حركت في داخله ثيفا عوالم مدفونة. من اين جاءته هذه ال ثيفا؟ من اي جبل هبطت كحجر جبار يحرك سكون مياه بحره؟ كان خالي القلب، ساهيا عن كل ما يدور. لا يوجع قلبه بهموم الاخرين. امات قلبه ودفن عواطفه هناك، في شوارع البصرة، يوم شعر بالخذلان والخيبة، وهو الذي اجبر سنوات على خوض حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، وحمل منها جرحا كتذكار كثيرا ما كان محور حديث من يراه، هناك وحين انكسرت شوكة المقاومة وفقد الامل بأمكانية التغيير، ومع اجتيازه لحدود العراق بأتجاه صحراء العربية السعودية، ومخيمات الضياع في رفحا، انتهج لنفسه فلسفة جديدة. العيش بشكل اخر. وجاءته هذه المرأة الضئيلة، لتكسر ايقاع حياته. ثيفا دون معرفتها بما تفعل تكسر في داخله تلك الشروط القديمة التي وضعها لنفسه حول النساء ويثقف بها معارفه:

ـ النساء كلهن انواع بنات كلب، اما نوع للزواج والاسرة وهذا نوع لاشأن لي معه، او نوع للدعارة وهؤلاء لا مصلحة لي عندهن، او نوع خلق للحب فقط، وهذا نوعي المفضل، ولكن عندي يجب ان يكون من نوع الحب العابر وبدون التزامات.

مشكلة نوري تبدو له بأن ثيفا امرأة خارج كل الانواع. امراة مسكينة، مظلومة، مهانة. انسان قسى عليه الزمن، ووضعها بين فكي وحش بصورة انسان، استغل انسانيتها ومسخ شخصيتها بعدما زرع فيها مشاعر الخوف. حين زارته ثيفا لاول مرة في مطعم "نيران نوروز"، لتعيد اليه نقوده، شعر ببساطة وطيبة قلب هذه الفتاة المسكينة. كان المبلغ تافها، وان اي امراة غيرها، كان يمكن ان لا تري وجهها لاحد صار شاهدا على مشكلة لها. لا يحب الفنلنديون اشراك غريب، بمشاكلهم والاطلاع على اسرارهم. هذه المرأة، مرة واحدة، وجدها نوري تضعه وسط دوامة حياتها ومراراتها. شئ خفي في داخلها يدفعها لتروي له كل هذه التفاصيل المريعة عن حياتها، على خلاف كل النساء الفنلنديات، قليلات الكلام عن ماضيهن ومستقبلهن البعيد. الحاضر هو ما يشغل كل واحدة منهن، وماذا سيحصل لها في المستقبل القريب؟ احاديث ثيفا المروية ببساطة، ودون تزويق، ومكشوفة بكل الالم الانساني، والاحساس بالمهانة والمذلة، كانت اشبه بالصدمة لنوري. صدمة من نوع خاص. هناك ناس مظلومون في كل مكان. ليس بسبب السلطات الديكتاتورية وبسبب الحروب، بل وبسبب سلوك انساني اخر، حتى وان كان بعيد اعن السياسة والمصالح والايدلوجيا. وجد نوري ان بامكانه الاخذ بيد ثيفا، هذه الانسانة المخذولة لتقف على قدميها من جديد، اراد ان يكون المخلص، المنقذ، لتكون لثيفا حياة جديدة، لكنه لم يكن يدري بان هذه الفتاة ستكون هي من ياخذ بيده وتدعوه للخروج من مستنقع رمى نفسه فيه لسنوات طويلة. في لقاءاته مع ثيفا، انتبه نوري، الى انها المرة الاولى التي لم يكن ينظر الى امرأة من منظور الجسد والشبق والجنس. لا يبدو له جسد ثيفا حتى مثيرا جنسيا. طوال سني نضجه الجنسي وهو يشتهي النساء ذوات النظرات الجريئة، الفوارة بالشهوة، الممتلئات الارداف، وذوات الصدور العامرة، الممشوقات القوام، والسيقان الطويلة الملفوفة، والبطون الضامرة. لطالما كف عن الاستمرار في مجاملة ومصاحبة امراة يجدها ببطن ظاهرة. كان يقول بصوت عال:

ـ اذا كرشت المراة فماذا ستترك للرجل؟

كان احيانا يتجاسر في حلبة الرقص، او عند طاولة المشرب، يمد يده ويتحسس بطن جليسته، واذ تنظر اليه مذعورة او دهشة، يقول لها:

ـ لم استطع تمالك نفسي، اردت ضمان ليلتي.

لم تكن ئيفا تملك من هذا شيئا. ماعدا بطنها الضامرة، وهي تحصيل حاصل لجسدها الصغير، الضئيل. كل مرة يراها ناعمة وجلة مثل عصفور مبتل. رمانتا صدرها تبدوان صغيرتين، يمكن التهامها بالفم دفعه واحده، لكنه في عينيها المترعتين بالخوف والقلقتين يجد ثمة شيئا بهيا يختبأ تحت رماد الانتظار لقدوم من ينفخ فيهما لتتوهج الروح. يرى نوري نظرات الاستغراب في وجه شاخوان وهو يرى اهتمامه بهذه الفتاة، التي تبدو له من غير الصنف المفضل عنده. لا يعرف الاخرون بحقيقة أحساسه نحو ئيفا. شاخوان يتصور انه مغرم بها، وانه عاشق ولهان. لكن شاخوان لم يحاول التدخل بشئ، وفي المرات القليلة التي جاءت ئيفا الى المطعم بغيابه احترمها شاخوان وتعامل معها بكياسة، ولكنه لم يستطع الصبر كثيرا فصاح به غاضبا:

ـ يا اخي علمها تمشط شعر رأسها.

ولم يكن نوري معنيا بملاحظات شاخوان او غيره، كان يهمه تلك المشاعر التي بدأت هذه الفتاة، القصيرة، تحركها في داخله، التي لا تعرف كيف ترتدي ثيابا انيقة. ثمة شعور بالمسؤولية صار يتحرك في داخله. لا يشبه شعوره بالمسؤولية تجاه عمله مع شاخوان او شعوره بالمسؤولية تجاه صديقيه كريم او فوزي. شعور بأن هناك امكانية فيه لان يكون جدارا لانسان يبحث عن مكان للاستناد اليه. حياة صاخبة، مرت، ليس فيها سوى المتع العابرة، والرغبة بان يكون الاحسن والاول عند النساء. مشاعره تجاه ئيفا، لا يمكن حتى وصفها بالحب، كما يحكون في القصص والافلام. انه شئ اخر. مثلما كان يعيش حياة اخرى على هامش حياة الاخرين، صار يشعر بأن ئيفا تثير فيه احساسا اخر. حين يلتقيها، يرى كيف تأتي متلهفة، مرتبكة. تجلس قبالته وتحدق الى عينيه وتنتظر كلامه. وتتحدث معه مثل طفلة. تبدأ بجمل متقطعه، ثم تنتظم عباراتها، وتسترسل بوضوح. مرات عديدة، وجد نفسه يطلق تعليقات ما ساخرة، فيجدها تبتسم، ثم تضحك بجذل. ينتابه شئ من الراحة الداخلية، وهو يرى هذه الفتاة سعيدة بلقائه واحاديثه. حين تحدث مع كريم مطرود عن ئيفا، انتبه نوري الى كون كريم يشّرح الامور، وكانه طبيب ماهر:

ـ انا سعيد يا عزيزي نوري، بكونك تراجع نفسك، بأي شكل كان. هذا عملية صحية جدا بل وواجبة. وافهم الى حد ما شيئا من سر اهتمامك بهذه الفتاة، انا لا اعرف تفاصيل كثيرة عنها، بقدر ما حكيت لي كونها وحيدة، ومستلبة، وتعرضت الى ظلم اجتماعي من ناس كانت تعتبرهم مقربين اليها. اعتقد ان هذه الفتاة نجحت في تحريك شعور المسؤولية داخلك تجاهها. ارجو

لا تؤاخذني، من الاشياء التي لم تكن تعجبني فيك، هو هذا الشعور بالتعالي وعدم المسؤولية تجاه الاخرين، وهذا السلوك المضطرب في حياتك. الان ارى انك تهتم لامر هذه الفتاة ، ليس لكونها امراة، وتنظر اليها كجسد وفقً غرائزك، بل لكونها انسانا مظلوما، بحاجة لمن يسانده ويحميه ربما. القانون لا يكفي وحده لحماية الانسان. الانسان كائن اجتماعي، بحاجة لان يشعر بأنه على تواصل دائم مع انسان يفهمه ويحميه. تعرف ان فنلندا واحدة من بلدان العالم التي تكون دائما في مقدمة دول العالم في نسب الانتحار. البعض يحاول عزو ذلك الى اسباب المناخ، الظلام الدائم والكآبة، وكأن الامر نفسي، او حتى وراثي. لا، هذا شئ من الوهم والتضليل. اخبرتني باولينا عن دراسة جديدة تابعت لفترة عقد من الزمن الحالات الاجتماعية للمنتحرين، وجدت الدراسة نسبة كبيرة منهم ممن يعيشون لوحدهم بدون شريك، ونسبة عالية منهم تدمن الخمرة قبل الانتحار، ونسبة كبيرة منهم بدون عمل. الدراسة نفسها، رصدت اسباب الانتحار بين الاجانب المقيمين في فنلندا، خصوصا القادمين من الشرق، وجدت بأنها منخفضة جدا قياسا بغيرهم. سبب ذلك من وجهة نظري ان الاسرة الشرقية التي تمتاز بكبرها تلعب دورا كبيرا في بسط نوع من الحماية للشخص وتطرد عنه مشاعر الوحدة، وايضا الكآبة، رغم ان نسبة كبيرة من الاجانب كما تعرف يعانون من البطالة. الشرقي المقيم في فنلندا ربما يكون حزينا، لكنه ليس بالضرورة مصابا بالكآبة. وهناك فرق هائل. فتاتك، اعتقد قلت لي ان اسمها ثيفا، نعم ان ثيفا وجدت فيك الشخص الذي يمكن حمايتها من الوحدة، من كوابيس الماضي، ليس بالضرورة كخليل، بوي فريند، او كزوج حتى، بل كأن تكون لها أخا او صديقا مقربا وحميما أو غير ذلك.

٣

فتح فرمان عينيه غير مصدق بما يجري. يبدو له الامر مثل كابوس غريب وكئيب. ايكون حقا راقدا في المستشفى؟ غادرته ترزه بعد اطمئنانها عليه. منع الطبيب احد من مقابلته. من يومين وهو راقد هنا، وكل ساعة يطل طبيب ليراقب الاجهزة التي لا عد لها في ارجاء الغرفة. لم يفهم شيئا مما يجري. حتى جاء الطبيب زراد شت. في البدء انزعج من وجوده. طبيب كردي عراقي، ربما يكون سببا ليعرف الناس بحالته، وربما يربطون بينها وبين مقتل ناوات، او ينبشون في الاسباب ويعرفون الحقيقة. لكنه ترك انزعاجه من الطبيب العراقي، اذ تذكر ان ترزه الان لم تترك احدا، لم تخبره باصابته بذبحة صدرية ونقله الى المستشفى. الطبيب العراقي ساعده في معرفة سبب الابقاء عليه تحت المراقبة. طبيبه الفنلندي قال له ان حالته

تجاوزت مرحلة الخطر، وهناك ضرورة بقائه لاجراء بعض الفحوصات. الا انه لم يعرف طبيعة الفحوصات، وبعد قراءة ملفه اخبره الطبيب زراد شت عنها. قال له، انه يعمل في مستشفى اخر، وهو هنا في اعارة لمدة شهر. رغم ان فرمان يعرف نفسه بأنه قليل الثقة بالناس، الا انه يثق بالاطباء. لامه الطبيب الفنلندي لانه اهمل مراجعة الاطباء حين كان يشعر بتلك الالام في اعلى البطن واسفل الصدر. بعد الاشعة تبين له ان هناك ايضا حصاة في المرارة. ولطمت ترزه امام الطبيب. بعد الذبحة الصدرية، يكتشفون عند فرمان حصاة في المرارة. كلها تجتمع مرة واحدة، في وقت كانت ترزه تخطط فيه للسفر الى كردستان عبر طريق سوريا. شعر فرمان بان ذبحته الصدرية ستتحول الى جلطة قلبية اذا استمرت ترزه بالنواح وكأنه عامدا تمرض ليعرقل سفرها. كان جالسا كعادته في المقهى، القريب من محطة القطار، بعد يومين من مقتل ناوات. وكان هناك جدل حول الشكوك في من يكون قاتل ناوات. كان نوري، ليس بعيدا عنه، يسدد اليه نظرات اتهام وهو يقول بصوت عال:

ـ يجب تشريع قانون في كل دول العالم، يعدموا فيه ليس القاتل بل واصدقاء القاتل.

انتشر الخبر بين الناس، رغم ان الشرطة كانت لا تريد للخبر الانتشار حتى يمكن الامساك بالقاتل. حين استدعو فرمان الى مركز الشرطة، في صباح اليوم التالي، وسالوه عن ابن عمها محمود، وحتى يخلص نفسه من قضية تهريبه الى السويد. اجاب عن كل اسئلتهم. واخبرهم بكل ما يعرف عن محمود. حكى لهم عن استفسارات محمود الدائمة حول اسلوب حياة ناوات، وعن طلبه رقم هاتف ناوات، عنوان سكنها، وعملها. واسئلته الكثيرة عن اصدقائها. سأله المحقق:

ـ وما هي درجة علاقتك بمحمود؟

حار اولا كيف يجيب، لكنه وجد حجة فورا:

ـ كان محمود يعرف علاقتي الجيدة بالمغدور بها ناوات، وكان لديه فكرة الزواج منها، وانا شجعته، فاتصل بي لهذا السبب.

ولكن المحقق كان مباشرا في فضح مصادر معلوماته، فمن غير شاخوان وزوجته يمكنه تقديم للمحقق معلومات جعلته يسأل:

ـ كيف يكلفك ابن عمها بالتوسط للزواج منها، ولدي معلومات تقول ان كل الناس تعرف ان ناوات كانت تكرهك ولا يعجبها رؤيتك ولقائك؟

فصاح بغضب:

ـ هذا حسد يا حضرة الضابط.

سأله الضابط عن مكان تواجده ساعة ارتكاب الجريمة. ولاول مرة في حياته يقدم له ابنه دلشاد خدمة كبيرة، اذ كان يومها في زيارته الى سجنه في الاحداثية، وبعد مقابلته حضر محاضرة قدمتها باحثة اجتماعية لاهل السجناء عن كيفية التعامل والحديث معهم عند زياراتهم. وتوقع سؤال المحقق عن سبب وجود ابنه في سجن الاحداثية، ولكنه لم يفعل، ففهم ان المحقق يعرف كل شئ. من كثرة الشكوك حول محمود صار الكل يتوقعون كونه هو القاتل ثارا لشرف العائلة. راح فرمان يستعرض كل ما فعله خلال زيارته لمحمود في السويد لاستيفاء بقايا ثمن رحلته الى السويد. وتذكر انهما التقطا صور معا. وبات يخشى ان الشرطة لو عثرت عليها، فلربما بسببها تنبش علاقته مع محمود، وربما محمود في التحقيق سيعترف لهم عن حقيقة علاقته به. سأله المحقق:

ـ مادمت تقول ان علاقتك طيبة مع القتيلة، كيف يمكن لك وصف سلوكها الاخلاقي وعلاقاتها الاجتماعية؟

وتلعثم فرمان. كان لا يريد التورط بموضوع جريمة قتل، فهو يعرف قبل غيره، ان ملفه عند الشرطة فيه ما يكفي. وناوات لم تكن فقط لا تحبه، بل واسمعته مرارا ردودا خشنة بحضور بعض الناس. لم يجد فرمان سوى قول الحقيقة:

ـ بنفسي لم ار شيئا ولم اطلع على شئ. كانت البنت مستورة حتى تطلقت من زوجها عثمان، فصارت لها حياة اخرى ، يعني تسافر وتذهب ولها صداقات مع فنلنديين واوربيين، وهذه الحياة لا تلائم عاداتنا وتقاليدنا، ولا تعجب الناس فظهرت عنها احاديث كثيرة تسئ لسمعتها.

حاول فرمان التحرك قليلا في سريره، لكنه خشي تحريك الاسلاك الممتدة من صدره الى الاجهزة، فحرك اصبعه بهدوء، وضغط زرا لتدخل الممرضة. كانت فتاة ناعمة الجسم، وصغيرة، وكانها لعبة. اخبرها بصوت واهن عن رغبته، فرفعت سماعة الهاتف وتكلمت مع شخص ما، ليدخل بعد لحظات ممرض وممرضة. قلبوه بهدوء الى جنبه، ثم رتبوا الاسلاك من جديد. وقالت له الممرضة:

ـ عليك ان تصبر، سنزيلها عنك بعد ساعتين.

وقرر الصبر، ولكن الى اين سيؤدي الصبر؟ وهل سيعرف النتيجة من كل ذلك؟ صبر طويلا، شقي وتعب، وجازف، وكذب، وجمع كل ما عنده، وقدم ما لا يعقله احد من هدايا ورشاوي الى المسؤولين حتى نجح واشترى قطعة الارض في مدينة السليمانية. وعقد مختلف الصفقات من اجل جمع ما يكفي من المال لبدء العمل بأنشاء حلمه. عمارة من خمس طوابق لتكون مركزا تجاريا ناشطا في االسليمانية. وفجاة يصله هاتف من كردستان:

ـ هناك اعمال حفر في قطعة الارض.

اتصل فورا بصديق له. لم يحصل على جواب. اتصل بأخوان ترزه:

ـ ساعدوني.

بعد يوم اتصلت بهم ترزه:

ـ ارجوكم.

اتصل بهم ثانية، فقالوا له بقلوب باردة:

ـ اعمال حفر بأمر من جهات عليا.

ـ كيف؟

ـ لا ندري؟

كيف يمكن ذلك وهي ارضه قانونيا؟ وكل الاوراق عنده. هذا شقاء العمر. كم دفع من رشاوي، وهدايا، حتى حصل عليها؟ ما دخل الجهات العليا بقطعة الارض؟ ايكون قد انتبهوا لاهميتها. ايكون مسؤول ما قد طمع فيها؟ حذره اخ ترزه من المغامرة، ذكره بذاك المسكين، الذي اشترى قطعة ارض، وبعد فترة طلب منه مسؤول بيعه اياها بثمن بخس والا فابواب الجحيم بانتظاره. يمكن لطلقة بليل اظلم الذهاب بحياته او بحياة احد افراد عائلته، وبسهولة يمكن لصق التهمة بمجهول. ظل فرمان ليومين، صائما عن الطعام والنوم، يدور بين الهواتف. كانت ترزه تطلق تذمرها بأستمرار:

ـ اتدري كم ستكون قيمة فواتير الهاتف؟

قررالسفر الى كردستان.هناك خطأ ما ويتطلب وجوده هناك.لا يمكن حل ذلك بالمكالمات الهاتفية. بحث عن بطاقة سفر رخيصة مناسبة. هاهي ترزه تقرر السفر معه.

ـ لماذا لا اقدم سفري معك.

وصاح بها:

ـ يمكنك السفر في الصيف كما اتفقنا، وسفري الحالي لغرض حل المشكلة، هل تعتقدين اني سافعل ما فعله غريب ابو الكاولية؟

القادمون من سوريا، اخبروه بزواج غريب من احدى قريباته، وان لديه الان مطعم هناك، وهو يفكر بالبقاء في سوريا وعدم العودة الى فنلندا. رن الهاتف في بيته. كانت ابنة غريب:

ـ عمو فرمان، ممكن تتحدث مع ماما، هي مريضة، فارجوك خفف عنها.

وكان ثمة صوتا واهنا على الهاتف. بالكاد يسمعه:

ـ اخي فرمان، اعرف انك كنت شريكا لغريب وصديقه، وكان بينك وبينه اعمال واتفاقات، هل ممكن ان تأكد لي خبر زواج غريب، هل هو حقيقة ام هو مجرد اشاعة؟

ولم يستطع قول شيئا. لماذا تجلب له علاقاته مع الناس المشاكل دائما؟ خشي موت المرأة وتحمل مسؤوليتها. غريب رجل لا يستحق الدفاع عنه من قبل احد. في الفترة الاخيرة، رفض اكثر من مرة شراكته، وكان بامكانه فعل ذلك، قال ان سيولته النقدية لا تكفي، وهاهو يفتتح مطعما في سوريا. قال لزوجة غريب:

ـ والله اختي، نحن سمعنا مثلك، ولا يوجد عندي اتصال مباشر في الفترة الاخيرة مع الاخ غريب.

وتساءل فرمان، لم لا تتصل بنفسها الى زوجها وتفهم منه الموضوع، وهي التي شكا غريب دائما من تدخلها في كل صغيرة وكبيرة في حياته؟ تبين لفرمان ان غريب يخبأ رجلا ماكرا، في رثاثة ثيابه ولحيته غير المشذبة. حقا ان الحجر الذي لا يعجبك يشج لك رأسك. بعد يومين اتصلت به ابنة غريب من جديد:

ـ عمو فرمان، ممكن تزورنا، امي تحتاج لقاءك، ارجوك.

وبسبب الفضول، كان هناك. على الكرسي في الزاوية. تحت الاضاءة الخافتة، كانت زوجة غريب تبدو وكانها شبح. قدم له القهوة اياد ابن غريب. عرفه فورا، لطالما صحب والده الى لقاءاتهما. كان غريب يقول له:

ـ ترسله معنا، حتى يراقب لقاءاتي ويخبر أمه بمن التقي.

كانت ابنة غريب تجلس ساكنة غير بعيد عن امها. الملعون دلشاد، لو لم يغدر به، ويصخم له وجهه امام الناس، كان خطب له هذه البنت الجميلة التي تبدو عاقلة ومؤدبة. وتحركت ذراع زوجة غريب بوهن:

ـ اريد منك يا اخ فرمان ان تعرف مني مباشرة بأن غريب لم يعد له مكان في بيتي. واولاده لا يريدون رؤيته، لقد غدر بنا وظلمنا كثيرا. فاذا كانت لكم اي مشكلة معه، او ديون، او التزامات، فهذا البيت ليس بيته من الان وصاعدا.

وجد فرمان ان كل ذلك لا لزوم له. كان بامكانها اخباره بهذا الامر بواسطة الهاتف، ولكن ان ترسل بطلب لقائه، وتطلب حضوره جعله يفهم انها كانت تطمع بالحصول منه على معلومات ما. بعد لقائها اخذ فكرة جيدة عن هذه المراة، قدر امكانية ان يختار الوقت المناسب ليقدم لها اقتراحا بمشروع ما لضمان مستقبل ابناءها، فربما يكون عندها مبلغ ما مخبأ للمستقبل ويمكن لها استثماره في شراكة معه.

ذهب فرمان الى المقهى المجاور لمحطة القطار، رغبة بمعرفة تطورات الامور، يعرف ان من رواد المقهى اسماء لا يحب ويرغب بلقائها، لكنه كان مضطرا للذهاب هناك. في البدء جلس منفردا، ثم سحب كرسيه ليكون قريبا الى الدائرة التي تشكلت في الممر الجانبي للمقهى الكبير. واذ وصل عباس جامعة ومعه بعض الوجوه من اصدقائه، كبرت حلقة الجالسين، وسحبوا اكثر من طاولة الى بعضها وصارت اشبه بالندوة. هناك اكثر من اثني عشر شخصا. الاصوات تتصاعد من كل جانب. اصوات غاضبة، وبعضها حزين، و نوري ربما اكثر الاصوات علوا. خبر موت ناوات يرف على كل الوجوه، حتى لمن لا يعرفها عن قرب. في غمرة اتصالاته الهاتفية مع كردستان، وتفكيره بالاستعداد للسفر الى هناك، عرف ان احد الحاضرين ممن سياتي بمصاحبة عباس جامعة، هو من القادمين من كردستان حديثا، وهو الى جانب ذلك من اهالي مدينة السليمانية. اقترب منه وتحدثا قليلا، تبين لفرمان ان الرجل مطلع على الكثير من الاشياء ويعرف اسماء وشخصيات مسؤولين وله علاقات، ويعرف التطورات في السليمانية جيدا:

ـ نعم، هناك الان اعمال بناء رسمية في هذا المكان.

ـ اعمال بناء؟ انت متاكد؟

ـ نعم، لبناء مركز شرطة جديد، وصدر قرار رسمي بتعويض اصحاب الارض، هذه المنطقة ستتحول الى...

كان العرق قد غطى وجه وصدر فرمان، وتصاعد الوخز الغريب في جنبه، ولم يشعر الا وهو يتهاوى الى الكرسي. حين افاق بعد حين، وجد حوله المرضات والطبيب الفنلندي. كان واهنا، لا يستطيع الكلام. قناع الاوكسجين على وجهه، والممرضة الضئيلة الجسم، تدور حوله تبتسم له كلما نظر باتجاهها. لم يسمحوا لاحد بالدخول اليه، حتى من افراد عائلته. وحين تكلم طلب زوجته واطفاله. قالت له الممرضة، الضئيلة الجسم:

ـ غدا كلهم سيكونون عندك.

واذ سمحوا ل ترزه بمقابلته، عرف بان عباس جامعة، هو من طلب الاسعاف وهو من رافقه الى المستشفى، وان نوري اجرى له اسعافات اولية ولم يتركه حتى وصول الاسعاف. وصمت فرمان ولم يعلق بشئ. طلب من ترزه الاتصال بمكتب السفر لتلغي البطاقة، حتى لا تضيع كل قيمتها، والاتصال بأخوانها ليجمعوا لهم معلومات اكثر. بأي قيمة سيدفعون له التعويض؟ الجهات الرسمية ستدفع له قيمة الارض حسب الثمن القديم، حسب قيمتها في اوراق البيع الاولى، وليس لها علاقة بالثمن الذي وصلت اليه خلال عمليات البيع والشراء بين السماسرة والوسطاء،

وحتى لو دفعت له الجهات المعنية التعويض المناسب فمن سيعيد له قيمة الهدايا والرشاوي الباهضة التي دفعها في كل مكان حتى لمن لا يستحقها؟ منعه الطبيب الفنلندي من الكلام الكثير، لكن هل يستطيع ان يمنعه من التفكير، الذي يتعبه اكثر. ربما لو تحدث يكون بحال احسن. اتصل به دلشاد اليوم يسأل عن صحته. اجهش في البكاء وصعب عليه الحديث، كان يود حكي اشياء كثيرة لابنه، يعاتبه على غدره به، كونه بعيدا عنه، وهو الذي كان يريده لمثل هذا اليوم، ان يكون سندا له عند مرضه، وليس مجرما خلف القضبان. اصبع الممرضة وهو يهتز امامه جعله يتمتم بكلمات قليلة ويترك السماعة لها، لتحكي لابنه تفاصيل عن حالته الصحية، وهو غارق في دموعه.

٤

اغلق فوزي خط الهاتف، والالم يعصر قلبه، لما يجري من حوله. الاحداث تتوالى مثل قذائف كاتيوشا، والمفاجات لا عد لها. شهر اذار هذا العام يحمل معه كل المفاجأت. ايكون المنجمون صادقين في القول ان هذا العام هو عام المفاجأت، والسبب لانه عام الحصان، حسب التقويم الصيني، وسيكون له طبع الحصان، في فوران الدم والسرعة والجموح؟ بدأ الامر مع خبر زواج غريب عتوي في دمشق، الذي انتشر مثل فضيحة بين اوساط العراقيين. والاكثر من ذلك اخبار ردود فعل زوجته، التي ما ان علمت بخبر زواج غريب ، حتى هاجت وكالمجنونة رمت كل ملابسه واغراضه في الشارع، واطفالها يتوسلون بها الكف عن ذلك، وارسلت الى كل اصدقائه ومعارفه تخبرهم:

ـ كل من له شأن او مشكلة مع غريب، فلا اعرفه ولا يعرفني، وحالما يصل غريب فنلندا سيكون قاضي الطلاق بيننا.

لم تمر ايام، حتى فوجئ الجميع بمقتل ناوات. كان مقتلها طعنة في القلب لكل اصدقائها ومعارفها. كان مقتلها صدمة كبيرة للجميع، وخصوصا لشاخوان وزوجته. امراة مثل نسمة الهواء، مثل الصورة الجميلة. ظل شاخوان وزوجته، ومعهم كريم يلاحقونه باقتراح الزواج منها لفترة ما. اعتذر لهم شاكرا. لم يكن يحمل اي شئ ضد ناوات. كان يراها امراة مناسبة جدا لتكوين افضل اسرة، لكنه فقط يرى نفسه غير جاهز عاطفيا لان يرتبط بعلاقة مع امرأة، اي أمراة، ومن اي جنس ولون. كان في داخله، صوت داخلي يقول بانه سيلتقي قريبا المراة التي سيريد. لقاؤه بهذه المرأة لن يكون عن طريق الاخرين، ولكن سيلتقيها بنفسه ودون تعقيدات

كبيرة. احيانا يطوف به حلم يقظة، شئ من طيف، لا يشبه تلك الاحلام التي كان يسجلها في دفتره ليراجعها ويهجس شيئا ما. كان يرى بأنه يسير الى جانب هذه المراة ويحكي لها عن المستقبل، يتمشيان ببطء عند نبع ماء، او شلال، تحت ظلال اشجار نخيل او اشجار بلوط، وسط الكثير من الناس، وضحكات الفرح من حولهما، وهناك شمس ساطعة تغمر المكان، تجعل وجهها ساطعا بهيا، وابتسامة الرضا مشرقة في وجهها ساطعة مثل الشمس ذاتها. حتى نوري دخل في دائرة الناصحين لفوزي بالزواج من ثاوات. في حفل عيد النوروز الماضي، حين وجده يراقبها وهي تدبك وسط سلسلة طويلة من الراقصين، قال له مازحا:

ـ يمكنك خلق مناضلة جيدة منها.

كاد الغضب يتطاير مع كلمات فوزي، لكنه خفف كلماته وكبح غضبه:

ـ اترانا يا نوري معقدين الى هذه الدرجة؟

وضحك نوري بصدق:

ـ لا يا اخي، لستم معقدين، ولا هم يحزنون، انتم من اعذب الناس وارقهم واثقفهم، والا لماذا تراني ملتصقا بك واصحابك، وانت الاعرف، ولكني اراكم غالبا ما تعاملون الامور بجدية وتسيرون وفق المصطلحات والنظام الداخلي و...، حتى في علاقاتكم مع النساء، وعليه اعتقدت ان عروسك اذا كانت مناضلة مثلك ربما يضمن سعادتك اكثر.

ولم يكن فوزي يحمل لثاوات سوى الاحترام والاعجاب. يعرف ان ثاوات حضرت بعض نشاطات "رابطة المراة العراقية"، لكنها حضرت كضيفة، وان نشاطها في لجنة تنظيم اماسي نسائية، يلقى التقدير عند كثير من النساء العراقيات، خصوصا وان هذه الامسيات تتناول مواضيع تخص حياة العراقيين، وكثيرا ما ترتبط بقضايا الوطن، لكنه لم يسمع عن كون ثاوات ارتبطت بالعمل الحزبي مع جهة ما، رغم محاولات البعض لضمها الى صفوفهم. لا يمكن القول ان مقتلها جريمة سياسية. قال البعض ربما يكون القاتل من افراد الجماعات الفنلندية العنصرية، ولم يستبعد احد ذلك، وقال البعض ربما يكون مجرد قاتل مريض مهووس، ولكن الجريمة لم يعد ممكنا القول انها جريمة غامضة، فحتى الانسان العادي صار يوجه اصابع الاتهام الى عائلة القتيلة، وخصوصا ابن عمها المقيم في السويد. عرف فوزي ان الشرطة الان تتعقب ابن العم وتبحث عنه. حين استدعو فوزي الى مركز الشرطة، فوجئ بوجود نوري، وكريم، واخرين. كانت الشرطة تتحرك بسرعة. فهم فوزي ان استدعاءه تم بناء على رصد البوم صور القتيلة. واذ لاحظ المحقق تكرار وجوده واخرين في الصور الحديثة لثاوات، قرر استدعاءهم. كانت الاسئلة

قصيرة، وواضحة. عن سلوك ثاوات، علاقاتها، معارفها، وعن الشكوك في من له مصلحة في قتلها؟ كان المحقق مباشرا في طرح الاسئلة:

ـ هل ترى ان هذه الجريمة يمكن ان تكون واحدة من جرائم الشرف؟

في مركز الشرطة، كان كريم حزينا جدا. اعتبر ذلك علامة شؤوم قبيل سفره الى الاردن. التقاه فوزي في صالة الانتظار قبل الدخول الى المحقق. كان كريم صامتا، لا يتحدث الا بالقليل. كانت الكاميرات المنتشرة في المكان بشكل واضح لا تشجع احد على الكلام. ومرت شرطية وابتسامة عريضة تفرش وجهها المنمش، وفجأة توقفت عند كريم. شعر كريم بالارتباك، اذ مدت يدها وصافحته بحرارة. بدا كريم مرتبكا، وهو يغالب خجله، وسمعه فوزي يقول لها:

ـ حقا ان لك ذاكرة قوية.

لم يمر الا يومان، حتى تم نقل فرمان بوند الى المستشفى بعد اصابته بذبحة صدرية مفاجئة. لم يندهش فوزي، حين عرف ان نوري انقذ حياة فرمان بوند، فلولا الاسعافات الاولية السريعة التي قام بها، قبل حضور سيارة الاسعاف لربما لم يكن فرمان بوند حيا الان. سأله شاخوان مازحا:

ـ كنت اتوقع انك في موقف كهذا ستكتم انفاسه؟

برطم نوري شفتيه وزفر:

ـ يا للانسان من شئ عجيب يا شاخوان. كل هذه الكبرياء والنفخ والغطرسة، تختفي وتتحول الى لا شئ، بمجرد وعكة بسيطة. هذا فرمان الكريه تحول الى كومة قش وضاعت كل تلك الصلافة العاهرة، ربما هذا الذي جعلني انسى كل مشاعر الكره نحوه، وجعلني اشفق عليه.

بعد حادث مرض فرمان، صار الناس يخافون القادم من الاحداث. فكل يوم ثمة مفاجأة. زار فوزي اليوم شاخوان في المطعم، حين وصل فجأة اياد ابن غريب. كان شابا هادئا. لم يسمع فوزي كل حديثه مع شاخوان، لكنه فهم ان الشاب يبحث عن عمل في ايام العطل، ويريد الاتفاق مع شاخوان بشكل مبكر. وعده شاخوان فعل ما بوسعه. ونقل الشاب وصية امه:

ـ امي ترسل لك تحياتها. لا تعرف من تعزي، ولكنها تعرف علاقة المرحومة ثاوات بكم، فهل سيقام لها عزاء؟

وقال شاخوان، ما ادخل السرور الى قلب فوزي، لانه يبدو امرا عن سابق تصميم:

ـ لا زالت جثة المرحومة في الطب العدلي، حالما يسلموها لنا، سنقوم بأجراءات الدفن، ونقيم مجلس عزاء، وسأجعل زوجتي تتصل بكم الى المنزل، وسنحتاج امك لتقف مع زوجتي لاستقبال النساء.

ولم يسأل شاخوان الشاب شيئا، لكنه بادر ليحكي لشاخوان:

ـ الاوضاع عندنا في البيت صعبة، يا عمو شاخوان، امي عصبية جدا، ومرضت وخفنا ان تموت. زواج ابي اطاح بكل قوتها. اعتبرته غدرا بها وبنا، وهي الان مصرة على الطلاق منه حالما يحضر، صارت تهذي وتصرخ بنا كل يوم، ولا تردد غير جملة: ليرجع واريه من أنا، هذه فنلندا وليس سبخة السماوة!

واذ يحاول فوزي الهروب من مصائب العراقيين في فنلندا، ويفتح التلفزيون، يجد النار تحيط بالعراق من كل جانب. دبابات وجيوش، الاعيب سياسة وسيرك تصريحات، وشعب يموت كل لحظة. حرب من الداخل وحرب من الخارج. عقود من الزمن وحرب صدام حسين تستعر ضد كل بيت عراقي. وامريكا التي كانت الصديق الوفي لصدام حسين تنقلب عليه. امريكا تريد انقاذ الشعب العراقي من ظلم صدام حسين؟! عليك الضحك ملء فمك. فتح... غمض، امريكا صارت صديق الشعوب. امريكا التي طالما غدرت بقضايا الانسان وفقا لمصالحها الستراتيجية، التي مذ كانوا صبيانا تعلموا الغناء ضدها:

امريكا يا منحوسة

هدي قمرنا العالي

وان كان ما تهدينة

اصيح عمي وخالي

ايعقل ان سياستها تصبح ذات طابع انساني؟ ايعقل ان هناك سياسة استعمارية امبريالية ذات طابع انساني؟ المحللون السياسيون يتحدثون عن توافق المصالح؟ اي مصالح؟ هذا التوافق لن يؤدي الى توفيق بل الى تلفيق. الاطاحة بنظام صدام حسين الا يمكن حدوثه بايدي العراقيين؟ يكتب له صديقه مهدي من النرويج رسالة اليكترونية، محتجا على اشتراكه في الحملة ضد الحرب:

ـ يا صديقي فوزي، انتم حين تعارضون الحرب، عمليا، حتى وان عارضتم الديكتاتور، فانكم بالحقيقة تؤيدونه، لان الاطالة ولو بيوم من حياة الظالم الغاشم، تعتبر خيانة للشعب الذي يموت كل يوم. انتم واهمون لانتظاركم معجزة ليتحرك الشعب العراقي وينتفض من جديد، أعتقد أن شعبنا العراقي يعاني من الشلل الفكري بسبب حكم الفاشية لهذه السنين الطويلة. لأن صدام حسين منعهم من التفكير. وصرت مقتنعا بهذا اكثر بعد حديث لي مع صديق طبيب. منه عرفت ان هناك مقولة في الطب disuse atrophy أي الضمور بسبب عدم الإستعمال. فكما العضلة تصاب بالضمور في حالة عدم استعمالها، وكذلك العقل ايضا. فصدام حسين منع

العراقيين من التفكير لأنه هو وحده يفكر نيابة عنهم. وهذا الشلل لم يشمل المواطن العادي فحسب بل شملت عدواه حتى بعض المثقفين والسياسيين. هل ترى هذا المد الديني بين ابناء شعبنا المسكين الذي شجع عليه صدام حسين منافسة للحكومة الاسلامية في ايران، ما هو الا هروب الى الله من الواقع المر، من جوع الحصار الاقتصادي وظلم الديكتاتور، لكنهم ينسون قوله سبحانه وتعالى في القران الكريم (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

ويهرب فوزي من الفضائيات التلفزيونية العربية، الى القنوات التلفزيونية الفنلندية، ليجد ان العراق صار عاملا مهما في الحملات الانتخابية الفنلندية. هاهي زعيمة حزب الوسط الفنلندي ، والطامحة لان تكون اول امراة تحتل منصب رئيس الوزراء في فنلندا، تتهم زعيم الحزب الاجتماعي الديمقراطي بتواطئه مع امريكا في الملف العراقي، وتوريط فنلندا بالموافقة على سياسة الحرب الأمريكية، بشكل مخالف لسياسة فنلندا الخارجية السلمية، وموقفها الذي يجب ان ينسجم مع سياسات الاتحاد الأوربي، والداعي إلى حل الأزمة العراقية من خلال الأمم المتحدة وبالطرق السلمية. عناوين الصحف تلتهب نارا عن وثيقة رسمية سرية تسربت حول اجتماع رئيس الوزراء الفنلندي، زعيم الحزب الاجتماعي الديمقراطي، مع الرئيس الأمريكي الذي كان يعقد لقاءات واجتماعات مع قادة العديد من الدول الأوربية في سعي من الولايات المتحدة الأمريكية لكسب اكبر عدد ممكن من الحلفاء لحربه المنتظرة ضد العراق، وذكرت الصحف وطبقا للوثيقة السرية، ان الرئيس الأمريكي مدح فنلندا كشريك جيد للولايات المتحدة في مواقفه من الحرب ضد العراق. هاهو اسم العراق سيلعب دورا حاسما في الانتخابات البرلمانية الفنلندية التي ستكون نتائجها واضحة مساء الاحد القادم، ويبدو ان الفوز فيها سيكون حاسما لحزب الوسط. وحالما ستعلن نتائج الانتخابات، واذ يرفع قادة حزب الوسط الفنلندي نخب انتصارهم ومجيئهم برئيسة حزبهم لكرسي رئاسة الوزراء، سيكون عندها كريم في عمان مع ابنته وامها. يا له من لقاء مؤثر. يمكن عندها لكريم القول عنه للاخرين وبكل بساطة انه "لقاء تاريخي". كم حاول كريم اخراج ابنته وامها من العراق قبل هذا الحين، وكم باءت محاولاته بالفشل؟ يالفرحتك يا كريم اذ تكون ابنتك التي تركتها جنينا تجلس الى جانبك وتحدثك. حان الوقت لك يا كريم مطرود اعادة ترتيب بيت عواطفك، مثلما يعتبرني نوري صلعت رؤوسهم وانا اطالب باعادة ترتيب بيت القوى السياسية العراقية العاملة في فنلندا وتاسيس لجنة تنسيق فيما بينها. حان الوقت لك لتجد نفسك. سنين طويلة وانت تبحث عن كريم مطرود. كنت تبحث عن ابن خالتك صاحب- سراب، فتبين لك ان لا اثر له. تبين انه سراب حقا لأن الاحتمال

الاقوى هو ان النظام الديكتاتوري لم يتركه يغادر اساسا، وربما ستجد عظامه يوما في قبر في مكان ما، في المقابر السرية التي انشأها نظام صدام حسين للمناضلين والمعارضين والتي لابد ان تكشف في يوم ما. الان يا كريم وابنتك الى جانبك، وامها، وابن زوجتك السابقة، يكون لديك ما يكفي من الوقت للاستمتاع بفيض من المحبة، يسعه قلبك الكبير، ويمكن مساعدتك للعودة الى جذورك التي تبحث عنها من خلال بحثك عن صاحب. اعرف ان باولينا تنتظرك. اعرف ان هذه المرأة جوهرة صافية. سالتني الاهتمام بها في غيابك، ولم استطع سوى ان اقول لك: لا تقلق. ولكني اخفيت عنك امرا، لا يمكنني الافصاح عنه لاحد. الا وهو قرار سفري القريب الى كردستان العراق من خلال سوريا، لاكون هناك مع الكثيرين من رفاقي، جاهزين لدخول بغداد حالما تبدا الحرب، لانها لو بدأت، ومهما طالت، ستكون حافلة بأحتمالات عديدة، وعلينا ان نكون جاهزين للمتغيرات. ومن يدر ربما نلتقي هناك، لو زال عرش الطاغية، تحت سمائنا الاولى بعيدا عن كل وجع المنافى. وسوف لن ننس ابدا هذه المدن، التي ضمتنا وصارت لنا وطنا اخر، ولا الناس الذين صاروا لنا اهلا. اما باولينا، القوية والحكيمة، وكما تقول انت، فانها من بنات الكاليفالا، وليس امراة عادية، وستعود لها، مهما طالت سفرتك، لتجد انها وفية للمحبة ولدفء الايام.

٥

في غرفته الخاصة، في الطابق الثاني، من المبنى الرمادي، امام ضابط التحقيق البو فيلكمان ، على الجدار المقابل لمكتبه علقت كل المعلومات المتعلقة بمقتل الشابة العراقية الكردية. بحروف بارزة، وبلون احمر، كتبت مساعدته، وفي صدر اللوح، اسم القتيلة: ناوات خليل قادر. في الملفات امامه، تكاثرت المعلومات بشكل سريع من مختلف المصادر: من الجيران، الاصدقاء، زملاء العمل، المدرسة، حساباتها البنكية، دائرة البريد، دائر السكن، المستشفى. صور القتيلة تملأ المكان. صور اختارها بنفسه من البوماتها الشخصية، وهي في اناقة تامة، كأنها ممثلة سينما، وتبتسم للمصور بعذوبة. صور للقتيلة وهي ممددة منكفئة على نفسها، مفتوحة الفم، والدماء تحيط بها. تقرير الطبيب الشرعي، بعد التشريح اكد معلومات التحقيق الاولي. الموت جاء بسبب طعنة قوية بنصل سكين رفيعة حادة بلغت القلب فورا. استدعى الضابط البو فيلكمان كل من له صلة بها. زوجها السابق، صديقاتها، زملاءها في العمل، جيرانها، والكثير من معارفها. اعتمد اخر الصور للقتيلة مع اصحابها. اعتمد شهادات اقرب

اصدقائها عن اقرب معارفها. زار بعضهم بنفسه. زار موقع عملها. اثار انتباهه اشادت الجميع بالقتيلة واخلاقها. كل من تحدث معه عن القتيلة امتدحها. رائعة. مخلصة. مثابرة. نشطة. ذكية. مؤدبة. امينة. حسنة السلوك. امامه كانت المعلومات تصطف تؤيد كلام الجميع: لا تشرب. لا تدخن ، تمارس الرياضة في المركز الرياضي القريب. عضوة في لجنة احياء اماسي نسائية. وجه معروف في المركز الثقافي العالمي في كايسا. شاركت بنشاط في التظاهرة الاخيرة ضد الحرب. حسابها البنكي متوازن. لا توجد مشاكل ضريبية. لديها قرض من البنك تسدد اقساطه بانتظام. لم ترتكب سوى مخالفة واحدة في سيارتها، وحصلت في جو ممطر، ودفعت الغرامة في وقتها. عولجت من حالة كأبة وتجاوزتها. اجرت اصلاح لاسنانها الامامية في عيادة خاصة. ابدلت سيارتها مرتين. ملف الشؤون الاجتماعية حول الخلافات مع زوجها السابق مكتض بالاوراق والمعلومات وصور الاشعة وتقارير الاطباء عن عدد المرات التي ضربها بها. راجع الضابط البو فيلكمان اشرطة فيديو التحقيق مع معارفها عدة مرات. راقب المتحدثين. نساءا ورجال، كيف يحركون اصابعهم، ويغمض البعض عيونهم، حين يتحدثون عن القتيلة:

ـ كانت مثل الفراشة، من قتلها يكره الجمال.

اراد سؤال المتحدث، نوري شناوة، الذي وجد رقم هاتفه في قائمة نداءاتها الاخيرة من هاتفها الجوال:

ـ هل حضرتك تكتب الشعر؟

لكنه خبأ السؤال لمرة قادمة لم تأت. سأل الضابط البو فيلكمان نفسه:

ـ اذن لماذا قتلت ئاوات اذا كان الجميع يحبها؟

صديقتها دلسوز، تلك المرأة التي بدا انها اكثر من احب القتيلة، ولم تكف عن البكاء، كلما دار الحديث عنها، والتي تتحدث لغة فنلندية سليمة، ما ان فهمت حقيقة ما حصل، وقبل ان يغشى عليها تماما صاحت بقوة وباللغة الكردية:

ـ كوشتيان![١٠٠]

فهم ان الصدمة انستها كل كلمة فنلندية تعرفها. يذكر البو فيلكمان استاذه البروفسور في علم النفس، قدم محاضرة كاملة عن ضرورة الانتباه الى الكلمات العفوية التي ينطقها الاجنبي بلغته الأم، خصوصا في حال الصدمة لانها تكون صادرة من اللاشعور، وفيها قد يكون ثمة خيط يوصل الى احد مفاتيح التحقيق. سأل دلسوز عن معنى الكلمة التي قالتها بلغتها الام. اجابته بسرعة، وكان جوابها مطابق لما قاله المترجم المتخصص حين اسمعوه جزء من شريط

المحادثة مع دلسوز عند استدعائها، دون ان يرى صورة المتحدثة، طلبوا منه الانتباه الى الكلمة الكردية فقط. حضرت دلسوز لاول مرة مع زوجها. كانت مرتبكة جدا. لم يكن صعبا معرفة انها صديقة القتيلة المقربة. في سجلات المستشفى، كان اسم دلسوز ورقم هاتفها مثبت بخط القتيلة كاقرب شخص يتم استدعائه عند الضرورة، وعلى هذا الاساس تم الاتصال بدلسوز.
وحين سألها الضابط البو فيلكمان:

ـ من هم الذين تعتقدين انهم قتلوها؟

صرخت دلسوز بالم وبعنف:

ـ كلهم... كلهم، كل الذين كانوا يحصون عليها حركاتها وحياتها، الذين كانت ترفض قيودهم ووصايتهم عليها، ولا يريدون لها ان تكون انسانة حرة.

استدعوا زوجها السابق: عثمان رسول حسن. كان ملفه ملئ بالشبهات والمخالفات: تهرب من الضريبة، مخالفات سير، عراك مع دائرة الشؤون الاجتماعية، اعتداء متكرر على زوجته قبل طلاقها، وتعهد بعدم الاقتراب منها والحديث معها، وفي حال حدوث ذلك تكون المحاكمة والسجن. كانت دلسوز من ضمن الشهود ضد معاملته القاسية لزوجته. حين سأل دلسوز عن شكوكها بكون عثمان القاتل، ارادت ان تضحك:

ـ هذا الجبان، اذاق ناوات الويل والعذاب، لكنه جبان يا حضرة الضابط، ومحب للمال واناني، ومستعد عمل كل شئ من اجل زيادة امواله. كان يتوسل بناوات، وسطني عدة مرات، من اجل ان تعود اليه. وعدها بشراء بيت لها في فنلندا او كردستان فقط ان تعود اليه. قالت لي ناوات انه زارها في البيت واراد تقبيل قدمها فقط ان توافق بالعودة اليه، فرفضت. كانت تعرف انه جبان ونذل، ومع ذلك لا أعتقد انه يقدم على القتل، ليس لخلق انساني، بل لسبب بسيط جدا حتى لا تضيع امواله.

وانهار عثمان امام المحقق وهو يبكي معبرا عن حبه لناوات. لم يكن ممكنا لعثمان ان يكون القاتل، لانه ساعة ويوم ارتكاب الجريمة كان في المانيا. ملف الشرطة في فرانكفورت اكد ذلك، والعاهرة التي اصطحبها الى غرفة في الفندق المحلي اكدت اوصافه وتعرفت على صوره. تم استدعائه ومواجهته بتهديداته لناوات، ومضايقتها باستمرار. انهار وكاد ان يقبل يد المحقق:

ـ اقتلها، اقتل ناوات. انا الذي كنت اتمنى ان توافق على العودة الي. قدمت لها مختلف الاغراءات. نعم كنت اشعر بالغيض الشديد حين اراها تندفع اكثر في حياتها الجديدة. كانت تشعرني غصبا عني انها لم تعد لي. صارت امرأة اخرى لاتشبه التي اعرفها وتزوجتها. كنت غاضبا منها، لكن لا يمكن لي قتلها ابدا.

ولم يرفع الضابط البو فيلكمان اسم عثمان من دائرة المشتبهين، قال لمساعدته:

ـ لا يمكن ان يكون القاتل، لكن رجل مثله، يحمل غيضا كبيرا ضد القتيلة، لابد ان يكون له مصلحة ما في موتها، كيف؟ هذا واجبنا الكشف عنه. ويجب دراسة امكانية ان يكون سفره بالاساس مرتب لاثبات وجوده بعيد عن مكان ارتكاب الجريمة؟

وسالته المساعدة ليكشف لها المزيد من افكاره:

ـ ومالذي يدفعك لهذا الشك؟

ـ يميل المجرم، او الشريك في الجريمة، لتوفير ادلة براءة واضحة، والسؤال، لماذا هذه المرة يستدعي عثمان عاهرة الى الفندق من دار عاهرات تسجل اسماء زبائنها ومعلومات كاملة عنهم وتحفظها في سجلاتها، وهو الذي لم يفعلها سابقا؟ الا يريدنا ان نعرف وجوده خارج فنلندا؟

وسأل المحقق عثمان:

ـ من تعتقد من وجهة نظرك يمكن ان يكون قاتلها؟

تردد قليلا، واذ لاحظ كيف ان الضابط يتابع حركة اصابعه المضطربة، وارتجافها، قال:

ـ ومن غيره يا حضرة الضابط، اشك بذاك الشاب الفنلندي الذي قالوا انه يضايق ثاوات وكان يلاحقها.

ارسل الضابط البو فيلكمان مساعدته للقاء عجوز الطابق الاول. ذكرت لهم انها رات شاب فنلندي مرارا يحوم حول العمارة:

ـ اوصل الفتاة عدة مرات بسيارته، وصعد مرات قليلة الى شقتها لكنه لم يتأخر، ومرة كان سكرانا، اتكا عن الزاوية وتقيأ فأثار عندي الغثيان، وكان بالكاد يستند الى الجدار، لكنه ما ان صعد سرعان ما رجع، يبدو انها لم تسمح له بالدخول.

الجار التركي ايد اقوال العجوز، وان ثاوات منعت الشاب الفنلندي من دخول شقتها. سأله الضابط البو فيلكمان:

ـ وكيف عرفت انها منعته؟ هل اخبرتك بنفسها؟

تململ الرجل التركي قليلا، وبان الخوف في ارتجاف اصابعه وشفتيه. خمن الضابط ان القتيلة لم تسمح لهذا الرجل يوما في تجاوز حدوده فهاهو يخافها حتى وهي قتيلة، سأله ثانية:

ـ هل كانت لك علاقة ما معها؟

صرخ برعب:

ـ انا؟ لا ابدا... لا، انها جارتي فقط. اسأل الجيران. اسأل زوجتي. انها لا ترد على كلامي. اسال زوجتي.

و تجاوز الضابط عدة اسئلة في باله، وسأل الرجل:

ـ هل راودتها يوما عن نفسها؟

كان الرجل خائفا جدا، وغص بريقه وراح يسحب شهيقا قويا:

ـ ليس بهذا الشكل، انا لم اؤذيها يوما، صحيح انا كنت مهتم قليلا بأمرها، هي جميلة، ومطلقة ووحيدة، ويوما قابلتها في السلم، ودعوتها للقاء في مقهى، فطردتني، وهددتني باخبار زوجتي، ومن يومها صرت اخاف الحديث معها.

كان الضابط يلمس الصدق، في جواب الرجل، فسأله:

ـ وكيف عرفت انها منعت الشاب الفنلندي من الدخول؟

تنحنح الرجل، وهو يشعر بالخجل اكثر من الخوف:

ـ بصراحة، من الشرفة لمحت الشاب قادم نحو العمارة، اعرفه جيدا، لانني مرارا لاحظته يوصلها الى شقتها، لكني اعرف انه اخ صديقتها، الفضول دفعني لمعرفة ان كانت ستتركه يدخل شقتها، كنت اود معرفة هل صارت تتصرف مثل الفتيات الفنلنديات تماما وتسمح للشاب بمرافقتها ويعني...، انت تعرف ماذا يفعل الفضول حين يركب الانسان، اسرعت ووقفت خلف الباب، ومن فتحة البريد سمعتها تطرده، وخجلت من نفسي. اسأل زوجتي، لقد اخبرت زوجتي بهذه القصة.

لم يجد الضابط صعوبة في معرفة الشاب الذي دارت الاحاديث عنه. قدم الشهود اوصافه، وتعرفوا اليه في بعض الصور. في جلسة التحقيق مع اخت الشاب، عرفوا بكامل قصته مع القتيلة. في غرفة التحقيق، كان يارمو متماسكا:

ـ اشعر بالم الشديد لما حصل. هذه المرأة شئ مختلف، لا يمكن وصفه. طبخة خاصة من روح الشرق. لا تشبه امراة اخرى اعرفها. لم يكن ثمة علاقة عاطفية متبادلة بيننا. كان الامر من طرف واحد. من جانبي انا. احببتها بصدق. حاولت اقناعها، حاولت التأثير عليها، لكنها كانت تخشى الزواج من فنلندي. تخاف اهلها، لا تزال روح الشرق تسكن خلاياها. لا يمكن لاهلها ان يتصوروها بين احضان رجل اوربي حتى لو كان زوجها قانونيا. الامر يرتبط عندهم بمفاهيم بدوية قديمة للشرف.

في بدء التحقيق فحص البو فيلكمان البومات صور القتيلة. ولاحظ صورا حديثة لها. كان فيها مجموعة نساء ورجال. خلال ايام كانت على طاولته ملفات جميع الاشخاص الذي اشر عليهم. خصوصا الرجال. لم يفاجأ بوجوههم. حين زار مطعم شاخوان، زوج صديقة القتيلة،

قابل بعضهم هناك. فوزي عطية. نوري شناوة. كريم مطرود. إستدعى نوري شناوة. الرجل الذي وجدوا اسمه في قائمة اخر مكالمات القتيلة:

ـ حتى اخفف عنكم الاسئلة، والتصورات، ساحاول ان اتحدث بالتفصيل. هذه المراة قتلت مظلومة. عاشت وماتت مظلومة. كلنا ساهمنا بقتلها. وانا احمل نفسي جزء من المسؤولية المعنوية. كنت اعيش حياتي بطريقة خاصة، شعاري الثالوث الاحمر المقدس، الخمرة والطعام والمرأة. يعني مثل كاوكو ميالي، ابن لمي كما يسمى ايضا. اكيد انك تعرف هذا من خلال دراستك، حتى ان صديقا لي، مزح معي وسماني "ابن لمي". صديقي هذا عراقي واسمه كريم مطرود، قدم محاضرات عديدة عن الخطوط المشتركة بين الكاليفالا والميثولوجيا العراقية، يؤمن بحوار الحضارات والتلاقح الحضاري. المهم يا حضرة الضابط، عشت هكذا حتى تعرفت الى فتاة فنلندية بدأت تقلب لي شيئا من كياني. وخلال هذا كله، لم ينتبه احد منا، الى ثاوات التي تطلقت وعاشت لوحدها وتعاني لوحدها وتبني حياتها الجديدة وهي مليئة بالطموحات. اقترح عليّ صديقي شاخوان فكرة الزواج منها، ورتب لنا بدون ان ندري كذا مرة لقاء لاجل ننتبه لبعضنا البعض. كانت هي اجرأ مني، فدعتني الى لقاء مباشر. كان ذلك من فترة بعيدة نسبيا، وتحدثت معي بجرأة وصراحة لم اعهدها من شابة عراقية غيرها. لم تعرض علي الزواج او تطالبني به، لكنها قالت انها تفكر بالارتباط برجل لا يمنعها من الدراسة، وان يكون عونا لها للعيش في فنلندا للابد. قالت لي ان اهلها يضغطون عليها لزيارتهم الى كردستان، ولكنها ترفض. قالت لانها تعرف ان فتاة، لم تذكر لي اسمها، مقيمة في احد بلدان شمال اوربا، لا اتذكر الان ان كانت من الدانمارك او السويد او ربما في فنلندا، سافرت المسكينة لزيارة اهلها في كردستان ولكنها لم تعد ابدا. ببساطة قتلها اهلها هناك، واخفوا معالم جريمتهم، لان ابنتهم حسب اعرافهم خرجت عن التقاليد وكان لها صديق اوربي بشكل علني واشيع انها اجهضت منه، رغم عدم وجود دلائل. فهمت من ثاوات انها تسلطفني وربما تنتظر مني شيئا ما، فلم استطع ان اقدم لها شيئا في هذا الجانب. لم استطع ان اخبرها بصراحة مماثلة، بأنها جاءت متاخرة للاسف. نعم، جاءت متاخرة لان ئيفا سبقتها قليلا، لو كانت ثاوات تملك امكانية الصدمة التي ولدتها عندي ئيفا، لكان يمكن ان يكون حصل شئ اخر. في ذلك اللقاء اعربت لها عن كوني ساكون لها اخا وصديقا ومستعدا للمساعدة، وبهذا فهمت وهي الذكية ان ليس عندي فكرة لامكانية الارتباط بها. مؤخرا طلبت مني مساعدتها في شراء ستالايت، والمفروض ان استلمه الاسبوع القادم، واركبه في شرفة شقتها قبل يوم عيد النوروز. لانها تريد رؤية احتفالات

النوروز في كردستان عبر التلفزيون، ولا تريد الذهاب الى حفلات النوروز التي ستقام هذا العام في فنلندا، لانها لا تريد ان يتصورها الاخرون وكانها تعرض نفسها للزواج، هذه وجهة نظرها وهي ترى بعض الامهات، من باب المسؤولية كأم، الواحدة منهن تلبس أبنتها كل ما تملكه العائلة من قلائد وخواتم الذهب، بحيث تبدو وكأنها دكان متحرك وتعرضها كمشروع عروس غنية. مسكينة ثاوات، رغم جرأتها ولباقتها، لم ينتبه منا احد الى وحدتها، فجاء القاتل ليستغل ذلك. نحن اغبياء بشكل ما. كلنا، نعم، كلنا نحن المجموعة التي كنا نكن الاعجاب لتحولات ثاوات الايجابية، وتطورها. لاننا ببساطة لم ننتبه اليها كانسان، كامراة تحتاج الى رجل، يكون لها أخ او حبيب او زوج يسندها. المهم، ان موضوع الستالايت شاخوان يعرف بتفاصيله ويمكنكم سؤاله، وحول هذا الامر جرت بيني وبينها عدة اتصالات، ولهذا السبب وجدتم رقم هاتفي على قائمة المتصلين بها.

اكد شاخوان كلام نوري حول الستالايت، وزاد ان ساعة ويوم الجريمة كان نوري الى جانبه في المطعم، ويشرف على اعداد خلطة الكباب وقد تعطلت الماكنة فقضيا وقتا طويلا لاصلاحها معا، وعمال المطعم يمكنهم الشهادة على ذلك. لم يكن ثمة شكوك حول نوري. فلا يوجد لديه دافع لارتكاب جريمة كهذه. في مراجعة احاديث الجميع وخصوصا دلسوز عن علاقات القتيلة باهلها، عرف الضابط البو فيلكمان معلومات كثيرة عن ابن عم للقتيلة وصل السويد مؤخرا، ولا يزال في مخيم للاجئين، بعيدا عن العاصمة. روى اكثر من شخص له عن العلاقات القوية التي يرتبط ابن العم مع زوج القتيلة السابق عثمان، ومع فرمان، الذي يزدحم ملفه بالمخالفات والشبهات. شعر الضابط البو فيلكمان انه ليس من صعوبة تبدو أمامه للامساك بالخيوط لفك شبكة الاسرار حول الجريمة، المطلوب فقط جمع الدلائل الاكيدة. شجعه على ذلك وجود اتصال هاتفي مع القتيلة من رقم هاتف عمومي في ميناء ستكهولم ليلة قبل ارتكاب الجريمة. ارسل في طلب ملف ابن العم من الشرطة السويدية. وتسائل الضابط البو فيلكمان:

ـ اتكون المسكينة حقا ذهبت ضحية لجرائم الشرف؟ ايكون ابن عمها جاء خصيصا من العراق لقتلها؟ كيف وصل اليها، من ساعده لمعرفة عنوان سكنها واوقات تحركاتها؟

ارسل بطلب عاجل لصور كل المسافرين على البواخر القادمة من والى السويد لعدة ليال قبل ارتكاب الجريمة وبعدها. قدم طلبا عاجلا عبر اجهزة التنسيق الى الشرطة السويدية للبحث عن ابن العم المشتبه به ومراقبته. وطلب صور موقع الهاتف العمومي وصور الاشخاص الذين استخدموه خلال وقت الاتصال الهاتفي مع ثاوات. رسم الضابط البو فيلكمان سيناريو افتراضي

للجريمة. لو كان ابن العم هو القاتل، فيكون قبل صعود الباخرة هو من اجرى الاتصال بالقتيلة. وستكون صورة القاتل في الكشك دليل واضح عن ذلك الحدث. هل كان اتصاله ليتأكد من وجودها في هلسنكي؟ هل حاول ربطها بموعد معه مباشرة او مع شخص مفترض؟ يجب التفكير هنا بشركاء. امضى القاتل ليلته على ظهر السفينة القادمة نحو هلسنكي. سيكون في التحقيق ثمة دليل على وجوده، يمكن البحث في ارشيف صور كاميرات السفن، وصور ركاب السفينة لو كان ابن العم وصل هلسنكي صباح يوم الجريمة، لابد ان يكون مر عند العمارة حيث تسكن لرصد مداخله ومخارجه. هل صعد وتفقد السلم والابواب قبل وصولها؟ هل حصل على عنوان العمارة والشقة بشكل مسبق؟ او قبل ايام من وصوله فنلندا؟ او هناك من قاده الى المكان؟ من وفر عنوان منزل القتيلة لابن العم المشتبه به؟ من دله عليه؟ ربما يكون ابن العم عرف محل عملها بشكل مسبق، وتتبعها من هناك الى سكنها دون ان تدري. وجد الضابط البو فيلكمان أن عليه ان يحرر طلبات الحصول على صور كاميرات الكثير من المواقع المحيطة بمكان الجريمة، ويتطلب دراستها بتمعن. سيصدر امرا للمجموعة الفنية لمضاعفة الجهد، وحتى لو تطلب زيادة ساعات العمل. حين كانت الضحية في الشقة لوحدها وتاكد القاتل من ذلك، دخل العمارة وطرق بابها فاستقبلته بترحاب. لا توجد اثار سرقة. لا توجد اثار عنف. الضحية كانت تعرف القاتل، دخل بهدوء. لم يجلس. لم يشرب شايا. لم يمس شئ في الشقة. جاء لمهمة واحدة، قتل الضحية، وفعل ذلك بسرعة وبدم بارد. فاجاها بكل شئ، وقتلها بتلك الروحية الوحشية. الضحية كانت بملابس الخروج، لماذا؟ هل اتفق القاتل معها على موعد ما بشكل مسبق؟ لو كان القاتل هو ابن العم، لابد ان يكون له مساعد او معاون. لو كان القاتل ابن العم، هل عاد الى السويد في نفس يوم ارتكابه الجريمة؟ كيف له ان يثبت وجود القاتل في مسرح ارتكاب الجريمة؟ وجاءته مساعدته بحل لم يكن غائبا عن باله:

ـ درست منطقة سكن الضحية جيدا ووجدت ان هناك عدة كاميرات تحيط بالعمارة حيث تسكن القتيلة، يجب تحرير طلب بحق الاطلاع على صور كل هذه الكاميرات. هناك كاميرا في محطة البنزين القريبة، وهناك صور كاميرا البنك في الطريق الذي يقال هرب قريبا منه المشتبه الغريب، وكاميرا اخرى عند موقف الترام القريب. الكاميرات تغطي المداخل والمخارج الى العمارة حيث تقيم القتيلة. ندرس الصور، ونحقق مع كل من له معرفة بالقتيلة ونجد له وجودا في شريط الصور في الوقت القريب لارتكاب لجريمة.

٦

تسير باولينا عائدة الى بيتها على قدميها. تسحب خطاها بوهن، متعبة، كأنها امرأة عجوز. لم تشأ جلب سيارتها. كانت تريد وفي اليوم الاخير لكريم في هلسنكي، قبل سفره الى الاردن، قضاء كل الوقت معه ولا تنشغل بشئ غيره. لا تدري ماذا سيحصل في المستقبل. ربما لن تراه بعد ذلك. طلبت من كريم التجول على قدميهما. التقته قرب محطة القطار الرئيسية، عند تمثال الكيسس كيفي. وصلت مبكرة، وكانت تراقب باب بناية المحطة المقابلة لساحة الحافلات، حينما لمحته يأتي قادما من قرب الرجال حملة المصابيح. لامت نفسها، لانها نست كيف يردد بأنه دائما يدور حول بناية المحطة عامدا ليمر قربهم، ليلقي التحية:

ـ هؤلاء اصدقائي المخلصون، لا يمكن ان اكون قريبا منهم ولا اتحرك بضع خطوات زيادة لامر من جانبهم واحييهم. حين مرضت، واصابتني تلك الحالة الغريبة من الهلوسة بسبب الحمى، لم يتركوني لحظة واحدة ، كانوا الى جانبي طيلة تلك الرحلة العجيبة.

من الزقاق بمحاذاة المسرح الوطني، دخلت باولينا وكريم الى حديقة كايسانيمي، دارا حول البحيرة الصغيرة. كان الوقت لا يزال مبكرا لتشغيل النافورة. حين بلغا تمثال العاشقين الخشبي، المحفور على جذع شجرة نابتة في الارض، وكأنه يراه لاول مرة راح كريم يتفحص التمثال:

ـ من وجهة نظري ان ابداع النحات وفكرته الجريئة، تكمن ليس في نحت تمثال لفتى وفتاة عاريين في حالة عناق، ولكن في اختيار جذع شجرة لذلك، رغم موت الشجرة ويباسها، لان جذور الشجرة رغم ذلك لا تزال تمتد في الارض. الا يخطر في بالك يا باولينا ان تفاعلا كيمائيا ما قد يحصل، شئ من ضربة حظ، سميه ان شئت معجزة، وتجدين برعما سيظهر يوما من بين شفاه الفتى او من بين نهدي الفتاة؟

سارا بتمهل على طول الممرات تحت اعمدة الاشجار، التي بدأت تتململ وهي تشم رائحة الربيع قادمة. حين بلغا نهاية الشارع، عند ساحل بحيرة كايسانيمي، صارت باولينا بمواجهة منظر الجسر الطويل، باقواسه الثلاثة، وحجارته القرميدية. استعادت باولينا تلك الليلة الصيفية، التي صارت بعيدة جدا... جدا. في اولى شهور معرفتها بكريم، وكان لا يزال يتعثر بلغته الفنلندية، دارت معه يومها ربما نصف هلسنكي القديمة مشيا على الاقدام. كانت تعتقد انهما استهلكا كل الحكايات. لم يتركا شيئا لم يتحدثا عنه. تنقلا من لغة الى اخرى. دارا ما بين الانكليزية والفنلندية. كان كريم يجد نفسه اكثر في اللغة الانكليزية. عند الجسر الطويل،

توقفا في منتصفه، رغب كريم بالقاء نظرة قريبة الى صفحة البحيرة وما حواليها. الشوارع القريبة خالية الا من سيارة شرطة تقف مطفاة الانوار في الفرع المؤدي الى جسر المافيا، حسب قاموس نوري. اسندت باولينا راسها الى كتف كريم، تنظر الى المياه الساكنة، والبط السابح تحت الضياء الساطع لليالي البيضاء، كانت تسمع دقات قلب كريم، وتشعر بصدق ما قاله لها حين سألته:

ـ اتكون دقات قلب الانسان الاوربي تختلف عن دقات قلب الاسيوي او عن الافريقي؟

ضحك كريم لسؤالها، لكنه سرعان ما قال لها وهو يفكر بجد:

ـ لست طبيبا، ولكن اعتقد ان اقدم موسيقى تجمع البشر وتوحدهم، هي دقات القلوب. ربما فعلا هناك تاثير للجغرافية والبيئة، اعرف مثلا ان قلوب الرياضيين اكبر حجما من غيرهم وان هناك بطأ في دقات قلوبهم، لكن بشكل عام، تبقى دقات القلوب اجمل معزوفة موسيقية ازلية يعرفها الانسان. لمزيد من المعلومات ساتصل بصديقي الطبيب زراد شت للسؤال، ما هورأيك؟

في ذلك اليوم البعيد، ايقظها كريم من ايقاع موسيقى دقات القلب بسؤال:

ـ لماذا سموه الجسر الطويل وطوله لا يتجاوز العشرين مترا؟

وجاء دورها لتضحك ايضا:

ـ يبدو انك ستنبش كل تاريخ فنلندا. ولكنك يبدو عثرت على الانسان الخطأ اذ تسألني، لست مثلك مغرمة بالتاريخ. اعرف عدة تفسيرات سببا لاطلاق الاسم، لكن يعجبني جدا ما يقال بين الناس، من ان هذا الجسر حمل الاسم بعد توسع مدينة هلسنكي مطلع القرن العشرين، وصار هذا الجسر يوصل بين منطقة هلسنكي القديمة والاحياء الجديدة. هلسنكي القديمة وبيوت الاغنياء، حيث القصور والخدم والحراس والوظائف العالية، وهلسنكي الفقراء حيث مجمعات سكن العمال والكادحين، و الفرق الطبقي بينهما كان طويل جدا فحمل الجسر معناه واسمه.

هاهي باولينا من جديد تجد نفسها تجتاز هذا الجسر لوحدها، بعد ان اجتازته اليوم مع كريم ذهابا وايابا. تشعر وكأن هذا الجسر ومثلما شهد ايامها الحلوة مع كريم، ربما سيشهد ايام عذابها. اليوم، وهما يصلان منتصف الجسر، اوقفت كريم فجأة، امسكت بذراعيه ودفنت راسها في صدره بدون مقدمات. احاطها كريم بذراعيه القويتين وهو يتفهم تماما ما يدور في بالها. اقترب شاب على دراجته الهوائية، فسحبها كريم بأتجاه الحاجز المنخفض فالتصقت به اكثر، وصار طرف عينها يرى صفحة الماء. كم من مياه مرت تحت هذا الجسر؟ هذا سؤال كريم المفضل كلما مرا فوق هذا الجسر. كم من دموع؟ وكم من امالٍ؟ وكم من حالات حب وفراق كان هذا

الجسر شاهدا عليها؟ ايقدر لها المرور وحيدة على هذا الجسر في الايام القادمة؟ اتقضى الليالي البيضاء القادمة بدون كريم؟ لم يقل لها شيئا. لم يحك عن مستقبل علاقته بها. لم يتحدث عما يدور داخل روحه. كانت تهجس افكاره. لم يتحدث بشئ لانه لا يعرف ماذا سيجري. اتصلت به ابنته ليلة امس لتخبره بأنها وصلت الى عمان، فطار فرحا لخلاص ابنته من قفص الديكتاتورية. حين نقل لها خبر خلاص ابنته كانت العبرات تخنقه. سيلتقي ابنته، بعد غياب طويل. كم تعذب هذا الرجل، وكم تعذبت عائلته. حاول بعد حرب الخليج لقاءها، لكن ما ان بدا بالتخطيط، حتى برزت مخاطر امنية كثيرة، فقررالغاء الفكرة. الان مع مخاطر غزو العراق، وجيوش الولايات الامريكية وحلفائها تحيط بالبلاد، صار خوف كريم على ابنته جديا. رتب خروجها بمساعدة فوزي. لم يستطع ان يتصرف بدون مسؤولية تجاه زوجته السابقة ام ابنته، وابنها ايضا رغم انه من رجل اخر. تفهمت باولينا موقف كريم جيدا. وبذلت جهدها في مساعدته. ماذا تنتظر من ذلك؟ لا تريد سوى حل لمشكلة انسانية، بدون مزيد من المأسي والدموع، حتى لو كان على حساب دموعها. تقدر ان كريم لا يزال يكن لزوجته الاولى حبا خالصا. حبا ربما يتجدد تحت تأثير عوامل ما، وربما يبقى مجرد حب لشئ من الماضي. سهرا البارحة حتى الصباح. ومارسا الجنس بعنفوان. ونامت طول الليل بين ذراعيه، تدفن وجهها في صدره. اليوم وعند الجسر الطويل بالذات قالت له بصراحة، ودون مواربة:

ـ تعرف يا كريم ماذا يعني لي وجودك في حياتي. احبك يا كريم، تعرف هذا جيدا. ورغم اني لم اسمع منك هذه الكلمة، لكني اعرف انك تحبني ايضا. لكن هناك شئ اخر، يجب ان يدفعنا لنكون بعيدا عن انانيتنا. صادقين مع انفسنا. انا افهم مسؤليتك تجاه ابنتك، وامها المظلومة. انا اقدر جيدا حجم عذاب زوجتك السابقة، واتضامن معها. لذا لا اطلب منك عند تحديد التزاماتك نحوي، بان تكلف نفسك اكثر مما تستطيع. انصحك كانسانة منح نفسك فرصة مع محاسن. حاول ايجاد الجواب بنفسك. هل محاسن هي حقا حبك الخالد، الذي يمكنه التجدد، او هي مجرد حب صار في الماضي؟ لا تتحرك بتأثير عاطفة آنية، فكر بالمستقبل. حاول تلمس كم وكيف تغيرت زوجتك السابقة. كيف صارت الان، وكيف انت الان؟ حذرتك سابقا من الاحتفاظ لها بنفس الصورة التي تركتها بها، لان ذلك سيسبب لك صدمة عند لقائك معها. وانصحك وضع هذا في بالك من هذه اللحظة. انت انسان واع، ومثقف. كلاكما تغير يا كريم، في الشكل، وفي الافكار. حاول هضمها وتقبلها بصورتها الجديدة. مثلا ستجد ان الجمال الاول ولى، وان ثمة تجاعيد في الوجه، ولحم مترهل عند الخصر لا يمكن اخفاءه بالمشدات. لاتنس

عذاب السنين والاجهاد والتوتر. دع كل هذا في بالك حين تلقاها، ولا تندفع نحوها، حتى لا تجعل عاطفتك تتحكم بك.

تحسد باولينا نفسها، على ما قامت به. ولم تكن تتوقع ان تكون زوجة اخيها تيمو بهذه الشفافية. طول هذه الايام وهي على اتصال بها. سرقت الوقت من مشاغلها وعائلتها وجاءت لزيارتها. بأستمرار على الهاتف معها. لم تجد باولينا سبب لتحجب عنها افكارها. من يوم مبادرتها وقدمت قرضا لمساعدة كريم، فهمت باولينا ان خلف فظاظة هذه المرأة، واسلوبها الخشن، المتسلط، يختفي انسان اخر. في زيارتها الاخيرة تماسكت امامها، وتركتها حتى انصرفت، وبقت لوحدها، وأنخرطت في بكاء مر. لم تكن تريد البكاء، لكنه داهمها غصبا عنها. حين جاء كريم بعد ساعات ليقضي ليلته الاخيرة معها. وحدق في عينيها، عرف انها بكت كثيرا. لم تخجل من بكائها. كريم ذاته انهد باكيا ساعة شعوره بالعجز في الحصول على اي خبر عن ابن خالته. كانت تلمس كيف يسبب غياب واختفاء اثار ابن خالته اختلالا عنده. صارت عملية البحث عند كريم عن قريبه، معادلا للبحث عن نفسه. كثيرا ما تصيب باولينا الحيرة امام صمت كريم، تشعر به يندب حظه عند كل مناسبه:

"لقد كنت انا مذكورا
ذائع الصيت في زمني
مطربا في الامسية
مغنيا في كل واد
في وعور فاينولا
في مروج كاليفالا
ولكنني اكاد الان لا اعرفني
لا اعرف نفسي"

هذا جعلها تخاف جدا. فانشداد كريم بهذه القوة، الى ابن خالته، الى الماضي، يجعلها تفكر بمكانة محاسن عند كريم، وكيف يمكن ان تستيقظ كل العاطفة المطمورة تحت رماد سنين البعد. من ايام بعيدة، راحت تهيىء نفسها لفقد كريم في يوم ما. كانت سنيكا توصفها بالمجنونة، وهي تراها تتعلق يوما بعد اخر، برجل التاريخ كما تسمي كريم. التقت سنيكا مرارا بكريم، وشعرت فورا بنفور كريم من سنيكا. قالت لها سنيكا مباشرة:

ـ صاحبك لا يرتاح لوجودي يا با[١٠١]

وكان كريم اكثر صراحة:

ـ لا اجد تناسب بين شخصيتك وشخصيتها يا باولينا، اجدها امراة هوائية، مزاجية، وانت اكثر صلابة، فما الذي يجمعك بها.

حكت لكريم، كيف انها وسنيكا في صباهما لشدة تعلقهما ببعضهما البعض، وعدم افتراقهما، حتى بعض المقربين ظنوا بأنهما سحاقيتان بعلاقة خاصة. وصارت لديهما نكتة خاصة بهما، تلهوان بها حينما يتطلب الامر. كلما صادفهما رجال ثقيلو الظل، وحاولوا فرض انفسهم، والحوا في مصاحبتهما، كانا يوحيان لهم بشكل ما بانهما سحاقيتان. وظلت سنيكا صديقتها الاقرب، وصندوق اسرارها، رغم ان الكثيرين يعيبون عليها عدم استقرارها مع عشيق واحد في ظل زوج، صار لا يقول لها حتى صباح الخير الا بحضور الاخرين. اتصلت باولينا بسنيكا، لتكون الى جانبها، ولتخبرها بما تشعر به. فاجأها لوم سنيكا بتساهلها مع سفر كريم:

ـ كان عليك منعه من السفر يا با. اذا كنت تحبينه حقا، كان عليك عدم تركه يعرض نفسه لتجارب خاسرة. هذا رجل يعيش مع التاريخ، مع القصص، مع الاوهام، لا علاقة له بالواقع، فلو اتفقت معك حول موضوع ابنته وما يسميه المسؤولية، فان امر زوجته السابقة بالنسبة له مجرد قصة. قصة جميلة من الماضي. ويعني انه حتى لو عاد اليها وعاشا معا، فانه سوف يفترق عنها، حتى لو بعد سنة. ولكن بعد ان يكسر لك قلبك، وبعد ان يكون قلبه قد تحول الى شظايا، فلا يعد فيه اي نفع لا لك ولا لغيرك. عليك ان لا تتركي رجلا مثله، يضيع في اوهام كتب واحلام رومانسية، وان تضيعي نفسك معه.

ولم تفعل باولينا الا ما راته ينسجم مع حبها لرجل منحها الدفء والصدق. رفض كريم قدومها لوداعه الى المطار، لكنها اقنعته بضرورة حضورها، ووعدته بأنه لن تكون هناك اي دموع. وافقته على قضاء ليلته الاخيرة لوحده في شقته. يجمع اشياءه ويرتبها، دون ان يعكر افكاره وجود احد. ترى حجم ارتباكه وحزنه. خصوصا بعد مقتل تلك الفتاة التي كان معجبا بشخصيتها، وقابلتها عدة مرات. لم تتحدثا كثيرا لكن انتبهت الى كبريائها ونظرة الاعتداد عند حديثها مع الاخرين. لم تتحدث الصحف عن الجريمة، صمتت جميعها وكأن هناك قرار من الشرطة بذلك لاسباب ما. كان بودها ان تعرف تطورات البحث عن القاتل. كريم يعتقد ان لاهلها علاقة بالجريمة، وان زوجها ربما يكون ضالع في الجريمة:

ـ حتى وان كان زوجها غير مؤهل لارتكاب الجريمة بنفسه، وليس من هذا الصنف من الازواج الفاشلين، فلابد ان يكون ساهم في جريمة قتلها. هذا انسان الحقد يقطر من بين اصابعه.

غياب كريم، سيبعدها قليلا عن اجواء العراقيين، ونشاطاتهم. ورغم ان كريم اخبرها بأن فوزي وشاخوان ونوري سيتصلون بها ويزودها ببعض الاخبار والتفاصيل. وهي تعرف عنوان مطعم صديقه شاخوان ورقم هاتفه وهاتف زوجته، لكن هل ستجد في نفسها الشجاعة لتبادر للاتصال باحد منهم لتسأل عن تظاهرة او نشاط او اخبار؟ الا يبدو ذلك وكأنه مقدمة للسؤال عن كريم، وبحثا عن اخباره؟ التقت باولينا مع فوزي مرارا، وزارته مع كريم الى بيته، مثلما زارها ايضا، والتقت بشاخوان وزوجته. لكن كل ذلك كان بحضور كريم، اتراها ستجرؤ يوما لزيارة زوجة شاخوان الى بيتها كما فعلت قبيل رأس السنة الماضية، وحملت للاطفال هدايا عيد الميلاد؟ هل ستجرأ للقاء فوزي في مقهى لتدردش حول الشأن العراقي؟ ربما ستتصل به هاتفيا لتعرف تطورات قضية البحث عن قاتل صديقتهم، ما دامت الصحف لم تكتب عن الجريمة!



ليلة البارحة، وطوال السهرة، كان كريم يرى الكدر في عيني باولينا الخضراوين، قدر انها بكت كثيرا قبل قدومه. البكاء يجعل عينيها تعتمان قليلا، ويضيع صفاء الاخضر فيهما كانه حقول شاسعة للفرح. يوم ذهبا معا، الى مدينة تامبرا، للمشاركة في ندوة اقيمت هناك. اجتمعوا عند محطة السلام في منطقة باسيلا، واخذتهم حافلة خصصها منظمو الندوة. كان لا يزال في مرحلة الخوف من التقدم منها خطوة اكثر. كان لا يزال يخفي اعجابه بها تحت جدار رزانته. على جانبي الطريق كانت الشمس ساطعة، تطل من خلف غيوم رمادية. وجوه الجميع حواليه مبتسمة لمشهد الشمس، تمرق الحافلة بسرعة على القرى والبيوت. تمرق البيوت مثل دمى اطفال، متشابهة وكأنها مستنسخة، بيوت خشبية، بسقوف القرميد الاحمر، الذي يبدو مضرجا بالدم تحت اشعة الشمس. وحول كل هذا تمتد الحقول. حقول الحنطة والشعير وعباد الشمس. مساحات شاسعة من الاخضر. كانت باولينا تجلس الاقرب الى النافذة. وكان كريم مبهورا بهذا الاخضر الذي يحيط بهم، وكلما تلفت اليه وتلتقي عينيه بعينيها الخضراوين كان يرى الانبهار يتحول من الطبيعة الى عينيها. انتبه الى صفاء الاخضر في عينيها. واذ لاحظ اول مرة الكدر في هذا الاخضر الجميل، يوم ان التقاها في وسط مجموعة اصدقاء، في مقهى عام. سألها:

ـ ماذا هناك؟

كانت علاقتهما لا تزال بحدود الصداقة الحميمة، لم يتقدم بعد ليكسر جدار رزانته. وانتبهت باولينا الى لهفة سؤاله:

ـ لا شئ يذكر.

لم يستطع كريم التعبير عن افكاره، لم يستطع التزحزح من تلك اللهجة الرسمية المجاملة ويقترب اكثر:

ـ اعرف ان عينيك صافيتان دائما، اليوم اراهما كدرتين.

وومض في عينيها، شئ ما، شئ رسم ابتسامة رضا على شفتيها. في داخلها كأمراة احبت انتباهته، والطريقة التي عبر عنها. اخبرته باولينا فيما بعد، بانه لم يسبق لاحد ان انتبه الى تأثير البكاء على لون عينيها. لم تسمع ذلك من احد قبله، ولا حتى من سنيكا المقربة منها. امها فقط كانت تقبل لها عينيها حين تبكي، وكانت تهمس لها:

ـ كفي بكاءا والا كدرت لون ثمار الجنة.

ولم تسأل امها يوما، ما هي ثمارالجنة؟ كانت تدرك ان امها تقصد عينيها. بعد حين صار كريم يدلعها بطريقة مشابهة:

ـ ما الذي كدر لوز الجنة؟

راحت تتساءل امامه بجد:

ـ هل اللوز من ثمار الجنة؟

يشعر كريم بقلبه يحترق حين لا يعثر على اجوبة الاسئلة المرة التي تعذبه. ما الذي يستطيع كريم فعله ليوقف عيون باولينا عن البكاء؟ هل استطاع ان يوقف عيون محاسن حين تركها وحدها لرحمة اخيها المجرم حسن؟ وهل يعرف كم ذرفت رحيل من دموع وهي في انتظار اب لم تلتق به؟ كم من دموع تسفح وتكدر لون الصفاء في هذا العالم؟ واذا اشتعلت الحرب، وغزت الولايات المتحدة العراق لتنفيذ سياساتها الامبريالية، كم من دموع ستسفح؟ سيصفي الامريكان حسابهم مع خنزيرهم، كما يسمون الديكتاتور صدام حسين في اعترافات مسؤوليهم، الخنزير الذي طال امد حكمه وظلمه كل هذه السنين لشعبه بسبب من دعمهم العلني والسري. لو بدات الحرب ومع دوي القنابل والرصاص، اي صفاء سيبقى للناس غير لون الاكفان؟ سيجد صدام له مهربا، وربما دولة يلجأ اليها، وحتى لو قتل، فالتيارات الاسلامية السلفية والقومية الشوفينية ستحوله الى بطل قومي. اما ابناء العراق، فليس لهم الا الدموع والاكفان. البارحة حين رن الهاتف، اول المساء، وكان يجلس الى شاشة التلفزيون، والى جانبه فوزي، يتناولان قهوتهما، ويتابعان اخر التطورات وتهديدات الرئيس الامريكي بشن الحرب. كانت الاخبار تتحدث عن لجنة وزارية عربية تحمل عرضا للديكتاتور صدام حسين للاستقالة، مدعومة برغبة

من فرنسا وروسيا، وعن لقاء سري مع رجال سياسة روس يحملون نفس العرض، وكان المذيع يستعرض حديث نشرته صحيفة روسية لوزير اعلام النظام الديكتاتوري، محمد سعيد الصحاف، وهو يرفض بعنجهية كل ما تقوله وسائل الاعلام:

ـ... وقال الوزير الصحاف: انه مستبعد كليا، وانها شائعات مغرضة وسخيفة. لا توجد لدى اي مسؤول عراقي النية في مغادرة بغداد ولا يمكن لرجل يحترم نفسه ان يعرض الاستقالة على رئيسنا.

حين رن الهاتف. رفعه كريم، وقلبه يدق. كان طيلة النهار في انتظار المكالمة، ويعيش على نار القلق. وكان ينهي مكالماته بسرعة مع اي كان ليكون هاتفه حرا، جاهزا لاستقبال مكالمة الاردن، "مكالمة العمر" كما سماها نوري. خفض صوت التلفزيون، وتهدج صوته، وهو يسأل عن المتكلم، وسمع اجمل صوت، يمكن ان يحمله له الهاتف. صوت ابنته رحيل، لتقول له ببساطة:

ـ انا رحيل يا بابا، نحن الان في عمان، انا وامي وطارق، كل شئ تمام، نحن بانتظارك.

ومثلما نهض تموز من الموت، ومثلما نهض اوزوريوس بعد ان نفخت ايزيس في روحه، ومثلما نهض الازلي الثابت فاينامو موينن من ديار الموتى، ومثلما نهض كاوكو ميالي الداعر، بعد سقوطه قتيلا وقطعت جثته اربا، ووزعت في مكانات شتى، ولكن امه المحبة جمعت قطع جثته ولحمتها من جديد واعادت الروح الى ابنها بفضل العسل السماوي، شعر كريم بنفسه وكانه يخلق من جديد. كانت مكالمة رحيل، بكلماتها القليلة، وصوتها الذي تخنقه العبرات، عسلا سماويا، نفخ في روح كريم الحياة، وبعثه حيا من جديد كآله القمح. كان يود القفز، ويصرخ بان الحياة ستستمر بخصوبتها وجمالها، ولا وجود للموت في قاموس من يملك الامل، لكنه انهد على اقرب اريكه وانخرط في بكاء مر مفاجئ. اطفا فوزي التلفزيون، واقترب منه. لف ذراعيه القويين حول كتفه، وقال بصوت بالغ التأثر:

ـ ما هذا يا بطل؟ ايعقل هذا من كريم مطرود؟ حفيد كلكاميش يبكي؟ في مثل هذا اليوم، ومع هكذا اخبار طيبة يجب ان يكون عيدا. اتدري يا بطل، لقد افلتّ مني، لولا معرفتي بانك بعد ساعة على موعد مع باولينا، لما تركتك اليوم اذا لم تأخذني الى المكان الذي اختاره بنفسي لنحتفل معا. كنت سأختار اكبر مطعم ومشرب، وافتح زجاجة شمبانيا في صحة ابنتك رحيل وامها. عيب يا بطل. عيب.

ولم يكن كريم يشعر بالخجل من بكاءه. في داخل كريم شئ اكبر من العيب واكبر من كبرياء الرجال الفارغة تدعوه للبكاء والنحيب. هاهي ابنته رحيل، تحمل اسما يشير الى رحيله وتركه

محاسن والجنين للمجهول. لم تختار محاسن اسم ابنتها عبثا، اختارته ليكون وشما بارز دائما في جلد حياته، ليذكره كل حين بذنبه تجاه محاسن وطفلتها. حين التقى باولينا البارحة، وكانت قد اعدت مائدة شهية، وجد نفسه يعاف الاكل. الحزن يتلبس روحه بشكل واضح، وكدر عيون باولينا يعذبه، يرميه في بحر الحيرة، فيجد نفسه ثقيلا بالهموم، وينزل نحو الاعماق، ويكاد يختنق. طوال اليوم، وهو يتسكع مع باولينا في هلسنكي القديمة، حيث اخذته عند المكانات التي يحبها، كان يحاول البحث لبعض الاسئلة عن اجوبة محددة. كانت باولينا تسمو عنده كل مرة. لاجل ان تقضي نهارها معه اخذت اجازة بدون راتب. ورغم ان ذلك قد يعرضها لمشاكل ما مع مسؤولتها في العمل، التي لا تكف عن اظهار غيرتها من باولينا، التي تجيد كسب قلوب الناس، الا ان كريم كان مسرورا لانه سيقضي وقتا طيبا مع باولينا، اذ سيفترق عنها فترة ثلاث شهور، لا يدري كيف ستسير الامور فيها. وعدها بان يهاتفها عند الضرورة، ويستخدم الانترنيت في غالب الاحيان. لا يحمل كريم معه حلا جاهزا ماذا سيفعل مع ابنته وامها واخيها. جاءته عشرات الاقتراحات. باولينا من جانبها تشجعه على بذل جهد لايصالهم الى فنلندا بصورة ما، ولا يعرف تحديدا الطريق لذلك. فكر بكل الاحتمالات حتى بطلب المساعدة الفنية من فرمان بوند، الذي قال شاخوان انه هذه الايام في وعكة صحية مفاجئة. عند الجسر الطويل، تكدرت عيون باولينا، رغم انها كانت تحاول ضبط نفسها. وراحت هذه المرأة تثبت له من جديد اي روح خلاقة تملكها:

ـ دع عقلك يا كريم هو من يحكمك. بالنسبة لي، ساظل انتظرك، لان سعادتي في ان اكون الى جانبك وان تكون لنا حياتنا وعائلتنا المشتركة. ولكني من لحظة طيرانك من ارض هلسنكي لا احملك اي التزام نحوي سوى الصداقة والمحبة. قرر ما تراه مهما لابنتك وامها، ولنفسك اساسا، فسعادتي في سعادتك، ولكن مهما كان قرارك دعني اعرفه، بأسرع ما يمكن.

من الايام الاولى له، في علاقته مع باولينا، كان يلمس عند هذه المرأة، هذه الروح الحية للايثار. لم يلمس عندها تلك الروح الانانية، التي تدفع الانسان احيانا الى عدم الاكتراث بالاخرين. ايام من بعد حادث المطعم الصيني بايام غضب كريم من نوري، قال له امام فوزي، محتدا:

ـ مشكلتك يا نوري انك انسان اناني.

غضب يومها نوري، ولم يوافقه فوزي على حدته المفاجئة. وكان لكريم راي اخر:

ـ اعرف يا فوزي انك لا تدافع عن سلوك نوري، واعرف ان من حقك، ان تلومني لحدتي معه، لكن لن ينقذ نوري من عبثه، ولا اباليته، الا اذا خرج من دائرة الانانية، وشعر بان ثمة

مسؤولية على عاتقه تجاه الاخرين، وليس فقط الانشغال بالحياة السهلة، حياة العلاقات العابرة التي يعيشها مع نساء لاهيات، الرب يعلم من اين يتساقطن عليه، وكل هذا يجعل الناس يبتعدون عنه، لانه لا يرى سوى منافعه الانانية الذاتية وغرائزه الجنسية، والاخرون عنده ليذهبوا الى الجحيم ان شاؤوا.

وكان الشعور بالمسؤولية عند باولينا، ومن اول الايام لمعرفة كريم بها، يحركها تجاه الناس والاخرين. حين صارت درجة علاقتهما، حميمة بشكل كبير، لم تشا ان تطلب منه يوما، ما يمكن ان يحمله اكبر من طاقته. وتفاجئه دائما بمواقف مشرفة. اجبرته يوما، ان يسهر الليل يتحدث لها، عن محاسن وعلاقتها بها. وحين جلب صورمحاسن الجديدة من ام عامر، ورأت محاسن بالحجاب، تسدد نظرات حزينة للعدسة، زفرت باولينا بقوة:

ـ هذه امراة بطلة يا كريم، ان تواجه امراة كل هذه المشاكل وتصمد، وتكون مسؤولة عن ابنة من زوج تركها وحدها، هذه بطولة بدون نقاش.

حاول اقناع باولينا بعدم المجئ لوداعه في المطار، لكنها اصرت. ولم تقبل باقتراحه لمرافقته والمبيت عنده ليلة قبل السفر. كانت تريده ان يختلي بنفسه. هؤلاء الفنلنديون، احفاد الدببة، ظاهريا لا يبدو عليهم، امتلاكهم هذه الروح الشفافة. حين دعاهم فوزي لسهرة احتفالا بقرب لقائه بابنته، بعد اول كأس قال لهم بيكا بصخب وهو في حال مرح:

ـ اليوم سمحت لي كريستينيا بكسر كل التوصيات، وبالمناسبة هي تعتذر بسبب توعكها عن المجئ للمشاركة فرحتنا بقرب سفر كريم لكن ارسلت بطاقة تهنئة سلمتها لكريم حالما وصلت، وعندي الاذن لقضاء هذه الليلة في شقة فوزي، ان تطلب "الامر"، وعليه من الان اطالب فوزي بان يدلني على مكان نومي، لاني قررت البحث عن هذا "الامر" وتحقيقه.

وكانه يريد حقا ان يتجاوز الخط الاحمر المسموح له عادة بالشراب، كان بيكا يشرب كأسه حتى الثمالة، وبسرعة:

ـ مثل الروس أحبة فوزي... Davay Davay(١٠٢)

وضحك فوزي، اذ لمح بيكا يرمقه بنظرة خاصة، فنتاليا، هي التي علمت بيكا هذه الكلمة، وصارت لازمة لبيكا عند الشرب. بعد عدة كؤوس فوجئ الجميع ببيكا يغيرمكانه ليجلس الى جانب كريم. كان يبدو منتشيا:

ـ يلومني بعض اصحابي، على كوني ابالغ احيانا في صداقتي مع الاجانب. طبعا معكم. لا يهمني ذلك، لاني في صحبتكم اجد ما افتقده عند كثيرين، يا سيد فوزي عطية، اذكر

سؤالك عما تحتاجه الحضارة الاوربية وربما تجده في حضارة الشرق؟ اعتقد ان بعض ما تحتاجه الحضارة الاوربية هو ما اجده عندكم هنا، في حرارة لقاءاتكم ودفئها.

ولف بيكا ذراعه حول كتف كريم، وصاح بعربية حاول ان تكون واضحة:

- "صهة"

وصاحوا جميعا بصوت واحد:

- صحة.

رفع بيكا كأسه، الى الاعلى، وراح يتمعن في الوجوه امامه. كان بيكا ينظر لهم جميعا بتمعن واحدا بعد الاخر، ويتابع طريقة كل واحد في شرب كأسه. كان وجه بيكا قد احمر مثل حبة طماطة كبيرة. والتفت كريم لمعرفة سبب عدم تناول بيكا لكأسه، فرأى خيطا خفيفا غير منظور يسيل على خد هذا الرجل الكاليفي. احتضنه كريم بقوة، وهمس له:

- يبدو انك بدأت تتعلم منا بعض ما يكرهه الاوربيين عند الشرقيين.

كان كريم وباولينا على باب محل بيع ملابس نسائية، حين حكى كريم لباولينا موقف بيكا في تلك السهرة. لم تستغرب باولينا ابدا، ابتسمت وقالت له:

- او تظنون ايها الشرقيون اننا بدون قلوب وعاطفة، او لاننا تحت سماء القطب الشمالي، فأن كل شئ عندنا بارد، حتى عواطفنا؟

وضحك كريم، لف ذراعه في السوق حول كتفها، وكان نادرا ما يفعل ذلك. وهمس لها:

- ليس كل شئ.

وضحكت بصفاء وضربته بطرف حقيبتها على صدره. في داخل المحل فاجاته باولينا باصرارها على دفع اثمان الهدايا التي استعان بها لشرائها لمحاسن ورحيل وطارق. لم يكن في باله شئ محدد. قالت له باولينا:

- اترك رحيل وامها من مسؤوليتي، انا اعرف ما يعجب النساء. انت جد شيئا للفتى.

وبعد زيارات لاكثر من محل، وجد باولينا قد ملات له الاكياس بعطور وشامبوات وكريمات وبعض قمصان النوم. فاجأته بتقديرها للقياسات. كانت قبل يوم قد طلبت منه صورهم، وعلى اساسها قدرت الاحجام. وحار كيف سيقدم الحقيقة لرحيل ومحاسن. ايقول الحقيقة لهما، ويخبرهما عن حقيقة من ارسل الهدايا؟ هذا يعني انه سيهدم كل شئ، وستدخل علاقاته بهم في زقاق مسدود من البداية. في رسائله لابنته، في دفتر الليالي الخضراء، لم يجرؤ على ذكر كلمة واحدة عن باولينا، وكان يشعر بالالم لانه حجبها في

رسائله، حتى في المواقع التي تكون فيها باولينا كان يتحدث عنها تحت عبارة صديق. ثمة اشياء كثيرة تمنعه عن ذلك. ماذا يكتب لرحيل، ماذا يقول لها؟ كيف سيقدم الحقيقة عن باولينا، وكيف وباي صورة ستصل الى محاسن؟ فضل ان يسكت عن مصدر الهدايا، وخجل ان يلمح الى ذلك امام باولينا، رغم انه اعتاد الصدق والصراحة معها، وجد نفسه، سيبدا اول اكاذيبه مع باولينا، فشعر بأنقباض في روحه. حين حانت ساعة انصراف باولينا للحاق بموعد لها مع سنيكا، كان يفكر بموضوع الهدايا، وكانها تقرأ افكاره، وهي تنهض، وتعدل ثيابها، قالت له:

ـ اتدري يا كريم، وارجو فهمي جيدا. اعتقد لا داعي ان ابنتك وامها تعرفان من ساعدك في شراء الهدايا، لانهما سيقدران ان امراة ساهمت في اختيارها، اذا اضطررت لسبب ما قل انها زوجة شاخوان.

على باب المقهى، بجوار مدخل حديقة الاسبلاندي، وفي مواجهة تمثال اينو لينو، كانت باولينا تقف مقابله، تتهيا للانصراف وتثبت شالها في داخل ياقة معطفها. اندفع كريم نحوها بشكل مفاجئ واخذها بين ذراعيه، دفن وجهه في عنقها، ضمها اليه بقوة، وطبع على شفاهها قبلة خفيفة، وهمس:

ـ الى اللقاء، الى يوم غد في المطار.

قبل ان تنصرف، قالت له:

ـ لا تنس يا كريم، تحياتي الى اصدقائك الحجريين.

وابتسم منشرح الاسارير. حمل اكياس الهدايا، وسار على طول الشارع. عند الزاوية من مبنى مكتبة دار الكتب، دار هناك ليواصل سيره بهدوء، باتجاه بيت النقانق ليدور من حوله بأتجاه محطة القطار. بامعان ينظر الى الناس حوله، وهم يتحركون بحيوية في مختلف الاتجاهات. كأنه يختزن المشاهد، والصور، ووجوه الناس، وكأن غيابه عن هلسنكي سيدوم العمر كله. وجوه باسمة، منشرحة. واخرى واجمة، قلقة. فتيات بعمر الورد، ونساء فاتنات. رجال جديون، واخرون بلا ملامح. في داخله، رغم مشاعر الخوف من شئ مجهول، الا انه يشعر بفرح غامر يجعله يرى الجمال في كل شئ. لقاء ابنته رحيل بعد كل هذا العذاب والرحيل. لم يصدق انها نجت من نقاط التفتيش وعيون رجالات الامن. كان وجود طارق امرا حاسما لهما كرجل "محلل" حتى يتجاوزا قوانين القرون الوسطى. يبدو ان الرشاوى فعلت فعلها. قالت له ام عامر بكل وضوح:

- رسوم استخراج الجوازات واوراق السفر الحقيقية لا تكلف شيئا، ولكن الرشاوي مكلفة جدا. دولة فاسدة من رأسها مثل السمكة الميتة. ارجوك ارسل لهم مبالغ مالية اكثرما يحتاجون لان الرشاوى وحدها من يفتح لهم الطريق. شرطي تافه يمكنه ان يخرب لهم كل شئ اذا لم يدهنوا بلعومه بشكل جيد.

صار اصدقاؤه الحجريون في مواجهته تماما. شعر بهم يبتسمون له مثل كل مرة. تلك الابتسامات التي لا يراها احد غيره. المصابيح بايديهم يراها تتوهج بالاسراروالمحبة والاحلام. احدهم يغمز له بعينه. كانه يسأل

- ما الاخبار؟

من جهة قدوم السيارات من شارع مانرهايم، يقف كريم عند اشارة عبور المشاة. الضوء احمر للمشاة. السيارات تمرق مسرعة نحو قلب المدينة. الى جانبه تقف أمراة تدفع عربة طفل. اقتربت منهم امرأة متسولة، شعثاء الشعر. طردتها المراة صاحبة العربة حالما اقتربت من عربة الطفل النائم. دارت الام لتكون حاجزا بين المتسولة وبين عربة الطفل. بصوت خفيض وجد كريم نفسه يقول لاصحابه الحجريين:

- اولا احمل لكم تحيات من سيدة نبيلة وجميلة، تعرف اسرار صداقتنا، ودعتها للتو. ثانيا يا اصحابي انا راحل صباح الغد. الى اين؟ الى ناس احبة وضروريين لي مثل الهواء. هم تاريخي وجذوري. قادمين من هناك حيث جدنا المشترك كلكاميش. لم انجح لحد الان في رحلة البحث عن سراب، واشكر لكم جهودكم في مساعدتي، ولكن رحلتي الى عمان، هذه المرة ستكون رحلة استثنائية. كيف؟ لانني هذه المرة سانجح في لقاء ابنتي. بعد حرب طرد صدام حسين من الكويت خفت عليها مغادرة العراق، رغم مغادرة كثير من الناس. كان هناك من يرصدها. الان توفرت الفرصة. صار الامر ممكنا. سالتقيها، لتعوضني عن الكثير. كنت اتمنى ان ترافقوني الرحلة ولكن وجودكم هنا ضروري لحماية هلسنكي واسرار الناس وذكرياتنا.

انتظر كريم اشارة الضوء الاخضر للمشاة، وحين اشتعل لم يعبر. ظل واقفا في مكانه. عبرت المرأة تدفع عربة طفلها. ابتعدت المتسولة تقول شيئا لا يسمعه كريم، ومرق من امامه عدة رجال مسرعين. عند حافة خطوط عبور المشاة، وقفت سيارة عبر نافذتها المفتوحة يطل وجه فتاة بأبتسامة مشرقة. ابتسمت الفتاة الجالسة الى جانب السائق، وفهمت سبب عدم تحركه. مدت يدها ورفعت صوت الراديو، وربما كان جهاز تسجيل. صبية في ريعان العمر، ليس في وجهها ما يعيب سوى انفها الافطس، وجه مستدير كأنه رغيف خبز، وشعر اسود طويل ملموم في ضفيرتين

مزينتين بالاشرطة الملونة، تمتدان على جانبـي صدر ناهد يكاد يخترق قميصها. كان جورج مايكل بصوته القوي، الرخيم، يصدح من السيارة:

عندما ذهب الفتى ذو العشرين

ليلبـي نداء وطنه للحرب مفتخرا..

لقد مات.

لم تزل الاغنية طازجة في الاسواق. جبهة معارضي الحرب في العراق تتسع في اوربا، ولكن دق طبول الحرب يزداد شدة. امامه يقف اصدقاؤه حاملو المصابيح بثبات. يسترقون النظر اليه ويبتسمون، ولاحظ ان اصابع اكفهم العملاقة تتحرك بايقاع الاغنية على المصابيح، كانت الاغنية تتواصل:

وهناك في الخندق

انتظر لساعات طويلة

وهو ممسك ببندقيته

ويدعو ألا يموت

حين اشتعل الضوء الاحمر للمشاة، وبدأ الضوء الاصفر للسيارات. رفع كريم يده بالشكر للفتاة، التي اتسعت ابتسامتها. مع الضوء الاخضر لحركة السيارات انطلقت السيارة بركابها بسرعة نحو قلب المدينة. سرعان ما اشتعل الضوء الاخضر للمشاة و عبر كريم بهدوء، وعيونه ترنو الى الاكف القوية للرجال حملة المصابيح. ايه يا اصحابي، تحياتي لكم، قريبا سأحقق واحدة من امنياتي العزيزة. سالتقي اعز الناس. سأجد نفسي. سأمنح روحي...، لم يكمل كريم جملته، انطلقت صرخة من رجل اندفع من احد ابواب بناية المحطة، متمايلا، بالكاد يتماسك ليقف على قدميه، وسرعان ما تبعه رجل وامراة. كان منظرهم مقززا، بشعورهم الطويلة، وقمصانهم القذرة، واصابعهم المدماة. يواصلون الصراخ والخلاف حول شيئا ما. فجأة تدافعوا بقوة، هربت المرأة من قربهم وبيدها زجاجة بيرة. احد الرجلين دفع الثاني للخلف، فتراجع منطويا على نفسه وليسقط ويرتطم راسه بقوة على الارض مصدرا صوتا واهة تألم قوية. وقف كريم مضطرا، مبتعدا قليلا ينظر حواليه، مفتشا عن الشرطة. لم يتمالك نفسه، صاح بالسكارى القذرين:

ـ تف عليكم وعلى من سمح لكم الاساءة الى هذا البلد الجميل بوجوهكم القذرة واوساخكم!

رأى دم الرجل المنطرح على الارض يسيح من شج في رأسه، وثلاثة من حراس المحطة بملابسهم الرصاصية يتحركون بسرعة نحو المكان، وثمة شرطي قريب يرتب حزامه، ويقول شيئا في جهاز الارسال. على مهل تجاوز كريم الرجل المنطرح الجريح، انتظر حتى خرجت من الباب المؤدي الى داخل بناية المحطة أمراة فتية تشع بالحياة كأنها فرس جامحة، وقبل ان يدلف الى صالة بناية المحطة ليسرع الى قطاره الذاهب الى كيرافا، وهو يقطب شفتيه تقززا، التفت وصاح بصوت عال:

- Perkella ... Vittu ... Satana

تمت صيف ٢٠٠٥

كيرافا ـ فنلندا

ملاحظات واسماء اعلام

٩٨ ـ المادة ٢٠٠: قانون اصدره نظام صدام حسين، يجبر فيه المواطن العراقي على اعلان البراءة من ماضيه السياسي، ويقضي باعدام من تكون له صلة بأي تَنظيم حزبي غير حزب البعث الحاكم.

٩٩ ـ هينري وادسورث لونغفيلو Henry Wadsworth Longfellow: عاش للفترة ١٨٠٧- ١٨٨٢ وهو شاعر امريكي يتقن عدة لغات، في عام ١٩٣٥ اصدر الياس لونرت الكاليفالا، وكان لونغفيلو يدرس اللغة الفنلندية في ستكهولم، فتعرف الى الكاليفالا، وتاثر بها. عام ١٩٥٥ اصدر لونغفيلو كتاب "هياواثا" (The Song of Hiawatha) وقد ذكر في مقدمته: "لقد حاولتُ أن أخدم أساطير الهنود الحمر كما خدم الشعراء الفنلنديون المجهولون ملاحمهم، وبينما كنتُ أفعل ذلك استخدمتُ نفس المادة، إلا أنني بالطبع لم أقتبس ملاحمهم".

١٠٠ ـ كوشتيان: كلمة كوردية تعني: قتلوها.

١٠١ ـ Paa كنية دلع من اسم باولينا Paaolina

١٠٢ ـ Davay كلمة روسية بمعنى "هيا" او "لننهض" ويستخدمها الروس عند الشرب.

خلال العمل في هذه الرواية وردت بعض الاقتباسات عن:

- الكاليفالا ملحمة الشعب الفنلندي. تأليف الياس لونرت. ترجمة سحبان احمد مروة. مراجعة يوسي ارو و كاي اورنبري ـ دار دانا للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان. الطبعة الاولى ١٩٩١

- ملحمة كلكاميش وقصص اخرى عن كلكاميش والطوفان. ترجمة وتقديم طه باقر. دار المدى. دمشق ٢٠٠١. طبعة خاصة.

- جلجاميش ملحمة الرافدين الخالدة. فراس السواح.الطبعة الاولى. دمشق ١٩٩٦ دار علاءالدين



الكاتب في سطور

- الاسم الكامل: يوسف علي هدّاد
- مواليد جنوب العراق في مدينة السماوة ١٩٥٦/٣/٢٠
- ظهرت كتاباته الصحفية والقصصية في العديد من الدوريات والنشريات العراقية والعربية والفنلندية.
- لأسباب سياسية اضطر لمغادرة العراق صيف ١٩٧٩
- التحق بقوات الأنصار الشيوعيين في كردستان العراق ربيع ١٩٨٢ لمقاومة النظام الديكتاتوري، حتى حملة الإبادة المسماة بـ"الأنفال" في صيف ١٩٨٨، حيث بدأت رحلته مع التشرد والمنفى.
- في رحلة البحث عن سقف آمن اعتقل في استونيا وقضى عام ١٩٩٤ في السجون الاستونية
- مقيم في فنلندا منذ مطلع ١٩٩٥
- عضو نقابة الصحفيين في كوردستان العراق
- عضو نادي القلم الفنلندي
- عضو منظمة Killa الثقافية الفنلندية

<u>للكاتب</u>

١. عراقيون ـ مجموعة قصصية (عن تجربة الانصارالشيوعيين والكفاح المسلح في كردستان العراق) إصدار رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين- الأنصار/١٩٨٥ في كوردستان العراق

٢. في انتظار يوم أخر ـ سيناريو تسجيلي (عن معاناة اللاجئين العراقيين في روسيا خلال بحثهم عن سقف آمن) السويد عام ١٩٩٣

٣. انشودة الوطن والمنفى ـ قصص (مشترك مع مجموعة من الكتاب العراقيين) عام ١٩٩٧ توزيع دار الكنوز الادبية ـ بيروت

٤. طائر الدهشة ـ قصص (عن المنفى واللجوء العراقي) دمشق ـ دار المدى ١٩٩٩.

٥. الطائر السحري ـ (مجموعة "طائر الدهشة" باللغة الفنلندية ترجمة الدكتور ماركو يونتونين) هلسنكي عن دار LIKE عام ٢٠٠٠

٦. تضاريس الأيام في دفاتر نصير ـ مذكرات ونصوص (عن تجربة الانصار الشيوعيين والكفاح المسلح في كردستان العراق) دمشق ـ دار المدى ٢٠٠٢

٧. شقائق النعمان. خواطر وشهادات (مشترك مع كتاب عراقيين عن شهداء الحزب الشيوعي العراقي في الذكرى ٧٠ لتأسيس الحزب) منشورات طريق الشعب ـ بغداد ٢٠٠٣

٨. لدي اسئلة كثيرة او اطفال الانفال. (شهادة نصير مقاتل عن احداث الانفال من زاوية ما تعرض له الاطفال الاكراد) السليمانية ـ وزارة الثقافة الكردية ٢٠٠٤

٩. تلك القرى... تلك البنادق ـ قصص (عن تجربة وحياة الانصارالشيوعيين والكفاح المسلح في كردستان العراق) اربيل ـ وزارة الثقافة في كوردستان العراق ٢٠٠٧.

١٠. رحلة السندباد ـ فلم تلفزيوني وثائقي. سيناريو واخراج ٣٠ دقيقة. (عن المنفى واللجوء العراقي) انتاج التلفزيون الفنلندي عام ٢٠٠٠

١١. عند بقايا الذاكرة. فلم تلفزيوني وثائقي. سيناريو واخراج ٣٠ دقيقة (انطباعات الكاتب عند زيارته العراق اثر سقوط نظام الديكتاتور صدام حسين، من بعد غياب ٢٧ عاما) انتاج التلفزيون الفنلندي ٢٠٠٦

١٢. للكاتب عدة كتب ادبية مخطوطة تنتظر فرصة الطبع،وعدة مشاريع أدبية قيد الانجاز.

الروائي فؤاد التكرلي

فاجأني الصديق د.غانم حمدون بأرسال مجموعتك القصصية "طائر الدهشة" ألي منذ ايام. كانت مفاجاة جميلة حقا. جذبتني اقاصيص المجموعة فقرأتها خلال يومين او ثلاثة... "ذات مساء" اقصوصة نفخر بها حقا على المستوى التقني والتعبيري . وكذا "آلو ... بغداد"

من رسالة في تأريخ ٢١ /٥/١٩٩٩

الناقد ياسين النصير

مثلما نعرفه من نتاجه، فهو ممتلئ بالصدق الفني، هذا القاص الذي ينساه المؤرشفون واحد من كتاب القصة الناضجة واللماحة والسهلة. مادتها أشخاص وحالات وفكرها ينمو في خضم غابة من الأحزان العراقية المفرحة- الحزنة على أرصفة وبارات وحانات المدن الغربية. مجموعة من القصص تدلنا على موهبة.

صحيفة ثقافة ١١ العدد ١٧١٦ عن كتاب "طائر الدهشة"

الشاعر جاسم ولائي

"طائر الدهشة" مجموعة قصصية تدخل عقل ونفس الغربة وتتلمس تفاصيلها الدقيقة باحثة محللة للوصول الى علاج ينهي حالتها، او الى مسكن يخفف من جحيم العيش في اتونها، ويمنح القدرة على احتمالها ومعايشتها.، ومد اواصر التصالح والصداقة معها، ما دامت الخيارات الاخرى ضيقة ومحدودة ان لم تكن معدومة، وما دامت الغربة مفروضة لا مناص منها.

صحيفة الزمان- الف ياء العدد ٥٢٣ تاريخ ٩-١٠ كانون الثاني ٢٠٠٠

الناقد حسين كركوش

وهكذا هي قصص المنفى التي تضمنها مجموعة "طائر الدهشة"، انها كتبت لتمنح المنفيين العراقيين امانا روحيا وتماسكا داخليا، انها قصص مضادة للخيبة.

مجلة الثقافة الجديدة العدد ٣٠٤ شباط ٢٠٠٢

الكاتب والفنان محمد سعيد الصكار

قبل اسبوعين رضخت لعملية جراحية لاوردة الصدغين، حيث كنت مهددا بالعمى الفوري، فكان من بين من عادني في المستشفى الصديق حسين كركوش، حاملا لي كتابك (تضاريس الايام)، فانكببت عليه وانجزت قراءته في الايام التالية، وبقيت اتصفحه منتعشا بهذا الادب الجميل والتوثيق البارع النادر، والمحبة الانسانية الرفيعة، والتاريخ الجيد، معتزا وفخورا بك وبالنماذج التي قدمتها بهذه الحرارة التي اعادتني الى أيام شبابي..

من رسالة في تأريخ ٦/١٠/٢٠٠٢

الناقد شاكر رزيج فرج

ويوسف ابو الفوز كقاص متمكن من أدواته، استطاع إن يشطر النص دون إن تشعر بوجود، فاصلة، أو فجوة، بين ما ابتدأه وما أراد الوصول اليه...

إن يوسف أبو الفوز كقاص مبدع، لم يستخدم سوى اللغة الشفافة، ولم يحاول الاختباء وراء أنساق متبجحة متفاخرة، بل كنت تحسه وكأنه يتحدث معك وكأنك تجلس معه في مقهى أو مسطبة في حديقة عامة، عن أمور حياتية تهمكما وأنتما تبحثان عن حل ما.

طريق الشعب البغدادية العدد ١٤٢ التاريخ ١٦ آذار ٢٠٠٨

Auther
Yousif Abu Al Fawz

Title
UNDER THE ARCTIC SKY

First Edition: 2009

الصور: بعدسة كالي كويتنين
Pic: Kalle Kuittinen


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

Yousif Abualfawz

Under The Polar Sky



دەزگای توێژینەوەو بڵاوکردنەوەی موکریانی

MUKIRYANI ESTABLISHMENT FOR RESEARCH & PUBLICATION

www.mukiryani.com

چاپخانەی رۆژهەلات/هەولێر